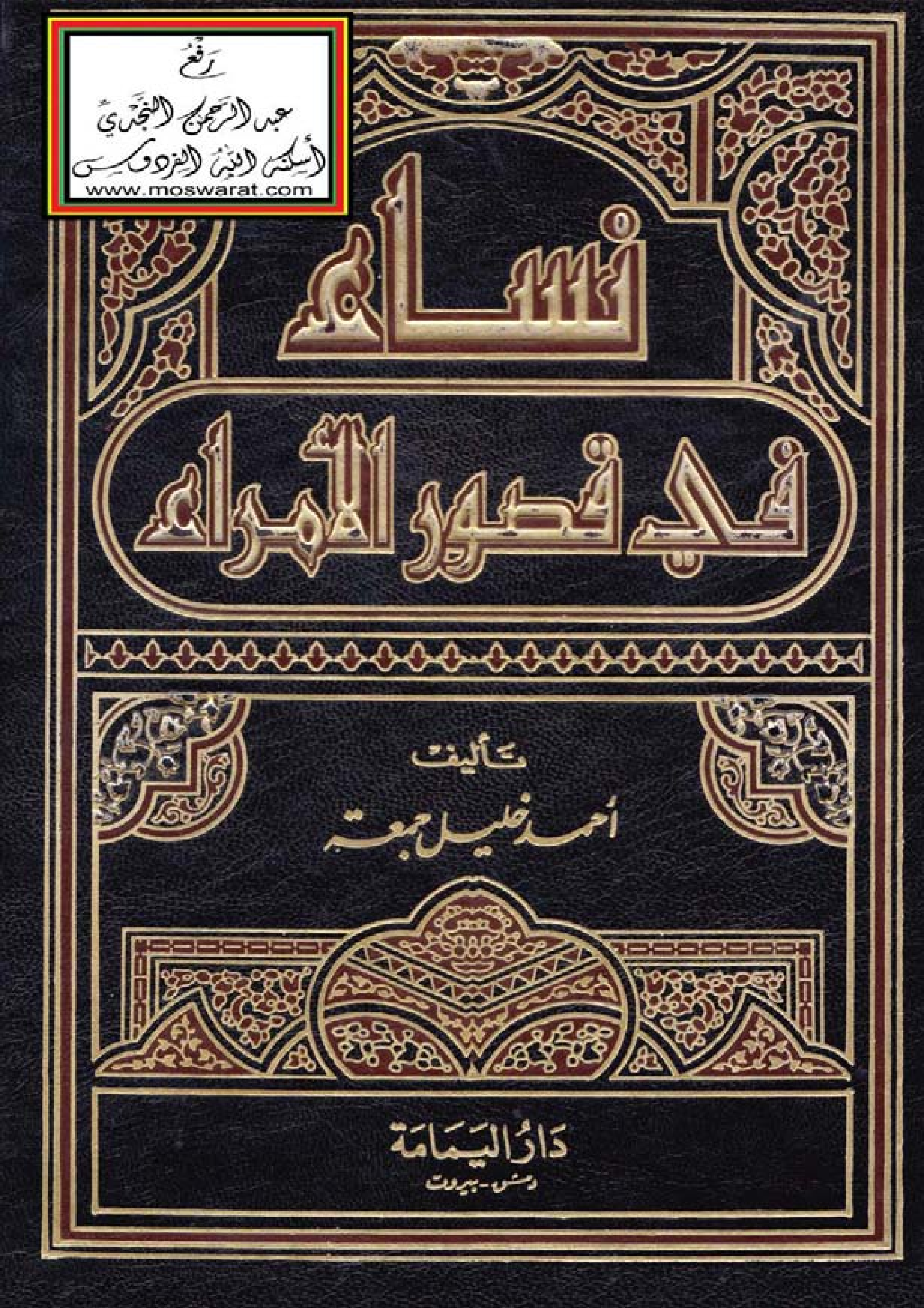
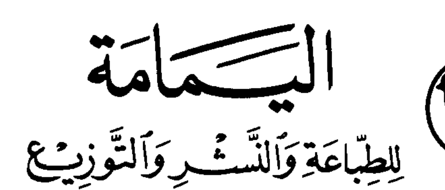

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
نساء
في قصور الأمراء
تأليف
أحمد خليل جمعة
دار اليمامة
دمشق - بيروت


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م



دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - هاتف: ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥

بيروت - برج أبو حيدر - خلف دبوس الأصلي - ص.ب ١١٣/٥٤٨٨ هاتف: ٧٠٢٩٥٩



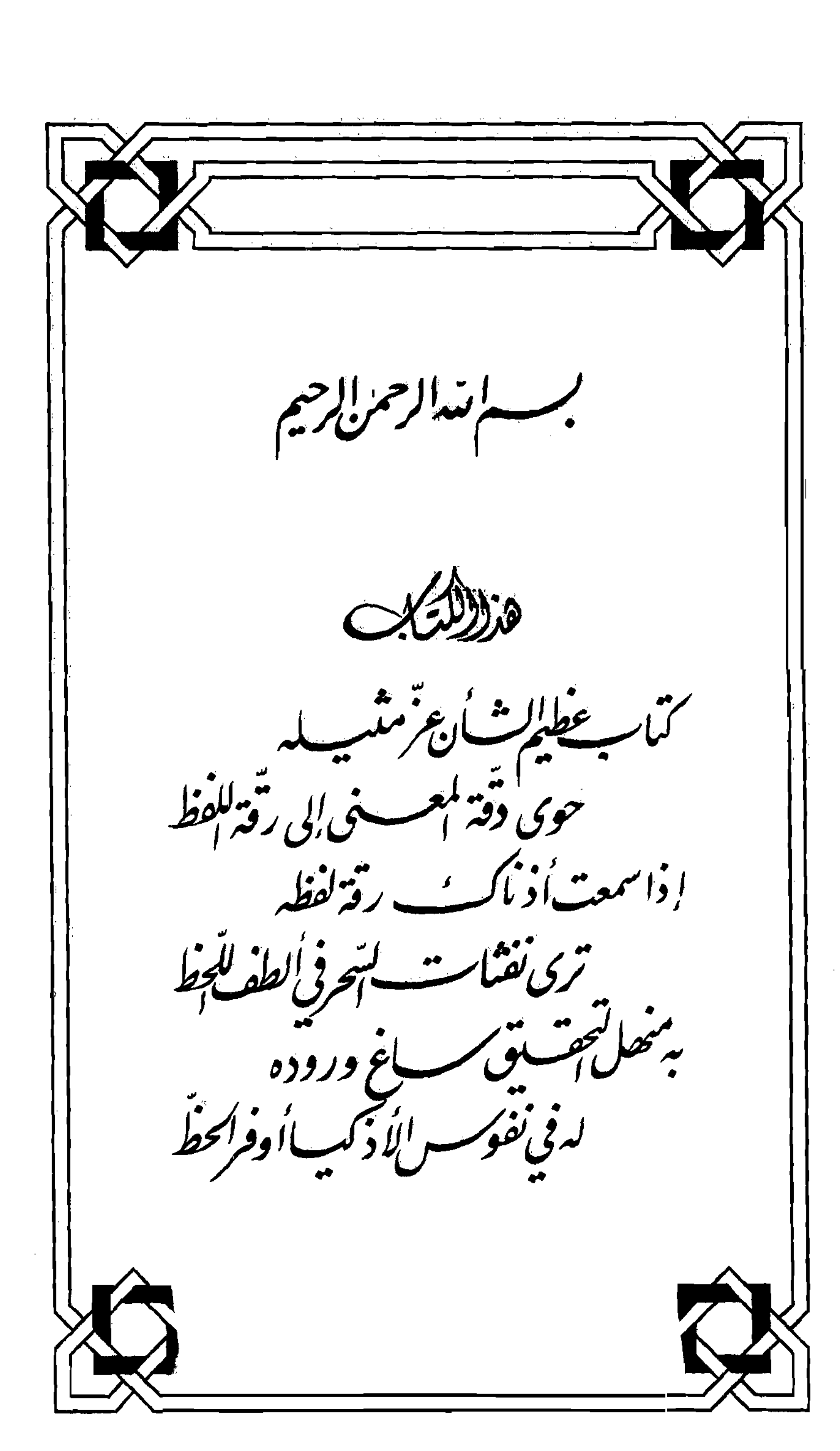


تأليف

أحمد خليل جمعة

دار اليمامة

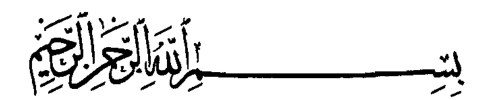
دمشق - بيروت



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

كتاب عظيم الشأن عزّ مثيله
حوى دقّة المعنى إلى رقّة اللفظ
إذا سمعت أذناك رقّة لفظه
ترى نفثات السّحر في ألطف اللّحظ
به منهل التحقيق ساغ وروده
له في نفوس الأذكيا أوفر الحظّ



وبه ثقتي

المقدمة

* الحمدُ للهِ الذي خلقَ الذَّكرَ والأُنْثىٰ ، وأحصىٰ الخلائقَ وجعلَ سعيهم شتّى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾[الليل : ٥ ـ ١٠].

* أحمدهُ حَمْدَ مَنْ بجزيلِ نِعَمهِ اعترف ، وأشكرُهُ شكْرَ مَنْ وَرَدَ مناهلَ فَضْلهِ واغترف ، وأشهدُ أنّه الإلهُ المنّان : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ١ ـ ٤].

* اللهمَّ لكَ الحمدُ على ما أفضْتَ عليَّ منْ نعمةِ الأدبِ فتأدَّبْتُ بها بين العِباد ، وعلّمتني طرفاً منَ الحكمةِ فسلكتُ بها طريقَ الرَّشاد.

* اللهمّ إنّي أسألُكَ فواتحَ رحمتك ، وأنداءَ مغفرتك ، وجميلَ عفوك ، وكريمَ فضلك ، ولطيفَ إحسانك ، فأنتَ أرحمُ الرّاحمين ، وأنتَ القائل : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦].

* والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ خَتَمْتَ صدرَهُ بنُورٍ هو الحكمة ، وصدَّرتَ خَتْمه برسالةٍ هي الرَّحمة ، مَنْ أوتيَ جوامعَ الكلم ، وأَسْمعَ بدائعَ الحِكم ، مَنْ جاءنا بأشرفِ الخِصَالِ ، القائل : «إنَّما النِّساء شقائقُ الرِّجالِ» صلى الله

عليه وسلم صلاةً دائمةً ما سبَّح نساءٌ ورجال ، بالغدو والآصال .

* وبعد :

* فإنَّ العلمَ أرفعُ المراتبِ ، وأنصعُ المناقبِ ، وأربحُ المكاسب ، ولم يزلْ في كلِّ عصْرٍ مِنْ حملتهِ بَدْرٌ طالع ، وزهرُ غصنٍ يانع ، انتضىٰ ظُبَاتِ الأقْلام ، وأفْصحَ عن عقلهِ بأجملِ الكلام ، وصاغَ بقلمهِ حَلْي الحِكَم ، وأيقظَ بتآليفهِ عقولَ ذوي الهمم ، فما أجملَ أنْ تُصَاغ الكُتُب بحقائق تنيرُ الظُّلم ! ولهذا فكتابنا :

كتــابٌ عظيــمُ الشَّــأْنِ عــزَّ مثيلُــه حوىٰ دقَّةَ المعنىٰ إلى رقّةِ اللفظِ
إذا سمِعَــتْ أذنــاك رقّــةَ لفْظِــه ترىٰ نَفَثَاتِ السِّحْرِ في ألطفِ اللحظِ
بــهِ منهــلُ التَّحقيــقِ ســاغَ ورودُه له في نُفوسِ الأذكيا أوفرُ الحظِّ
يعــزُّ علــىٰ ذوقِ الغبــيّ منالــهُ وينبو عن الجافي وعن مَسْمَعِ الفظِّ

* إنَّ مَنْ تأمَّلَ كتابنا هذا بعينِ الإنصاف والرِّضا ، شهدَ بصدقِ هذا الوصْفِ وبصحته قضىٰ ، فقد جاءَ ـ بحمدِ اللهِ ـ رائعَ التّركيب ، بديعَ التَّرتيب ، أمنيةً كانَ الخاطرُ يتمنّاها ، و﴿حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [يوسف : ٦٨] ، وهو لا يخلو منْ فائدةٍ فريدة ، وحكمةٍ مفيدةٍ رشيدة ، فقد جمعْنَا فيه سِيَرَ نساءٍ اشتهرنَ بالفضائل ، وتنزَّهْنَ عن الرَّذائل ، وحاكينَ أكابرَ البُلغَاء والشُّعراء ، وكُنَّ نجوماً زَواهِرَ في قُصور الخُلفَاء والأُمراء .

* ففي تاريخنا الوضّاء الزّاهر ، أخبارُ نساءٍ جَمعْنَ المفاخر ، فكثيرٌ منهنَّ ذاعَ صيتهنّ كسيّداتٍ فاضلات ، أو أديباتٍ أو زاهداتٍ أو عالماتٍ أو حاكماتٍ أو شاعرات ، فهناك ميسون بنت بَحْدل الكلبيّة ، التي اختارت الحياةَ البدويّة ، وفضَّلَتْ أنْ تعيشَ في خيمةٍ تعبثُ فيها الرّياح ، وعافت سَكَنَ القصورِ المحفوفةِ بالرّجال والسِّلاح .

* وهذه شجرةُ الدُّرّ ، حاكمةُ مصْرَ وهي من ربّات الحِجال ، وفاقَتْ شهرتُها في عَصْرِها كثيراً منْ مشاهيرِ الرّجال ، كانت ذات شجاعةٍ نفسيّة ،

وجرأة قلبيّة ، أنقذتْ شعبهَا بحسنِ تدبيرها ، وأبعدتِ الفرنجةَ بخبرتها وكمالِ تقديرها .

* ونقرأ في هذا الكتاب عن نساءٍ قُمْنَ بزيارةِ الخُلفاء والأمراءِ ، وتكلمنْ عندهم كلاماً يعجز عنه فحولُ البُلغاء[1] ، كما نقرأُ عن نساءٍ تُذْكَرُ أسماؤهنّ ، ويُطرىٰ جمالُهنَّ ، ولكنّنا صحّحنا بعضَ المفاهيمِ الملتوية عنهنّ ، ورسمنا الصُّورةَ الواضحةَ التي تنبْي عن أقدارهنّ ومكانتهنّ ، خصوصاً أنَّ منهنَّ عدداً ينتمي إلىٰ أرفع عائلاتِ المجتمع في صَدْرِ الإسلام ، وفي أكرمِ بلدٍ في الأرضِ هو البلدُ الحرام .

* ومن خلالِ رحلتنا معَ النّساء في قُصور الأمراء ، استوقفتنا سيرةُ العبّاسَةِ سليلةُ الخُلفاء ، فحاولنا أنْ نجلو صورتَها الصَّحيحة ، ونزيلَ عنْ سيرتها الرَّانَ والأوهامَ القبيحة ، فهي منْ سَرَوات النّساء ، ومن كرائِم شقائقِ الخُلفاء ، وأثبتْنَا بالأدلَّةِ القاطعةِ ، والأقوالِ السَّاطعة ، براءتها ممّا نُسِبَ إليها منْ قَصصِ الغَرامِ المزعوم ، مع جَعْفر البرمكيّ التي اخترعها الحُسَّادُ والخُصوم .

* وكانَ مما قدَّرَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لي أنْ أفتحَ عيني منذ طفولَتي علىٰ كُتُبِ الدِّينِ والعِلْمِ والأَدبِ والتَّاريخ والطِّبِّ والمعارفِ العامّةِ ، ورحتُ أنْهلُ منها ، وأتملّىٰ بحسْنِها ومحاسِنها ، إلىٰ أنْ اشتدَّ عُودي ، وصلبتْ قنَاتي ، وأفادتني التَّجارِبُ ، ومَضَتْ بي الأيَّامُ والأعوامُ ، فلم تَعُدْ تُرضيني بعضُ الكتاباتِ ، إذْ إنَّ في بعضِها شوائبُ يجبُ أنْ تُصفَّى ، لتكونَ سائغةً للقارئين ، وأخطاءُ يجبُ أن تمحى لتكون واضحةً للمتعلِّمين ؛ لذلك صارَ

---

(١) ذاعتْ شجاعةُ كثيرات ، ومنهنَّ الزَّرقاء بنتُ عدي الهمدانيّة التي فعلتْ ما فعلتْ يوم صفّين ، وكذلك أمّ البراء بنت صفوان ، وعِكْرشة بنتُ الأطشّ وغيرهنّ كثيرات ممن وردتْ أسماؤهنّ في هذا الكتاب ، وتروي المصادرُ أنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ قال لإحداهنّ لما وفدتْ عليه : قد أشارَ عليّ بعضُ مَنْ عرفك بقتلك ، فقالتْ له : لؤمٌ منَ المشير ، ولو أطعته لشاركْته! كما ذاعتْ شهرة نساء في العَصْرِ الجاهلي من مثل الخرنق بنت بدر ، وليلى العفيفة ، وكلتاهما من شواعر النساء .

حقّاً عليَّ واجباً أنْ أرسمَ صُوَرَ عظمائِنا ـ رجالاً ونساءً ـ واضحةَ المعَالم ، بعيدةً عن الأهواءِ والآراءِ والأخطاءِ ، وأنْ أكشفَ الأستارَ عن أولئك الأَخَابثِ الذين يريدون تلويثَ تاريخ نِسائِنا ورجالنا ، والذين تولوا كِبْرَ التَّقوُّلِ علىٰ الطَّاهراتِ والفُضليات في تاريخنا الوضَّاء الزَّاهر المُشْرق .

* ثمّ إنّي رأيتُ منَ الحقّ أنْ آخذَ بأيدي القُرّاءِ الكرامِ ـ الذين أحببتُهم وأنْصَحُ لهم ـ إلىٰ الطَّريقِ الواضح المُستقيم الذي لا عوجَ فيه ولا أَمْتاً ، كيما يصلُوا إلىٰ النَّبع الصَّافي ، وينهلوا منْ معينهِ الوافي ، دون كَدَرٍ أو وَضر ، وإنّني أسألُ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ ألاَّ نضيعَ بين الغَفْلةِ والجهلِ ، وألاّ نُؤْخَذَ علىٰ غِرّةٍ بأقاويل أكابر المرجفين ، الذين جعلُوا سلاحَهم الكلامَ المزوّقَ والمزوَّرَ علىٰ نساءِ السَّادَةِ وساداتِ النِّساء ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] ، بما وهمُوا ويوهمُون غيرهم ، وزعموا أنَّه الحقُّ وهو من اختلاقِهم واختراعِهم ، ولكنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أكرمَنا بأنْ نكشفَ عن حقيقةِ أمرِهم وآرائِهم التي لا تُغني فَتيلاً ، ولا تروي غليلاً ، وإنّما هي أباطيل وأَسْمارٌ أرادوا بها الزَّيفَ والباطل ، وحاربوا بها العقول ، وزوَّرُوا الحقائقَ ، وقديماً تنبّه أبو العَلاء المعريّ إلىٰ هذا فقال :

هلْ صَحَّ قَوْلٌ منَ الحَاكي فَنَقْبَلَهُ أَمْ كُلُّ ذَاكَ أَباطِيلٌ وأَسْمَارُ
أَمَّا العُقُولُ فَآلَتْ أنَّهُ كَذِبٌ والعَقْلُ غَرْسٌ لَه بالصِّدقِ إثْمَارُ

* إذاً سيدرك القارىءُ الكريمُ مدىٰ الشُّقَّة التي لقَيْنَاها ونحنُ ننظمُ هذا العِقْدَ النَّفيسَ ، فقد اتّخذنا الصَّبْرَ مركباً وصاحباً علىٰ الرَّغم منْ صُعوبَة الطَّريق ، وعناءِ العَمل ، والحياةِ مع المخطوطاتِ والمصَادر ، والأسْفار بينَ العواصمِ والبلدان ، وسَهَرِ الليالي ذَواتِ العَدد بحثاً عنِ الأخبارِ المهّمةِ والعِبَرِ المفيدةِ كي نضمَّها إلىٰ هذا الكتابِ ليكتملَ عِقْده ، وتُستحلىٰ الحياةُ معه وعنْده .

ومصادرُنا في هذا الكتابِ ـ كما يلحظُ القارىء ـ متنوّعةُ المشارب ، متعدِّدةُ الأغراض ، وبعضُها نادِرٌ جداً ، بالإضافةِ إلىٰ صعوبَةِ الحصولِ

عليها ، والبحثِ بين سُطورها عمّا نبغيهِ ، وعمّا يتوافقُ مَع هدفنا الذي بَنَيْنا عليه هذا الكتاب ، وحاولنا توثيقَ الأخبارِ ، وردّها إلى مظَانّها ، وتمحيص ما يحتاجُ إلى نَقْدٍ ، كما صنعْنَا في شخصّيةِ غانمةَ بنتِ غانم المزعومة ، التي أثْبَتنا أنَّها مصنوعةٌ موضوعةٌ ، وليس لها في تاريخِ النساء نصيب ، بل هي مصيبةٌ وضعها نخّاسُو الأخبار ، ومحبّو حياكةِ القَصَص الزَّائفِ ممّن ساءت ظنونُهم ، وسقمتْ نفوسُهم ، و . . .

إذَا سَاَء فِعْلُ المرءِ سَاءَتْ ظُنُونُه وصــدَّقَ مــا يَعْتَــادُهُ مــنْ تــوهُّــمِ

* كما تحدّثنا عن وهْنِ بعضِ الأَخْبارِ المبثوثَةِ في عَددٍ منَ الشَّخصيّات منْ مثل: ميسون بنتِ بحدل ، وفاطمة بنت عبد الملك ، والثُّريا بنتِ عليّ ، ورملةَ بنتِ عبد الله الخزاعيّة ، والعبّاسة بنت المهدي ، وغيرهنّ ممّا تفصحُ عنه هذه الصَّفحات ، وتفضحُ المغترين في جميع العُصُور والأوقات.

* ونودُّ أنْ نشيرَ إلى أنَّ نَقْدنا كان مبنياً على الحقِّ والعَقْل ، بعيداً عنِ الأهواءِ والعَواطفِ ، وحاولنا قَدْرَ المُستطاع أنْ نتحدَّثَ عن حياةِ النِّساء اللواتي عشْنَ في قُصورِ الأُمراء ، وإبرازِ سماَتهنّ وملامحهنّ الصَّحيحة في ثوبِ الحقّ ، فكم واحدة منهنّ صنَعَتْ ما لا يصنعهُ أفاضلُ الرِّجال ، وكانَ لها في ميادينِ الفَضْل صولاتٌ وجولات!!

* وبَعْدُ ، أليسَ منَ الواجبِ علينا ـ ونحنُ في عَصْر الحقائق ـ أنْ نُبرزَ للنَّاس الحقائقَ واضحةً جليّة[1]؟!

---

(١) لهذا الكتابِ غرضٌ جليلٌ ، وهدفٌ نبيلٌ ، هو الدّفاعُ عن نسائنا العربيّات المسلمات اللواتي رفعْنَ راياتِ العزّة والفضلِ في سماءِ المكارم ، كما أنَّ غرضَ الكتاب هَتْك الأسْتَار المُسْدَلةِ التي عَمِلَ منْ ورائِها مغرضون فيما خَلا من الزَّمان ، وآخرون قَدْ ورثُوهم في زماننا ، وهمُّهم جميعاً أنْ يجعلوا منَ الأوهامِ حقائقَ ، ومنَ الضَّباب سدّاً منيعاً ، وبذلك ظنّوا أنّهم قد حقّقوا الانتصارَ على عقولِنا وعلىٰ مجتمعنا ، وعلىٰ ثقافَتِنا منْ خِلال الغضّ منْ شَأْنِ فواضل النّساء في الأَعْصر الخَاليات ممن كان لهنّ كيانٌ ومجالٌ في النَّواحي الدّينيّة والعلميّة والأدبيّة والإنسانيّة والأخلاقيّة وما شَابَه ذلك. =

* وقُبيل الخِتَام نودُّ الإشارةَ إلىٰ ناحيةٍ مهمّةٍ في كتابِنا هذا ، وهيَ الحواشي التي هي في حدِّ ذاتِها تجاربُ وحقائقُ تساعدُ على فَهم غَرضِ الكتاب ، وهذهِ الحواشي ـ في رأينا ـ تظهرُ مكانةَ الكاتبِ والِكتَاب في عالَم التَّصنيف ، وعالم فَهْم النُّصوص في المصادرِ والمراجع .

* ومع نهايةِ هذه الخاتمة ، أُزجي شُكري لكلّ أحبّائي القُرّاء في العَالَم الذين هم رصيدي الحقيقيُّ ، وهم هَمَساتُ فُؤادي ، وأنداءُ خَطَراتي .

* وفي الخِتام ، أسألُ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يهديَنا سواءَ السَّبيل ، وأنْ يجعلنَا منَ الذين يستمعونَ القَولَ فيتّبعونَ أحْسَنه .

* وأرجو القارىءَ الكريمَ ألاّ يبخلَ عليَّ بالدُّعاء منه في ظَهْر الغيْبِ ، وأنْ يخصَّني بدعوةٍ طيبةٍ إذا ما استفادَ منْ هذا الكتاب ؛ الذي أردتُ بهِ وجْهَ الله ؛ الذي يعلمُ السِّرَّ وأخفىٰ .

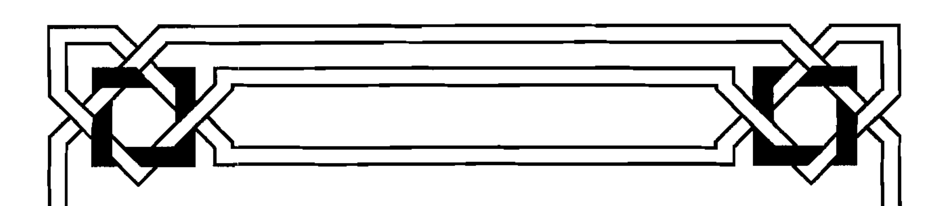
* اللهمّ اجْعلنا منْ الذين رضيْتَ عنهم ، واجعلنا ممّن ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج : ٢٤] .

ربّنا اجعلْ أعمالنَا خالصةً إليك ، ووفّقْنا لما تحبُّ وترضىٰ ، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وكَتَبَ
أَحْمدُ بنُ خَليل جُمُعَة

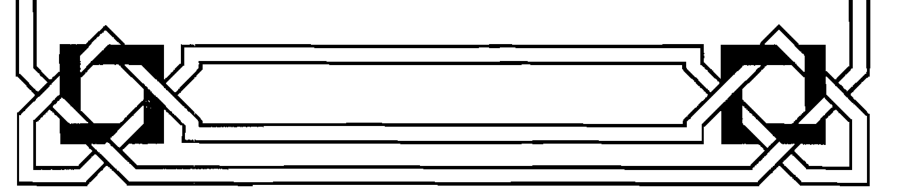
دمشق ـ حرستا ـ حي الشيخ موسى
الجمعة ٢٧/ صفر/ ١٤٢٠ هـ
١١/ حزيران/ ١٩٩٩م

= وأودُّ أنْ أشيرَ إلىٰ أنَّ النِّساءَ في هذه الموسوعةِ ممن يُحتذىٰ بهنَّ ، ويقتدىٰ بسيرهنّ ، ولعلّ نساءَنا يجعلنهنّ نبراساً لهنَّ ، فيأتينَ بهداهنّ ، فقد يكُنَّ ذات يَوم ممن لهنّ نصيبٌ في تاريخ النّساء ، وأعتقدُ أنّ كثيراً منَ النّساء المعاصرات لهن مكارمُ حِسَان في ميادين الفضائل ، وعمَل المبرّات .



(١)
أروى بنت الحارث

* فريدة زمانها ، وبليغة عصرها وأوانها .
* من الوافدات على معاوية رضي الله عنه .
* شاعرة متمكنة من ناصية فن القول .



وقْفَـةُ تَـأَمُّـلٍ :

* تطالعُنا كتبُ الأَدَبِ والأَخْبارِ ، وبعضُ المصادرِ المتنوِّعة بقصصِ الوفودِ ، وأخبار الوافدينَ والوافداتِ ، ومقاماتِهم بين يدي معاويةَ بن أبي سُفيان ـ عليه سَحائِب الرضوان ـ وما قالوه أمامَه ، وما خَاطَبوهُ منْ كلامٍ أكثر إيلاماً منْ جراحاتِ السِّنان . حيث :

جِـرَاحَـاتُ السِّنَـانِ لهـا التئَـامٌ ولا يلتـامُ مـا جَـرحَ اللّسـانُ

وقفتُ طَويلاً طويلاً طَويلاً أمامَ هاتيكم الأَخْبارِ، ومعَ أولئكَ النّسوة اللواتي جِئْنَ ـ هكذا ـ فَكُنَّ أمامَ أميرِ المؤمنينَ معاويـةَ بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ وقْفَة تأمُّلٍ أقرأُ ما صدرَ عنهنَّ منْ نَفَثَاتٍ ، فإذا بي أمامَ كلماتٍ أعتقدُ أنَّها مرصوفةٌ ، وأنَّها مصنوعةٌ ، صنَعَها بعضُ أهْلِ الأهواءِ ، ومنْ ثمَّ وُشِيَتْ ببلاغةٍ عاليةٍ ، وأنَّ معظمَ أخبارِ أولئك الوافداتِ أَوهَنُ منْ بيتِ العنكبوت ، ناهيك بأنّها تنتظمُ في سِلْكٍ واحدٍ ، وجُلّ اهتمامِ صانعيها وناسجيها انتقاصُ عددٍ من كِبارِ الصَّحابة ومنهم : معاويةُ بن أبي سفيان ، وأمُّه هندُ بنتُ عُتبةَ ، وعمرُو بنُ العاص أمامَ معاويةَ بنِ أبي سفيان ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ، وهؤلاء جميعهم منَ الصَّحابة الأَعْلام ، الذين أثنىٰ عليهم ربُّ الأَنَام ، وممن أثنىٰ عليهم الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ في أكثر منْ موضعٍ ، وأكثر منْ مناسبةٍ بما تواترَ في الصَّحيحِ والسُّنَن والمَسَانيد وكُتُب السِّيرة وغيرِها .

* ولعلَّ مَنْ يُطالعُ أخبارَ هؤلاءِ الوافداتِ علىٰ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ يَجدُ مصداقَ ما قُلْناه ، تدخلُ عليه إحداهنّ أو يستقدمُها ، ويكونُ في مَجْلسهِ عليـةُ القَـوم ، وفـي مقـدمتهـم : عمـرو بـن العَـاص[1] ، ومـروان بـن

---

(١) عمرو بنُ العاص ـ رضوان الله عليه ـ صحابيٌّ جليلُ القَدْر ، منَ القادَة الشُّجعان والأذكياءِ الموصوفين وقد توفي بمصرَ في شَهْر شوالَ سنة (٤٣ هـ) . اقرأْ سيرتَه بتوسُّعٍ في كتابنا «فرسانٌ من عَصْرِ النبوة» (ص ٢٧٩ ـ ٢٩٩) .

الحكم[1] ، وسعيد بن العاص[2] .

* ومعظم هؤلاء الوافدات وُصِفْنَ بِسَلاطةِ اللّسان إذ جُلُّ كلامهنّ الشَّتائم لأولئكَ الأكارمِ الأعلام ، ثمَّ لمعاويةَ ولأمّه هنْد ، ولكثيرٍ منْ كبراءِ الصَّحابة ، ويظهرُ معاويةُ في كلِّ نهاية لقاءٍ مع وافدةٍ بصورةِ المنهزمِ المخطىء الغَاشِم الذي أُقيمتْ عليه الحُجَّة!! .

* ومنَ العجيبِ أنَّ معظمَ هؤلاء الوافدات كُنَّ من نُصَراء سيّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه وأرضاه وحشرنا بمعيّته ـ ، وكُنَّ يروينَ أَخْباراً حَصَلَتْ لَهنَّ معه ، ومن ثمَّ يروينَها أمامَ معاويةَ وصَحْبه ، وتُنْشَدُ بعضُ الأشعارِ التي تؤيّدُ حججهن ، لِيُوهمَ القارىءُ في صحّةِ الأَخْبارِ ، عِلمْاً بأنَّ سيّدنا عليّاً ـ رضوانُ الله عليه ـ أميرُ البُلغَاء ، وسيّدٌ منْ أسيادِ الفُصَحاء ، فلا يمكنُ أنْ يقبلَ ما نُسبَ إليهِ منْ وهنٍ في الكلامِ أو الشّعرِ أو الحوادثِ أو ما شابَه ذلك .

* وفي ثنايا بعضِ المصادر المتنوّعة نقرأُ أسماءَ هؤلاء الوافدات ، وبعضَ قَصصهنَّ ، ومنهنّ : سودةُ بنتُ عمارة الهمدانيّة ، وبكارةُ الهلاليّة ، والزّرقاء بنتُ عدي الهمدانيّة ، وأمُّ سِنان بنتُ خيثمة المذحجيّة ، وعكرشةُ بنتُ الأَطش ، ودارميّةُ الحجونيّة ، وأمُّ الخير بنتُ الحُريش البارقيّة ، وجروةُ بنتُ

---

(١) مروانُ بنُ الحكم القرشيّ الأموي ، وُلِدَ بمكةَ بَعْدَ عبدِ الله بن الزُّبير بأربعةِ أشْهر ، قال الذَّهبي : ولم يصحَّ له سماعٌ عنْ رسول الله ﷺ ، لكنْ له رؤية إنْ شاءَ الله . وهو ابن عمّ عثمانَ بن عِفّان وكاتبُه ، وتولّى عدّةَ أعمالٍ ، إلىٰ أنْ أصبحَ خليفةً بَعْد أوْلادِ يزيدَ بنِ معاويةَ ، ولم تَطُلْ مدّته ، وماتَ أوّل رمضانَ سنةَ (٦٥ هـ) ، (النّجوم الزّاهرة ١/ ١٦٩) باختصار وتصرف .

(٢) سعيدُ بنُ العاص صحابيٌّ أيضاً كانَ منْ أشرافِ قُريش ، جَمع السَّخاء ، والفَصَاحة ، وغَزا طبرسْتَان ، وافتَتَحها ، واعتزلَ الفِتْنَة ، فلم يَشهدِ الجملَ ، ولا صفينَ ، وروىٰ أحاديثَ عن النَّبي ﷺ ، وعن عمرَ وعثمانَ وعائشةَ رضي الله عنهم . ومات سنة (٥٩ هـ) رضي الله عنه .

مرّة التَّميمية ، وأمُّ البراءِ بنتُ صفوان ، وآمنةُ بنتُ الشَّريد ، وغيرهنَّ وغيرهن[١] .

* لكنَّ ضيفةَ حَلْقَتِنا اليومَ ليستْ ممن عَدَدْنَا أسماءهنَّ آنفاً ، وذكروا أنَّها كانتْ أغْلَظَ الوافداتِ علىٰ معاويةَ خِطاباً ، وأَخْشَنهنّ كلاماً ، ومع هذا ذكروا أنَّ حلْمَ معاويةَ كانَ أعظمَ منْ خطابِها وكلامها .

* ترىٰ مَنْ هذه التي أرعَبَتْ معاوية ـ كما زعموا ـ ، وألقمتْ حجراً لكلّ مَنْ سألَها ، أو تعرَّضَ لها بسؤالٍ ونحوه؟! عِلماً بأنَّها كانت عجوزاً طاعنةً في السِّنّ ، قد أَثَّرَتْ فيها السُّنون ، لكنّها أَثْرَتْ حفيظتَها علىٰ معاويةَ ـ كما زعموا ـ وسَالَ لسانُها ببيانٍ وأي بيان؟!!!

* قالتِ المصادرُ : هي أروىٰ بنتُ الحارثِ بنِ عبد المطلب القرشيّة[٢] ، وأمُّها : عديّة ـ أو غزيّة ـ بنتُ قَيس بن طريف ، تزوجَّها أبو وداعة بنُ هُبيرة فولَدَتْ له[٣] .

---

(١) اقرأ أخبارَ هؤلاءِ النّسوة في بلاغات النّساء ، والعقد الفريد ، وصبح الأعشى ، وأعلام النساء ، والدّرّ المنثور ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء) ، والمستطرف في كل فن مستظرف ، وغيرها من مصادر ، ونحنُ بدورنا يساورنا الشَّكُّ في بعضِ هؤلاء الشّخصيات من النّسوة بهذه الأسماء؟!!

(٢) نسب قريش (ص ٨٥) ، وبلاغات النساء (ص ٤٥ ـ ٤٨) طبعة الكويت ، والعقد الفريد (٢/ ١١٩ ـ ١٢١) ، وثمرات الأوراق بهامش المستطرف (١/ ١٣٢ ـ ١٣٤)، والدر المنثور (ص ٢٥ و٢٦) ، والمعارف (ص ١٢٦) ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٣٤ ـ٣٧) ، وشاعرات العرب (ص ٣و٤) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ١٦٤) ، والمحبر (ص ٦٥) ، وطبقات ابن سعد (٥/ ٤٥٣) ، (٨/ ٥٠) ، وأعلام النساء (١/ ٢٨ ـ ٣١) ، والأعلام (١/ ٢٧٩ و٢٨٠) والمعارف (ص ١٢٦) وغيرها .

(٣) الإصابة (١٢/ ١٠٨) ، وقال ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ : أروىٰ بنتُ الحارث بنِ عبد المطلب الهاشمية ، والدةُ المطّلبِ بنِ أبي وداعة السَّهمي ، ذكرها ابنُ سَعْد في الصَّحابيات في بابِ : بنات عمّ النبّي ﷺ وقال : أمُّها : غزيةُ بنتُ قيس بن طِريف منْ بني الحارث بن فِهْرِ بن مالك . =

* ومنَ العجائِبِ أنَّ الأديبةَ الفاضلةَ ، والبارعة الكاملةَ ، السيّدة زينب بنت علي بن يُوسُف فواز العامليّ قد افتتحتْ ترجمة أروىٰ هذه بقولها : كانت فريدةَ زمانِها ، وبليغةَ عَصْرِها وأوانها ، إذا خطَبَتْ أعجزتْ ، وإنْ تكلَّمَتْ أوجزتْ ، ولا غَرْوَ فإنَّها ابنةُ البلاغةِ ، ومَعدنُ الفصاحةِ والحَصَافَةِ[1] .

* ولا نعلمُ شيئاً عنْ نَشْأةِ أروىٰ ولا عَنْ مَطْلَعِ حياتها ، ولكنَّ المصادرَ تَضَعُنا فجأةً ودونَ مقدّماتٍ في واحدٍ منَ المجالسِ أمامَ معاويةَ رضي الله عنه ، وتظهرُ أروىٰ في ذلكَ المجلس مُكَفِّرةً لمعاوية ، شاتمةً له ولمن حَولَه ، غاضبةً منْ كلّ شِيءٍ ، وعلى كلّ شيءٍ ، والسُّطورُ التَّالياتُ تجلو لنَا ما ذكرناه .

دُخُولُهَا عَلى مُعَاوِيَةَ ـ رضي الله عنه ـ :

* دعونا نحلِّق قليلاً معَ خيالِ الأُدَباء ، ونتصوَّرُ أنَّنا في مجلسِ سيّدنا معاويةَ بن أبي سفيان ـ عليهما سحائب الرضوان ـ ننتظرُ دخولَ أروىٰ ابنة الحارث بن عبد المطلب الهاشميّة القرشيّة ، حيثُ قيل : إنَّها وفدتْ عليه حينما ولي الخلافةَ[2] ، وذلك في دمشقَ الشَّام في قَصْره .

* وقيل : إنّما دخلتْ عليه بموسمِ الحجّ عقبَ أنْ وليَ الخلافةَ ، وهي

= قال : وولدتْ لأبي وَدَاعةَ : المطّلبَ ، وأبا سفيان ، وأمَّ جميل ، وأمَّ حكيم ، والرَّبعة .
أقول : لم يذكُرها ابنُ عبد البرّ في «الاستيعاب» ، ولا ابنُ الأثيرِ في «أسُد الغابة» .
وفي «المعارف» ذكرُ ابنُ قتيبةَ أولادَ الحارثِ بن المطّلب فقال : وأمّا الحارثُ بنُ عبد المطلب فهو أكبرُ وَلَدِ عبد المطّلب ، وشَهِدَ معه حَفْرَ زَمْزم ، وبه كان يُكنى ، وولده : أبو سفيانَ بنُ الحارث ، والمغيرة بنُ الحارث ، ونوفَلُ بنُ الحارث ، وأروىٰ ، وربيعة ، وعبد شمس . (المعارف ص ١٢٦) .
هذا ولم ينوّه ابنُ قتيبةَ إلى أنَّها منَ الصَّحابيات عِلْماً بأنّه نوَّه إلىٰ إخوتها : أبي سفيان ، ونوفل ، وربيعة .

(١) الدر المنثور (ص ٢٥) .
(٢) المصدر السابق (ص ٢٥) .

عجوزٌ كبيرةٌ[1] ، وذلك بمكةَ المكرمة أُمِّ القرى .

* وقيل : إنَّها دخلَتْ عليه وهي عجوزٌ كبيرةٌ ، دونَ أنْ تحدِّدَ المصادرُ الزَّمانَ أو المكانَ ؛ الذي يهمنا أنَّها قد دخَلَتْ عليه مَجْلِسه[2] .

* والآن ، ها نحنُ أولاءِ أمامَ امرأةٍ عجوزٍ قد اشتعلَ رأسُها شيباً ، وشَغَل الكبرُ جسْمَها حيثُ وهنَ العظمُ منها ، ولكنَّ همتَها ما تزالُ قويةً شابّةً ، فهي تُقارعُ أَعْلياء الرّجال ، ولها كلامٌ صارمٌ يجعلُ كلامَ الآخرينَ منْ خصومها جذاذاً ، وهباءً منثوراً ، ناهيكَ بأنَّها ـ كما زعموا ـ ذات شخصية نافذةٍ فذّةٍ تؤّثرُ فيمنْ يخاصِمُها ، وخصوصاً أولئك الذين خاصموا ابنَ عمّها سيّدنا عليّ بي أبي طالب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ .

* دخلتْ أروىٰ بنتُ الحارثِ مجلسَ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ والمجلسُ حافلٌ بأكابرِ فُصَحاء العَرب ، وأكابرِ الصَّحابة ، إذ كانَ في ذلك المجلس ـ كما زعموا ـ سيّدنا عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ كما كان بجانبه مروانُ بنُ الحكم ، وغيرهما من أعلياءِ بني أميّة ، ووجوهِ قريش ، وأعلامِ العرب .

* دخلتْ أروىٰ المجلس والهيبةُ تحيطُ بها ، ولما رآها معاويةُ قال مخاطباً لها ومُرحّباً بها وسائلاً عنْ أخبارِها : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، كيف كُنتِ بَعْدَنا ، وما أخبارُك؟ فقالت أروىٰ ـ بعد أَنِ انتفَضَتْ وكأنّها العصفورُ بلَّلَهُ القَطْرُ ، وسورةُ الغَضَبِ تنبعثُ منْ نَبراتِها وقَسَماتِ وجهها ـ :

يا بن أخي ، لقد كَفَرتَ بعدي بالنِّعمةِ ، ولم تحفظْها ، وأسأتَ لابنِ

(١) بلاغات النساء (ص ٤٥).
(٢) العقد الفريد (٢/ ١١٩) ، وثمرات الأوراق بهامش المستطرف (١/ ١٣٢).

عمّك الصُّحبةَ ، ثمَّ تسمَّيتَ بغيرِ اسمِك ، وأخذتَ غيرَ حقِّك بغيرِ بلاءٍ كانَ منك ، ولا منْ آبائِك ، ولا سابقة لكَ في الإسلام. !!!..!!.

* ثمَّ إن أروىٰ صمتتْ قليلاً ومعاويةُ ومَنْ معه ينظرونَ إليها ، وهم يسمعونَ ما تقولهُ ، وما تخاطبُ به معاوية ، ثم إنَّها اندفعتْ تقولُ ثانيةً ـ كما زعمَ واضعُ القصّة ـ:

ولقد كفرتُم بما جاءَ بهِ محمّدٌ ﷺ[1] ، وكفرتُم برسول الله ﷺ ، فأَتْعَسَ اللهُ منكم الجدودَ ، وأصْعَرَ[2] منكم الخدودَ ، وردَّ الحقَّ إلى أهْلِهِ ، ولو كَرَه المشركون ، وكانتْ كلمةُ اللهِ هي العُليا ، ونبيّنا هو المنصورُ علىٰ مَنْ ناوَأه ، فكُنّا أهلَ البيتِ أعظمَ النَّاسِ في الدِّين حظّاً ونصيباً وقَدْراً ، حتى قَبضَ اللهُ نبيّه ﷺ مغفوراً ذَنْبُه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند اللهِ مرضياً.

* ولقد ولِّيتُم علينا منْ بعدهِ ﷺ ، تجتجّون بقرابتِكم منْ رسول الله ﷺ ، ونحنُ أقربُ إليهِ منكم ، وأولىٰ بهذا الأَمْر ، فَصِرْنا أهلَ البيت منكم بمنزلةِ قومِ موسىٰ منْ آلِ فرعون ، يذبّحون أبناءهم ، ويستحيون نساءَهم ، وصارَ ابنُ عمّ سيّد المرسلين فيكم بعد نبيّنا بمنزلةِ هارونَ منْ موسى حيثُ يقول: ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ، ولم يجتمعْ لنا بَعْدَ رسول الله ﷺ لنا شَمْلٌ ، ولم يَسْهُلْ لنا وَعْرٌ ، وإنَّ غايتَنا الجنَّة وغايتكم النَّار!!.

* ثم إنَّ أروىٰ ابنةَ الحارث سكَتَتْ بعد أنْ قرَّعَتْ بكلامها مَنْ قرَّعَت ، وعرَّضتْ بمَنْ عرَّضَتْ ، وأخذتْ تجوسُ بعينيها المكانَ كأنَّها لبوةٌ فَقَدتْ أشبالَهَا ، فإذا بصوتٍ من جانبِ المجلسِ يأمرُها بأنْ تَقْصُرَ من قولها ،

---

(١) هذا الكلامُ دونَه خَرْطُ القَتَاد ، !! فتأمّل!! وقد وَرَدَ حرفيّاً في بلاغاتِ النّساء (ص ٤٥) ، والعِقْد الفريد (٢/ ١٢٠) ، وغير ذلك منْ مصادر.

(٢) «أَصْعَر»: أي أذْهَب ، وفي بعض المصادر وردت كلمةُ «أَضْرع» بدلاً من أصعر ومعناها: أذَلّ.

وتغـضُّ من طرفها ، ترىٰ مَنْ صاحب هذا الصَّوتِ ، وبمَ ردَّت عليه أروىٰ؟! .

أَرْوَىٰ وعَـمْـرو بـنُ الـعَـاص :

* قال أهلُ الأخبارِ الذين صاغوا الأخبار وألَّفُوا هذا الهُراء: بعد أنْ تكلَّمتْ أروىٰ وأظهرتْ مثالبَ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ لم يردَّ عليها ، ولزمَ الصَّمْتَ ، ولكنَّهم زعموا أنَّ عمروَ بن العاص ـ رضوان الله عليه ـ قال لها : كُفّي أيتُها العجوزُ الضَّالةُ ، وأقْصري من قولك ، وغضّي من طرفكِ ، مع ذَهَابِ عقلِكِ ، إذْ لا تجوزُ شهادتك وحْدَكِ! .

قالتْ أروىٰ وقد اعتراهَا الغَضَبُ ، وَعَرتْها هِزَّةٌ ، ونظرتْ إلىٰ عمروٍ بعينين تتوقدانِ كتوقُّد الجمر : ومَنْ أنتَ لا أُمَّ لك[1]؟!

قال عمرو في بَسَاطةٍ وهدوء : أنا عمرو بنُ العَاص يا بنةَ الحارث .

وهنا انتفضتْ أروىٰ وقد عَرَفَتْ ـ كما زعموا ـ كيف تستّردُ سهامَها ، وتصيبُ منْ عمرو مقتلاً وأي مَقْتَل فقالت :

يا بن اللخناء[2]النَّابغة[3] ، يا بنَ الباغية ، تتكلمُ وأمُّك كانت أشهرَ امرأةٍ

---

(١) لاحظْ قولَها ـ بل قَولَ واضعِ القصّة وصانعها ـ: لا أمَّ لكَ ليتسنّى له شَتْم عمرو بأُمّه؟!!! .

(٢) «اللخناء»: يُقال: لَخِنَ الرجلُ ، ولَخِنَتِ المرأةُ: أنتنتْ أرفاغُهما ، فهو لَخِنٌ وهي لخناء ، ويُقال في السَّب والشّتم : يا بنَ اللخناء ، (المعجم الوسيط ٢/ ٨٢١) طبعة تركيا.
وقال الزّمخشري: شتَمه ولخنَه ، قال فيه: يابْنَ اللخناء ، (أساس البلاغة ص ٥٦٢).
وقال ابنُ منظور: لَخِنَ السّقَاء: أَنْتَن ، واللّخن: قُبْحُ ريح الفَرْجِ ، وامرأةٌ لخناء ، ويُقال: اللخناء التي لم تُخْتَن ، واللخن: النَّتَن ، والقَبيحُ منَ الكلامِ ، (لسان العرب ١٣/ ٣٨٣).

(٣) «النابغة»: قال ابنُ حَجر ـ رحمه الله ـ: أمّ عمرو: النَّابغةُ من بني عَنَزة. (الإصابة ٧/ ١٢٢) ، وقال ابنُ عبد البرّ ـ رحمه الله ـ: وأمُّه: النَّابغةُ بنتُ حرملةَ سَبِيَّةٌ منْ بني=

بغيٍ بمكةَ ، وأرخصهنّ أجرةً ، وآخذهُنَّ للمالِ ، وادَّعاك خمسةٌ أو ستةُ نَفَرِ كلُّهم يزعمُ أنَّك ابنه ، فَسُئِلت أمك عنْ ذلك فقالت: كلُّهم أَتاني ، فانظروا أشبهَهم به فألحقوه به ، فغلبَ عليك شَبَهُ العاصِ بنِ وائل فلحقتَ به[1] .

* وأزيدُك يا بنَ العَاص ، لقد رأيتُ أمَّك أيام مِنىٰ بمكةَ مع كلّ عَبْدٍ عَاهِر ، فَأْتَمَّ بهم ، فإنَّك بهم أَشْبَه ، وأَرْبِعْ علىٰ ظِلْعِك ، واعْنَ بشأنِ نفسِك ، فواللهِ ما أنتَ منْ قريشٍ في اللُّباب من حَسبها ، ولا كريمِ منصبها[2] .

= جلانَّ بن عَنَزة بنِ أسد بنِ ربيعةَ بنِ نزار . (الاستيعاب ٨/ ٢٢٢) .
وقال ابنُ عبد البر أيضاً: ذكَروا أنَّه جُعِلَ لرجلٍ ألف درهم علىٰ أنْ يَسْأَلَ عمروَ بنَ العاص عنْ أمّه وهو علىٰ المنبر ، فسَأله فقال: أمّي سَلمىٰ بنتُ حرملة تُلَقَّبُ النَّابغة من بني عَنَزة ، ثمّ أحد بني جلان ، أصابَتْها رماحُ العَربِ ، فَبيْعَت بعكَاظ ، فاشتراها الفاكهُ بنُ المغيرة ، ثمّ اشتراها منه عبدُ الله بنُ جُدْعان ، ثمَّ صارتْ إلىٰ العاصِ بن وائِل ، فولَدتْ له ، فأنجبتْ ، فإنْ كانَ جُعِلَ لك شيءٌ فخذه .
(الاستيعاب ٨/ ٢٢٢و٢٢٣) .
ومنَ الجدير بالذّكْرِ أنّ النَّابغةَ هذه أمّ عمرو ، قد أنجَبَتْ صحابيّاً آخرَ هو: عمرو ، أو عروةُ بنُ أبي أثاثة العدويّ ، وهو أخو عمرو بن العاص لأمّه ، وكانَ منْ مهاجِرة الحبشة .
قال المصعبُ الزُّبيري: وأمّ عمرو سبيّة منْ عنَزَة ، وإخوتُه لأمّه: عروةُ بنُ أبي أثاثة العدوي ، كانَ عروةُ من مهاجرةِ الحبشة ، وأرنبُ بنتُ عفيف بنِ العاصي ، وعقبةُ بنُ نافع بنِ عبد القيس بنِ لقيط من بني الحارث بن فِهْر . (نسب قريش ص ٤٠٩) .

(١) العقد الفريد (٢/ ١٢٠) ، والدر المنثور (ص ٢٦) ، ولاحظْ عزيزي القارىء هذا الافتراء الذي لا يوزن بميزان مع هذا الصَّحابي الجليل الذي شَهِدَ له رسول الله ﷺ بالإيمان والصَّلاح فقال: «ابنا العاص مؤمنان: هشام وعمرو» رواه الإمام أحمد (٢/ ٣٠٤ و٣٢٧ و٣٥٣) ، وقال: «إنَّ عمروَ بنَ العاص من صالحي قريش» أخرجه الترمذي برقم (٣٨٤٥) ، وعلى فرضِ صحّة هذه القصّة فلا يضرّ عمراً ذلك حيث عُفي أمْر الجاهلية .

(٢) انظر: بلاغات النساء (ص ٤٦) ، وتأمّل هذا الكلام الذي لا يصدرُ عن شذّاذ الآفاقِ =

* قال الوضّاعون النّساجون أحابيلَ الكذبِ: وبعد أنْ أفحمتْ أروى بنتُ الحارث عمرو بن العاص، وجَمَ ولم يحِرْ جواباً أمامَها، وفرَّت منْ أمام لسانِهِ الطَّلْقِ البليغِ الكلماتُ البليغاتُ، وكاد يطيرُ صوابُه إذ تلاشتْ كلُّ العباراتِ من ذِهنهِ، ولزمَ الصَّمت هو الآخر.

* وسكتتْ أروىٰ وهي تستردُّ أنفاسهَا منْ سَورةِ الغَضَب التي لحقَتْها، ومنَ الثَّورة التي جاشَتْ في صدرِها من كلام عمرو بنِ العاص، ومن توجيه كلماتها الجارحةِ الحارقةِ له.

* وبينما كانت أروى تركنُ إلىٰ الهدوءِ، سمعتْ صوتاً وهاتفاً آخر يأمرها بأنْ تكفَّ عمّا هيَ فيه، ترىٰ مَنْ يكون هذا؟

أَرْوَىٰ وَمَـروانُ بـنُ الـحَكَـم:

* قال الوضَّاعون: سمعتْ أروىٰ قائلاً يقولُ لها: كُفّي أيّتُها العجوزُ الضَّالة، فقد ساخَ بصرُكِ مع ذَهَاب عقْلكِ، فلا تجوزُ شهادتك!.

فقالت أروىٰ بشيءٍ منَ السُّخريةِ الممزوجةِ بالازدراءِ: ومَنْ تكونُ أنتَ الآخر لا أُمّ لك؟!! كأنَّ صوتَك ليسَ غريباً عن مسمعي؟!

قال: أنا مروانُ بنُ الحكَم.

* عندها انتفضتْ أروىٰ انتفاضةً أخرىٰ، وانقضَّتْ بكلامها علىٰ مروانَ كالنّسر الذي ينقضُّ علىٰ أضعفِ الطُّيور وقالت:

وأنتَ أيضاً تتكلَّم يا بنَ الزَّرقاء؟! أتتكلمُ وتأمرني بالسُّكوت، وتتهمني بذهابِ عَقْلي، واضطراب بَصري؟! أتتكلمُ وأنتَ ـ واللهِ ـ إلىٰ سفيانَ بنِ الحارثِ بن كِلدةَ أشْبَه منك بالحكَم؟!

وإنّك لشبْهُه في زُرقَةِ عينيك، وحمرةِ شَعْرك، مع قصَرِ قامتِه، وظاهر

= فكيف يُنْسَبُ إلى سيّدةٍ فاضلةٍ من مثلِ أروىٰ بنتِ الحارث، وهي من الرَّعيلِ الأوّل؟!!!

دَمَامته ، ولقد رأيتُ الحكمَ مادَّ القامةِ ، ظاهرَ الأمةِ ، سبط الشَّعرِ ، وما بينكما قرابةٌ إلا كقرابةِ الفَرسِ الضَّامِرِ منَ الأتانِ المقرب ، فاسألْ أُمَّكَ عمّا ذكرتُ لكَ ، فإنّها تخبُركَ بشَأنِ أبيك إنْ صَدَقَتْ[1]!!!!!...

* قال الرَّاوي الوضَّاع الكذّاب: فسُقِطَ في يَدِ مروانَ ، وكادَ العرقُ يلجمُه ، ولم يعرفُ كيفَ يتخلّصُ منْ سِهامِ كلماتِها ، وشواظِ عباراتها التي نَسَفَتْه نَسْفاً ، فجعلته قاعاً صَفْصَفاً!!!.

* ترىٰ ماذا حدثَ بعد ذلك؟! هذا ما ستفصحُ عنه السُّطور التَّوالي.

أَرْوَىٰ وَمُـعَـاوِيَـةُ وَأَمُّـــهُ:

* بعد الذي مضىٰ كُلّه يطيبُ للرَّاوي الوضَّاع أنْ يتابعَ الحديثَ في هذه القصّةِ المصنوعةِ فيقول ما مفاده: وبعد أنْ مزَّقَتْ أروىٰ بنتُ الحارث عِرْضَ مروانَ بنِ الحكم كلَّ ممزقٍ ، وقَبْلَه مزَّقَتْ عرضَ عمروِ بنِ العاص ، جاء دور معاوية وأمّه هنْد ـ رضي الله عنهما ـ فهل يجوزُ أن تمضيَ هذه الجلسةُ المزعومةُ دونَ أنْ يتعرضَ الوضَّاعُ لِعِرضِ هند أمّ معاوية؟!

قال الرَّاوي: ثمَّ إنَّ أروىٰ التفتَتْ إلىٰ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ، وقالت له في حدّة: واللهِ ما عَرضني لهؤلاءِ غيرك أيضاً ، وأنا غيرُ آسِفَةٍ لما أسمعتُهم.

* ثم سكتَتْ قليلاً وتوجَّهَت بالكلامِ ثانيةً إلى معاويةَ وقالت:

وإنَّ أمَّك هنداً القائلة يومَ أُحُدٍ في قَتْل حمزةَ رحمة الله عليه[2]:

---

(١) الدُّر المنثور (ص ٤٦ و٤٧) ، ولاحظْ ـ عزيزي القارىء ـ هذا الكلام الذي يخالفُ أصلاً حقائقَ التَّاريخ ، ويخالفُ صفاتِ مروان ، ناهيك بأنَّ الصَّنْعَة الكلاميَّةَ ظاهرةٌ في الوَضْع ، وتعودُ في اعتقادِنا إلى ما بعدَ القرنِ الثَّالث الهجري ، أضفْ إلى ذلك كلّه أنَّ الوَضَّاعَ الذي صَنَعَ القصَّة يعمدُ إلى قَذْف النّساء وأمهّات الأكابر في مجلس معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ وكأنَّ انتقاصَ هؤلاء النّسوة واتهامهنّ بالزّنى غرامٌ لهذا الوضّاع.

(٢) لاحظ: «رحمة الله عليه» فالوضّاع لم يفرّقْ بين الصَّحابي الذي نقولُ عنه: رضيَ الله عنه ، والإنسان العادي ، وهذا يدلُّ على افتراء القصة.

نَحْـنُ جَـزَيْنَـاكُـمْ بيـومِ بَـدْرِ   والحـربُ يـوم الحـرب ذاتُ سُعـرِ
مـا كَـانَ عـنْ عُتْبَـةَ لـي مـنْ صَبْر   ولا أخـي وعَمِّـه وبِكْـري
شفيـتُ نفسـي وقَضَيـتُ نَـذري   شَفَيْـتَ وحشـيُّ غَليـلَ صَـدْري
فَشكْـرُ وحشـيٍّ علـيَّ عُمـري   حتـى تـرمَّ أَعْظُمـي فـي قَبْـري[1]

فأجبتها[2]:

خَـزيـتِ فـي بَـدْرٍ وبعْـدَ بَـدْرِ   يـا بنْـتَ وقّـاعٍ عَظيـمِ الكُفْـرِ
صبّحـكِ اللهُ غـداةَ الفَجْـرِ   بـالهـاشميّيـن الطُّـوالِ الـزُّهْـرِ
بكـلِّ قطّـاعٍ حُسـامٍ يَفْـري   حمـزةُ لَيْثـي وعَلـيٌّ صَقْـري
إذْ رامَ شيـبٌ وأبـوكِ غَـدْري   فَخَضَّبَـا منـه ضَـواحـي النَّحـرِ[3]
هتكـتَ وحشـيُّ حجـابَ السّتْـرِ   مـا للبغَـايـا بَعْـدَهـا مـنْ فَخْـرِ

* قالَ الرَّاوي: فقالَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ لمروانَ وعمرو: ويلكما أنتما عرّضتماني لها، وأسمعتماني ما أكْره!! واللهِ لو كلَّمَها مَنْ في مجلسي جميعاً لأجابت كلّ واحدٍ بغير ما تجيبُ به الآخر، وإنَّ نساءَ بني هاشم لأَفْصَحُ منْ رجالِ غيرهم.

* ثمّ إنَّه التفتَ إليها وقال لها: يا عمَّةُ! اقْصدي قَصْدَ حاجتك، ودعي عَنْك أساطيرَ النِّساء، فما في ذكْرِها منْ خَيرٍ.

وبعد ذلكَ شعرتْ أروىٰ بنشوةِ النَّصْر، فقالت: تأمرُ لي بألفي دينار، وألفَي دينار، وألفي دينار[4].

فقال لها معاويةُ: ما تصنعينَ يا عمَّة بألفي دينار؟

---

(١) انظر: بلاغات النساء (ص ٤٧)، وعيون الأثر (٢/ ٢٨).
(٢) «فأجبتها»: هذا القولُ مخالفٌ لما وردَ في السِّيرة النبويةِ، إذْ إنَّ الشّعْرَ لهند بنتِ أُثاثةَ بنِ عبّاد بن المطّلب.
(٣) «شيبُ»: المقصودُ به: شيبةُ بنُ ربيعة أخو عتبة وعمّ هند، وقد رخّمته أثاثةُ هنا في غيرِ النداءِ على غير قياس.
(٤) لاحظْ هذا التّقسيم السَّخيف الذي افتراه الوضاعون.

قالت أروىٰ: أشتري بها عَيْناً خرخارةً في أرضٍ خوارةٍ تكون لوَلدِ الحارثِ بن عبد المطلب.

قال: نِعْمَ الموضعِ وَضَعتِها يا عمّة.

ثم أردفَ قائلاً: فما تصنعين بألفي دينار؟

قالت: أزوِّجُ بها فتيان عبد المطلب منْ أكْفائِهم.

قال: نِعْمَ الموضع وضَعْتِها أيضاً. فما تصنعينَ بأَلْفيَ دينار؟ قالت: أستعينُ بها على عُسْرِ المدينةِ وزيارةِ بيتِ اللهِ الحرام!!!.

قال: نِعْمَ الموضعِ وضَعْتِها، وهي لكِ كلُّها نعمٌ وكرَامةٌ.

* قال الرَّاوي الوضَّاع: فرضيتْ أروىٰ بما أمَرَ لها معاويةُ منْ مالٍ، ولكي تتمَّ الحبكةُ المزعومةُ قال لها: أمَّا والله لو كانَ عليٌّ ما أمرَ لَكِ بها.

* وهنا قالتْ أروىٰ بهدوءٍ واطمئنانٍ: صدقْتَ يا بنَ أخي فيما قُلْتَ، إنَّ عليّاً أدَّىٰ الأمانَة، وعَمِلَ بأمْرِ اللهِ، وأخذَ به.

* ثمَّ إنَّ أروىٰ سكتَتْ وهي تنظرُ إلى معاوية، وأردفتْ بعدها قائلةً له: وأنتَ ضيَّعْتَ أمانتَك، وخُنْتَ اللهَ في مالِه، فأعطيتَ مالَ اللهِ مَنْ لا يستحقُّه، وقد فَرضَ اللهُ في كتابِهِ الحقوقَ لأهلِها وبيَّنها، فلم تأخذْ بها، ودعَانا عليٌّ إلى أخْذِ حقّنا الذي فرضَ اللهُ لنا، فشُغِل بحربكَ عن وضْعِ الأمورِ مواضِعَها، وما سألتُك مالَكَ شيئاً فَتَمنُّ به، إنّما سألتُك من حقِّنا، ولا نرىٰ أَخْذَ شيءٍ غير حقِّنا، أتذكرُ عليّاً، فضَّ اللهُ فاكَ، وأجْهدَ بلاءك[1]!!!!..

---

(١) لاحظْ عزيزي القارىء هذا الافتراءَ الواضحَ، وهذهِ الكلماتِ الفَاضِحاتِ، وكيف يُسيء واضعُ القصّةِ إلىٰ سيّدِنا معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ بأنَّه ضيَّعَ الأمانةَ، وخانَ اللهَ في المالِ ثمَّ الدُّعاء الشَّنيع عليه بالبلاءِ والجهدِ، نعوذُ باللهِ منْ هوىٰ النُّفوس.
وما أجملَ قول الإمامِ الذّهبيّ عندما تحدَّثَ عنْ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ فقال: وكانَ محبّباً إلىٰ رعيتِهِ، عَمِلَ نيابةَ الشَّام عشرينَ سنة، والخلافةَ عشرين سنة، ولم يَهْجُه أحدٌ في دولتهِ، بل دانَتْ له الأممُ، وحكمَ علىٰ العربِ والعَجم، وكان مُلكُه علىٰ=

* قالَ الرَّاوي: ثمَّ إنَّ أروىٰ بعد أنْ شَتَمتْ معاوية وَدَعَتْ عليه ، علا بكاؤُها ، وأنشأتْ تقول:

أَلاَ يـا عَيْـنُ ويْحَـكِ أَسْعـدينـا ... أَلاَ وابْكـي أميـرَ المُـؤْمنينـا
رُزِينَـا خَيـرَ مَـنْ ركـبَ المطَـايـا ... وفَـارِسَهـا ومَـنْ ركـبَ السَّفينـا
ومَـنْ لَبِـسَ النِّعـال أو احتَـذَاهـا ... ومَـنْ قـرأَ المثـانـي والمئِيْنَـا
إذَا استَقْبَلْـتَ وَجْـه أبـي حُسَيـن ... رأيـتَ البـدْرَ راعَ النَّـاظِـرينـا
ولا واللهِ لا أنْسَـىٰ عليّـاً ... وحُسْـنَ صـلاتِـهِ فـي الـرّاكعينـا
ألا أَبْلِـغْ معـاويـةَ بـنَ حـربٍ ... فـلا قَـرَّتْ عيـونُ الشَّـامتينـا
أَفـي شَهْـرِ الحَـرامِ فَجعْتُمـونـا ... بخيـرِ النَّـاس طـرّاً أجمعينـا[1]

= الحرمَيْن ، ومصرَ ، والشَّام ، والعراق ، وخراسانَ ، وفارسَ ، والجزيرة ، واليمن ، والمغرب ، وغير ذلك. (سيرُ أعلامِ النّبلاء ٣/ ١٣٣).

(١) انظر: تاريخ الطبري (٤/ ١١٦) ، والأغاني (١١/ ١٠٧) ، وديوان أبي الأسود (ص ١٧٤) ، وشاعرات العرب (ص٤) ، وهذه الأبياتُ منسوبةٌ إلى أمّ الهيثمِ بنتِ العريان النخعيّةِ كما في الاستيعاب (٨/ ٢١٦ ـ ٢٢٠) ، ومنها هذه الأبيات:

لَقَـدْ عَلِمـتْ قـريشٌ حيثُ كـانـت ... بـأنَّـكَ خيـرُهـا حَسَبـاً ودِيْنـا
وكنّـا قَبْـلَ مقتلِـهِ بخيـرٍ ... نـرىٰ مـولـىٰ رسـول الله فينـا
كـأنَّ النـاسَ إذا فقـدُوا عليّـاً ... نَعـامٌ هـامَ فـي بلـدٍ سِنَينـا
فـلا تشمـتْ معـاويـةَ بـنَ صخـرٍ ... فـإنَّ بقيـةَ الخلفـاءِ فينـا

ومنها:

وأجمعنـا الإمـارةَ عـنْ تـراضٍ ... إلـىٰ ابـنِ نبيّنـا وإلـىٰ أخينـا
ولا نُعطـيَ زمـامَ الأَمْـرِ فينـا ... سـواءَ الـدَّهـر آخـرَ مـا بقينـا
وإنَّ سـراتنـا وذوي حِجـانـا ... تـواصـوا أنْ نجيـبَ إذا دُعينـا

وهذه الأبيات تشيعُ فيها رائحةُ الوضع ، بل مقحمةٌ في هذا الموضع إقحاماً ، إذْ لا مناسبةَ لإنشادها ، وهي منسوبةٌ لأكثرَ منْ شاعرٍ أو شاعرةٍ ، ويبدو أنَّ واضِعَها قد غَفَلَ عن بعضِ الأمورِ والأحداثِ التي تشهدُ عليهِ ، وهي لا تخفىٰ علىٰ الأريبِ الأديبِ اللبيبِ.

ومنَ الجدير بالذّكر أنْ نجدَ شاعراً يُسمّى عبد الرحمن ـ أو عبد الله ـ بن همامٍ

* قال الرَّاوي: فأمرَ لها معاويةُ بستةِ آلافِ دينار وقال لها: يا عمّة أَنْفِقي هذه فيما تحبّين ، فإذا احتجتِ فاكْتُبي إلىٰ ابنِ أخيك يحسنِ صفدكِ ومعونتك إنْ شَاءَ اللهُ تعالى[1].

* هذه هي قصَّةُ أروىٰ بنتِ الحارث ، وقصّةُ وفودِها علىٰ معاويةَ كما أرادَ واضعوها ، ولكنْ هل نُسلِّمُ بأنَّ القصَّة صحيحةٌ أو فيها شيءٌ منَ الصّحة؟! وهل كانَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ كما زعم هؤلاء؟!

* قبل أنْ نجيبَ عن ذلك ، تعالوا نقرأُ هذه الفِقْرات الكاشِفات عن سيِّدنا معاويةَ وعليٍّ ـ رضي الله عنهما ـ منْ كلامِ الإمام الذَّهبيّ ـ رحمه الله ـ حيث يقول:

* وخَلْفُ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ خَلْقٌ كثير يحبونَه ، ويتغالونَ فيهِ ويفضّلُونه ، إمَّا قَدْ ملكَهم بالكرَمِ والحْلمِ والعَطَاء ، وإمّا قد وُلِدُوا في الشَّامِ

= السّلولي يفرغُ حقْده علىٰ بني أمية ، فإذا شربَ دماءهم فإنّه لا يرتوي ، وهو يحملُ علىٰ معاويةَ ويسخرُ منه فيقول:

فـإنْ تـأتـوا بـرملـةَ أو بهنـدٍ	نُبـايعهـا أميـرةَ مـؤمنينـا
إذا مـا مـات كِسْـرى قـامَ كسْـرى	نعـدُّ ثـلاثـةً مُتنَـا سقينـا
خَشينـا الغيـظَ حتّـى لـو شـربنـا	دمـاءَ بنـي أميّـةَ مـا رُوينـا
لقـد ضـاعـتْ رعيتكـم وأنتـمْ	تصيـدونَ الأرانـبَ غـافلينـا

(مروج الذَّهب ٢/ ٣٢٩) و (٣/ ٣٧).

وهذا المفضّل المطّلبي يُعرّضُ بمعاويةَ قائلاً بعد موتِ الحَسن:

أصبـحَ اليـومَ ابـنُ هنـدٍ آمنـاً	ظَـاهِـرَ النخـوةِ إذْ مـاتَ الحَسَـنْ
فـارتـع اليـومَ ابـنَ هنـدٍ آمنـاً	ريثمـا يقمـصُ بـالعيـر السِّمَـنْ

وهذه الأبيَاتُ وأمثالها لا تنطبقُ علىٰ حقيقةِ معاوية رضي الله عنه.

(١) انظر المصادر الآتية مع الجمع والتصرف بينها: بلاغات النّساء (ص ٤٥ ـ ٤٨) ، والعقد الفريد (٢/ ١١٩ ـ ١٢١) وثمرات الأوراق (١/ ١٣٢ ـ ١٣٤) ، والدر المنثور (ص ٢٥ و٢٦) ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٣٣ ـ ٣٧) ، وأعلام النساء (١/ ٢٨).

علىٰ حُبّه ، وتربّى أولادهُم علىٰ ذلك ، وفيهم جماعةٌ يسيرةٌ منَ الصَّحابة ، وعددٌ كثيرٌ من التَّابعينَ والفُضَلاء ، وحاربوا معه أهْلَ العِراقِ ، ونشؤوا علىٰ النَّصب ، نعوذُ باللهِ من الهوىٰ.

* كما قد نَشَأَ جيشُ عليّ ـ رضي الله عنه ـ ورعيتُه ، ـ إلاّ الخوارج منهم ـ على حُبّهِ والقيامِ معه ، وبُغْضِ مَنْ خرجَ عليه ، والتبَرّي منهم ، وغلا خَلْقٌ منهم في التَّشيُّع .

* فبالله كيف يكونُ حَالُ مَنْ نشأَ في إقليم ، لا يكاد يُشَاهَدُ فيه إلا غالياً في الحبّ ، مُفرطاً في البغضِ ، ومن أين يقعُ له الإنصاف والاعتدال؟! .

* فنحمدُ اللهَ علىٰ العافية الذي أوجَدَنا في زمانٍ قد انمحصَ فيهِ الحقُّ ، واتَّضحَ منَ الطَّرفَيْن ، وعرفنا مآخذ كلّ واحدٍ من الطّائفتَيْن ، وتبصرنا ، فعذرنا ، واستغفرنا ، وأحببنا باقْتِصاد ، وترحمْنا علىٰ البُغَاةِ ، بتأويلٍ سائغ في الجملةِ ، أو بخطأ إنْ شاءَ اللهُ مغفور ، وقُلْنَا كما علّما ربُّنا ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحَشْر : ١٠] ، وترضَّينا عَمَّنِ اعتزلَ الفريقَيْن ، كَسَعْدِ بن أبي وقّاص ، وابنِ عمر ، ومحمدِ بنِ مسلمةَ ، وسعيدِ بنِ زيد ، وخَلْق ، وتبرّأنا منَ الخوارجِ المارقينَ الذين حاربُوا عليّاً ، وكفروا الفريقَيْن ، فالخوارجُ كلابُ النّارِ ، قد مرقُوا مِنَ الدِّينِ ، ومع هذا فلا نقطعُ لهم بخلودِ النّار ، كما نقطعُ به لعبّاد الأَصْنَام والصُّلبان[1] .

---

(١) انظر: سير أعلام النّبلاء (٣/ ١٢٨) ، وقالَ الذّهبيُّ أيضاً عنْ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ: معاويةُ أميرُ المؤمنينَ مَلِكُ الإسلامِ القُرشيّ الأُمويّ المكيّ ، حدَّثَ عن النّبي ﷺ ، وكتبَ له مرّاتٍ يسيرة ، وكانَ زيدُ بنُ ثابت كاتبَ الوحي ، وكانَ معاويةُ كاتباً فيما بينَ النّبي ﷺ وبينَ العرَبِ ، (سير أعلام النبلاء ٣/ ١٢٢ و١٢٣). وقال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ:
معاويةُ خالُ المؤمنين ، وكاتبُ وحي رسول ربِّ العالمين. (البداية والنّهاية ٨/ ١٧٧) ، وعن عدلِ معاويةَ يقولُ الذّهبيُّ في موضعٍ آخر: ومعاويةُ منْ خيارِ =

* أَفَبَعْدَ هذا كلِّه نُصدِّقُ ما وردَ عنْ هؤلاءِ الوافداتِ ومعظمهنَّ مزعومات ، أو غيرُ معروفات في تواريخِ النِّساء ، ولم نجدْ أخبارهُنَّ إلا في مَصْدرٍ واحدٍ مضطربٍ ، أخذتْ عنه بقيةُ المصادر .

أَثَارةٌ مِنَ أَشْعَار أَرْوىٰ :

* تذكرُ بعضُ المصادرِ الأدبيّة ، وكُتبِ التَّراجم أنَّ أروىٰ بنتَ الحارثِ كانتْ منَ النِّساء الشَّاعراتِ اللواتي تركْنَ أثارةً جيّدة منَ الشِّعْر ، إلا أنَّ أجودَ ما حُفِظَ عنها ذلك الرِّثاء الذي قالَتْه في أبيها ، والذي هو عبارةٌ عن قصيدةٍ نونية تخاطبُ بها نَفْسها ، وتَصِفُ مناقبَ أبيها الحِسَان فتقول :

عَيْنيَّ جُودَا بِدَمْعٍ غير مَمْنونِ ... إنَّ انهمالاً بدمعِ العَيْنِ يَشْفيني
إنّي نسيتُ أبا أروىٰ وذُكرَتُه ... عَنْ غيرِ ما بغضةٍ منّي ولا هُون
مَا زَالَ أَبيْضَ مِكْراماً لأُسْرتهِ ... رَحْبَ المَحاسنِ في خِصْبٍ وفي لينِ
منْ آلِ عبد مناف إنَّ مهلكَه ... ولو لقيتُ رغوبَ الدَّهْرِ يعصيني
منَ الذينَ مَتى ما تَغْشىٰ ناديَهم ... تلقىٰ الخضارمةَ الشُّمّ العَرانين[١]

* ولأروىٰ أشعارٌ أخرىٰ تدلُّ علىٰ ما آتاها اللهُ منْ فصاحةِ القولِ ، وجزالةِ الأَلْفَاظِ ، وحلاوةِ المعاني ، وبُعْدِ الأَفْكار ، وقوةِ سَبْك الشِّعر ، بالإضافةِ إلىٰ قيمةِ قصائِدها منَ النَّاحية التَّاريخية ، حيثُ تُسجِّلُ بَعْضَ الأحداثِ المهمّة في شِعْرها ، ومنْ أمثلةِ ذلك ما وردَ أنَّ قيصرَ مَلِكَ الرُّومِ في الشَّام قد حَبَسَ أبا أُحيحةَ والوليدَ بنَ المغيرة ، وعدّةً منْ قريش ، فقالتْ أروىٰ تستنهضُ النَّاس بهذهِ الأبيات ، وتنعىٰ على النَّاسِ قُعودهم في البيوت :

= الملوك الذينَ غَلَبَ عدلُهم علىٰ ظلمِهم ، وما هو ببريءٍ منَ الهنَاتِ واللهُ يعفو عنه (سير أعلام النبلاء ٣/ ١٥٩). ومعاوية أحدُ رواة الحديثِ النَّبوي ، له (١٩٣ حديثاً) ، اتَّفقَ البخاري ومسلم على أربعةِ أحاديث ، وانفردَ البخاري ، بأربعة ، ومسلم بخمسة .

(١) أعلام النساء (١/ ٣١) ، وشاعرات العرب (ص ٤).

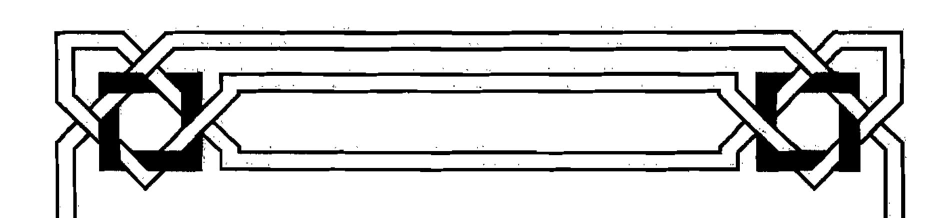
أبْلغْ لديكَ بني عمّي مغلغلةً حرباً وعفّانَ أَهْلِ الصِّيتِ والحَسَبِ
وابنَي ربيعةَ والأعياضَ كلَّهمَ واعمُمْ بني عبد شَمْس سادَةَ العربِ
مالي أراكم قُعوداً في بيوتكم وخيركم منكم للجارِ ذي الجُنُبِ
وذو الحِفَاظِ علىٰ جلِّ الأمورِ إذا نابتْ نوائبُها في شدَّةِ الكُربِ
أبو أُحيحةَ محبوسٌ لدىٰ مَلِكٍ بالشَّام في غير ما ذَنْبٍ ولا ريبِ
لو كانَ بعضُكمُ في غيرِ مَحْبَسِه أَلْفَيتموه شديدَ الهمِّ والنَّصَبِ
إنَّ الذي صدَّه عنكم وثبَّطكم عبدٌ لعبدٍ لئيمٍ حقُّ مُجتلِبِ
لو كان منكم صحيحاً في أرومتكم لشَقَّه ما عناكم غيرَ ما كذبِ

* وأما عن وفاةِ أروىٰ ، فقد وردَ أنَّها عادتْ إلىٰ المدينةِ المنوَّرةِ بعد دخولها قَصْر معاويةَ ، وبقيتْ مكرمةً بين قومها إلىٰ أن توفيتْ في المدينةِ المنورة في خلافةِ معاوية[1] ـ رضي الله عنه ـ ، وبوفاتها انقطعتْ أخبارها وانقطعتْ تلك القَصصُ المزعومةُ التي أُلْصِقَتْ بسيرتها.

* رحمَ الله أروىٰ بنتَ الحارث ، وجعلهَا في مستقرّ رحمتهِ.

* * *

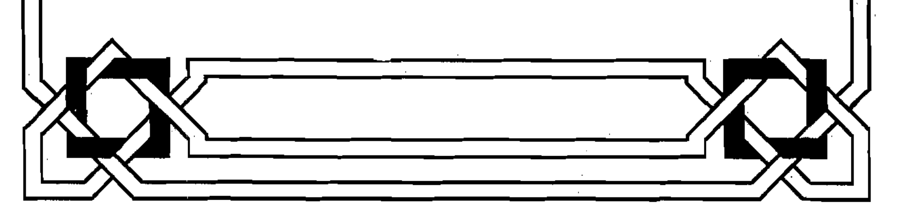
(١) أنساب الأشراف ، القسم الرابع/ الجزء الأول ص (٤٢٠ و٤٣١).



(٢)

أم البراء بنت صفوان

* من الوافدات على الخليفة معاوية رضي الله عنه .
* شاعرة ، فصيحة ، ذات شخصية قوية جريئة .
* رَثَتْ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه .



مِنَ الفَصيحَاتِ البليغَاتِ:

* لم يحفظْ لنا تاريخُ هذهِ المرأة اسمَها ، ولم تَعْلَقْ بذاكرةِ المصَادرِ وذاكرةِ التَّاريخِ سوىٰ كنيتِها ، ولكنَّ المصادرَ حفلَتْ بوصفِها وصفَةِ دخولها قَصْر معاويةَ بن أبي سفيان، حتى لقد وصفَتْ لباسَها وهيئتَها ، بَيْدَ أنَّ التَّاريخَ ومن ورائِهِ المصادرُ قد غفلُوا أو أَغْلفوا هُويّةَ هذهِ المرأة ، فلم يذكُروا لها موطناً أو قبيلةً كغيرِها منَ الوافداتِ علىٰ معاويةَ ، ولعلَّ الذين حاكُوا قصَّتَها فاتهم ذلك، أو نسُوا أنْ يجعلُوا لها موطناً أو قبيلةً ، كما جعلوا لغيرها وطناً وقبيلةً .

* وضيفةُ هذه الصَّفحات التي نتحدَّثُ عنها ، والتي وجدناها في قَصْرِ أمير المؤمنين معاويةَ تُدعى أمّ البراءِ بنت صفوان بنِ هلال[1] ، وهي إحدىٰ النّسوة الشَّواعر الفصيحات اللواتي دخلْنَ علىٰ معاويـةَ بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ وكانتْ لها معه قصَّةٌ طريفةٌ وأشعارٌ خفيفةٌ ، حَفِظَها معاويةُ وحده ، وذكّرَها بها يوم أنْ دخَلَتْ عليه .

* ومنَ الجدير بالذكْرِ أنَّ النِّساءَ الوافداتِ علىٰ معاويةَ واللاتي عُرِفْنَ بكنيتهنَّ هُنَّ : أمُّ سِنان بنتُ خيثمةَ بنتِ خرشة المذحجيّة، وهيَ منْ أهلِ المدينةِ، وكانتِ امرأةً شاعرةً ، وفَدَتْ علىٰ معاويةَ متظلّمةً منْ عاملهِ علىٰ المدينة[2] .

* ومنهنّ أمُ الخيرِ بنتُ الحُريش بن سُراقة البارقيّة الكوفيّة ، التي قدمتْ على معاوية بناءً على طَلَبهِ ، وحاورَها محاورةً تدلُّ على فصاحَتِها وجزالتها[3] .

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٧٨ و٤٧٩) ، والحدائق الغناء في تراجم النساء (ص ٧٤ و٧٥) ، والمختار من نوادر الأخبار (ص ٨١ و٨٢) ، وبلاغات النساء (ص ١١٥ و١١٦) ، وأعلام النساء (١/ ١٢٢ و١٢٣).

(٢) انظر خبرها في تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٥٣٠ ـ ٥٣٢) وغير ذلك من مصادر.

(٣) انظر خبرها في المصدر السابق (ص ٥١٢ ـ ٥١٦) ، وغير ذلك من مصادر.

وكذلك أمُّ البراء بنتُ صفوان ، فهؤلاء قد عُرفْنَ واشتهرنْ بكناهُنَّ ، ولم يُعْرَفْ اسمُهنَّ ، ولكنَّ أخبارَهُنَّ مرسومةٌ في أوراقِ الأيّام ، وصورهن معروفةٌ في ذاكرةِ التَّاريخ ، حيث أعطانا الخطوطَ الرئيسةَ عن صفةِ كلٍّ واحدةٍ منهنّ ، وحفظ أثارةً منْ أقوالهنَّ ، ومنَ العجيبِ أنَّ معاويةَ كان يَحفظُ ما قالَتْهُ كلُّ واحدةٍ منْ هؤلاءِ الوافداتِ ، عِلماً بأنَّ مُعْظمهنَّ ـ كما زعم الرُّواة ـ قد نسينَ ما تكلَّمْنَ بهِ يوم أنْ كانتِ الحربُ مستعرةً بينَ عليٍّ ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ.

كَيْـفَ أَنْـتِ يـا بِـنْـتَ صَفْـوانَ؟

* تزعُمُ المصادرُ التي نقلَتْ لنا أُمّ البراءِ مع معاويةَ بنِ أبي سفيان بأنَّها استأذنتْ عليه ، فأذِنَ لها بالدُّخولِ عليه في قصرهِ بِدمشقَ ، فدخَلَتْ وعليها ثلاثةُ دروع[1] تسحبُها ، قد كارَتْ علىٰ رأسها كُوراً كهيئةِ المِنْسَفِ ، فسلَّمتْ على معاوية ، ثمَّ جلسَتْ.

* ونظرَ إليها معاويةُ ، وسرعان ما تذكَّرَهَا قَبْلَ سنواتٍ وهي تُنْشِدُ الشِّعر ، وقد كانت في أوجِ حَماسِها ، أمَّا الآن فقد غيَّر وجْهَها مخْلبُ الأيّام ، ونالتْ منها السُّنون فجعلتْ جلدَها ضَعيفاً وعظْمها وَاهناً ، وحوَّلَتْ نَشَاطَها إلىٰ كَسَلٍ وفتورٍ ، ثم توَجَّه إليها قائلاً : كيف أنتِ يا بنتَ صفوان؟

قالت : بخيرٍ ونعمةٍ يا أميرَ المؤمنين.

قال : فكيفَ حالُكِ اليومَ؟

---

(١) «دروع» : جَمْع درع ، والدِّرع : لبوسُ الحديدِ ، تُذكّرُ وتؤنّثُ ، ويُقال : درعٌ سابغةٌ ، ودرعٌ سابغٌ ، والجمع في القليل : أدرع وأدراع ، وفي الكثير دروع ، قال الأعشى :
واختــارَ أدْراعَــه أن لا يُسَــبَّ بهــا ... ولــم يكــن عهــدُه فيهــا بختّــار
ودرعُ المرأةِ : قميصُها ، وهو أيضاً الثّوبُ الصَّغيرُ تلبسهُ الجاريةُ الصَّغيرةُ في بيتها ، وكلاهما مذكّر ، وقد يؤنّثان ، وقال اللحياني : درعُ المرأةِ مذكّر لا غير ، والجمع أدراع ، وفي التّهذيب : الدّرع ثوبٌ تجوبُ المرأة وسطه ، وتجعلُ له يدين وتخيط فرجَيْه. (لسان العرب ٨/ ٨١ و٨٢) بتصرف.

قالت: الحمدُ لله، فقد ضعفتُ بعد جَلَدٍ وقوّةٍ، وكَسِلْتُ بعد نشَاطٍ وهمّةٍ، وهذه حالُ الدَّهْرِ مع النَّاس يا أميرَ المؤمنين! فقال لها معاويةُ: يا أمَّ البراءِ، هل تذكرينَ شِعْرَكِ يومَ حَاربنَا مع عليّ بن أبي طالب، وكيفَ كُنْتِ يومَها؟!.

قالت: لا يا أميرَ المؤمنين، ولكنْ إنْ ذكَّرتني فربّما أتذكَّرُ.

قالَ معاويةُ: شتَّان[1] بين يومك الآنَ، ويومَ تقوليْنَ وأنتِ تحرضينَ النَّاس، وتُثيرين همَّتَهم:

يَا زيدُ دُونَك صَارِماً ذَا رَوْنَقٍ ... عَضْب المَهزَّةِ ليس بالخوَّار[2]
أسرجْ جَوادَكَ مُسْرِعاً ومشمِّراً ... للحربِ لَيْسَ مولياً لِفِرارِ
أَجِبِ الإمامَ وذبَّ تَحْتَ لوائِهِ ... وَافْرِ العدوَّ بِصَارمٍ بتّارِ
يا ليتني أصبحتُ ليسَ بعورةٍ ... فأذبُّ عنه عَسَاكِرَ الفُجّار

* ثمَّ إنَّ معاويةَ قال لها: أتذكرينَ هذا الشِّعْر، وهذا النّداء لزيدٍ[3] كي يأخذَ سيفاً صارماً ويقاتلنا؟!

---

(١) «شتان»: اسمُ فعلٍ ماضٍ مبني على الفَتْح، وقد تُكْسَر النُّون، وهو بمعنى تَبَايَنَ وافترقَ، وذلك لا يكونُ إلاّ من اثنينِ فَصَاعداً، تقول: شتّان ما بينهما، شتّانِ ما هما، شتّان ما زيد وأخوه، شتّان بينُهما، بضمّ نونِ بينهما على رفعهِ فاعلاً، وفتحها على نَصْبه ظَرفاً، والاسمُ بعدها مرفوعٌ على أنَّه فاعلُ بها، ولا تدخُلُ علىٰ فِعْل.

(٢) «عضْب»: العضْبُ: السَّيف القاطع، والعضْب: القَطْع نَفْسُه، وعضبتُ الرجل بلسَاني: إذا شتمتُه.
وشاة عضْباء: مكسورةُ القرنِ، فأمّا ناقةُ النّبي ﷺ التي كانت تسمّى العضباء، فإنَّما كان ذلك لقباً لها، وقد تكون النّاقة العَضْباء: المشقوقة الأذن. والأعضب: مَن لا ناصر له. (مجمل اللغة ص ٥٢٤).

(٣) في ترجمةِ بكارة الهلالية إحدىٰ الوافدات علىٰ معاوية ـ رضي الله عنه ـ نجدُ أنَّ بكارة هذه تنشدُ بيتَيْن منَ الشّعر تخاطبُ فيهما زيداً، وهما يُشبهان أبيات أمّ البراء، تقولُ بكارة:

يا زيدُ دونَك فاشْتَثِرْ منْ دارِنا ... سيفاً حُساماً في التُّراب دفينا
قد كنتُ أذخرُهُ ليومِ كريهةٍ ... فاليومَ أبرزَهُ الزَّمانُ مصونا

قالت: قد كانَ ذاك يا أميرَ المؤمنين، ومثلُكَ عَفَا وصَفَح، إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقولُ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥].

لَوْ عَادَ لَعُدْتِ:

* سادَ سكونٌ خيَّمَ علىٰ قَصْرِ معاويةَ بعد أنْ عَلِمَ أنَّ أمَّ البراءِ ابنةَ صفوان لا تريدُ أنْ يُذكِّرها بشيءٍ بَدَرَ منها في السِّنين الخَوالي، ولكنَّ معاويةَ قد دَلفَتْ إلىٰ ذهنِه أبياتٌ لاميّةٌ حزينةٌ حماسيّةٌ رثَتْ أمُّ البراء بها أميرَ المؤمنين عليَّ بن أبي طالب، والتي لا يجيدُها فحوُل الشُّعراء عَصْر ذاك، وهنا تذكَّرَ معاويةُ تلكمُ الأبيات، وتذكَّر حبَّها لعليّ وإكبارها له فقال لها: هيهات هيهات! يابنة صفوان، أما واللهِ لو عاد عليٌّ لَعُدْتِ تظاهرين علينا، ولكنَّه اخْتُرِم قبلك.

قالت: ذاك قَدَر الله، وفعْلُه، ولا رادَّ لقضائِه يا أميرَ المؤمنين.

فقال معاوية: يا أمَّ البراء، فكيف أبياتُك في عليّ حين قُتِلَ؟

قالت: نسيتُها واللهِ يا أميرَ المؤمنين.

قال: لكنِّي واللهِ أحفظُها، وهو واللهِ حينَ تقولين:

يا لَلرِّجالِ لِعُظْمِ هَولِ مُصيبةٍ ... جَلَّتْ فَلَيْس مُصَابُها بالزَّائِلِ
فالشَّمسُ كاسِفةٌ لِفَقْدِ أميرِنا ... خيرِ البريةِ والإمام العَادِلِ
يا خيرَ مَنْ ركبَ المطيَّ ومَنْ مَشىٰ ... فوقَ الثَّرى منْ محتفٍ أو نَاعِلِ
حاشَا النَّبي لقد هَدَمْتَ قواءَنا ... فالحقُّ أصبحَ خاضعاً للباطلِ(١)

---

(١) منَ الواضحِ لكلّ مَنْ عنده أدنىٰ معرفة بالشِّعْر أنَّ هذه الأبيات مصنوعةٌ بعد عَصْر معاوية بقرونٍ، وقد نحلَها الرواةُ لأمّ البراء، وزعموا أنّها أنشدتها في رثاءِ عليّ وأن معاوية قد حفظها، ثم إنَّ ظِاهرَ الأبياتِ تدلُّ على صَنْعتِها وعلىٰ التكلُّف فيها، ومخالفتها لأصولِ اللغة حيثُ تطرأُ اللحنُ إليها ومخالفة قواعد اللغة حيث مدَّ المقصور في كلمةِ قواءنا وهذا لا يجوزُ في شِعْر ولاغيره، لأنّه خروجٌ عن الأصل، ولكنْ هكذا طاب للرواة وللوضاعين.

* ثمّ إنَّ معاويةَ قال لها: قاتَلَكِ اللهُ يا بنتَ صفوان! ما تركتِ لقائلٍ مقالاً؟ واللهِ ما كان حسّان[1] يُحْسِنَ هذا! ألكِ حاجةٌ؟

قالت: هيهات، أمّا الآنَ فلا، واللهِ لا سألتُكَ شيئاً.

* ثمّ إنَّ أمَّ البراء قامتْ فعثرت بثوبها فقال: تَعِسَ شانىءُ عليّ.

فقال لها معاوية: يا أمَّ البراء زعمت ألا[2]....

قالت وهي غاضبةٌ: هو واللهِ ما تعلمُ يا أميرَ المؤمنين.

* ثم خرجتْ، ولمّا كانَ اليومُ التّالي، بَعَثَ إليها بكسوةٍ فاخرةٍ، ودراهمَ كثيرةٍ وقال: إذا أنا ضيَّعْتُ الحلْمَ فمن يحفظه[3]؟!

* وبعد، فهذه أمُّ البراءِ بنتُ صفوانَ التي شَهِدْنَاهَا في قَصْرِ معاويةَ، ولكنّا لم نَعُدْ نشهدُ لها بلاغةً أو شعراً بعد خروجها منَ القَصْرِ، وغابتْ وغابَ عنّا كثيرٌ من أخبارِها، إنْ سلَّمْنَا بوجودِها، أو بوجودِ الكلامِ الذي نُسِبَ إليها، أو الشِّعر الذي زعموا أنَّها أنشدته في المعركةِ أو في رثاءِ عليّ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

* ولكنْ يمكننا أنْ نقولَ: لقد مارسَ الوافدون والوافداتُ علىٰ معاويةَ الحريةَ والتَّعبيرَ عن آرائِهم دون وَجَلٍ أو خوفٍ، وهذا يشيرُ إلى عظمةِ أولئك الرِّجال وتلكم النِّساء ممن سطَّرنَ في جبين الدَّهر أجملَ سطورِ النساء.

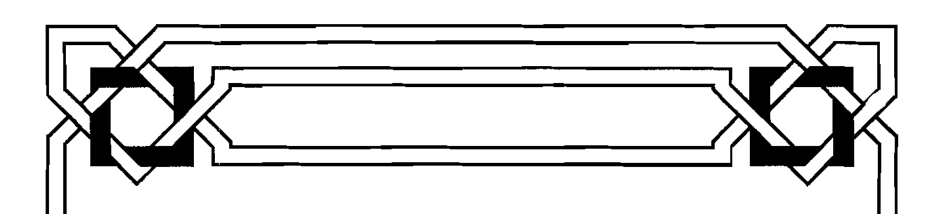
* * *

---

(١) المقصودُ حسّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ وهو شاعرُ الرّسول ﷺ: فتأمل الافتراء!!

(٢) يشيرُ معاوية هنا إلى قولها «عفا الله عما سلف» أي أنها زعمت ألا تعودَ إلى مثل قولها الأوّل ثم عادت.

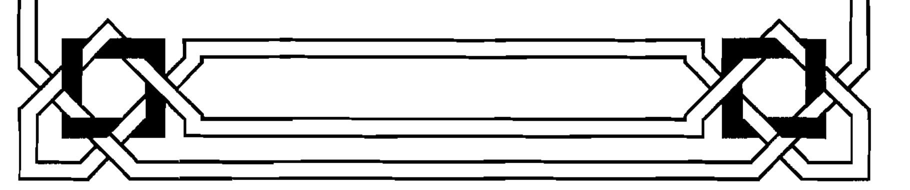
(٣) عن بلاغات النساء (ص ١١٥ و١١٦)، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٧٨ و٤٧٩) مع الجمع والتصرف. وانظر: الحدائق الغناء في أخبار النساء (ص ٧٤ و٧٥)، وأعلام النساء (١/ ١٢٢ و١٢٣)، والمختار من نوادر الأخبار (ص ٨١ و٨٢).



(٣)

بوران بنت الحسن

* زوج المأمون الخليفة العباسي ، أديبة عاقلة فاضلة .
* صُنِع لها عرس تحدَّثُ عنه التاريخ وما يزال .
* كانت متصدِّقة ، خيِّرة ، فَطِنة ، راوية للشعر ، واسعة المعارف .



مَـنْ هِـيَ بُـورَان؟

* عنْـدَمَا تحدَّثَـتْ زينبُ بنتُ يُوسُف فـوَّاز العامليّـة عن امـرأةِ هـذهِ الصَّفحات ، بدأَتِ الحديثَ عنْها بقولها : كانتْ أَحْسَـنَ نسـاءِ زمانِهـا ، وأجملهُنَّ وأكرمهُنَّ أخْلاقاً ، وأفْضَلَهنَّ أدباً ، وأوفرهُنَّ عَقْلاً ، لها إلمْامٌ بصناعةِ الطَّربِ ، تربَّتْ في بيتِ أبيها أَحْسنَ تربيةٍ ، وخالطَتْ نساءَ الرَّشيدِ ، واكتسبتْ مِنْ آدابهنَّ ، ولما وليَ المأمونُ الخلافةَ افتتنَ بها ، وخَطَبها منْ أبيها[١] .

وبهذا تنتَظِمُ هذهِ المرأةُ في هذا العِقْدِ الجميلِ الذي نُحلّي به جِيْدَ هذِهِ الموسوعةِ ، وتنتظمُ في سِلْكِ النِّساء اللائي عشْنَ في قُصورِ الأُمَراء ، وتركْنَ دويّاً في دُنيا التَّاريخ ما يزالُ صَدَاه مسْمُوعاً إلىٰ الآن .

* فَمَنْ هذهِ المرأةُ التي حالَفَها الحظُّ لتدخلَ بيتَ الخلافةِ ، وتمكثُ فيه مدَّة منَ الزَّمنِ ، تأمرُ وتنهىٰ ، وتغضبُ وترضىٰ ، وتسرُّ وتُسَاء؟!

* أجمعَ المؤرّخُون علىٰ أنَّ اسمَها خديجةُ بنتُ الحسنِ ، ولكنَّ كثيراً من النَّاس لا يعرفونَها بهذا الاسِم ، وإنّما غَلَبَ عليها لقبُها ، فأضحتْ لا تُعرفُ إلاّ بهِ في الكُتُب والمصَادِر حيث تُعْرَفُ باسم بُورَان .

* وتقدِّمُ المصادرُ المتنوِّعةُ بطاقَتَها فتقول : هي بُورانُ[٢] بنتُ الحسنِ بنِ

---

(١) الدّرُّ المنثورُ (ص ١٠٢) .

(٢) شرح مقامات الحريري (٢/ ١٦٧ ـ ١٦٩) وطبعة مصر (٤/ ٣٣٤ ـ ٣٤٢) ، ووفيات الأعيان (١/ ٢٨٧ ـ ٢٩٠) ، والنجوم الزاهرة (٢/ ١٩٠) ، ونهاية الأرب (٢٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢٥) ، والـدّرّ المنثـور (ص ١٠٢ و١٠٣) ، والعِقْـد الفـريـد (٨/ ١٤٢ ـ ١٥٣) بتحقيق العريان ، وشذرات الذّهب (٣/ ٤٨ و٤٩) ، والمعارف (ص ٣٩١) ، والمستجاد (ص ١٩١) ، وأعلام النّساء (١/ ١٥٩) ، ونزهة الجلساء (ص ٢٤ و٢٥) ، وثمارُ القلوب (ص ١٦٥ و١٦٦) ، والدّيارات (ص ٩٨ و١٥٦ =

سَهْل وزير المأمونِ العبَّاسيّ ، وكانَ الحسنُ بن سَهْلٍ أحد أعلامِ التَّاريخ المشَاهير.

* كانَ مولدُ بوران[1] في صَفَر سنة (١٩٢ هـ) حيثُ فَرِحَ بها أبوها ، ويبدو أنَّ بورانَ هذه كانت سَميّةً لبوران[2] ابنة أبرويز بنِ هرمز من وَلَدِ كسْرىٰ أنوشُروان ، لأنَّ والدها الحسن بن سَهْل السَّرخْسِي من سَرَخْس بلد منْ بلاد خُراسَان.

* وكانَ الحسنُ بنُ سَهل وزيراً للمأمونِ بعد أخيهِ ذي الرِّياستَيْن الفَضْلِ بنِ سَهْل ، وكان بنو سَهْل فُرْساً علىٰ ديْنِ المجوسِ ، وكانا منْ بيتِ رياسةٍ. يقولُ الجهشياري:

إنَّ اتصالَهم بالدَّولةِ العبَّاسيّة كانَ زمنَ الرّشيدِ[3] ، حيثُ أسْلَما مع أبيهما في خلافةِ هارون الرَّشيد ، ومن ثمَّ اتّصلُوا بالبرامكةِ ، فانضمَّ سَهْلٌ ليحيىٰ بن

= و١٥٧ و١٥٨) ، والذّخائر والتّحف (ص ٣٢ و٣٣ و٩٨ و٩٩ و١٠٠ و١١٩ و٢٥٦) ، والفرج بعد الشّدة (٢/ ٢٢٧) و(٣/ ٣٢٩ و٣٣٢) ، والأغاني (١٠/ ٧٣) و(٢٥/ ١٩١) ، ونفح الطيب (١/ ٤٢٢) و (٥/ ٣٣٨) و(٧/ ٤٥) ، والمعارف (ص ٣٩١).

(١) وَرَدَ أنَّ بُورانَ اسمُ امرأةٍ فارسيّ ، ومعناه: حَسَنَةُ الذّكْرىٰ ، وبورانُ بنتُ الحسن اسمها خديجةُ كما أسْلفنا ، ولعلَّ أباها قد لقّبها بهذا اللقب لتكونَ حسنة الذّكرىٰ.

(٢) بُورانُ ابنةُ أبرويز المذكور ، كانتْ مِنْ أحْسَنِ مَنْ نَشَأَ بينَ التُّرك والفُرس منَ النِّساء ، وملكتِ النَّاس بَعْد شَهريار بن أبرويز ، وأصلحتِ القَناطِرَ والجسورَ ، ولمّا جلَسَتْ علىٰ السَّرير قالت: ليسَ ببطشِ الرِّجال تُدَوَّخُ البلاد ، ولا بمكايدهم يُنَال الظَّفَر ، وإنَّما ذلك بعونِ اللهِ وقُدرَتِه تعالىٰ ، وأقامتْ سبعة أشهرٍ ، ولما بَلَغَ النَّبيَّ ﷺ أمْرُهَا ، قال: «لا يُفلح قومٌ ولَّوا أمرهم امرأة». (سَرحُ العيون ص ٨٢) و(الدر المنثور ص ١٠٢).
وقال خليفةُ بنُ خيَّاط: وفي سنةِ تِسْع هجرية قُتِل شَهرابراز ، وملّكوا بُوران بنت كسرى ، وفي سنةِ عَشْر منَ الهجرة ، ماتت بُوران بنتُ كسرى ، وملكَتْ فارس أختها بَلْزرمىٰ بنت كسرى ، (تاريخ خليفة بن خياط ص ٥٧ و٥٨).

(٣) الوزراء والكتاب (ص ٢٢٩ ـ ٢٣١).

خالد البرمكيّ الذي رعَاهُ وقرَّبَه ، وضمَّ يحيىٰ بنُ خالد الأخوَيْن الحسنَ والفَضْلَ ابنا سَهْل إلىٰ ولديه ، فضمَّ الفضلَ بنَ سَهل إلىٰ جعفر ، وأرسلَ يحيىٰ إلى ابنهِ جَعْفَر أن يُدْخِلَ الفضلَ إلىٰ المأمونِ ، ففعل وأسلمَ علىٰ يدي المأمون.

وضمَّ الحسن بن سهل إلى الفضلِ بن يحيى ، فضمَّ جعفر الفضل بن سهلٍ إلى المأمونِ وهو ولي عَهْد ، ولما مات الفَضْلُ وليَ الحسنُ مكانَه وزيراً ، ثمَّ لم تزلْ رتبته في ارتفاعٍ إلىٰ أنْ تزوَّج المأمونُ بابنتهِ بُورانَ[1].

* وكانَ الحسنُ بنُ سَهْل عاليَ الهمّةِ ، كثيرَ العطَاءِ للشُّعراء وغيرِهم ، قَصَدَهُ بعضُ الشُّعراء وأنْشَدُه:

تَقُولُ حَلِيْلَتي لمَّا رأَتْني ... أَشُدُّ مَطيَّتي مِنْ بَعْدَ حَلِّ

أَبَعْدَ الفَضْلِ تُرْتَحلُ المَطَايا ... فقُلْتُ نَعم إلىٰ الحَسَن بن سَهْلِ

فأَجْزَلَ عطيَّتَه[2].

* وقالَ الحسنُ بنُ سَهْل لبنيه: يا بنيّ تعلَّمُوا النُّطْقَ ، فإنَّ فضْلَ الإنسانِ علىٰ سائرِ البهائم به ، وكلّما كُنْتم بالنُّطقِ أحذقَ ، كنتم بالإنسانية أحقّ.

* وأمَّا الفَضْلُ بنُ سَهْل عمُّ بورانَ فقد اشتهرَ بعلمِهِ وكَرمِهِ ، وكان نبيلَ النَّفس يذهبُ مذْهَبَ البرامكةِ في الجودِ ، ولا ينصرفُ أحدٌ منْ عندهِ إلاّ وهو راضٍ[3] ، ولكنّه كانَ شديدَ العقوبةِ إذا عاقبَ. وكان يحيى بنُ خالدٍ يقدّره تقديراً كبيراً ، وينزلُه منزلةً حسَنَة ، وكذلك المأمون كان يلقّبُه أخَاه[4] ،

---

(١) النجوم الزاهرة (٢/ ٢٨٧).

(٢) وفيات الأعيان (٢/ ١٢٠).

(٣) الوزراء والكتاب (ص ٣٠٧).

(٤) الأغاني (١٨/ ١١٨) طبعة مصر.

وجاء عنه أنَّه قال: جهدتُ بالفضلِ بنِ سَهْل الجهدَ كلَّه أنْ أزوِّجه بعضَ بناتي فأبىٰ وقال: لو صَلَبتني ما فعلتُه[1].

* وكان الفضلُ بنُ سَهل أوَّلَ وزيرٍ للمأمون[2]، وقد سمَّاه ذا الرِّئاستَيْن، لأنَّه تولىٰ رئاسةَ السَّيْفِ، ورئاسةَ القَلمِ، أي: رئاسة الجيوشِ ورئاسة الدّيوانِ.

* وفي هذه البيئةِ نَشَأَتْ بوران، ونشأ معها نصيبٌ وافرٌ منَ المعرفةِ والأَدَبِ والعِلْمِ والثَّقافةِ، وغَدَتْ إحدىٰ مشاهيرِ النِّساء في قُصورِ الأمراء والخُلَفاء، بل غَدَتِ السَّيدة الأولىٰ في القَصْرِ المأموني، يومَ أنْ تَسَلَّمَ المأمونُ الخلافةَ بعد قَتْل أخيهِ الأمين.

كَيْفَ عَرَفَ المَأْمُونُ بُورَانَ وتَزَوَّجَها؟

* تشيرُ المصادرُ المتنوعةُ إلى قصَّةِ زواجِ المأمونِ منْ بورانَ إشارةً لا تخلوُ منْ ظَرفٍ وطرافةٍ، ويبدو أنَّها مستوحاةٌ من قَصَصِ ألفِ ليلة وليلة، حيثُ نَجدُ فيها ما يتوافقُ مع أحداثِ قصَّة زواجِ بورانَ منَ المأمونِ[3]، فقد كانتْ بغدادُ في عَصْرِ بورانَ قد ازدهرتْ فيها الحضارةُ ازدهاراً رفيعاً، واحتشدتْ قصورُها بالجواري والقيَانِ والغلمانِ، وانتشرتْ فيها مجالسُ اللهوِ والشَّراب، وغصَّتْ بأنواعِ منَ الأجناسِ المختلفةِ نتيجةً للفتوحِ والسَّبي، وكانَ لكلٍّ منْ هذه الأجْناسِ صفاتُه، ومميزاتُه الخاصَّة، ولكنَّ

---

(١) الوزراء والكتاب (ص ٣٠٧).

(٢) منَ الجديرِ بالذِّكْرِ أنَّ المأمونَ كانَ من أمٍّ فارسّية، وقد سَاعَدَ ذلكَ علىٰ انحيازه إلى المعسكر الفارسيِّ، فأحاطَ نَفْسَه ببطانةٍ فارسيةٍ علىٰ رأسِها وزيره الفضلُ بنُ سَهْلٍ لذلك كان أخوالُ المأمون منْ الفرسِ الذين كانوا يلقّبونَه ابن أختنا، وكانَ الفضلُ بنُ سهلٍ ربيبَ البرامكةِ، وعُرِفَ بتطرُّفِهِ في النّزعَةِ الفارسّية، حتّى لقد أرادَ أنْ يجعلَ المُلْكَ كُسروياً، فكانَ يقولُ للمأمونِ: اصبرْ قليلاً وأنا أضمنُ لك الخلافةَ. (الوزراء والكتاب ص ٢٧٨).

(٣) انظر كتاب: ألف ليلة وليلة: الليلة (٢٧٩ إلى ٢٨٢).

الطَّابعَ القويَّ الذي سادَ هذه الأجناس جميعاً هو الطَّابعُ الفارسي ، فتغلغلتِ العاداتُ الفارسيةُ في النُّفوسِ ، وأصبحَ تقليدُها أمْراً محبَّباً؛ حتى قال المقريزي : فسمُّوا عوائِدَ العجمِ أدَباً ، وقدَّموها على السُّنَّةِ[1] .

* وظهرَ التَّأثيرُ الفارسيُّ بشكلٍ واضحٍ في قصور الأُمراء والخُلفاءِ ، حيثُ أغرقُوا في التَّرفِ ، وأكثروا حولَهم منْ مظاهرِ الأبَّـهَـةِ والعظمةِ ، وكانَ البرامكةُ وآل سَهْلٍ ممن أسرفَ في البَذخِ ، ذلك السَّرفِ الذي كان يتعجَّبُ منه المأمونُ نفسُه؛ إذْ قالْ بمناسبةِ زواجهِ من بورانَ عندما رأىٰ ذلك البذخ : هذا سَرَفٌ .

* أمَّا كيفَ عرفَ المأمونُ بورانَ ، وعَلِمَ أحْوالها ، فهذا ما أوردتْه كثيرٌ منَ الكتبِ والمصَادِر الأدبيةِ التي تصوِّرُ حالةَ العَصْر آنذاكِ ، ولكنَّ قصَّة زواجِ المأمونِ منْ بورانَ لا تخلو منْ مفاجآتٍ استلهمها الرُّواة منْ أقاصيص الفُرس ، ودبّجُوها وجعلُوها تجري في المجتمع العربيِّ في عَصْر المأمون ، كما جعلُوا بطلّ قصَّة زواجِ بوران إسحاق المَوصلَي[2] الذي قادَتْهُ المصادفات

---

(١) النزاع والتخاصم (ص ٧٣).

(٢) أبو محمَّد إسحاقُ بنُ إبراهيمَ بن مَاهَان التَّميميّ بالولاءِ ، الأرَّجَاني الأصْل ، المعروفُ بابن النَّديم الموَصِلي ، وُلدَ في سَنَة (١٥٠ هـ).
كانَ منْ ندماءِ الخُلفاء ، وله الظَّرفُ المشهورُ ، والخلاعةُ والغِنَاءُ اللذان تفرَّدَ بهما ، وكانَ منَ العلماءِ باللّغة والأشعارِ وأخبارِ الشّعراء وأيّام النَّاس ، وكانَ مليحَ المحاورةِ والنَّادرةِ ، ظَريفاً فَاضِلاً ، كَتَبَ الحديثَ عنْ سُفيان بنِ عُيينَةَ ، ومالك بنِ أنس ، وهُشيم بنِ بشير ، وأخذَ الأدبَ عن الأصمعيِّ ، وأبي عُبيدة ، وبرعَ في علْمِ الغِنَاء ، فَغَلَب عليه ونُسِبَ إليه ، مع أنَّ فَنَّ الغِنَاء أصغرُ العلومِ عنده ، ولم يكنْ له فيهِ نظير .
وكان الخلفاءُ يكرمونَه ويقرّبُونه ، وكان كثيرَ الكُتب ، وخصوصاً كُتُب اللغة ، وأخبارُه كثيرةٌ مجموعةٌ في عديد من كُتُب التَّراجم والأَدب ، وله نظمٌ جَيّد وشعْرٌ جميلٌ ، فمنه ما كَتَبه إلىٰ هارون الرّشيد :

وآمِـرةٍ بـالبُخْـل قُلْـتُ لهـا اقْصـري	فليـسَ إلـىٰ مـا تـأمُـريـنَ سَبيـلُ
أرىٰ النَّـاس خـلاَّنَ الجـوادِ ولا أرىٰ	بخيـلاً لـهُ فـي العَـالميـنَ خَليـلُ=

إلىٰ ذلك ، وقصَّ علينا نبأَ زواجِ بورانَ من المأمونِ في خبرٍ طويلٍ استغرقَ بضْع صفحات.

* وفي رحلتنا الطَّريفةِ هذه مع النِّساء في قُصور الأمراءِ ، نوردُ هذه القصّة في شيءٍ منَ التهذيبِ والاختصارِ ، لكي نستجلي حقائقَ الأُمور.

* حدَّثَ إسحاق الموصلي ما مفادُه قال: كنتُ عندَ المأمونِ يوماً ، وقد طابتْ نَفْسُه ، فأدْخَلَني مجلِساً أنيقاً نُصِبَتْ فيه الموائدُ ، فأكَلْنا وشربْنَا ، ثمَّ دخلَ إلى الحريمِ وقالَ: يا إسحاق كُنْ بمكانكَ ولا تَبْرَحْ.

* ومضىٰ عامَّةُ الليلِ ، وأردتُ الانصرافَ ، وكنتُ مقدَّمَ الأمْرِ عندَ المأمونِ ، مقبولَ القَولِ ، لا أُعَارَضُ في شيءٍ ، فخرجتُ منَ الدَّارِ ومشيتُ فأحْسَسْتُ بالبولِ ، فعمدتُ إلىٰ بعضِ الأزقَّةِ ، وقضيتُ حاجَتي قُربَ جِدارٍ ، وقمتُ ، فإذا بشيءٍ مُعلَّقٍ بالجدار ، فدنوتُ لأعرفَ ما هو ، فإذ بِزَبيْلٍ[1] كبير بأربعةِ مقابضَ ، مُلبَّس ديباجاً ، فقلتُ: إنَّ لهذا سبَباً وأمْراً ، وبقيتُ أتروّىٰ في أمْرِهِ ، ثم تجاسرتُ وجلسْتُ فيه ، فلمّا أحسَّ بي الذين يرقُبونَه ، جذَبُوا الزَّبيل ، فإذا أربعُ جَوَارٍ يقُلْنَ لي: انزلْ بالرَّحبِ والسَّعَة ، فَنَزَلْتُ داراً نظيفةً مفروشةً ، لم أرَ مثْلَها إلاّ في دارِ مَلِكٍ ، فجلستُ فما شعرتُ إلاّ بَعْدَ ساعةٍ بوصائفَ يمشينَ بالشَّمْع وبينَهنَّ جاريةٌ تتهادىٰ كأنَّها البدرُ الطَّالعُ ، فنهضتُ قائماً ، فقالتْ: مرحباً بكَ منْ زائرٍ ، وسألَتْني عنْ صِناعَتي ومَولدي ومكَاني منَ النَّـاسِ.

* ثمَّ أنشدتنِي بجماعـةٍ من الشُّعـراءِ القُدمَـاء والمحدثيـنَ منْ مَحـاسِنِ

= وإنّـي رأيـتُ البُخـلَ يُـزْري بـأهْلـهِ ... فـأكـرمـتُ نَفسـي أنْ يُقَـال بخيـلُ
عَطـائـي عطـاءُ المكثـريـنَ تكـرُّمـاً ... وَمَـالـي كمـا قَـدْ تعلميـنَ قليـلُ

توفيَ إسحاق الموصلي في رمضان سنة (٢٣٥ هـ) وعمرُه (٨٥ سنة) رحمه الله.
(وفيات الأعيان ١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٥) بتصرف يسير.

(١) «الزبيل»: القُفَّة ، والجمع: زُبُل (لسان العرب ١١/ ٣٠١) مادة (زبل). والزّنبيل لغة في الزّبيل.

أشْعَارِهم وأجْوَدِها بجودَةِ ضَبْطٍ وحسْنِ أَدَبٍ وأداءٍ وروايةٍ ، ثمَّ قالتْ : هلْ رويتَ منَ الأشعارِ شيئاً؟

قلتُ : شيئاً ضعيفاً .

قالت : فإنْ رأيتَ أنْ تُنْشدَنا ، فأنشدتُها بجماعةٍ منَ القُدماء ، فاستحسَنَتْ ذلك ، وسألَتْني عن أشياءَ في شِعْري وأنَا أجيبُها بما أعرفُ وهيَ مُصْغِيةٌ إليَّ ، ثمَّ قالت : واللهِ ما ظنَنْتُ أنَّه يُوجدُ في عَوام التُّجارِ ، وأبناءِ السُّوقَةِ مثلَ ما معَك ، ثمَّ أمرتْ بالطَّعام فأكلتُ ، وبالشراب فشربتُ ، ثم قالت : هذا أوانُ المذاكرةِ بالأخبارِ ، وأيّامِ النَّاس ، فأخبرتُها عدَّةَ أخبارٍ حِسَان ، فقالت : لعمري لقد أحْسَنْتَ الحِفْظَ ، وإنَّكَ بارعُ الأَدبِ ، مليحُ الشَّكْل ، فاضلٌ في الرِّجال ، وما بقيَ عليكَ إلا شيءٌ واحدٌ حتى تكونَ قد برَّزْتَ وبرعْتَ .

قلتُ : وما هو؟

قالت : لو كنتَ تترنَّم ببعضِ الأَشْعَار .

فقلتُ : واللهِ إنِّي قديماً أَشْتَهيهِ ، ولم أُرْزَقْهُ فأعرضْتُ عنه ، وأحبُّ أنْ أسمعَه في لَيْلَتي هذه .

فأمرتْ بإحْضَارِ عُودٍ ، فجسَّتْه واندفعتْ تغنّي بصوتٍ ما سمعتُ كحسنِهِ ، وأدائِهِ وجَوْدَةِ الضَّرب .

فقلتُ : واللهِ لقد جَمعَ اللهُ لَكِ خِلالَ الفَضْلِ ، وحَباكِ بالكمالِ الرَّاجح ، والعَقْلِ الوافرِ ، والأخلاقِ الرضيّة ، والأفعالِ السَّنية .

فقالت : أمَا تعرفُ لمن هذا الصّوت ومَنْ غنَّى به؟

قلت : لا واللهِ .

قالت : الغناءُ لإسحاقَ ، والشِّعْرُ لفلان ، وكيفَ لو سمعْتَ الغِنَاء منْ إسحاقَ؟ ! !

* ولم تزلْ كذلكَ حتّى انْشَقَّ الفجرُ ، فأقبلتْ عجوزٌ وقالت لها : إنَّ الوقتَ قد حَضَر ، فَنهَضْتُ فقالت : مُصَاحِباً للسّلامة ، اسْتُرْ ما كُنَّا فيه .

* فودّعْتُها ، وخرجتُ إلىٰ داري فصلَّيتُ الصُّبْحَ ونمتُ ، فما انتبهتُ إلا ورُسُلُ المأمونِ على البابِ ، فسِرْتُ إليه ، فلما رآني قال : يا إسحاقَ تشاغَلْنَا عَنْكَ ، ثم قالَ : هل لكَ فيما كنّا فيهِ أمْسِ؟

فقلتُ : وما يمنعُ ذلك؟! فنهضتُ إلىٰ مَجْلسِ أمسِ ، فلما كانَ العشاءُ قال : لا ترِمْ ، فإنّي أجيئُك ، ونَهَضَ ، فتذكَّرتُ ما كنتُ فيهِ البارحةَ فخرجتُ ، ومضيتُ نحو الزُّقاق ، فوافيتُ الزَّبيلَ ، فجلستُ فيه ، فَرُفِعَ بي إلىٰ موضعِ البارحة ، فإذا هي قد طَلَعتْ ، فقالت : ضيفُنا ، أَوَعَاودت؟
قلتُ : نعم ، وأظنُّ أنَّي قد أثْقَلتُ. ثمّ أخذنا في مثلِ الليلةِ السَّالِفَةِ منَ المُذاكرة والمُناشَدة ، وغريبِ الغِناءِ منها إلى الفجرِ.

* فانصرفتُ إلى منزلي ، وصلّيتُ ونمتُ ، فأَنْبهني رسولُ المأمونِ ، فاعتذرتُ له ، فقال : لا تثريبَ عليكَ ، ثمَّ نهضنَا إلىٰ موضِعنا أمسِ ، وجلسْنَا حتّى إذا كانَ الليلُ غابَ عنّي وقال : لا تبرحْ مكانَك ، وذهبَ ، فما هو إلاّ أنْ غابَ ، تذكّرتُ ما كنتُ فيهِ البارحة ، فهانَ عليَّ ما يلحقُني من سخطِهِ ، فخرجتُ بعد أنْ لقيتُ جَهْداً مع الحُرّاسِ والغلمانِ ، ثم وافيتُ الزَّبيل ، فقعدتُ فيه ، فرفعتُ إلىٰ موضعي ، وأقبلتْ ، فقالت : صديقُنا؟!
قلت : إي واللهِ ، إنَّ حقَّ الضِّيافة ثلاثٌ.

ثمَّ جلسْنَا في مثلِ تلكَ الحالِ ، فلما قربَ الوقْتُ ، علمْتُ أنَّ المأمونَ لابدَّ أنْ يسألني ، ولا يقْنَعُ منّي إلا بشرحِ القصَّةِ ، فقلتُ لها : أراكِ ممن يُعْجَبُ بالغِناء ، ولي ابنُ عمّ أحسنُ منّي وجهاً ، وأظرفُ قَدّاً ، وأكثرُ أَدباً ، وأنا حَسَنةٌ منْ حسناتِهِ ، وهو أعرفُ خَلْقِ الله بغناءِ إسحاق الموصلي.

قالت : طُفيليٌّ ومقْتَرحٌ؟!

قلتُ لها : ذكرتُه لكِ لتكوني أنتِ المحكَّمة.

قالت : إن كان ابن عمك على ما تصف ، فما نكره أن نعرفه.

* ثمَّ جاءَ الوقْتَ ، فنهضتُ حتى وافيتُ مَنزِلي ، وإذا برسُلِ المأمونِ قد

هَجُموا عليَّ وحملوني إليه ، فوجدتُه على كرسي وهو مغتاظٌ ، فقال: يا إسحاقَ ، أخروجاً عن الطَّاعةِ؟ وما قصّتُك؟ اصدقْني.

قلتُ: لا واللهِ إنَّه كانتْ لي قصّةٌ أحتاجُ فيها إلىٰ الخلوةِ.

فأومأَ إلىٰ مَنْ كانَ واقفاً فتنحّوا ، فحدثتُه الحديثَ ، وأخبرتُه خبري كلَّه ، فقال: أحسَنْتَ ، ثمّ طفقَ لا يسمعُ ذلك اليومَ إلا حديثها.

* فلما جاءَ الوقتُ نهضْنا وخرجْنا ، فوجدنا برميلَيْن فقعدنا فيهما ، فرُفِعْنا إلىٰ الموضع ، فأقبلتْ وسلَّمَتْ ، فَبُهِتَ المأمونُ حينما رآها ، ثمّ أَجْلَسته في صَدْرِ البيَتِ ، وأقبلتْ تذاكرُه وتناشدُه وتمازحُه ، وهو يَظْهَرُ عليها في كلِّ فَنٍّ ، وهي مقْبلةٌ عليه مسرورةٌ بهِ ، ومسرورٌ بها ، وأَخَذَتِ العودَ فغنَّتْ صوتاً ، فلمّا شربَ المأمونُ ثلاثةَ أرْطَالٍ داخَلَه الفَرحُ والطَّربُ ، ثمَّ رأيتُه ينظرْ إليَّ نَظَرَ الأَسَدِ إلىٰ فريستِهِ ، فصاحَ : يا إسحاقَ ، فنهضتُ وقلتُ: لبيك يا أميرَ المؤمنين!

قال: غنِّ هذا الصَّوتَ.

فلما عَلِمَتْ أنَّه الخليفةُ ، وأنّي إسحاق ، نَهَضَتْ ودَخَلَتْ كِلَّةً مضروبةً ، فلما فرغْتُ منَ الصَّوتِ ، قال: ويحكَ يا إسحاق ، انْظُر مَنْ ربُّ هذه الدَّار.

فسألتُ تلكَ العجوزِ فقالتْ: صاحبُها الحَسنُ بنُ سَهْل.

قلتُ: ومَنْ هذه؟

قالت: بورانُ ابنتُه.

فرجعتُ وأعلمْتُه ، ثمَّ انصرفْنَا ، فقال لي: يا إسحاق ، اكتمْ هذا الأَمْر ، ولا تَتَفوَّهْ به ، ومضينا إلىٰ دارِ الخلافَةِ.

* ولما كانَ الصَّباحُ ، وحضَرَ المجلسَ الحسنُ بنُ سَهْل ، قال له المأمونُ: أَلَك بنْتٌ؟

قال: نعم يا أميرَ المؤمنين.

قال: ما اسمُها؟

قال: بُورانُ.

قال: فَإِنّي أَخْطُبُها إليكَ.

قال: هي أَمَتُكَ وأمْرُهَا إليك.

قال: فإنّي قد تزوّجْتُها علىٰ نَـقْد ثلاثين ألفَ دينار، فإذا قبضتَ المالَ، فاحْمِلْهَا إلينا.

* ثم تزوَّجها وكانتْ أحظىٰ نسائِه عنده، وآثرهُنَّ لديهِ، وكنتُ أسْترُ هذا الحديثَ إلىٰ أنْ ماتَ المأمون.

* قال إسحاقُ: فما اجتمَعَ لأحدٍ ما اجتمعَ لي في تِلْكَ الأربعةِ الأيّامِ: مجالسةُ المأمونِ بالنَّهار، ومجالسةُ بُورانَ بالليلِ، وواللهِ ما رأيتُ منَ الرِّجال أحَداً مثل المأمونِ، ولا شاهدتُ منَ النِّساءِ امرأةً تُقَارِبُ بورانَ فَهْماً وعَقْلاً، وما أظنُّ أحَداً وقفَ منَ العلومِ علىٰ ما وقَفَتْ عليهِ، وكان مذهبُها حبَّ الأَدبِ والمذاكرةِ، ومعاشرةَ أهل المروءة والأَقْدار والنُّبْل، وواللهِ لَقَدْ تَضَاعفَ قدْرها عندي، وعلمتُ شَرفَ همّتِها وفَضْلِها[1].

عُـرْسُ بُـوْرَانَ:

* ذكرتْ عديدٌ منَ المصادرِ علىٰ اختلافِ مشاربها أنَّ المأمونَ قد تزوَّجَ

---

(١) انظر: العقد الفريد (٨/ ١٤٢ ـ ١٥٣) بتحقيق محمد سعيد العريان، وشرح مقامات الحريري (٣٣٤ ـ ٣٤٢) مع الجمع والتصرف والاختصار، هذا ولا يخفىٰ علىٰ القارىء الفَطِن أنَّ هذه القصّة منْ نَسْجِ القصّاص، ومنْ خيَال الرُّواة، حيثُ فيها ما فيها منَ الركاكةِ والوضْع ومخالفةِ حقَائقِ التَّاريخ وأخلاقِ الخُلفاء وما شَابَه ذلك منْ دخول الأَجانب علىٰ البَناتِ ثمّ تكون إحداهنَّ ابنةً لأحدِ الملوكِ أو الأُمَراء أو الوزراءِ، ثم تكونُ أيضاً كاتبةً شاعِرةً ناثرةً تجيدُ الغناءَ وكلّ فنونِ الأدبِ والمعرفةِ، وكأنّنا أمامَ هذه القصّة أمامَ أحدِ الأفلامِ الغنائية السخيفة.

بورانَ بنتَ الحسنِ لمكان أبيها منه ، وذكَرتِ المصادرُ أيضاً أنَّ المأمونَ قَدْ أَنفَقَ في عُرسِها حينَ تزوَّجَها أمْوالاً لا تُحصىٰ ولا تُحْصرُ ، ولم يكنْ يُضَاهي هذا الصَّنعَ إلاّ الإعذارَ الذَّنُّوني في الأَندلس ، وقد أَشَارَ الفقيهُ الزَّجالُ عمرُ في نونيةٍ جميلةٍ أشارَ فيها إلىٰ دعوةِ المأمونِ ابن ذي النّون وعرسِ بورانَ فقال :

لَدَيْكُمْ مِنَ الأَلْوَانِ ما لَمْ يجىءْ بِهِ طُهورُ ابن ذِنّونِ ولا عرسُ بُورانِ[1]

* أمَّا أخبارُ عُرسِ بورانَ ، ووليمةُ المأمونِ عَلَيْها فقد فصَّلَتْ فيه الكتُبُ وأَجْمَلَتْ ، وذكرتْ مِنَ الغَرائبِ ما لا يُعْقَلُ ، ونحنُ مرسلو القولَ في ذلك إنْ شَاءَ اللهُ مع الجَمْعِ والتَّصرُّفِ بينَ المصَادِرِ .

* تقولُ المصادرُ : لمّا خَطَبَ المأمونُ بورانَ ابنةَ الحسنِ بنِ سَهْلٍ ، استعدَّ لها استِعْداداً يَجِلُّ عنِ الوَصْفِ ، واحْتَفَلَ أبوهَا الحسنُ بأمْرِها احتِفالاً عجيباً ، وعَمِلَ منَ الولائِم والأفراحِ ما لم يُعْهَدْ مثلُه في عَصْرٍ منَ الأَعْصَار ، أو مِصْرٍ منَ الأمْصارِ .

* فقد خرَجَ المأمون إلىٰ مكانٍ يُسمَّىٰ «فَم الصِّلْح»[2] في شَهْرِ شعبانَ

---

(١) انظر : نفح الطيب (٧/ ٤٥) ، وبنو ذنّون منْ أعظمِ ملوكِ الطَّوائف ملوك طليطلة بالأندلس ، وكانت لهم دولة كبيرة ، وبلغوا في البذخِ والتّرف إلى الغاية ، ولهم الإعذارُ المشهورُ والذي يُقال له : الإعذارُ الذّنوني ، وبه يُضربُ المثلُ عند أهلِ المغربِ وهو بمثابةِ عُرس بورانَ عند أهل المشرق ، وصاحبُ الإعذار الذّنوني هو المأمونُ ذو المجديْنِ بن ذي النّون ، والمأمون اسمه يحيىٰ بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النّون الهواري صاحبُ طليطلة ، وقد عظمُ سلطانه بين ملوكِ الطوائِف فغلبَ على قرطبة ، وعلىٰ بلنسية ، وتوفي سنة (٤٦٠ هـ) .
(الذخيرة ٤/ ١/ ١٢٩) وما بعدها .

(٢) «فم الصِّلْح» : نَهْرٌ كبيرٌ فوقَ وَاسِط ، فيه كانتْ دارُ الحَسنِ بنِ سَهْل وزيرِ المأمون (معجم البلدان ٤/ ٢٧٦) وفيها قال الشاعر :
يا طُولَ لَيْلي بفمِ الصِّلْحِ أَتْبَعْتُ خُسْراني بالرّبحِ
(الديارات ص ٩٨) .

سنةَ (٢١٠ هـ) فأَمْلَكَ[1] بها ، وفَعَلَ الحسنُ بنُ سَهْل في تِلْكُم الوليمةِ ما لَمْ يفْعَلْه مَلِكٌ في جاهليّةٍ ولا إِسْلام ، وانتهىٰ أمره إلىٰ أنْ نَثَرَ علىٰ الهاشميّين والقواد والكُتّابِ والوجُوهِ والأعيانِ بنادِقَ مِسْكٍ فيها رِقَاعٌ بِأَسْمَاء ضياعٍ ، وأسماء جَوَارٍ ، وتعيين صِلاَتٍ ، وصفاتِ دوابٍّ ، وغيرِ ذلك منْ كلِّ شيءٍ نفيسٍ ، فكانَ إذا وقَعَ شيءٌ منْ ذلكَ في يَدِ مَنْ نُثِرَ عليه شيءٌ منها فَتَحه ، ومضىٰ إلى الوكيلِ المرصدِ لذلك ، فيدفعُ إليهِ الرُّقْعةَ ، ويتسلَّمُ ما فيها ، سواءٌ كانَ ضيعةً ، أو مُلْكاً آخرَ ، أو فَرَساً ، أو جاريةً ، أو مملوكاً ؛ ناهيكَ بالهدايا التي أَتَتْه منْ بَعْضِ البُلْدَان[2] .

* ثمَّ نُثِرَتْ بعد ذلك علىٰ سَائِرِ النَّاسِ الدَّنانيرُ والدَّراهمُ ونوافِجُ المِسْكِ ، وقِطَعُ العَنْبرِ ، وأنفقَ علىٰ المأمونِ وقوادِه ، وجميعِ أصْحَابِه وسائِرِ مَنْ كانَ مَعَه مِنْ أجنادِهِ وأتباعِهِ ، لكلِّ رجلٍ على قَدْرِه ، وكانُوا خَلْقاً لا يُحْصىٰ ، حتَّى علىٰ الجمَّالين والمكاريّةِ ، والملاحِيْنَ ، وكلِّ مَنْ ضَمَّهُ عَسْكرُه ، فلمْ يكنْ في العَسْكر مَنْ يشتريْ شَيئاً لنفسِهِ ولا لدوابِّهِ ، ويُقال :

إنَّ العَسْكرَ قد اشْتَملَ على ستةٍ وثلاثينَ ألفاً ، سوىٰ أهلِ العَسْكرِ منْ سَائِرِ النَّاس[3] .

---

(١) «أمْلكَ» : تزوَّجَ ، وانظر المعارف (ص ٣٩١) .

(٢) ذكرَ القاضي الرّشيدُ بنُ الزّبير أنّه أهدىٰ بعضُ ملوكِ الهندِ إلىٰ الحسنِ بنِ سَهْل في زفاف ابنته بورانَ علىٰ المأمونِ باللهِ ، في سنةِ عشْر ومئَتين ، هدايا منْ جملتِها سَفَطٌ فيه عودٌ هنديّ لَمْ يُرَ مثْلُه (الذّخائرُ والتّحف ص ٣٢) فقرة رقم (٣٨) وكتب ملكُ الهندِ رقعةً مكتوبٌ فيها : هذا العودُ هديةُ ملكِ الهندِ إلىٰ الحسنِ بن سَهْل لزفافِ بورانَ إلى المأمونِ . (الذخائر والتحف ص ٣٣) .
وكانَ ذلك العودُ منْ أجودِ الأنواعِ ، ويبدو أن لَه رائحةً جميلةً جدّاً ، ويبدو أيضاً أنَّه كان يُسْتخَدمُ في العلاجِ والتّطبُّبَ ، إذ كان بعضُ مَنْ يناله ضَعْفٌ يتبخّرُ به فتتحسَّن حالُه .

(٣) ذكر أبو جَعْفر الطَّبري ـ رحمه الله ـ في تاريخه (١٠/ ٢٧٢) أنَّ المأمونَ أقامَ عند الحسن بنِ سَهْلٍ تسعةَ عشَرَ يوماً ، يُعَدُّ له في كلّ يومٍ ولجميعِ مَنْ معه ما يحتاجُ =

* ولمّا جُلِيَتْ بورانُ علىٰ المأمونِ[1] ، فُرِشَ لها حصيرٌ مَنْسُوجٌ بالذَّهبِ[2] ما مسَّهُ أَحَدٌ ، فلمّا وقَفَتْ عَلَيْهِ ، جِيءَ بإناءٍ عظيمٍ مملوءٍ دُرّاً ، فَنُثِرَ علىٰ الحصيرِ ، وكانَ فيمَنْ حَضَرَ منَ النِّساءِ زبيدةُ بنتُ جَعْفَر ، وحمدونةُ بنتُ الرَّشيدِ ، وغيرهُما منْ بناتِ الخُلَفاءِ ، فَلَمْ تلتقِطْ واحدةٌ منهنَّ شيئاً منَ الدُّرِّ أو مِنَ اللآلىءِ المنثورةِ ، فقال لَهُنَّ المأْمُونُ : شَرِّفْنَ أبا محمّدٍ وأكرمنَ بورانَ بالتقاطِكُنَّ الدُّرَّ[3] ، فَمدَّتْ كلُّ واحدةٍ منهنَّ يَدَهَا وأخذَتْ

= إليه ، وكانَ مبلغُ النَّفقةِ عليهم خمسين ألف ألف درهمٍ ـ أي : خمسين مليون درهم ـ ، وأمَرَ لهُ المأمونُ عند منصرفه بعشرةِ آلافِ ألف درهم ، وأقطَعَه فمُ الصِّلْح ، فجلسَ الحسنُ ، وفرّقَ المالَ على قوّادِه وأصحابِهِ وحشَمِهِ.

(1) كان ذلك في (٨ رمضان) سنة (٢١٠ هـ) ، وتوافق (٢٣) كانون أول سنة (٨٢٥ م).

(2) أتتْ بورانُ المأمونَ بجهازٍ لم يُسْمَعْ بمثلهِ قطّ ، كانَ فيه الفرشُ منسوجةً بالذَّهب ، وذكرَ القاضي الرشيدُ بنُ الزّبير أنَّه وُجِدَ في بعضِ الخزائنِ حصيرُ ذهبٍ وزنُها ثمانيةَ عشرَ رِطْلاً ، وذُكِرَ أنّها الحصيرُ التي جُليت عليها بورانُ بنتُ الحسنِ بنِ سَهْل علىٰ المأمونِ في سنة عَشْر ومئتين. (الذَّخائر والتُّحف ص ٢٥٦).
قال ابنُ عبدوس: وكانَت نفقةُ المأمونِ باللهِ حينَ دخلَ بخديجةَ بنتِ الحسن بن سَهْل المعروفة ببورانَ في فَم الصِّلْح ، في سنةِ عَشْر ومئتين ، ثمانية وثلاثين ألف ألف درهم ، وكان يجري في كلّ يومٍ في جملة الجرايات على ستة وثلاثين ألف ملاّح ، ووصل المأمونُ أباها بعشرة آلاف درهم ، وقيل ألف ألف دينار ، ففرَّقَها في قوّادِ المأمونِ وحشمه ، وقيل: وهبها لشاعر مَدَحه!! ووهب لأبيها ألف ألف درهم ، وأقْطَعه فمَ الصِّلح ، وكانت قيمتَه ثمانين ألف دينار ، وكانت نفقةُ الحسنِ بن سهل إليها في هذه الوليمةِ أربعين ألف ألف درهَم ، وقيل: أربعة آلاف ألف دينار.
وقال محمّد بنُ داود: بلغتْ نفقةُ الحسنِ بن سهل على قوّاد المأمونِ وحَمْلِهم وصِلَتِهم والخِلَع عليهم خاصّةً خمسين ألف ألف درهم ، سوىٰ ما أنفقه على تجهيزِ بورانَ بنتِ الحسن بن سهل سبعة وثلاثين ألف درهم. (الذّخائر والتّحف ص ٩٨ و٩٩).

(3) ذكر أبو الفرج الأصبهاني أنَّ المأمونَ لمّا دخَلَ علىٰ بورانَ ، أُجْلِسَ علىٰ حصيرٍ منْ ذهب ، وقد نُسِجَ في الحرير كما فُعِلَ في الحُصرِ ، وجُعِلَ قضبانُ الذّهب ممدودةً بدلاً من الأَسَلِ والإبريسم مكانَ الخيوط ، وجيء بمكَتَّلٍ منْ ذهب مرصّعٍ =

واحدةً ، وبقيَ الدُّرُّ ظاهِراً على حصيرِ الذَّهَبِ ، ولما رأىٰ المأمونُ تَساقُطَ اللآلىءِ المختلفَةِ علىٰ الحصيرِ المنسوجِ بالذَّهَبِ ، قالَ: قاتَلَ اللهُ أبا نُواسٍ! كأنَّه شاهِدٌ هذهِ الحالَ حينَ قالَ في صِفَةِ الخَمرِ والحُبابِ الذي يعلُوهَا عنْدَ المزاج:

كأنَّ صُغْرىٰ وكُبْرىٰ منْ فواقِعها   حَصْباءُ دُرٍّ على أرضٍ منَ الذَّهَبِ

فكيفَ لو رأىٰ هذا معاينةً[1]؟!!

* وذكرَ صاحبُ كتاب «الذَّخائر والتُّحف» أنَّ الحسنَ بنَ سهلٍ نَثَرَ في ذلكَ العُرسِ علىٰ المأمونِ ألفَ حبَّة من الجواهر ، وأشْعَل بين يديهِ شَمْعَةَ عَنْبرٍ وزنُها مئة رِطْل ، وقيل: وزنُها ثمانون رِطلاً ، فأنكرَ المأمونُ ذلك ، وقال: هذا إسْرافٌ ، فأمرتْ زُبيدةُ بنتُ جعفر برفعِها ، وقالتْ: هاتُوا الشَّمْعَ المستعمل[2].

= بالجوهر ، فيه جواهرُ مختلفاتُ الأصنافِ والألوانِ والأَثْمان ، ونُثِرَ منه كبارُ الجوهرِ منَ الدُّر الفَاخِر واللؤلؤ والياقوت ، الذي كلُّ حبّةٍ منه بألوفٍ على تلك الحصير ، وكان أهلُ المأمونِ من الهاشميّات قياماً وفيهن أمّ جعفر زُبيدة ، وفيهن حمدونةُ بنتُ الرشيد ، وغيرهما ، فتكبّرن أنْ يلتقطْنَ ، فقال المأمونُ: ما هذا الوجومُ؟ أكرمْنَها بالتقاطكن من نِثارها ، ثمَّ بدأً فأخذَ واحدةً ، فالتقطتْ كلُّ واحدةٍ واحدةً واثنتين منْ طرفِ الحصيرِ امتثالاً لأَمْره ، وبقي أكثرُ الجوهر علىٰ الحصير. (الأغاني ٢٥/ ١٩٢).

(١) انظر: الذَّخائِر والتّحف (ص ١٠٠) ، وثمارُ القلوب (ص ١٦٥ و١٦٦) ، والدّيارات (ص ١٥٨ ، ١٥٩) والكامل في التّاريخ (٦/ ٣٥٠ و٣٩٥) ، وتاريخ اليعقوبي (٢/ ٤٢٦) ، وتشيرُ بعضُ المصادر إلى أنَّ نفقات هذا الزَّواج قد بلغت (٥٠ مليون درهم) ، ويزعمُ الشَّابشتي في كتابه «الدّيارات» أنَّ المأمونَ أمْهرَ بورانَ مئة ألف دينار وخمسين مليون درهم ، أي أكثر من نصفِ مليون دينار قد أُنْفِقَتْ في حفلة هذا الزَّواج من المهر فقط!!.

(٢) قال الشَّابشتي: وأُوقِدَ بين يدَي المأمونِ تلكَ الليلة ثلاثُ شمعات عَنْبر ، وكَثُر دخانُها ، فقالت زبيدة: إنَّ فيما ظهرَ منَ المروءةِ لكفايةٌ ، ارفعوا هذا الشمع العنبر ، وهاتوا الشَّمع المستعمل. (الدّيارات ص ١٥٨).

* وسألَ المأمونُ زبيدةَ عنْ مِقْدارِ النَّفَقةِ في هذهِ الوليمةِ ، فقالتْ : ما بين خمسةٍ وثلاثينَ إلىٰ سبعةٍ وثلاثين ، فبلغَ ذلك الحسنُ بنُ سَهل فقال : كأَنَّ النَّفَقَة كانتْ بيدِها ، واللهِ لَقَدْ حصرتُها ، فكانت ثمانيةً وثلاثينَ ألفَ ألْفٍ .

* هذا وأقامتِ البِغَالُ[1] وعدّتُها أربعة آلاف بَغْل تنقلُ الحطبَ قَبْلَ الوليمةِ أربعةَ أشْهُرٍ ، وفي أثناءِ الوليمةِ أعوزَهم الحطبُ ، فكانُوا يوقدون الكِتَّانَ عوضاً عنِ الحَطَب .

* وأطلقَ المأمونُ للحَسنِ بنِ سَهْل خراجَ فارس وكُورِ الأهواز مدَّة سنَةٍ ، وقد أكثرَ الشُّعَراءُ والخطباءُ القَولَ في ذلكَ الزَّواجِ فأطْنَبوا ، ومنْ هؤلاءِ الشُّعراء إبراهيمُ بنُ العبَّاس المتوفى سنة (٢٤٣ هـ) الَذي دخَلَ إلىٰ الحسنِ بن سهلٍ في منزِله بفمِ الصِّلح أيّام بناءِ المأمون بابنتهِ بورانَ وأنشده :

لِيَهْنِئْـكَ أَصْهَـارٌ أَزلَّـتْ بعـزِّهَـا ... خُدوداً وجدَّعْت الأُنوفَ الرَّواغِما
جَمَعتَ بها الشَّمْلَيْن من آلِ هاشمٍ ... وحُـزت بهـا لـلأكْـرميـنَ الأكـارِمـا
بنُـوك غَـدَوا آلَ النَّبـيِّ ووارِثـو الـ ... ـخلافةِ والحاوون كِسْرى وهاشما

فقال له الحسنُ : شنْشَنَةٌ أعرِفُها منْ أَخْزَمٍ[2] ، أي : إنَّك لم تَزَلْ تمدحُنا ،

= إنَّ كلَّ ما ذكرناه ليدلُّ علىٰ مدىٰ البذخِ والإسرافِ الذي سَاد هذا العُرسَ ، كما يدلُّ ـ نوعاً ما ـ على الحضارةِ المستوردةِ من حَضَارة الفُرسِ .

(١) قال القاضي الرشيدُ بن الزُّبير : وكانَ للحسن أربعونَ بَغْلاً مرتّبةً لحملِ الخَشَب ، يضربَ في كلِّ يومٍ عدَّةَ مرّاتٍ ينقلهُ سَنَةً كاملةً ، ولم يكْفِ الوليمةَ ، واضطرهم الأمْرُ إلىٰ أنْ قَطعُوا سعْفَ النّخل رَطْباً وصبُّوا عليه الدُّهْنَ والزَّيتَ وأوقدوه . (الذّخائر والتُّحف ص ١٠٠ و١٠١) .

(٢) «شنشنةٌ أعرفُها منْ أخزمِ» : مَثَلٌ يضرب للرَّجُل يشْبِهُ أباه ، والمثَلُ لجدِّ حاتم بنِ عبد الله بن الحشرج بنِ الأخزم ، وكان أخزم من أكرم النَّاس وأجودِهم ، فلمّا نشأَ حاتِم ، وفَعَل منْ أفعالِ الكرَمِ ما فَعلَ قال : شنشنةٌ أعرفُها من أخزم ، فقال عُقَيل بنُ عَلْقمةَ :

إنَّ بنـيَّ ضـرَّجُـونـي بـالـدَّمِ ... شنشنـةُ أَعْـرفُهـا مـنْ أَخْـزَمِ
مَنْ يلق أَبْطالَ الرّجال يكْلَمِ =

ثم قال له : أحْسَنَ اللهُ عنّا جزاءَكَ يا أبا إسحاق ، فما الكثيرُ منْ فعلنا بكَ بجزاءٍ لليسيرِ منْ حقِّك[1] .

* ومنَ الشُّعراء الذين شاركوا في حَفْل زواجِ بُوران محمدُ بنُ حازم الباهليّ الذي يُسْتَطرَفُ قولَه :

بَـــارَكَ اللهُ للْحَســـن ولبـــورانَ فـــي الخَتَـــنْ
يـــا بْـــنَ هـــارونَ قَـــدْ ظَفِـــرْ تَ ولكـــنْ ببنـــتِ مَـــنْ

فلما نُمِيَ هذا الشِّعْر إلىٰ المأمونِ قال : واللهِ ما ندري خيراً أرادَ أمّ شرّاً[2] .

= وإنّما تمثّل به عُقيل، وقيل : الشَّنشنة : الخليقةُ والطّبيعة. (جمهرة الأمثال ١/ ٤٤٣).

(١) انظر : الأغاني (١٠/ ٧٣ و٧٤).

(٢) مروج الذّهب (٤/ ٣٠ و٣١) ، وقد وَرَدَ البيتان في مصادرَ أخرىٰ كثيرة ، وهذا الكلامُ منْ شواهدِ التوجيه ، وهو إيرادُ الكلامِ بوجهَيْنِ مختلفَيْن ، وهنا لمْ يُعلمْ ما أرادَ بقوله : «ببنْتِ مَنْ» ويشبهُ هذا أنَّ رجُلاً ـ وقيل بشار بن برد ـ قد أتىٰ خيّاطاً ليخيطَ له قَميصاً ، فقال : واللهِ لأفَصِّلَنّه لك تَفْصيلاً لا يُدرىٰ أقميصٌ هو أمْ قُباء؟ ففعلَ ذلك ، فقال له صَاحِب الثوب : وأنا واللهِ لأدعونَّ لك دعاءً لا يُدرى ألكَ هوَ أمْ عليك ، وكانَ الخيّاط يسمّى : بشراً أو عمراً ، وكان أعورَ ، فقال :

خَـــاطَ لـــي عمـــروٌ قُبَـــاء لَيـــتَ عينَيـــه سَـــوَاء
قُلْـــتُ شِعـــراً لَيـــسَ يُـــدرىٰ أمـــديـــحٌ أمْ هِجَـــاء

* ومنْ لطيفِ التَّوجيهِ مع توخّي الصّدقِ ، قولُ أبي بكر الصّديق ـ عليه سحائبُ الرضوان ـ حينَ المُهاجرة ، وقد سُئِلَ عن رسول الله ﷺ وهو رفيقُه فقالَ : هذا رجلٌ يهديني السَّبيل. (الفتح الرباني ٢٠/ ٢٨٨).

* ومنَ المستطرفِ في هذا المجالِ ، أنَّه قد رُفعَ غلامانِ إلى بعضِ الولاة ، فاستحسنَ سُمْعَتهما ، فسأل عن نسبِهما ، فقال أحدهما :

أنـا ابـنُ مَـنْ ذلّـتِ الـرِّقـابُ لـه مِـنْ بيـن مَخْـزُومِهـا وهـاشِمهـا
تـأتيتـهِ طـوعـاً إليـه خـاضعـةً يـأخـذُ مـنْ مـالِهـا ومـنْ دَمهـا

وقال الآخر :

أنَا ابنُ الذي لا تَنْزِلُ الأرضَ قِدْرُه وإنْ نـزلَـتْ يـومـاً فسـوفَ تعـودُ
ترىٰ النَّاسَ أفواجاً إلىٰ ضوءِ نارِه فمنهـم قيـامٌ حـولَهـا وقعـودُ=

* وقال إبراهيمُ بنُ العبَّاس الصَّوليّ يهنىءُ الحسنَ بمصاهرةِ المأمونِ في قصيدةٍ أخرىٰ:

هَنَّتْكَ أكرومةٌ جُلِّلتَ نعْمتَهَا ... أَعْلَتْ وليَّكَ واجتثَّتْ أَعاديكا

ما كان يُحبىٰ بها إلاّ الإمامُ ولا ... كانتْ إذا قُرِنْت بالخَلْقِ تعدوكا[1]

* ومن الجدير بالذّكْرِ أنَّ عرسَ بورانَ ظلَّ حديثَ الأَسْمارِ في الإنفاقِ والإسرافِ ، وكانَ النَّاسُ يستعظمونَ ما أنفقَ الحسنُ بنُ سهل في عرسِ ابنته بورانَ مع المأمونِ ، حتّى أُرِّخَ ذلك في الكتب ، وسُمِّيَتْ دعوةَ الإسلامِ.

= فَسَأل عنها بَعْد ذهابِهما ، فقيل: ابنُ حجّام ، وابنُ طبّاخ ، فتعجَّبَ منْ ذلكَ ، ومنْ سترهما قُبْح نسبِهما بهذا التَّوجيه.

* ومن أمثلَةِ التَّوجيه ما يُروى أنَّ أبا الفرج ابنَ الجوزي - رحمه الله - كانَ في مجلسٍ فيه جَمْعٌ منَ أهل السُّنة ، وجمعُ من أهلِ الشّيعة ، فسأله شخصٌ فقال له: مَنْ كان أفْضَل عند النبي ﷺ أبو بكر ، أو عليٌّ؟ فَحَصَل لابنِ الجوزي توقفٌ ثمّ قال: مَنْ كانت ابنته تحته كانَ أفضل ، فأرضىٰ بذلك الفريقَين ، وما ذلك إلاّ من أجْلِ الضّمير ، فإنَّ الكلامَ يُحْتَملُ وجهَيْن: أحدهما: أن يكونَ الضَّميرُ من (ابنته) عائداً إلى أبي بكر - رضي الله عنه - ومن (تحته) عائداً إلىٰ النبي ﷺ ، وهذا الذي فَهِمَه أهل السُّنةِ.

والثاني: أنْ يكونَ الضّميرُ من (ابنته) عائداً إلى النبي ﷺ ، ومن (تحته) عائداً إلى أبي عليّ - رضي الله عنه - وهو الذي فَهمه الشّيعةُ وقنعُوا به.

فانظر إلى هذا الخلاص ، بعد أنْ كان في يَدِ الاقتناص (طرازُ الحلَّة وشفاء الغلّة ص ٦١٣).

(١) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها والتصرف اليسير: وفيات الأعيان (١/ ٢٨٧ - ٢٨٩) ، وتاريخ الطبري (١٠/ ٢٧٢) ، ومروج الذهب (٤/ ٣٠) ، وشرح مقامات الحريري (٤/ ٣٤٠ - ٣٤٢) ، والدر المنثور (ص ١٠٢ و١٠٣) ، وأعلام النساء (١/ ١٥٩) وتحفة العروس ومتعة النفوس للتجاني (ص ١٠٤ - ١٠٦) ، وثمار القلوب (ص ١٦٥ و١٦٦) ، والذخائر والتحف (ص ٩٨ - ١٠١) ، والديارات (ص ١٥٧ - ١٥٩) ، والكامل في التاريخ (٦/ ٣٩٥) ، ومرآة الجنان لليافعي (٢/ ٤٨) ، وشذرات الذهب (٣/ ٤٨ و٤٩) وغيرها كثير جداً.

* هذا والدَّعواتُ المشهورةُ في الإسلامِ ثلاثٌ : دعوةُ المعتزّ باللهِ وذلك لما خَتَنَه المتوكّل ، وعرسُ زبيدة مع الرشيد ، وعرسُ المأمون ببوران(١) .

مِـنْ أَدَبِ بُــورَانَ :

* روىٰ أبو علي المحسن بن علي التّنوخي المتوفىٰ سنة (٣٨٤ هـ) في كتابه : «المستجاد من فعلاتِ الأجواد» خَبَراً طريفاً يشيرُ إلى أدبِ بوران ، وإلى اتّزانِها ووفرةِ عَقْلها فقال : لما زُفّتْ بورانُ بنتُ الحسنِ بنِ سَهْل إلىٰ المأمونِ ، كَتبَتْ إليهِ حظيّتُه عُريْب تقولُ :

انْعَـمْ تَخَطَّتْـكَ صُـروفُ الـرَّدى ... بِقُـربِ بُـورانَ مَـدَىٰ الـدَّهْـرِ
بيضَـةُ خِـدْرٍ لـم يـزلْ نجمُهـا ... بنجـمِ مـأمـونِ العُـلا يَجْـري
حتّى استقرَّ المُلْكُ في حِجْرِها ... بُـورِكَ فـي ذلـكَ مـنْ حجْـرِ
يـا سيّـدي لا تَنْـسَ عَهْـدي فَمـا ... أطلـبُ شَيئـاً غيـرَ مَـا تَـدري

فوقفَتْ بورانُ علىٰ الرَّقْعةِ وقالتْ : قد عرفْتُ ما تريدُ .

ثمّ قالتْ : يا أميرَ المؤمنين ، أَنْعِمْ بالإذنِ في زفّها إليكَ ، فهوَ واللهِ مكافأتُها علىٰ شِعْرها .

فقال : ذلكَ إليك ، ففعلتْ فزُفَّتْ معها ، وسُرَّ المأمونُ بما اجتمعَ له منَ الألْفَةِ بين زوجتهِ وحظيّته(٢) .

* وممّا يشيرُ إلىٰ أَدَبِ بورانَ ما وَرَدَ أنَّ المأمونَ لمَّا تزوَّجها وأَرادَ غشيَانَها حاضَتْ ، فقالت : ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل : ١] ، فتركَها وفَطِنَ

---

(١) انظر : الذخائر والتحف (ص ١١٩) بتصرف يسير جداً ، وانظر : ثمار القلوب (ص ١٦٦) .
وهذه الدّعوات شهيرةٌ فيما سَبَق من ماضي الأزمان ، ولكنّنا نسمعُ الآنَ عن دعواتٍ هنا وهناك فيها منْ الإسرافِ والتّبذير ما لا يعلمهُ إلا الله ، ونرجو اللهَ أنْ يلهمَ الناس إلى سلوكِ السَّبيلِ القويمِ في هذا المجال .

(٢) انظر : المستجاد من فعلات الأجواد (ص ١٩١ و١٩٢) ، ومختصر تاريخ دمشق (٢٠/ ١٨٣) .

لحالها وتَعجَّبَ منْ حُسْنِ كنايتِها وازدادَ إعجاباً بها ، ونامَ في فراشٍ آخرَ ، فلما أصبحَ وقَعدَ للنّاسِ ، دخَل أفاضِلُ ندمائِهِ يهنّئونَه ويدعون له ، وكانَ منَ الدّاخلينَ عليه أحمدُ بنُ يوسُف الكاتب ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هنَّأَكَ اللهُ بما أخذتَ منَ الأمْرِ باليمنِ والبركةِ ، وشدّة الحركةِ ، والظَّفرِ بالمعركةِ ، فأنْشَده المأمون بديهاً :

فَارِسٌ في الحَربِ منْغَمِسٌ ... عَارِفٌ بالطَّعْنِ في الظُّلَمِ
رامَ أَنْ يُدمي فريسَتَه ... فاتَّقَتْه منْ دَمٍ بِدَمِ

فعرَّضَ بحيضِها ، وهو منْ أحْسَنِ الكِنَاياتِ[1] .

بُورَانُ بَعْدَ المَأْمُونِ :

* ظلَّتْ بورانُ سيِّدةَ القَصْرِ المأموني طيلةَ حياة زوجِها المأمونِ ، وأقامتْ معه ثماني سنين كانَتْ سِمَاناً ، تَأْمُرُ وتنهىٰ وتَشْفَعُ وتَغْضَبُ .

* ولكنَّ المأمونَ قد وافَتْه المنيةُ وهي في صُحْبتِهِ ، حيثُ كانت وفاتُه في

---

(١) انظر : وفيات الأعيان (١/ ٢٨٩ و٢٩٠) ، وشرح مقامات الحريري (٤/ ٣٤١) والكناية والتعريض للثعالبي (ص ٢٠) وغيرها .
والكنايةُ في البلاغةِ : أنْ يعبِّرَ المتكلّم عن المعنى القبيح باللفظ الحَسَنِ ، وعنِ الفاحشِ بالطّاهر ، كقوله تعالى : ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة : ٧٥] ، كنايةٌ عن الحَدَث ، وكقولهِ تعالى : ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [المائدة : ٦] ، كنايةٌ عن قضاء الحاجةِ ، وهو كثيرٌ في القرآن الكريم .
وفي السُّنَّةِ النّبويّة منَ الكنايةِ ما لا يكادُ يُحصى ، كقوله ﷺ : «لا يضعُ العَصَا عن كتفه» ، كنايةٌ عن كثرةِ الضَّرب ، أو كثرةِ السَّفر .
ومنِ مليح الكَناية قولُ بَعْضِ الأعرابِ :

أَلا يا نخلةً مِنْ ذاتِ عِرْقٍ ... عليكِ ورحمةُ اللهِ السَّلامُ
سألتُ النَّاسَ عنك فخبَّروني ... هناءً ذاكَ يكرهُهُ الكرامُ
وليسَ بما أحلَّ اللهُ بأسٌ ... إذا هو لم يخالِطْه الحرامُ

فإنَّ هذا الشَّاعر كنَّى بالنّخلة عنِ المرأة ، والهنَاء عن الرّفث . (تحرير التحبير ص ١٤٣ ـ ١٤٦) مختصراً .

رجب سنة (٢١٨ هـ) ، وقد تأثَّرتْ بورانُ لوفاتِهِ كثيراً ، حيثُ لم تنعمْ بصحبتِهِ سوىٰ بضع سنين ، لذلك راحتْ ترثي المأمون بأحرِّ الكَلام ، ومما حُفِظَ في رثائِهِ قولُها تصفُ ذلَّها بَعْدَ عزِّهَا ، وخضوعَها بعد سلطانِها :

أَسْعِـدانـي علـى البُكـا مُقْلتَيّـا ... صِـرْتُ بَعْـدَ الإمـامِ للهـمِّ فَيّـا

كنْـتُ أَسْطـو عَلـىٰ الـزَّمـانِ فلمّـا ... مَـاتَ صَـارَ الزَّمـانُ يَسطـو عَليَـا[١]

* وعاشتْ بورانُ بعدَ المأمونِ أكثرَ منْ نصْفِ قَرنٍ لمْ يُسْمَعْ لها هَمْسٌ أو صوتٌ ، ولم يُؤْثَرْ عنها شيءٌ.

* وفي أحدَ أيّام شَهْرِ ربيعِ الأوّل منْ سَنةِ (٧١ هـ)[٢] لبَّتْ بورانُ نداءَ ربِّها وعمرُها ثمانون سنة ، حيث كانت وفاتُها في بغدادَ أيّام المعتمد ، ودُفِنَتْ في قبّةٍ مقابلةٍ لجامعِ السُّلطان ، وظلَّتْ هذه القبّةُ قائمةً إلى عَصْر ابنِ خلِّكانَ في القَرنِ السَّابعِ الهجري.

* هذه هي بورانُ[٣] بنتُ الحسن التي شَغَل عرسُها النَّاسَ حيناً منَ الدَّهْر ، وعاشتْ في القُصورِ بينَ السُّررِ المرفوعةِ والأكوابِ الموضوعَةِ ،

---

(١) انظر : الديارات (ص ١٥٩) ، ونزهة الجلساء (ص ٢٥).

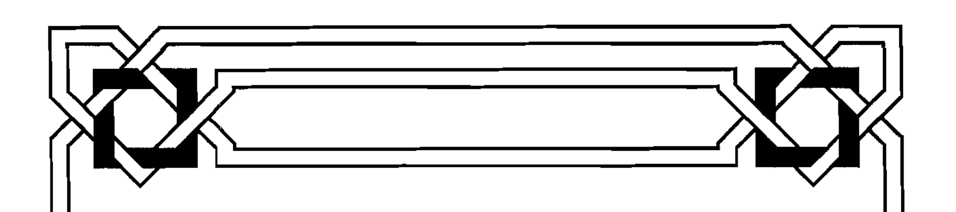
(٢) النجوم الزاهرة (٣/ ٦٥) ، ووفيات الأعيان (١/ ٢٩٠) ، والدر المنثور (ص ١٠٣) وغيرها كثير.

(٣) ذكرَ بعضُ المصنّفينَ أنَّه تنسبُ لبورانَ أصنافٌ منَ الطَّعامِ ، منها ما وَرَدَ في كتَاب الطَّبيخ للبغدادي (ص ٣٨) عن طعامٍ اسمهُ بوران ، وعنْ طعامٍ اسمُه بورانية (ص ٤٠) ، وآخر اسمهُ بورانية بالقَرعِ (ص ٤٣) ، وفي بغدادَ الآن طعامُ اسمهُ بورانية ، وهي أنْ يُقَطَّعَ الباذنجان أقراصاً ويُقْلىٰ بالزَّيت ، ويُصَبُّ عليه اللبنُ الرَّائبُ مخلوطاً بالثُّوم. (الفرج بعد الشّدّة ٣/ ٣٣٢) الهامش.
أقولُ : وفي بلاد الشَّام ـ وفي بلدنا حرستا من غوطة دمشق ـ يوجدُ الآن طعَامٌ يُطْلِقُ عليه النّساء اسم «بوراني» ، وهو نوعٌ منَ الخُضَار يسمى السَّبَانخ حيثُ يُطبخ مع اللّحم ويوضع عليه قليلٌ من الثُّوم أو الكزبرة ، وهو مشهورٌ جدّاً ومنَ الأطعمةِ اللطيفةِ ، ولكنْ بدأَ اسمُ بوراني ينحسرُ الآنَ عن هذا الطَّعام ، ويدعوه النَّاس باسم سبانخ.

وتَبَسَّمَ لها الدَّهْرُ بِضْعَ سنين ، ثمّ تركَها تنسجُ الذّكريات أكثرَ منْ خمسينَ سنة ، ولكنَّها لم تُغْفِلْ أعمالَ البِرِّ والخير ، قالَ ابنُ تُغْري بردي : كانتْ عظيمةَ الشَّأْنِ ، متصدّقةً ، خَيِّرةً ، فَطِنَةً ، راويةً للشِّعْرِ ، وكانتْ منْ أحبِّ نساءِ المأمونِ إليهِ ، رحمها اللهُ تعالى[1] .

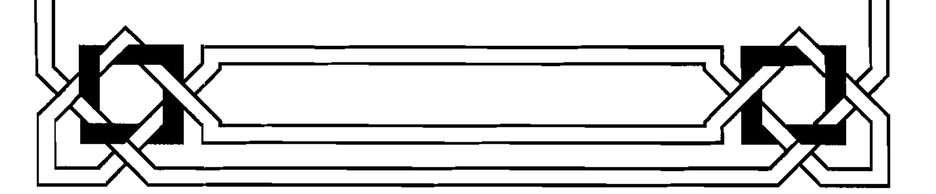
* * *

(١) انظر : النّجوم الزاهرة (٣/ ٦٥ و٦٦).



(٤)
الثريّا بنت عليّ

* ملكة جمال ومال وذات أصل كريم ، ومحتد عريق .
* قال فيها عمرُ بن أبي ربيعة شعراً سارت به الركبان .
* لها مكانة اجتماعية كبرى ، وفَضْل لائق بمقامها .



في رِحَابِ الجَمَالِ ومِحْرَابِ المَلاَحَةِ:

* وُلدَتْ وَوُلدَ معها نصيبٌ منَ الجمالِ والمالِ ، فهي فتاةٌ مكيّةُ المولدِ ، قرشيةُ المحتدِ ، حبَاهَا اللهُ ملاحةً وجَمالاً ، وغنىً ومَالاً ، وكرمَ أصْلٍ ، فَقَدْ غَدَتْ حديثَ المجالس ، وأُنْسَ المجَالسِ ، موصوفةً بالجمالِ الآسرِ ، والطَّرفِ السَّاحِرِ ، فهي أعجوبةٌ منْ أعاجيبِ الجمالِ النَّسويّ ، وهيَ الجمالُ كلُّه يتحرَّكُ ، والفتنةُ تمشي علىٰ قدمَيْن ، فقد كانتْ مِنْ شَهيراتِ نساءِ قُريش ، وأبرعهنَّ جَمالاً وكمَالاً ، ملأَتْ بجمالِها الأَنْظارَ ، وكانتْ مثالَ الجمالِ والملاحةِ عند العَربِ ، قيل في وصْفِها بأنَّها كانتْ منْ أكملِ النِّساء وأحسنِهنَّ خَلْقاً ، فقد كانتْ تغبطُها الأزهارُ في الرِّياض ، والنُّجومُ في السَّماء علىٰ ما حبَاهَا اللهُ منْ خَصائِلِ الحُسنِ والملاحة والدَّلالِ والجَمالِ.

* نشأتْ ضيفتُنا ونَشَأَ معها حظُّها منَ الفَضْلِ والمكانةِ اللائقةِ ، وعاشتْ حيَاةَ نعيمٍ علىٰ سُررٍ مرفوعةٍ ، وأكوابٍ موضوعةٍ ، ونمارقَ مصفوفةٍ ، وزرابي مبثوثةٍ ، ومنَ العجيبِ أنَّها كانتْ كاسْمِها نجماً منْ أشهرِ نجومِ السَّماء ، قد لَمعَ واشتهرَ علىٰ لسانِ شاعرِ الغَزَلِ والتَّغزُّلِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ المخزوميّ ، حتّى غَدَتْ لا تُذْكَرُ إلاّ منْ خلالِ شِعْرِهِ ، لكثرةِ ما كانَ يتغزّل بها ، فقد زَعم أنَّها اسْتَلَبَتْ عقْلَه ولُبَّه ، وأسَرَتْ مجامِعَ قلبِهِ ، حيثُ كانتْ فتاةً ساحرةً باهرةً تحيطُ بها هالةٌ من الفِتْنَةِ الفَاتِنَةِ ، ويعلُو وجهَها مسحةٌ منْ الجمال ليس إلىٰ تصويرِه منْ سَبيل ، فلا الكلماتُ ترسُمُه ، ولا العباراتُ والأشعارُ تحيطُ بهِ.

* هذهِ الفتاةُ الحسَّانَةُ الجميلةُ الفاتِنةُ إحدىٰ نوادِرِ النِّساء في عَصْرِها ، وهي الثُّرَيَّا بنتُ عليّ بنِ عبدِ الله بن الحارثِ بن أميّة الأَصْغر بنِ عبد شمس

ابن مناف الأمويّة القرشيّة[1] وجدّتها قتيلةُ بنتُ النَّضْر العبدريّة[2].

* وجاءَ في بعْضِ المصَادِرِ أنَّها الثُّريا بنتُ عبدِ اللهِ بنِ أميّة الأصغر[3]، وبذلك أمُّها ـ لا جدّتها ـ قتيلةُ بنتُ النَّضْرِ العبدريّة، التي أنشدتْ رسول الله ﷺ بُعَيدَ غزوةِ بَدْر تلكم الأبياتِ القَافيّةِ الشَّهيرةِ، وذلكَ عندما قَتَلَ أبَاها النَّضرَ بنَ الحارثِ[4] الذي كان شديدَ العداوةِ لرسول الله ﷺ، والأبياتُ هي:

يَــا رَاكبــاً إنَّ الأُثَيــلَ مَظِنَّــةٌ مِنْ صُبْحِ خَامسَةٍ وأَنْتَ موفَّقُ[5]

---

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٤٣٦ و٤٣٧)، والمعارف (ص ٧٣ و٢٣٩)، والدر المنثور (ص ١١٧ ـ ١٢١) والأغاني (انظر الفهارس)، ونسب قريش (ص ١٥١)، وسرح العيون (ص ٣٥٧ و٣٥٨ و٣٨٥)، وأعلام النساء (١/ ١٨٣ و١٨٤)، و(زهر الآداب (١/ ٢٤٤ و٢٤٦ و٢٤٧)، وشرح ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ٥٦ و٥٧)، والكامل للمبرد (ص ٧٧٩ و٧٨٢ و٧٨٨)، وشذرات الذهب (١/ ٣٦٥ و٣٦٦)، وحب ابن أبي ربيعة وشعره (انظر الفهارس) وتاريخ الأدب العربي لبلاشير (ص ٧٤٩)، والغزل عند العرب (١/ ٢٠٦ و٢٠٧)، والشعر والشعراء لابن قتيبة (ص ٥٥٧ و٥٥٨) وغيرها كثير جداً.

(٢) قتيلةُ بنتُ النَّضر بنِ الحارث العبدريّة، كانت تحت الحارثِ بنِ أميّة الأصغر بنِ عبد شمس.
قال الواقديّ: أسلمتْ يوم الفَتْح.
وقال ابنُ حجر في الإصابة (١٣/ ٩٦): لم أرَ التَّصريحَ بإسلامها، لكنْ إنْ عاشتْ إلى الفتحِ فهي من جملة الصَّحابيات.
كانت قتيلَةُ حازمةً، ذاتَ رأيٍ وجَمالٍ، منْ أفْصَحِ نِساءِ العرَب.
قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب (١٣/ ١٣٧): كانت شاعرةً مُحسِنةً.
أقول: ولقتيلةُ خبرٌ في السِّيرةِ النبويةِ عقيبَ غزاةِ بَدْر.

(٣) نسبُ قريش (ص ١٥١)، وسرحُ العيون (ص ٣٥٧)، وتهذيبُ الأسماء واللّغات (٢/ ٣٣٤)، والصّحيح أنَّها الثريا بنت علي.

(٤) اقرأ سيرة هذا المجرم في كتابنا «المبشّرون بالنار» (٢/ ١٨٩ ـ ٢١١).

(٥) «الأُثَيل»: بضمّ أوّله، مُصَغَّر، علىٰ وَزْنِ فُعيل، موضعٌ بالصَّفْراءِ. (معجم ما استعجم ١/ ١٠٩). =

بَلِّــغْ بــهِ مَيتــاً فــإنَّ تحيــةً ... مـا إنْ تَـزالُ بهـا الـرّكـائـب تَخْـفـقُ
منّــي إليــكَ وعبــرةً مسفــوحــةً ... جـادَتْ لمـائِحهـا وأخـرىٰ تخنـقُ[1]
فليسْمَعَــنَّ النَّضْــرُ إنْ نَــادَيْتَــه ... إنْ كـان يَسْمَـعُ مَيِّـتٌ أو يَنْطِـقُ[2]
ظَلَّتْ سيوفُ بنـي أَبيـهِ تَنُـوشُـه ... للهِ أَرْحَــامٌ هنــاك تُمــزَّقُ

= والصَّفراءُ: قريةٌ فوقَ ينْبع ، كثيرةُ المزارعِ والنَّخل ، ماؤُها عيونٌ ، ومنْ أغْزَرَها عينٌ يقال لها: البحيرةُ.
وفي الصَّفراء سابقَ النَّبيُّ ﷺ عائشةَ أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وفي الصَّفراء ماتَ عُبيدةُ بنُ الحارثِ بن عبد المطلب ، كانت قُطِعتْ رجلُه بِبَدْر ، فوصلَ إليها مرتثّاً ، قالت هند بنت أثاثة ترثيه:
لَقـد ضُمِّـنَ الصَّفـراءُ مجـداً وسُـؤدداً ... وحلمـاً أصيـلاً وافـرَ اللـبِّ والعَقْـلِ
عُبيـدة فـابكيـهِ لأضيـافِ غـربـةٍ ... وأرملـةٍ تهـوي لأشعـثَ كـالجـذْلِ
واقرأ سيرة عبيدة في كتابنا (فرسان حول الرسول ٢/ ٢٤١ ـ ٢٥٨).
و«المظنة»: المنزل. و«في صبح خامسه»: أي من صبح ليلة خامسة.

(١) «لمائِحها» المائحُ: الذي يملأُ الدَّلو منْ أسفلِ البئرِ إذا قلَّ ماؤها ، والميحُ: في الاستقاء أنْ ينزلَ الرجلُ إلى قرارِ البئر إذا قلَّ ماؤُها ، فيملأ الدلو بيدِهِ يميحُ فيها بيدِهِ ، ويميحُ أصحابَه ، وأنشد أبو عبيدة:
يـا أيّهـا المـائـحُ دلـوي دونَكـا ... إنّـي رأيـتُ النَّـاسَ يحمـدونَكـا
وتعني قتيلةُ في بيتها: أنَّ الدموع قد أجابتها.

(٢) «النّضر»: هو النّضرُ بن الحارث، كانَ منْ شياطين العربِ، وممنْ يُؤذي رسول الله ﷺ وينصبُ لهُ العداوةَ ، وكان قَدْ قَدِمَ الحيرةَ ، وتعلَّمَ بها أحاديثَ ملوكِ الفُرس ، فكانَ إذا جلسَ رسول الله ﷺ مجلساً ذَكَّرَ فيهِ بالله ، أو حذَّرَ قومَه ما أصابَ مَنْ قبلهم مِنَ الأُمم مِنَ نقمةِ اللهِ ، خَلَفَـهُ في مجلسِهِ إذا قامَ ، وقال: أنا واللهِ يا معشرَ قريش أحسنُ منه حديثاً ، هلمّوا إليَّ ، ثمَّ يحدثُهم أحاديث ملوكِ الفُرسِ ، ورستم ، واسفنديار ، ثمّ يقول: بماذا محمدٌ أحسنُ حديثاً منّي؟! فأنزلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه قوله: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المطففين: ١٣] ، وهو الذي كَتَبَ الصّحيفةَ لقريش التي تعاقدوا فيها على بني هاشم، وبني عبد المطلب ، على ألاّ ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، وعلّقُوها في جوفِ الكعبة ، وأخبار هذا المجرم كثيرةٌ قد استوفيناها في كتابنا (المبشرون بالنَّار ٢/ ١٨٩ ـ ٢١١) فليراجَع.

أَمحمــدٌ ولأَنْــتَ نَجْــلُ نجيبَــةٍ ... مِن قومها والفحلُ فَحْلٌ معْرِقُ[1]
مـا كـان ضـرَّك لـو مَنَنْت وربّمـا ... مَـنَّ الفتـىٰ وهـو المغيـظُ المحنـقُ
والنَّضرُ أقربُ مَنْ أَصَبْت وسيلةً ... وأحقُّهــم إنْ كــان عتــقٌ يُعْتَــقُ
لـو كـانَ قـابِـلَ فـديـة لفـديتُـه ... بـأعـزّ مـا يُغْلـىٰ بـه مَـنْ يُنْفِـقُ[2]

* ويبـدو لـي أنَّ الثُّريَّـا قَـدْ ورثـتْ مـلـكـةَ الشِّعْـرِ عـن ذويهـا ، ولعـلَّهـا مـنْـذُ نشـأتِهـا قـد عُـنيـتْ بروايـةِ الشِّعْـر ، وحـبِّ الأدبِ وأهـلِــهِ ، وقــد وَرَدَ أنَّ الثُّــريَــا وأختَهــا عــائشــة[3] قــد أعتقَتَــا

---

(١) «أمحمد» : قولُها أمحمد ، نَوَّنَت المُنادى المفرد المعرفةَ للضَّرورة ، وهذا النَّوعُ منَ المنادى إذا نُوِّنَ ، فالمختارُ فيه الرفعُ .

(٢) انظر الأبيات في السّيرة النّبوية لابن هشام (٢/ ٤٢ و٤٣) ، وزهْر الآداب (١/ ٢٨ و٢٩) ، وعيـون الأَنْبـاء فـي طبقـاتِ الأطبـاء (ص ١٧٠) ، وشـاعـراتُ العـرب (ص ٣٢١ و٣٢٢) ، وأسُدُ الغابة (٦/ ٢٤١) ترجمة رقم (٧٢١٢) ، والعِقد الفريد (٣/ ٢٦٥ و٢٦٦)، والأغاني (١/ ١٩) ، وبلاغات النّساء (ص ١٦٩) ، والاستيعاب بهامش الإصابة (١٣/ ١٣٧ و١٣٨) ، والإصابة (١٣/ ٩٥) وغيرها كثير جداً .
وزعمَ ابنُ هشام في السّيرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمّا بلغَه هذا الشِّعر قال : «لو بَلَغَني هذا قبل قَتْله لمننتُ عليه» . (السّيرة النبوية ٢/ ٤٢ و٤٣) ، وقد شكَّ بعضُ عُلماءِ الأَخْبار في قصيدةِ قُتيلة هذه ، وقالَ الزُّبيرُ بنُ بكّار : سمعتُ بعضَ أهلِ العِلْم يغمزُ هذه الأبيات ويقول : إنّها مصنُوعةٌ . (زهر الآداب ١/ ٣٤) .
وعلَّقَ ابنُ المنيرِ المالكيّ الإسكندريّ المتوفىٰ سنة (٧٣٣ هـ) علىٰ هذهِ الأبياتِ تعليقاً جميلاً فقالَ : وليس معنىٰ كلامه ﷺ : ـ «لو بلغني هذا قَبْل قَتْله لمننتُ عليه» ـ النَّدمَ ، لأنَّه لا يقولُ ولا يفعلُ إلا حقّاً ، والحقُّ لا ينْدمُ علىٰ فِعلهِ ، ولكنْ معناه : لو شَفَعَتْ عندي بهذا القولِ لقبلتُ شَفَاعتَها ، ففيه تنبيهٌ علىٰ حقّ الشَّفاعة والضَّراعة ، ولا سيما الاستعطاف بالشّعر ، فإنَّ مكارمَ الأخلاقِ تقتضي إجازةَ الشّاعر وتبليغَه قصده .

(٣) للثّريا أخواتٌ أخريات وهنّ : الرُّضيّا ، قُرَيْبَة ، وأمّ عثمان بنات عليّ بن عبد الله بن الحارث ، وقَدْ وصفهنَّ أحدُ الكتّاب بقولهِ على لِسَان عمر بنِ أبي ربيعة : كُنَّ مشرقات الوجوهِ ، باسمات الثّغور ، ساحراتِ العيونِ ، وكنّ أسيلاتِ الخدودِ ، جميلاتِ القدودِ، نحيلاتِ الخصورِ ، عذابَ الأصواتِ ، ملاحَ الألفاظِ ، فاتناتِ الأحاديث .=

الغريض[1] المغنّي المشهور لأَدبِهِ وفنِّه.

* ولعلَّ الثُّريا كانتْ تُحْسِنُ تذوّقَ الشِّعْرِ والأدبِ، وهذا مما زادَ رصيدها في عالم غزلِ عمرَ بن أبي ربيعة الذي كان كَلِفاً بها، وطارتْ بذلك شهرتُها في سَماءِ النِّسوةِ، فلا تكادُ تُذْكَر الثُّريا إلاّ وهي مقرونةٌ بشِعْرِ عمرَ وأخبارِه، ترىٰ ما أخبارهما؟ وهل كلُّ ما وَصل إلينا صحيحٌ؟!

الـثُّـرَيَّـا وعُـمَـرُ:

* تشيرُ سيرةُ الثُّريا ابنةُ عليّ إلىٰ أنّها وُلدتْ في مكةَ أمِّ القرىٰ قربَ البيتِ العتيقِ، وفَتَحَتْ عيناهَا علىٰ ذلكَ المكانِ الطَّاهِرِ الذي يأتيهِ النَّاسُ ﴿رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

* وكانَ أهلُ الثُّريا يقيمونَ قربَ جَبَل الصَّفا بمكةَ، بحي يُعْرف باسمِ أجياد[2]، وهذا الحيُّ نفسهُ كانَ يسكنُهُ بنو مخزوم آل عمرَ بنِ أبي ربيعة.

---

(١) انظر: وفَيَات الأعيان (٣/ ٤٣٧)، والغَريض: اسمُهُ عبد الملك، وكنيته أبو زيد، ولقبُه الغريض، لأنَّه كانَ طريَّ الوجْهِ، نَضراً، غضَّ الشَّباب، حسنَ المنظر، والغريضُ: الطَّريُّ من كلِّ شيء، توفيَ الغريضُ في اليمَن فِي خلافة سُليمان بنِ عبد الملك، وللغريضِ أخبارٌ في مجالِ الغناء أوردها أبو الفرج في أغانيه.

(٢) «أَجْيَاد»: بفَتْح أوّله، وإسْكان ثانيه، كأنّه جَمْعُ جِيْد، موضعٌ منْ بطحاء مكةَ، منْ منازلِ قُريشِ البطاحِ، ولما غَلبَ قصيٌّ ـ أحدُ أجدادِ النبي ﷺ ـ على مكةَ، ونفىٰ عنها خزاعةَ، قسَمَها على قريش، فأخذَ لنفسهِ وجْهَ الكعبةِ فَصَاعداً، وبنى دَارَ النَّدوةِ فكانتْ مسكنهُ، وقد دَخَل أكثرُها في المسجدِ، وأعطىٰ بني مخزوم أَجْيَادِيْنَ، وهي أجيادُ أيضاً. (معجم ما استعجم ١/ ١١٥ و٢٥٧ و٢٥٨) بتصرف.
أقول: وأجيادُ الآن قربَ المسجدِ الحرام يطلُّ عليها بابُ أجياد، وفي المكانِ مستشفى اسمه أجياد.
وزعمَ بعضُهم أنَّ المكانَ سُمّي أجياداً لأنَّ تُبَّعاً حينما قَدِمَ مكةَ ربَطَ خَيْلَه فيهِ فسُمّي بذلك.
وجاءَ في شِعْرِ الأعشىٰ ـ واسمهُ ميمونُ بنُ قيس ـ تحديدُ موضعِ أجياد في مكةَ غربي الصَّفا حيثُ يقول: =

* وفوقَ أرضِ مكةَ أيضاً كان مَولدُ عمرَ بنِ أبي ربيعة ، فمكةُ موطنُ أبيهِ وأسرتهِ ، وهي التي سَلَبَتْ وسَبَتْ قلبَه ، وأسرَتْ بطبيعتها الآسرةِ حبَّه ، وبقيَ وفيّاً لها وفاءً منقطعَ النَّظيرِ ، وفيها يقولُ منْ قصيدةٍ شهيرة :

وأنـا امـرؤٌ بِقَـرارِ مَكَّـةَ مَسْكَنِـي ولَهَـا هَـوايَ فَقَـدَ سَبَـتَ قَلْبِـي[1]

* أمَّا مولدُ الثُّريا ابنةُ عليّ فلا نعرفهُ ، ولمْ يتبيَّنْ لنا بالتَّحديدِ ، إلاّ أنّنا استطعْنَا أنْ نستشفَّ منْ خلالِ أخبارِها بأنَّها وُلدتْ في أواخِرِ الثُّلثِ الأوَّلِ منَ القَرنِ الهجريّ الأوَّلِ، فهي قريبةُ السِّنِّ منْ عمرَ بنِ أبي ربيعة، حيثُ إنَّ مولدَه كان في سَنَةِ (٢٣ هـ) وذلك في اليومِ الذي قُتِلَ فيه عمرُ بنُ الخطاب[2]

= فما أنْتَ منْ أهلِ الحجُون ولا الصَّفا ولا لكَ حقّ الشّرب منْ ماءِ زمزمِ
ولا جَعَلَ الرّحمنُ بيتَك في العُلا بـأجيـادَ غـربـي الصَّفـا والمحـرّمِ

* وجاء ذكْرُ أجيادَ في شعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعة منْ قصيدةٍ قوامها (١٣ بيتاً) ومطلعُها :
هيهـاتَ مـنْ أَمَـةِ الـوهَّـابِ منـزلُنَـا إذا حَلَلْنَـا بِسِيْـفِ البحـر مـنْ عَـدَنِ
واحتـلَّ أهلُـك أجْيـاداً فليـسَ لنـا إلا التّـذكّـرُ أو حـظّ مـنَ الحـزَنِ
وجاء البيتُ الثَّاني في معجم البلدان على النّحو التَّالي :
وجـاورتِ أهـلَ أجيـادِ فليـسَ لنـا منها سوى الشَّوقِ أو حظٌّ منَ الحزنِ
(ديوان عمر ص ٢٨٣) و(معجم ما استعجم ١/ ١١٥).

(١) ديوان عمر (ص ٤٢٣) قطعة رقم (٢٥٥) وعدد أبياتها (١١ بيتاً).

(٢) كانَ مولدُ عمر بن أبي ربيعة ليلةَ الأربعاء ، لأربع بقينَ من ذي الحجّة سَنَة (٢٣ هـ) وكانَ لهذا اليوم أثرهُ العظيمُ في نفوسِ المسلمينَ ، فهو اليومُ الذي قُتِلَ فيه عمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ممّا أعطىٰ هذا اليوم عمقَه وأثرَه في قلوبِ المسلمين حتّى إنَّه أذْكَرهم كلَّ صَغيرةٍ وكبيرةٍ مرَّتْ بهم ، وحتّى إنّهم تعجبّوا منْ هذه المُصَادفةِ الغريبة التي أفقدتْهم عمر الخليفة ، وعوَّضَتْهم عمر الشّاعر ، وبهذهِ المناسبة الأليمة كانَ الحسنُ البصريُّ ـ التَّابعي المشهورُ ـ يقولُ : أيّ حقّ رُفِعَ ، وأيّ باطلٍ وُضِعَ . [يعني بذلك كثرةَ معاشرةِ ابن أبي ربيعة للنّساء وتغزّله بهنّ] ، وقولُ الحسنِ البصري هذا يؤكّد ولادةَ عمر بن أبي ربيعة في ذلكَ اليومِ المشهور ـ رغم شَكِّ وتشكُّكِ كثيرينَ منَ القدماءِ والمحدثين بذلك ـ ولعلَّ ما يؤيد قولنا صلة القرابةِ التي =

ـ عليه سحائب الرضوان ـ.

* وكانتْ نشَأةُ الثُّريا نشأةً عاديةً ، كنشأةِ كُلِّ الفَتَياتِ المكّيّات اللاتي نَشَأْنَ في جوٍّ منَ الأَدبِ والدِّينِ والحِجَابِ ، ومعرفةِ الآدابِ الشرعيّة ، وأمَّا ما وَرَدَ عنْها بأنَّها كانت تُظْهِرُ وجهَها لتلفتَ الأنظارَ إلىٰ جمالِها وملاحَتِها وحُسْنِها فهذا محضُ افتراء ، ولم تعهَدْه أيُّ فتاةٍ منْ أترابِها ، بل مَنْ دونَها شَرفاً ونَسَباً وحَسَباً ، بالإضافةِ إلى أنَّ عَصْرَها ما زالتْ تشعُّ فيه أنفاسُ النُّبوَّةِ ، وأنداءُ آياتِ القُرآنِ الكريمِ.

* وعلىٰ الرغمِ منْ شيوعِ ذكْرِ الثُّريا بنتِ عليّ في شِعْرِ عمرَ بنِ أبي ربيعَة ، فليسَ معنى هذا أنَّها كانتْ علَىٰ صلَةٍ به ، وإنما وُصِفَتْ له ، أو رأىٰ وجْهَها[1]

= كانت بينَ عمر بن الخطّاب حيثُ إنَّ أمَّه هي حنتمةُ بنتُ هاشم بنِ المغيرة ابنة عمّ عبد الله بن أبي ربيعة والد عمر. (الشّعر والشّعراء لابن قتيبة ٢/٤٥٧) ، ولذلك سُمّي عمرُ باسمِ الخليفةِ ، وكنّي بكنيته فهو معروفٌ بكنية أبي الخّطاب.
هذا وقَدْ جَرَتِ العادةُ عند أكثرِ العربِ في أنّه إذا حَدَثَتْ حادثةٌ مُهِمةٌ لشخصٍ ما بحيثُ يتداولُ النَّاسُ خَبرَه ، أو ماتَ أحدٌ منَ المشهورينَ ، ووَلد لأحدهم مولودٌ جديدٌ وقتذاك سُمّي باسمِهِ ، وما زالت هذهِ العادةُ سائدةً إلى وقتِنا الحالي ، والأدلّة كثيرةٌ علىٰ هذَا.

(١) يَزْعُمُ الأصبهاني أنَّ عائشةَ بنتَ طلحة كانتْ تسْفِرُ ولا تسترُ وجههَا مِنْ أَحَد. (الأغاني ١٠/ ٥٤).
وعائشةُ هذه معاصرةٌ للثّريا ومنْ أترابها ، وهي ابنةُ صحابيٍ جليلِ القَدْر هو طلحةُ بنُ عُبيد الله التَّيمي أحدُ العشَرة المبشّرين بالجنَّة ، وخالتُهاَ أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ. هذا وقَد استَوفَيْنا أخبارَ عائشة بنتَ طلحةَ والردَّ علىٰ المفترين علَيها في موسوعتِنا الشّهيرةِ «بناتُ الصَّحابةِ». (ص ٤١٥ ـ ٤٩٨) فليراجع.
ومنَ العجيبِ أنَّ الدكتورَ شوقي ضَيف قد علَّقَ علىٰ هذا الخبرِ فقال: ولعلّنا بذلك نستطيعُ أنْ نفهمَ لقاءَ عمر بن أبي ربيعة بالثُّريا ، وبغيرِها منْ شريفات مكةَ ، ـ لاحظْ عزيزي القارىء شريفات مكةَ ـ ، وليسَ في هذا غرابةٌ ما دام المجتمعُ كانَ يبيحُ اللقاء الشَّريف بينَ الرِّجال والنّساء ـ لاحظْ عزيزي القارىء اللقاءَ الشّريفَ بينَ الرجالِ والنّساءِ ـ!! ، وكلُّ ما في المسألَة منْ غرابةٍ أنّنا نأبىٰ أنْ نقيسَ الماضي علىٰ=

خلْسةً وهي تطوفُ فوقعتْ في نَفْسِه ، فقالَ ما قالَ منْ شعرٍ ملأَ الدُّنيا وشَغَلَ النَّاسَ في عَصْرِهِ وما بَعْدَ عَصْرِه .

* وإنَّ المتتبِّعَ أخبارَ عمرَ في سِنيِّ حياته الأولىٰ يَجدُ أنَّها نَزرةٌ وقليلةٌ ، فَقَدْ نَشَأَ عمرُ وحيداً لأمِّهِ بَعْدَ وفاةِ أبيه في خلافةِ عثمانَ بنِ عفَّان ـ رضي الله عنه ـ فقد كانَ وحيدَ أُمِّه[1] الغريبةِ عن مكةَ ، فكانَ عمرُ كلَّ شيءٍ في حياتِها ، وأملَ دنياها ، ودنيا أَمِلها ، ونشأَ يتنفَّسُ أَنْسامَ الحنَانِ منْ قلبِها ، ويستروحُ هَمسات الحنين الدافئة من قَصَصِها له ، وهو في مرحلةِ الطُّفولةِ الغَضَّةِ ، كما كانتْ أُمُّه تعتني في هيئَتِهِ وشكْلِهِ ومَظْهَرِهِ ، فراحتْ تزيِّنُه وتعطرهُ بأعْطَرِ العِطْرِ ليزدادَ جمالاً وبهاءً علىٰ جمالهِ ، حيثُ وصَفَه الرُّواة بأنَّه كانَ جميلَ المحيّا ، ظاهرَ الوضاءَة .

* وقد نشأَ عمرُ نشأةً مدلّلةً ، فَقَدْ وَرِثَ مالاً وفيراً عن أبيهِ ، فعاشَ في أحضانِ اليُسْرِ والسَّعَةِ ، ينعمُ براحةِ البالِ ، وفراغِ القلبِ ، يرىٰ صُويحباتِ أمّه وهُنَّ يأتينَ لزيارتها ، فأثَّر ذلكَ في نفسيّته ـ كما زعم الرواة ـ ، وأثرىٰ شِعْرَهَ لما شبَّ عنِ الطَّوقِ ، كما قالَ شوقي ضيف: وقد رشَّحَتْه تربيةُ أُمِّه ومعاشرتُه لَها ولمن يزرْنَها منَ النِّساء ، أنَّ يحسِنَ وصفَهنَّ ، وأنْ يعرفَ حقّاً كيف يصوِّر نفسيتهنَّ في مكةَ لعصره[2] .

* علىٰ هذه الوتيرةِ كانت حياةُ عمرَ في نشأتِهِ ، لا يفكِّرُ إلاّ في يومِهِ ، أمّا الغدُ فلا حِسابَ له في ميزانِه ، وراحَ ينعمُ هو بالهدوءِ ودفءِ السَّكينةِ ، وينامُ مِلءَ جفونِه عنْ شوارِدِ الحياةِ ، تمرَّ بهِ الأيامُ باسمةً جذلىٰ ، لا تعطيه إلاّ الرَّحيقَ ، وإلاّ الأنداءَ العطرةَ ، والأنفاسَ الشَّذيةَ .

= الحاضرِ ، وننظرَ إلىٰ بعضِ جوانبِ الحياة في المدنِ القديمةِ نظرةً ضيّقة . (الشّعر والغناء في المدينة ومكة ص ١٧٧) .

(١) أم عمر يقال لها «مجد» سبيت من حضرموت أو من حمير . (الأغاني ١/ ٧٠ و٧١) و(زهر الآداب ١/ ٢٩١) .

(٢) انظر كتاب : التّطور والتجديد في الشعر الأموي (ص ٢٢٨) .

* وشبَّ عمرُ عنِ الطَّوقِ ، وتدفَّقَ ماءُ الشَّبابِ في عروقِهِ ، فكان طويلَ القامةِ ، جميلاً يلفتُ الأنظار ، حسنَ الشَّكل ، يَسْحَرُ حُسْنُه القُلوبَ ، ويستهوي الأفئدةَ ، وكان يحسُّ جمالَه ، ويشعرُ به ، ولعلَّ نَفْسَه قد سوَّلَتْ له وأَغْرَتْه بالغَزلِ[1] ، ظنّاً منه أنَّ المُخَدَّراتِ وعلىٰ رأْسِهِنَّ الثُّريَا يَعْشَقْنَه لحسنِهِ وجمالِه ، وهنَّ أبعدُ ما يَكُنَّ عنْ هذا الظَّنِّ ، إذْ إنَّ معظمهنَّ منْ بناتِ الصَّحابة الطَّاهراتِ ، ومنْ أكابرِ نِساءِ التَّابعين ، بل كانَ بعضُهنَّ منْ كبارِ التَّابعيّاتِ اللواتي أثْريْنَ دنيا العِلْمِ بفيضٍ منَ المعارفِ المتنوّعةِ في التَّفسير ، وعلْمِ الحديثِ وروايتِهِ وما شابهَ ذلك .

* إنَّ ما لاحظْنَاه في سيرةِ عمرَ بن أبي ربيعة ، وفي أَغْزالِهِ لا يعدو وصْفَ نَفْسِه ، وإبرازَ صورته الجميلة التي كان مفتوناً بها ، وكانَ يحاوِلُ إبرازَها في إطارٍ أنيقٍ ، فمرَّةً يُشَبِّهُ نَفْسه بالقَمرِ ، ومرَّةً تتمنَّىٰ رؤْيَته كلُّ حَسْنَاء ، وتارةً غاية النَّفس رؤيته ، وما شابهَ ذلك ، وقد جَعَلَ عمرُ صاحباتِه يتغنَّيْنَ به ، فهو أهزوجةٌ نَشْوىٰ علىٰ الشِّفاه ، وهو كالقمرِ تعرفُه كلّ حسناء ، هكذا تخيَّل عمر صُويحباته وهُنَّ يتجاذبْنَ الحديثَ عنْ جمالِهِ ويتساءلنَ :

قُلْـنَ تَعْـرِفْـنَ الفَتَـى قُلْـنَ نَعَـمْ قَدْ عَرفْنَاهُ وهَلْ يَخْفَىٰ القَمَر؟[2]

* وهذه الأخرىٰ تقولُ لأترابِها الحِسَان :

---

(١) قالَ الثَّعالبيُّ عن عمرَ : أغْزَلُ خَلْقِ اللهِ ، وأحلاهُم شِعْراً في الغَزَل ، وأرقّهم طبعاً في النَّسيب ، وليسَ له شعْرٌ في المَدْحِ والهجاءِ والفَخْر ، وإنّما قَصَرَ شِعْرَه كلَّه علىٰ ذِكْرِ النّساء ، وصرفَ معظمَ شعره إلىٰ الشَّرائِفِ وبناتِ الخلائفِ ، لاسيّما إذا حَجَجْنَ واعتمرنَ ، وظهرَ المستورُ منْ محاسِنِهنَّ ، وكان يذهبُ في طريقِ مَنْ قال : إنِّي لأعشقُ الشَّرف كما يعشقُ غيري الجمالَ . قال له عبدُ الملكِ بن مروانَ يوماً وقد سَمِعَ شِعْرهُ : بئسَ جارُ الغيرِ أنتَ .
وكان طاووسُ يقول إذا سَمِعَ شعرَه : ما عُصِيَ اللهُ تعالى بشعرٍ كما عُصِي بشِعْرِ عمر .
(ثمار القلوب ص ٢٢٣) باختصار .

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ١٥١) .

قَــالــتْ لِتِــربَيْهــا بعَمْــركُمــا   هَـل تَطْمَعَـان بـأنْ نَـرى عُمـرا؟[1]

* لقد كانت الثُّريّا وأترابُها وأمثالُها في غَفْلةٍ عن عَمر ، وعن أمثالِ عمر ، ولكنَّ عمرَ ـ على الرغمِ من هذا كلِّه ـ جَعَل الثُّريا بنتَ علي كثريا السَّماء شهرة ، إذْ سارتْ أشعارُه بينَ النَّاسِ ، وبَهَرَ معاصريه بفنّهِ وبراعته في الغزلِ وفنِّ الكلمةِ ، فَقَدْ لمعَ نجمُه ، وذاعَ صيتُه ، فاستغلَّ كلَّ ما يملكُ حتى غَدا متفرِّداً بين شعراءِ زمانِه ، وأُعجِبَ به الخَاصُّ قَبْل العَام .

* وعلىٰ ذلك الأَساس راحَ عمرُ يتتبَّع فَتَيات عَصْرِهِ ويلاحقُهنَّ من مكانٍ إلىٰ آخرَ دونَ أنْ يردعَه رادع ، أو يحدَّ منْ عنفوانِهِ وازعٌ ، فلم يَرَ في الدُّنيا إلاّ المرأةَ التي كانت حُلُمَه البارقَ ، وأملَه الباسم .

شُهْـرَةُ الـثُّـرَيَّـا :

* لعلَّ شَوقي أصابَ حينما قال :

خَــدعُــوهَــا بِقَــولِهِــم حَسْنَــاءُ   والغَــوانــي يَغُــرُّهُــنَّ الثَّنَــاءُ

* نعم فالمرأةُ منْ طبيعتها حبُّ المفاخرةِ بجمالِها ، وحرصُها على إظهارِه ، وسماع الأُخريات يثْنينَ عليها ويطرينَ ملاحتَها ، وإذا ما كان حبُّ الثَّناء منْ طبيعةِ الإنسانِ ، فهو في طبيعةِ المرأةِ أقوىٰ ، إذ الغيرةُ تدفعُها إلى أنْ تكونَ خَيْراً منْ غيرِها .

* ولكنْ كانت هناك ضوابطُ للنِّساء في عَصْر الثُّريا ، ذلك العَصْر الذَّهبي في العفّةِ والأخلاقِ ، فلا يُعْقَلُ أنْ تَعرِضَ الثُّريا جمالَها على عمرَ ليبرزَه في شِعْرِه ، ومنْ ثَمَّ يُسْمعُ العالَم بأسْرِه ما نَظَمه من حُلى الكلامِ في وصْفِ الثُّريا أو غيرِها .

* ولعلَّه منَ المحتملِ أنْ تكونَ ممن يروقُها الشِّعْر ، وممن تتذوّق المعاني الحِسان ، وممن تُعْجَبُ بروائعهِ وتحفظُه ، ولعلَّها كانتْ تحفظُ شيئاً منْ شِعْرِ

---

(١) ديوان عمر (ص ١٥٥) .

عمر ، وترويه إذا طُلِبَ منها ذلكَ ، فقد سأَلها الوليدُ بنُ عَبدِ الملك أمام زَوجهِ أمّ البنين بنت عبد العزيز أنْ تنشدهَ بعضاً من شعر عمر فأنْشَدتْه[1] .

* وليسَ بدعاً أن تهتمَّ المرأةُ بالشِّعْرِ ، أو تتذوَّقَه وتحفظَه ، وتحبَّ سماعَه ، وقد حَفِظَ لنا التَّاريخُ أسماءَ شَواعِرَ كُنَّ مجلياتٍ في عَصْر الثُّريا وما بعده ، وقد رُوي عن نُصيب الشَّاعر أنَّه أتىٰ المسجدَ الحرامَ ، فبينما هو كذلك إذْ طلعَ ثلاثُ نسوةٍ ، فجلَسْنَ قريباً منه ، وجَعَلْنَ يتحدثْنَ ، ويتذاكرنَ الشِّعْرَ والشُّعراء ، وإذا هُنَّ منْ أفْصحِ النّساءِ وآدبهنّ[2] .

* لقد كان عمرُ بن أبي ربيعة شاعِراً مجيداً ، يجيدُ التقاطَ الصُّورِ من هُنا وهناك ، ويسجِّلُ الأَخْبارَ النِّسائيّةَ في أشعارٍ غنائية رائقةٍ سَهْلَة الأَلَفْاظِ والمعاني ، ومن ثمَّ يحسنُ إذاعتَها ، أو عرضَها في دكّانٍ متخصّصٍ ببيعِ الهوىٰ والأغْزَالِ والنَّسيب .

* ومن المتوقَّع أنْ تكونَ هناك فئةٌ منَ النَّاس تتابعُ الأخبارَ العمريّة لملاحقةِ الحِسَان والغَواني ، ويرقبونَها بفارغِ الصَّبر ، حتى إذا فَرغَ منْ بيعِ ما جَمعَه منْ أغزالٍ انصرفُوا عنه ، وشاعتْ أغزالهُ بينَ الجنسِ اللطيف ، وسارتْ أشعارهُ بينهنَّ ، وخاصّةً إذا كانتْ إحدىٰ قصائده في إطراءِ الجمالِ لإحدىٰ الحِسان المِلاح ، إذ المرأةُ يروقُها أنْ تسمعَ أخبارَ بناتِ جنْسِها ، كما قال الدّكتورُ شُكري فَيْصل ـ رحمه الله ـ :

والنِّساءُ بطبعِهنَّ طَلِعَاتٌ يرغبنَ في أنْ يعرفْنَ أخبارَ بناتِ جنسهنَّ وأسرارهنَّ وقَصَص حُبّهن[3] .

* وكان شعرُ عمر أقربَ ما يكونُ إلى نَفْس المرأةِ بشكلٍ عام ، لأنَّه شِعْرٌ تَخَصَّصَ بالحديثِ عنْها ، ووجدتْ فيه ضالَّتَها ، وسمعتْ في شعرِه

---

(١) انظر : كتابنا (نساء من التاريخ ص ١١٩ ـ ١٢١) بتصرف واختصار .
(٢) الأغاني (١/ ٣٨٩) .
(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام (ص ٣٦٤) .

صوتَها ، وربَّما وجدتْ فيه صورتَها[1] ، ولكنْ هَلْ كانَ عمرُ صادقاً في مشَاعره وشِعْره؟!

* الحقيقةُ إنَّ عمرَ لا يقيمُ وَزْناً لمشاعِرِ المرأةِ ، وإنَّما يلهو بها ويعبثُ بإحْسَاسِها ، وعليها أن تَقْبلَ عَبَثَه ، فإذا رفَضَتْ قطعَ علاقَتَه وانصرفَ إلىٰ غيرِها ، وقد عبَّر عنْ هذا بصراحةٍ فقال:

سَلامٌ عَلَيها ما أحبَّتْ سَلامَنَا فإنْ كَرِهَتْه فالسَّلامُ علىٰ أُخرى[2]

* إذاً[3] ، فمن أينَ اسْتَقتِ الثُّريا هذه الشّهرة[4] ، بحيثُ عُرِفَتْ في كتبِ

---

(١) تحضرُني هنا طرفة مفادها ، أن رجلاً دَخَلَ علىٰ امرأتِهِ فوجَدَها تبكي بكاءً مرّاً شَديداً ، وفي يدها كتابٌ تقرأُ فيه ، فسألَها : ما السَّببُ؟ فدفعتْ إليهِ الكتابَ ، فإذا هو ديوان نزار قبّاني وإذا فيه:

إنّي أحبُّكِ عندَما تَبْكينَا وأحبُّ وجْهَك غائِماً وحَزينا
الحزنُ يَصْهرُنا معنا ويُذيبنا منْ حيثُ لا أدري ولا تَدرينا
تلكَ الدُّموعُ الهامياتُ أحبُّها وأحبُّ خَلْفَ سقوطها تشرينا
بعضُ النِّساء وجوههنّ جميلةٌ وتصيرُ أجملَ عندما يبكينا

فقال لها زوجها: يا عزيزي كفّي وكفْكفي دمْعَك ، فأنت لست منْ أولئكَ البعض . يعني بذلك قبحها.

(٢) ديوانه (ص ٤٩٢).

(٣) «إذاً» حَرْفُ جوابٍ وجَزَاء ، والصَّحيح أنَّها بسيطةٌ غير مركَّبةٍ منْ إذْ وأنْ ، وهي بنفسِها النَّاصبةُ للمضارع بشروط: ١ ـ تصديرُها. ٢ ـ واستقبالُ المضارع. ٣ ـ واتصالُها به ، أو انفصالُها بالقَسَم أو بلا النَّافية ، يقال: آتيك ، فتقول: إذاً أكرِمَك ، فلو قلتَ: أنا إذاً ، لقُلْتَ: أكرِمُك بالرَّفعِ لفواتِ التصدير.
أمّا كتابتُها والوقوفُ عليها فالجمهورُ يكتبونَهَا بالألِفِ ، وكذا هي في المصاحفِ ، ويقفونَ عليها بالألِفِ، والمازِني والمبّرد يَريَان كتابتَها بالنُّون والوقوفَ عليها بالنُّون.
ويرىٰ الفرّاء وتَبِعه ابنُ خروف أنّها إنْ عملتْ كُتِبتْ بالألَفِ ، وإلا كُتِبت بالنُّون ، وهذا تفريقٌ جيّد.
وقد تقعُ «إذن» لَغواً وذَلك إذا افتقرَ ما قَبْلَها إلىٰ ما وَقَعَ بَعْدَهَا وذلكَ كقولِ الشَّاعر:

ومَا أنَا بالسَّاعي إلىٰ أمِّ عَاصِمٍ لأَضْربَها إنّي إذن لجهُولُ

(٤) قال ابن قتيبة: والثريا: التي شبَّبَ بها عمرُ بنُ أبي ربيعةَ (المعارف ص ٧٣). =

الأَدب وغيرِها حينَ تُذْكر بصاحبةِ عُمر؟!.

* يبدو أنَّ عمرَ قد عَرفَ أخبارَها حينما اشتدَّ عودُه ، وبدأً يتطلعُ إلى الجمالِ ، وربّما رآها في أحَد مواسم الحجّ ، أو اهتبلَ فرصةً فرأىٰ وجْهَها ، فَشَغَلَتْ قَلْبَه الفارغَ فتمكَّنت منه[1] ، وأخذَ يلهجُ باسْمِها في كلِّ صبحٍ ومَسَاء ، ويقولُ فيها الأَغْزالَ المتنوّعةَ والمقطعاتِ الملتهبة بالهُيامِ والغَرام.

* ولما شاعَ أمْرُ أغزالِه في الثُّريا ، وشاعَتْ أشعارُه فيها ، شقَّ ذلك على آلِها وذويها ، حتىٰ شكَوُه إلىٰ أهلِه لعلَّه يمتنعُ عن ذِكْرِها في شعرِه ، ولكنَّ كلَّ المحاولاتِ علىٰ ما يبدو ذهبتْ هباءً منثوراً ، ولعلَّ عمرَ اصطنعَ بعض الأَشْعارِ والقَصَصِ المزعومةِ التي توهمُ النَّاسَ بأنَّه التقاها ، فسارتِ الأخبارُ والأحاديثُ تملأُ أَسْماعَ الحجازِ ، وشَغَلَتْ بذلك الرُّواةَ بحيثُ غدا اسم الثّريا مقروناً بعمرَ لشهرتها في شعرِه ، بل لقد ضَرَبَ به المثَلَ الصَّاحِبُ بنُ عبَّاد حيثُ قال في رسالةٍ له: أنت أغزلُ منْ عمرَ ، إذا حجَّ واعتمر[2].

* ولعلَّ التَّغزلَ أو النَّسيبَ أو التَّشبيب[3] من أقدمِ الفُنونِ الشّعرية عندَ العربِ ، وأكثرِها شيوعاً لاتّصالها الوثيقِ بالطبيعةِ الإنسانية ، فالحبُّ أو محاولةُ الحبّ لغةٌ عالميةٌ ، وميلٌ فطريٌّ في كلِّ بيئةٍ ، ووصْفُ المحبوبةِ والتَّغني بجمالِها إحساسٌ تلقائي ، ومع ذلك فَقَد تطوَّرَ فنُّ التَّغزُّلِ بالذّات في

= وكذلك قال الذَّهبي في سِيَرِ أعلام النّبلاء ، وابنُ منظور في لِسَان العرب.

(١) وحاله يتوافق مع قول الشاعر:

أَتَاني هَواهَا قَبْلَ أنْ أعرفَ الهَوىٰ ... فَصَادَفَ قَلْباً خالياً فَتمكَّنَا

(٢) ثمار القلوب (ص ٢٢٤).

(٣) «التّغزّل والنّسيب والتّشْبيب»: يقول ابن رشيق: كلها بمعنى واحد. وأما الغزل فهو إلف النساء والتخلق بما يوافقهن وليس مما ذكرته في شيء ، فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ ، وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه في كتابه: نقد الشعر. (العمدة ٢/ ٤٩). وقد جاء في لسان العرب أن الغزل حديث الفتيان والفتيات ، أو اللهو مع النساء ، بينما التغزل التكلف لذلك.

الشّعْرِ العربي تطوّراً كبيراً منذُ الجاهلية حتى القرنِ الثَّاني ، إذ طرأتْ عليه عواملُ مختلفةٌ ، خاصّةً في الحجازِ حوَّلَتْه عن صورتِهِ الجاهلِية القديمةِ إلىٰ صورةٍ جديدةٍ تتّضحُ فيها التَّأثيراتُ الحضاريةُ المختلفةُ[1] .

* ويرىٰ الدكتور محمد مصطفىٰ هدّارة أنَّ الحياةَ المترفةَ في عَصْرِ عمرَ بنِ أبي ربيعة ، قد أدّتْ إلىٰ ازدهارِ فَنِّ التَّغزُّل ازدهاراً لم يعرفْهُ الشِّعْر العربي منْ قَبْلُ بحيثُ تغيرَّتْ صورةُ النَّسيبِ القديمِ تغيّراً يكادُ يكونُ تامّاً .

* ويقولُ شوقي ضَيف في ذلك : إنَّ الشَّاعر كان يقصدُ في القطعةِ التي يعالجُها إلىٰ تصويرِ حبِّه ، وما يلقىٰ فيه منْ وَصَبٍ وعذابٍ ، وبذلك كانَ تغزُّلُه معنوياً أكثرَ منَ النَّسيب القديمِ ، فالشَّاعرُ يُعنى بحكايةِ خواطِره ، وقلَّما عُنيَ بوصف المرأةِ وصفاً حسّياً[2] .

* ويرى الدكتور هدّارة بأنَّ شِعْر التَّغزُّل قد خَضَعَ لتأثيرِ الغِناءِ الذي شاعَ في الحجازِ في القَرنِ الأوّل ، والذي انتقلَ إلىٰ العراقِ بعد ذلك في القَرنِ الثَّاني ، ولهذا أصبحتْ موسيقا الشّعر الجديدِ في التَّغزُّلِ أكثرِ لُطفاً منْ موسيقا الشِّعرِ القديم ، لأنَّ الشُّعراء أخذوا يرقِّقون اللفظ ويختارون اللغة المأْلوفةَ منْ لغةِ الحياةِ اليوميّة ، واختفاء الأوزانِ القديمة ، وإقبال شعراءِ الحجازِ على الأوزانِ الرشيقةِ الخفيفةِ القصيرةِ التي تصلحُ للغناء. . . . ولعلَّ شعرَ عمر بنِ أبي ربيعة يمثِّلُ لنا خيرَ تمثيلٍ فنَّ التَّغزُّل الحجازي في القرنِ الأوَّل ، منْ حيثُ معانيهِ وألفاظِه وأوزانه ، وهو أوّلُ شاعرٍ عربي يكتبُ ديواناً ضخماً في فنّ التَّغزُّلِ ، ويكاد يقصرُ نفسه عليه ، وهذه طبيعية لحياته اللاهية المترفة التي عاشها .

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري (ص ٥٠٠).

(٢) انظر : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري (ص ٥٠٠ و٥٠١) بتصرف واختصار.

ولا يفوتُنا أنْ نشيرَ إلىٰ أنَّ شعر عمرَ بن أبي ربيعة كانَ مُحبّباً إلىٰ نفوسِ بعضِ أهْلِ مكةَ لرقَّةِ معانيهِ ، وخفَّةِ روحهِ ، وجمالِ أحدوثته ، إذ كانتْ أشعارهُ أغْزالاً تقصُّ قَصَصاً بديعاً روايةَ الحبِّ المخترعِ من قِبَلِهِ في فصولٍ يوميةٍ أو أسبوعيّةٍ متشابهة.

* وبهذهِ الطَّريقةِ ذاعَتْ أشعارُ عمر ، وزادها قُرباً إلىٰ النُّفوس أنَّ بعضَ ذوي الأَصواتِ الجميلةِ كان يتغنّى بها ، فتزدادُ جمالاً علىٰ جمالِها حتى أَلِفَتْها بعضُ القلوبِ لرقَّتِها.

* ولكنَّ الدكتورَ شوقي ضيف يطلعُ علينا بأنَّ المكيّين آنذاك ، قد عاشُوا حياةَ طربٍ وغناءٍ وشعرٍ وموسيقا ، فيقولُ: وكانتِ الطريقةُ التي تُحملُ بها هذه الأغاني إلىٰ النَّاس في مكةَ طريفةً محببةً إلىٰ نفوسِهم ، أَلَمْ يكنِ الغناءُ الذي كانوا يفتتنونَ به هو الآخر فتنةً بعيدةً؟ وهكذا أخذتْ تنشرُ هذه الأغاني الشَّغف حولَها بما تحملُ منْ معانٍ قريبةٍ كأنَّها انتُزِعَتْ من قلوبِ المكيّين جميعاً[١].

* وإنّا لنزعمُ أنَّ المكيين عاشوا حينئذٍ معيشةً كلُّها شِعْرٌ وغناء ، بل قُل كلُّها طربٌ وموسيقا ، وكانوا في هذا العَصْرِ يقولون: «إذا أعجزك أنْ تطرِبَ القرشي ، فغنِّه غناءَ ابن سُرَيج في شعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعة فإنَّك تُرقِّصُه» ، وهكذا كانت مكةُ في عَصْرِ ابن أبي ربيعة كلّها طرب وغناء[٢].

* واندفعَ في هذا الطَّرب الرِّجالُ والنِّساء ، فكانتْ هناك الثُّريا بنتُ علي بنِ عبد الله الأمويّة ، وكان في بيتها من مواليها: يحيى قَيْل ، والغريض ، وسميّة ، وكانوا جميعاً يغنّونها في شِعْرِ عمر وغيره من الغَزِلَيْنَ في مكةَ ، وأحياناً أيضاً يغنونَها في شِعْر الغَزِلينَ في المدينةِ[٣].

---

(١) لاحظْ: المكيين جميعاً.

(٢) لاحظ قوله: كانت مكة في عصر ابن أبي ربيعة كلها طرب وغناء!!.

(٣) الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية (ص ٢٢٨).

* ويضيفُ شوقي ضيف إلىٰ هذا أيضاً فيقول: ولعلَّ مما يدلُّ علىٰ شَغَفِ النساء بهذه الأغاني أن نجدهنَّ لا يتحرَّجن من أن يُذكرن فيها ، وأنْ يتغنَّىٰ الشُّعراء بأسمائِهنّ ، ومن هنا تردَّد اسمُ الثّريا بنت عليّ الأموية في شِعْرِ عمر ، كما تردَّد اسمُ زينبَ بنت موسى الجمحيّة ، وغيرِها منْ شريفاتِ قريش ، وكأنّما كُنّ يتخذنَ من هذهِ الأغاني ما تتخذُه المرأةُ منَ الصَّحافةِ الحديثة ، فهنّ يُعْلِنَّ عن أسمائهنّ فيها ، ويتخذنَ من الشعراءِ ما تتخذهُ المرأةُ الحديثةُ منْ مصوّري الصُّحفِ ، وكُنَّ يستبقنَ إلىٰ هذا استباقاً ، ولم تشتركْ المكيّاتُ المقيماتُ وحدهُنَّ ، بل اشتركَ فيه المكّيّات اللائي هاجرَ آباؤهنّ إلىٰ المدينةِ ، أو إلىٰ دمشقَ ، فكانتْ تطلبُه ـ إنْ صحَّ ما يقولهُ الرُّواة ـ السَّيدة عائشةُ بنتُ طلحة[١] .

الـثُّـرَيَّـا وأخْـبَـارٌ مَـزْعُومَـةٌ:

في رحْلَتي الطَّويلةِ عَبْرَ التَّاريخ مع نِسائِنا الطَّاهراتِ في المشرقِ والمغربِ[٢] ، ألفيتُ كثيراً منَ الأَخْبارِ التي تشيعُ منها رائحةُ الوضْع والزِّيادةِ والنُّقْصانِ والبُهتانِ ، وتمويهُ بعضِ الحقائقِ ، وعرضها في صُوَرٍ تَسيءُ إلىٰ نسائِنا الفَاضِلات ، وخصوصاً أولئك اللاتي كان لَهنَّ دورٌ مُهِمٌّ في قُصورِ الخُلفاء والأُمرَاءِ وذوي الشَّأْنِ ، وكُنَّ قدوةً لغيرهنَّ ، فقد طالَتْ سمعتَهُنَّ

---

(١) المرجع السّابق (ص ٢٢٩) ، ونحنُ لا نوافقُ شوقي ضَيف في هذه الآراءِ التي عَرَضها ، فليستْ مكةُ في عَصْر ابنِ أبي ربيعةَ كلّها طرَبٌ وغناءٌ ، بل كانتْ مصدراً ومنبراً منْ منابرِ العِلْمِ والرِّواية معَ المدينةِ المنورةِ ، ودمشقَ ، وغيرها منَ العواصمِ الإسلاميّة في الشَّرقِ والغربِ ، وكانت مكةُ تزخرُ أنذاكَ بأكابرِ الصَّحابة وعلماءِ التَّابعين ، ربّما كان بعضُ المترفين يمارسُ بعضَ ما ذكَرَ منْ غِنَاء وغيره ، ولكنَّ التَّعميمَ خطأٌ ، ثمّ إنّنا لا نعتقدُ أنَّ الثُّريا وزينبَ بنت موسى الجمحيّة وعائشةَ بنتَ طلحة يتسابَقْنَ إلى الشُّعراءِ ليقول في حسنهنَّ شعراً ، وشبَّه ذلك بما يحدثُ منْ مصوِّري الصُّحف ، وهذا قياسٌ فاسدٌ ـ مع الاحترام لرأي الدكتور شوقي ضيف ـ.

(٢) اقرأ كتابنا: «نساء من الأندلس».

بعضُ الأَقاويلِ التي تَحطُّ منْ شأْنِهنَّ ، ولكن لابدَّ للحقائِقِ منْ أنْ تُجلىٰ للعيَان ، ولابدَّ لليلِ أنْ ينجليَ ، ولابدَّ للقيدِ المزوَّر أنْ ينْكَسِر.

* وممّنْ طالَتْهُنَّ يدُ الإِشَاعَاتِ المُغْرِضَةِ الثُّريا بنتُ علي ، فقد حِيْكَت بعضُ القَصَصِ التي تأْنَفُ عنها أقلُّ الجواري ، فكيفَ تفعلُها هذه الحسيبةُ الأريبةُ الأديبةُ؟!

* صحيح أنَّ المجتمعَ عَصْرَ ذَاك قد طالَتْه يدُ التَّطوُّرِ والحضَارةِ نتيجةَ الفتوحاتِ ، وكثرةِ الغنى ، وظهورِ الثَّراء ، وقد كانتِ الثُّريا هذه من ثَريّات النِّساء ، وكانَ أبوها منْ أثرياءِ مكةَ ، وكأن لها قَصْرٌ عظيمٌ ، وكانتْ تصيّفُ بالطَّائِف شَأْنَ الأَغْنياءِ آنذاك ، ويظهرُ أنَّ دارَها بمكةَ كانتْ تحتوي عَدَداً كبيراً منْ الجواري والرّقيق ، وكانتِ الثُّريا جميلةً وفيها إعجابٌ بنفسها ، ودلٌّ علىٰ بنات جنْسِها على عادةِ الفَتَيات والسَّيداتِ المُتْرفَاتِ ، وما دامَ المالُ بينَ يديها فلا بُدَّ أنْ تتنعَّمَ بهِ ، والمرأةُ منْ عادتها إنْ وَجَدَتِ المالَ أنْفَقَتْه علىٰ ملابِسِها وهيئتها وزينتها ، ولكنَّ هذا لا يَعْني أنَّ الثُّريا ومثيلاتها قد خَرجْنَ عنْ جادَّةِ الصَّواب وغَازَلْنَ هذا وذاك ، أو نَسِيْنَ مكانتهنَّ في المجتمع المكيّ وقْتذَاك.

* وصحيحٌ أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة كان يلهو هنا وهناك ، فهو شاعِرٌ غَزليٌّ ، وعاشِقٌ متميِّزٌ للجمال ، ومنجمٌ بعيدُ الأَغْوارِ في الغَزَلِ ، ولعلَّه اتَّخذَ مكاناً للغَزَلِ يبيعُ فيه الهوىٰ لبعضِ الجواري العَابِثاتِ اللاتي كُنَّ يأْتيْنَ منْ هُنا وهناك نتيجةَ الفتوحاتِ الإسلاميّةِ في المَشْرِق والمغْربِ ، ولا نستبعدُ أنْ تكونَ إحدىٰ الجواري قد طَلَبَتْ منه أنْ يقولَ فيها شِعْراً غَزليّاً يحفظُها علىٰ مَرِّ الأيَّامِ ، فقال فيها ، أو في غيرِها ، أو في سيدتها شِعراً جَعَلَها منَ الخالداتِ في شعْره وأَغْزَاله.

* ولعلَّ نفسيّةَ عمر كانت تأبىٰ عليه أنْ يتغزَّل بالجواري ، فعمدَ إلى نسْجِ الشِّعر الغزلي للطَّبقةِ الغنيّة في محيطه ، وخصَّ النّسوة ذات المكانة العُليا[1].

---

(١) كانَ عمرُ يحرصُ دائماً علىٰ أنْ تكونَ المرأةُ التي تشْغَلُ قَلْبَه منْ ذواتِ الحَسَبِ =

* ومنَ العجيبِ والغريبِ أنَّ عمرَ هذا شاعرُ الغَزَلِ ، لم يصادفْ أنْ أحبَّ أو تغزَّلَ بامرأة فقيرةٍ ، أو قالَ شِعْراً في واحدةٍ منَ الفقيراتِ حتَّى لو كانت جميلةً؟! ولعلَّ مردَّ ذلك ـ كما زعمَ الرُّواة ـ يعودُ إلى نَشْأَتِهِ الأرستقراطيّة التي علَّمَتْه أنْ يتعاملَ معَ طبقةٍ مماثلةٍ لطبقَتِهِ الاجتماعيّةِ ، فعمرُ لا يعشقُ امرأةً من سَوادِ النَّاس، لأنَّه تَخَصَّصَ بطبقةٍ معينةٍ منَ النِّساءِ لحاجةٍ في نَفْسهِ ، فهو ليسَ شاعرَ المرأةِ ، وهو ليسَ شاعر النِّساء ، كل النِّساء ، كَنِزَار قبّاني[1] في عصرنا .

= والنَّسَبِ ، وهو يخاطبُ المرأةَ مُشيداً بأصْلِها ومنوِّهاً بطيبِ مَنْبتَها فيقولُ :

يا بنةَ الخيرِ والسَّناء وفَرْعِ الـ ... مجْدِ والمنْصبِ الرَّفيعِ أثيبي
فإليكَ انتهتْ فروعُ قريشٍ ... بمساعي العُلا وطيبِ النَّسيبِ

وفي أبياتٍ أُخر يشيرُ إلى أنَّ صاحِبتَه عريقةُ الأَصْل ، عربيّةٌ ، شريفةٌ في نَسبِها ، أصيلةُ الأعمامِ والأخوالِ ، تعودُ إلى عبد مناف :

حرّةٌ منْ نساءِ عَبْدِ مَنَافٍ ... جَمَعتْ منطقاً وعَقْلاً وجِسْما
عمُّها خالُها وإنْ عُدَّ يوماً ... كانَ خالاً لها إذا عُدَّ عمّا

ويقول :

منْ عبدِ شَمس وهاشِمٍ وبني ... زُهرةَ أهلِ العَفَافِ والحَسَبِ

ويقول :

كالشّمس تُعْجِبُ مَنْ رأىٰ ويزينُها ... حَسَبٌ أغرُّ إذا تريدُ فَخَارا

ومثلُ هذه المعاني والصّور كثيرةٌ في أشعاره .

ويقول بلاشير : إنَّ قائمة غراميات هذا الأرستقراطي الارتيابي المشبوب العاطفةِ الذي لم يكنْ لهُ أهدافٌ طويلة ، نجدُ فيها أسماءَ أميراتٍ أمويات كفاطمةَ بنتِ عبد الملك ، وأمِّ محمد بن مروان بنِ الحكم التي كان لها مع عمرَ أثناءَ موسمِ الحجِ لقاءٌ غرامي . (تاريخ الأدب العربي لبلاشير ص ٧٤٩) .

(١) إنَّ الدَّارسَ لشعرِ نزار قبّاني يخلصُ إلىٰ فكْرة مفادُها أنَّ نزاراً لم يكنْ شاعرَ حبيبةٍ واحدةٍ أو أكثرَ بقَدْرِ ما كانَ شاعرَ نساء ، فهو في كلِّ ما نظمَ منْ شعر عنِ المرأةِ لا يتحدَّثُ عنْ حبيبةٍ بعينها ، بقَدْرِ ما يتحدَّثُ عن النّساءِ عموماً ، وهو يخالفُ عمرَ بنَ أبي ربيعة الذي ذكرَ كثيراتٍ في شعرهِ بأسمائِهنَّ ، ومعظمُهنَّ منْ عليةِ نساءِ القَوم ، أمّا نزار فكانَ يكتب : =

* ويبدو أنَّ عمرَ يحبُّ المُسْتَعصي منَ النِّساء ليظلَّ دائبَ الحركةِ ، يثري القومَ بِشعْرِه وأغْزَالهِ ، فهو يهوىٰ الجمالَ ، مولعٌ به ، ظامئٌ إليه ، وقد عبَّر عنْ هذا المبدأ بقوله :

إنِّي امرؤٌ مولَعٌ بالحُسْنِ أَتْبعُهُ ... لاحـظَّ لـي فيـهِ إلاّ لـذَّةُ النَّظَـرِ[1]

* لذلك جاءَ بعضُ الأَخباريّين وحاكُوا القَصَصَ الغراميَّةَ ، وجعلُوا منْ نساءِ عمرَ اللاتي تغزَّل بِهنَّ مغامراتٍ بعيداتٍ عن الصِّيانةِ والعفَافِ ، ولعلَّ الشُّعراءَ أيضاً قد سَاهَمُوا في هذا المجالِ وأَثْروه ، فهذا مروانُ بنُ أبي حَفْصَةَ ينظم جملةً منْ مشاهيرِ الشُّعراء العشّاق بقوله :

إنَّ الغَـوَانـي طَـالَمـا قَتلْنَنَـا ... بعُيـونهـنَّ ولاَ يَـدِيْـنَ قَتِيـلا

أَرْدَيـنَ عـروةَ والمـرقِّـشَ قَبْلَـه ... كـلٌّ أُصيـبَ ومَـا أطـاقَ ذُهُـولا

ولقـد تـركْـنَ أبـا ذؤيـبٍ هـائمـاً ... ولقـد تَبِلْـنَ كُثيّـراً وجَميـلا

وتـركْـنَ لابـنِ أبـي ربيعـةَ منْطِقـاً ... فيهـنَّ أَصْبَـح سَـائِـراً مَحمـولا[2]

* ومنَ الجديرِ بالذّكْرِ أنَّ بعضَ الرُّواةِ قد شرّقُوا وغرَّبُوا ، واضطربُوا وتخيّلوا قَصَصاً وأخباراً في نساءِ قريش الطَّاهِرات ، واتّخذوا من أشعارِ عمر متّكأً لهم ، كيما ينسجوا قَصَصَ الهيامِ والغرامِ حولَ مُغَازَلاتِهِ للمرأةِ

= باخْتصَار كتبتُ تاريخَ النّساء ، إنَّ فكرةَ التوبة عن شعري النّسائي غير واردة ، إنّ ملفي الشّعري حافلٌ بجميعِ القَضَايا معَ النّساء . كانَ ملفّي الشّعري معَ النّساء ملفّاً ضخماً ، أمّا نِسائي فلمْ أستوردْهُنَّ بكلِّ تأكيدٍ منْ جزرِ الواق الواق . الحقيقة النّسائيةُ رغم تعدّدها واحدةٌ . أنا أكتبُ عن كلِّ نساء العَالم رغْمَ خلافاتي مع بعضِ النَّساء ، فقد بقيتِ المرأةُ صديقتي . النّساء عالَم فيه الأبيضُ والأسودُ والأحمرُ والرّمادي . قليلاتٌ هُنَّ النّساء اللواتي ضربْنَ جِهازي العصبي . إنَّ النّساءَ اللواتي أَحْدَثْنَ كسْراً في زجاجِ حياتي لا يتجاوزُ عددهن أصابع اليدِ . كثيراتٌ منَ النّساء ذهَبْنَ منْ حياتي كما أتَيْنَ .

(١) ديوانه (ص ٤٩٣) .

(٢) الكامل للمبرد (٢/ ٢٩٥ و٢٩٦) .

المكيّة ، أو ببعضِ نسوةِ المدينةِ ، أو بنساءٍ منَ العربِ اللائي كُنَّ يأْتينَ إلى الحجِّ من هنا وهناك .

ونستميحُ القارىء الكريمَ عُذْراً إذا ما أَطَلْنَا في هذا المجالِ ، ولكنَّ العُذْرَ في ذلك ما نجدهُ في بَعْضِ المَصَادِر منْ إساءاتٍ مباشرةٍ وغير مباشرة للثُّريا بنتِ علي ، ولغيرِها من عليَةِ نساءِ القومِ منْ مثل : عائشة بنت طلحة ، وسُكينة بنت الحسين ، ولُبابة بنت عبد الله بن عباس ، وغيرهنَّ منْ بناتِ الصَّحابةِ الأَخْيارِ اللاتي تعدلُ الواحدةُ منهنَّ جيْلاً كاملاً من نساءِ عَصْر ما بعدها .

* إنَّ مَنْ يقرأ كتابَ الأغاني ، وأخبارَ ابن أبي ربيعة فيه ، يَلْقَ هذا الشَّاعر قَد غَدا شخصيّةً شِبْه خياليّة ينْسجُ حولها محبّو القَصَصِ العَفِنِ والأخبار البرّاقة ، وجلُّها زائفةٌ لا خَيْرَ فيها[1] .

* ويمكنُنا الآنَ أنْ نقولَ : منَ الخطأ ومنَ الإسْفَافِ ، أنْ نحكمَ علىٰ الثُّريا وحديثِ عشْقِها لعمرَ وبالعكْسِ منْ خلالِ الأحاديثِ والأقاصيصِ التي دارَ عليها جُلُّ الجزءِ الأوَّلِ منْ كِتابِ الأَغاني وغيرهِ منْ كُتُبِ الأَدَبِ ، ومنَ المُلاحَظِ أنَّ أكثرَ تلكَ الأخبارِ قَدْ كُتِبَ لتسليةِ النَّاسِ ، وقَطْعِ أوقاتِهم بالحديثِ ، لا لوصفِ حياةِ الثُّريا وعمرَ ، لأن طبيعةَ العَصْرِ آنذاكَ تخالفُ

---

(١) انظر الجزءَ الأوَّلَ من كتابِ الأغاني ، حيث خَصَّصَ الأصبهاني أكثرَ منْ ثلثيه للحديثِ عن أخبارِ عمر بن أبي ربيعة وصُويحباته وأغزاله ، وما نَسَجَ منْ قصَص حولهنَّ .
ومنْ العجيبِ أنَّ الدكتورَ زكي مبارك ـ الذي انتقد الأغاني وصاحبَه ـ يقولُ عن الأغاني ويدعو إلىٰ مَنْ ينهجُ نَهْجه : أهمُّ مرجعٍ لترجمةِ عمر بن أبي ربيعة وترجمةِ معشوقاتِه هو كتابُ الأغاني ، وعليه عوَّلْنَا فيَّ جَمْعِ أخبارهِ مع أولئك الملاحِ ، وكثيراً ما نكتفي بعبارتِه حينَ نراها وافيةً بما نريدُ ، فلنَسجلْ ذلك هَنا اعترافاً بفَضْل ذلك المؤلّف الذي قَلَّ نظيرهُ بينَ القُدماء والمحدثين .
وليتَنا نظفرُ بكاتبٍ مثله يدوّنُ أخبارَ الكتّاب والشُّعراء في العَصْر الحديثِ .
(حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٢٧) الهامش .

ما ذكَرهُ الأصبهانيُ ومَنْ علىٰ شَاكِلَتِه ، ولم يكنْ مجتمعُ مكةَ متحلّلاً مَاجِناً كما زعمَ الرُّواة عنِ المرأةِ المكيّةِ الطَّاهرةِ ، وذلك علىٰ الرَّغمِ منَ التَّطوُّرِ الاجتماعي الذي غزا المجتمع آنذاك .

* ولعلَّ طبيعةَ الحياةِ العربيّةِ الإسلاميّة عَصْرَ ذَاك قَدْ طرأَ عليها التَّطورُ والتَّجديدُ ، وذلكَ منْ كثرةِ الجواري الأجنبيّاتِ منْ أجناسٍ شتّى منْ روميّات وفارسيّاتٍ ممن كُنَّ في حُكْمِ الرِّق ، فهؤلاءِ وأمثالُهنَّ كُنَّ يملأنَ البيوتَ والقصورَ ، وبعضُهن كُنَّ يُغَازِلْنَ أو يُغَازَلْنَ منْ قِبَلِ العابثينَ ، وبالتَّالي نجدُ فضْلَياتٍ منْ مثْلِ سُكينةَ بنتِ الحسين الهاشميّة القرشيّة[1] تُشَوَّشُ صورتُها في كُتُبِ الأَدبِ والأَسْمارِ وغيرِها ، وكذلك ضيفةُ حلقتِنا الثُّريا بنتُ عليّ الأمويّة القرشيّة .

* إنّنا عندما ننظمُ أخبار الثُّريا في خيطٍ واحدٍ ، نعرفُ بوضوحٍ أنَّها كانتْ من فتياتِ مكةَ البارزات حَسَباً ونَسَباً ، تزوَّجها سهيلُ بنْ عبد الرّحمن[2] بنِ عوف الزُّهريّ ، وكانتْ معجبةً بالأدبِ والشِّعرِ ، وسمعتْ بالفتىٰ المخزوميّ المُغيري عمرَ بن أبي ربيعة ، ونُميَ إليها خَـبَـرُ شِعْره وغَزَلِهِ[3] ، فأُعجبَتْ بفنّهِ الشِّعْريّ ، وعرفَ عمرُ ذلك فأخذَ يترصّدُها لعلَّه يَراها ، حتّى وقَعَ لَهُ ما أرادَ ، وطفِقَ يتغزَّلُ بها حتّى جَعَل منْ ثُريا مكةَ العبشميّة ، ثُريا السَّماء تعرفُها جميعُ البَرِيَّة .

* ومنْ أمثلةِ القَصَصِ التي نَسَجها الرُّواة حولَ الثُّريا ، تلكمُ القصّةُ الشَّهيرةُ التي تجعلُ الثُّريا تخاطِرُ في الليلِ لتأتيَ زائرةً عاشقةً ولْهىٰ ، وتَقَعُ

---

(١) اقرأ سيرة سكينةَ بنت الحُسين في موسوعتنا «بنات الصَّحابة» (ص ٣٠٨ـ٣٩٧) ففي ذلك فوائدُ كثيرةٌ بإذن الله .

(٢) وقيل : سُهيل بن عبد العزيز بن مروان .

(٣) قال ابنُ نباتة عن عمرَ : شاعرٌ مُجيد ، صاحبُ ثروة ومُجونٍ ، وجميعُ شعرِه في الغَزَل ، ولا يمتدحُ أحَداً ، ولذلكَ قالَ له سُليمان عبد الملك : لِمَ لا تمدحنَا؟! فقال : إنّما أمدحُ النِّساء لا الرّجال . (سَرح العيون ص ٣٥٦) .

علىٰ عمرَ بن أبي ربيعة فلمْ تصادِفْه ولكنَّها تُصادفُ أخاه فذُهِلَ وذهِلَتْ. وهذه القصّة جاءتْ في أغاني الأصبهاني، ومن ثمَّ تناقَلَتْها المصادرُ، وتلقَّفَتْها الأفواهُ، وتلقاها الأخباريّون، لِيَعْمرُوا بها نوادي أسْمارِهم بأباطيلَ وأحاديثَ منْ هذا القبيل.

* تقولُ القصّةُ المزعومةُ: حُكي أنَّ الثُّريا واعدته أنْ تزورَه، فجاءتْ في الوقت الذي ذكَرَتْه، فصادفَتْ أخَاهُ الحارثَ[1] قد جاءَه ليلاً، ووجَّه بهِ في حَاجَةٍ له، ونامَ مكانَه وغطَّى وجْهَهُ بثوبِهِ، فلمْ يشْعُرِ الحارثُ إلاّ بالثُّريا قد أَلْـقَتْ نَفْسَها عليه تُـقَبِّـلُه، فانتْبَه وجَعَلَ يقول: اغرُبي عنّي فَلَسْتُ بالفاسِقِ، أخزَاكُما اللهُ، فلما عَلِمتْ أمْرَه انصرفتْ جازعةً. ورجعَ عمرُ، فأَخْبَرَه الحارثُ بخبرِها، فاغتمَّ لما فَاتَه منها، وقالَ لأخيهِ: أَما واللهِ لا تَمسّكَ النَّارُ أبداً وقد أَلقَتْ نَفْسَها عليكَ!

فقال الحارث: عليكَ وعليها لعنةُ اللهِ[2].

* ومنَ القَصَصِ الفاسدةِ التي لا تنسجمُ مع سُلوكِ الثُّريا، ولا مع تربيتِها ونشأتِها ما رواهُ الأصبهاني عن الحرمي بنِ أبي العَلاء: من أنَّ عمرَ بن

---

(١) الحارثُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي ربيعة أخو عمرَ منْ أبيه، وأمُّه جاريةٌ حبشيّة، قال ابنُ قتيبة: وأخوهُ الحارثُ يُلقَّب بالقُبَاع، لأنَّه أحْدَثَ مِكْيالاً يلقَّب القُبَاع في ولايتهِ بالبصرةِ، فلُقِّبَ به، وكانَ الحارثُ خيّراً عفيفاً يَعِظُ أخاه عمر بأنْ يقلعْ عن مجونهِ وفسْقهِ، (الشّعر والشّعراء ص ٥٥٣ و٥٥٧) بتصرف.

(٢) انظر: ثِمار القلوب (ص ٢٢٣)، والشّعر والشُّعراء (ص ٥٥٧ و٥٥٨)، والأَغاني (١/ ٢٣٢)، وغيرها، وهذه القصّة المزعومة باطلةٌ منْ وجوهٍ كثيرةٍ، وظاهرةُ الوضْع منْ وجوه أكثر، فهل يُعْقَل أنْ تأتيَ امرأةٌ شريفةٌ حسيبةٌ وتزورَ عمر ليلاً زيارةً مريبةً وتلقي بنفسها عليه؟! وهل يُعقل أنْ يذهبَ عمرُ في حاجةٍ لأخيهِ وقَدْ واعَدَها ـ إن افترضْنا صحّة الخبر ـ! ثم أرادَ ناسجُ القصّة أنْ يسيءَ لهؤلاءِ الشّريفات وغيرهنّ بهذهِ الصُّورةِ الفاسدةِ، والقصّة على الرغم من صغَر حجمها، فإنّها تصوِّرُ بالتّزويرِ صورةَ المجتمعِ المكيّ آنذاك وتصفهُ بالانحلال والفَساد والعياذ بالله.

أبي ربيعة كانَ مُسْهباً[١] بحبِّ الثُّريا بنت علي ، وكانت حريّةً بذلك جَمالاً وتَماماً ، وكانتْ تصيفُ بالطَّائف[٢] ، وكان عمرُ يغدو عليها كلَّ غداةٍ منْ مكةَ ، فيُسَائِلُ الركبانُ الذين يحملونَ الفاكِهَةَ منَ الطَّائِفِ عنِ الأخبار قبلِهم ، فلقيَ يوماً بعضهم ، فسألَه عنْ أخبارِهم فقال: ما استطرفْنَا خَبَراً[٣] ، إلاّ أنّني سمعتُ عند رحيلنا صَوتاً وصياحاً علىٰ امرأةٍ من قريش ، اسمُها اسمُ نَجْمٍ في السَّماء ، وقد سَقَط عليَّ اسمُه[٤] ، فقال عمر: الثُّريا؟ قال: نَعَمْ ـ وكانَ قد بلغَ عمر قَبْلُ ذلك أنَّها عليلةٌ ـ فوجَّه فرسَه علىٰ وجهِهِ إلىٰ الطَّائِفِ يركضُه ملءَ فُروجِهِ[٥] ، وسَلَكَ طريقَ كَدَاء[٦] ، وهي أخْشَنُ الطُّرق وأقربُها ، حتى انتهىٰ إلىٰ الثُّريا ، وقد توقَّعَتْه ، وهي تَتَشَوَّفُ له وتشرفُ ، فوجدها سليمةً عميمةً ،

---

(١) «المسهب» من أسقمه الحبّ وأذهب عقله ، والمعنى هنا أنه كان مولعاً مشتهراً بها.

(٢) «الطَّائف»: مصيفٌ جميلٌ لبني ثقيف ، وكانَ بنو عامرٍ في الجاهليةِ يصيفُون في الطائف لطيْبِها وثمارِها ، ويشتّون في بلادهم من أرضِ نَجد لسعتِها وكثرةِ مراعيها وكلئِها ، وعرفتْ ثقيفٌ فَضْلَ الطَّائف ، ومنْ ثمَّ استطاعوا أنْ يأخذوها منْ بني عامر وحصَّنُوها ، وبنوا عليها حَائِطاً يطيفُ بها ، فسمّيت الطائف. (معجم ما استعجم ١/ ٧٧ و٧٨) باختصار.

(٣) «ما استطرفْنا خبراً»: أي ليس عندنا شيءٌ طريفٌ حادِثٌ.

(٤) «سَقَط عليَّ اسمه»: أي ذهبَ وغابَ ونسيتُ.

(٥) «يركضهُ ملءَ فرُوجه» : أي لحملِهِ على أشدِّ العَدْو.

(٦) «كَداء»: جَبَلٌ بأعلىٰ مكة عند المحصّب ، قال حَسَّانُ بنُ ثابت يُوعدُ قريشاً عند الفتح:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إنْ لم تَروْهَا ... تثيرُ النَّقْعَ موعدُها كَداءُ

(معجم ما استعجم ٤/ ١١١٧).

وروىٰ البخاري وغيرُه أنَّ رسول الله ﷺ أمرَ خالدَ بن الوليد يومَ الفَتْح أنْ يدخلَ منْ أعلىٰ مكةَ منْ كدَاء ، ودخلَ النَّبيُّ ﷺ منْ كُدَىً.

وفي موضع آخر أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يدخلُ مكةَ من كَدَاء ، ويخرجُ منْ أسفلِها مِنْ كُدَىً ، وكَانَ دخولُ النّبي ﷺ من كَداء ، وخروجُه من كدىٰ في حجّة الوَدَاعِ.

(معجم ما استعجم ٤/ ١١١٧ و١١١٨).

أقول: وكداءُ اليومَ منَ الأحياء العامرة الشَّهيرة بمكة حرسَها اللهُ.

ومعها أختاها: رضيّا، وأمُّ عثمان، فأخبرها الخبرَ، فضحِكَتْ، وقالت: أَنا واللهِ أمرتُهم لأَخْتَبِرَ ماليَ عنْدكَ[1].

* وفي هذا الموقفِ الطَّريفِ يقولُ عمرُ قصيدتَه:

تَشَكَّىٰ الكُمَيتُ الجريَ لمّا جَهدتُهُ ... وبيَّنَ لو يَسْتطِيعُ أنْ يتكلَّمَا
فقُلتُ لهُ إنَّ أَلْقَ للعَينِ قُرَّةً ... فهَانَ علينا أنْ تكلَّ وتَسْأَمَا[2]

وفيها يقولُ سَائلاً عنِ الثُّريا:

فَما راعَها إلاَّ الأعزَّ كأنَّه ... عقابٌ هَوتْ منقضّةً قَدْ رأَتْ دَمَا
فقلتُ لهم كيفَ الثُّريا هُبِلْتُمُ ... فقَالُوا سَتدرِي ما مَكرْنَا وتَعْلَما[3]
يُرِدْنَ احْتِيازَ السِّرِّ منكَ فلا تَبُحْ ... بمَا لمْ تكُنْ عَنْه لَدْينَا مُجَمْجِمَا[4]

* وكما يُلاحِظُ القارىءُ الكريمُ أنَّ هذه القصَّةَ ذات الأحداثِ المتباعدةِ قد صاغَها ولحَّنهَا وغنَّاها عمر بن أبي ربيعة نفسه، وجاءَ الرُّواةُ فزادوا في أنغامِها وطرَّبُوا في أَدْوارِها حتّى غَدَتْ منَ القَصَصِ المعتمدةِ عندهم، وإنْ شئتَ فَقُلْ غَدَت إلياذةَ غزلٍ نادرةٍ، بطلها عمرُ والثُّريا، وزادَ من ضخامةِ ذلك أنَّ قصائدَ عمر كان يشدو بها بعضُ المغنّين[5] فتزدادُ انتشاراً هنا وهناكَ.

---

(١) الأغاني (١/ ٢١١ و٢١٣)، وانظر: ديوانه (ص ٥٦ و٥٧)، وسرح العيون (ص ٣٥٧ و٣٥٨)، والدر المنثور (ص ١١٧ و١١٨).

(٢) قَارِنْ بينَ مخاطبةِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ حصانَه الكُميتَ الذي أجْهَده منْ أَجْلِ غَزَلِهِ وحبِّه، وبينَ حصانِ عنترةَ بنِ شِداد الذي شكَا لعنترةَ بعبرةٍ وتحمحمٍ بينَ بريقِ السُّيوفِ واشَتجار الرِّماح، يقول عنترةُ:

فازْوَرَّ من وقْعِ القَنَا بلبانِهِ ... وشَكَا إليَّ بعبرةٍ وتحمحمِ
لو كانَ يدري ما المحاورةُ اشتكىٰ ... ولكانَ لو عَلِمَ الكَلام مكلّمي

(٣) «هُبلتمُ»: فقدتُم.

(٤) انظر: ديوانه (ص ٤٦٢) قطعة رقم (٣٠٠) وهي ثمانية أبيات.

(٥) يزعمُ الدكتور شوقي ضيف أنَّ تلكمُ الأغاني قد شُغِفَتْ بها النّساءُ حُبّاً، وخصُوصاً إذا ما غنّاها بارعٌ أو بارعةٌ في الغناءِ، بل زعمَ أنَّ النِّساءَ كُنَّ يجدْنَ بذلك شَرفاً يقول: وفي هذا ما يدلُّ إلىٰ أيّ حدٍّ كان يُشْغَفُ بعضُ النِّساءِ بهذه الأغاني، حتى إنَّ=

* لقد كانَ عمرَ يظنُّ أنَّ كلَّ جميلات مكةَ يلهجْنَ باسمِهِ ، ويشتكينَ تباريحَ حبِّه ، فأحْشَاءُ النِّساء خافقاتٌ بهِ ، وقلوبهنَّ هائماتٌ بجمالهِ ، يَسْعَيْنَ في أثرهِ كيما يكحِّلْنَ أعينهنَّ برؤيتهِ.

* ولقد عبَّر عمرُ[1] في بَعْضِ أَغْزالهِ عن المتيّمات بهِ ، اللواتي قرَّحَ الحبُّ قلوبهنَّ وهنَّ يتابعْنَه بالسَّلامِ والإشاراتِ ، وفي ذلكَ يقول منْ قصيدةٍ مطلعُها :

تَصَابَى القَلْبُ وَادَّكَرَا   صِبَاهُ ولَمْ يكُنْ ظَهَرَا

ومنها :

أَلَيْسَتْ بالتي قَالَتْ   لمولاةٍ لهَا ظَهَرا
أَشيري بالسَّلامِ لَهُ   إذَا هوَ نَحْونَا نَظَرَا[2]

إنَّ الأقاصيصَ التي وصَلَتْنا عنْ عمرَ بن أبي ربيعةَ قد شَوَّهَتْ لنا عمرَ نَفْسَه ، وشوَّهَتْ معه صورة المرأةِ المكيّةِ والمرأةِ الحجازيةِ[3] في أطْهَرِ عَصْرٍ

= كُلاًّ منهنَّ تريدُ أنْ تظهرَ في مرآتِها الصَّافيةِ ، إذ كانتْ هذه المرآةُ تلمعُ في أيدي المغنين والمغنياتِ لمعَاناً شَديداً قوياً له بريقُه المؤثِّرُ في نفوسِ الرّجال وقلوبهم ، ولم يكنِ النّساءُ يجدْنَ في هذا عيباً ولا ما يشبهُ العيبَ ، بل كُنَّ يجدْنَ فيه شَرفاً - لاحظْ يجِدْنَ فيه شرفاً!!! - فالنِّساءُ هنَّ النّساءُ يحببنَ الثّناءَ علىٰ حسنهنَّ والتَّغنّي بجمالهن ، (الشّعر والغناء في المدينة ومكة ص ٢٢٩ و٢٣٠).

(١) إنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة قصَّاصٌ ماهرٌ في عَرْضِ أغزاله ، يتخيّلُ جمالَ الحِسَان في ذهْنِه ثمَّ يقصُّ ما يتخيّلُ بشعرٍ يفيضُ بالجمالِ والعُذوبةِ ، فإذا به يجعلُ في قَصائِده حركةً فيصفُ مغامراتِه ، ويحسنُ الحديثَ علىٰ لسانِ النِّساء اللاتي تعلقْنَ به.
ونحنُ نعترفُ بأنَّ عمرَ كان ماهراً ذكيّاً في استخدامِ الشِّعر القَصَصي لِعَرْضِ علاقته بالمرأةِ ، فمن طبيعة القصّة التّزيّدُ في الواقع والوقائع ، وتخيّلُ أحداثٍ لم تَقَعْ ، وذلك ليرضيَ نزعةً خاصّةً في نفسهِ ، وليلَبّيَ حاجةً كثيرينَ ممّنْ فتنَتْهُم أشعارُه وأخبارهُ ، ومَنْ يدري فلعلَّ معظمُ أخبارهِ منْ نسجِ الخيال والتّخيل؟!

(٢) ديوانه (ص ٤٩٢) قطعة رقم (٣٧٥) وعدد أبياتها تسعة.

(٣) ومن أمثلةِ هذا التَّشويه ما زعَمه زكي مبارك بقوله : وفي الحقِ أنَّ ابنَ أبي ربيعة لم =

ومِصْر ، وذلك فيما قصَّه الرُّواةُ عنها قَصَصاً هي أقرب إلىٰ الخيالِ ، وتشبه إلىٰ حدٍّ ما بعض أفلامِ الأربعينيات .

* بل إنَّ النِّساءَ اللواتي تغزَّل بِهنَّ ، وقَفْنَ له ولشعرِه بالمرصادِ ، وأبانوا زيفَ ما قالَ وما يقولُ ، فهذه البغُوم أو الثُّريا تقولُ عنه عندما سمعتْ شِعْره في رملةَ الخزاعيّة[1] : أفٍّ له ما أكذبه .

وقالتِ الثّريا أيضاً : إنَّ ابنَ أبي ربيعة فارغٌ ونحنُ في شُغل .

وقالتْ سُعدى[2] بنتُ عبد الرحمن بنِ عوف وقد سمعتْ ما قاله فيها منَ الشِّعر : أخزاكَ اللهُ يا فاسقُ ، عَلِمَ الله أنِّي ما قُلْتُ ممّا قُلْتَ حرفاً ، ولكنَّك إنسانٌ بَهُوتٌ[3] .

* ومن القَصَصِ المزعومةِ التي بَهَتَ بها الرُّواة الثُّريا ما زعموا أنَّها ضربتْ عمرَ على فَمِهِ ، فَخَلَعَتْ ثنيَتيه ، فكيفَ زعموا ذلك؟!

* وذكر الرُّواة أنَّ الصِّلة اشتدَّتْ بينَ الثُّريا وعمرَ ، وأصبحتْ وثيقةً ، وهم يذكرونَ أنَّه كان يزورُها وتزورُه على الرَّغمِ من احتياطِ أهلِها وسخطِهم ، ونُصْح أهْلِه وإخوتِه وغَضَبِهم .

= يكنْ في حاجةٍ إلى تصيّدِ النِّساء ، فقد كُنَّ عليه أحرصَ ، وإلىٰ تَصيّده أحوجَ ، وسنرىٰ حينَ نعرضُ لأخبارِه مع هند بنتِ الحارث وسكينةَ بنتِ الحسين كيفَ كانتْ تشقىٰ الرُّسل في البحثِ عنه كلّما حنَّتْ معشوقاته إلى وجههِ المشرقِ وحديثهِ الظَّريف . (حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٤١) وكلامُ زكي مبارك هذا كلامٌ خطيرٌ جدّاً ـ كما يلاحظ القارىءُ الكريم ـ حيثُ يزعمُ مبارك هذا بأنَّ نساءَ عليةِ القوم كُنَّ يتحرشْنَ عمرَ ويلتمسْنَه ويبحثْنَ عنه ليقضينَ معه أحلىٰ الأُويقيات!! . فسبحان الله عما يصفون .

(١) اقرأ سيرة رملة الخزاعية في هذا الكتاب .

(٢) اقرأ ما كتبناه عن سعدى بنت عبد الرحمن في موسوعتنا بنات الصحابة ، وقد أثبتنا بالدليل القاطع أن سعدى هذه شخصية مزعومة وهمية وضعها الأفاكون والخراصون . (بنات الصحابة ص ٥٣٠ ـ ٥٤٥) .

(٣) الأغاني (١/١٥٨ و١٥٩).

* ويزعمون أنَّ عمراً أتىٰ يوماً الثُّريا ومعه صَديقٌ له كان يُصاحبه ، ويتوصَّلُ بذكْرِه في الشِّعر ، ويُقْبِلُ عمرُ وصديقُه علىٰ الثُّريا ، وهناك تستقبلُهما جاريةٌ منْ جواريها في قَصْرِها ، وتسمعُ الثُّريا صوت عمر يسألُ عنها ، وتكشفُ الثُّريا السِّتْرَ ، وتريدُ أَنْ تَخْرُجَ إليهِ ، لكنَّها فوجئت بأنْ رأتْ صاحِبَه معه فرجعتْ مسرعةً ، فقال لها عمرُ : تعالَي تعالَي ، إنَّه صديقي ، وليس ممّنْ أحتشمُه ، ولا أُخْفِي عنه شيئاً .

* واستلقىٰ عمرُ فَضَحِكَ ، ويبدو أنَّ الثُّريا قد اضطربَتْ وثار غضبُها ثورةً شديدةً ، فَسَرَتْ في كيانها قوةٌ عجيبةٌ ، وطارتْ أنوثتُها ثمَّ خَرجَتْ إليهِ وضربَتْه بظاهرِ كفِّها ضربةً شديدةً ، فأصابتْ الخواتيم ثنيتَيْه العُلْوِيَّتن ، ـ وكانَتِ النِّساءُ إذ ذاك يتختمنَ في أصابعهن العَشَرة ـ فكادت أنْ تقلعَهما ، فلم يحزنْ عمرُ منها ولمْ يُظْهِرْ غَضَباً ، وإنَّما عالَج ثنيتَيْه حتى شُفيتا ، ولكنَّهما اسودَّتَا ، فكان يفتخرُ في شِعْرِه بهما ، ويعدُّهما أثراً عزيزاً عنْده[١] .

---

(١) انظر : الدر المنثور (ص ١١٩) بتصرف ، نقلاً عن الأغاني ، وانظر زهر الآداب (١/ ٢٥٠) حيث قال : وكانَ عمرُ أسودَ الثّنيتَيْن .
وفي كتابه «الثُّريا» يتحدَّثَ كمال بسيوني عن عمرَ والثُّريا وكأَنَّه يتحدَّثُ عنْ سَواقِطِ الممثّلين والممثّلات في فيلم مُثير ، ويزعمُ أنَّ عمر قَدْ عالجَ ثَنَاياه في البصرةِ وعادَ ينهلُ الحُبَّ معَ الثُّريا فقال :
وقد أنفقَ عمرُ معَ الثُّريا بَعْدَ أنْ عادَ منَ البصرةِ أيّاماً سعيدةً حافلةً بألوانِ اللّذةِ وصنوفِ النَّعيم ، لم يعرفْ فيها أَلَماً ولا حُزناً ، ولم يحسّ فيها ضيقاً ولا اضطراباً ، وكانتِ الثُّريا رفيقةً به إلى أقصىٰ غاياتِ الرّفقِ ، لطيفةً معهُ إلى أبْعَدَ حدودِ اللّطف ، محبّة له إلىٰ أرقىٰ درجاتِ الحبّ ، تصرفُه في فنونِ الهَزْلِ والجد ، وتنقلُه في أطوارِ المرحِ والهدوءِ ، وهو مُسْتَسلمٌ لها استسلامَ الطِّفْل إلى أمّه الحنونِ ، واجِداً في ذلك لذّة ممتعةً ومتاعاً لذيذاً ، وقد نظرَ عمر إلى نفسهِ ذاتَ يومِ ، فإذا هو سعيدٌ موفورٌ حقّاً ، وإذا هو ليسَ في حاجةٍ إلى أنْ يتكلَّفَ الرّضا ويتكلَّف الابتسام ، وليسَ في حاجةٍ إلىٰ أنْ يقبلَ على اللهوِ فيسرفَ علىٰ نفسهِ فيه ، قد فارقتْ نفسُه كآبتها ، وبرىءَ قلبُه من مرضهِ ، فهو راضٍ سعيدٌ ناعم البالِ ، رخي العيش ، يبتسمُ للحياةِ ، وتبتسمُ له الحياة . =

* هذا وقد عيَّره بهما الحزينُ الكناني[1] الذي كان بينَه وبينَ عمر خصومةٌ فقال يخاطِبُه:

مَا بَالُ سِنّيكَ أمْ ما بالُ كَسْرِهما ... أهكـذا كُسِـرَا فـي غيـرِ مَـا بَـاس

أمْ نفحـةً مـنْ فتـاةٍ كُنْـتَ تـألَفُهـا ... أمْ نَالها وسْط شَرْبٍ صَدْمةُ الكاسِ[2]

* وأذكِّرُ القارئَ الكريمَ بأنَّ هذه القصَّةَ المزعومةَ تشْبِهُ إلىٰ حدّ ما بعضَ فصولِ أفلامِ الشَّباب في الأربعينيات.

* ومما زادَ الطِّينَ بلَّةً أنَّ الرُّواةَ يزعمون أنَّ الثُّريا قد هَجَرَتْ عمرَ عندما عَلِمَتْ أنَّه تَغَزَّل بغيرِها منْ حِسَانِ عَصْرِها، فهي تريدُه وقْفاً[3] عليها، لا يحولُ ولا يريمُ، ومن ثم يحيكونَ حَولَ هذا الهجران قصّة ليس لها قرارٌ، وذلك حولَ قصيدةِ عمرَ البائية المشهورةِ، التي أولها:

= انظر: (الثريا ص ٤٥ و٤٦) من سلسلة اقرأ طبعة دار المعارف بمصر رقم السلسلة (١٨٣) آذار ١٩٥٨ م.

(١) الحزينُ الكناني: عمرو بنُ عُبيد الله بن وهيب، ويكنى أبَا الشَّعثاء، منْ شعراءِ الدَّولةِ الأمويّة، حجازي مطبوعٌ، وليس منْ فحولِ طَبقته، وكان هجاءً خبيثَ اللّسانِ، ومنْ شِعره:

إذا لـمْ يكُـنْ للمـرءِ فَضْـلٌ يـزيْنُـه ... سوىٰ ما ادّعى يوماً فَليسَ له فَضْلُ

وتلقـى الفتـىٰ ضَخْمـاً جَميـلاً رواؤُه ... يـروعُـك فـي النَّـادي وليـسَ لـه عَقْـلُ

وآخـر تنْبـو العَيـنُ عَنْـه مهـذَّبٌ ... يجُـودُ إذا مَـا الضَّخـم نَهْنَهَـه البُخْـلُ

(٢) الأغاني (١/ ٢٣٠)، ويقول الأصبهاني: ولَقِيه الحزينُ يوماً، فأنْشَده هذَيْن البَيْتَيْن، فقالَ له عمر: اذهبْ ويلكَ فإنَّكَ لا تحسنُ أنْ تقولَ:

ليـتَ هنْـداً أنجـزتنـا مـا تَعِـدْ ... وشَفَـتْ أنْفُسَنـا ممّـا تَجِـدْ

واستبـدَّتْ مـرّةً واحـدةً ... إنّمـا العـاجـزُ مَـنْ لا يستبِـدْ

(الأغاني ١/ ٢٣٠).

(٣) يقولُ الدكتورُ زكي مبارك مؤكّداً علىٰ هذا: وكانتِ الثُّريا تغارُ على عمرَ غيرةً شديدةً، وتكادُ تجنُّ حينَ تَقِفُ علىٰ بَعْضِ أخبارِهِ مع ظِرافِ النِّساء، ثم إنَّه يذكرُ قصَّة أمّ نوفل ورملة والثّريا. (حب ابن أبي ربيعة وشعره ص ٢٠٥).

قَـالَ لـي صَـاحِبـي ليعْلَـمَ مَـا بـي   أتحـبُّ القَتُـولَ أُخْـتَ الـرَّبَـابِ

ومنها:

مَـنْ رسُـولـي إلـىٰ الثُّـريـا فـإنِّـي   ضِقْـتُ ذَرْعـاً بهجـرِهـا والكِتَـابِ

* فقد وَرَدَ بأنَّ جاريةً للثُّريا كُنيتها أمُّ نوفل قد نَقَلَتْ لسيّدتها أنَّ عمرَ قَد تعرَّض لرملةَ بنتِ عبد الله بن خلف الخزاعيّة، ورآها في الحجِّ[1]، وحادثَها، ثمَّ بَلَغها أنَّه قد شبَّهها بِها، وقال فيها قصيدة مطلعُها:

أَصْبَـح القَلْـبُ فـي الجمَـالِ رَهِيْنَـا   مُقْصَـداً يـومَ فَـارَقَ الظَّـاعنِيْنَـا[2]

* وتثورُ الثُّريا وتثأرُ لجمالِها، فهي أجمل وأمْلَحُ منْ رملةَ، وأنكرتْ علىٰ ذوقِ عمر وعلىٰ عمرَ نَفْسِه أنْ يتدنَّىٰ إلىٰ ذلكَ الوادي السَّحيق في تقديرِهِ للجمَالِ وهو الخبيرُ الخرِّيتُ بفنونِه؟!، ـ وكانت رملةُ جهمةً عظيمةَ الأَنْفِ فيما يزعمون ـ وقالت: أفٍّ له ما أكذبه!! أو ترتفعُ حَسْناء بصفتِه لها بَعْد رملة؟! وقالت أيضاً: إنَّه لوقاحٌ صَنَعٌ بلسانِه، ولئن سلمتُ له لأردنَّ منْ شَأْوِه، ولأثنينَّ منْ عنانِهِ، ولأعرفنَّه نَفْسَه.

* ويزعمُ الرُّواة أنَّ الثُّريا صرمتْ عمرَ وقاطعَتْه وهجرتْه هَجْراً شديداً، حيثُ اتَّهمته بحبِّ رملةَ الخزاعية، وعلمَ عمرُ أنَّ الثُّريا قَد سَمِعَتْ ما قالَ في رملةَ منْ غزلٍ وتغزُّلٍ، فأَثّرَ ذلك في نفسِها، ولكنَّ عمرَ ينكرُ تهمةَ الثُّريا له بحبِّ رملةَ، فما هو بزعمِهِ إلا لقاءٌ وغزلٌ وكلامٌ وتعبيرٌ، وليس هذا يعني أنَّه قد أحبَّ رملةَ، وإنّما هي خطواتٌ لا تعدو لسانَه ولا تصلُ إلى قلبهِ لأنَّ قلبَه متعلّقٌ بالثُّريا، إلاَّ أنَّ الثُّريا أَعْلَنتْ أنَّها ستبقىٰ مغاضبةً له، ولَنْ يكونَ بينهما لِقاءٌ بعد غَزَله برملةَ أبداً.

---

(١) لاحظ عزيزي القارىء: في الحج في أقدس مكان؟!.

(٢) ديوانه (ص ٢٩٩ ـ ٣٠١) قطعة رقم (١٣٨)، وهي قصيدةٌ تعدُّ (١٤ بيتاً). و«رهيناً»: مرهوناً. والمعنىٰ أنّه ملازمٌ لهنّ ما يفارقهنّ، و«مُقْصَداً»: اسم مفعول معناه: قتيلاً أو موثقاً، و«الظّاعنين»، جمع ظاعن: وهو اسمُ الفاعل من ظعَنَ يظعنُ، إذا فارق.

وظنَّ عمرُ ـ كما زعموا ـ أنَّ كلامَ الثُّريا يمحوهُ النَّهارُ ، وأنَّ قسوتَها سُرعانَ ما يمحوهُ جَمَالهُا الغَضُّ الآسِر ، وأنَّ إباءَها ونفورَها لَنْ يدومَا طَويلاً ، ولكنَّ الثُّريا تمضي قاسيةً مصارمةً غاضبةً ، فإذا بعمرَ قد ضَاقَتْ عليه الدُّنيا بما رحُبَتْ ، وكادَ يطيشُ عَقْلهُ ، وتراقصتِ الصُّورُ أمامَ عينيهِ ، وبَدَتْ منْ خلالِها صورةُ الثُّريا وقد غابتْ أو كادتْ تغيبُ عنه ، لأنَّها شبعتْ منْ خداعِهِ ومكْرِه ، وتصوَّرها وهيَ تقولُ له : إلى متىٰ وأنْتَ سادرٌ أيّها المخادعُ ، فيوماً مع رملةَ ، ويوماً مع هنْد ، إنَّ ذلك لينغص عليَّ حياتي ، ويؤلمُ قَلْبي ، ويؤثّرُ في كياني .

* ويفيقُ عمرُ منْ تصوّراتِهِ ، فإذا به يلجأُ إلىٰ أَشْعَارِه ، حيث تفجَّر وجدانُه عن أبياتٍ ينتحلُ فيها الأَعْذار ، وينمِّقُ فيها الأَلْفَاظَ ، لعلَّه يكسبُ قَلْبَها منْ جديد ، ويخطبُ ودَّهَا منْ بعيدٍ ، ويذكرُ كيفَ ضَاقَ ذَرْعاً بِهَجْرِها ، فهي أَمَلُ مُناهُ ، ومُنىٰ أَملِه ، ولحنُ غزلِهِ ، وغزلُ لَحْنِهِ ، وهي غرامُه الأَوَّل ، وأوّلُ غَرامِه ، وأزاهيرُ صباه ، وعبيرُ أَنْداء كلماتِهِ وأشْعَارِه وأَغْزَاله ، وهنالك انبجستْ شاعريَّتُه عن قصيدةٍ عَبَّر فيها عنْ قَسْوةِ هجرِها ، ثمَّ أَغْرقَ في وصْفِها ، والتَّغزُّل فيها ، وفيها يقولُ :

مَـنْ رسُـولـي إلـىٰ الثُّـريـا فـإنّـي ضِقْـتُ ذَرْعـاً بِهَجْـرِهَـا والكِتَـاب[1]
أَزْهَقَـتْ أمُّ نَـوفَـل إذْ دَعَتْهـا مُهجَتـي مـا لقـاتِلـي مـنْ مَتَـاب
حيـنَ قـالـتْ لهـا أَجِيْبِـي فقـالَـتْ مَـنْ دَعَـانـي قـالَـتْ أبـو الخطَّـاب

* ثم إنَّه يأخذ بوصْفِها ووصفِ جَمالِها الذي يشْبِهُ دميةَ الرَّاهب المجتهد ، ويصفُ كذلك غلبةَ حبّها عليه ، ومن ثمَّ يظهرُ ألمه الشَّديد لأنَّها سَلَبَتْهُ فؤاده ونَـفْسَه :

---

(١) ولعمر بيتانَ آخران يحملان نفس المعاني فيقول :
مَـنْ رسُـولـي إلـىٰ الثّـريـا فـإنّـي ضَـافنـي الهـمُّ واعتـرتْنـي الهمُـومُ
يعلـمُ اللهُ أنّنـي مستهـامٌ بهـواكـم وأنّنـي مـرحـومُ
(ديوانه ص ٥٠٢).

أَبْــرزُوهــا مثــلَ المَهَــاةِ تَهَــادَىٰ   بَيْــنَ خَمْــسٍ كَــواعِــبٍ أَتْــرابِ
وهـــيَ مكنـــونـــةٌ تحيَّـــرَ منْهـــا   فـي أديـمِ الخـدَّيْـن مـاءُ الشَّبـاب
دميـــةٌ عنْـــد راهـــبٍ ذي اجْتهـــادٍ   صـوَّرُوهـا فـي جَـانِـبِ المحـرابِ
ثـــمَّ قَـالُـوا تحبّهـا قُلْـتُ بَهْـراً   عَـدَدَ النَّجْـمِ والحَصَـىٰ والتُّـرابِ
حيـنَ شـبَّ الفتـولُ والجِيـدُ منها   حُسْـنَ لـونٍ يـرفُّ كـالـزِّريَـابِ
غَصَبتني مجَـاجَـة المِسْـكِ نَفْسي   فَسَلُـوهـا مـاذا أحـلَّ اغتصـابـي[1]

* ولكي تتمَّ فصولُ المسرحيةِ ، وأحداثُ «الفلم» زعموا أنَّ ابنَ أبي عتيق صاحبُ عمرَ لما سمعَ قوله : مَنْ رسولي إلى الثُّريا . . .

قال : إيَّايَ أرادَ وبي نوَّه ، لا جرمَ واللهِ لا أذوقُ طَعَاماً حتى أشخصَ فأُصْلِحَ بينهما ، ونهضَ ونَهضَ معه مولاه بِلال ، فاكترىٰ راحلتَيْن له ولمولاه ، وسارَ مَسيراً شَديداً ، فقال له بلال : أَبْقِ علىٰ نَفْسِكَ ، فإنَّ ما تريدُ ليس يفوتُك . . .

---

(١) ديوانه (ص ٤٣٠ ـ ٤٣٢) قطعة رقم (٢٦٢). و«أبو الخطّاب»: كُنيةُ عمر.
و«تهَادىٰ»: أصْلُه تَتَهادىٰ ، حَذَفَ إحدىٰ التَّاءَيْن ، و«الكواعبُ»: جَمعُ كاعبٍ: وهيُ المرأةُ التي كَعبَ ثديُها واكتنزَ.
و«الأَتْرابُ» : المُسَاويات في السِّنِّ. و«بَهْراً»: البَهْرُ : ما اتّسعَ منَ الأرضِ ، والبَهرةُ: الأرضُ السَّهْلةُ الواسعةُ ، وبَهَرهُ: قَهَرهُ وعلاهُ وغَلَبهُ ، وبهرتْ فلانةُ النّساء: غلبتهنّ حُسْناً ، وبَهَر القمرُ النجومَ بهوراً: غَمرها بضوئِهِ ، قَال ذو الرّمة يمدحُ عمرَ بنَ هبيرة من قصيدة:
حتّـى بَهَـرتَ فمـا تخفـىٰ علـى أحَـدٍ   إلا علـــىٰ أكْمـــهٍ لا يعـــرفُ القَمَـــرا
والمعنىٰ: عَلَوت كلَّ مَنْ يُفَاخِرك فظهرت عليه.
ومعنىٰ بَهْراً في قولِ عمرَ بنِ أبي ربيعة : جَمّاً ، وقيل : عَجَباً ، أو فَخْراً.
وللكلمةِ معانٍ كثيرة. انظر (لسَان العرب ٤/ ٨١ ـ ٨٥) مادّة (بَهَر).
ومنْ الجدير بالذّكْر أنَّ بيتَ عمر بن أبي ربيعة هذا يُعْتَبَرُ منْ شواهدِ النُّحاة ، وأهلِ اللغةِ على جواز حذفِ الاستفهام ، وذلك أنَّ قولَه : «تحبّها» علىٰ معنىٰ : أتحبّها؟ .
و«الزّرياب»: الذّهب ، أو ماؤه. و«زرياب»: أحدُ الوافدينَ علىٰ الأندلس مِنَ المشرقِ ، رئيسُ المغنّين واسمُه: عليُّ بنُ نافعٍ ، وكنيتُه: أبو الحسن الملقّب بزرياب. وقد استوفىٰ المقّري أخبارَه في نفح الطِّيبِ (٤/ ١١٨ ـ ١٣٠).

فقال له: ويحكَ: «أُبَادِر حَبْلَ الوُدِّ أَنْ يَتَقَضَّبَا» ، وما حلاوةُ الدُّنيا إنْ تَمَّ الصَّدْعُ بينَ عمر والثُّريا؟!! . فقدما مكةَ لَيْلاً غير مُحْرِمَيْنِ ، فَدقَّ علىٰ عمرَ بابَه ، فَخَرجَ إليهِ ، وسلَّم عَليهِ ، ولم ينزلْ عَنْ راحلتِهِ ، فقال له: اركبْ أَصْلِحْ بينكَ وبينَ الثُّريا ، فأنا رسولُك الذي سَأَلْت عنه ، فركبَ معه وقدموا الطَّائِف ، ـ وكان عمر أرضىٰ أمَّ نوفلٍ فكانت تَطْلُب له الحِيَلَ لإصلاحِها فلا يمكنُها ـ ، فقال ابنُ أبي عتيق للثُّريا: هذا عمر قد جشَّمني السَّفَر منَ المدينةِ إليك ، فجئتُك به معترفاً لكِ بذنبٍ لم يجْنِهِ معتذراً لك منْ إساءَتِهِ إليك ، فدعيني منَ التَّعداد والتَّرداد ، فإنَّه من الشُّعراء الذين يقولُون ما لا يفعلون ، فَصَالَحتْهُ أَحْسَنَ صُلْح وأتَمَّه وأجْملَه[1] .

* ويعلِّقُ كمال بسيوني على هذه القِصَّة بتعليقٍ يزيدُ الطِّينَ بلَّةً ، والأَمْرَ تَشْويهاً والحقائقَ تزويراً ، إذ يسيءُ إلىٰ الثُّريا وإلى النِّساء في عَصْرِها إساءةً واضحةً ، فهو يصفُ عمرَ وقَدْ أَنْحلَه وأسْقمه حبُّ الثُّريا ، وهي تشفقُ عليه فيقولُ: وما كانتِ ـ الثُّريا ـ تَظنُّ أنَّ عمراً سيضعفُ إلىٰ هذا الحدِّ ، وإذا هي كلّها إشفاقٌ ورحمةٌ ، وإذا هي تكرهُ أَنْ يألمَ حبيبُها هذا الألمَ الثَّقيل ،

---

(١) الأغاني (١/ ٢٢٢) وما بعدها بتصرف يسير ، وانظر: زهر الآداب (١/ ٢٤٧ و٢٤٨). وهذا الخبرُ زاد الطِّين بلّةً ، إذْ جَعَل الرُّواةُ أَنَّ هنالكَ وسَاطة بينَ الثُّريا وعمرَ وهي الجارية أمُّ نوفل ، وكأَنَّ الأَمْر بسيطٌ هكذا ، وأنَّ النِّساءَ عَصْر ذاك لم يكنْ همُّهنَّ إلاّ العشق وإلاّ الغزل ، بل إنّ ابنَ أبي عتيق ينطلقُ منَ المدينةِ إلى مكة ، ولا يُحرِمُ منْ أجلِ الإصلاح بين عاشقَيْن ـ كما زعموا ـ ثمّ يَصِلُ مكةَ بعد مسيرة أكثر من (٤٠٠ كيلو متراً) ولا ينزلُ ، ومن ثم يرحلُ إلى المدينة تاركاً عمر يفرحُ بالصُّلح معَ الثريا!!؟!! وإذا ما كان المجتمعُ النّسوي على الصِّفة التي يريدُها الرُّواة وأصحابُ الأهواء فعلىٰ الدّنيا السَّلام!!
ويتحدَّثُ بلاشير عن هذهِ القصّة بخبثٍ واضح فيقول: كانَ بيَن الشَّاعرـ عمر بن أبي ربيعة ـ والثّريا بنت عليّ أحدَ أعيانِ الطّائف غرامٌ متبادَل ، تخلّلتْهُ قطائعُ ومصالحات. (تاريخ الأدب العربي ص ٧٤٩).
وكأنّنا إزاءَ أحدِ الأفلامِ الهابطةِ منذ بضعةِ عُقُود خَلَتْ!! فسبحان الله.

وإذا هيَ تُعْلِنُ رضاها عنه ، وتثقُ بما يضمرُ لها من حبٍّ ، وإذا هي ليستْ في حاجةٍ إلى أنْ يعترفَ لها بهذا الحبّ وقوته وسلطانه علىٰ نفسه ، وإذا الأمْرُ بينهما قد عادَ إلىٰ ما كانَ عليهِ من صَفَاءٍ ونَقَاءٍ.

* ويتابعُ بسيوني هذا تخيّلاتِهِ وافتراءاتِهِ فيقول: ويخلو عمرُ إلى الثُّريا ، فيتحدَّثُ معها فيما يتحدَّثُ فيه العُشَّاق ، وهل للعشّاق حديثٌ إلا الحبّ؟! وقد تحدَّث عمرُ والثُّريا ما شاء لهما الحبّ من حديثٍ ، ومَنْ يدري؟ فلعلَّهما قد تعاتَبا فيما كان من كلّ منهما أيّام القطيعة[1] .

الثُّرَيَّا في أغْزَال عُمَرَ وأَشْعَارِهِ:

* لعمرَ بنِ أبي ربيعة أشعارٌ وأخبارٌ كثيرةٌ في الثُّريا ، وقد تجاوزَ اسمُ الثَّريا في قصائِدِه عَددَ أصابعِ اليد ، وفي هذهِ القَصَائد عواطف متباينةٌ ، وأخبارٌ متناقِضَةٌ ، وقد حاكَ الرُّواةُ حولَها قَصَصاً شائِقَةً ربطُوها بأحداثِ القَصَائِد ، فمرّةً يؤكّدُ عمرُ حبَّه للثّريا[2] :

حَدّثيني وأَنْتِ غيرُ كَذُوب ... أَتُحِبينني جُعِلْتُ فِدَاك
واصدقيني فإنَّ قَلْبي رهينٌ ... ما يطيقُ الكلامَ فيمن سِوَاك

* ويذكرُ عمرُ عتابَ الثُّريا له ، وتمنيها فراقَه ، ويسألُها ويناديها بألاّ تلتفتَ إلىٰ أقوالِ الواشين:

قَدْ تَمنَيْتِ في العِتَابِ فراقي ... فَلَقَدْ نِلْت يا ثُريا مُنَاكِ
لا تُطيعي الوُشَاةَ فيما أرادُوا ... يا ثُريا ولا الذي يَنْهَاكِ

* ومرّةً نَجدُ في أخبارِ عمر وأغْزاله صورَ العتابِ للثُّريا ، فهو يعاتبهُا علىٰ هَجرِها حبّه ، وجفوها له ، وهذا الهجرُ والجفاءُ قد برَيَا عَظْمه وجسْمَه ، ثمّ

---

(١) الثريا (ص ٥٤ و٥٥) ، ومنَ العجيب أنَّ يمضيَ كمال بسيوني في حديثِهِ وحوارِه بينَ عمر والثريا وكأنَّه يكتبُ أحداثَ مُسَلسل مفعمٍ بالعشْق والغَرام ، ونسيَ أنَّ الثّريا إحدىٰ شريفاتِ النّساء في عَصْرها ومن أصل زاكٍ كريم!؟!

(٢) ديوانه (ص ٣٧٢ و٣٧٣) قطعة رقم (٣١٨) وعدد أبياتها سبعة.

يعودُ لِيُـذَكِّرَ الثُّـريا بألاّ تلتفتَ إلىٰ وشايةِ الواشين :

أيُّهـا العَـاتِـبُ الـذي رامَ هَجْـري   وبعَـادي ومـا علمْـتُ بـذَاكـا
أَلقتْلـي أراكَ أعـرضْـتَ عنّـي   أمْ بعـاداً أمْ جفـوةً فكَفَـاكَـا
قـد بـريـتَ العِظَـامَ والجسمَ منّي   وهَـوَانـا مُـوَافـقٌ لِهَـواكَـا
وإذَا مـا وشَـىٰ إليـك بنَـا الـوا   شون صدَّقْتَ ظالماً مَنْ أتَاكَا[1]

* ومرَّةً أخرىٰ يصرِّحُ باسمِ الثُّريا ، وأنَّه لَمْ يَرَ لها شبيهاً ، وأنَّه أمْضَى معها عَشرةَ أيامٍ كَواملَ ، قَضىٰ خلالها مَا عليهِ منْ ديونِ الحُبّ واقتضىٰ [2] ، وشَفَىٰ نَفْسَه وقضىٰ منْ الأحاديثِ ما قضى ، يقولُ في مَطْلَعِ مقطوعةٍ له :

لَـمْ تَـرَ العَيْـنُ للثُّـرَيـا شَبيهْـاً   بِمَسْيـلِ التِّـلاعِ لمّـا التَقَيْنَـا

---

(١) ديوانه (ص ٣٧٢ و٣٧٣) قطعة رقم (٣١٨) وعددُ أبياتها سبعة ، وأمّا الوُشاة فقد وَردَ كثيرٌ في ذمّهم في أشعارِ العرب ، قال مجنون ليلي :

ولـو أنَّ واشٍ بـاليمـامـةِ دارُهُ   وداري بأَعْلىٰ حضرموتَ اهتدىٰ ليا

(٢) يمكنُنَا أن نقولَ هنا : إنَّ الرَّجلَ أو الإنسان العاشقَ ، الذي يَصِلُ إلى بغيتهِ ومبتغاه في المرأة التي يطارِدُها ، وينشيءُ فيها أغْزاله ، تتلاشىٰ عنْدَه حرارةُ الهُيام ، وتخفُّ حرارةُ الحبِّ ، بل تنطفيءُ جذوةُ العشقِ ، ولا يعودُ يذكرُها في شعرِه أو في سرِّه ، وحتّى في علانيتهِ. لذلك كانَ عمرُ بنُ أبي ربيعة يرىٰ أولئك النّسوة في المواسِم وهُنَّ في غَفْلةٍ عنه ، أو يتتبَّعُ غَفَلاتِهنَّ ، ويهتبلُ فرصةً كيما يرىٰ وجْهَ إحداهنّ أو يرىٰ كفَّها أو معصمها ، ومنْ ثمَّ يذكرهنَّ في شعرِهِ ، وينشيءُ الفصُولَ والأحداثَ والأخبارَ الطِّوالَ حولَ مزاعمهِ الغرامية .

ولعلَّ عمرَ هذا كان يتخيّلُ جَمال أيّ امرأةٍ ، أو إحدىٰ جواريه ، ومنْ ثم يضْفي على ذاكَ الجمال اسمَ إحداهنّ ، فيتوهّمُ السَّامعُ أنّه ذو معرفة بأحوالِ النّساء طبيبٌ خبيرٌ بأمورهنَّ وأدوائِهنّ .

ولكنَّ عمرَ منَ الشُّعراء الذينَ يجيدونَ سَبْكَ الأحْداثِ ، ورصْفَ الكلامِ ، ومنَ الذينَ يصنعون من الحبّةِ قبّة ، ويغوصونَ وراءَ الكلماتِ ليرصفُوا أقَاصيصَهم وحكاياتِهم وتخيلاتهم :

هُـمُ الشُّعـراءُ أرْبَـابُ الأيَـادِي   لِغَـوْصِ الفكْـرِ فـي النّكَـتِ الجيـادِ
ولكـنْ أصْبحـوا فـي الفكْـر مـرضـىٰ   ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ ﴾

ومنها:

وضَرَبْنا الحديثَ ظَهْراً لِبَطْنٍ ... وأَتَيْنا مِنْ أمرِهِ ما اشْتَهَيْنا

فلَبِثْنا بذاكَ عَشْراً تِباعاً ... فقَضَينا دِيونَنَا واقْتَضَينا[1]

* ومرَّةً رابعةً يذكرُ عمرُ الثُّريا، ويذكّرُهَا بليلةٍ شَاتيةٍ ماطرةٍ منْ ليالي هَواه، يسمّيها «ليلةَ المطارفِ والوبْلِ» ويتخيّلُ عمرُ هذا ويقول:

يا ثُريّا الفُؤَادِ رُدّي السَّلامَا ... وَصِلِيْنَا ولا تَبُتّي الذِّمَامَا

واذْكُري ليلةَ المَطَارِفِ والوبْـ ... ـلِ وإرسَالَنَا إليكِ الغُلاما[2]

---

(١) ديوانه (ص ٣٠٤) قطعة رقم (١٤٢) وعددُ أبياتها سبعةٌ. و«المسيلُ»: الموضعُ الذي يسيلُ فيهِ الماءُ، و«التّلاع» جَمْع تلْعَة، وهي ما ارتفعَ من الأرضِ وما انخفَضَ منها، فهو ضدّ. قال طرفَةُ في معلقته:

ولستُ بحلالِ التّلاع مخافةً ... ولكنْ متى يسترفدِ القومَ أرْفُدِ

و«ضَربْنا الحديثَ ظَهراً لبطن» معناه قلّبناه على جميع وجوهِهِ التي يحتملُها، ولم نتركْ شَاردةً أو واردةً إلاّ ذكرْنَاها.

(٢) ديوانه أيضاً من قصيدة له، ومعنى «لا تبتي»: لا تقطَعي، و«الذّمام»: العَهْد والذّمّة. و«المطارِفِ» جَمْع مطرف، ـ على وزن مِنْبر ـ رداءٌ منْ خزّ ذو أعلام، و«الوبْلُ»: المطر الشّديد. وليلةُ المطارِف والوبلُ هي الليلةُ التي اجتمعا فيها فأرسلتِ السّماءُ عليهما المطرَ، فأخذا يستظلاّن بثيابِهما، ويبدو أنَّ اللياليَ الماطراتِ هذه قد تكرّرت مع عمر، ففي أخباره ما ينمُّ عن ذلك، إذْ أنشدَ ابنُ أبي عتيق قوله متغزّلاً بامرأةٍ اسمُها زينب:

وما نِلْتُ منها محرماً غيرَ أنّنا ... كِلانا منَ الثّوب المورَّدِ لابِسُ

فقال ابنُ أبي عتيق: بِنَا سَخِرَ ابنُ أبي ربيعة، فأيّ مَحرم بقي؟! ثمَّ أتَى عمرَ فقال: أَلَم تُخْبرني أنّك ما أتيتَ حَراماً قطّ؟ قال: بلىٰ قال: فأخبرني عنْ قولِك: «كلانا منَ الثّوب المورّد لابسُ» ما معناهُ؟ قال: واللهِ لأخبرنّك، خرجتُ أريدُ المسجدَ، وخرجتْ زينبُ هذه تريدُه، فالتقيَنا، فاتّعدنا لبعضِ الشّعاب، فلمّا توسَّطْنا الشّعب أخذتْنَا السّماءُ، فكرهتُ أنْ يُرىٰ بثيابِها بللُ المطرِ، فأمرتُ غلماني، فستروننا بكساءِ خزّ، فقالَ ابنُ أبي عتيق: هذا البيتُ يحتاجُ إلىٰ حاضنة.

* إنَّ ما قرأْنَاهُ منْ أشعارٍ وأخبارٍ لا يمثِّلُ حياةَ المرأةِ في مكةَ ، بل يمثّلُ ما نراهُ منْ صُورِ العابثِينَ الذين يتّبعون هذهِ وتلك ، ومن ثَمَّ يصوغُون كلاماً فيما عملوه .

* إنَّ الذينَ انطلتْ عليهم تلكم الأقاويلُ ، وتلكم الأغزالُ ، وتلكم الأخبارُ ، يحسبون أنَّ المرأةَ كانتْ في مَعْزِلٍ عنَ الدِّينِ والأخلاقِ ، وهم بهذا مخطئونَ أشدَّ الخَطَأ ، فقد كانتِ النّساءُ في ذلك العَصْر ، وفي ذَيْنَك البلدَيْن الطَّاهِرَيْن الشَّريفَيْن مكة والمدينة منْ أنْبَلِ وأطهرِ نِساءِ الدُّنيا ، بل كانت تُشَدُّ إليهنّ الرِّحالُ لِتَلَقّي العِلْم ، ولكنّ تلكمُ الأخبارُ الضَّبابيةُ لن تساعدَ علىٰ إخفاءِ الحقائقِ مهما طال الزَّمنُ ، ومهما تقوَّلَ المتقوّلون[1] .

= ومنَ الجديرِ بالذكر أنَّ ابنَ ميادة ، قد أغارَ علىٰ بيت عمر : فما نلتُ منها . . . . وأخذَ بعضَ ألفاظه ومعانيهِ فقال :

وما نلتُ منها محرماً غير أنّني أُقَبّل بسّاماً منَ الثَّغر أفْلجا
وألثمُ فاهَا تارةً بعْدَ تارةٍ وأتركُ حاجاتِ النُّفوسِ تحرّجا

(١) منْ هؤلاءِ «كمال بسيوني» الذي قال : أليسَ هذا الشِّعرُ تمثيلاً صادِقاً لحياة العابثينَ في الحجازِ خلالَ القَرنِ الأوّلِ للهجرةِ؟! أليسَ هذا الشّعرُ تصويراً صحيحاً لحياةِ المرأةِ العربيةِ اللاهيةِ في هذا القرنِ الأوّل؟! أليسَ هذا الشّعرُ وصفاً دقيقاً للصِّلَة بينَ الرِّجالِ والنّساءِ في هذا العَصْر؟! (الثُّريا ص ٦٩) . والحقيقة خلاف ما قال بسيوني هذا .
وفي موضعٍ آخر يصوِّر كمال بسيوني لقاءً بين الثّريا وعمر بعد غَيبَة قضاها عمرُ في اليمنَ فيقولُ :
ثم تُقْبِلُ الثّريا على عمرَ فلا تكادُ تراهُ حتّى تلقي بنفسِها بينَ ذراعيه ، وهي تقاومُ شوقاً لم يلبثْ أنْ استحالَ إلى دموعٍ غلاظٍ تحدَّرَتْ على خَديها كأنّها لؤلؤُ العِقْدِ قَدْ خَانه النِّظام ، ويضُمُّها عمرُ إليه ويُقبِّلُها تقبيلَ الوامِقِ المشوقِ ، ولا يستطيعُ هو الأخر أنْ يحبسَ الدُّموعَ فتنهمر عليه منْ عينيهِ انهماراً ، فلمّا أفاقا وهدأتْ نفساهما شيئاً ، واستقر قلباهما في صدريهما قليلاً ، قالت : له : أهكذا تترك ثريّاك العزيزة ووطنك الحبيب؟!! . . ! . . أهكذا ثَقُلَ عليك حبّي؟! قال عمر وهو يضمّها إليه: فوالله ما ثقُلَ عليّ حبُّك ولا ضاقتْ نفسي بك ، فأنتِ سعادتي ونعيمي . (الثّريا =

زواجُ الثُّريّا مِنْ سُهَيْل بن عَبْدِ الرَّحمَنِ :

* تروي المصادرُ الأدبيةُ أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ غادَرَ مكةَ إلى اليمنِ في إحدىٰ رحلاتِهِ إليها ، وفي هذه الأَحايين كانتِ الثُّريا قد تزوَّجَتْ من سُهيلِ بن عبد الرحمن الزُّهري ، واختارته علىٰ عمر[1] ، وخرجتْ معه إلىٰ الشَّام أو مصر .

* ولما عادَ عمرُ إلىٰ مكةَ وعَلِمَ بهذا الخبر المقرّح لقلبهِ ، وأنَّ الثُّريا أصبحتْ زوجاً لسُهيل ، كادَ أن يَفْقِدَ صوابَه ويخرجَ عَنْ رشدِه ـ فيما زعموا ـ وهناك تولّىٰ أَسِفاً حزيناً ، يستصرخُ ويتعجبُ وينادي :

أيُّها الطَّارِقُ الذي قَدْ عَنَاني ... بَعْدَمَا نَامَ سَافِرُ الرُّكْبَانِ
زارَ مِنْ نَازحٍ بغَيرِ دَليلٍ ... يتخطَّىٰ إليَّ حتَّى أَتَاني
أيُّها المنْكِحُ الثُّريا سُهَيلاً ... عَمْرَكَ الله كيفَ يَلْتَقيانِ
هي شَاميّةٌ إِذَا ما استقلَّتْ ... وسُهيلٌ إِذَا استقلَّ يَماني[2]

= ص ٧٨ و٧٩) باختصار؛ أليس هذا من مشاهد بعض الأفلام؟! سبحان الله .

(١) ومع هذا نجدُ «جان فاديه» يقولُ: إنَّ السَّيِّدةَ الوحيدةَ التي يمكنُها ادّعاء نوعٍ منْ ثباتِ الشّاعر تجاهها هي الثُّريا بنتُ عليّ. (الغزل عند العرب ١/ ٢٠٦).
ولا يخفىٰ على القارىءِ الحصيفِ ما في هذا الكلام من تمويهٍ وتشويهٍ وسُمّ ناقع .

(٢) ديوانه (ص ٥٠٣) قطعة رقم (٤٣٩) ، وانظر المعارف (ص ٢٣٩) ، ويزعمُ الرّواةُ أنَّ البيتين الأخيريْن فيهما أجملُ توريةٍ في الشّعر العربي ، فقد كانَ منَ لطيفِ وغريب المُصادفات ، أنْ يكونَ اسمُها اسمَ كوكبٍ منَ النّجوم هي «الثّريا» ، واسمُ زوجِها اسمُ نجم هو «سُهيل» ، وأنْ يكونَ هذانَ النّجمان متباعدين في السَّماء لا يلتقيان ، إذ إنْ الثريا في الأفقِ الشّمالي ، وسُهيل في الأفقِ الجنوبي ، فقال عمرُ مورّياً بتباعدِ هذَيْن النّجمين عن البعدِ الذي يفرّق بينَه وبينَ الثّريا وزوجها سُهيل .
والبيتُ الثالثُ منْ شواهدِ النَّحو في قولهِ «عَمرَكَ اللهَ» وهو لفظٌ وَرَدَ كثيراً في قَسَم العرَب وتأكيداتها ، وأصلهُ دُعاء بطولِ العمر ، وقد خرَّجَه النحاةُ تخريجاتٍ عدّة ، أهمُها التّخريجان التّاليان: الأوّل: أصلهُ: أطال الله عمركَ ، ويُعرب «عمرك» مفعول به ثان لفعلٍ محذوف تقديره أسالُ ، ولفظ الله: مفعول به ، والثّاني: أصلُه: =

* ولا يتوقَّفُ الرَّواةُ عند فصولِ هذه المسرحيّة ، بل يستمرُّ بعضُهم ، فيقصُّ القَصَصَ الذي يظهرُ لوعةَ عمر بعد زواجِ الثُّريا من سُهيل ، ويصوِّر تدلّهه وتحرّقَ قَلْبِه ، وأنَّ فؤادَهَ أصبحَ فارغاً ، ولم يطقِ الاصطبارَ ، وبرَّحَهُ الوَجْدُ ، وغَلَبَه الشَّوقُ ، فَحَمَلَه أنْ يصوغَ رسالةً ، ومن ثم يبعثُ لها بِما صَاغَه ورسَمه منْ كلماتٍ علىٰ الأوراقِ ، والتي يبثُّ فيها أَشْواقَه ، وينفثُ ما عَراهُ منْ فراقِها :

كَتَبْـــتُ إليـــكِ مـــنْ بَلَـــدي   كِتَـــابَ مُـــوَلَّـــهٍ كَمِـــدِ

كَئِيـــــبٍ وَاكِـــــفِ العينَـيْـ   ـــنِ بـــالحسَـــرَات مُنْفَـــرِدِ

يُـــؤَرِّقُـــه لَـهيـــبُ الشَّـــو   ق بيـــنَ السَّحْـــر والكَبِـــدِ

فيُمْسِـــــكُ قَلْبَـــــه بيـــــدٍ   ويَمْسَـــــحُ عينـــــهُ بِيَـــدِ[1]

وزادَ الرُّواة أنَّه كَتَب رسالتَه في قَوهية[2] ، وحسَنَّها وعطَّرَها ، ثمَّ بعثَها إلىٰ الثُّريا ، فلمّا قرأتِ الأبياتِ بَكَتْ بكاءً شديداً ، ثمَّ تمثَّلت ببيتٍ لمجنون بني عامر :

بِنَفْســي مَــنْ لا يستقــلُّ بنفسِــهِ   ومَنْ هُوَ إنْ لم يَحْفَظِ اللهَ ضائعُ

وكَتَبَتْ إليه تقول :

= أسألُ اللهَ أنْ يطيلَ عمرك ، ويكون «عمرك» مفعول به لفعلٍ محذوف تقديره : يطيلُ ، ولفظ الجلالة : مفعول به لفعل محذوف تقديره أسأل .

(١) ديوانه (ص ٤٩٠) قطعة رقم (٣٦٦) ، وانظر الأغاني (١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥) و«السحر» : الرئة . وهذه الأبيات كما ترىٰ ممسوخةً مهلهلةً فقيرةَ العاطفةِ يبدو عليها أثرُ التكلّف .

(٢) «قوهيّة» : القوهي : ضربٌ منَ الثّياب بيض (فارسي) قال الأزهريّ : القوهيةُ معروفةٌ منسوبةٌ إلى قُوهستان ، قال ذو الرّمة : «منَ القهزِ والقوهي بيضُ المقَانِع» .
وأنشدَ ابنُ برّي لنُصَيب :
سَـودْتُ فلـمْ أملـكْ سَـوادي وتَحْتَـه   قميـصٌ مـنَ القُـوهـي بيـضٌ بنـائِقُـه
(لسان العرب ١٣/ ٥٣٢) مادة (قوه) .

أَتـانـي كِتَـابُ لَـمْ يـرَ النَّـاسُ مثْلَـه ... أُمِـدَّ بكــافــورٍ ومسْــكٍ وعَنْبـرِ
وقِـرْطَـاسُـه قُـوهيَّـةٌ ورِيَـاطُـهُ ... بعِقْدٍ منَ الياقوتِ صافٍ وجوهَرِ
وفـي صَـدْرِه منِّـي إليـك تحيّـةٌ ... لَقَـد طـالَ تَهْيَـامِـي بكـم وتَـذَكُّـري
وعُنْـوانُـه مـنْ مُسْتَهـامٍ فـؤادَه ... إلىٰ هائمٍ صبٍّ من الحزنِ مُسْعَرِ[1]

* وتشيرُ بعضُ الرِّواياتُ التي تعمَّدتِ الإساءةَ إلىٰ سيداتِ العَصْرِ الأوَّلِ ، إلىٰ أنَّ عمرَ لما بَلَغَه زواجُ الثُّريا وارتحالها ، أتىٰ المنزلَ الذي كانتْ تنزِلُه ، فوجدَها قد رَحَلَتْ منه يومئذٍ ، فخرجَ في أثرِها ، فَلَحِقها على مرحلتَيْن ، فلما أدركهم نَزَلَ عنْ فَرسهِ ، ودفَعه إلى غلامِهِ ، ومشىٰ متنكّراً في الليلِ حتى مرَّ بخيمتِها ، فعرفَتْهُ الثُّريا ، وأثبتَتْ حركتَه ومشيتَه ، فقالتْ لحاضِنتها: كَلّميهِ! فسلَّمَتْ عليه ، وسألَتْه عنْ حالهِ ، وعاتَبتْهُ علىٰ ما بلغَ الثُّريا عَنْه من حبِّهِ لأخرىٰ ، فاعتذر وبكىٰ ، فبكَتِ الثُّريا لبكائِه ، وقالتْ له:
ليسَ هذا وقْتُ العتَاب مع وشكِ الرَّحيل ، فحادثَها إلىٰ طلوعِ الفَجرِ ، ثم ودَّعَها وبَكَيا طويلاً ، وقامَ فركبَ فرسَه ، ووقفَ ينظر إليهم وهم يرحلون ، ثمّ أَتْبعهم بَصَرَه حتّى غابُوا وأنْشَأَ يقولُ:

يـا صَـاحبـيَّ قِفَـا نَسْتخبـرُ الطَّـلاَ ... عنِ حَالِ منْ حلَّه بالأمس مَا فَعَلا
فَقَالَ لي الرَّبْعُ لمّا أن وقَفْتُ بهِ ... إنَّ الخليـطَ أجَـدَّ البَيْـنَ فـاحتَمـلاَ

وهي قصيدةٌ طويلةٌ منها:

صَـدَّتْ بِعَـاداً وقَـالَـتْ للّتـي مَعَهـا ... باللهِ لُوميهِ في بعضِ الذي فَعَلا
وحَـدِّثيـهِ بمـا حُـدِّثْـتُ واسْتَمِعـي ... مـاذا يقـولُ ولا تَعيـي بـه جَـدَلاَ
قُلتُ اسمَعي فلقَدْ أبلَغْتِ في لطفٍ ... وليس يَخْفىٰ علىٰ ذي اللُّبِّ مَنْ هَزَلا

---

(١) الأغاني (١/ ٢٣٦) ، وانظر الدر المنثور (ص ١٢٠) ، و«أمد» كُتِب بالمداد أي الحبر. و«الصَّب»: المشتاق ، و«المسعَر»: المجنون ، لأنَّ السّعر هو الجنُون ، وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤] ، وعَقِبَ هذه الأبيات يقولُ الأصبهاني عن القصّة: وهذا الخبرُ عندي مصنوعٌ ، وشعره مضعَّفٌ يدلُّ على ذلك ، ولكنّي ذكرتُه كما وقَعَ إلي. (الأغاني ١/ ٢٣٤).

هـذَا أرادَتْ بـهِ بُخْـلاً لأَعْـذِرَهَـا وقـد أرىٰ أنَّهـا لـن تعـدمَ العِلَـلا
مـا سُمِّـي القَلْـبُ إلاّ مـنْ تقلُّبِـهِ ولا الفـؤادُ فُـؤاداً غيـرَ أنْ عَقَـلا[1]

* وهاهنا يتوقَّفُ قدامىٰ الرُّواةِ قليلاً عن الاسترسالِ في تخيّلاتِهم وخيالِهم[2] ، ولعلَّ ذاكرتهم لم تَعُدْ تمدُّهم بِقَصَصٍ ينسجونَها حولَ الثُّريا ، وحولَ حبِّها وغرامِها وعشْقِها لعمرَ علىٰ الرغمِ منْ زواجِها وحصانَتِها ، ومع هذا حاولوا تشويشَ صورة المرأةِ الحرّةِ بشكْلٍ عام ، فكيفَ يصحُّ أنْ تتزوَّجَ الثُّريا ، وتصحب زوجَها إلى بلدِه ، ويسهرُ عاشقُها معها ليلةً كاملةً يتناجيان؟!! .

* ومنَ العجيبِ أنَّ الوضّاعينَ القدماءَ قد انقطعتْ منهم الأنفاسُ عند ذلك الحدّ ، إلاّ أنّنا وجدنا منَ المحدثينَ مَنْ يكملُ ذلك المشوار الفنّي في دَرْبِ الافتراءِ والكذبِ والتَّخيُّلِ والتَّزويرِ ، دونَ أنْ يفكّرَ في حقيقةِ الأَمْر وكأنَّه يتحدَّثُ عن اثنينِ من السَّاقطينَ الذين لا يعرفونَ حدودَ الأخلاقِ ، أو حدودَ الدِّين ، بل راحتْ خيالاتُه تَلْعَبُ به ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشّمال لتضعه في مكان التُّهمَة ونسيَ أو تناسىٰ أنَّه يتحدَّثُ عن نساءٍ عِشْنَ في أَطْهَرِ الأرضِ وخيرِ القُرون وفي كبرىٰ الأُسَر عزّاً وأدباً وشَرفاً ، فاسمعْ إلى كمال بسيوني الذي يتحدَّث عَنْ حالِ الثُّريا بعد زواجها وعنْ غرامِها الأَوَّل بعمرَ فيقول :

ولم تكنْ حالُ الثّريا خَيراً منْ حالِ عُمر ، فقد تزوَّجَتْ منْ سهيل

---

(١) انظر : الأغاني (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤١) ، والدر المنثور (ص ١١٩ و١٢٠) .
(٢) يقول الدكتور زكي مبارك : إنّ كثيراً منْ حوادث عمرَ الغراميّة منْ صنْعِ الخيَال ، وكانتْ حوادثُ ابن أبي ربيعة التي أُضيفت إليه تدلُّنا علىٰ شيئَيْن :
فهيَ أوّلاً علامةٌ علىٰ أنَّ المتقدّمينَ أَنِسُوا بروحهِ ، وأَسْلموا قلوبَهم لوحْيِهِ ، فأبدعُوا في ظلالِ ذكْراه ما شاءَ الخيالُ منْ أحاديثِ الحبِّ الظّافِرِ ، والهوىٰ الغلاّب .
وهي ثانياً دليلٌ على أنَّه كانَ للمتقدّمين مَيْلٌ إلىٰ القَصَصِ الغَراميّ ، وحظٌّ منَ الإجادَةِ فيه .
(حبّ ابن أبي ربيعة وشعره ص ٢٩٥) .

وارتحلَتْ معه ، وكانَ منْ وراءِ ذلك خاطرٌ قَدْ طوَتْ نَفْسها عليه طيّاً ، وهو أن زواجهَا من سُهيلٍ لن يحولَ بينها وبينَ لقاءِ عمر إنْ أحبَّتْ ، فهي تستطيعُ إنْ شاءَتْ أنْ تبتغيَ الوسائلَ للقائِهِ ، ولو فَعَلَتْ لأُتيحَ لها هذا اللقاء . . . وقد جعلَ هذا الخاطرُ يتردَّدُ في ضميرِها يقظىٰ ، ويتردَّدُ في أحلامِها نائمة . . . . . وكانت صورةُ عمر تتمثَّلُ أمامَها إذا أصْبحَتْ ، وإذا أَمْسَتْ ، وتَتَمثَّلُ أمامَها بين ذلك ، وكادتْ هذه الصُّورة أنْ تُفْسِدَ عليها حياتَها مع سُهيل ، وتفسدَ علىٰ سُهيل حياته معها ، فقد كان سهيلٌ يحبُّها حبّاً قوياً مُلحاً ، وهي لم تكنْ تحبُّه ولا تطمئنُّ إلى جواره . . . وكان لا يكادُ يُقْبِل عليها حتى تتمثَّل صورة عمر ، ثم تخطفُ النَّظر إلىٰ زوجها ، وتفضِّلُ ما في عمرَ من محاسنَ ، وتوازنُ بينها وبين ما في سُهيلٍ منْ مَقَابِح . . . وقد يدنو منها زوجُها متلطِّفاً ، وقد تلينُ له ، ولكنَّها لا تلينُ إلاّ متمثلةً صورةَ عمر ، وإذا زوجُها يظنُّ أنَّه قد سَحَرها واختلبَ قَلْبَها . . . . ولكنَّه في حقيقةِ الأَمْر لم يَسْحَرْهَا ولم يختلبْ قَلْبَها ، وإنَّما الذي سَحَرها واختلبَ قلبها هو ذلك الحبيبُ الذي تمثَّلَتْ صورته ، فاستسلمتْ له ، واستمتعتْ به ، وسَعِدَتْ معه . وكانت تنتظرُ الفرصَة لتقبلَ علىٰ عمر ، وكانت هذه الفرصةُ هي موسم الحج[١] .

* ويتابعُ كمال بسيوني إفْكَه هذا فيقول : وكانتِ الثُّريا قد استأذنتْ منْ زوجِها سُهيل ، وخرجَتْ تريدُ أنْ تحجَّ في ظاهرِ الأَمْر ، وتريد أنْ تلقىٰ عمر في حقيقةِ الأَمْر[٢] ، . . . ولما أَذِنَ لها بالحجِّ ، لم يفكرْ في أنّها ذاهبةٌ إلى مكةَ حيثُ يقيمُ عمرُ بنُ أبي ربيعة صديقُها القديمُ ، ولم يفكِّرْ في أنَّها تلقاهُ ، وتخلو معه وتعيدُ أيّامها الحلوةَ اللذيذةَ .

* وأقبلتِ الثُّريا على مكةَ ، وكان أوّل شيءٍ فكَّرتْ بهِ هو لقاء عمر ، وقد بَعَثَتْ إليه مَنْ يأتي لها به دون أنْ يخبره بمجيئها ، ويقبل عمر فلا يكادُ يَراها حتى يقولُ لها : حبيبتي ثُريا!؟! فتقولُ : حبيبي عمر ، ثمّ تُلقي بنفسها بينَ

---

(١) الثريا (ص ١٣٦ ـ ١٣٨) باختصار يسير وتصرف .

(٢) لاحظ هذا الكلام الخطير ! ! .

ذراعيه ، ثمَّ يكونُ منْ كلٍّ منهما لصاحبه قُبَلٌ طويلةٌ حلوةٌ حارّةٌ ، تؤدّي كثيراً منَ المعاني[1] ، ولسانُ كلٍّ منهما معقودٌ ، وقَلْبُ كلّ منهما واجِفٌ . . .
ثم تقولُ الثُّريا لعمر بأنَّها قد اقتنعتْ آخِرَ الأَمْر أنَّها لا تستطيعُ أنْ تنسىٰ هذا الحبَّ ، ولا أنْ تَبْرأَ منه ، وأنَّها لا تستطيعُ أنْ تحتملَ بُعْدَها عن عمَر ، فهي مُنْذُ اليوم ستتردَّدُ عليه في مكةَ بين الحينِ والحينِ ، تُقْبِلُ في المواسمِ لأداءِ الحجّ ، وتقبلُ في غيرِ المواسمِ لأداءِ العُمرة ، وهو يسألُها : أليسَ منَ الحقِّ أنَّك تحبّين زوجَك؟ وهي تجيبُه في صراحةٍ وعُنْفٍ : كلاّ ، لا أحبُّه ولم أحبَّه ولَنْ أحبَّه ، وما أحببتُ وما أحبُّ ولن أحبَّ غيرَك ، وعمر يضمُّها إليهِ ، فتَبْكي ما شاءَ لها البكاءُ ، وإذا بعمرَ تنهمرُ الدُّموعُ من عينيهِ انهماراً هو الآخر ، وما أدري أطالَ بكاؤُهما أمْ قَصُرَ؟ ولكنّي أعلمُ أنَّهما قد تحدَّثا بعد ذلك فُنوناً منَ الأحاديث[2] . . . .

* إنَّ القَصَص التيْ حيْكَتْ حولَ الثُّريا وأمثالِها ، إنْ هي إلا أراجيفُ وإلاّ أهواء ، أرادَ واضعوها وحائكوها المكْرَ بالمرأة العربيةِ المسلمةِ ، وتشويهِ سمعتها وصورتها في عَصْر العفّة الذَّهبي ، وعَصْرِ الرّواية والعِلْمِ ، ناهيكَ بالفضيلة ومكارمِ الأخلاق .

* لقد وضَعَ الرُّواةُ والقُصّاصُ أخباراً كثيرةً عنِ الثُّريا ، وعن نساءِ العَربِ الشَّريفات[3] تذكّرنا ببعضِ قَصَصِ ألف ليلة وليلة ، كما قرأنا بعضها ،

---

(١) ألم أقلْ لكم أعزائي القرّاء أنَّ هذا الخبيثَ ينقلُ مشهداً من مشاهدِ بعض الأفلامِ الغرامية السَّاقطة التي عاصَرها بسيوني هذا ، فالله المستعان على هذا الإفك والافتراء .

(٢) الثريا (ص١٤٠ ـ ١٤٢) باختصار وتصرف. ولم يكتفِ كمال بسيوني بإفْكه السَّابق ، وإنَّما ذكر أنَّ الثّريا عَادتْ إلى زوجِها بعد انقضاءِ موسمِ الحجِّ ، وأنَّ أحدَ أصدقائِهِ نَقَل له ما حدثَ بينها وبين عمر فأجابه بأنَّه يثقُ بها ولو رآها بينَ ذراعي عمر ما صدَّق أنّها آثمة . وأكملَ أفكه بأنَّ الثريا ظلَّت تترددُ على مكةَ للقاء عمر وزوجها سُهيل يعلمُ ذلك!!! سبحان الله وهو المستعان .

(٣) مما يُستَجاد ذِكْره في هذا المقَام أنَّ بعْضَ الكُبَراء في صَدْرِ الإسْلاِم قد مَرَّ بنسوةٍ فقال=

ولاحظْنا كذلك دَوْرَ الخيالِ والزُّخرف فيها ، ولعلَّ الجواري اللواتي ملأنَ البيوتَ عَصْر ذاك عقب الفتوحاتِ الإسلامية قد شوَّهْنَ بعضَ الصُّور الحقيقيةِ للمرأةِ الشَّريفةِ .

خَـاتِـمَـةُ الـمَطَـافِ :

* لا ندري متىٰ كانَ تاريخُ زواجِ الثُّريا منْ سُهيل بنِ عبد الرحمن ، بل انقطعتْ أخبارُها قليلاً عَقِبَ هذا الزَّواجِ ، وغابتْ نجومُ أخبارِها ، وغارَتْ أحاديثُ جمالِها ، وتمضي الأيّام ، وتمرُّ الأعوامُ ، ويموتُ عمرُ بنُ أبي ربيعة سنة (٩٣هـ) ، وبعدها تظهر الثَّريا في سَماءِ النِّساء ، وهنا تظهرُ في قَصْر الوليدِ بنِ عبد الملك في دمشقَ[١] .

* فقد وَرَدَ أنَّ سهيلَ بنَ عبد الرحمن قد ماتَ عنها ـ أو طلَّقها ـ فخرجتْ إلىٰ أميرِ المؤمنين الوليد بن عبد الملك وهو خليفةٌ بدمشقَ ، وقَصَدَتْه في قَضاءِ دَيْنٍ عليها ، ودخلتْ علىٰ زوجهِ أمّ البنين بنت عبد العزيز[٢] . وذكَرتْ لها حاجتها وما ركبَها مِنْ دَيْنٍ ، وبينما هي عند أمّ البنين ، إذْ دخَلَ عليها الوليدُ فقال : مَنْ هذه؟ فقالتْ أمُّ البنين : هذه الثُّريا بنتُ عليّ جاءتْني أطلبُ إليكَ قضاءَ دَيْن عليها ، وحوائجَ لها .

* فأقبلَ الوليدُ عليها وقال : يا هذهِ ، أتروينَ منْ شِعْرِ عمر بن أبي ربيعةَ شيئاً؟

قالتْ : نعم ، أمَا إنّه يرحمه اللهُ ، كان عفيفَ الشِّعر ، أروي قوله :

وَحِسَـانـاً جَـوارِيـاً خَفِـرَاتٍ حَـافِظَـاتٍ عنْـدَ الهـوىٰ الأَحْسَـابـا

= لهنَّ : لولا أَنْتُنَّ لكُنّا مؤمنين ، فأجابَتْه واحدةٌ منهنَّ وقالتْ : لولا أنتمْ لكنّا آمِنين . (كتاب البلدان) لابن الفقيه من (١٠) بتصرف يسير .

(١) لم يذكر ابن عساكر في تاريخه ترجمة للثريا بنت علي ، ولم يورد خبر قدومها على الوليد .

(٢) اقرأ سيرة أم البنين بنت عبد العزيز في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص٩٧ ـ ١٤١) ، ففي سيرتها وقفات ندية منداة برحيق الإباء عند المرأة الحسيبة الشريفة .

طيِّبـــاتِ الأَرْدَانِ والنَّشْــــر عِيْنـــاً   كَمَهَــا الــرَّمْــل بُــدَّنَــاً أَتْــرابَــا[1]

* وبَعْد ذلك قَضَىٰ الوليدُ حوائجَ الثُّريا ، وانصرفتْ بما أرادتْ شاكرةً له ولزوجهِ إقالتَهما لها وجَبْرهما عثراتِ الكرام.

* ولما خَلا الوليدُ بأمِّ البنين قال لها: لله دَرُّ الثُّريا ، أتدرينَ ما أرادت بإنشادِها ما أنشدتني منْ شِعْرِ عمر؟!

قالت أمُّ البنينَ: لا يا أميرَ المؤمنين.

قال: إنّي لما عرَّضْتُ لها بِهِ ، عرَّضَتْ لي بأنَّ أمِّي أعرابية وهي: ولادةُ بنتُ العبّاس بنِ جزي بنِ الحارث بنِ زهير بن جذيمة العبسي[2].

* وبعد خروجِ الثُّريا من قَصْرِ الوليدِ بن عبد الملك ، لم يُسْمَعْ لها صوتٌ في دنيا النِّساء ، وإنَّما سُمِعَ عليها الصَّوتُ عندما ماتَتْ ، ولا ندري بالتَّحديدِ متى كانتْ وفاتُها ، إلا أنَّها قد ماتت علىٰ أغْلَبِ الظَّنِّ في نهايةِ القَرنِ الهجريِّ الأوَّلِ.

* ولما ماتت الثُّريا أتىٰ الغريضُ المغنّي إلىٰ كثيرِ بنِ كثير السَّهمي ، فقال له: قُلْ أبياتاً منَ الشِّعر أَنُحْ وأَبْكِ بها الثُّريا ، فقال له كثير:

---

(١) انظر: ديوانه (ص٤١٠ ـ ٤١٢) قطعة رقم (٢٤٣) ، وعدد أبياتها (١٣ بيتاً) ، و«خَفِرات»: جَمْعُ خَفِرة: المرأةُ الحيية. «الأَرْدَان»: جَمعُ رَدْن وهو الكُمّ. «النَّشر»: الرّائحةُ.
«عيناً» العِيْنُ: جَمْع عَيناء وهي واسعةُ العين ، قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣]. «المَها»: جَمْع مَهاة: وهي بقرةُ الوحش.
«بدّناً» البُدَّن: السَّمينات. «أتْراباً»: الأتْرابُ: المتساويات في السِّن.

(٢) زهْرُ الآداب (١/ ٢٤٥) ، والدُّرُّ المنثور (ص١٢٠ و١٢١) بتصرّف يسير جدّاً نَقْلاً عن الأغاني. وتظهرُ منْ هذهِ القصّة رائحةُ الوَضْع ، فَقَدْ أراد واضعُها ومخترعها أنْ يسيءَ إلىٰ الوليدِ بن عبد الملك وإلىٰ الثّريا بآنٍ واحد ، والقارىءُ الفَطِنُ لا تخفىٰ عليه مقاصدُ الرواية. ثمّ إنَّ ابن عساكر ـ كما ذكرت آنفاً ـ لم يُشِرْ إلىٰ الثُّريا ولا إلىٰ قدومها دمشْقَ.

أَلاَ يـا عَيْـنُ مَـالَـكِ تَـدْمعيْنَـا أَمِـنْ رَمَـدٍ بَكَيْـتِ فتُكْحَليْنَـا
أَم انْـتِ حـزينَـةٌ تبكيـنَ شَجْـواً فشجـوُكِ مثْلُـه أبْكـىٰ العُيـونـا[1]

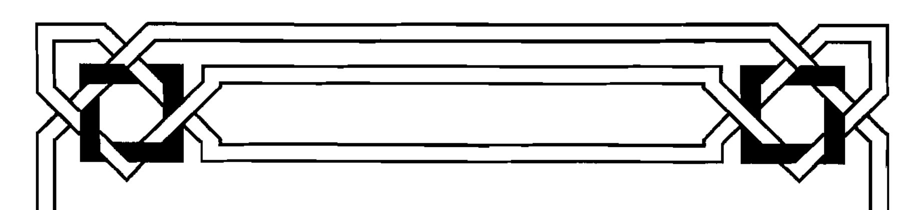
* ونعتقدُ أنَّ هذه القصَّة منَ القَصَصِ التي وشَّىٰ بها الرُّواةُ قَصَصهم في نهايةِ الثُّريا بنتِ علي ليكملُوا المشوار الفنّي والحبْكَة المُفْتَعلَة.

* وبعدُ ـ عزيزي القارىء ـ أرجو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ أكونَ قد وفّقْتُ في رسْمِ بعضِ الملامحِ الصَّحيحةِ عن الثُّريا بنتِ علي العبشميّةِ، وأشباهها منْ نساءِ فَجْرِ الإسلامِ، وعَصْرِ الرّسالةِ في أَقدسِ بقعةٍ علىٰ وَجْهِ الأرض مكةَ أمِّ القرى، كما أرجو الله ـ عز وجل ـ أنْ يوفّقني إلىٰ توضيح صُورِ نساءٍ أخريات، وإلىٰ رسْم صورهنَّ الحقيقية، وأنْ يكرمَني ربّي بأنْ أزيلَ الغَبَشَ الذي رانَ علىٰ سِيَرهنَّ منْ خلالِ الرِّواياتِ والأخبارِ المصنوعةِ، أو المزوَّقة لِترويجِ ما كتبوه، ولتضليلِ ما اخترعُوه، فقد يَجِدُ كثيرٌ منْ ضعافِ النُّفوس متنفَّساً وحجّةً لهم في مِثْلِ تلكم الأخبار المصوغةِ بإحكام الصِّناعة والكذب.

* وستبقىٰ الثُّريا بنتُ علي العبشمية امرأةً لامعةً من نساءِ القرنِ الأوَّلِ الهجري، ومن نساءِ الأَشْراف، وستبقىٰ سيرتُها الصّحيحةُ تعطِّرُ الأسماعَ إلىٰ ما شاء الله، فرحمَ الله الثُّريا، وجعَلها في مستقرِّ رحمته، والحمدُ لله أوّلاً وآخراً، فهو المنعمُ علينا بالصَّواب، وهو الموفّق إلى اكتشاف الحقيقة.

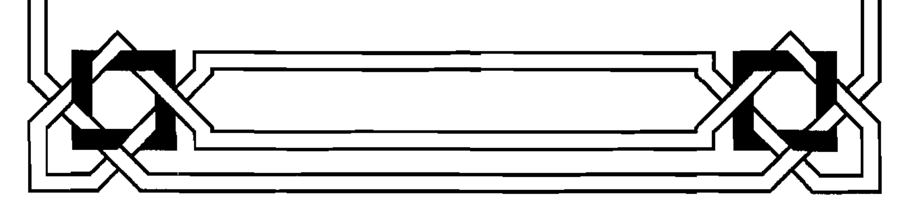
* * *

(١) انظر: الدر المنثور (ص١٢١)، وأعلام النساء (١/ ١٨٤) مع الجمع والتصرف.



(٥)
الخِرنق بنت بدر

* شاعرة ، عُرِفت برثائها لأخيها طرفة بن العبد .
* رائدة الشاعرات في رثاء الإخوة والأزواج والأبناء .
* كانت لسان قبيلتها ، وقلبها النابض .



مِنْ قَلْبِ الجَزِيْرَةِ العَرَبِيَّةِ :

* لمّا كنْتُ في رحْلَتي بينَ قُصُورِ الأُمَراءِ والخُلَفَاءِ ، أبحثُ عن امرأَةٍ منْ نِسَاءِ العَربِ الأَكَابِر ، كيما أنْظِمها في هذا العِقْدِ الجَميلِ ، وَجَدتني أقفُ أمامَ خيمةِ امرأةٍ في الجزيرةِ العربيّةِ ، أستمعُ إلىٰ أنينِها ، وإلىٰ نَفَثَاتِ صدرِها وهي ترسلُ أشْعارَها الحزينةَ في رثاءِ أخيها وزوجِها وأهلِها وذويها ، فأحببتُ أنْ تكونَ هذهِ المرأةُ في موسوعتنا هذهِ ، وإنْ لم تكُنْ قد عاشَتْ في شَوامخِ القُصُورِ علىٰ السُّررِ والفُرشِ والرِّياشِ ، ويحفُّ بها الخدمُ عن يمينٍ وشمالٍ ووراءَ وقُدّامَ ، ولكنَّ الذي يَشْفَعُ لنا في نَظْمِها هنا أنَّ شِعْرَها قد دَخَل أرقىٰ القُصُور في عَصْرِها وسُمِعَ هناك ، وعُلِمَ مقدارُه ، حيثُ هَجَتْ مَلِكاً منْ أَشْهَرِ ملوكِ عَصْرِها كما سنقرأُ ذَلك إنْ شاءَ اللهُ.

* والحقيقةُ فَقَدِ اسْتَهوتْني هذهِ المرأةُ بنفحاتِها الطَّيِّبةِ التي داعبتْ حَنَايا القَلبَ ، وذكَّرتني بِعَددٍ منَ الشَّواعر اللواتي اشتهرنَ في رثاءِ إخواتهنَّ في تاريخ رثاءِ النِّساء ، وإنَّه لموضوعٌ طريفٌ لو جُمِعَ في كتابٍ وَحْدَه ، فقد كانَ أعلياءُ الأُدَباءِ قديماً يقولون: أجودُ أشْعَارِ النِّساءِ ، أشعارُ الموتوراتِ الحاضَّاتِ علىٰ الطَّلَبِ والدُّخولِ ، والمُعَيّراتِ في ذلك بالتَّقْصِير ، والثَّاكلاتِ المُؤَبّناتِ ، وأشعرُ النِّساء في الجاهليةِ والإسلامِ خَنْساءُ وهي تُمَاضَرُ بنتُ عمرو بن الشَّريد السَّلَميّة ، ولها أشعار مشهورةٌ ، وأَخْبارٌ مذكُورة[1] .

* لكنَّ امرأةَ اليومِ عاشَتْ قَبْلَ الخَنْسَاء ، واشتهرتْ في قومها ، وكانتْ مجوِّدة في الرِّثاءِ ، مُحْسِنَةً في إبرازِ محاسنِ قومها ، هذهِ المرأةُ الشَّاعرةُ تُدعىٰ: الخِرْنِقُ بنتُ بَدْر بنِ هفان بنِ مالك ، من بني ضُبيعةَ البكريّة

---

(١) انظر: بلاغات النّساء (ص ٢٣١) طبعة مكتبة السّندس بالكويت ١٩٩٣م ، واقرأْ سيرةَ الخنساء في كتابنا : «نساء من المشرق العربي» .

العدنانيّة[1] ، إحدىٰ النِّساءِ الشَّواعِر الشَّهيراتِ في عَصْرِ الجاهليةِ في قَلْبِ الجزيرةِ العربيةِ ، فَهلْ أتَاكَ نبأُ هذهِ الشَّاعرة؟ وهل أَتَتْك أنباءُ أشعارِهَا وأخْبارِهَا؟!

بِيئَةُ الخِرْنِق وَمَكانَتُهَا وَأَخْبارُهَا:

* قَبْلَ أنْ نغذَّ السَّيرَ في الصَّحراءِ لنَصِلَ خيمةَ الخرنقِ ، تعالوا نتعرف مكانةَ المرأةِ في الجاهليّةِ ، كيما نُسَلِّطَ الأضواءَ علىٰ حياةِ ضيفةِ موسوعتِنا الخِرنق[2] بنتِ بدر ، وكيما نعرف رقيَّ العربِ في الجاهليّةِ بارتقاءِ نِسائِهم.

* فقد كانَ للمرأةِ عند العربِ في الجزيرةِ العربيّةِ رأيٌ وإرادةٌ وعَزْمٌ ، وكانتْ صَاحِبة أَنَفَةٍ ، ورفْعَةٍ وحَزْمٍ ، وقد ظهرَ صوتُ المرأةِ في بِضْعَةِ مجالاتٍ كالأَدَبِ والشِّعْرِ والسِّياسةِ والحربِ والتِّجارةِ وغيرِ ذلك ، واشتهرتْ

---

(١) خزانة الأدب (٢/ ٣٠٦ ـ ٣٠٨) ، وسمط اللآلي (٢/ ٧٨٠ و٧٨١) ، وأعلام النساء (١/ ٣٤٨ ـ ٣٥٠) ، وأشعار النّساء للمرزباني (ص ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٨ و ١٠٩) ، وقطوفُ الريحان من زهر الأفنان (ص ٢٤٧ و٢٤٨) ، ومعجم ما استعجم للبكري (٣/ ١٠٨٨) ، والحماسة البصرية (٢/ ٩٢ و٩٦) ، ولسان العرب (١٠/ ٧٨ و٧٩) مادة خرنق ، والمفصل في تاريخ العرب (٤/ ٦٢٠) و(٦/ ٨٥) ، وجمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام للقرشي (ص ٩٤) ، وأمالي المرتضى (١/ ٢٠٥) ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ٣٦٥) ، وبلوغ الأرب (٢/ ٧٦) ، وشاعرات العرب (ص ٩٢ ـ ٩٧) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٢١٢ ـ ٢١٨) وغيرها كثير.

(٢) «الخرنق»: بِكَسْرِ الخَاءِ وسُكون الرّاء وكَسْر النون ، قال ابنُ منظور: وَلَدُ الأَرنَب ، يكونُ للذّكرِ والأُنثى ، وأنشدَ الليث: «ليّنةِ المسِّ كمسِّ الخِرنِقِ» ، وقيل: هو الفتيُّ منَ الأرانبِ.
وأرضٌ مُخَرْنقَةٌ: كثيرة الخَرانِق. والخرنق: مصنعةُ الماء. والخرنقُ: اسمُ حوض ، وخرنق والخرنق جميعاً: اسم أخت طرفة بن العبد ، (لسان العرب ١٠/ ٧٨ و٧٩) مادة خرنق.
والخرنق: درع للنبي ﷺ. (مختصر تاريخ دمشق ٢/ ٣٦٤). أو الخريق: انظر تاريخ القضاعي (ص٢٤٧) حيث قال: إن الخريق درع للنبي ﷺ.

جماعَةٌ من النِّسْوَةِ بمناقبَ رفيعةٍ ، وخَصَائلَ كريمةٍ ، تُضْرَبُ بها الأَمْثَالُ للأجيال.

* فمنَ اللائي اشتهرنَ في الجاهليّةِ بِالشَّجاعةِ وقوة النَّفْس سلمىٰ بنتُ عمرو بنِ زيد النَّجاريّةِ التي كانتْ ذاتَ شَرَفٍ وسؤددٍ في قومها ، وكانت لا تتزوّج الرِّجالَ إلاّ وأمرهَا بيدِها ، حتى إذا كرهتْ منْ رجلٍ شيئاً فارقَتْه دونَ شَرْطٍ ولا قَيْد[1].

ومنَ اللاتي اشتهرنَ بالبَسَالَةِ والشَّجاعةِ عمرةُ بنتُ علقمةَ الحارثيّة ، فقد خَرَجَتْ في غزوةِ أُحُدٍ مع زوجها مِنْ بني عَبْد الدَّار ، فأُصِيْبَ لواءُ المشركينَ منْ قريش ، ولم يَدْنُ منْهُ أَحَدٌ منَ القومِ ، وبقيَ صريعاً ، حتى أَخَذَتْهُ عمرةُ بنتُ علقمةَ الحارثية فرفعَتْهُ لقريش ، فَلاذُوا بِها ، وفيها يقولُ حسَّانُ بنُ ثابت رضي اللهُ عنه :

ولَـوْلاَ لِـوَاءُ الحـارثيّـةِ أَصْبَحُـوا يباعُونَ في الأَسْوَاقِ بالثَّمن البَخْسِ[2]

* وكذلك سُمِعَ صوتُ المرأةِ في غَزَاةِ أحُدٍ ، فقد كانتْ هندُ بنتُ عتبةَ ـ رضي الله عنها ـ ما تزالُ في صُفُوفِ قُرِيش علىٰ شِرْكها ، وفَعَلَتْ يومَها ما لا يفعلُه الرِّجال ، إذْ كانتْ تَشْتَدُّ في تحريضِ قومها علىٰ الثَّبات وهي ترتجزُ الشِّعْر الحماسيَّ ، والكلماتِ الملتهبةَ التي تحرِّكُ كوامِنَ القُلُوبِ.

* ولكنَّنا لا نَنْسَىٰ النِّسوةَ المؤمناتِ التَّقيّاتِ في غزوةِ أحدٍ ، أولئكَ النّسوةُ اللاتى فَعَلْنَ الأفاعيلَ بالمشركينَ ، ومزقْـنَهُم وشردنَهم ، فكانَ منهنّ السَّيِّدةُ النَّجيبه بَطَلَةُ نساءِ أحد أمُّ عمارة نسيبةُ بنتُ كَعْبِ الأَنْصاريّة رضي اللهُ عنها[3].

* وكذلك لا ننسىٰ سيرةَ امرأةٍ أخرىٰ منْ بَاسِلاتِ نساءِ الإسلام ، وهي

(١) انظر أخبارها في أعلام النساء (٢/ ٢٤٩ و٢٥٠).
(٢) انظر : أعلام النساء (٣/ ٣٥٧).
(٣) للمزيد من أخبار هذه العملاقة الطاهرة التّقية الجريئة ، اقرأ سيرتَها في كتابنا: فرسان من عصر النبوة (ص ٨٠٧ ـ ٨٢١) ، فسيرتها إمتاع للأسماع.

أمُّ حكيم بنتُ الحارث بنِ هشام المخزوميّة القرشيّة التي سابَقَتِ الرِّجالَ في معركةِ اليرموك ، وأظهرتْ منَ البسالةِ والشَّجاعةِ ما حيَّرَ فرسانَ الرُّومِ ، فقد نَقَلَتْ منهم سبعةً إلى جهنَّم بعمودِ فسْطاطِ خيمتها[1] .

* هذا وقد اشتهرَ جماعةٌ منَ النِّساءِ في مختلفِ المجالات ، وخصوصاً في الأدَبِ والشِّعْرِ والشَّجاعَةِ كالخنْساءِ ، وكبشةَ وريحانةَ أختي عمرو بنِ معديكرب ، وجليلةَ بنتِ مرّة امرأة كُليبِ الفارسِ الجاهليّ المشهورِ ، ولها فيه مَراثٍ حَسَنَة النَّظْم جيدةَ السَّبْكِ ، ومَيْسةَ بنت جابر امرأة حارثة بن بدِر ، فقد كانت شاعرةً ذاتَ فصاحةٍ وبلاغةٍ ورأي ، تزوّجها حارثةُ بنُ بدر ، فلما هلكَ حارثة تزوَّجها بشْر بن شعاف بَعْدَه فلمْ تحمدْه ، وقالَتْ ترثي حارثةَ :

بــدلْــتُ بِشْــراً شَقَــاءً أو مُعَــاقبــةً ... مـنْ فـارسٍ كـانَ قِـدْمـاً غيـرَ عَـوَّارِ

يا ليتَني قَبْل بشْرٍ كانَ عاجَلَني ... داعٍ مـــنَ اللهِ أو دَاعٍ مـــنَ النَّـــار

ولها فيه مراثٍ كثيرة ذكرتْها المَصادِر[2] .

* وأمَّا الخِرْنِقُ فقد اشتُهِرَتْ بخصالٍ حميدةٍ تجمعُ حَصَائل العَقْلِ ، ومكارمَ الفعَالِ ، واستطاعتْ أنْ تثبتَ اسْمَها في مشاهيرِ نساءِ عَصْرِ الجاهليّة .

* وتشيرُ أخبارُ الخرنِقِ إلىٰ أنَّها أختُ طرفةَ بنِ العبد لأمِّه وردةَ بنتِ عبد العزّى ، ووردةُ هذه هي أختُ المُتلمّس الشَّاعرِ المشهورِ صاحبِ الصَّحيفةِ المشهورة في عالَم الأمثال[3] ، وكانتْ أَسَنَّ من أخيها المتلمّس .

---

(١) للمزيد من أخبار أم حكيم بنت الحارث اقرأ كتابنا «نساء من عصر النبوة» (٢/ ٣٥٥ ـ ٣٦٥) حيث تجد ما يثلج الصدور بإذن الله .

(٢) انظر : أعلام النساء (٥/ ١٣٥) .

(٣) انظر قصَّة هذه الصَّحيفة في مَجْمع الأمثال (١/ ٥٠١ ـ ٥٠٤) . وملخّصُ صحيفةِ المتلمس ومحصّلُها ما أفادتْه كتبُ الأَمثال والأدب والتراجم ، حيثُ روتْ أنَّ طرفةَ بنَ العبد ، والمتلمسَ ـ واسمه عبد المسيح بن جرير ـ قد هجيا أبا منذر عمرو بنَ هند ملك الحيرةِ ، فلم يظهرْ لهما شيئاً ، وتربَّص عمرو الفرصةَ لقَتْلِ الاثنين ، ثم إنّه آنسهما بعد ذلك ، فمدَحَاه واطمأنّا إليهِ ، وتهيّأ لهما أنَّه نسيَ حقْدَه=

* وقد ذَكَرَ طرفةُ اسمَ أُمِّه وردةَ في شِعْرِهِ ، فقد ماتَ أبو طرفَةَ ، وطرفةُ صغيرٌ ، وكان أبوهُ غنياً ، فَنَشَأَ طرفةُ يبدِّدُ المالَ ، فلمّا رأىٰ أعمامُه ذلك ، ضيّقُوا عليه ، وأَبَوا أنْ يقسموا ماله ، وجَارُوا علىٰ أُمّه وأمِّ الخِرنقِ وردةَ ، ومنعوها حقَّها ومالَها وظلمُوها ، فقالَ طرفةُ يهدِّدُهم ، ويذكرُ غيابَ أقاربِ أمِّه وصِغَرَ أولادِها :

مـا تَنْظُـرونَ بحـقِّ وَردةَ فيْكُـمْ صَغُـرَ البنـون ورهْـطُ وردةَ غُيَّـبُ

قـد يبعـثُ الأمـرَ العظيـمَ صغيـرُه حتّـى تظـلَّ لـهُ الـدّمـاء تَصبَّـبُ

والظُّلـمُ فَـرَّقَ بيـنَ حيَّـي وائـلٍ بكـرٌ تُسَـاقيهـا المَنـايـا تَغْلِـبُ

والصِّدقُ يألفه الكريمُ المرتجىٰ والكذبُ يأْلَفُه الدَّنيُّ الأخْيَبُ[1]

* وقولُ طرفةَ هذا يدلُّ على حبّه لأُمِّه ، وحُبِّه كذلك لأُخْتِهٰ منها ، وهي الخرنقُ التي تكبرُه ببضع سنينَ ، ولذا كانتِ الخرنقُ تألَفُ طرفةَ ، وتخافُ عليه ، ولما قُتِلَ طرفةُ رثَتْه وهَجَتْ قاتليه .

* هذا وقد عاشتِ الخرنقُ في بيئةٍ مشهورةٍ بالشِّعْرِ ، ومما يَحْسُنُ ذِكْرُهُ هنا أنَّ العَبْدَ أبا طرفةَ هو أخو المرقِّشِ الأَصْغر ، وابنُ أخي المرقش الأكبر ،

= عليهما ، وكتبَ لكلِّ واحدٍ منهما كتاباً إلىٰ عاملهِ بالبحرين ، وأمرهُ فيه بقَتْلِهما إذا وصَلاَه ، فلمّا وصَلا الحيرةَ شكَّ المتلمسُ بالصَّحيفةِ ، وقالَ لطرفةَ : لو أرادَ الملكُ عمرو بن هند أنْ يعطيَنا لأعطانا ، فهلمَّ ندفعُ كتبَنا إلىٰ مَنْ يقرؤها .
فقال طرفةُ : ما كنتُ لأدفعَ كتابَ الملك أنْ يُقرأ .
فقال المتلمسُ : واللهِ لأقرأنَّه ، فأعطاهُ غلاماً ، فقرأهُ فإذا فيه حَتْفُه ، فألقىٰ الصَّحيفةَ بنهرِ الحيرة ورجعَ هارباً ، وقدمَ طرفةُ إلىٰ المكعْبِر عاملِ البحرين ، فلما قرأ كتابه ، قرأ فيه قَتْلَ طرفةَ ، فقتله .
هذا ، وستمرُّ معنا القصّة بشكلٍ أوسعَ خلال الصَّفحات القادمات بإذن الله .

(١) شـرح المعلقـات العشـر (ص ٧٩) ، وانظـر : معـاهـد التنصيـص (١/ ٣٦٥) .
و«الرهط» : ما دون العشرة وليس فيهم امرأة ، و«تصبب» : أصلها : تتصبب بحذف التاء .

فالأسرةُ منَ الأُسَرِ التي نَبَغَتْ في الشِّعرِ في عَصْرِ الجاهليّةِ.

* ولعلَّ شاعرتَنا الخِرنِق قد استفادتْ منْ هذا المحيطِ الذي ينضحُ بالشِّعْر والشَّاعريةِ، فَغَدَتْ ممّن يُشَار إليها بالبَنَانِ، وأضحتْ منْ ذَواتِ الفَصَاحةِ والبَيانِ، ومكانها من شواعرِ النِّساء، كمكانِ أخيها طرفةَ منَ الشُّعراء.

* ونستشفُّ منَ المصادرِ التي تحدَّثَتْ عن الخِرنقِ ـ علىٰ ندرتها وقلّتها ـ بأنَّها قد تزوَّجت سيّداً منْ سادات بني مَرثدِ وأبرزِ رجالهم، ويدعى بِشْر بن عمرو، ورُزِقَتْ منه ولداً اسمُه علقمة.

* وكانَ بِشْرٌ هذا شَاعِراً[1] أيضاً، وفارساً لا يُشقُّ له غُبارٌ، ويبدو أنَّ بِشْراً كان متزوّجاً قَبْلِ زواجِهِ منَ الخِرنقِ، وأنَّه أنجبَ منْ زوجتِهِ الأُولىٰ وَلَدَيْنِ يَجْتَمِعان مع عَلْقَمَةِ ـ ابنه منَ الخرنق ـ في الأَبِ، ويفترقان في الأمّ، وكانَ هؤلاءِ فُرساناً شُجعاناً، لهم ذِكْرٌ في شِعْر الخِرنق ـ كما سنرىٰ إن شاء الله ـ.

* هذا ولَسْنا نعرفُ كثيراً عن حياةِ الخرنق، وما كانَ العصْرُ الجاهليُّ الذي عاشَتْه الخِرنقُ ومثيلاتُها ليسمح ـ لها ولنا ـ بكثيرٍ منَ الأَخْبارِ، وهو العَصْرُ الذي ضَنَّ علينا ـ أحياناً ـ بأخبار كثيرٍ منْ شُعراء الرِّجال، فكيفَ بالشَّاعرات ربَّات الحِجال؟!

الخِرْنقُ وَمَقْتَلُ أَخِيْهَا طَرَفَةَ:

* يبدو أنَّ الخِرنقَ كانت تنظرُ إلىٰ أخيها طرفَةَ نظرةَ إعجابٍ، فهو حسيبٌ في قومِهِ، رفيعُ العمادِ عندهم، ذو لسانٍ صارمٍ لا يخشىٰ أَحَداً منهم، ولا منْ غيرِهم حتَّى هجا عمروَ بنَ هندٍ مَلِكَ الحيرة، وأخَاه قابوسَ بنَ هند، وكانَ عمرو شديدَ البأْسِ جبَّاراً لا يَجْسُر أحدٌ أنْ يخبرَه شيئاً، وكانَ منْ أَقْسىٰ

---

(١) ومن روائع شعره حديثه عن الشيب:

أَمَاوي ليتَ الشَّيبَ في الرَّأْسِ لا يُرىٰ ... وليتَ الشَّباب رُدَّ طورَيْن للفتَىٰ

(حماسة البحتري ص ١٨١).

الملوكِ وأعْنَفِهم ، وكانَ له يومُ بؤسٍ ويومُ نُعْمىٰ ، فيومَ يركبُ في صيده فيقتلُ أوَّلَ مَنْ لقيَ ، ويوم يقفُ النَّاس ببابه ، فإنِ اشتاقَ حديثَ رجلٍ أَذِنَ له ، فهجَاه طرفةُ ، وخالُه المتلمّس هجاءً مؤلماً عنيفاً ، فمما قال فيه طرفةُ :

فَلَيْتَ لنَا مَكانَ المَلْكِ عمروٍ رغُوثاً حَوْلَ قبّتَنا تخورُ[1]

وهَجا أخَاه قابوسَ بنَ هندٍ في القصيدة ذاتِها فقال :

لعمرُكَ إِنَّ قابوسَ بنَ هنْدٍ لَيَخْلِط مُلْكَهُ نَوكٌ كَثيرُ[2]

ثمَّ يعودُ فيخاطبُ عمروَ بنَ هند فيقول :

قَسَمْتَ الدَّهْرَ في زَمَنٍ رخيٍّ كذاكَ الحكْمُ يقْصُدُ أو يجوزُ[3]
لنَا يومٌ وللْكَروانِ يومٌ تَطيرُ البَائِسَاتُ ومَا نَطيرُ[4]
فأمَّا يومُهُنَّ فيومُ نَحْسٍ تطاردهنَّ بالحَدَب الصُّقُورُ[5]
وَأمَّا يومُنُا فَنَظَلُّ ركْباً وقُوفاً مَا نحلُّ وما نسيرُ

---

(١) «الرغوث» : المرضعةُ ، والجمْعُ رِغاثٌ ، وَرَغائث ، والرّغوث هنا : النعجةُ المرضعُ . «تخورُ» : تصوِّتُ ، وأصلُ الخوار للبقرةِ ، فجعلَه هنا للنَّعجة ، يتمنّى أنْ لو كان لهم مكانَ الملكِ عمرو نعجةً رغوث ، تصيحُ بجوارِ قبتهم ، وتدرُّ عليهم اللبن ، وجاءَ في المثلَ : آكلُ منْ برذونةٍ رغوث .

(٢) «قابُوس» : أخو عمرو بن هند ، وكان يرشّحُه للمُلْكِ بعده ، وكان فيهِ ليْنٌ ويسمّى قَيْنةَ العرس .
«النّوك» : بفتح النّون : الحماقةُ ، والأنُوك : الأحمقُ والعاجزُ الجاهل ، وجمعهُ : نوكىٰ ، ونُوك ، ويقسمُ طرفةُ أنَّ في حكْمِ هؤلاءِ حُمقاً كثيراً وجهالةً وضَلالاً .

(٣) في هذا البيتِ يخاطبُ طرفةُ عمرو بنَ هند ، ويذكرُ ما كانَ منْ يومِ صيده ، ويومِ وقوفِ النَّاس ببابه .
«رخي» : سَهْل ليّن ، «يقصدُ» : يتوسَّطُ في الأمْر . «يجورُ» : يظلمُ ويجاوزُ الحدَّ .
والمعنىٰ : يخاطبُ طرفةُ الملكَ عمرو بنَ هند فيقول : لقد أتيتَ في زمنٍ سَهْلٍ ليّنٍ ، فحكمتَ ، وسمتَ الزّمن كما تشاءُ ، فكنتَ جائِراً ظالِماً ، والحكّام يختلفونَ منهم مَنْ يَعْدِل ، ومنهم مَنْ يجورُ ويظلمُ وأنتَ منْ هؤلاءِ الظّالمين .

(٤) «كروان» : طائر معروف .

(٥) «نَحْس» : شُؤم وسوء . «الحدب» : ما ارتفعَ منَ الأرض .

* ولم تبلغْ هذه الأبياتِ عمروَ بنَ هند ، ولم يجسرْ أحدٌ أَنْ يخبرَه بها لِشدة بأْسِهِ ، فاتَّفَقَ أنَّ عمروَ بنَ هند هذا ، خَرَجَ يوماً للصَّيدِ ، وأمعنَ في الطَّلبِ ، فانقطعَ في نَفَرٍ منْ أصحابهِ ، حتّى أصابَ طريدتَه ، فَنزَلَ وقالَ لأصْحابِه: اجمعُوا حَطَباً ، وفيهم عمرو بنُ مرثد ـ أحدُ أقاربِ طرفة ـ فقالَ لهم عمرو: أَوْقدُوا ، فأوقَدوا وشَووا ، فبينما عمرو يأكلُ مِنْ شوائِه وعبد عمرو يقدّمُ إليه ، إذْ نظرَ إلىٰ خَصْرِ قميصه منخَرِقاً ، فأبْصَر كَشْحه[1] .

وكان منْ أحسنِ زمانِه جِسْماً ، وكانَ بينَه وبينَ طرفةَ أمْرٌ وقَعَ بينهما منه شَرٌّ ، فَهَجاهُ طرفةُ بقصيدته التي يقولُ فيها:

وَلاَ خَيْـرَ فيـهِ غَيْـرَ أنَّ لَـهُ غنـىً ... وأنَّ لَـه كَشْحـاً إذا قَـامَ أَهْضَمـا
وأنَّ نِسَـاءَ الحـيّ يَعْكفْـنَ حَـوْلَـه ... يَقُلْنَ عَسيبٌ منْ سَرارة مَلْهَما[2]

فقالَ له عمرو بنُ هند: يا عبد عمرو ، لقد أبْصَر طرفةُ كَشْحَكَ حيثُ يقول: «ولا خيرَ فيه غَيْرَ أنَّ له غنىٰ» . . . البيت . . .

فغضبَ عبد عمرو وقال: أبيتَ اللعنَ ، الذي قالَ فيك أشدَّ مما قال فيّ .

قال: وقد بَلَغَ من أمرِه هذا؟!

قال: نَعَم ، وأسْمَعه قصيدةَ طرفةَ في هجائِه .

فَسكَتَ عمرو بنُ هند علىٰ ما وقَرَ في نَفْسهِ ، وهمَّ بَقَتْلِ طرفةَ ، وخافَ منْ هجاءِ المتلمّس له ، ثمَّ أرسلَ إلىٰ طرفةَ والمتلمس ، وكَتَبَ لهما كتابَيْن إلى عاملٍ له بالبحرين وقال: إنّي كَتَبْتُ لكما بِصِلَة ، فاقْبضاها منْ عاملِ البحرين .

فخرَجَا منْ عندِه ، وسارا ، فأوجسَ المتلمّسُ في نَفْسه خيفةً ، وارتابَ

---

(١) «كشْحه»: الكشح: ما بينَ الخاصرةِ والضّلوع .

(٢) «الهضيمُ»: خمصُ البطون ولطفُ الكشح ، والكلامُ على الاستهزاءِ به لبدانتِه ، و«سَرارة» سرارة الوادي: أفضل موضع فيه . و«ملهم»: قرية باليمامةِ .

بكتابِه ، فلقيه غلامٌ منْ أهلِ الحيرةِ ، فقرأَ فيه كتابةً فإذا فيه: إذا أتاكَ المتلمِّس فاقْطَعْ يَدَيْه ورجْلَيْه واصلُبْه حيّاً ، فرمىٰ المتلمِّسُ صحيفَته في نَهْرِ الحِيْرةِ ، وقال لطرفةَ: ألْقِ الصَّحيفةَ ، فقد كَتَبَ لك بمثْلِ هذا ، فرفَضَ طرفةُ ، ومضىٰ بكتابهِ إلىٰ صاحبِ البحرين فَقَتَله وهو في ريعانِ الشَّباب؛ في أواسطِ العِقْدِ الثَّالث من عمره؛ حيثُ أخذَه العامِلُ ، فَسَقَاه الخمرَ حتى أثْملَه ، ثمَّ فَصَد أكْحلَه ، فقَبْرُه بالبحرين[1].

الخِرْنِقُ تَرثي أَخَاهَا طَرَفَةَ:

* كانتِ الخِرنقُ قد علمتْ بذهَاب طرفةَ إلىٰ البحرينِ ، وغدتْ ترقُبُ عودتَه منْ رحلتهِ ، ولكنَّ الغَدْرَ كان بانتظارِه هناك ، حيث لقيَ منيته على يَدِ عامل البحرين ، وجاءَ نعيُه إليها ، فتألَّمتْ كثيراً ، وقالتْ ترثيه وتذكرُ عمره يومَ قُتِل:

عَـدَدْنَـا لَـهُ ستّـاً وعشْـريـنَ حجّـةً ... فلما توفَّاها استوىٰ سيّداً ضَخْما

فُجِعْنَـا بـهِ لمّـا انتظـرْنَـا إيـابَـه ... علىٰ خيرِ حالٍ لا وَليداً ولا قحْما[2]

* ومن المتوقَّعِ أنَّ للخِرنقِ بنتِ بدر أبياتٌ كثيرةٌ في رِثاءِ أخيها الأثيرِ

---

(١) انظر: معاهد التنصيص (١/ ٣٦٥ و٣٦٦) بتصرف.

(٢) أخبار النّساء للمرزباني (ص١٠٩) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص٢١٤) ، وشرح المعلقات العشر للشنقيطي (ص١٤) ، والبيتان في ديوان الخِرنق (ص١٩ و٢٠) بتحقيق د. حسين نصار ، وفيه رواية البيت الأول:
عددَنا له خمساً وعشرين حجة ، ورواية الثّاني: لما انتظرنا إيابه. . . على خير حين. وانظر ديوانها (ص ٣٠) بتحقيق د. وضاح الصَّمد. وشرح مقامات الحريري (١/ ٤٣٧) وجمهرة أشعار العرب(ص٩٤) والكامل (١/ ٢٥٨).
و«حجّة»: الاسمُ منْ حَجّ ، والمرّة منَ الحج (على غير قياس). والمقصود هنا السَّنة لأنَّ الحجَّ يُقْضىٰ مرّةً كلَّ سنةٍ. «توفّاها»: أتمّها واستكْملَها. وصدرُ هذا البيت يظهرُ عمر طرفة حينما قُتِل. «إيابه»: رجوعُه وعودتُه منَ البحرين. «الوليد»: الصّغير. «القحم»: المسنُّ الكبير أو الرّجل المتناهي سنّاً.

طرفةَ ، إلاّ أَن يَدَ التَّاريخ لم تناولْنَا سوىٰ هذين البيتَيْن اللذين يُفْصِحان عن سِنِّهِ يومَ قُتِلَ .

* وفي اعتقادِنا أنَّ هذيْن البيتَيْن من قصيدةٍ طويلةٍ ، إلاَّ أنَّ ذاكرةَ رواةِ الأدبِ لم تسعفْنَا أيضاً إلاّ بهذين البيتَيْن اللذين يدلاّن على أحداثٍ وقَعَتْ لطرفةَ ، ويكشفانِ عن قصَّةِ مقْتَل طرفةَ في البحرين على يَدِ عاملها بأمْرٍ من عمرو بنِ هند مَلكُ الحيرة ، كما يكشفان عنْ صِدْقِ عاطفةِ الخِرنق ، وشدّة انفعالها لمقْتَل أخيها .

* ولم تتوقفِ الخرنقُ مكتوفةَ الأيدي عند حادثةِ مَقْتل أخيها ، بل سَخِرَتْ من عبد عمرو الذي وشىٰ بأخيها طرفةَ إلىٰ عمرو بنِ هند فَقَتَله ، في حين لم يستطعْ عبد عمرو أنْ يثأرَ لنفسهِ من ابنِ حَسْحاس ومَعْبَد اللذين عَجِزَ أمامَها ، وانعدمتْ حيلتهُ في الرَّدِّ عليهما ، وتعيره بأنَّه لا يثأرُ لأبيه منهما ، وفي هذا تقولُ الخِرنق :

أَرىٰ عَبْدَ عمرو قَدْ أَسَاطَ ابنَ عمِّهِ ... وأَنْضَجه في غَلْي قدْر وما يَدْري
فهلاّ ابنَ حَسْحَاس قَتَلْتَ ومَعْبَداً ... هُما تركاكَ لا تريشُ ولا تَبْري[1]

* لقد كانَ مَقْتَلُ طرفةَ أليماً على الخِرنقِ ، وكانت فعْلَةُ عبد عمرو شنيعةً عندما وشَىٰ بأخيها عند الملوكِ ، فها هي تهجُو عبد عمرو ، وتدعو عليهِ بالموتِ لأنَّه قَصَّرَ في مودَّتِه للملوكِ ، وصَاحَبَهم بمخزياتِه ووشايتهِ :

أَلا ثَكلَتْـكَ أُمُّـك عَبْـد عمـروٍ ... أبـا الخِـزيـاتِ آخيـتَ المُلـوكَـا؟

(١) انظر ديوان الخرنق (ص٤٠) بتحقيق د. حُسين نصار ، وديوانها (ص ٥٣) طبعة دار صادر ، وأشعارُ النسّاء (ص ١٠٩) ، ومعجم الأديبات الشّواعر (ص٢١٦ و٢١٧) ، و«أساطَ»: ساطَ الأمْر: قلَّبَه ظَهْراً لِبطْنٍ ، وساطَ الحرب: باشرَها ، والمعنىٰ: أنَّ عبدَ عمرو قد وشىٰ بابنِ عمّه طرفةَ إلى عمرو بن هند من غيرِ أنْ يعلم نتائج وشايته ، وشبَّهتِ الأمرَ بالطَّبيخ والنّضج والقدر. «تريشُ السَّهم»: تلزقُ عليه الريش. «تبري»: تقلّم. والمعنى: أنَّ عبدَ عمرو قد عجزَ أمامَ ابنَ حسحاس ومعبد ، وانعدمت حيلته في الردِّ عليهما ، وأخذ ثأره لأبيه منهما.

هُـم دكُّـوكَ للـوركَيـنِ دكّـاً ولـو سَـألـوا لأعْطيـتَ البُـروكـا[1]

* وكانَ للملكِ عمرو بنِ هند نصيبٌ منْ شِعْرِ الخِرنق ، إذ ندَّدتْ بأفعالِهِ الشَّنيعة ، فقد طَردَهَا وقومَها منْ بلادِهم الخصبة ، وتنذرُ الخرنقُ قومَها من سوء نيّة عمرو بن هند ومن ظُلْمه فتقول[2] :

ألا مـنْ مُبْلـغٌ عمـرو بـنَ هنْـدٍ وَقَـدْ لا تُعْـدَمُ الحَسْنَـاءُ ذَامَـا[3]

لِمَـا أَخْـرجتنـا مـنْ أرضِ صِـدْقٍ تـرىٰ فيهـا لمغتَبِـطٍ مَقَـامَـا

---

(١) ديوانها (ص ٥٤) طبعة دار صادر ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص٢١٧) ، وجمهـرة أشعـار العـرب (ص٩٤) ، و«ثكلتـك أمـك» : فَقَـدتْـك ، و«دكـوك» أضجعوك ، و«البروك» : صفةٌ تُطلقُ على الإبل الباركة .

(٢) انظر : ديوان الخرنق (ص٥٠ و٥١) طبعة دار صادر .

(٣) «ذاماً» : الذّام والذّيم : العَيْب ، وعجزُ البيت : «لا تعدمُ الحَسْناء ذاماً» مثَلٌ مَشهور نَسَبُه الميداني إلى حُبَّىٰ بنتِ مالك بنِ عمرو العدوانيّة ، وكانتْ منْ أجملِ النِّساء ، فخطبها ملكُ غَسَّان ، فلما أُهْديتْ إلىٰ الملكِ قالت أمُّها لخدمها : إذَا أردتُنَّ إدْخَالها علىٰ زوجها طيِّبْنَها ، فلما كان الوقتُ ، أغْفَلْنَ تطييبَها ، فلما أصبحَ الملكُ قيل له : كيف وجدتَ أهلكَ البارحةَ؟ فقال : ما رأيتُ كالليلةِ قطّ لولا رُويحةٌ أنكرتُها؟! فقالت هي منْ خَلْفِ السِّتر : لا تعدمُ الحسناءُ ذامّاً ، فأرسلتْها مثَلاً . (مجمع الأمثال ٢/ ٢٥٢) ومعنىٰ المثل : لا يخلو أحدٌ من شيءٍ يُعاب به ، أو : لا يسلمُ أحدٌ منْ أنْ يُعاب ، وإنْ لم يكن ذَا عَيْب .

وقد أبدعَ الشّعراءُ والأدباءُ ، وتباروا في إظهارِ هذا المعنىٰ نظماً ، قالَ أبو هلال العسكري :

عـزَّ الكمَـالُ فمـا يَحظَـىٰ بـهِ أحـدٌ فكـلُّ خَلْـقٍ وإنْ لـم يَـدْرِ ذو عَـابِ

وقال أبو الأسود الدّؤلي :

حَسَـدوا الفتـىٰ إذْ لـم ينـالُـوا سَعْيَـه فـالكـلُّ أعـداءٌ لـه وخصـومُ

كضـرائـرِ الحسنـاءِ قُلْـنَ لـوجههـا حَسَـداً وبغيـاً إنَّـه لـدميـمُ

وقال الأعشىٰ :

وقـدْ قـالـتْ قتيلـةُ إذْ رأتنـي وَقَـدْ لا تعـدِمُ الحَسَنـاءُ ذَامـا

وقال غيره :

إنَّ الـرجـالَ معـادنٌ ولقلَّمـا تلقـىٰ المهـذَّب لا يفـارقُ ذَامَـا=

كمـا قَـالَـتْ فتـاةُ الحـيّ لمّـا أَحـسَّ جنَـانَهـا جَيْشـاً لُهـامَـا[1]
لـــوالـــدِهَـــا وأَرْأَتْـــهُ بلَيْـــلٍ قَطَـا ولقـلَّ مـا يَسْـري الظَّـلامَـا[2]
أَلَسْـتَ تـرىٰ القَطَـا مُتَـواتـراتٍ ولـو تُـرِكَ القَطـا ليـلاً لنَـامَـا[3]

رائِـدَةُ الـشَّـاعِـرَاتِ فـيٰ رِثَـاءِ الإِخْـوَةِ:

* فَجّرَ مَقْتَلُ طرفةَ ينابيعَ الشِّعْرِ في نَفْسِ الخرنقِ ، وجَعَلَ شِعْرها يسيرُ مجرىٰ الأَمثالِ ، ولعلَّها في رثائِها لأخيها قد فتحتِ الطريقَ أمامَ غيرِها منَ الشَّاعِرات في هذا المجالِ ، وكانتْ رائدةَ الشَّاعرات في رثاءِ الإخْوة ، حيثُ يبدو شِعْرُهَا مدوّياً بالتَّفجُّع والمأساةِ وصدقِ العاطِفَةِ؛ ومنَ الجدير بالذّكْرِ أنَّ الخِرنقَ تُعَدُّ من أقدم الشَّاعرات الجاهليّات في فَنّ الرّثاءِ منَ اللاتي وصلتْ إلينا أشعارهُنّ عَبْرَ القرونِ.

---

(١) «فتاةُ الحي»: المقصودُ بها هنا زرقاءُ اليمامة التي اشتُهرتْ بحدّةِ بصرِها وحكمتها. و«جنَانُها»: قلبُها. «لُهاماً» اللهام: الكثيرُ ، أو الجيشُ العظيم الذي يلتهمُ كلَّ شيء.

(٢) «أرأته»: أرته: ذكرتِ الفعلَ علىٰ الأصل ، والضّمير الهاء في أرأته: عائدٌ على والدِ الزَّرقاء. «القطا»: واحدتُه قطاة ، وهيَ طائر في حجمِ الحمام يُضرب به المثل في الاهتداءِ فيقال: أهدىٰ منْ قطاة.

(٣) «متواترات»: متتابعاتٌ في طيرانها ، وعجزُ هذا البيت: «لو تُرِكَ القَطا ليلاً لناما» مثلٌ مشهورٌ نَسَبه الميداني لحذامِ بنتِ الريان ، حيثُ نبَّهتْ قومَها باقترابِ العدوّ منهم لَيلاً فقالت:

ألا يـا قـومَنـا ارتحلُـوا وسيـرُوا فلـو تـرك القطـا ليـلاً لنـامـا

أي: إن القطا لو ترك ما طار هذه الساعة ، وقد آتاكم القوم؛ فلم يلتفتوا إلى قولها ، فقام ديسم بن طارق فقال بصوت عالٍ:

إذا قـالـت حـذام فصـدِّقـوهـا فـإنَّ القـولَ مـا قـالـتْ حَـذامِ

فلجأ القومُ إلى وادٍ قريبٍ منهم ، وامتنعوا منَ العدو (مجمع الأمثال ٢/٢٠٨) بتصرف.

ومنَ الجدير بالذكر أنَّ هذا البيت: إذا قالت حذام... منْ شواهِد ابن عقيل على شَرحه ألفية ابن مالك ، وهو شاهدٌ للحجازيين بأنَّ حذامِ تُبنىٰ على الكَسْر مطلقاً ، ويعربُ على النحو التالي: حذام: فاعل مبني على الكَسْر في محل رفع فاعل.

* إنَّ من يبحرُ في عُبابِ كُتُب الأدب والتُّراثِ يجدْ أعْداداً منْ الشَّاعراتِ لا يمكنْ أنْ يُحْصَينَ ، وكلُّهنَّ قد رثَيْنَ إخوتهنَّ ، وأوّلُ ما يتبادرُ إلىٰ الذِّهنِ منهنَّ الخَنْساء ، ذات القصائد الطَّنانة في رثاءِ أخويها معاويةَ وصخر .

* على أنَّ هناك شواعرَ أخريات في عَصْر الجاهليّة ، ثمَّ ما تَلاهُ منْ عصورٍ قد أبدعْنَ في رثَاء الإخوة[١] ، وحفظتِ المصادرُ بعضَ أشعارهنَّ الجميلة ، ونحنُ مرسلو القولَ ـ إن شاء الله ـ في هذا لتتمَّ الفائدةُ ، ولنحصلَ علىٰ ثروة منَ الأشعارِ النِّسائية في مضمارِ رثاءِ الإخْوة ، وبالتَّالي نكونُ قد حقَّقنا جُزْءاً من هدفِ موسوعتنا هذه في ترجمةِ الخِرنقِ بنتِ بدر ، وهو أنَّ بعضَ هؤلاءِ النّسوةِ قد دَخَلْن قصورَ الأُمراء ، أو أَنْشَدن رثاءهنَّ أمامَ الملوكِ والأُمَراء .

* وممن اشتهرنَ في الجاهليةِ برثاءِ الإخوةِ ، الخنساءُ وهي تماضرُ بنتُ عمرو بن الشَّريد السَّلمي ، كانتْ منْ شَواعِرِ العربِ المعترفِ لهنَّ بالتَّقدُّمِ ، وأكثرُ شِعْرها في مراثي أخويها معاوية وصخر ، وأدركتِ الخنساءُ الإسلامَ وأسلمت[٢] ونُظِمتْ في عدادِ الصَّحابيات الكريماتِ رضي الله عنهنّ جميعاً .

* وكانَ لقومِ الخنساءِ بني سُلَيم في الإسلام سابقةٌ حَسَنَةٌ ، حضَر منهم مع رسول الله ﷺ في فَتْح مكةَ وحرب حُنين ألفُ رجلٍ .

* وللخَنْسَاءِ قصائدُ كثيرةٌ في رثاءِ أخويها[٣] معاويةَ وصخر معاً ، ولها

---

(١) قال : «غوستاف فون غرنباوم» في حديثهِ عن الرِّثاء : وإذا كانتِ المراثي قد نشأتْ منْ نياحات النِّساء ، فقَدَ جَعَل ذلك منها فَنّاً نِسَائياً .
(دراسات في الأدب العربي ص ١٢٧) ترجمة الدكتور إحسان عباس وآخرين .

(٢) حُكيَ أنَّ عمرَ بن الخطَّاب ـ رضي الله عنْه ـ نَظَرَ إليها وفي وجهِها ندوبٌ ، فقال : ما هذا يا خَنْساء؟
فقالت : منْ طولِ البُكا علىٰ أخوتي .
قال لها : أخوَاك في النَّار .
قالتْ : ذاكَ أطولُ لحزني ، إنّي كنتُ أبكي لهما من الثأر ، وأنا أبكي لهما من النَّار .

(٣) في حديثهِ عنِ المرثيةِ العربيةِ القديمةِ ، يقولُ «بروكلمان» : علىٰ أنَّ إظهارَ الحزنِ لم =

رثاءٌ لكلِّ واحدٍ ، فمن رثائِها لأخيها معاويةَ قولُها :

أَلاَ لا أرىٰ في النَّاس مثْلَ معَاوية	إذا طَرَقَتْ إِحْدىٰ الليالي بِدَاهِيَه
أَلا لاَ أرىٰ كالفَارِسِ الوَرْدِ فَارِساً	إذا مـا عَلَتْـهُ جَهْـرَةٌ وعَـلانِيَـه
وكانَ لِزَازَ الحَرْبِ عند شُبُوبها	إذا شمَّرت عَنْ سَاقِها وهي ذَاكِيهَ
فأقْسَمتُ لا ينفكُ دَمْعي وعَولتي	عليكَ بحزنٍ ما دَعا اللهَ داعيَه[1]

* أمّا مراثيها في أخيها صَخْر ، فكثيرة جدّاً[2] ، وأشْهَرُ منْ نارٍ علىٰ عَلَم ، ومنها قصيدتُها الدَّالية الشَّهيرة :

أَعينـيَّ جُـودا ولا تَجْمُـدَا	أَلا تَبْكيـانِ لِصَخْـرِ النَّـدىٰ
طـويـل النّجـاد رفيـع العِمـا	دِ سـاد عشيـرتَـه أَمْـرِدَا[3]

= يكنْ يناسبُ رجالَ القبيلةِ ، كما كان لائقاً بنسائِها ، وخاصّةً بالأخواتِ ومن ثمَّ بقيَ تعهُّدُ الرثاءِ الفنّي منْ مقاصدهنّ ، حتى عَصْر التّسجيلِ التَّاريخي .
وهذا هو ديوان «أنيس الجلساء» قد ذُيِّلَ بمراثي ستينَ شاعرة عربية منَ الجاهليةِ وصَدْرِ الإسلام ، حتّى ليخيّل إليك أنَّ حواءَ العربِ تظلُّ معقودةَ اللّسانِ ، معطلةَ الحسِّ ، صمّاءَ الوجدانِ ، إلىٰ أنْ تقومَ مناحةٌ ، فَتُحَل عقدةُ لسانِها ، وتفجرُ ينابيع الحسِّ في وجدانها . (تاريخ الأدب العربي ١/ ٤٨) .

(١) ديوان الخنساء (ص٤ ـ ٨) باختصار وتصرف ، للدكتور إبراهيم عوضين .

(٢) قال أبو العبّاس المبرّد : قالتِ الخنساءُ ترثي أخاهَا معاوية بن عمرو ، وكان أخَاها لأبيها وأمّها ، وكان صخرُ أخاها لأبيها ، وكان أحبّهما إليها ، واستحقَّ ذلك لأمورٍ منها : أنَّه كان موصوفاً بالحِلْمِ ، مشهوراً بالجودِ ، معروفاً بالتقدّم والشَّجاعة ، محظوظاً في العشيرة (الكامل ٤/ ٥١) طبعة مصر .
ومنَ الجدير بالذكر أنَّ صخرَ بن عمرو بن الشريد أخو الخنساء هذا قد دُفنِ بوادي العقيق المشهور ، وقالتِ الخنساءُ ترثيه :

وقـالـوا إنَّ خيـرَ بنـي سُليـم	وفـارسَهـم بصحـراءِ العقيـق

(معجم ما استعجم ٢/ ٩٥٢) .

(٣) ديوان الخنساء (ص ٨٣) .

* ومنْ مراثيها لِصَخْر تلك المرثيةِ الرّائيةِ الجميلةِ الشَّهيرة ومنها :

وَإنَّ صَخْـراً لَـوالِيْنَـا وسَيِّـدُنـا وَإنَّ صَخْـراً إذَا نَشْتُـو لَنَحَّـارُ

وإنَّ صخـراً لتـأتـمُّ الهُـدَاةُ بـهِ كـأَنَّـه عَلَـمٌ فـي رأسِـهِ نَـارُ

لَـمْ تَـرَهُ جـارةٌ يَمْشـي بِسَـاحَتِهـا لـريبـةٍ حيـنَ يُخْلـي بيتَـه الجَـارُ

تَبْكي خُنَاسُ علىٰ صَخْرٍ وحقَّ لَها إذْ رابَها الدَّهْرُ إنَّ الدَّهرَ ضرَّارُ[1]

* ومنْ بدائع رثائها في صَخْر قولُها منْ قصيدة :

ألاَ يـا صَخْـرُ إنْ أبكيْـتَ عَينـي لَقَـد أَضْحَكْتَنـي دَهْـراً طَـويْـلا

إذَا قَبُـحَ البكـاءُ علـىٰ قتيـلٍ رأيـتُ بكـاءَكَ الحَسَـنَ الجَميـلا[2]

* وقولُها المشهورُ في سينيّتها الرّائعة :

يُـذكّرُنـي طلـوعُ الشَّمْـس صَخْـراً وأبْكيـهِ لكـلِّ غُـروبِ شَمْـسِ

ولـولا كثـرةُ البـاكيـنَ حَـولـي علـىٰ إخـوانِهـم لَقَتَلْـتُ نَفْسـي

ومَـا يبكـونَ مِثْـلَ أخـي ولكـنْ أُعـزّي النَّفـسَ عنـه بـالتّـأسّـي[3]

---

(١) انظر القصيدة كاملة في ديوانها (ص ٢٩٨ ـ ٣١٠) وتبلغ (٣٤ بيتاً).

(٢) ديوانها (ص٤١٣).

(٣) ديوانها (ص٢٥٠ ـ ٢٥٣) ، وانظر أخبار الخنساء في سرح العيون (ص٤٢٥ ـ ٤٣٠) ، والدر المنثور (ص١٠٩ ـ ١١٤) ، وشرح مقامات الحريري للشريشي (٤/ ٣٤٩ ـ ٣٥٦) ، ونهاية الأرب للنويري (٥/ ١٧٩) ، وكتب تراجم الصحابة من مثل : الاستيعاب ، والإصابة ، وأسد الغابة ، وغيرها من كتب الأدب والتراجم . وترجمتها في كتابنا «نساء من المشرق العربي» .
ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنّه قد ضُرِبَ المثل ببكاء الخَنْساء علىٰ صخر ، فقد جاءَ ذِكْرها في أرجوزةِ ابنِ الونّان المغزلي إذ قال :
وابْـك علـىٰ ذَنْـبٍ وقَلْـبٍ قَـدْ قَسَـا كـالصَّخْـر مـنْ هـواهُ لـم يَسْتفـق
بمقلـــة كَمقلـــةِ الخنســـاء إذ بكـتْ علـىٰ صخـرٍ بـلا تـرفّـق
(قطوف الريحان ص ٢٤٠) .
وممَّنْ تمثّل ببكِاء الخَنّساء أبو نواس حيث يهجو بخيلاً وقد أبدعَ حيث قال :
فتـىً لـرغيفـهِ قُـرْطٌ وشَنْـفٌ ولـؤلـؤتـان فـي خـرزٍ وشَـذْر=

* وهذه الفارعةُ بنتُ شدَّاد المُرّية ، إحدىٰ شواعرِ العرب في الجاهليّة ، لها القصائِدُ الطَّنانةُ في رِثاءِ أخيها مسعودِ بن شدّاد المريّ ، فقد جاءتِ الأخبارُ تروي بأنَّ مسعوداً قد أغارَ علىٰ قبيلةِ طيء ، فأسروهُ ولم يسقُوه ماءً حتى ماتَ عَطشاً ، فقالت أختهُ الفارعةُ ترثيه :

هَلاَّ سَقيتمُ بني جَرْمٍ أسيرَكُمُ ... نَفْسي فداؤُك منْ ذي غُلّةٍ صَادِ

شهّادُ أَنْديةٍ رفّاعُ ألويةٍ ... سدَّادُ أوهيةٍ فتّاحُ أسدادِ

نحّار راغِيَةٍ قَتَّالُ طاغيةٍ ... حلاّلُ رابيةٍ فكَّاكُ أقيادِ

قوّالُ محكمةٍ نقّاضُ مبرمةٍ ... فرّاجُ مبهمةٍ طلاّعُ أنجادِ

جمّاعُ كلِّ خصَالِ الخيرِ قد علموا ... زينُ القرين وخَطلُ الظّالمِ العادي[1]

* وقالتْ أيضاً ترثيه :

يا عَيْنُ بكّي لمسعودِ بنِ شَدَّاد ... بكاءَ ذي عَبَراتٍ شَجْوُه بَادِ

مَنْ لا يُذاب له شحمُ السَّديفِ ولا ... يجفو العيالَ إذا ما ضُنَّ بالزَّادِ

ولا يحلُّ إذا مَا حَلَّ مُنْتَبِذاً ... يخْشَى الرَّزية بينَ الماءِ والبادِ[2]

* وفي واحةِ رثاءِ الإخوةِ نلتقي شاعرةً منْ عَصْر الجاهليّة تدعىٰ جَنُوب بنت عجلان الهُذليّة ، أخت عمرو ذي الكَلْب الفارس المشهور ، وعمرو ذو الكلب هذا هو عمرو بنُ العجلان بن عامر الهذليّ ، وسُمّي ذا الكَلْب لأنَّه كان

= إذا كسرَ الرغيفَ بكىٰ عليه ... بكا الخنْساء إذ فُجعت بصخر

ودونَ رغيفهِ قلعُ الثنايا ... وضربٌ مثلُ وقعة يوم بدر

(1) انظر : الحماسة البصرية (٢/ ٧٩) ، وزهر الآداب (٢/ ٩٤١) ، ونوادر المخطوطات (٢/ ٢١٠) وغيرها.

و«الغلة» : العطش ، و«الصادي» : العطشان ، و«الأندية» : المجالس . و«الأوهية» جمع وهْي وهو الشّق ، و«الراغية» : الناقة ترغو . و«مبرمة» : المبرم من الأمور : المحكم . و«أنجاد» : جمع نجد ، وهو ما أشرف من الأرض وعلا .

(2) انظر : سمط اللآلي (٢/ ٧٩٠) ، وأعلام النساء (٤/ ١٩) ، وغير ذلك .

معه كلبٌ لا يفارقُه[1]؛ وكان كثيرَ الغزواتِ ، وسببُ موتِهِ أنَّه خرجَ غازياً ، فبينا هو في بَعْضِ غَزَواتِه نائمٌ ، وثَبَ عليه نَمِران فأكَلاه ، ووجدتْ قبيلةُ فَهْمٍ سلاحَه فادَّعَتْ قَتْله ، ثمَّ مرُّوا بأختِهِ جَنُوب وقالوا لها : إنّا طَلَبْنَا أَخَاكِ عَمْراً .

فقالت : لَئِنْ طلبتموهُ لتجدنَّه منيْعاً ، ولئن ضفْتُموه لتجدنَّه مريعاً ، ولئن دَعيتموه لتجدنَّه سَريعاً .

قالوا : إنا وضَعْنا لأخيكِ رَصَداً علىٰ الماءِ ، فأخذناهُ وقَتَلْنَاه وهذا سَلَبُه .

* لكنَّ جنوباً أختَه ـ وهي العارفةُ الخبيرةُ شجاعةَ أخيها ـ قد استبعدتْ ذلك منهم ، لأنَّه كان يغزوهم ، وكانَ يصيبُ منهم ، ثمَّ قالتْ جنوب ترثي أخَاهَا عمراً بقصيدةٍ بائيةٍ جميلةٍ بَلَغَتْ (٢٢ بيتاً) ومنها هذه الأبياتُ :

سَأَلْتُ بعمروٍ أخي صَحْبَهُ ... فَأَفْظَعَنِي حينَ ردُّوا السُّؤَالا
أُتيحُ لهُ نَمِرا أَجْبُلٍ ... فَنَالا لعمرُكَ منْهُ مَنَالاَ
فأُقْسِمُ يا عمروُ لو نَبَّهاك ... إذَن نبّها منْكَ داءً عُضَالاَ

ومنها تذكر بعضَ شمائله الحِسَان :

وقَدْ عَلِمَ الضَّيْفُ والمرملُون ... إذَا اغبرَّ أُفْقٌ وهَبَّتْ شَمَالاَ
بأَنَّكَ كُنْتَ الرَّبيعَ المغيثَ ... لِمَنْ يَعْتَفيْكَ وكُنْتَ الثّمالاَ
وكُنْتَ النَّهارَ بهِ شَمْسُهُ ... وكنْتَ دُجَىٰ الليلِ فيهِ الهِلاَلاَ
وخَيْلٍ سَمعتْ لكَ فُرسَانُها ... فولُّوا ولمْ يستقلُّوا قبَالاَ
وكُلُّ قبيلٍ وإنْ لم تكنْ ... أردتْهمُ منكَ باتُوا وجَالاَ[2]

* وفي قصيدةٍ أخرىٰ ترثي جَنُوب أخاها عمراً ، وتكذِّبُ قبيلةَ فَهْم التي ادَّعت قَتْلَه فتقولُ منْ قصيدة :

---

(١) ديوان الهذليين (٢/ ٥٦٥).
(٢) ديوان الهذليين (٢/ ٥٨٣ ـ ٥٨٦) ، ونهاية الأرب (٧/ ١٤٢) ، وبلاغات النساء (ص٢٤٠ و٢٤٢) طبعة الكويت ، وحماسة البحتري (ص٢٧٣) مع الجمع والتصرف.

يـالَيْـتَ فَهمـاً ومـا لَيْـتٌ بنـافِعـةٍ   لم يَغْزُ فَهْماً ولـمْ يهبطْ بِواديها[1]

* ولها أشعارٌ أخرىٰ ترثي فيها عمراً وتذكرُ شجاعَتَه ، وتوشِّحُ ذلك بالحكمةِ ، فتقول منْ قصيدةٍ تكذِّبُ فيها أنَّ القومَ قد قَتَلُوه :

كلُّ امرىءٍ بمحَالِ الدَّهْرِ مَكْذُوبُ   وكـلُّ مَـنْ غَـالـبَ الأَيَّـام مَغْلُـوبُ
وكـلُّ قـومٍ وإنْ عـزُّوا وإنْ كَثُـروا   يـومـاً طـريقُهـمُ فـي الشَّـرّ دُعْبُـوبُ
أَبلـغْ بنـي كـاهـلٍ عنّـي مُغلغَلـةً   والقومُ منْ دونهم سَعْياً فمركُوبُ
أبلـغْ هُـذَيـلاً وأَبْلـغْ مَـنْ يبلِّغُهـا   عنّي حديثاً وبعضُ القولِ تكذيبُ
بأنَّ ذا الكلبِ عَمراً خيرهُم نَسَباً   ببطنِ شريَانَ يعوي حولَه الذّيبُ[2]
التّـاركُ القـرن مصفـراً أنـاملُـه   كـأنَّـه مـنْ دمِ الأَجـوافِ مخضـوبُ
تَمشـي النُّسـورُ إليـهِ وهـي لاهيـةٌ   مشـيَ العـذارىٰ عليهـنَّ الجـلابيـبُ
فَلَن تَروا مثلَ عمروٍ ما خَطَتْ قَدمٌ   وما استحنَّتْ إلىٰ أعطانِها النّيبُ

* وفي رحلةِ الرّثاءِ ، نلتقي شاعرةً ترثي أخاها رثاءً جَميلاً ، هذه المرأةُ تدعى صفيّة الباهلية ـ أو مريم بنت طارق ـ التي تقولُ :

كُنّا كغُصنَيْن في جُرثومةٍ سَمَقَا   حيناً بأَحْسَنِ ما يسمو له الشَّجَرُ
حتّى إذا قيلَ قَد طَالَتْ فروعُهُما   وطـابَ فيئـاهُمـا واستُينـعَ الثَّمـرُ
أَخْنَىٰ علىٰ واحدي ريبُ الزَّمَان ومَا   يُبقـي الـزَّمـانُ علـىٰ شـيءٍ ولا يَـذَرُ
كُنَّـا كـأَنْجـم ليـلٍ بينَهـا قَمَـرٌ   يجلو الدُّجىٰ فهوىٰ منْ بينهما القَمَرُ
فاذهبْ حميداً علىٰ ما كانَ منْ مَضَضٍ   فقَد ذهبتَ وأنتَ السَّمعُ والبَصَرُ[3]

* وقالت ليلىٰ بنتُ سلمى ترثي أخاهَا بقصيدةٍ منها :

---

(١) بلاغات النساء (ص٢٥٩).
(٢) أعلام النساء (١/ ٢١٨ و٢١٩) ، و«بطن شريان» اسم موضع.
(٣) انظر الحماسة البصرية (٢/ ٩١) ، والعقد الفريد (٢/ ٢٧٧ و٢٧٨) ، و«الجرثومة» : الأصل. و«سمقا» : طالا في كمال وتمام. و«الفيء» : الظل. و«استُينع» : بصيغة المبني للمجهول ، صار يانعاً ، و«أخنى» : أفسد.

أَقُولُ لنفسي في خَفَاءٍ أَلُومُها لَكِ الويلُ مَا هَذا التَّجلُّدُ والصَّبرُ
أَلا تَفْهمينَ الخُبْرَ أنْ لَسْتُ لاقياً أَخي إذْ أتى منْ دون أكْفَانِهِ القَبْرُ
وكُنْتُ أرىٰ بيناً بهِ بَعْضَ لَيْلَةٍ فكيفَ بِبَيْنٍ دونَ ميعادِه الحشْرُ
وهَوَّنَ وَجْدي أَنَّني سَوْفَ أغْتدِي علىٰ إِثْره يوماً وإنْ طالَ بي العُمرُ
فَتىً كانَ يدْنيْهِ الغِنَىٰ مِنْ صَديقِهِ إذَا مَا هُوَ استَغْنَى ويبعِدُهُ الفَقْرُ
فنِعْمَ مناخُ الرَّكْبِ كانَ إذا انبرَتْ شَمَالٌ وأَمْسَتْ لا يُعرّجُها سِتْرُ
ومأْوىٰ اليَتَامىٰ المُمْحِلينَ إذَا انْتَهوا إلىٰ بابِهِ شُعْثاً وقَدْ قَحطَ القَطْرُ[1]

* وقالتْ ليلىٰ بنتُ سَلمى ترثي أخاها أيضاً:

سقى اللهُ قَبْراً لَسْتُ زَائِرَ أَهْلِهِ ببيشَةَ إذْ ما أدركَتْهُ المَقَابِرُ
نَعَاهُ لنَا النَّاعي فَلَمْ نَلْقَ عَبْرةً بلىٰ حسرةً تَبْيضُّ منْها الغَدائرُ
لعَمري لَما كانَ ابنُ سَلْمةَ عَاجِزاً ولا فاحِشاً يخشىٰ أذَاهُ المجاورُ[2]

* وقالت أميةُ بنتُ ضِرار ترثي أخاها قُبيصةَ بنَ ضِرار:

مَا باتَ منْ ليَلةٍ مُذْ شَدَّ مِئْزَرَهُ قبيصةُ بنُ ضِرَارٍ وهو موتُورُ
لا تَعْرِفُ الكَلِمُ العَوراءُ مَجْلِسَهُ ولا يذوقُ طعاماً وهو مَسْتورُ
الطَّاعنُ الطَّعْنَةَ النَّجلاءَ عن عُرُضٍ كأنَّما قَبَسٌ بالليلِ مَسْعُورُ[3]

* وقالَتْ ليلىٰ بنتُ الأَحْجَم ترثي إخوتَها:

رَعَوا منَ المجْدِ أكْنافاً إلىٰ أمدٍ حتّى إذا كَملتْ أَظْماؤُهم وَرَدُوا
ميتٌ بمصْرَ وميتٌ بالعِراقِ وميتٌ بالحِجازِ منَايا بينهم بَدَدُ
كانتْ لهم هِمَمٌ فَرَّقْنَ بينَهمُ إذا القَعَادِدُ عنْ أمثالها قَعدُوا
بَذْلُ الجَميلِ وتَفْريجُ الجليلِ وإعْطَاءُ الجَزيلِ إذَا لَمْ يعْطَهُ أحدُ[4]

---

(١) حماسة البحتري (ص ٢٧٤ و٢٧٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ٢٧٥).

(٤) المصدر السابق (ص ٢٧٤).

* وتَطْلعُ علينا شَاعرةٌ منْ شَواعرِ العَصْر الجاهليّ ذات نَفسٍ طَويلٍ في رثاءِ أخيها ، هَذه الشَّاعرة تُدعىٰ سُعْدىٰ بنتُ الشَّمردلِ الجُهينية ، وأمّا أخوها فيُدعى أسعدُ بنُ الشَّمردل الذي قَتَلَه بنو بَهْزٍ من بني سُلَيم بنِ منصور ، فقد راحتْ تتحدَّثُ عن مناقِبه ، وما كان يتحلَّىَ بهِ منَ البُطُولَةِ والشَّهَامَةِ والكَرمِ والجودِ ، وما سجَّلَه منْ مآثرَ خالداتٍ لا تُنْسىٰ .

* ومنَ العجيبِ والمطْرِب للأَسماع أن تبدأ هذه المفجوعةُ بأخيها قصيدتها بهذا المَطْلَع الجميلِ السَّاحر للألبابِ فتقولُ :

أَمِـنَ الحَـوادِثِ والمنـونِ أُرَوَّعُ   وأَبيـتُ ليَلـي كلّـه لاَ أَهْجَـعُ؟
وأبيـتُ مُخْليـةً أبكّـي أسْعَـداً   ولمثلِـه تَبْكـي العيـونُ وتَهْجَـعُ

* ألا يذكّرنا هذا المَطْلَع الآسِرُ بمطْلَع الشَّاعِرِ المُخَضْرَم أبي ذؤيب الهُذلي الذي مَلأَ الدُّنيا بقصيدتِهِ العينية ، وشَغَل النَّاس وما زالُوا مشْغُولينَ بجمالِ وقْعِها علىٰ الآذانِ والقُلُوب؟!

أعتقدُ أنَّ أبا ذُؤيب قَدِ استَعْطَر بأنفاسِ قصيدةٍ سُعدىٰ الجهنية ، فاستمطرَ لُؤْلُؤَ العُيون بما تذرفه ، واستبكىٰ القلوبَ بما تحملهُ منْ حنانٍ وعطفٍ ورقّةٍ ، فهاهو يرثي أولادَه قائلاً :

أَمِـنَ المنـونِ وَرَيبِهـا تَتَـوجَّـعُ   والـدَّهْـرُ ليسَ بمُعْتـبٍ مَـنْ يجْـزَعُ
ولَقَـدْ أرىٰ أنَّ البَكـاءَ سَفَـاهـةً   ولسـوف يُـوْلَـعُ بـالبُكـا مَـنْ يفجـعُ

* ومن أبياتِ قصيدتِه السَّائرة مسرىٰ الأَمْثَالِ والحِكَم قوله :

وَإذَا المنيَّـةُ أَنْشَبَـتْ أَظْفَـارَهَـا   أَلفَيْـتَ كـلَّ تَميمـةٍ لا تَنفَـعُ
وتَجلُّـدي للشَّـامتيـنَ أريهـمُ   أنّـي لـريـبِ الـدَّهْـرِ لا أَتَضَعْضَـعُ

* ولقد بلغتْ قصيدةُ سُعدىٰ الجهنية (٣٠ بيتاً)؛ في حين بلغتْ قصيدة أبي ذُؤيب (٦٣ بيتاً)[١]، وقد طارَتْ شهرتُها في الآفاقِ ، ونُسِيَتْ قصيدةُ

(١) انظرها في ديوان الهذليين (١/ ٤ ـ ٤١).

سُعدىٰ مع العِلْم أنَّها متقدّمةٌ علىٰ أبي ذُؤيب في الزَّمن ، ولكنَّ هناك حظٌّ وحظوظٌ في الأَدب كما يقولون[1] .

* المهم أن سعدى هذه قد حلقت عالياً بعواطفها ، وجعلتنا نحلق معها ونعيش في أجوائها أيضاً ، وما أجمل نبراتها وهي توشي رثاء أخيها أسعد بالحكمة! فتقول:

إِنَّ الحـوادِثَ والمنـونَ كِـلاهُمـا ... لا يُعْتَبـانِ وَلَـو بَكَـىٰ مَـنْ يَجْـزعُ
ولَقَـدْ عَلِمْـتُ بـأنَّ كُـلَّ مـؤَخّـرٍ ... يَـومـاً سَبيـلَ الأَوَّليـنَ سيتْبَـعُ
أَفلَيْسَ فيمنْ قَدْ مَضَىٰ لي عبْرةٌ ... هلكُوا وقَدْ أيقَنْتُ أَنْ لَنْ يرجعُوا

* ثم تدعو الفتيان كيما يبكوا أخاها أسعد فتقول:

فَلْتَبْـكِ أسعـدَ فِتْيَـةٌ بِسَبَـاسِـبٍ ... أقـووا وأصبـح زادُهـم يتمـزَّعُ
غَـدرَتْ بـه بَهْـزٌ فـأَصْبـحَ جـدُّهـا ... يَعلُـو وأصبحَ جـدُّ قـومـي يخشـعُ
أَجَعلـتَ أسْعـدَ للـرِّمـاح دريئـةً ... هَبَلَتْـكَ أمُّـك أي جـرْدٍ تـرقـعُ

* وبعد ذلك تذْكُر شيئاً منْ مناقبِهِ ، وتؤكّد بأنَّها لَنْ تَنْسَاه فتقول:

يا مطْعِمَ الرّكْبِ الجِيَاعِ إذَا هُمُ ... حَثُّوا المطيَّ إلىٰ العُلاَ وتَسَرَّعُوا
جَـوَابُ أوديـةٍ بغيـرِ صَحَـابـةٍ ... كشَّـافُ داوِيّ الظَّـلامِ مشيَّـعُ
هـذَا اليقيـنُ فكيـفُ أنْسـى فَقْـدَه ... إنْ رابَ دهـرٌ أو نَبَـا بـي مَضْجَـعُ
إنْ تـأتِـهِ بعْـدِ الهـدوءِ لحـاجَـةٍ ... تـدعـو يُجِبْـكَ لهـا نَجيـبٌ أروعُ

* وتختمُ قولَها بهذه الكلماتِ الحِسَان:

مَنْ بَعْدُ أَسْعدَ إنْ فُجِعْتُ بيومِهِ ... والمـوتُ ممّـا قَـد يـريـبُ ويفجـعُ
فـوددْتُ لـو قُبِلَـت بـأسعـدَ فِـدْيـةٌ ... ممّـا يضـنُّ بـه المُصَـابُ المـوجـعُ

---

(١) وهذا ما حَصَلَ تماماً في نونيةِ ابن زيدون الشّهيرة التي طارتْ في الآفاقِ ، حيثُ عارضَ فيها البحتري ، فَنَسيَ الناس قصيدة البحتري وحفظوا قصيدة ابن زيدون. اقرأ هذا في كتابنا: «نساء من الأندلس».

غـادرتُـه يـومَ الـرِّصَـافِ مُجـدَّلاً خَبَـرٌ لعمـرك يـومَ ذلـك أشْنَـعُ[١]

* وذاكرةُ الأدبِ الجاهلي في رثاءِ الشَّواعر لإخوانهنَّ غزيرةٌ غنيةٌ ثَرّةٌ أحياناً ، ففي أيّامِ العربِ وقْفَاتٌ لطيفةٌ معَ الشَّاعراتِ اللاتي وَصَلَتْ إلينا أشعارهُنَّ في رثاءِ الأعزَّة ، وخُصُوصاً الإخوة ، ومنْ بين أولئك النّسوةِ امرأةٌ منْ بني قُشَير تُسمَّى الفارعةُ بنتُ معاويةَ القشيريّةِ التي قُتِلَ أخوها قدامةُ بنُ معاويةَ يوم النِّسار[٢] ، وكانَ فارساً مغْواراً يُقال له الذَّائد ، فقالَتْ ترثيه :

شَفَـىٰ اللهُ نَفْسـي مـنْ مَعْشـرٍ أَضـاعُـوا قـدامـةَ يـومَ النِّسـارِ
أَضَـاعُـوا فتـىً غيـر جَثَّـامَـةٍ طـويـلَ النِّجـادِ بعيـدَ المغَـارِ
يُثنـي الفـوارسَ عـن رمحِـهِ بطعـنٍ كـأفـواهِ لَهْـبِ المِهَـارِ
وفـرَّتْ كِـلابٌ علـىٰ وجهِهَـا خَـلا جَعْفـرَ قَبْـل وجْـهِ النَّهـار[٣]

* وهذه شاعرةٌ أُخْرىٰ اسمها تِنْهَان العَبْديّة ترثي أخاها سَعْدَ بنَ قَرط السَّعدي فتقولُ :

يـا سَعْـدُ يـا خيـرَ أَخٍ نـازَعْـت درَّ الحلمَـه
يـا ذائـدَ الخيـلِ ومُجتَـا بَ الـدِّلاصِ الـدَّرِمَـه
سيفُـك لا يَشْقـىٰ بـه إلا السَّنـادُ السَّنِمـه
يـا سَعْـدُ كَـمْ أوقَـدْ تَ لـلأضْيـافِ نـاراً زَهمـه
جـادَ علـى قَبْـرِك غيـثٌ مـن سَمـاء رَزمَـه[٤]

---

(١) الأصمعيات (ص١٠٢) ، و«الرِّصاف» : اسمُ مَوضعٍ ، وانظر : الحيوانَ للجاحِظ (٥/ ٥٥٤) ولم يوردْ سوىٰ بيتَين من هذه القصيدةِ الجميلةِ .

(٢) «النسار» : بكسر أوله ، على لفظ الجمع ، وهي أَجْبُلٌ صغار ، شبّهتْ بأَنْسُر واقِعةٍ (معجم ما استعجم ٤/ ١٣٠٦) .

(٣) أشعار النساء للمرزباني (ص٦٧) ، وبلاغات النساء (ص٢٥٠ و٢٥١) ، و«الجثّامة» : النؤوم الذي لا يسافر والبليد ، و«المهار» : جمع مهر ولد الفرس .

(٤) أشعار النساء للمرزباني (ص٩٢ و٩٣) . و«الدرمة» : الملساء اللينة الملتصقة ، و«السّناد» : يقال : ناقة سناد : طويلة القوائم مسندة السّنام . «زهمة» : دسمة . و«رزمة» : شديدة الصوت من شدة المطر .

* ومنْ بدائعِ روائعِ رثاءِ الإخْوان ، ما جادَتْ به قريحةُ أمِّ عمرو بنتِ المكدّم ، واسمُها «عزّة» ، وهي أختُ ربيعةَ بنِ مكدم ، وربيعةُ هذا أحدُ فُرسانِ بني كِنانَة المعدودينَ وشجعانهم المشهورينَ المُتَهوِّرينَ في الجاهليّةِ ، وهو منْ قبيلةِ فِراسِ بنِ غنْم ، وكان بنو فِراس أَنْجَدَ العربِ ، كانَ الرَّجُلُ منهم يُعْدَلُ بعشرةٍ منْ غيرهم ، وفيهم يقولُ عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ لأَهْلِ الكوفة : وددتُ واللهِ أنَّ لي بِجَمْعِكم ، وأنتم مئةُ ألفٍ ثلاثمئة منْ بني فِراس .

* وهذا الفارسُ المشهورُ المشهودُ له بالشَّجاعةِ قَتَلَه نُبيشةُ بنُ حبيب السُّلَمي يومَ الكَدِيد[١] ، ويومَ مَقْتَله حَمَى ربيعةُ ظعائنَ بني كنانةَ ميتاً ، ونَجَتْ منْ نُبيشةَ ، وخافتِ الفرسانُ منه ، وهو ميّتٌ علىٰ ظَهْرِ حِصَانِهِ ، ولذلك رثاهُ بعضهم ، وأثنىٰ عليه لأنَّه حمىٰ الظَّعينةَ وهو ميّتٌ فقال :

فَـرَّ الفَـوارِسُ عَـنْ ربيعـةَ بَعْـدَمـا ... نجَّـاهُـمُ مِـنْ غَمْـرةِ المكـروبِ
لا يبعـدنَّ ربيعـة بـن مكـدَّم ... وسقـىٰ الغَـوادي قَبْـرَه بِـذَنُـوبِ

* وسجَّلَتْ أختهُ أمّ عمرو في ديوانِ أشْعَارِ النِّساء أجملَ القصائدِ في رثائِهِ ، إلاّ أنَّ ذاكرةَ التَّاريخ لم تحتفظْ لنا إلاّ شذراتٍ ، ومنها هذهِ القصيدة التي تقولُ فيها :

مَا بالُ عينكَ منها الدَّمْعُ مُهْرَاقِ ... سحّـاً فـلا عَـازِبٌ عَنْهـا ولا رَاقِ
أبْكي علىٰ هَالكٍ أَودَىٰ فأَوْرثَني ... بَعْـدَ التَّفـرُّق حـزنـاً حَـرُّهُ بَـاقِ

---

(١) «الكَدِيد» : موضعٌ بينَ مكةَ والمدينةِ ، علىٰ بُعْدِ اثنين وأربعين ميلاً منْ مكة ، وهو ماءُ عينٍ جارية ، عليها نَخْلٌ كثير .
وثبتَ أنَّ رسول الله ﷺ صامَ حتّى إذا بلغَ الكَديد أَفْطَر ، فأَفْطَرَ النَّاسُ ، وكانوا يأخذونَ بالأَحْدثِ فالأحدثِ منْ أمرِهِ ﷺ .
وبالكديدِ قَتَل نبيشةُ بنُ حبيبُ السُّلمي ربيعةَ بن مكدّم . (معجم ما استعجم ٣/ ١١٢٠) بتصرف . واقرأ سيرة ربيعة بن مكدم في موسوعتنا الجميلة «فرسان من التاريخ» .

لو كانَ يُرجِعُ ميتاً وَجْدُ ذي رَحمٍ — أبقىٰ أخي سَالماً وَجْدي وإشْفَاقي
لكنْ سِهَامُ المنايا مَنْ نُصِبْنَ له — لـم يُغْنِـهِ طـبُّ ذي طـبٍّ ولا رَاقِ
فسوفَ أبكيكَ ما ناحَتْ مطوّقةٌ — وما سَريتُ مع السَّاري على ساقِ[1]

* هذا وأشعارُ رِثَاءِ النِّساء لإخوانهنَّ في العَصْرِ الجاهليّ لا تُحْصَرُ ، لأنَّ المرأةَ أشجىٰ النَّاسِ قَلْباً عند المصيبةِ ، وأشدُّ جزعاً على هالك ، لمَا ركَّبَ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في طَبْعها منَ العاطفةِ التي تحتاجُها في حَياتِها .

* ولعلَّ الرِّثاءَ في الجاهليةِ منَ الموضوعاتِ المهمّةِ التي اهتمَّ بها العربيُّ الأصيلُ ، واهتمَّ بها كذلك الشِّعْرُ العربيُّ اهتماماً كبيراً ، فقد كانَ العربُ يَرثُون أبطالَهم في قصائدَ حماسيّةٍ تُلْهِبُ المشاعرَ ، وتؤججُ العَواطِفَ ، وتروي الأخبارَ التي وصلَتْ إلينا عن عَصْرِ الجاهلية أنَّ العربَ قد اعتمدوا في جُلِّ الرِّثاءِ علىٰ نِياحةِ النِّساءِ ، وبكائهنَّ علىٰ موتاهُنَّ بجزعٍ وعويلٍ ، إذْ كُنَّ ما يزلْنَ يُنْحْنَ علىٰ قتلاهُنَّ حتى تثأرَ لهم القبيلةُ .

* ويستشفُّ منَ الأخبارِ والأشْعارِ ـ عَصْر ذاك ـ أنَّه كانَ يشيعُ عندَ العربِ ضَرْبٌ منَ التَّعديد[2] ، فما تزالُ امرأةٌ تنوحُ ، ويردُّ عليها صواحبُها منَ النِّسوةِ في العزَاء ، وكُنَّ يندبنَ موتاهنَّ سنينَ معدوداتٍ ، وربما كُنَّ يَحْلِقْنَ شعورهنَّ حِدَاداً علىٰ الميّتِ .

* وبعد ذلك تطوَّرَ ذلك النَّوْعُ منَ البُكاءِ والنِّياحَةِ علىٰ الميّتِ ليخاطبَ المشَاعر ، ولتصوِّيرِ الحزنَ العميقَ إزاءَ المَصَائِب ، وقامَ النِّساءُ بالقسْطِ

---

(١) انظر : بلاغات النساء (ص ٢٤٨) ، وأيام العرب في الجاهلية (ص٣١٧) ، وأعلام النساء (٣/ ٣٦٥ و٣٦٦) ، وغيرها .
وهناكَ شواعرُ كثيراتٌ اشتهرنَ برثاءِ الإخوة ، ولا يتّسعُ المقامُ لذكرهنّ من مثل : رابطةُ البهرية ، وحمدةُ بنتُ ضِرَار ، وهندُ بنتُ حذيفة بن بدرِ الفزارية ، وعرفجةُ الخزاعيّة وغيرهنَّ .

(٢) «التّعديد» : يشبهُ ما نرىٰ ما تفعله بعض النّساء في مصرَ الآنَ ، إذا ناحتْ إحداهنّ علىٰ ميّت .

الأكبرِ منْ نَدْبِ الميّتِ وبكائِهِ ، فكُنَّ يشقُقْنَ جيوبَهنَّ عليه ، ويلطمْنَ وجوههنَّ بأيديهنَّ ، وبالنِّعالِ والجلودِ ، ويقرعنَ صدورهنَّ ، ويَعْقِدْنَ علىٰ قَبْرِه مأتماً منَ العويلِ والبُكاءِ ، وخُصُوصاً في مجالسِ القبيلةِ ، وفي المواسمِ المشهودةِ المشهورةِ .

* إنَّ أنفاسَ الرِّثاءِ ، وأنغامَ الحزنِ كانَ لائقاً بنساءِ العرَبِ ، وخاصةً الأخوات ، ونحنَ نستقرىءُ منْ خلالِ قراءتِنا لِشعْرِ حَوَّاءِ العربِ ، ونساءِ الجاهليةِ أنَّ ينابيعَ الحُسْنِ تتفجَّرُ في وجدانهنَّ عندما يرثينَ إخوانَهنَّ .

* فالمرأةُ العربيّةُ ـ وخصوصاً في العَصْرِ الجاهليّ ـ لم تكنْ تستطيعُ أنْ تفاخِرَ بشجاعَتِها ، ولا أنْ تعدِّدَ نزواتِها وأغزالِها ، وإلاّ أُثِيرتْ منْ حولها الأقاويلُ ، وأثارتِ الظُّنونَ بأَقْوالها !! .

* وما كانتِ المرأةُ لِتَنْفَكَّ عنْ مجتمعِها ، أو تنفلتَ من عقّالِهِ ، ولو تخيّلْنَا أنَّه كان لديها ـ في عَصْرها ـ قلَمٌ وقِرطَاسٌ وأدواتُ كتابةٍ لوجدتْ في ذلك مُتَنَفَّساً بأنْ تترجمَ مشاعرهَا وترسمَها علىٰ الأوراقِ بأحلىٰ التَّعابيرِ وأجملِ الحُللِ الكلاميّة .

* إنَّ المرأةَ الرَّاثيةَ لإخوتها لمْ تكنْ إلاّ كالحَمامةِ الثَّكْلىٰ التي تنتقل بين الأغصان نائحة باكية ، تقطر عيناها دمعاً ، وتسيل نفسها أسىٰ ، لذلك أَثْرَتِ المرأةُ الأدبَ العربيَّ بجراحاتِ القلوبِ بِفَنِّ الرّثاءِ ، ولنْ يضيرَ المرأةَ العربيةَ اقتصارها علىٰ الرثاءِ ، إذ هي الطَّبيعةُ التي فُطِرَتْ عليها ، ولَنْ تنفصلَ عن ذلكَ عربية .

* وما أجمل أن نشيرَ إلىٰ ما أورَدَه المرحومُ مصطفى صادق الرَّافعي عمّا يمتازُ بهِ رثاءُ النِّساءِ بندرةِ الحكْمَةِ فيهِ ، ويمتازُ بوحدةِ الموضوع فيقولُ : ولا يهولنَّكَ كثرةُ أسْماءِ النِّساء اللاتي قُلْنَ شِعْراً ، فعمودُ الشِّعْرِ عندهنَّ الرِّثاءُ ، وليس لهنَّ إلا المقاطيعُ والأبياتُ القليلة[1] .

---

(١) تاريخ آداب العرب (٣/ ٦١) ، ويبدو أنَّ قولَ الرّافعي ـ رحمه الله ـ ليسَ عامّاً فقد =

* وإذا مَا انتقَلْنَا إلىٰ العَصْرِ الإسلاميّ ومطلع النُّور ، لألفينا شاعراتٍ بلغْنَ السُّهَا في هذا المِضْمَارِ ، ولا يَكادُ يُحْصِيهنَّ عَادٌّ .

* وفي هذهِ العُجَالة سنوردُ صُوَراً منْ نتاجِ عواطِفهنَّ وقرائِحِهنَّ ، ونبدأُ بسيِّدةِ شَاعِراتِ الصَّحابياتِ ، وشاعرةِ بني هاشم السَّيدةِ صفية بنت عبد المطلب عمّةِ النَّبيِّ ﷺ ، وأمِّ الزّبيرِ بنِ العوّام الصّحابي والفارس المشهورِ ، وأختِ أَسَدِ اللهِ وأسد الرحمن حمزة بنِ عبد المطلب رضي الله عنهم جميعاً .

* فلقد شَهِدَ حمزة ـ رضي الله عنه ـ بدراً وأُحُداً ، وفي غزوة أحدٍ لقيَ اللهَ شهيداً ، فرَثَاهُ شُعَراءُ الرَّسولِ ﷺ ، ورثَتْه أختُه صفيةُ بروائعَ صافيةٍ منْ شِعْرِها ، ومنْ ذلك قولُها :

دَعَاهُ إلهُ الحقّ ذو العَرش دعوةً ... إلىٰ جنّةٍ يَحيا بهَا وسُرور

فذلك ما كُنَّا نرجّي ونَرتجي ... لحمزةَ يومَ الحشْرِ خيرُ مصيرِ

فواللهِ لا أَنْساكَ ما هبَّتِ الصَّبَا ... بكاءً وحُزناً مَحْضَري ومَسِيري[1]

* ونجدُ كذلكَ شَوَاعِرَ أخرياتٍ من صفوفِ المشركينَ قد رثينَ قتلاهنَّ في المعاركِ ، ومنهنَّ أختُ عمرو بنِ عَبدِ وُدٍّ العامريّ وغيرها[2] .

* وفي العَصْرِ الأمويّ تبرزُ شاعراتٌ مجلياتٌ في هذا المِضمار ، وكُنَّ محسناتٍ في رثائهنَّ إخوانهنَّ ، وإنَّ الباحثَ ليجدُ بينَ ثنايا المصادِرِ كثيراً منْ أشْعَارِ النِّساءِ التي تُعْتَبَرُ مَصْدراً مُهماً منَ مصادرِ التَّأْريخِ والوقائعِ وغيرِ ذلك .

* فمنَ النِّساءِ اللواتي أبدعْنَ في رثاءِ الإخْوةِ ، أختُ عمرو بن سعيد

= وَجْدنَا كثيراً مِنَ المطوّلاتِ الشّعريةِ للنّساء ومنهنّ الخَنْساء وغيرها ، كما سنلاحظُ ذلك أيضاً في العَصْر الإسلامي كصفية بنت عبد المطلب وغيرها .

(١) انظر كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» (١/ ٣٠) طبعة ثالثة ١٩٩٦م ، وأعلام النساء (٢/ ٣٤٤) وغيرها كثير من كتب التراجم والطبقات .

(٢) انظر : أعلام النساء (٣/ ٣٦٥) .

الأَشْدق الذي قَتَلَه عبدُ الملك بنُ مروان بِيَدِهِ في حربهِ ، فقالت ترثيه منْ أبياتٍ :

أَيا عَيْنُ جُودِي بالدُّموعِ على عَمْرو	عَشيّـةَ أُوتينَـا الخـلافـةَ بـالقَهْـرِ
فَما كـانَ عمـرو عَـاجِـزاً غيـرَ أنَّـه	أَتَتْـهُ المنـايـا بَغْتـةً وهـو لا يَـدْري
كـأَنَّ بنـي مـروانَ إذْ يقتلـونَـه	خشَاشٌ منَ الطَّيرِ اجْتمعْنَ على صَقْر
لحىٰ اللهُ دُنيا تعْقُب الذُّلّ أهْلها	وتهتكُ ما بينَ القَرابةِ من سترِ[1]

* وهناك نساءٌ أخرياتٌ في العَصْرِ الأمويّ قد اشتهرنَ برثاءِ إخوتهنّ منهنّ الجوزاء[2] بنتُ عروةَ البصريّة وغيرها .

* ومنْ مشَاهيرِ النِّساءِ اللواتي وعتْ أذنُ التَّاريخِ الواعية أشعارهنَّ ، زينتُ بنتُ الطَّثرية التي رثَتْ أخاها يزيدَ بنَ الطَّثرية ـ والطثريةُ نِسْبةٌ إلى أمِّه ـ ، وكانَ يزيدُ بنُ الطَّثرية ـ هذا ـ شَاعِراً مطبوعاً عاقِلاً فصيحاً كاملَ الأدبِ ، وافرَ المروءةِ ، لا يُعابُ ولا يُطْعَنُ عليه ، وكانَ سخيّاً شجاعاً ، له أصْلٌ ومحتدٌ في قومه بني قُشير ، وكانَ منْ شعراءِ بني أميّة مقدّماً عندهم ، وكان يُسمّى «مُودّقاً» ، سُمّي بذلك لحُسْنِ وجههِ وحسْنِ شِعْرِه وحلاوةِ حديثه ، وهو منْ أعيانِ الشُّعراء ، وأخبارهُ مشهورةٌ في كُتُبِ الأدبِ والتَّراجمِ والتَّأْريخِ .

* ولما قُتِلَ يزيدُ بنُ الطَّثرية يومَ فَلَج[3] سَنَة (١٢٦ هـ) ، بكاهُ بنو قُشير ، إذْ هو صنديدُها ، وفتاها ، ونحَّار الجُزُرِ للأضيافِ ، وقد رثاهُ عَدَدٌ منَ الأماثِلِ ، ومنْ روائعِ ما قيلَ في رثائِهِ ذلك الرِّثاء الذي رثَتْه به أختهُ زينبُ بنتُ الطَّثرية ، حيثُ قالَتْ من قصيدةٍ بلغَتْ (١٠ أبيات) نختارُ منها قولها :

أرىٰ الأَثْلَ منْ بَطْنِ العَقيقِ مُجَاوري	مُقيمـاً وقَـدْ غَـالَـتْ يـزيـدَ غـوائِلـه

(١) المرجع السابق : (٣/ ٣٦٤) .

(٢) انظر قصيدتها في رثاء أخيها عبد الله في بلاغات النساء (ص٢٥٠) طبعة الكويت .

(٣) «فلج» : قال البكري : موضعٌ لبني جَعْدَةَ من قيس بِنَجْد ، وهو في أعلىٰ بلاد قيس ، وقال ابنُ حبيب : الأفلاجُ منْ أرضِ اليمامةِ (معجم ما استعجم ٣/ ١٠٢٩) .

يَسُرُّكَ مَظْلوماً ويُرضيْكَ ظالماً وكُـلّ الـذي حمّلتَـه فهـو حَـامِلُـه
إذا القـومُ أمَّـوا بَيْتَـه فهـو عـامِـدٌ لأَحْسـنِ مـا ظنُّـوا بـهِ فهـو فـاعِلـه
وقـد كـانَ يُـروي المشـرفـيَّ بكفِّـهِ ويبلغُ أَقْصىٰ حَجْرَةِ الحي نائله[1]

* ومنَ الشَّاعراتِ المجلياتِ في رثاءِ الإخوة دَرْنا بنتُ سَيَّار التي رثَتْ أخوَيْها شيبانَ وعبعبةَ ابني سيّار فقالت:

لَقَدْ زَعموا أنِّي جَزعْتُ عليهما وهـلْ جَـزَعٌ إنْ قلـتُ وَاْ بـأَبـاهُمـا
وهَلْ جَزَعٌ إنْ قُلْتُ خَيراً علمتُه وأثنيـتُ مـا قَـدْ أَوْلَيَـانـي كـلاهُمـا
هُما أخوا في الحيِّ مَنْ لا أخاً لَهُ إذا خَـافَ يـومـاً سـورةً فَـدعَـاهُمـا
هما يلبسانِ المجدَ أحسنَ لبسةٍ وما ظَلما في المجدِ أَهْلي فِدَاهُما[2]

* وتزخرُ أشعارُ نساءِ الخوارج بفنِّ الرّثاءِ والحماسةِ، وفي المصادِر كثيرٌ منْ أخبارهنَّ، وأخبارِ أشعارهنَّ ومشاركتهنَّ الرجالَ في الحروبِ والمعاركِ، وكُنَّ يُسَمَّيْنَ الشَّارياتِ[3]، ومن بين هؤلاءِ الشَّاريات شاعرةٌ اسمُها مُليكة الشَّيبانية، التي رثَتْ أخاها بعددٍ منَ القصائِدِ، ومنها هذه الأبيات التي تشيرُ فيها إلى مناقِبهِ وشمائِله العديدةِ التي لا تُحْصَىٰ، ومنها كرمُهُ وإغاثتهُ اللَّهفانَ، واصطناعهُ المعروف، وما شَابَه ذلك:

---

(١) انظر: الشعر والشعراء (١/ ٤٢٧)، والأغاني (٨/ ١٨٢ و١٨٣)، وحماسة البحتري (ص٢٧٥)، وحماسة أبي تمام رقم (٣٦٧)، ومصادر أخرى كثيرة. و«المشرفي»: السَّيفُ المنسوبُ إلىٰ مشارفِ الشَّام، وهي قرى للعرب تدنو من بلادِ الرُّوم، قال امرؤ القيس:
أيقتلُنـي والمشـرفـيُّ مضـاجعـي ومسنـونـةٌ زُرْقٌ كـأنيـابِ أغـوال
و«حجرة»: ناحية.

(٢) أشعار النساء للمرزباني (ص١١١ و ١١٢).

(٣) «الشَّاريات»: جَمْعُ شَارية، وهي المرأةُ المنتسبةُ إلىٰ الخوارج، وهم الشراة منْ شَرىٰ: غَضبَ ولجَّ. قال ابنُ منظور: شرىٰ زيد، غضبَ ولجَّ كاستشرىٰ ومنه الشّراة طاعةِ الله، أي بعناها بالجنّة حين فارقنا الأئمة الجائرة. (وفيات الأعيان ٦/ ٣٤).

مَـنْ لجـاراتِـكَ الضِّعَـافِ إذا حَـلَّ بِهَـا نَـازِلٌ مِـنَ الحَـدثَـانِ؟
مَـنْ لضَيْـفٍ ينْتَـابُ فـي ظُلمـةِ الليـلِ إذا مـلَّ منـزلَ الضّيفـانِ
سَـوْفَ أبْكـي عليـكَ مـا سَمِعـتْ أذنـاي يـومـاً تـلاوةَ الفُـرقَـانِ
أيـنَ مَـنْ يَحْفَظُ القـرابـة والصِّهْـر ويُـؤتـىٰ لحـاجـةِ اللهْفَـانِ
ويحـوطُ المـولـىٰويصطنـعُ الخيـ ـرَ ويجـزي الإحْسَـانَ بـالإحسَـانِ
ويكـفُّ الأذىٰ ويبتـذلُ المعـروفَ سَمْـحَ اليـديْـن سبْـطَ البنَـانِ

وقالت ترثيه أيضاً:

يـا عيـنُ جُـودي بـالـدُّمـوعِ بـواكـفٍ حتّـى الممـات
قُـولا لِمَـنْ حَضَـرَ الحـروبَ مـنَ النِّسـاءِ الشَّـاريـات
أَمْسيَـنْ بَعْـدَ غضـارةٍ ونعيـم عيـشٍ مثْبَتَـات
مـنْ بَعْـدِ عَيْـشٍ نـاعِـمٍ صَـارَتْ عظـامُهـمُ رفَـات
وإذا المنيّـةُ أَقْبَلَـتْ لـم تُغْـنِ أقـوال الـرُّقَـاة
كُنْـتَ المـؤمَّـلَ والمـرجّـى فـي الأُمـورِ المعْضِـلات
كُنْـتَ المـؤامـرَ والمـوازرَ والمطـالـبَ للتِّـرات[1]

* وفي العَصْرِ العبَّاسي تنبغُ شاعراتٌ منَ الخوارجِ ومنْ شواعِرِ العربِ أيضاً، ويسطعُ عالياً اسمَ الفارعةِ بنتِ طريف، ـ أو ليلىٰ أو فاطمة بنت طريف ـ أختِ الوليدِ بن طريف الشَّيباني الشّاري أحدِ الشُّجعان الطُّغَاةِ الأبطالِ، كانَ رأسَ الخوارجِ، وكان مُقيماً بنصيبين والخابورِ وتلك النّواحي، وكانَ شديدَ البأسِ والصَّولةِ، وممن تسمَّىٰ بأميرِ المؤمنين، وكان ينشدُ يومَ معاركهِ أمامَ الصُّفوف:

أنَـا الـوليـدُ بـنُ طـريـف الشَّـاري قَسْـورةٌ لا يُصْطَلـىٰ بنَـاري
جوركمُ أخرجَني منْ داري

* واشتدَّتْ شوكتُه، وطالَتْ أيامُه، حتى وجَّه إليه هارونُ الرشيدُ أبا خالد

---

(١) أشعار النّساء للمرزباني (ص١٢٥)، و«المثبت»: مَنْ لا حَرَاك بهِ منَ المرض.

يزيدَ بنَ مزيد بنِ زائد الشَّيباني ، فقتله وفضَّ جموعَه في رمضانَ عام (١٧٩ هـ).

وكانتِ الفارعةُ أختُ الوليد تركبُ الخيلَ ، وتقاتلُ وعليها الدّرعُ والمِغْفَرُ ، ولما عَلِمَتْ بقَتْلِ أخيها ، لبستْ عدّة حربها ، وحملتْ علىٰ جيشِ يزيدَ بنِ مزيد ، فَضَربَ فرسَها بالرُّمحِ وقال : اغربي ، غرب الله عينك ، فقد فَضَحْتِ العشيرةَ ، فاستحيتْ وانصرفَتْ.

* وكانتِ الفارعةُ تجيدُ قَرْضَ الشِّعْر ، وتسلكُ سبيل الخَنْساءِ في مراثيها لأخيها صَخْر ، ولها فيه مراثٍ بالغةٌ كثيرةٌ ، ومن أشهرِها القصيدةُ الفائيةُ التي أجادت فيها إجادَةً عاليةً ، وقد بلغتْ (٢٤ بيتاً) ومطلعُها :

بِتَـلِّ نَبـاثَـا رسْـمُ قَبْـرٍ كـأَنَّـه ... علـىٰ عَلَـمٍ فـوقَ الجِبَـالِ منيـفِ
تضمَّـنَ جُـوداً حـاتميّـاً وسُـؤدداً ... وسَـوْرَة مِقْـدامٍ وقَلْـبَ حصيـفِ

ومنها :

حَليفَ الندىٰ ما عَاشَ يرضىٰ به النَّدىٰ ... فإنْ مَاتَ لا يَرضىٰ النَّدى بحليفِ

ومنها هذه الأبياتُ المشهورةُ الشَّهيرة في عالم الشِّعْر :

أيا شَجَر الخَابُور مَالَكَ مُورِقاً ... كأنَّكَ لَمْ تَحْزَنْ عَلىٰ ابنِ طَرِيفِ
فتىً لا يحبُّ الزَّادَ إلاّ منَ التُّقىٰ ... ولاَ المـالَ إلاّ مـنْ قنـاً وسيـوفِ
فَقَـدنَـاهُ فقْـدَانَ الـرَّبيـعِ ولَيْتَنَـا ... فَـديْنَـاه مـنْ سَـادتِنـا بـألـوفِ

* وانظرْ إلىٰ هذا البيتِ الجميلِ إذ تشبّهُهُ بالبَدْرِ الذي هوىٰ من بين الكواكبِ ، أو الشَّمْس التي أصابَها الكسوف :

وللبدر منْ بينِ الكواكبِ إذْ هوىٰ ... وللشَّمس لمـا أزمعـتْ بكُسـوفِ[1]

* وتختمُ الفارعةُ مرثاتها بقولها :

---

(١) وكأنّي بأبي تمام يستعيرُ هذا المعنىٰ عندما رثىٰ محمّد بنَ حميد الطّوسي بقصيدتهِ الرائيةِ الشهيرة فقال :

كـأنَّ بنـي نبهـانَ يـومَ وفـاتِـه ... نجـومُ سمـاءٍ فَـلَّ مِـنْ بينهـا البـدرُ

فَإنْ يَكُ أَرْدَاهُ يزيدُ بنُ مَزْيد فربَّ زُحُوفٍ لفَّها بزحُوفِ
عليكَ سلامُ اللهِ وقْفَاً فإنّني أرىٰ الموتَ وقّاعاً بكلِّ شَريف[1]

* ومن مراثيها الجميلةِ في أخيها الوليد ، قولُها :

ذَكَرتُ الوليدَ وأيَّامَهُ إذِ الأرضُ منْ شَخْصِه ، بَلْقَعُ
فأَقْبلْتُ أطلبُهُ في السَّما كَما يبتغي أنْفَه الأَجْدَعُ
أضاعَك قومُكَ فَلْيَطلبُوا إفادةَ مثلِ الذي ضَيَّعُوا
لَوْ أَنَّ السَّيوفَ التي حدَّهَا يُصيبُكَ تعلمُ ما تَصْنَعُ
نَبَتْ عَنْكَ إذْ جعلتْ هيبةً وخَوفاً لصولِكَ لا تَقْطعُ[2]

* هذا ومراثي النّساء في هذا المضمارِ واسعةُ المجالِ ، وقد استطردنا فيها ، إذْ أرخينا لقلمنا العنانَ في ذلك ، لما وجَدْنا من فوائدَ ومعارفَ مهمّة أحببنا أنْ نوردهَا ليكونَ كتابنا أكثرَ نفعاً ، وأكثرَ جَمعاً لميراثِ النِّساء الفكريّ والمعرفيّ والأدبيّ ، فليعذرنا القارىء الكريمُ في ذلك ، وها نحنُ أولاءِ نعودُ إلى رحابِ ضيفتنا الخِرنق بنتِ بدر ، لنتابع معها رحلتَنا المغناجَ الممتعةَ بين الكلمةِ الحلوةِ ، والخبرِ الطَّريفِ ، ونسائمِ الصَّحراء في ديار بني بكر قومها في قَلْب الجزيرة العربية .

الخِرْنقُ وَرِثَاءُ زَوْجِهَا وابنِهَا :

* كان بشرُ بنُ عمرو زوجُ الخرنقِ سيّدَ بني مرثد ، وكان رجُلاً ذا كِبْرٍ ونخوةٍ وشجاعةٍ ، فَغزا بني عامر بن صعصعة ، ومعه ناسٌ منْ بني أَسَد ، فظفرَ وغَنم كثيراً من النّعم والسَّبي ، وانصرفَ راجعاً إلىٰ بلادهِ .

---

(١) هذه القصيدة ورد معظمها في مصادر كثيرة ومنها : وفيات الأعيان (٦/ ٣٢ و٣٣) ، والكامل في التاريخ (٦/ ٥١ و٥٢) ، والأغاني (١٢/ ٩٣ و٩٤) ، وتاريخ الطبري (٣/ ٦٣٨) ، وسمط اللآلي (٢/ ٩١٣) ، ونهاية الأرب (٧/ ١٢٣) ، وزهر الآداب (٢/ ٩٦٦) . واقرأ سيرة الفارعة في كتابنا «فرسان من التاريخ» .
(٢) وفيات الأعيان (٦/ ٣٣) .

* وكانَ عمرو قد غَزا ومعه عمرو بنُ عبدِ الله الأشلّ مُتَسانِدَيْن[1] ، فلما دنوا منْ قُلاب[2] قال عمرو لبشرٍ:

أتريدُ أنْ تظلمَ النَّاسَ وتعرِّضهم لما لا قِبَل لهم به؟ إنْ وراءَ هذا الجَبَلِ بني أَسد.

فقال بشرٌ في كبرياءٍ وصَلفٍ واعتدادٍ واعتزازٍ: يا عمرو ما أبالي بمن لقيتُ منهم.

* وكانَ عمرو بنُ عبد الله الأشلّ عاقلاً ، يعرفُ مكائدَ الزَّمان وغَدراتِه ، ونصحَ بشْراً ثانيةً وناشدَه الله في العدولِ عنهم والابتعادِ عن طريقهم ، ولكنَّ بشراً أبى أنْ يقبلَ ذلكَ ، واعتبره هزيمةً وجُبْناً.

* وعندئذٍ قال عمرو بنُ عبد اللهِ لبشْر: إنّي قاصدٌ وذاهبٌ بِمَنْ معي إلىٰ اليمامةِ ، وذَهَبَ بمن كانَ مَعَه من بني سَعْد بنِ ضُبيعة إلىٰ اليمامةِ.

* وخرجَ بشرٌ في بني قَيْس بنِ ثَعْلَبَةَ ، ومعه ثلاثةُ بنينَ له وهم: عَلْقَمةُ وهو من زوجتِهِ الخِرنِقِ ، وحسَّان وشُرَحْبيل ، وكانوا فُرسَاناً شُجعاناً لا يهابونَ الموتَ ، وكان معه ناسٌ من بني مَرْثَد وغيرهم.

* وهجمَ بشرٌ بمنَ معه علىٰ بني أَسد ، فانهزمَ بنو أسدٍ منْ غيرِ قِتَال ، فأنشدَ بشْرٌ قائلاً:

ألاَ لاَ تُراعُوا إنَّها خَيْلُ وَائِلٍ ... عليها رجالٌ يطْلُبونَ الغَنَائِما

فقال كاهنُ بني أَسَدٍ لقومهِ: يا بني أَسد ، خُذوا فَأْلَ بشْرٍ منْ فِيْهِ ، ارجعُوا إليهِ ، فَلَنَقْتُلَنَّه ولَنَغْنَمَنَّ ما معه ، فرجعَ بنو أسدٍ ، وهجموا هجمةً واحدةً

---

(١) «متساندين»: المساندة: أنْ يخرجَ رئيسان برايتَيْن وجيشَيْن في مكانٍ واحدٍ ، ويغيرونَ معاً ، فما أصابوا منْ غنائم قُسِّم علىٰ الجيشَيْن.

(٢) «قُلاب»: بضم أوّله ، جَبَل ، وهو منْ مَحِلّةِ بني أسد على ليلة ، وفي عَقَبَةِ قُلاب قَتَلَتْ بنو أسد بشرَ بنَ عمرو بن مِرثد الضَّبعي ، قَتَله عُميلة الوالبي ، ثمّ إنّ بني ضُبيعةَ أَصَابوا بني أَسَد وأدركُوا بثأرِهم. (معجم ما استعجم ٣/ ١٠٨٨).

فقَتَلُوا بشْراً ، وقَتَلُوا أولادَه الثّلاثة ، وقُتِلَ معه بنو مرثد ، وهَزمُوا أصْحابَه .

* قالَ أبو عمرو بنُ العلاء: وكانَ الذي قَتَل بشْراً خالدُ بنُ فَضْلَة الفَقْعسي ، وقيل: كان الذي قَتَلَه سبْعُ بْنُ الحَسْحاس الفقْعسي[1] ، ورئيسُ بني أَسَد يوم ذاك خالدُ بْنُ نَضْلَةَ .

ولذلك قالَ حفيدُ خالد واسمه المرّار بْنُ سعيد الفَقْعسي[2] يذكر أنَّ جدَّه خالدَ بْنَ نَضَلَةَ قَتَلَ بشْراً ويفخرُ بذلك قائلاً :

أَنَـا ابْـنُ التَّـارِكِ الْبَكْـريِّ بشْـرٍ عَلَيْـهِ الطَّيْـرُ تـرقُبُـه وقُـوعـا[3]
عَـلاَهُ بِضَـرْبَـةٍ بَعَثَـتْ بليـلٍ نَـوائِحَـه وأَرحَضَـتِ البُضُـوعـا

(١) وَرَدَ في شِعْر الخِرنق أنَّ الذي قتلَه هو عميلةُ بنُ المقتبس ـ كما سنرى ـ.

(٢) المرّار بنُ سَعيد الفَقْعسي ، يكنىٰ أبا حسّان ، شاعرٌ إسلامي منْ شُعراءِ الدَّولةِ الأمويّةِ ، وهو صاحبُ أكرمِ بيتٍ قالَتْه العَربُ ، وكان قصيرَ القامةِ ، مُفْرِطاً في القِصَر ضئيلاً ، وكان هو وأخوه بدرُ بنُ سعيد لِصَّيْنِ حَبَسهما عثمانُ بنُ حيّان المرّي والي المدينةِ ، فمات بدرٌ في السّجن فرثاهُ المرّارُ رثاءً مؤثّراً ، وله شعرٌ كثيرٌ منه ما كانَ يُهاجي به مُسَاوِر بنَ هند.
(الشّعرُ والشّعراء ٢/ ٦٩٩ ـ ٧٠١) و(خزانةُ الأَدب ٢/ ١٩٤ ـ ١٩٦).
ومنَ المفيدِ هنا أنْ نذكرَ بأنَّ أكثرَ منْ شاعرٍ يسمّى المرّار ، فالمرّارونَ منَ الشُّعراء سبعةٌ وهم: المرَّارُ الفَقْعسي هذا ، والمرَّارُ العَدويّ ، والمرّارُ العجليّ ، والمرَّارُ الطّائيّ ، والمرّارُ الشَّيبانيّ ، والمرَّارُ الكلبيّ ، والمرّارُ الحرشيّ ، فهؤلاء سبعةٌ كلّ واحد منهم يسمى المرّار.

(٣) هذا البيتُ منْ شواهدِ ابنِ عقيل علىٰ ألفيةِ ابن مالك برقم (٢٩٣) ، والشّاهد في قوله: «البكري بشْر» حيثُ يتعيّنُ فيه أنْ يكونَ عَطْفَ بَيان علىٰ البكريّ ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ بدلاً منه ، إذْ لا يصحُّ التّقدير: أنا ابنُ التّارك بشْر.
ويكونُ بذلكَ إعراب بشر: معطوفٌ علىٰ البكريّ عَطْفَ بيان ، والمعطوفُ علىٰ المجرورِ مجرور مثله.
والبيت أيضاً من شواهد التصريح (٢/ ١٣٣) ، وشذور الذهب برقم (٥٦٦) ، وقطر الندى برقم (٤٠٠) ، وسيبويه (١/ ٩٣) ، وشرح المفصل (٣/ ٧٢) ، وخزانة الأدب (٢/ ١٩٣ و٣٦٤ و٣٨٣) ، وغير ذلك من كتب النحو واللغة.

وغَـادرَ مَـرْفقـاً والخَيْـلُ تَهْفُـو   بجنْـبِ الـرَّوْمِ مُخْتَبِـلاً صَـرِيْعـا[1]

ولكنَّ أبا مرهبَ الأسدي قالَ: إنَّما قَتَلَ بشْرَ بنَ عمرو عُميلْةُ بنُ المقْتَبِس أحدُ بني والبةَ ، وفي مصْداقِ ذلك تقولُ الخِرنقُ بنتُ بدر ترثي زوجها بشْرَ بنَ عمرو:

إنَّ بني الحصْنِ استحلَّت دماءَهم   بنـو أَسـدٍ حـارثُهـا ثـمّ وَالبَـه
هُمُ جَدعُوا الأَنْفَ الأَشمَّ فأوعَبوا   وجبُّـوا السَّنـامَ فـالتَحـوه وغـاربَـه
عُميلَـةُ بـوَّاهُ السِّنَـان بِكَفِّـه   عسىٰ أنْ تلاقيهِ منَ الدَّهر نائبَه[2]

* لقد كانَ مَقتلُ بشْرٍ وابنِها علقمةَ أليماً علىٰ الخِرنق ، إذ أقضَّ ذلك مضجعَها ، وأرَّقَها وجعلَها تنشدُ القَصَائِد والنَّفثاتِ في رثائِهما ، وتذكرُ شمائِلهما ، ومنْ ذلك قولُها منْ قصيدةٍ جميلةٍ:

أعـاذِلَتـي علـىٰ رزْءٍ أَفيقـي   قَـدْ أَشْـرَقتَنِـي بـالعَـذلِ ريقـي
أَلا أَقْسَمـتُ آسـىٰ بَعْـد بشْـرٍ   علـىٰ حـيٍّ يمـوتُ ولا صَـديـقِ
وَبَعْـدَ الخيـرِ علقمـةَ بـنِ بشْـرٍ   إذا نَـزَتِ النُّفـوسُ إلـىٰ الحلـوقِ
وبَعْـد بنـي ضُبيعـةَ حـولَ بشْـرٍ   كمـا مـا الجـذوعُ مـنَ الحـريـقِ

---

(١) انظر: الحماسةَ البصريةَ (١/ ١٨ و١٩) ، وخزانةَ الأدب (٢/ ١٩٤) ، و«مَرْفق»: رجلٌ منْ ساداتِ بكْر بنِ وائل ، كانَ مع بشْر يومئذ فأُسِرَ ، فافتدىٰ نَفْسَه بثلاثِمئةِ بعير. و«الرَّوم»: اسم موضع. و«مختَبل»: مأسور.

(٢) انظر ديوانها (ص٣٤ و٣٥) طبعة دار صادر ، و(ص٢٥ و٢٦) طبعة مصر ، ولسان العرب (٧/ ٥٩) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص٢١٥). و«حَارِث ووالبة» حيَّان منْ بني أَسَد. و«جَدَع»: قَطْعٌ للأنْفِ بخاصّة ، والمعنىٰ: هم قطعوا الآنافَ العاليةَ ، واستأصلوا الأسنمةَ وقشروها عنْ ظهورِها. هذا وقد وردت روايةُ البيت الثّاني في لسان العرب علىٰ النّحو الآتي:
«همو جَدعوا الأنفَ الأشمَّ عويصه». . وعويص الأَنْف: ما حوله.
و«عُميلة»: هو عميلةُ بنُ المقتبس الوالبيّ الذي ذكَره أبو مرهب الأسديّ أنَّه هو الذي قَتَل بشْراً.
و«بوّاه السّنان»: قَصَده بالسّنان.

منّـتْ لهـم بِـوَالبـةَ المنَـايـا		بجَنْـبِ قُـلابَ للحيْـنِ المَسُـوقِ
فَكَـمْ بِقُـلاَب مـنْ أوْصَـال خِـرْقٍ		أخـي ثقـةٍ وجمجمـةٍ فَليـقِ
نـدامـىٰ للمُلُـوكِ إذَا لَقُـوهـم		حُبُـوا وسُقُـوا بكـأسِهـم الـرَّحيـقِ

* ومنْ ثمَّ ذكرتِ الخِرنقُ ما صنعَ الأعداء بزوجِها وابنها وسراةِ بني أسد بَعْد قَتْلِهم ، فَقَد قطعُوا أنوفَهم واستأصلوها فقالت :

هـمُ جَـدعُـوا الأُنـوفَ وأوعَبُـوهـا		فمـا يَنْسـاغُ لـي مـنْ بَعْـدُ ريقـي

* وكانَ لهذه الفِعْلَةِ النّكراء أثرُها الكبيرُ في نساءِ بني قومها ، فلقد بكينَ وأكْثَرنَ البُكاءَ حتى مَسحَ البكاءُ الكُحْلَ من أعينهنَّ لكثرةِ ما سال منْ عيونِ الدَّمعِ المدرارِ علىٰ القَتْلىٰ ، وفي هذا تقولُ الخِرنقُ :

وَبيـضٍ قَـدْ قَعَـدنَ وكـلُّ كُحْـلٍ		بـأَعْيِنِهـنَّ أصْبَـحَ لا يليـقُ[1]

* وفي موضعٍ آخرَ نَجدُ الخِرنقَ ترثي زوجَها بشْراً ، وتذكرُ أنَّ قومَها قد أخذوا ثأرهم منْ بني أسدٍ ، واشتَفَتْ صدورهم ، وخصُوصاً عندما قتَلوا سَبْعَ بنَ حَسْحَاس الذي أَسَرِ زوجَها وقتَله بعد أنْ أَرْدَاه عُميلةُ بنُ المقتبس من علىٰ ظَهْرِ حِصَانه ، وفي هذا تقول:

أَلاَ لا تَفْخَـرنْ أَسَـدٌ علينَـا		بيـومٍ كـانَ حَيْنـاً فـي الكتَـابِ
فَقَـدْ قُطِعَـتْ رؤوسٌ مـنْ قُعَيـنٍ		وقـد نُقِعَـتْ صـدورٌ مـنْ شَـرابِ

---

(١) انظر ديوانها (ص٢٦ ـ ٢٨) طبعة مصر ، و(ص٣٦ ـ ٣٨) طبعة دار صادر. وانظر: أشعار النساء للمرزباني (ص ١٠٨) ، وسمط اللآلي (٢/ ٧٨٠) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٢١٢ و٢١٣) ، وأعلام النساء (١/ ٣٤٩) ، وخزانة الأدب (٢/ ٣٠٨) ، والحماسة البصرية وغيرها. وفي البيت الأخير إقواء.
و«نزت»: وثبت. و«الحلوق» مفردها الحلق ، مجرى الطعام. و«مُنَت»: قُدِّرَتْ ، وأصلها: مُنيت ، أي قدرت المنايا لهم ، فحذفت الياء ، و«والبة»: اسم رجل. و«الخرق»: الجواد الذي يتخرّق بالمعروف ، و«الأوصال»: الأعضاء. و«حُبُوا»: نالوا العطية. و«أوعبوا»: استأصلوا. و«البيض»: كناية عن النساء العفيفات. و«لا يليق»: لا يلصق.

وأروينـا ابـنَ حسحـاسٍ فـأضحـىٰ تجـولُ بشلْـوهِ نُجُـسُ الـذِّئـابِ[1]

* وللخرنقِ مقطعاتٌ كثيرةٌ في رثاءِ زوجها ، ومنْ بدائعِ ما رثَتْ الخِرنقُ زوجَها بشْراً قولها :

أَلا ذَهَـبَ الحُـلاَّل فـي القَفَـراتِ ومَنْ يملأُ الجفْنَاتِ في الحجَراتِ

ومَنْ يُرجعُ الرُّمحَ الأصمَّ كعوبُهُ عليـهِ دمـاءُ القـومِ كـالشَّقِـراتِ[2]

* هذا وقد استطاعتِ الخِرنقُ أنْ تُسَجِّلَ مفاخِرَ زوجها وأولاده ، ومن قُتِل معه يومَ قُلاب في شعْرها ، وأنْ تَجْعلَهم أحدوثةً حلوةً في مجالسِ الكُرماء والكرامِ على مرِّ الأيَّامِ والأعوامِ ، فقد رثَتْهم بقصيدةٍ رائيةٍ حَفَلَتْ بها المصادرُ ، وحُفِظَت من قبَلِ كِبَارِ عُلماءِ اللغةِ علىٰ مدارِ التَّاريخ لما فيها منْ معانٍ جميلةٍ ، ووصْفٍ لقومها الكُرماء الذين ينحرونَ الجِمالَ للضُّيوف ، والذينَ يقاتِلون علىٰ أقدامِهم عند ضيقِ المُعْتَرك ، وهم مع هذا موصوفُون بالعفّة في القولِ والفعْل ، بالإضافةِ إلىٰ مناقبَ أخرىٰ سنقرؤها في رثائِها لزوجها وأهْلِها إذ تقول :

---

(١) ديوانها (ص٤٣) طبعة دار صادر. و«الحَيْنُ» : الهلاك ، وتريد الخرنق : بأنَّه لا يجوزُ لبني أسَد أنْ تفخرَ علىٰ قومِها في يومِ قُلاب ، لأنَّ ذلك كانَ قضاءً محتوماً منْ عندِ اللهِ. و«قُعين» : بطنٌ من بني أسَد لاقوا حتَفْهم علىٰ يَدِ بني ضُبيعة قوم الخرنق. و«أردينا» : أهلكنا. و«شِلْوه» : الشّلو : الجسدُ من كلّ شيء. «نُجُسُ الذّئاب» : القذرة منها.

(٢) ديوانها (ص٤٥) ، وشاعرات العرب (ص٩٥) ، ومعجم الأديباتِ الشواعر (ص ٢١٥) ، و«الحلاّل» : النّازلون بعد رحلة ، مفردها : حالٌّ. و«القفرات» : مفردها قَفْرة : وهي الخلاءُ منَ الأرضِ لا ماءَ فيه ولا ناس ولا كلأ. و«الجفنات» : سكَّنَتِ الفَاءَ للضّرورةِ الشّعرية ، وأصلُها الفَتْح ، ومفردها : الجفنة : وهي طبَقُ الطَّعام. و«الحجرات» : مفردها : حَجرة : وهي السَّنة الشّديدة المُجدبة القليلة المطر. و«الأصمّ» : الصّلب. و«الكعب» : عقد الرّمح. و«الشّقرات» : الشّقر : شقائق النعمان الواحدة شقرة والجمع شقر.

لا يُبْعَدَنْ قُومي الذينَ هُمُ ... سُمُّ العُدَاة وآفَةُ الجزْرِ[1]
النَّازِلونَ بكلِّ مُعْتَرَكٍ ... والطَّيِّبون مَعَاقِدَ الأُزُرِ[1]
الضَّاربونَ بحومةٍ نَزَلَتْ ... والطَّاعِنُون بأَذْرُعٍ شُعْرِ
إنْ يشْرَبُوا يهُبوا وإنْ يَدعُوا ... يَتَواعَظُوا عَنْ مَنْطِقِ الهجْرِ
قَومٌ إذا رَكبُوا سَمِعْتَ لهم ... لغطاً مِنَ التَّأييهِ والزّجرِ[2]
والخَالِطونَ نَحيتَهم بنضَارِهم ... وذوي الغِنىٰ منهم بذي فَقْرِ[3]

---

(١) «لا يُبْعدَن»: معناها: لا يهلكن، وهذا دعاءٌ جاء بلفظِ النّهي، وكانتِ العربُ تدلُّ به عند النّدبة علىٰ مَسَاسِ الحاجةِ إلى حياةِ المندوبِ وقلّة الاستغناء عنه، ومنْ عادَةِ العرب إذا أرادوا الدُّعاء لشخصٍ يقولونَ له: لاَ تبعد أو لا يبعد، وإذا أرادوا الدعاء عليه قالوا: بَعدت، أو بُعْداً لك.
وفي القُرآن العظيم: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]. و«العُداة»: جَمعْ عَاد ـ بمعنى العدو ـ أي أنَّهم بمنزلةِ السُّم للأعداء يقتلونَهم بلا رحمةٍ. و«الجُزرُ»: جَمْعُ جزور: وهي النَّاقة تُذْبح، وقد وصفتِ الخرنقُ أهلَها بالإقدام والكرم.
ـ وهذان البيتان منْ قولِ الخِرنق من شواهدِ النّحاة وأهلِ اللغة في كتُبِهم، فالبيتان منْ شواهدِ الكتاب لسيبويه (١/ ١٤٠ و٢٤٦ و٢٤٩ و٢٨٨)، والجمل للزّجاجي (ص ٨٢)، وأمالي ابن الشّجري (١/ ٢٤٤)، والإنصاف (١/ ٤٦٨) و(٢/ ٧٤٣)، وخزانة الأدب (١/ ٣٨)، وهمع الهوامع (٢/ ١١٩)، وانظر أمالي المرتضىٰ (١/ ٢٠٥).
ـ ويمكنْ أنْ نعربَ قولَها: «النّازلون»: صفة لـ «قومي»، أو خبراً لمبتدأ محذوف وجوباً تقديره: همُ النَّازلون.
وعلىٰ روايةِ «النّازلين»: فهو مفعولٌ بهِ لِفعلٍ محذوف وجوباً تقديره: أمدحُ، أو: أعني النازلين.
ـ إذاً: فموطنُ الشَّاهد: «النّازلون: الطيّبون»، ووجهُ الاستشهاد: مجيء كلّ منَ النازلون والطّيبون: صفة لا يتوقف عليها تعيين الموصوف، ولهذا يجوزُ فيهما الاتّباع والقَطع مثلما بيّنا في الإعراب.
ومعنى «معاقد الأزر»: تريد أنّهم أعفّاء الفروج، و«الأُزُر»: جَمْعُ إزار، الثوب.
(٢) «التّأييه»: التّصويت، أو الدّعاء، يقال: أيّهت بالرّجل، إذا دعوته.
(٣) «النّحيت»: الدَّخيل في القوم. (لسان العرب ٢/ ٩٨). و«النّضار»: الخالص النّسب. (لسان العرب ٢/ ٩٨).
=

هـذَا ثَنـائـي مـا بقيـتُ لهـم فـإذَا هَلَكْـتُ أجنَّنـي قَبْـري[1]

* وبعد ، فهل خلَّدتِ الخِرنقُ برثائِها أخَاها طرفةَ وقومَها؟ أم أنَّها ظلتْ هي خالدةٌ في ذاكرةِ الأيَّام؟!

= والمعنىٰ أنّهم قومٌ كرامٌ ، لم يفرّقوا بينَ الدّخيلِ والأصيلِ ، ولا بينَ الغنيّ والفقير ، فنالَ الدَّخيلُ ما عندَ الأصيل ، وشارَك ذو الفَقْر والمدقعةِ الغنيَّ في مَالِه ، وهو أعزّ شيءٍ عندَ الإنسان ، لأنّه أبىٰ أنْ يستأثِرَ به ، وجاره فقيرٌ ليسَ عنده ما يسدُّ حاجَتَه.

ـ وهذه الصّورُ كثيرةٌ وجميلةٌ في الأَدبِ الجاهليّ ، قال حسّانُ بنُ ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

والخـالطيـنَ غنيَّهـم بفقيـرِهـم والمنعميـنَ علـىٰ الفقيـرِ المـرمـلِ

وقال الأعشىٰ:

وأهـانَ صـالـحَ مـالِـهِ لفقيـرِهـا وآسـىٰ وأَصْلـح بينَهـا وسعـىٰ لهـا

وقال عمرو بنُ الإطنابة:

والخـالطيـن حليفَهـم بصـريحهـم والبـاذليـنَ عطـاءَهـم للسَّـائِـلِ

وقال حاتم الطائي:

والخـالطيـنَ نحيتُهـم بنُضَـارهـم وذوي الغِنـىٰ منْهـم بـذي الفَقْـر

وقال غيره:

الخـالطيـنَ فقيـرهـم بغنيّهـم حتـى يعـودَ فقيـرُهـم كـالكـافـي

(١) «أجنني قبري»: انقطع ثنائي ، أو سترني قبري. والمعنى: إنني إذا مت وسترني قبري ، فإن ثنائي باق عليهم وشعري سائر فيهم بين الناس ، وانظر الأبيات في ديوانها (ص٣٩ ـ ٤٢) طبعة دار صادر ، وأشعار النساء للمرزباني (ص١٠٦) ، ولسان العرب (٢/ ٩٨) وسمط اللآلي (١/ ٥٤٨) ، وشاعرات العرب (ص ٩٣ و٩٤) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص٢١٣ و٢١٤) وغيرها كثير.

ـ ومنَ المطربِ والجميلِ في الأخبارِ والأسْمارِ ، وفي أخبارِ الخِرنقِ وشِعْرها ، ما وَرَدَ أنّه ذُكِرَ شِعْرُ الخرنقِ عند عبد الرحمن بن أبي نعيم:

لا يبعـدنْ قـومـي الـذيـن هـمُ سـمّ العُـداةِ وآفـةُ الجـزرِ

النّـازليـن بكـلِّ معتـرِكِ والطيبـون معـاقِـدَ الأُزُرِ

فقال: ليسَ أولئك: أولئكَ المدفونونَ في بيتِ عائشةَ ، يعني النَّبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ (أشعار النساء للمرزباني ص ١٠٦).

* وفي الحقيقةِ ، ظلّت الخِرنَقُ منْ شواعِرِ النِّساء ، ولئن كانَ معظمُ شِعْرها في رِثاء[1] زوجها وذويها ، لقد كانَ شِعْراً جميلاً يعبِّرُ عنْ عواطِفها

(١) يظهر أنَّ المرأةَ الراثيةَ بشكلٍ عام ، والخرنقَ بشكلٍ خاص اقتصرتْ بفنّها الشّعْري على الرّثاءِ ، وتفنَّنت به تفنُّنَ مَنْ يعشقُ الإقْدامَ والشّجاعة.
ـ ومنَ الظَّواهِرِ الاجتماعيةِ في حياةِ البشَرِ أنَّ النِّساءَ أسرعُ تأثّراً منَ الرّجالِ ، حينَ يكونُ فقدان العزيز والأثير ، وفي مجال البداوة هنَّ أظهر تأثراً من الرجال ، لأن الحياة البدوية تقومُ عند الرجالِ علىٰ البَسالةِ والشّجاعةِ والإقْدام ، واحتمالِ المكارِه والتَّجمل بالصَّبر ، وعندما تُصَابُ القبيلةُ بـفَـقْد بَطَلٍ أو سيّدٍ كريمٍ ، تكونُ المرأةُ إذ ذاك أقلَّ تحمّلاً للمُصَاب من الرجلِ ، لأنها بطبيعتها أسرع انفعالاً منه ، فإذا أضفنا إلى هذا أنّ الرّجل يجابه مشقات الحياة ، وهو مسؤولٌ عمن يعولُ منْ نساء وبنين ، رأيناه يحتملُ العبءَ ويصبرُ ، ويحملُ الدمَ الذي يلهيهِ عن الاستسلام للحزنِ والعويلِ ، وراحَ يفكّر ويسعىٰ للأخْذِ بالثّأر ، فإظهارُ الحزنِ ليس لائقاً برجالِ القبيلة ، بل كان لائقاً بنسائِها وخصوصاً الأخوات ، ومنْ هذا الباب أبدعْنَ في الرّثاء وصار أبرزَ فنّ من فنونهنّ الأدبية ، كما لاحظنا في شِعْر الخرنق.
ـ واشتهارُ النِّساء بالرّثاءِ لا شكَ أنّه كانَ ظاهرةً اجتماعيةً بارزةً في عَصْر الخِرنق بنتِ بدرٍ ، لأنَّه كان عَصْر بداوةٍ ، ولعلّ الشّعرَ قد انبثقَ عندهنَّ حينما كثُرتْ مصائبهنّ ، ولهذا غلَبَ هذا الفنّ الشّعري على النّساء ، وثمّة ناحية أخرىٰ تجعلُنا نقرُّ بأنَّ النِّساء قد حلقن في هذا المجالِ ، ما نراهُ من حياةِ المرأةِ في العَصْر الجاهلي ، حيث كانت الحياةُ قاسيةً شديدةً ، ولكنّها كانتْ صافيةً ، فقد احتفظت الحياةُ الجاهليةُ بالمثُل العليا ، وحرصتْ كلّ قبيلة علىٰ التّعصُّب لتُراثها ، وكثرة الغزواتِ والغاراتِ التي تسفرُ عن القتلىٰ وفقدان الرّجال ، كل هذا جعلَ المرأةَ كثيرةَ الرثاءِ حيث تفقدُ في كلّ برهةٍ منَ الزمنِ عزيزاً أو أخاً أو قريباً ، ولهذا كانَ التصاقُ الرثاءِ بالمرأةِ أكثر من غيرهِ من فنون الشّعرِ ، وكان من المتوقّع أنْ يكثرَ الرثاءُ في العَصْر الجاهلي ، وأنْ يصدرَ عن النّساء ، استجابةً لموجاتِ الحزن المتتابعةِ المصحوبةِ بفقدانِ عزيزٍ أو بطلٍ أو قريب.
ـ وهكذا آثرتِ الحياةُ الجاهليةُ المرأةَ العربيةَ بالرّثاء ، ووكلت لها أنْ تنهضَ بهِ في ميدانِ الأدب ، ويظهرُ أنَّ استئثارَ النّساءِ بالرثاء كان أمراً قد تواضعَ المجتمعُ الجاهلي علىٰ الأخذ به حتى أصبح تقليداً ، عملتِ الحياةُ على استقرارهِ متجاوبةً مع الطبيعة الجاهليةِ.

وأشجانِها ، وكان إحدىٰ الوثائق المهمةِ التي توضّحُ لنا بعضَ المعالِم في عَصْر الجاهليّة ، كما أنَّها تعطي صورةً صادقةً عن صوتِ المرأةِ الرَّاثية[1]

---

(١) كَانَ الرّثاءُ تقليداً عند المرأةِ العربيّةِ مرعياً ، لا تَنْسَاهُ ولا تهملُه ، يدلُّ علىٰ ذلكَ كثرةُ الشّاعرات الراثيات ، مستجيبةً لعواطفِها وانفعالِها بالمُصَابِ من ناحيةٍ ، ومؤديةً واجبَها في الميدان الأدبيّ من ناحيةٍ أخرىٰ ، فكأنّها كانتْ تقومُ بما كانَ يقومُ به الشّاعر بواجبِ نَشْر مفاخرِ القبيلةِ ، فكما كانَ الشّاعرُ لسانَ القبيلةِ السِّياسي ، كانتِ الشَّاعرةُ الراثيةُ لِسَانَ القبيلةِ الباكي ، كلٌّ منهما له وظيفتُه.

ـ وكان الفارسُ العربي آنذاك يذهبُ إلىٰ ميدانِ الوغىٰ ، فإمّا حياةٌ وإمّا مماتٌ ، فإنْ ماتَ يعنيهِ أنْ يُنَاحَ عليه ويُرثىٰ ، رغبةً في بقاءِ ذِكْرِه وفروسيتِه بعدَ الموتِ ، كما كانَ مِلءَ الأسماعِ وهو حيٌّ.

ـ إنَّ الطموحَ إلىٰ الخلودِ رغبةٌ دفينةٌ في النفوس ، وكانَ رثاءُ النساءِ للكرامِ من قومهنّ تقليداً يصوّره طرفةُ بنُ العبد أخو ـ الخِرنق ـ في معلقتهِ الدّالية الشّهيرةِ حيث يقول مخاطباً ابنةَ أخيه:

فـإن مــتُّ فـانعينـي بمـا أنـا أهلُـه وشقّـي علـيَّ الجيـبَ يـا بنـةَ مَعْبَـدِ

ولا تجعلينـي كـامـرىءٍ ليـسَ همُّـه كهمّـي ولا يُغنـي غنَـائـي ومَشْهَـدي

فطرفةُ يخاطبُ ابنةَ أخيهِ كيما تنوحَ عليه ، ويطلبُ منها أنْ تبكيه بعد موتهِ ، وأنْ تشقَّ ثوبَها إعلاناً عن شدّةِ انفعالها بموتِهِ وفَقْدِه ، شأنُها في ذلك شأْن غيرِها منَ النّساءِ اللاتي يذهبُ بعقولهن وقْع المُصَاب ، وأرادَ طرفةُ أَنْ يصحبَ شقَّ جيبها رثاءٌ يكونُ صدىً لما لشخصهِ منْ مكانةٍ بينَ الأبطالِ ، ولما عُرِفَ عنْ شجاعتهِ بينَ الحروبِ ، وأكّد علىٰ ابنةِ أخيهِ ألا تهمل هذا الأَمْر لأنَّه ليسَ رجلاً هَملاً لا يُرثى ، ويُتْرك كما يُترَكُ الرجالُ الذين لا غَنَاء فيهم.

ـ لقد كانَ الرثاءُ في الجاهلية يعتمدُ على الانفعالِ بالتجربةِ الإنسانيةِ وتصويرِ الإحساس بالفجيعةِ ، حيثُ كانتِ النسوةُ الراثياتُ يذكُرنَ مَنْ فُقِدَ لهنَّ برثاء مقرون بالبكاءِ والنّوحِ ، وينبعُ ذلك كلّه عن عاطفةٍ حرّى صادقةٍ ، وكانَ الرثاءُ يؤدّي وظيفةً اجتماعيةً مهمةً في القبيلةِ العربية في العَصْرِ الجاهلي ، وكانت الراثيةُ حينما تقولُ شِعْرها كأنَّه صادرٌ عن الجماعةِ ، ولهذا حفظتْ لنا ذاكرةُ التّاريخ عدداً من القصائدِ والمقطعاتِ في هذا الميدان.

ـ إنَّ الخرنقَ بنتَ بدر ، والخنساءَ ، وغيرهما منْ شواعرِ الجاهلية كُنَّ يضربنَ علىٰ أوتارِ الشّعر في الرّثاء ، فيحركْنَ أوتارَ القُلوب ، ويحيينَ العواطفَ في الصُّدور ، =

الذي وصلنا عَبْرَ القرونِ الطَّويلةِ ، وهو ما يزالُ نديّاً ناعِماً يهمسُ في حَنَايا القُلوب ويندّي النُّفوس.

* لقد كانَ للمرأةِ العربيّةِ دورُها الفعّالُ في الحياةِ الجاهليّةِ ، دورٌ له أثرهُ الخطيرُ في النُّفوسِ ، ومنه استمدَّتْ سلطانَها ، واستمدَّت مكانَتَها ، وإذا أردْنَا أنْ نتعرَّفَ ملامحَ المرأةِ وتأثيرها في مجتمعِها ، علينا أنْ ننظرَ إلىٰ المرأةِ منْ خلالِ معلَّقة عمرو بنِ كلثوم الذي يقول:

عَلَىٰ آثارِنَا بِيضٌ كِرامٌ	نُحاذِرُ أنْ تُفَارَقَ أو تهونَا
ظَعائِنَ منْ بني جُشَم بن بِكْر	خَلَطْنَ بمَيْسَمٍ حَسَباً ودينا
أَخَذْنَ علىٰ بُعُولتهنَّ عَهْداً	إذا لاقُوا فوارسَ مُعْلِمينَا
لَيَسْتلِبُنَّ أبداناً وبيضاً	وأَسْرىٰ في الحديد مقرنينا
إذا مَا رُحْنَ يَمْشينَ الهُوينا	كَمَا اضطربتْ مُتُون الشَّارِبينا
يَقُتْنَ جيادَنَا ويَقلْنَ لَسْتُم	بُعُولَتَنَا إذا لَمْ تمنعُونا

* إنَّ المرأةَ كما يصوّرها عمرو بنُ كلثوم هي التي تقفُ وراءَ الرَّجُلِ في القتالِ تؤدّي هدفَيْن اثنين: حثُّ الرّجالِ علىٰ القتالِ حتى يبقينَ بمنأى عنِ الأَسْرِ ، وإطعامُ الخيلِ ، ويبيّنُ أَنَّهنَّ قبل أنْ يذهبنَ تعاهدنَ مع الرّجال على أنْ يكُونوا أبطالاً في حومةِ الميدان ، يأسرونَ منَ الأعداءِ ، ويأتون بالأسرىٰ مصفّدين في الحديد ، فكأنَّ المرأةَ عَصْر ذاك كانَ مهمتُها رفْعَ الروحِ المعنوية عند الفرسانِ ، وخَلْقَ جوٍّ مثيرِ كيلا يفرَّ الأبطالُ من حومةِ الميدانِ ، وتمشي النّساءُ خَلْفَ الفُرسانِ مشية العزَّةِ والفَخَار ، يُطْعمن الجِياد ، ويقُلْنَ للفُرسانِ: لَسْتُم أزواجَنا إنْ لم تمنعونَا مِنْ أعدائِنا.

* وإذا عُدْنا إلىٰ الرثاءِ وجدنا المرأةَ تشيرُ إلى ذلك كُلِّه ، وتؤدّي رسالةً طيبةً للقبيلةِ من حيثُ النَّفثاتِ التي ترسلُها والعبراتِ التي تذرفُها ، وهي لسانُ

= حيث كانتْ أنغامُهن الحزينةُ شديدةَ الأثرِ في النفوس ، لأنَّها تغذّي الأحاسيسَ المرهفةَ بصدىٰ الكلماتِ الآسرةِ ، والنغمات المثيرة.

الجماعة النّاطق ، وقلبُها النَّابض ، وهكذا كانتْ شاعرتُنا الخِرنقُ بنتُ بدر لسانَ قبيلتها.

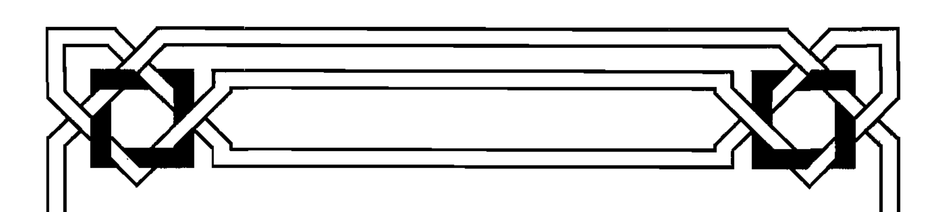
* بقي أن نعلمَ أنَّ الخِرنقَ ماتتْ قَبْل الهجرةِ بحوالي نصف قرنٍ منَ الزَّمن[1] ، لكنَّ ذكْراها ما تزالُ موجودةً بين نساءِ العربِ ، وأشعارها محفوظةً تَدارَسَها العلماءُ والأدباءُ والنُّحاةُ قديماً وحديثاً.

* وتبقىٰ الخرنقُ سيّدةً منْ سيداتِ شَاعِراتِ الرّثاء قَبْل الخَنْساء بمدّةٍ منَ الزَّمن ، وستبقىٰ إحدىٰ النِّساء في تاريخنا الوضيء.

* * *

---

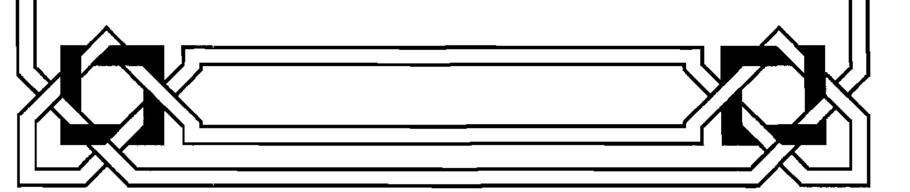
(١) حدد بعض الرواة وفاتها في التاريخ الميلادي فقال: ماتت نحو ٥٧٠ ميلادية. ورجح فؤاد سزكين في كتابه: تاريخ التراث العربي ، أنها ولدت بين عامي (٥٢٠ ـ ٥٣٠م) وربما كان موتها نحو سنة (٦٠٠م). (تاريخ التراث العربي ـ المجلد الثاني ـ الجزء الثاني ص ٣٤٩).



(٦)

رملة بنت عبد الله

* هي أخت طلحة الطلحات ، الكريم المفضال .
* ذكرها عمر بن أبي ربيعة في شعره .
* امرأة حصان ، شريفة ، جميلة الصفات ، طيبة الأصول .



أخْتُ الأَجْـوَادِ:

* هذهِ المرأةُ عَرَفَ التَّاريخُ لأُسْرَتِها مكانَتَها ، فإذا ذُكِرَ الأَجْوادُ ذُكِرَ أَخوها ، وإذا ذُكرتْ هيَ قيل: أختُ طلحة الطَّلحاتِ ، وأختُ عائشةَ أمِّ عقيدِ النَّدىٰ.

* هذهِ المرأةُ هيَ رملةُ بنتُ عبدِ اللهِ بنِ خَلَف الخزاعيّة(1) ، أختُ طلحة بن عبدِ اللهِ الخزاعيّ المعروف بلقَبِ طلحة الطَّلحات(2).

* ورملةُ هذه إحدىٰ ضَحايا شِعْرِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ المخزوميّ ، وإحدىٰ النِّساءِ الشَّريفاتِ اللاتي نالَتْهُنَّ أَلْسِنَةُ أَشْعَارِ عمرَ بنِ أبي ربيعة ، وإحدىٰ

---

(1) زهر الآداب (1/ 249) ، ونوادر المخطوطات (1/ 72) ، والأغاني (1/ 217 ـ 221) و(11/ 190 ـ 192) ، وديوان عمر بن أبي ربيعة في مواضع كثيرة ، وتحفة العروس للتجاني (ص196 و287 و339 و345 و349) ، وغيرها.

(2) طلحةُ بنُ عبدِ اللهِ بن خَلَف بنِ أسْعَدَ الخزاعيّ ، المعروفُ بطلحة الطَّلحات البصريّ ، أبو المطرِّف أحدُ الأجوادِ المشهورينَ ، وكانَ مع عائشةَ أمِّ المؤمنينَ يومَ الجَمَل.
قالَ الأصمعيُّ: الطَّلحاتُ المعروفونَ بالكرَمِ:
* طلحةُ بنُ عُبيد الله التَّيمي ، وهو الفيَّاض ـ رضي الله عنه ـ.
* طلحةُ بنُ عمر بنِ عبيد الله بنِ مَعْمَر وهو طلحةُ الجوَاد.
* طلحةُ بنُ عبدِ الله بن عِوف الزّهريّ وهو طلحةُ النّدى.
* طلحةُ بنُ الحسن بنِ عليّ وهو طلحةُ الخير.
* وطلحةُ بنُ عبد الله بنِ خلف الخزاعيّ ، وهو طلحة الطَّلحات ، سُمّي بذلك لأنَّه كان أجودهم ، وقيلَ في سببِ تسميتهِ غير ذلكِ. وقال خليفةُ: وفي سَنة (63 هـ) بعث سَلَمُ بنُ زياد طلحةَ بنَ عبد اللهِ بنِ خَلَفَ الخزاعي وَالياً على سِجْستَان ، فأقامَ بها طلحةُ إلى أنْ ماتَ ـ رحمه الله ـ.
(تهذيب التهذيب 4/ 110) ترجمة رقم (3103).

اللواتي طارتْ شهرتُهنَّ في البلادِ ، كما طارَ شعرُ عمرَ في سماءِ الشِّعْر في عَصْر بني أُميَّةَ .

* وأَمّا أخُوها طلحةُ الطَّلحات ، فهو أَحدُ أَجْوادِ أَهْل الإسلام الذين حَفِلَ بهم تاريخُ الإسلامِ ، وروىٰ مآثرهمْ لترويَ أخبارُهم وجْدانَ محبّي الجُود .

* فقد كانَ طلحةُ الطَّلحاتِ حليفَ النَّدىٰ ، ومعْقِدَ الجودِ ، وواسِطَة عقْدِ السَّخَاء ، وكانَ أجودَ أَهْلِ البَصْرةِ غيرَ مُدافع ، وكان مُمَدَّحاً غَمْرَ العَطَاءِ ، وهو واحِدٌ منْ أجوادِ أَهْلِ الإسلامِ ، وعددُهم أَحَدَ عشَرَ رجُلاً كانُوا في عَصْرٍ واحدٍ ، لم يكنْ قَبْلَهُم ولا بعدهم مثْلَهم .

* فأجوادُ[1] الحجازِ ثلاثةٌ في عَصْرٍ واحدٍ وهم : عُبَيدُ الله بنُ العبَّاسِ ، وعبدُ اللهِ بنُ جَعْفَر ، وسعيدُ بنُ العَاصِ .

* وأجوادُ البَصْرةِ خَمْسَةٌ في عَصْرٍ واحدٍ ، وهم عبدُ اللهِ بنُ عامر بن كُريز ، وعُبيد اللهِ بنُ أبي بكْرةَ مولىٰ رسول الله ﷺ ، ومسلمُ بنُ زياد ، وعُبيدُ اللهِ بنُ مَعْمر القرشيّ ثمّ التَّيميّ ، وطلحة الطَّلحاتِ؛ وله يقولُ عُبيدُ اللهِ ابنُ قَيْس الرُّقيّات يرثيْهِ ، وماتَ بِسِجِسْتان[2] وهو وَالٍ عَلَيْها :

---

(١) الحديثُ عنِ الجودِ ممتعٌ وشَائِقٌ ، قالَ الرَّاغبُ الأصفهاني : مِنْ شَرفِ السَّخاء والجود أنَّ اللهَ قرنَ اسْمَه بالإيمانِ ، ووصَفَ أَهْلَه بالفَلاح ، والفلاحُ أجمعُ لِسَعادة الدَّارَيْن ، وحقَّ للجودِ أنْ يقترنَ بالإيمانِ ، فلا شيءُ أخصُّ منه به ، ولا أشدُّ مجانسةً له ، فمن صفةِ المؤمن انشراحُ الصَّدرِ ، ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام : ١٢٥] وهما منْ صفةِ الجوادِ والبخيلِ ، لأنَّ الجوادَ يُوصَفُ بسعةِ الصّدر ، والبخيل بضيقه .

(٢) «سِجِسْتَان» : ناحيةٌ كبيرةٌ ، وولايةٌ واسعةٌ جنوبي هَراة ، وإليها يُنْسَبُ أبو داود السّجستاني ، ويُقال لسجستان : سِجْز ، ويُقال في النِّسبةِ إليها : سِجزيّ . وقد أغرقَ الشُّعراءُ في مَدْحها وذمّها ، وقد ذمَّها بعضُ الشُّعراء في السَّابق فقال :

يا سِجستانَ قدْ بلونَاك دَهْراً ... في حَراميك منْ كِلا طرفَيْكِ
أنتِ لولا الأميرُ فيكِ لقُلْنا ... لعنَ اللهُ مَنْ يصيرُ إليكِ

وذمّها آخر فقال : =

نَضَّـــرَ اللهُ أَعْظُمـــاً دفنُـــوهَـــا بسِجستـــانَ طلحـــةَ الطَّلحـــاتِ[1]

* وأجْوادُ أهْلِ الكوفةِ ثلاثةٌ في عَصْرٍ وَاحِدٍ وهم: عتّابُ بنُ ورقاءَ الرِّياحيّ، وأسماءُ بنُ خارجةَ الفزاريّ، وعِكْرِمَةُ بنُ ربعي الفيّاض[2].

* في هذهِ الدَّوْحَةِ الباسِقَةِ اليَانِعَةِ، ومنْ هذهِ الأُسْرةِ الكريمةِ التي تنضحُ

= يـا سجِسْتـانَ لا سَقَتْـك السَّحـاب وعَـلاكِ الخـرابُ ثـمَّ اليبَـابُ
أنـتِ فـي القـرِّ غصّـةٌ واكتئـابٌ أنـتِ فـي الصَّيـف حيَّـةٌ وذبـابُ
وبـلاءٌ مـوكّـلٌ وَرِيَـاحٌ ورمـالٌ كـأنَّهـن سِقَـابُ
صَـاغَـكِ اللهُ لـلأنـامِ عَـذَابـاً وقضـىٰ أنْ يكـونَ فيـكِ عـذابُ
(معجم البلدان ٣/ ١٩٠ ـ ١٩٢) و(تهذيب الأسماء واللغات ٣/ ١٥١) مع الجمع والاختصار.

(١) وَهَذا البيتُ منْ قصيدةٍ عددَ أبياتِها (١٦ بيتاً) وهي في ديوانِه (ص٢٠ ـ ٢٢) ومنها:
كـانَ لا يحـرمُ الخليـلُ ولا يَعْـ ـتـلُّ بـالبخـلِ طَيِّـب العَـذاراتِ
سَبـطُ الكـفّ بـالنَّـوال إذا مـا كـانَ جُـودُ الخليـلِ حُسْـنَ العِـدَات
فلعَمـر الـذي اجتَبَـاكَ لقـد كـذْ ـتَ رحيـبَ الفنـاءِ سَهْـلَ المَبـاةِ
لـم أجـدْ بَعْـدكَ الأخـلاءَ إلاّ كثِمـادٍ منـزوحـةٍ وَقِـلاتِ
ومعنى: «سَبَط الكفَّ»: يبسُطها، ولا يقبضُها، فهو كريمٌ، لا تمرُّ الدراهمُ على كفّه إلا عابراتُ سبيل. و«المباة»: المباءة: سَهَّل الهمزة، وهي المكانُ الذي ينزلُ به القومُ، أي أنّه كان مُكرماً للضَّيفِ. و«الثّماد»: واحدها ثمد، وهو الماءُ القليل، و«القِلات»: واحدها قَلْتٌ، وهي النُّقرة تكونُ في الصَّخر تُجمَعُ فيها مياهُ الأمطار.
ومنَ الجديرِ بالذّكْرِ أنّه قَد مَدَح طلحةَ الطَّلحات سحبانُ وائل فصيحُ العربِ وبليغُها ـ وبه كان يُضْرَبُ المثلُ في البيَان والفَصاحة، فيقال: أفْصحُ منْ سَحْبان ـ مدحه فقال:
يـا طلـح أكـرمَ مَـنْ مَشَـىٰ حَسَبـاً وأعْطَـاهـم لِتَـالِـدْ
منْـك العطـاءُ فـأَعْطِنـي وعلـيَّ مـدحُـك فـي المشَـاهِـدْ
انظر: شرح مقامات الحريري (٢/ ٢٢١) و(خزانة الأدب ٣/ ٣٩٥) و(٤/ ٣٤٨)، و(مجمع الأمثال للميداني ١/ ١٦٧).

(٢) انظر: العقد الفريد (١/ ٢٠٢) بتحقيق محمد سعيد العريان.

بالجودِ ، انبثقتْ رملةُ بنتُ عبدِ اللهِ الخزاعيّةِ ، ولا ريْبَ أنْ نَشْأَتَها موشّاةٌ بالجود والكَرَمِ ، فبنُو خَلَفٍ هؤلاء قومٌ مُمدَّحونَ ، أكْثَرَ فيهم الشُّعراءُ المدائحَ ، ومنهم عُويفُ القَوفي ، وأبو حزابةَ الحنظليّ ، والمغيرة بنُ حَبْنَاء الذي يقولُ في بني خَلَف :

أَرىٰ النَّاسَ قد مَلُّوا الفَعَالَ ولا أَرىٰ ... بنـــي خَلَــفٍ إلاّ رواءَ المـــوَارِدِ

إذا نَفعُـوا عَـادُوا لِمَـنْ ينفعُـونَـه ... وكائِنٍ تُرىٰ منْ نافعٍ غيرِ عائدِ

إذا ما انْجَلتْ عنهم غمامةُ غَمْرةٍ ... منَ الموتِ أَجْلَتْ عن كرامٍ مَذَاودِ

تسودُ غطاريفُ الملوكِ مُلوكُهم ... وماجِدُهُمْ يَعْلُو علىٰ كلِّ ماجدِ[1]

* هذا ولا نعلمُ بوضوحٍ كيفَ كانتْ نشْأَةُ رملةَ[2] ، ولم يخبرْنَا تاريخُها بشيءٍ عن طفولتِها ، لكنَّ اسمَها قَفَزَ فجأةً في إحدىٰ أغزالِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ ، واحْتَلَّ مساحةً منْ شِعْرِهِ ، أمَّا كيفَ كان اللقاءُ بينَ عمرَ ورملةَ ، فهذا ممّا زعَمه الرُّواةُ واخترعَه الأخباريّون ، وفي الصَّفَحاتِ التَّوالي نقرأُ مصداقَ ذلك بإذنِ الله .

رَمْـلَـةُ فـي رِحْـلَـةِ الـحَـجِّ :

* يزعمُ رواةُ الأخبارِ أنَّ رملةَ الخزاعيَّةَ التقتْ عمرَ بنَ أبي ربيعة في الحجِّ ، وزعموا أنَّه في أَحَدِ مواسمِ الحجِّ ، وتعرَّضَ لها وحادَثَها وتغزَّل فيها[3] .

---

(١) الأغاني (١٣/ ٩٥) طبعة دار الكتب العلمية و(١٣/ ٨٤) طبعة مصر . ومعنى : «رِوَاء» : الرِّواء : بكسر الراء : من الرّي ، وبفتح الرّاء : تعني الماء العَذْب ، و«كائِن» : بمعنى : كم كثير . و«الغمرة» : الشدّة . و«المذاود» : الكثير الذَّود والدَّفْع عن العشيرة . و«الغطاريف» : جمع غطْريف وهو السَّيد الشَّريف .

(٢) لرملة أخت تدعى عائشة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية أخت طلحة الطلحات وهي أم عقيد الندى . (الأغاني ٣/ ٣٥٢) .

(٣) في كتابه «حبّ ابن أبي ربيعة وشعره» وضعَ الدكتور زكي مبارك عُنواناً برّاقاً هو : =

* ومنَ الجدير بالذّكْر أنَّ رمْلَةَ هذه كانتْ امرأةً حَصَاناً شريفةً ، جميلةَ الصِّفَات ، طيِّبَةَ الأُصولِ ، وكانتْ كغيرِها من بناتِ الأَشْراف ، قد نَشَأَتْ نشأةً صَالحةً ، واشتهرتْ بالمكانةِ في قومها ، كما اشتهرتْ بالجمَالِ ، إلاَّ أنَّ بعضَ واصفيْهَا زعمُوا أنَّها كانتْ عظيمةَ الأَنْفِ جَهْمَةَ الوَجْه . أمّا زوجها فهو عمرُ بنُ عُبيدِ الله بن مَعْمر التَّيميّ أحدُ الأَجْوادِ المعروفين ، وقد وَلَدَتْ لعمرَ ابنه طلحةَ وبه كانت تُكنىٰ ، وكان ابنُها طلحة هذا يسمّى طلحة الجود[1] . وكان عمرُ بنُ عبيد الله قد جَمَعَ بين رملةَ وبين عائشةَ بنتِ طلحةَ ومات عنهما .

* ويزعُمُ بعضُ الرّواةِ وأهْلِ الأَخْبارِ ، أنَّ رملةَ هذهِ كانتْ فتاةً تودُّ أنْ تعيشَ علىٰ طريقةِ الحضَارةِ المجلوبةِ ، وأنَّها كانَتْ ترفضُ القِيَم التي نشأَتْ عليها .

* ونجدُ صاحبَ كتابِ «عَصْر ابن أبي ربيعة» يزعمُ أنَّ شُبَّان الجيلِ الجديد الذي نَشَأَ في عَصْرِ عمر بن أبي ربيعة قد عَاشَ نِزَاعاً بينَ القديمِ والحديثِ ، نِزاعٌ بينَ الإسلامِ كما فَهِموه ، وبين الخروجِ عنه[2] .

* ويقفُ صاحبُ كتاب «عصر ابن أبي ربيعة» حَائِراً ، بل مُتَسائِلاً عمّا

= «أيام الطواف» ثمَّ قالَ: لا يدهشُك أيُّها القارىءُ أنْ نَضَعَ لعبثِ ابنَ أبي ربيعة هذا العنوانَ الغريبَ ، فقد كان يتّخذ أيّام الحجِّ موسماً للهو والمجُون ، وإنّه ليقول:

أيّهـا الـرائـحُ المجـدُّ ابتكَـارا ... قـد قضَـىٰ مـن تهَـامـةَ الأَوْطَـارا
مَـنْ يكـنْ قلبُـه صحيحـاً سليمـاً ... ففـؤادي بـالخَيْـف أمسـىٰ مُعَـارا
ليـتَ ذا الـدَّهـر كـانَ حتمـاً علينـا ... كـلَّ يـومَيْـن حجّـةً واعتمـارا

وقد أنشدَ ابنَ أبي عتيق هذا الشِّعر فقال له: اللهُ أرحمُ بعبادِهِ أنْ يجعلَ ما سألْتَه ليتمَّ لكَ فسْقَك .

(حب ابن أبي ربيعة ص ١٣٩).

(١) الأغاني (١١/ ١٩٠).

(٢) عصر ابن أبي ربيعة لجبرائيل جبور (١/ ٦٥).

يعتلجُ في نفوسِ الشَّاباتِ والشَّبانِ في عَصْر الطُّهْرِ والنَّقاءِ والشَّرفِ ، بل عَصْر خير القُرون ، ومن ثمَّ يطرحُ هذا السُّؤال بل التَّساؤل عن حياةِ الشَّباب في ذلك العَصْر ، وعنِ النَّوازع النَّفْسيّةِ التي تتجاذبهم ذات اليمينِ وذاتَ الشِّمال ، ومنَ العجيبِ أنَّه يجيبُ هو عمّا طرحَهُ منْ تساؤُلٍ ، فيقول :

وإذاً ، فما الذي يفعلُه أبناءُ هذا الجِيْلِ؟ وأيّ حياةٍ يَحْيَون؟!

هم لا يريدونَ أنْ يتركُوا الإسلامَ ، وهمُ لا يستطيعونَ في الوقتِ نَفْسِه أنْ يعتزلُوا هذه الحياةَ الجديدةَ ـ يقصدُ حياةَ العَبَثِ والغَزَلِ والمجون ـ ، وإذاً فليكونُوا مُسْلمينَ ، وليأخُذُوا منْ هذهِ الحياةِ الجديدةِ ما استطاعوا أنْ يأخذوا! فليقيموا هذه الفروضَ التي فرضَها الإسلامُ عليهم ، وليخرجُوا عنْ بعضِ تعاليمِها متىٰ فرغُوا منْ إقامتها[1]! وإنْ لم يستطيُعوا أنْ يجمعُوا بينَ هذهِ المتناقضاتِ ، فليقيموا من هذه الفَرائِضِ ما تيسَّرَ ، وليحيوا هذه الحياةَ الجديدةَ الطَّيِّبةَ ، وليعيشوا هذا العيشَ الجديدَ الرغدَ .

* والواقعُ أنَّ النِّزاع بينَ هذَيْن العاملَيْن ، كان في أكثرِ الأَحْيانِ سِجَالاً ، يومٌ لهذا ، ويومٌ لذلك ، أو إنْ شئتَ فَقُل كانَ النَّصْرُ فيه لِكِلا الطَّرفَيْن ، فالدَّولةُ مسلمةٌ ، والحياةُ في كثيرٍ منْ أقسامِها بعيدة عن مبادىءِ الإسلام .

* وهذا النَّفَر منَ الشَّبابِ الأرستقراطي مُسْلِمٌ ، وحياةُ الكثيرينَ مِنْ أَفْرادِهِ لا يقرُّها الإسلامُ ، هم يحجُّون ، ولكنَّهم بَعْدَ حجِّهم يلهُونَ ، وهم يصلُّون ، ولكنَّهم بعد صلاتِهم يَعْبثُون ، وهم يصومُون ، غير أنَّهم بعد صومِهم يشربونَ ويطْربُون ، وهكذا فَقَدْ كانَ الكثيرونَ منهم مسلمينَ بالاسمِ ، وخارجينَ علىٰ الإسلام بالفِعْل[2]!!!

---

(١) لاحظْ ـ عزيزي القارىء ـ هذه التّعميةَ وهذا التَّضليل وهذا الافتراء والتّمويه!!

(٢) عمر بن أبي ربيعة ، عصره (١/ ٦٥) لجبرائيل جبور . ونلاحظُ أنَّ هذا الكلامَ لا يصحُّ بحالٍ منَ الأحوالِ ، وأنَّ ما زعمهَ جبّور هذا لا ينسجمُ مع حياةِ الثُّلة الأولىٰ منْ عَصْرِ فجر الرّسالة ، فقد افترضَ جبُّور أشياءَ خارجة عنْ قانونِ المسلمين في =

* وعلىٰ هذا الأساسِ الهزيلِ الذي وضَعُه مؤلِّفِ كتاب عَصْر ابن أبي ربيعة ، يصلُ إلىٰ أنَّ الشَّابات في صَدْرِ الإسلامِ ، كُنَّ يأتينَ إلىٰ الحجِّ منْ أجْلِ الغزَلِ ، وكُنَّ يؤدّينَ حياتهنَّ في ظلِّ قيمٍ وتقاليدَ جديدةٍ لم تعرفْها الحياةُ منْ قَبْلُ.

* إذاً ، فمنَ النِّساء ـ بزعمِ جبرائيل جبور ـ مَنْ تأتي للحجِّ لممارسةِ اللهوِ بعيداً عنْ رقابَةِ الأَهْلِ ، وتقاليدِ المجتمعِ ، لا طَمَعاً في تأدِيَةِ المناسِكِ.

* وكأنَّي بهذا وأمثالِهِ ينظرونَ إلىٰ قَولِ عمرَ بن أبي ربيعة وإلىٰ تخيّلاتِهِ في إحدىٰ مزاعِمه التي صَوَّرَ فيها المرأةَ التي تُعْلِنُ بأَنَّها لم تأتِ إلىٰ الحجِّ إلاّ منْ أَجْلِهِ ، وأنَّه لولا وجودُه لما كَلَّفَتْ نفسَها وعْثَاءِ السَّفرِ ، وكآبةَ المنظَرِ ، ومشقَّةَ الطَّريقِ:

أومَـتْ بعينَيها مِـنَ الهَـودَجِ ... لـولاكَ فـي ذَا العَـامِ لـمْ أَحجُـجِ
أنْـتَ إلـىٰ مكـةَ أَخْـرجْتَنِـي ... ولـو تـركـتَ الحـجَّ لـمْ أَخْـرُجِ[1]

* ولكَ عزيزي القارىء أنْ تلاحظَ بأنَّ هذهِ المرأةِ الوامِقَةَ العاشِقَةَ تخرجُ لرؤيةِ صاحبِها عمرَ ، ذلك الذي كلَّفَها مشقَّةَ السَّفَرِ ، وعَنَاءَ الطَّريقِ ، وهي لا تَرىٰ في موسمِ الحجِّ إلاّ فرصةً تلهو فيها ، وتَسْرحُ وتمرحُ ، وتستمتعُ بحياةٍ متحرّرةٍ ، فهي تتصدىٰ لعُمَرَ ، وتأتي منْ مكانٍ بعيدٍ منْ أجْلِه فَحسْب ، نعم زَعَم الرُّواة أنَّها تَقْطعُ مسيرةَ شَهْرَيْن أَو أَشْهر منْ أجْلِ أنْ تلقىٰ عمر. !! إذاً فأينَ القِيم والأخلاقُ؟! بل أينَ الإيمانُ الذي جاءَتْ لِتَعْمُره في الحجِّ؟!

ولعلَّ الدّكتور زكي مبارك قد أكَّدَ مزاعمَ الرُّواة في هذا المجالِ فقال:

= صَدْرِ الإسلام ، وحاولَ أنْ يخلطَ بينَ أداءِ الفَرائض كالحجِّ والصَّلاةِ والصَّوم ، وعصيان الله فيها ، وكلماته لا تخلو منْ مزاعمَ لا أصلَ لها كقوله: وحياةُ الكثيرين منْ أفرادهِ لا يقرّها الإسلامُ ، ثم يَصِلُ في نهايةِ الفقرة بأنْ أخرجَ الشَّبابَ منَ الإسلام!!! وهذا الكلام دونه خَرْطُ القَتَاد. فتأمّلْ.

(١) ديوانه (ص ٤٨٧) قطعة رقم (٣٥٣) وهذا البيتان من الشعر المنسوب لعمر.

ولقد نعلمُ أنَّ مِلاحَ النِّساء كُنَّ يتحدّثْنَ عنه ـ أي : عن عمر ـ في مناسكِ الحجِّ في لهفةٍ وشَوقٍ ، وكان يُقَدَّرُ له أحياناً أنْ يسمعَ ما يَلْهَجْنَ به من ارتقابِ غَزَلِهِ ، وانتظارِ لقياه ، فيضطرمُ قَلْبُه ، وتلتهبُ أحشاؤه كَلَفاً يتَسَاقَيْنَ على ذكرهِ كؤوسَ النَّجوى والسّرار[1] .

* ويقول «بلاشير» : وتكثرُ في المعطياتِ الشُّبَهُ التَّاريخيةُ ، والقصائدُ التي أوْرَدها صاحبُ الأَغاني والأخبار عن غرامياتِ عمر ، فإنَّ هذا يبدو كجلاءٍ للقلُوب وقَعَ في الشّراكِ التي نَصَبها .

وتحدِّدُ الوقائع أحياناً أثناءَ مناسكِ الحجِّ في مكةَ ، مبرزةً مزيجاً منَ التَّدوين واقترافِ المحرّمات ، وليس التّمييزُ بينَ ما هو واقعي وبينَ المغامرةِ المروَّاةِ[2] .

* ويزعمُ «جان فاديه» بأنَّ السَّيِّدة الشَّريفةَ كانتْ تتنازَلُ عنِ الفضيلةِ في موسمِ الحجّ فيقولُ : ولم تكنِ السَّيِّدةُ أحياناً أَقَلَّ تلهّفاً إلىٰ إجراءِ التَّعارُفِ ، فهي كالشَّاعر تحبُّ أنْ تُسمَّىٰ ، وأن تُذْكَرَ ، ويتيحُ لها موسمُ الحجِّ بحقٍّ أنْ تَتَصالَح قَليلاً مع فضيلتِها المتكبرة ، فلا تكادُ تثبتُ لديها الصُّورة الأولىٰ للشَّاعر المحبوب حتى تبدو مثله شديدةَ التَّطلُّع إلىٰ معرفةِ نَسَبِهِ[3] .

* إنَّ كلَّ ما زعمه الزَّاعِمون ليسَ له وزْنٌ في ميزانِ الحقيقةِ ، وسيذهبُ هباءً مَنْثُوراً تذروه رياحُ الحقَائِق ، فهل يُعْقَلُ أنْ تقطعَ المرأةُ في ذلك العَصْرِ مئاتِ الأميالِ وتأتي من بلادٍ بعيدةٍ إلىٰ الحجِّ لكي يتغزَّلَ فيها عمرُ؟! بل هَلْ بلغتِ الاستهانةُ بالشَّعائرِ ، والقِيمَ الإسلامية إلى هذا الحدِّ؟! امرأةٌ تأتي لا لتحجَّ ، بل ليقولَ فيها أحدُ الفُسَّاق بيتاً منَ الشِّعْر؟ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص : ٥] .

---

(١) حب ابن أبي ربيعة وشعره (ص١٤٠) .
(٢) تاريخ الأدب العربي لبلاشير (ص٧٤٩) .
(٣) الغزل عند العرب (١/ ٢٢٧) .

بَيْنَ رَمْلَةَ والثُّرَيَّا:

* مرَّتْ بكَ عزيزي القارىء سيرةُ الثّريا بنت علي بن عبد الله في هذا الكتابِ ، وقرأتَ مزاعمَ الرُّواة فيها ، وهاهنا نجدُ أخباراً قد نَظَمَتِ الثُّريَّا ورملةَ في خَيْطٍ واحدٍ معَ غَزلِ عمرَ بنِ أبي ربيعة.

* فقد زعمُوا أنَّ عمرَ رأىٰ رملةَ أختَ طلحة الطَّلحاتِ في موسمِ الحجِّ ومعها جاريتُها ، فتعرَّضَ عمرُ لرملةَ وكلَّمَها وجاذَبَها أطرافَ الأحاديثِ ، ويزعمُ الرُّواة أنَّها أَخْبرَتْه عن جميعِ أحْوالِها وأنَّها أَتَتْ منَ العراقِ ، وكانتْ قَبلَ ذلك تَقْطُنُ مكَّةَ المكرّمة ، ولكنَّها عَرفَتْه منْ سَوادِ ثنيتَيْه اللتيْن سوَّدَهُما ضَرْب الثُّريا له في يومٍ منْ أيامِ غَضَبِها عليه ، إذْ نَفَحَتْه بيدِها فأصابَ ثناياه ، فاسودَّ اثنَيْن منهما. إذاً فلنقرأْ ذلك منْ شِعْرِ عمر حيثُ يقولُ:

أصبحُ القَلْبُ في الجِمَالِ رهِيْنَا	مُقْصَداً يومَ فَارَقَ الظَّاعِنينَا
عَجِلتْ حمّةُ الفِراقِ عَلينا	برحيلٍ ولمْ نَخَفْ أَنْ تَبِيْنَا
لم يَرُعْني إلاّ الفتاة وإلاّ	دمعُها في الرِّداءِ سحّاً سنيْنَا
ولَقَدْ قُلْتُ يومَ مكةَ سرّاً	قَبْلَ وشكٍ منْ بينكم نَوِّلينَا
أنْتِ أهوىٰ البلادِ قرباً وَدَلاًّ	لو تُنيلينَ عاشِقاً مَحزُونا

* ثمَّ إنَّ عمرَ يسْأَلُها فتَصُدّهُ:

قُلْتُ مَنْ أنتمْ فَصَدَّتْ وقَالَتْ	أمُبِدٌّ سُؤَالَكَ العَالَمِيْنَا

* ولكنَّه يلحُّ بالسُّؤَالِ فتجيبُه:

نَحنُ منْ سَاكِني العراقِ وكُنَّا	قَبلَها قَاطِنينَ مكةَ حِيْنَا[1]

---

(١) انظر: ديوان عمر (ص٢٩٩ ـ ٣٠١) قطعة رقم (١٣٨) ، وعدد أبياتها (١٤ بيتاً) ، ومعنى: «لمْ يرعْني»: لم يخفْني. «سحّاً»: دمع سحّ: دمعٌ منهمرٌ منسكبٌ. «سَنيناً»: متفرّقاً. «وشكَ البين»: قرب الفراق. «نولينا»: أعطينا. «أمِبدٌّ سؤالك العالمينا»: تعني: أمفرّقٌ أنتَ سؤالَك بين العالمين ، فسائِل كلَّ واحد منهم هذا السُّؤال. «قاطنين»: سَاكنين. «حيناً»: زمناً ووقتاً مضىٰ كنّا منْ سكّانِ مكةَ.

* ويزعمُ الرُّواةُ أنَّ غَزَلَ عمرَ برملةَ قد انتشرَ انتشارَ النَّار في الهشيم ، وشاعتْ أبياتُه وأغزالهُ فيها بينَ النَّاس ، ولكنَّها لمْ تصافحْ بَعْدُ سَمْعَ الثُّريا بنت علي بن عبد الله ، حيثُ إنَّ الثُّريا لم تكنْ تَعْلَم ما عَرَا قَلْبَ عمر الذي غَزَاهُ حبُّ رملةَ الخزاعيّة ، ولكنَّ أمَّ نوفل جارية الثُّريا الأثيرة تعرفُ أنَّ عمر بنَ أبي ربيعة قد التقىٰ رملةَ بالقربِ منْ مِنى ، وتحدَّثَ إليها ، وأُعْجِبَ بِهودَجِها الضَّخم الذي تبدو عليه آثارُ النِّعْمة والثَّراء والتَّرف. كما أنَّ أمَّ نوفلٍ هذه عَلِمَتْ ما قالَ عمرُ برملةَ ، وحَفِظَتْ شِعْره واستظهرتْهُ ، ثمَّ جاءَتْ إلىٰ مولاتها الثُّريا تسعىٰ قالت: يا مولاتي ، هَلْ عَلمْتِ شَيئاً هذه الأيّام وهلْ وَصَل سَمْعك شيئاً؟

قالتِ الثُّريا: لا أَعْلَمُ شيئاً يا أمَّ نوفل ، ما الخبرُ؟!

فتقولُ أمَّ نوفل في ابتسامةٍ: يا مولاتي ، أَلا تعلمينَ أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعة قد التقى رملةَ أختَ طلحة الطَّلحات وتغزَّل فيها؟!

وتكادُ الـثُّريا تُصْعَقُ ـ كما زعموا ـ منْ هذا الخبرِ الذي جَرح كبرياءَها ، ثم تقولُ لجاريتها أمِّ نوفل: وهل قالَ فيها شِعْراً؟

فقالت أم نوفل: اسمعي قوله فيها:

أَصْبـحَ القَلْـبُ فـي الجمـالِ رهينًـا   مُقْصـداً يـومَ فَـارَقَ الظَّـاعِنيْنَـا

* ثمَّ أنشدتِ القصيدةَ جميعَها أمامَ الثُّرّيا.

* وهنا انْتَفضَتِ الثُّريا ـ كما يزعمُ الرُّواة ـ كالعُصفور بلَّلَهُ القَطْرُ ، وأخذتْها العزّةُ بجمالِها ، وقامتْ كي تَثْأَرَ له ، وتنتقمَ من عمرَ ، وتثني منْ عِنانِه وقالت: إنَّه لوقاحٌ صَنعٌ بِلسانِهِ ، ولئن سَلمتُ لأردنَّ منْ شأوه ، ولأثنينَّ منْ عنانِهِ ، ولأعرِفَنَّه نَفْسَه.

* ويقال إنَّ الثُّريا لمّا سَمِعَتْ قولَه:

نحـنُ مـنْ سَـاكِنـي العـراقِ وكُنَّـا   قَبْلَـــه قَـــاطِنيـــنَ مكـــةَ حِينَـــا

قالتِ الثُّريا: غَمزَتْهُ الجَهْمَةُ.

فلمّا سَمِعَتْ قوله:

قَـدْ صَـدقْنَـاكَ إِذْ سَـأَلْـتَ فَمَـنْ أَنْـ ـتَ عَسى أنْ يَجُرَّ شَأَنٌ شُؤونَا

قالت الثُّريا: رَمَتْهُ الورهاءُ بآخرِ مَا عندها في مَقَامٍ وَاحِدٍ، وهجرتْ عمر[1].

* ويزعمُ الرُّواة أنَّ الثُّريا قَدْ أنكرتْ علىٰ عمرَ أنْ يتدنّىٰ إلىٰ ذلك المنحدرِ في تَقْديرِه للجمالِ، وهو الخبيرُ بفنونِهِ، المضطلعُ بأسرارِهِ، فقد كانتْ رملةُ ـ فيما رووا ـ جَهْمَةَ الوَجْهِ عظيمةَ الأَنْفِ[2].

* وتتعجَّبُ الثُّريا من قول عمر في وصفه لرملة:

وَجَـلا بُـرْدُهَـا وقَـدْ حَسَـرتْـه نُـورَ بَـدْرٍ يضـيءُ للنَّـاظـرِينـا

هنالك قالتْ تُعرِّضُ به وبجمالِ رملةَ: أُفٍّ لهُ ما أكذبه! أَوَ تَرتَفِعُ حَسْنَاءُ بصفتِهِ لها بَعْد رملةَ[3]؟!

رملَـةُ وَعَـائِـشَـةُ بِـنْـتُ طَـلْحَـةَ:

* لعلَّ بعضَ الرُّواةِ وأَصْحابِ الأَخْبارِ قد راقَتْ في أعينِهم القَصَصُ المختلفةُ عنِ النِّساء، وخُصوصاً الشَّهيرات والشَّريفات منهنَّ، كرملةَ بنتِ عبد الله، وزعموا أنَّ أَنْفَها كان كبيراً بحيثُ لا يقدمُ عليها إلاّ الشُّجاع، وقد عيّرتْها بذلك ضرّتها عائشةُ بنتُ طلحةَ التّيميّة[4] التي تزوَّجها عمرُ بنُ عبيد الله زوجُ رمْلَةَ.

* وعن معايبِ الأَنْفِ وضخامَتِهِ وكبَرِه قالَ أبو الفَرج في «الأغاني»: كانتْ

---

(١) الأغاني (١/ ٢١٨)، وزهر الآداب (١/ ٢٥١)، و«الورهاء»: الحمقاء.

(٢) الأغاني (١/ ٢٢٧) طبعة مصر.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) اقرأ سيرةَ عائشةَ بنتَ طلحة في موسوعتِنا «بنات الصحابة» (ص ٤١٥ ـ ٤٩٨) وانظر الرُّدودَ علىٰ الأباطيلِ حولَ سيرتها العَطرة، وستجدُ فائدةً بإذن الله.

رملةُ بنتُ عبد الله بنِ خلف جميلةً حَسَنَة الجِسْمِ ، وكانَ أنفُها عظيماً ، وكان ذلك يعيبُها ، وتزوَّجَها عمرُ بنُ عبيد الله بن معمر ، وكانت عنده عائشةُ بنتُ طلحة ، فقال يوماً لعائشةَ وقد أصابَ منها طِيْبَ نَفْسٍ : ما مرَّ بي مثلُ يومِ أبي فُدَيك[1] ، فقالت له : اعْدُدْ أيّامك واذكرْ فَضْلَها .

فعَدَّ يومَ سِجستان ، ويومَ قَطَري[2] بفارس ونحو ذلك .

فقالت عائشة : قد تركتَ يوماً لم تكن في أيّامِك أَشْجَعَ منكَ فيه .

قالَ : وأيَّ يومٍ؟

قالتْ : يومَ أَرْخَتْ عليَها وعليكَ رملةُ السِّتْرَ . تريدُ قُبْحَ وجْهِهَا[3] .

* وفي روايةٍ أنَّها قالتْ له : أنَا أعْلَمُ أنَّكَ أَشْجعُ النَّاسِ ، وأعرفُ لكَ يوماً كنْتَ فيهِ أشجْعَ منْ جميعِ أيّامِكِ التي ذكرتَ .

قالت : يومَ اجتليتَ رملةَ وأقْدَمتَ على وجْهِهَا وأنْفِهَا[4] .

---

(١) أبو فديك ، عبدُ الله بنُ ثَور الحروريّ منَ الحروريّة ، ثارَ بالبحرين سنة (٧٢ هـ) ، ثمَّ أرسلَ له عبدُ الملك بنُ مروانَ جَيْشاً فقتلُوه وقتلُوا مِنْ أصحابه نحو ستة آلاف وأَسَروا ثمانمئة وذلك سنة (٧٣ هـ) .

(٢) قطريُ بنُ الفجاءة مِنْ رؤساءِ الخوارجِ وأبطالهم ، استفحلَ أمرُهُ زمنَ مصُعبِ بنِ الزُّبير ، قُتِلَ سنة (٧٨ هـ) . واقرأ سيرته في كتابنا «فرسان من التاريخ» .

(٣) الأغاني (١١/ ١٩٢) ، ويقولُ الدّكتور زكي مُبارك عنْ عائشةَ بنتِ طلحة : كانتْ عائشةُ بنتُ طلحة حاضرةَ البديهةِ ، رائعةَ النّكتةِ في مَكْرٍ وخبثٍ ، ثمّ أوردَ قصَّةَ رملةَ وعمر بن عبيد الله التّيمي زوجها .
(حبُّ ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٦٠) .

(٤) انظر : تُحفْةَ العروسِ للتّجاني (ص٢٨٧) والأغاني (١١/ ١٧٦) ، ولا يخفىٰ علىٰ القارىءِ الكريم أنَّ هذهِ القصّةَ مصنوعةٌ ، وأنَّ عائشةَ بنت طلحة ، إحدىٰ نوادرِ عصرِها عِلْماً وأدَباً ودِيْناً ، ولا يُعقَلُ أنْ تُقدمَ علىٰ مثلِ هذه الأقوال .
ـ وقد وصَفَ كمالُ بسيوني جَمالَ جسْم رملةَ وقبحَ وجهها وأنفها فقالَ : وقد تزوَّج عمرُ بنُ عُبيد الله من رملةَ بنتِ عبدِ الله بنِ خَلف ، فتاةً خزاعيةً ذاتَ جسمٍ رائعٍ بارعٍ ، كأنّما صُنِعَ في تَمهُّلٍ وتأنُّقٍ وأَناة ، كأَحسْنِ ما يتمهَّل المثَّالُ البارعُ ، ويتأنَّق=

* ولعلَّ خَيالَ الرُّواةِ قد ذَهَبَ إلىٰ أبْعَدَ منْ ذلكَ ، فَقَدْ ذكَروا عنِ الجواري أخْبَاراً مزوقَةَ سُدَاها الخيالُ ، ولحمتُها المبالغةُ ، فهذهِ سلاّمةُ المغنيةُ تَصِفُ عائشةُ وقد زَارتْها معَ مولاتِها فتقول: زرتُ معَ مولاتي عائِشَةَ بنتَ طلحةَ ، وأنا يومئذٍ وصِيْفَةٌ فرأيتُ عُجيزَتَها منْ خَلْفِها ، وهي جالسةٌ كأنَّها غيرُهَا ، فوضعتُ يدي عليهَا لأعْلَم ما هيَ ، فلما وجَدَتْ مَسَّ يدي قالَتْ: ما هي هذهِ التي تمسُّنِي؟

فقلْتُ: أنا رأيتُ هذا الذي خَلْفَك فخلتُ أَنَّها امرأةٌ جالِسةٌ مَعَكِ ، فجئتُ لأَنْظُرَ مَنْ هي؟!. فَضحِكَتْ وقَالَتْ: ما أكثرَ ما يعجبُ الناسُ ممّا تعجبينَ منه.

قالتْ سلامةُ: ولمْ أَرَ قَطُّ أَحْسنَ جِسْماً منْ عائِشَةِ بنتِ طلحة[1].

* وبناءً علىٰ هذه الشَّهادةِ منْ سلاَّمةَ ، يروي أَبو الفَرجِ قصَّةً عن ذَيْنك[2]

= ويستأني بعَملِهِ ، فيخرجُ تمثالهُ آيةً في الرَّوعةِ وفتنةَ العيونِ والقلوب جميعاً ، ولكنّها كانتْ علىٰ ذلك جهمةَ الوجْهِ ، عظيمةَ الأنف ، ويلاحظُ القارىءُ الكريمُ تطاوْلَ بسيوني هذا في الكلام ومخالفته لأمور الدّين!!
انظر: (عائشة بنت طلحة ص ١٠٣ و١٠٤) من سلسلة اقرأ رقم ١٤٠ دار المعارف بمصر.

(١) المصدر السابق (ص٣٣٩).

(٢) «ذَين»: هي اسمُ الإشارةِ ذَان في حالتَي النَّصب والجر. وذان مثنّى اسم الإشارة «ذا». للعاقِل وغيره ، يُبنى علىٰ الألفِ في حالة الرَّفع ، وعلىٰ الياءِ في حالتَي النّصب والجر. مثل: نجح ذانِ الطّالبان. «ذان»: اسمُ إشارة مبني علىٰ الألفِ في محلِ رفعٍ فاعل. و«الطّالبان»: بدل مرفوع بالألف لأنّه مثنّى. وكافأتُ ذَين الطَّالبَيْن. «ذَين»: اسم إشارة مبني علىٰ الياءِ في محلِ نصب مفعول به. ومررتُ بذيْنِ الرّجلين. «ذَين» اسم إشارة مبني علىٰ الياءِ في محلّ جرٍ بحرفِ الجر.
ومنهم مَنْ يجعلها معربة ، فيرفَعُها بالألف ، وينصبُها ويجرّها بالياء على أنّها ملحقةٌ بالمثنى ، وهذا الإعراب هو الأفضل ، وذان: لا يُشَارُ بها إلى البعيدِ ، لذلك لا تدخلها لام البُعد ، ولكنْ قد تلحقها «ها» التّنبيهية بعد حَذْفِ ألفها ، فتصبحَ =

المرأتَيْن الفاضِلتَيْن: رملة وعائشة فيقولُ:

إنَّ رملةَ بنتَ عبدِ الله بنِ خَلف ـ وكانتْ ضرّتها عائشة بنت طلحةَ عند عمر بنِ عُبيد الله ـ قالَتْ ذاتَ يومٍ لمولاةِ عائشةَ: أريِني عائشةَ إذا كانَتْ متجرّدَةً، ولَكِ عندي ألْفَا درهم، فأَخْبرَتْ المولاةُ عائشةَ وقالت لها: أَعْلميها أنّي أتجرَّدُ، ولا تُعْلِميها أنّي عالمةٌ بذلك، ثمّ قامَتْ عائشةُ بنتُ طلحةُ كأنَّها تَغْتَسِلُ، فأقْبَلَتْ رملةُ، ورأَتْها مقبلةً مدبرةً، فلما فَرَغَتْ منْ ذلكَ أعْطَتْ مولاتها، وقالتْ لها: وددتُ أنَّي ضاعَفْتُ لكِ العددَ، ولمْ أكُنْ رأيتُها منْ قَبْل[1].

* ويرىٰ «كمال بسيوني» أنَّ رملةَ كانتْ تحبُّ زوجَها عمرَ بنَ عُبيدِ الله بنِ مَعْمر أشدَّ الحُبّ، وتؤثرهُ أعْظَمَ الإيثَارِ، لا تعدِلُ بِرضَاه شَيئاً، ولا تدخرُ في سَبيلهِ جهْداً، ولم تعرِفْ أنَّ زوجَها قد رغبَ عنْها، أو تنكَّر لَها، أو ضاقَ

= «هذان» في حالةِ الرّفع، و«هذين» في حالةِ النَّصب والجرّ، كذلك قد تلحقُها كاف الخطاب، فتصبح «ذانك» في حالةِ الرفع، و«ذينك» في حالتي النَّصب والجر، ولا تجتمعُ فيها ها التّنبيهية مع كافِ الخطاب.

(١) تحفة العروس (ص ٣٣٩) نقلاً عن الأغاني (١١/ ١٧٥) وانظر: نوادر المخطوطات (١/ ٧٢)، وأعلام النساء (٣/١٣٨)، ويذكرُ الدكتور زكي مبارك عنْ عائشةَ وكيدِها لرملةَ: وكانتْ ـ عائشةُ ـ بجمالِها باغيةً ظالمةً، تَكْلَفُ بالكيدِ لأترابِها منْ شهيرات النّساء. (حبّ ابن أبي ربيعة وشعره ص ١٤٩).
ويذكرُ أبو الفرجِ الأصبهاني بأنَّ رملةَ كانتْ قد أَسَنَّتْ، وكانتْ حسنةَ الجسمِ، قبيحةَ الوجه، عظيمةَ الأنْفِ، وفيها وفي عائشةَ يقولُ الشَّاعرْ:
أنعـمْ بعـائـشَ عيشـاً غيـرَ ذي رنَـقِ   وانبـذْ بـرملـةَ نَبْـذَ الجـوربِ الخَلـقِ
(الأغاني ١١/ ١٩١).
وَجَاءَ في نوادرِ المخطوطات في كتابِ «المُردفات منْ قُريش» أنَّ عمرَ بنَ عبيد الله التّيمي كان غليظاً أحمرَ يحتجمُ كلَّ سبعةِ أيّام، فأخرجَها معه ـ أي: عائشة بنت طلحة ضرّة رملة ـ إلىُ فُدَيك ـ اسم موضع ـ، ولها يقولُ الشّاعر:
انعَـمْ بعيشَـةَ عيشـاً غيـر ذي رنَـقِ   وانبْـذ بـرملـةَ نَبْـذَ الجـوربِ الخَلـقِ
(نوادر المخطوطات ١/ ٧٢).

بها في أثناءِ هذهِ الأَعْوامِ الطَّويلةِ التي قَضَتْها عنده ، بل لم تَعْرِفْ منْه إلاّ برّاً وعَطْفاً عليها ، وقد أَفْهَمها حينَ خَطبَ عائشةَ بنتَ طلحةَ أنَّه ما فكَّرَ في هذا الزَّواجِ إلاّ وفاءً لصديقهِ مُصْعَبَ بنِ الزُّبيرِ الذي قَتَله بنو أميّة . ولم تَفْهَمْ رملةُ ما كانَ لها أن تفهمَ أنْ يُدْخِلَ عليها زوجَها في بيتها ضرّةً يُنغِّصُ بها عليها حياتَها باسْمِ الوفاء لصديقِهِ الذي ماتَ . . . ولم تحاوِلْ أنْ تصُدَّهُ عنْ هذا الزَّواجِ ، وقد رأتْ منه إلحاحاً فيهِ وتَصْميماً عليه ، وإنَّما استقبلت خطبتَها باسمةً ، واحتملَتْه جَلْدَةً ، وصبرتْ عليهِ عزيزةَ النَّفْس ، عميقةَ الحزْنِ ، كان زوجُها يَجِدُ هذا منها فيرفقُ بها أشدَّ الرفقِ ، وكانت رملةُ تَجدُ شيئاً منَ الرضا ، وراحةَ النَّفْسِ حين تَجِدُ منْ زوجها عَطْفاً وأُنْساً إليها ، ولكنَّها عرفَتْ أنَّها لم تَعُدْ أحبَّ النّاسِ إليه ، وإنّما هناك امرأةٌ أخرىٰ هي آثَرُ منها في قَلْبِهِ ، وأحرىٰ أنْ تكونَ صاحبةَ السُّلطان على عقْلِهِ ، إنّها عائشةُ بنتُ طلحة التي رسَم لها في نفْسهِ صورةً جميلةً خلاّبةً ، وبنىٰ لها في قَلْبهِ مَعْبداً شَامِخاً شاهقاً منْ معابدِ الحبّ والوَفَاءِ ، وإذاً فَقد كانَ زوجُها خائِناً مخادعاً يتكلَّفُ الودَّ ويتصنَّعُ الوفَاءَ .

* وهكذا خابَ أملُ هذهِ المرأةِ البائسة رملةَ في زوجِها ، وفَقَدَتْ ثقتَها به ، وكانَ الشَّيطانُ يُذكي في نفسِها غرائزَ الحبّ والبُغْضِ جميعاً ، ولهذا كلّه دعَتْ رملةُ جاريةَ عائشةَ وطلبتْ منه أنْ تُريها عائشةَ متجرّدةً ، ثم ندمتْ وودَّتْ لو تُعطيها أربعةَ آلاف درهم ولم تَرَها[1] .

* وفي جعْبَةِ رواةِ الأَخبْار حكاياتٌ وقَصَصٌ عن هاتَيْن الضّرّتَيْنِ ، فمن هاتيكم القَصَصِ قصَّةٌ تَظْهَرُ فيها رملةُ هي التي تحرِزُ نَصْراً على ضُرتها عائشةَ ، فكيف كان ذلك؟!

* يقولُ أبو الفرج الأصبهاني في أغانيهِ: كانت عائشةُ بنتُ طلحةَ أَجْملَ

---

(١) انظر: عائشة بنت طلحة لكمال بسيوني (ص١١٧ ـ ١٢١) باختصار وتصرّف. سلسلة اقرأ رقم (١٤٠) دار المعارف بمصر.

النَّاس وأكملِهم محاسِنَ ، وكان فيها عَيْبانِ اثنان: كِبَرٌ في أُذنَيْها ، وعظمٌ مفرطٌ في رجلَيْها ، وكانت ضرّتُها رملةُ بنتُ عبدِ الله بنِ خَلَفَ كبيرةَ الأنْفِ ، وكانتْ عائشةُ تعيبُها بذلكَ ، فبلَغَ ذلك رملةُ ، فقالتْ: أتُراهَا نَسيتْ أذنيهَا ورجلَيْها!!

قال: وعاتَبتْها عائشةُ يوماً بمحضَرِ زوجها عمرَ بنِ عُبيد الله ، فقالَ لعائشةَ: قولي خَيراً ، واحذري أنْ يُقَال فيكِ ما فيكِ ، مُشيراً إلىٰ رجلَيْها وأذنَيْها[1].

* وإليكَ ـ عزيزي القارىء ـ هذا الخبرُ الذي لا يُوزَنُ بميزانٍ ، حيثُ فيهِ ما فيهِ منْ أشياءَ لا يقْبلُها الذَّوقُ السَّليمُ ، إذْ فيها أشياء مُقْرِفةٌ ممجوجَةٌ ، فقد جاءَ في أغاني الأصبهاني أنَّه قال: لما أسَنَّتْ رملةُ بنتُ عبدِ الله بن خَلَفَ ـ وكانتْ ضرةً لعائشةَ بنتِ طلحة عند عمرَ بنِ عُبيد الله ـ جَعَلَت تَتَجنَّبُه في مِثْلِ أقرائِها ـ حيضِها ـ ، ثمَّ تَغْتَسِلُ تُريه أنَّها تحيضُ ـ وذلك بعد انقطاعِ حيضِها ـ ، فقالَ في ذلك بعضُ الشُّعرَاء:

جَعَـلَ اللهُ كُـلَّ قَطْـرة حَيْـضٍ　　قَطَرتْ منكِ في حَماليقِ عَيْني[2]

* هذا وقد تَفنَّنَ الرُّواةُ ومَنْ جَاراهم في مثْلِ هذهِ الأخبارِ التي ـ إنْ صحَّت ـ لا تُسْمِنُ ولا تغني منْ جوعٍ ولا تقدِّمُ ولا تؤخرُ ، ونَسُوا بأنَّ عائشةَ بنتَ طلحة إحدىٰ حافِظات أحاديثِ رسول الله ﷺ ، وقد نَشَأَتْ في بيتِ خالتِها عائشةَ أمِّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ كما نَسُوا أنَّ رملةَ بنتَ عبدِ اللهِ إحدىٰ فاضلاتِ قومها أَدَباً ودِيْناً وعفَّةً وصيانةً.

رَمْلَـةُ وَوِقْـفَـةٌ أَخـيـرةٌ مـعَ تَـغَـزُّلِ عُـمَـرَ:

* عرفْنَا أنَّ رملةَ إحدىٰ بنات الأَشْرافِ ، وأنَّها نَشَأَتْ في بيتٍ عريقٍ ،

---

(١) تحفة العروس (ص٣٤٩) نقلاً عن الأغاني (١١/ ١٧٥) طبعة مصر.

(٢) تحفة العروس (ص١٩٧) نقلاً عن الأغاني (١١/ ٧٥) طبعة مصر ، و(١١/ ١٩١) طبعة دار الكتب العلمية. وأترك هذه القصة الباهتة المزعومة لذوق القارىء.

يطاولُ عنانَ السَّماء في الكَرَمِ والشَّرَفِ الوافي ، وأنَّ زوجَها كان أحد الأَشْرافِ الأُمَراءِ الأَجْوادِ ، وأنَّ ضرَّتَها كانتْ عائشةُ بنتُ طلحةَ منْ بناتِ مَشَاهير الصَّحابة ، ومعَ هذا كلِّه نَجِدُ أنَّ عمرَ بَن أبي ربيعةَ يتغزَّلُ فيها ، ويُصَغِّرُ اسمَها علىٰ صيغةِ التَّحبُّبِ فيقولُ : زارَتْ رُميلةُ ، وقالتْ رُميلةُ . . .

ثمَّ يأتي بَعْدَ ذلك أقوامٌ يظنّونُ برملة الظُّنونَ ، ويحسبون أنَّ ما يزعمه عمر ويتخيَّلهُ هو قد حَدَثَ فِعْلاً ، ففي قصيدةٍ بائيةٍ يذكرُ رملةَ التي أَسْقَمَتْه وأمرضَتْه عندما أَزمعتِ الرَّحيلَ :

إنَّ الحبيبَ أَلَمَّ بالرَّكْبِ ليلاً فَبَاتَ مُجانِباً صَحْبي
فَفَزِعْتُ منْ نومٍ علىٰ وسَنٍ وذكَرتُ ما قَدْ هَاجَ لي نُصْبِي
زَارتْ رُمَيْلَةُ زَائِراً في صحبةٍ أَحبِبْ بها زَوراً علىٰ عَتْبِ

ثمَّ يذكرُ في هذه القصيدة حُزْنَه وكَربَه ، وكيفَ ودَّعَ رمْلَةَ والدَّمعُ يعانقُ وجْنَتَيْهِ ، ولكنَّه يؤكِّدُ لها صدْقَ حُبِّهِ ، وأنَّه سَلا النِّساءَ منْ أَجْلِها ، فلنستمعْ إليه يقولُ :

وَبَدتْ لنَا عِنْدَ الفِرَاقِ بكربةٍ ولنَا بذلكَ أَفْضَلَ الكَرْبِ
قالتْ رميلةُ حينَ جئتُ مُودِّعاً ظُلماً بلا تِرةٍ ولا ذَنْبِ
هذَا الذي ولَّىٰ فأَجْمع رحلةً وابتاعَ منّا البعدَ بالقُربِ
فأَجَبْتُها والدَّمعُ منِّي مُسْبلٌ سكبٌ ودمعي دائمُ السَّكْبِ
أنْ قَدْ سلوتُ عنْ النّساءِ سواكمُ وهَجرتُهنَّ فحبُّكم طِبِّي[1]

* ويرخي التَّاريخُ أسْتَارهُ بعد هذهِ القصيدة ، فلمْ نَعُدْ نسْمعُ عنْ أخبارِ رملةَ شيئاً ، ولم نَعُدْ نسمعُ أَغْزالَ عمر بنَ أبي ربيعةَ فيها ، وكلُّ ما نعرفه أنَّها ظلَّتْ عند زَوجِها عمرَ بنِ عُبيد الله التَّيمي حتى توفيَ عنها .

---

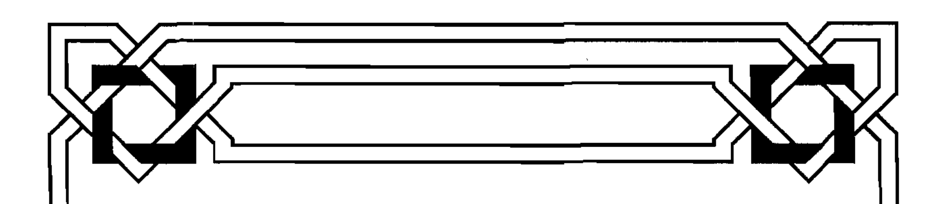
(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي (ص٤٢٣ و٤٢٤) ، قطعة رقم (٢٥٥) .
و«طبي» : معناها : العادة والشأن .

* أمّا عَنْ وفاتِها ، وأينَ كانَتْ ، فذاكَ ما ضَنَّ بهِ التَّاريخُ علينا ، ولم يفْصِحْ عنه ، بل احتفظَ بهِ في ذاكرتِهِ.

* وبَعْدُ ، فأرجو أنْ أكونَ قد كَشَفْتُ النِّقَاب عنْ حقيقةِ ما قرأنَاهُ عن هذهِ المرأَةِ الكريمةِ التي عاشَتْ منعَّمةً في قَصْرِ الأمير عمرَ بنِ عُبيد الله التَّيمي ، وكانتْ مثالَ المرأةِ العفيفةِ الصَّالحةِ التي ظَلَمَتْها ألسنةُ شِعْرِ عمرَ ، ومنْ بعدِه ألسَنَةُ الرّواة وأهْل الأَخْبارِ.

* رحمَ الله رملة بنت عَبْدِ الله ، وجعلَها في مستقرِّ رحمته.

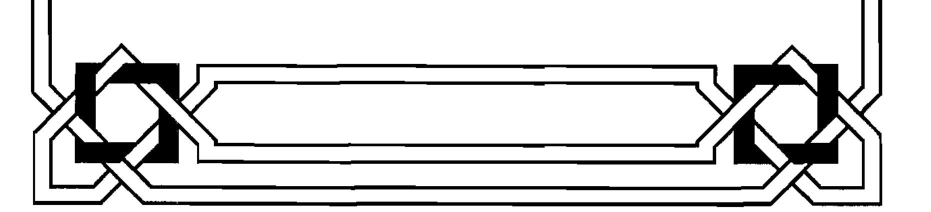
* * *



(٧)

الزّرقاء بنت عدي

* من الوافدات على معاوية رضي الله عنه .
* لها خطبة حماسية يوم صفين .
* جريئة ، صاحبة بيان عذب ، وفصاحة نادرة .



مـنْ نِسَـاءِ الـكُـوفَـةِ ونُـصَـرَاءِ عَـلِـيّ:

* منَ الغريبِ ، بلْ منَ الأَغْربِ أنْ يدعوَ معاويةُ بنُ أبي سُفيان مُحبّي عليّ بن أبي طالب وشيعتَه إلى قَصْرِهِ منْ مختلفِ البُلدانِ ، ومن كلّ فجٍّ عميقٍ ليسمعَ ثناءَهم علىٰ عليّ ، ويرىٰ ويلمسَ حُبَّهم له.

* ومعاويةُ ـ رضوان اللهِ عليه ـ يعلمُ أنَّ القَلْبَ الذي نَشَأَ وفُطِرَ علىٰ حبِّ عليّ ـ رضي الله عنه وأرضاه وحَشَرنا في معيّته ـ لنْ يحملَ له الحبَّ كُلَّه ، بل يجدُ بعضَ القلوبِ تمتلىءُ بالغيظِ والحنقِ عليه ، فقد صرَّح كثيرٌ منَ الوافدينَ والوافداتِ لمعاويةَ عن حُبِّهم لعليٍّ كحبِّ أُمّ موسىٰ لموسىٰ ـ عليه السَّلام ـ.

* وكان بعضُ القومِ إذاً ، لا يحملون في قلوبهم الرِّضا عن معاويةَ ، وخاصّةً أولئك الذين صَاولُوه وحاربُوه يومَ معركة صِفِّيْن[1] ، ولكنْ إذا ما تمكَّنَ معاويةُ من ناصيةِ أحدِهم فإنَّهُ يعودُ عليهِ بالحلْمِ والصَّفْحِ والتّكرُّمِ ، وينشدُ:

أَغَـرَّ رِجَـالاً مـنْ قُـريـشٍ تَتَـابَعُـوا ... عَلـىٰ سَفَـهٍ منّي الحَيَـا والتَّكَـرُّمُ[2]

* ومنْ أمثلةِ ذلك ما ذكَرهُ ابنُ عبد ربّه قال: أُتيَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ

---

(١) «صفين»: بكَسْرِ أوّله وثانيه ، موضعٌ معروف بالشّام الذي كانتْ فيه الحربُ بينَ أميرِ المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاويةَ ـ رضي الله عنهما ـ ويُقالُ أيضاً: صِفون ، كما يُقال: قِنّسرون وماردون ، وقنّسرين وماردين ، والأَغْلب علىٰ صفّين التّأنيث. وقيل لأبي وائلَ شقيق بن سلمة: أشهدتَ صفّين؟ قال: نعم ، وبئستِ الصّفون. وقال أبو الطّفيل عامرُ بن وائلةِ الكناني:

كمـا بَلَّغَـتْ أيـامُ صفّيـن نَفْسَـهُ ... تـرَاقِيـهُ والشـاتِمـيَّ شُهـودُ

وفي هذا الموضعِ هَزَمَ سيفُ الدولةِ علي الحمداني الإخشيدَ محمدَ بنَ طُغْج وتملَّك الشّام.

(معجم ما استعجم ٣/ ٨٣٧).

(٢) انظر: الأخبار الموفّقيّات للزُّبير بن بكّار (ص١٥٣ و١٥٤).

يوم صفّين بأسيرٍ منْ أهلِ العراقِ ، فقال : الحمد للهِ الذي أمْكَنني مِنْك .

فقال الأسيرُ : لا تَقُل ذلك يا معاويةُ ، فإنّها مُصيبةٌ .

قال معاويةُ : وأيّ نعمةٍ أعظمُ منْ أنْ أمْكَنني اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ من رجلٍ قَتَلَ جماعةً منْ أصحابي في ساعةٍ واحدةٍ؟! اضرِبْ عُنُقَه يا غلام .

فقال الأسيرُ : اللهم اشهْدِ أنَّ معاويةَ لم يقتلْنِي فيكَ ، وأنَّك لا ترضىٰ بقَتْلي ، وإنّما يقتلُني في الغَلَبَةِ علىٰ حُطام هذهِ الدُّنيا ، فإنْ فَعل فافعلْ به ما هو أهْلُه ، وإن لم يفعلْ فافعلْ به ما أنتَ أهْلُه .

قال : ويحك! لقد سببتَ فأبلغْتَ ، ودعوتَ فأحْسَنْت ، خَلّيا عنه[1] .

* وهكذا رأينا كيفَ سَمِعَ معاويةُ منْ هذا الأسيرِ ، ولم يتملكْه الغضبُ منْ كلامِه ، بل عجبَ وتعجَّبَ وأُعْجِبَ بحجّتِه وبلاغتِه ، ثمَّ أشارَ إلىٰ العفو عنه .

* واليوم تأتي امرأةٌ من الكُوفة[2] ، يستقدمُها معاوية ليسمعَ ما خطبَتْه منْ

---

(١) العقد الفريد (٢/ ١٧٢ و١٧٣) .

(٢) الكوفة : معروفةٌ ، ويُقالُ لها أيضاً : كُوفان ، قالَ جَحْدَرٌ اللصُّ وهو في سِجْنِ الحجّاج بالكوُفَةِ :

يا ربِّ أبغضُ بيتٍ أنتَ خالقُه ... بيتٌ بكوفانَ منه استُعْجِلَتْ سَقَرُ

وإنّما سُمّيت الكوفةُ ، لأنَّ سَعْداً لما افتتحَ القادسيّةَ ، نزلَ المسلمون الأَنْبَارَ ، فآذاهمُ البَقُّ ، فخرجَ ، فارتادَ لهم موضعاً بالكوفةِ ، وقال : تكوّفُوا في هذا الموضع ، أي : اجتمعُوا ، والتكوّف : التّجمّع ، قال القُتبيُّ : والكوفةُ : رملةٌ مستديرةٌ ، ومنه قولُهم : كأنّهم يدورون في كُوفانَ ، أي : في شيءٍ مستدير .

وقال محمدّ بنُ سَهل : سُمّيت الكوفةُ لأنَّ جَبَلَ ساتَيدما محيطٌ بها كالكُفَافةِ عليها . قال : وكانت الكوفةُ منزلَ نوحٍ ، وهو بنىٰ مسجدها ، ثمَّ مَصَّرها سعدُ بنُ أبي وقّاص ، بأمرِ عمرَ بنِ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، وقيل : بل سُميّت بجُبَيّلٍ صغيرٍ كان فيها يسمّى كوفان . (معجم ما استعجم ٣/ ١١٤٢) .

كلامٍ حماسيّ يومَ صِفّين ، ومنَ المعروف أَنَّ الكوفة كانتْ منْ أخْطَرِ البُلدان علىٰ معاويةَ ، لأنَّها كانتْ مركزَ الخلافةِ الأوّل ومركزَ نُصراءِ عليّ رضي الله عنه ، وأكبرَ تجمُّع خَطِرٍ علىٰ معاويةَ وخلافتِه؛ ولكنَّ حلمَه كان لها ولأهْلها بالمرصادِ ، وكم حَلَّ كثيراً منَ المعضلات بحلمه! .

* وهذه المرأةُ الكوفيةُ التي حَلُمَ عنها معاويةُ تُدعىٰ الزّرقاءُ بنتُ عدي بن غالب بن قَيْس الهَمْدانية[1] ، فهل أتاكَ خبرها وحديثها؟

مِنْ أَخْبَارِ الزَّرْقَاء وأقوالها :

* عندما تحدّث أبو القاسم بنُ عسَاكر عنِ النِّساءِ اللواتي دخَلْنَ قَصْرَ أميرِ المؤمنين معاويةَ بنِ أبي سفيان ، وصفَها بقولِهِ: امرأةٌ فصيحةٌ ، استقدمها معاويةُ بنُ أبي سفيان ، فقدمتْ عليهِ ، وكانت له معَها محاورة[2] .

* وفي «مستطرفهِ» استظرفَ شهابُ الدِّين الأبشيهيّ قصَّةَ الزَّرقاءِ ، وقدَّمَ لها بكلامٍ دبَّجه بسجعٍ متكلَّفٍ ، وصفَ فيه الزَّرقاء ، وذكرَ بسالتها وجرأتَها وشجاعتها يومَ معركةِ صفّين فقال: لما وليَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ الخلافة ، وانتظمتْ إليه الأمورُ ، وامتلأت منه الصُّدورُ ، وأذعنَ لأَمْرِه الجمهورُ ، وساعده في مُراده القَدرُ المقدور ، استحضرَ ليلةً خواصَّ أصحابِه ، وذاكرهم وقائعَ أيام صفّين؛ ومَنْ كان يتلوى كِبْرَ الكريهةِ من المعروفين ، فانهمكوا في القولِ الصَّحيح والمريضِ ، وآلَ حديثُهم إلىٰ من كان يجتهدُ في إيقادِ نارِ الحرب عليهم بزيادة التَّحريضِ ، فقال : امرأةٌ منْ أهلِ الكوفة كانت تسمّى الزّرقاء بنت عدي ، كانت تتعمَّدُ الوقوفَ بينَ

---

(١) بلاغات النساء (ص٥٢ ـ ٥٤) طبعة الكويت ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء (ص١٠٩ ـ ١١١) ، والعقد الفريد (٢/ ١٠٦ ـ ١٠٨) ، والمستطرف (١/ ١٨٩ و١٩٠) ، وأعلام النساء (٢/ ٣٢ ـ ٣٤) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص٢٢١) ، وصبح الأعشى (١/ ٢٥٣) ، وجمهرة خطب العرب (ص١٩٧) ، وعصر المأمون (٢/ ١٧) وغيرها.

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص١٠٩).

الصُّفوفِ ، وترفعُ صوتَها صارخةً: يا أصحابَ عليّ؛ تُسمِعُهم كلاماً كالصَّوارمِ مستحثّةً لهم ، لو سَمِعَهُ الجبَان لقاتلَ ، والمُدبرُ لقَابَل ، والمسالمُ لحاربَ ، والفارُّ لكرَّ ، والمتزلزلُ لاستقرّ[1].

* وتأتي الأديبةُ الفاضلةُ السَّيدة زينبُ بنتُ يوسُف فواز العامليّة فترسمُ أخبارَ الزَّرقاءِ بالكلماتِ الرَّنانةِ ، والجُمَلِ الطَّنانَةِ ، وتذكرُ أحداثاً وأخباراً منْ نسجِها ، لم تَرِدْ في التَّاريخ ، بل ولا في تاريخ الزَّرقاءِ نفسها ، والتي نشكُّ في وجود شخصها[2] ، وإنْ تحدثتِ المصادرُ عن أمرِها ، واهتمت بعجرها وبجرها.

* تقولُ زينبُ فواز: الزّرقاءُ بنتُ عدي بن قيس الهمدانيّة ، كانت ذاتَ شجاعةٍ وبلاغةٍ عظيمةٍ ، وكانت شهدتْ مع قومها صفّين ، ولها جملةُ خطبٍ ألْقَتْها في مواقفِ القتالِ ، حتى خُيِّلَ لمن يسمعها أنَّها أضغاثُ أحلام. وبينما معاويةُ بنُ أبي سفيان جالسٌ في ديوانِهِ بدمشقَ ، بعدما آلَ الأمرُ إليهِ ، واجتمعَ حولَه حاشيتُه ، تذاكروا حربَ صفّين ، فقال أحدهم: إنّه رأىٰ الزَّرقاء وهي راكبةٌ على بعيرٍ ، واقفةٌ بين الصَّفَّيْنِ وهي تحرضُ النَّاس علىٰ القِتال ، ولم ترهبْ أحداً منَ الفريقَينِ ، فقالَ معاويةُ: أو هيَ حيّةٌ إلى الآن؟!

فقيل له: نعم هي مقيمةٌ بالكوفة.

فقال: يجبُ أن نستقدمَها إلينا[3].

* وأما عمرُ كحّالة فقد افتتحَ ترجمتها وعرَّفَها بقوله: الزّرقاءُ بنتُ عدي الهمدانيّة الكوفية منْ ربّاتِ الفَصَاحةِ والبلاغةِ والعَقْل ، ناصرت عليَّ بنَ أبي طالب يوم صفّين ، ولما تمَّ الأمْرُ لمعاوية ، قال لأصحابهِ: أيكم يحفظُ كلامَ الزَّرقاء؟

---

(١) انظر المستطرف (١/ ١٨٩).
(٢) أو على الأقلّ الكلمات المنسوبة إليها.
(٣) الدر المنثور (ص٢٢١).

فقال القوم: كلُّنا نحفظُه يا أميرَ المؤمنين[1].

* وأجمعَ معظمُ مَنْ تحدَّثَ عنِ النِّساء الوافداتِ علىٰ معاويةَ ، بأنَّ الزَّرقاءَ بنتَ عدي كانت منْ أوجزهِنَّ مَقَالاً ، وأجرئهنَّ بياناً ، وأنفذهنَّ كلاماً ، فقد كانت ذاتَ لسَنٍ وبيان ، تجري الحكمةُ على لِسانها ، ومن أمثلة فَصاحِتها الممزوجة بالحكم قولها: مَنْ تفكَّر أَبْصَر ، والأمرُ يحدثُ بعده الأَمر.

وقولها: المصباحُ لا يضيءُ في الشَّمس ، ولا الكوكبُ يبصرُ في القمر ، والبغلُ لا يسبقُ الفرس. وقولها كذلك : خِضابُ النساء الحنّاء ، وخضابُ الرِّجالِ الدِّماء[2].

أوفِدْ عَلَيَّ الزَّرْقَاء:

* كانت مجالسُ الملوكِ والأمراءِ تسفرُ عن سِحْرِ البيانِ ، وحلاوةِ اللّسان الذي يمازجُ الرُّوحَ لطافةً ، ويجري مع النفس رقّةً ، والكلامُ الرقيقُ مصائدُ القُلوب ، وإنَّ منه لما يستعطفُ المستشيطَ غيظاً ، حتى يطفىءَ جمرةَ غيظه ، ويَسُلّ دفائن حِقْدِه ، وإنَّ منه لما يستميلُ قلبَ اللئيم. ويأخذُ بسمعِ وبَصرِ الكريمِ ، وقد جَعَلَهُ اللهُ ـ عز وجل ـ بيَنه وبين خَلْقِهِ وسيلةً نافعةً ، وشافعاً مقبولاً ، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

* وتروي بعضُ المصادرِ أنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ كانت له بعضُ مجالسِ السَّمرِ والمذاكرةِ مع أعلياءِ قريش من مثل: عمرو ، وسعيد ، وعتبة ، والوليد[3] ، وكانوا في بعض الأحايين يتذاكرونَ آدابَ العربِ ،

---

(١) أعلام النساء (٢/ ٣٢).
(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص١١١).
(٣) انظر العقد الفريد (٢/ ١٠٦).

وأيّامهم ، ويدلي كلُّ واحدٍ منه دَلْوه ، ويغترفُ منْ ذاكرتِهِ ما يروي به ظمأَ العِطَاش منْ حولِهِ لأخبارِ القُدماء.

* وتروي المصادرُ أنَّه كانَ جالساً في قَصْره بدمشقَ ذات ليلةٍ يسمرُ معَ بَعْضِ قومِه ، وقد اجتمعَ حولَه حاشيتُه ، وخاضوا في ذكْرِ النِّساء منْ نُصَراء علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وخصوصاً اللواتي شَهِدْنَ معركةَ صفّين ، وكُنَّ يُعِنَّ عليّاً يوم ذاك ، واستعرضَ القومُ بعضَهنّ ، فذكر معاويةُ كلاماً للزَّرقاء بنت عدي الهمدانيّة الكوفية ، وهنا لمعتْ بوارقُ ذِكْراها في تلكم الليلة ، وراحتْ صورُ تحريضها تمرُّ في ذاكرةِ معاوية ، وكيف كانت تركبُ في صفّين جَملاً أحمرَ توقد الحربَ بين الصَّفَّيْن ، وهنا توجَّه معاويةُ إلىٰ جُلسائِه وقال: يا وجوه الخيرِ ، هل تذكرون الزَّرقاءَ بنتَ عدي الكوفيّة؟!

قالوا: نعم يا أميرَ المؤمنين كلُّنا يذكُرها ويعرفها.

قال: وهل تذكرونَ كيف كانت تحضُّ قومَها علىٰ القِتال؟

قالوا: نعم ، ونحفظُ كلامَها يوم إذ.

قال: إذاً ، فأيكم يحفظُ كلامَها؟

فقال القوم: كلُّنا نحفظُه يا أميرَ المؤمنين.

* وهنا تفرَّسَ معاويةُ في وجوهِ أصحابه ، وقال لهم: فما تشيرونَ عليَّ فيها؟

* وسكتَ القومُ هنيهةً ، ونظرَ بعضُهم إلىٰ بعضٍ ، وتلاقتْ نظراتُهم كأنَّهم يستفهمون بِمَ يجيبون عنْ سؤالِ أميرِ المؤمنين معاويةَ ، وعندها قالوا: نشيرُ عليك بقَتْلها يا أميرَ المؤمنين إنْ شئتَ ورغبتَ في ذلك.

قال: بئسَ الرّأي أشرتُم به عليَّ.

قالوا: فما ترىٰ في أمرِها؟

قال: أيحسنُ بمثلي أنْ يتحدَّثَ النَّاسُ عنه أنَّه قَتَل امرأة ، بعد ما مَلَكَ النَّاس ، وصار الأَمْرُ إليه ، وظفرَ بها؟!

* ثمَّ إنَّ معاويةَ دعا كاتبَه في تلكَ الليلةِ ، وأمره أنْ يكتبَ إلىٰ واليه بالكوفةِ ، أنْ أوفدْ عليَّ الزّرقاء بنت عدي الهمدانية ، وابعثْها مع ثقاتٍ من محارمِها وأقربائِها ، وعززْ ذلكَ بعدّةٍ فُرسانٍ من قومها يحرسونَها ، ومهِّدْ لها وطاءً ليّناً لطيفاً ، واسْتُرهَا بسترٍ سميك غليظٍ ، وأوسعْ لها في النَّفقة والمالِ ، وعجّلْ في إرسالها .

* وقدمَ رسولُ معاويةَ الكوفةَ ، وقصدَ دارَ الوالي ، ودفعَ إليه كتاب أميرِ المؤمنين ، فلما علمَ فَحْواه ، أسرعَ وركبَ ، وتوجَّه نحو قبيلة ومنازل همدان حتى وصلَ الزَّرقاء وأقرأها كتابَ معاوية ، فقالت : أنا غيرُ زائغةٍ عن طاعةِ معاويةَ أميرِ المؤمنين وخالِ المسلمين ، ولكنْ إنْ كان جَعل الخيار إليَّ لم أبرحْ من بلدي هذا ، ولم أتحوّلْ عنه ، وأمّا إنْ كانَ حُكْمُ أميرِ المؤمنين وحَتْمُه علىٰ قُدومي إليهِ فالطَّاعَةُ له ، وهو أولىٰ بي ، ولا أَعْصي له أمْراً .

فقال لها والي الكوفةِ : يا هذه ، إنَّ هذا الأمرَ هو أمْرُ أمير المؤمنينَ معاوية ، ولا يَحْسُنُ بكِ أنْ تخالفيه .

فقالت : حَسَناً ، فافعلْ ما أمَرَ بهِ أميرُ المؤمنين .

هَـلْ تَـحْفَظِـينَ كَـلامَـكِ يَـوْم صِفّيْـن؟

* أعدَّ والي الكوفةِ جِهازَ سَفرِ الزَّرقاء بنت عدي ، وأحسنَ جهازَها ، وحملَها في مركبٍ منْ مراكبِ النِّساء علىٰ جملٍ قوي ، وجعلَ غشَاءَ مركبها من الخزِّ الأدكَنِ المبطّنِ بنوعٍ منَ الثّياب الفارسيّةِ البيض التي تُعَدُّ للسَّفرِ وقَطْعِ الفيافي ، ثمّ إنَّه أوعزَ إلىٰ بعضِ محارمها بالاستعدادِ معها للذَّهابِ إلىٰ دمشقَ الشَّام ولقاءِ معاويةَ أميرِ المؤمنين ، ثمّ أَحْسنَ صُحْبتَها وعزَّزَ ذلك بفوارسَ كُماةٍ أشداءَ من بني همدان ، كي يصحبوها إلى بلاد الشَّام .

* وفي اليوم التَّالي كانتِ الزَّرقاءُ ومَنْ معَها في طريق الشَّامِ ، فلما وصلتِ الشَّام ، ودخَلَتْ على معاويةَ أَحْسنَ استقبالَها ، وقال لها : مرحباً وأهلاً ، قدمتِ خيرَ مَقْدمٍ قَدِمَهُ وافدٌ ، وحللتِ منزلاً ينزلُ به الرّافد .

فقالتِ الزّرقاءُ: أعزَّ اللهُ أميرَ المؤمنين، وأكرمَ مثواه، وجازاه خيرَ الجزاءِ.

قال معاويةُ والابتسامةُ تعلو وجهه الجميلَ: كيفَ حالك يا خالة؟ قالت: بخيرٍ يا أمير المؤمنين وفَضْل، أدامَ اللهُ لكَ النِّعمة والعزّ.

قال: كيف كنتِ في مسيركِ إلينا، وقدومكِ علينا؟

قالت: خيرُ مسيرٍ يا أميرَ المؤمنين، كأني كنتُ ربيبةَ بيتٍ، أو طفلاً ممّهداً له علىٰ فراشٍ وثيرٍ لطيف.

قال: بذلك أمرناهم يا بنتَ عدي، لتقدمي علينا في أهنأ مركبٍ، وأنعمِ بال.

قالت: جزاكَ اللهُ خيراً يا أميرَ المؤمنين، وَفِعْلُ الخيرِ لا يُحصيه شُكْر؛ فأنتَ زينُ كلِّ فضيلةٍ وحلمٍ وكرَمٍ.

* وسكتَ أميرُ المؤمنين معاوية، بينما راحتِ الزرقاء تجوسُ بعينيها القَصْر، وتتفرَّجُ علىٰ المحاسن الموجودةِ فيه.

* وقطعَ الصَّمْتَ المخيمَ علىٰ القَصْر صوتُ معاويةَ الذي توجَّه بالسُّؤالِ إلىٰ الزَّرقاءِ فقال: يا زرقاءُ، هل تعلمينَ فيم بعثتُ إليك؟

قالت: سبحانَ علاّم الغيوب، وأنّىٰ لي بعلم ما لم أعلمْ، وهل يعلمُ ما في القلوب إلا الذي خَلقَ فسوّىٰ، وقدَّرَ فهدىٰ؟!

فقال معاويةُ: لقد بعثتُ إليك كيما أسألُك: هل أنتِ الرَّاكبةُ الجملَ الأحمرَ يوم صِفّين، وأنتِ واقفةٌ بينَ الصَّفَيْن، تُوقدينَ فتيلَ الحربِ، وتحضّين علىٰ القتالِ والطِّعان والنّزالِ، فما حملَك علىٰ ذلك يا أَمَةَ الخيرِ؟!

قالت: يا أميرَ المؤمنين، إنَّه قد ماتَ الرَّأْسُ، وبُتِرَ الذنبُ، ولم يَعُدْ ما ذهبَ، وبقي أمْرٌ عَجَب، والدَّهرُ ذو غِير[1]، ومَنْ تفكّر أبْصَر، والأمرُ يحدثُ بعده الأمر.

---

(١) «غِيَـرٌ»: مصائبُ وأحوالٌ، قالتِ الخنساءُ في رثاءِ أخيها صَخْر منْ رائيتها الشّهيرة:
لابدَّ منْ موتةٍ في صرْفِها غِيَرٌ والدهرُ في صرفهِ حَوْلٌ وأطْوار

* واستحسنَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ ما قالته الزَّرقاء ، وظهرتْ علاماتُ الإعجابِ علىٰ وجهه ، وارتسمتْ إماراتُ السُّرورِ على ملامِحه ومحياهُ وقال لها : صدقتِ يا خالة واللهِ . ثمَّ صمتَ قليلاً وقال لها : يا خالةُ ، لقد كان لك كلامٌ له وقعٌ عظيم بين الفئتَيْن ، هل تحفظينَ كلامك يومَ صفّين؟

قالتِ الزَّرقاء : واللهِ ما أحفظُه يا أميرَ المؤمنين ، وقد دفعتني يومها سورةُ الغَضَبِ لما قُلْتُ ، وقد أنسانيه الدَّهْرُ ، ألم أقلْ لكَ : إنَّ الدَّهر ذُو غِير؟!! فلا تؤاخذْني يا أميرَ المؤمنين ؛ فواللهِ لقد أُنسيتُه .

فقال معاويةُ : لكنّي أحفظُه ، لله أبوك! لقد سمعتُك تقولين يومها بصوتٍ مسموعٍ ؛ وأنتِ تخطبينَ بينَ الجُموع : أيّها النّاس ارعوا وارجعوا ، إنّكم قد أصبحتُم في فتنةٍ غَشَّتكم جلابيبُ الظُّلَم ، وحادتْ بكم عن قَصْدِ المحجَّةِ ؛ فيا لها من فتنةٍ عمياء ، ويا لها من فتنةٍ صَمّاء بلهاءَ ، لا يُسْمعُ لناعِقها وقائِلها ، ولا ينْقادُ لسائِقها وقائِدها ، ولا يُنْظَرُ لمشْعِلها وموقدها .

* أيّها الناس ، إنَّ المصباحَ لا يضيءُ في نُور الشَّمسِ ، ولا تنيرُ الكواكبُ مع ضوءِ القَمر ، وإنْ الزَّفَّ لا يوازنُ الحجر ، وإنَّ البغلَ لا يسبقُ الفرسَ ، ولا يقطعُ الحديدَ إلا الحديدُ ، ألَا مَن استرشدَنا أرشدناهُ ، ومَنْ سألَنا أخبرناه .

* أيّها النَّاس ، إنَّ الحقَّ كانَ يطلبُ ضالّتُه فأصابَها ، فصبراً يا معْشَر المهاجرينَ والأَنْصار علىٰ الغُصَص ، فكأن قد اندملَ شعبُ الشّتات ، والتأمتْ كلمةُ العدل والحقِّ والتقوى ، ودفعَ الحقُّ باطلَه وغَلَبَه ، فلا يعجلن أو يجهلن أَحدٌ فيقول : كيفَ ، وأنّى؟ ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال : ٤٤] ، ألَا إنَّ خِضَابَ النِّساء الحنّاءُ ، وخضابَ الرجالِ الدّماءُ ، والصَّبر خيرٌ ، وفي الأمورِ عواقبُ ؛ إيهاً إلىٰ الحربِ قدماً غير ناكصينَ ، وهذا يومٌ له ما بعده .

* ثمَّ إنَّ معاويَة سكتَ قليلاً وقال لها : هذا بعض ما قُلْتِهِ يا زرقاءُ يومَ صفّين . فلم تردَّ عليه الزَّرقاء بكلمةٍ .

أَوَ يَسُرُّكِ ذَلِك ؟

* كانتِ الزرقاءُ بنةُ عدي الهمدانية تسمعُ لكلماتها الحماسيّة التي يحفظُها معاويةُ وأصحابه ، وكانت علائمُ السّرورِ ترتسمُ على أساريرِ وجهها الذي أثَّرَتْ فيه صروفُ الدَّهْرِ ، وسطّرت عليه جرأتها وشجاعتها.

* وبينما كانتِ الزرقاءُ تجوسُ المكانَ بعينها قال لها معاوية : واللهِ يا زرقاءُ لقد شركتِ أميرَ المؤمنين عليَّ بنَ أبي طالب في كلِّ دمٍ سَفَكه[1]!!

فقالتِ الزَّرقاءُ وقد ظهرتْ علاماتُ السُّرور علىٰ وجْهِها: أَحْسَنَ اللهُ بشارتَك يا أميرَ المؤمنين ، وأدامَ سلامَتك ، فمثلُك بشَّرَ بخيرٍ وسَرَّ جليسَه.

فقال لها : أو يسرُّكِ ذلك يا زرقاءُ؟

قالتْ : نعم واللهِ لقد سرَّني قولك ، فأنّىٰ لي بتصديقِ الفِعْل؟ فقال لها معاويةُ وقد تبسَّم ضَاحِكاً من قولها: واللهِ لوفاؤكم له بَعْدَ موتِه ، أعجبُ إليَّ من حُبِّكم له في حياتِهِ!!.

قالت : صدقتَ يا أميرَ المؤمنين.

قال : فاذكُري حاجَتَكِ.

قالت : يا أميرَ المؤمنين ، إني امرأةٌ آليتُ ألاّ أسألَ أميراً أَعَنْتُ عليهِ أبداً ، ومثلُك أعطىٰ منْ غيرِ مَسْأَلةٍ ، وجادَ من غيرِ طِلْبةٍ.

قال: صدقتِ ، فأقْطَعَها ضيعةً أغلَّتْهَا أوّلَ سنةٍ ستّةَ عشرَ ألْف درهم ، وأحسنَ عطاءَها وردَّها مكرمةً ، وأكرمَ الذين جاؤوا معها بجوائزَ وثياب[2].

---

(١) هذا الكلامُ الخطيرُ الذي قيل علىٰ لِسانِ سيّدنا معاويةُ لا يمكن أنْ يقولَه ـ ولو صحَّ ـ في حقِّ سيّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، فمعاويةُ يعرفُ قَدْرَ عليّ ومكانهَ ومكانتهُ في عالم الصَّحابة الأبرار ، وهذا الكلامُ منْ نَسْجِ الوضّاعين والرّواة.

(٢) انظر: بلاغات النساء (ص٥٢ ـ ٥٤) ، والعقد الفريد (٢/ ١٠٦ ـ ١٠٨) مع الجمع والتّصرف. وانظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص١٠٩ ـ ١١١) ، والدر المنثور (ص٢٢١) ، وأعلام النساء (٣٢ ـ ٣٤) ، والمستطرف (١/ ١٨٩ و١٩٠).

* ثمَّ إنَّ معاويَة كتبَ إلىٰ والي الكوفةِ بالوصيةِ بالزّرقاء ، كما أوصاه بـ ـسيرتها وقضاءِ ما يحتاجون إليه .

* لقد كانتْ قبيلةُ همدان تذوبُ حبّاً ، وتتفانىٰ وفاءً لعليّ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وله الشّعر الذي يقول فيهم :

ولـو كُنْتُ بـوّاباً عَلىٰ بَابِ جنَّـةٍ   لقُلْـتُ لهمـدانَ ادخلُـوا بِسَـلام

وذلك من شدّةِ إعجابهِ بوفائِهم وتضحيتِهم معه .

* إنَّ ما قرأناه في أخبارِ الزَّرقاء بنة عدي ، يمثّلُ نفسيةَ المرأةِ التي تقولُ ما تؤمنُ به؛ ولو صحّتْ قصَّةُ الزّرقاء هذه لانتظمَ منْ تاريخنا النَّسوي عقْدٌ فريدٌ منَ النِّساء اللواتي عقمَ الزّمان أنْ ينجبَ مثلهنَّ .

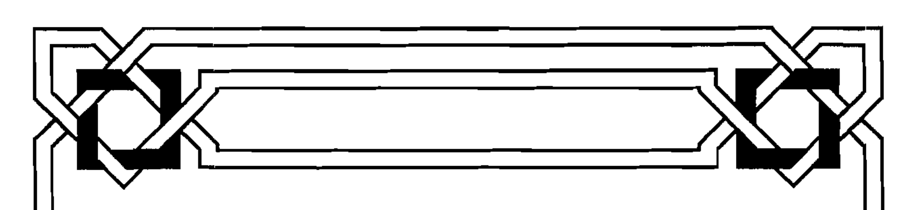
* ولعلَّ جوَّ الحرية الذي مارسَتْه هؤلاء النّسوة في ظلِّ معاويةَ ، هو الذي هيّأَ المجالَ الخصبَ لصوتِ المرأةِ أنْ ينموَ ويعلوَ في عالَمِ الإبداعِ في فنِّ الكلمةِ والبلاغةِ والبيانِ .

وبعد فهذه الزّرقاء بنتُ عدي[١] إحدى النّساء اللواتي برزنَ في قصورِ الأُمراء ، وترامت أخبارها إلينا منْ خلالِ القُصور .

* * *

---

(١) أمّا وفاةُ الزرقاء ، فلم تسجلْها المصادرُ التي بين أيدينا ، بل إنّ المصادرَ لم تسجلْ لنا سوىٰ تلكم الوقفةَ بين يدي معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ، وأغلبُ الظَّن أنَّ ما قرأناهُ يعتريه الوضعُ والتّزيد .



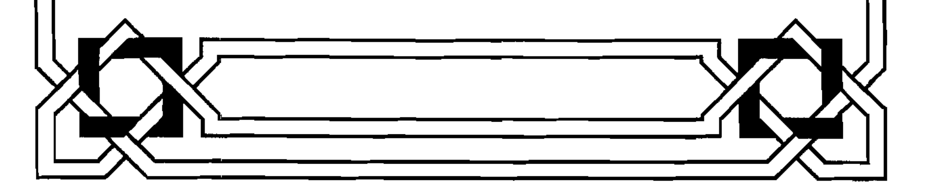
(٨)

شجاع أمّ المتوكّل على الله

* زوج خليفة ، وأم خليفة ، وجدّة خليفة .

* ندية الكف ، سخية النفس ، وكانت تُدعى : السيدة .

* لها أعمال خيِّرة ، أثنى عليها كُتَّاب التراجم والمؤرخين .



زَوْجُ خَـليفَـةٍ وأمُّ خَـليفَـةٍ:

* في رحابِ نساءِ الأمراءِ في القُصُور ، نلتقي امرأةً نديةَ الكفِّ ، سخيةَ النَّفْس ، عاشتْ في ظِلالِ الخُلفَاء العبّاسيين عيشة هنيّةً ، وكانت تحظىٰ بوافرِ الاحترامِ والتَّوقير ، وكانت تُدعى السَّيّدة[1] .

* وهذه السَّيِّدةُ المعطاء ، ذات المكانةِ العُلْيا في قُصُور الخُلفاء ، لا يعْرِفُ التَّاريخُ سوىٰ اسمها ، ولم تَحفَظِ الأوراقُ سواه ، فلا نَجدُ لها نَسَباً يَصلُها بآبائِها وأمّهاتها ، ولعلَّ اسمهَا الغريبَ بينَ أسماءِ النِّساء هو الذي جَعَلَ التَّأْريخ والمؤرخين يغفلُون اسمَ أبيها ، وربّما لا يكون اسمُها كما حَفِظَه التَّاريخُ ، وإنّما خلَعَه عليها تجّارُ الرَّقيق لما جاؤوا بها إلىٰ العِراق ؛ لتصير إلى الخليفةِ المُعْتَصم باللهِ بن هارون الرّشيد .

* إذاً فهذهِ السَّيِّدة هي منْ زوجاتِ المعتصمِ بالله ، ولعلَّها كانت منْ أشهرِهنَّ إنْ لم تكن أشهرهُنَّ ـ والآن ، فقد آنَ الأوان كي نقرأ بطاقةَ هذه المرأة ، فهي شجاعُ أمّ المتوكّل علىٰ اللهِ[2] ، كانت تُدعىٰ السَّيِّدة ، وهي إحدىٰ نِساءِ الخُلَفاءِ ذواتِ البِرّ والإحْسانِ ، والعبادة والصَّلاحِ والإنفاقِ في طُرقِ الخيرات .

---

(١) انظر أسماء زوجات المعتصم في جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص٢٤ و٢٥).

(٢) النّجومُ الزّاهرة (٢/ ٣٢٣) ، وتاريخ الطّبري (٦/ ٦٩) ، والديارات (ص١١) ، والبدايةُ والنهايةُ (١٠/ ٣٥٠) ، ومروجُ الذّهب (٤/ ١١٨) ، والمنتظمُ لابن الجوزي (١١/ ٣٥٠) ، وسير أعلام النّبلاء (١٢/ ٣١ و٤١) ، وتاريخُ بغداد (٧/ ١٦٦) ، وأعلام النساء (٢/ ٢٨٦) ، وتاريخ القضاعي (ص٤٥٠) وشذراتُ الذّهب (٣/ ٢٢٢) ، ووفياتُ الأعيان (١/ ٣٥٠) ، وجمهرة أنساب العرب (ص٢٤) ، وتاريخ اليعقوبي (٢/ ٤٨٤) ، ونهاية الأرب (٢٢/ ٢٧٥) ، والجليس الصّالح (٢/ ٥٣ ـ ١٥٦) .

شُجَاعُ في قَصْرِ المُعْتَصِم:

* قَبْلَ أنْ نتعرَّفَ أصْلَ هذه السَّيِّدة التي ملأتْ دنياها بالإحْسَانِ، وشغلتِ النَّاسَ بأفعالها الحِسَان، تعالوا نعرف شيئاً منْ معاني اسمِها كما ذكرتْهُ المعاجِمُ وكتبُ اللغة.

* قالَ الزَّمخشري: امرأةٌ شُجاعةٌ وشَجاعةٌ وشِجاعةٌ وشَجيعةٌ، ونساءٌ شُجاعات وشجيعاتٌ وشجائِع... وامرأةٌ شجعةٌ وشَجْعاء: جريئةٌ علىٰ الرِّجال في كلامِها وسلاطتها.

* ومنَ المجازِ: نَفْثَةُ الشّجاع، والشِّجاع ـ بكسر الشّين ـ: هو الحيّة الجريئةُ الشّديدة[1].

* وقال ابنُ فارس: رجلٌ شُجاع، وامرأةٌ شجاعةٌ، ونسوةٌ شُجاعاتٌ، والشَّجاع: الحيّة. وقالَ رسول الله ﷺ: «يجيءُ كَنْزُ أحدِهم يومَ القيامةِ شُجاعاً أقرع»، والشَّجعة من النِّساء: الجريئة[2].

* وقال ابنُ فارس أيضاً: الشَّجَعُ: الطُّول، ورجلٌ أشجع، وامرأةٌ شَجْعاء، والشُّجاعُ: ضَرْبٌ منَ الحيَّات. والشّجيعة والشّجعة منَ النِّساء: الجريئةُ. يُقال: رجلٌ شُجاع، وامرأة شُجاعة، ونسوةٌ شجاعات[3].

* وقال ابنُ منظور: امرأةٌ شَجِعة، وشجيعةٌ، وشُجاعة، وشَجْعاء منْ نسوةٍ شَجائع، وشُجُع وشِجاع، ونسوةٌ شجاعات. والشَّجيعة منَ النِّساء: الجريئةُ على الرِّجال في كلامِها وسلاطتها، والشُّجاع: ضَرْبٌ منَ الحيَّات لطيف دقيق.

والشُّجاعُ والشَّجاع: الحيَّة الذّكْرُ، وقيل: الحيَّةُ مطْلَقاً، وقيل: هو

---

(١) أساسُ البلاغة (ص٣٢١) باختصار.
(٢) معجم المقاييس في اللغة (ص ٥٥٠).
(٣) مجملُ اللغةِ لابن فارس (ص٤٠٠).

ضَرْبٌ منَ الحيّات ، وقيل: هو ضَرْبٌ منها صغير[1].

* هذا بعضٌ ممّا وافتنا به المعاجمُ عن اسمِ شُجاع ، أمّا شجاعُ زوجُ المعتصمِ وأمّ المتوكّل ، فنودُّ أنْ نتعرفَ أيضاً عنْ نشأتِها وأصلها لتتوضَّحَ صورتُها في الأَذْهانِ.

* تقول المصادِر: كانتْ شُجاع ـ قبل أنْ تدخلَ قصورَ الأمراءِ والخلفاءِ ـ جاريةً عاديةً ، شأْنها شأن غيرِها منَ الجواري ، ولما أنْ أتيحَ لها دخول قَصْر المعتَصم بالله ، أولدها ابنَه أبا الفَضْل جعفر المتوكّل علىٰ اللهِ ، وذلك في سَنَةِ (٢٠٥ هـ) إبانَ خلافةِ أخيه المأمون بن هارون الرّشيد.

* وتروي بعضُ المصادر أنَّ أصْلَ شجاع أمّ المتوكّل تركي ، فهي تركيّةُ الأَصْلُ[2] ، وجاءَ في كتاب «التّنبيه والإشراف» أنّها طخارستانية[3] ، جاء بها تجّار الرّقيق إلىٰ العِراق ، ثمَّ باعها النَّخَّاسُون هناك ، إلىٰ أنْ صارَتْ إلى المعتصمِ بالله العبّاسي ، فحظيتْ عنده ، وغَدَتْ سيّدةَ وقتِها وعَصْرها ومصرها ، وخصوصاً بعد أنْ ولدت للمعتصمِ ابنه المتوكّل علىٰ الله.

مـن أعْـمَـالِـهَـا الـخَيـريّـةِ:

* في سَنَة (٢٣٢ هـ) تولّى المتوكّلُ علىٰ اللهِ الخلافةَ ، وعندها أشرقَ اسمُ أُمّه إشْراقاً لم تعهَده امرأةٌ منْ نساءِ عَصْرِها ، حيثُ كان لها شأْنٌ عظيمٌ ، وظهرتْ فَضَائِلُها في الأعمالِ الخيريّة التي لم تشملْ مدينةِ سَامرّا وَحْدَها ، وإنّما امتد إحسانِها إلىٰ الأراضي المقدَّسةِ لتتركَ هناك أثراً عظيماً تذكرهُ لها الأيّامُ ما دارتِ الأيّامُ ، وما دامتِ الشُّهورُ والأعْوام.

* ففي سَنَة (٣٢٧ هـ) وفي خلافةِ ابنِها المتوكّل ، عَزَمَتِ السَّيِّدة شُجاع علىٰ أَداءِ فريضةَ الحجّ ، فأعدَّ لها المتوكّلُ ما تحتاجهُ في رحلةِ الحجّ إلىٰ بيتِ

---

(١) لسانُ العربِ (٨/ ١٧٣ و١٧٤) باختصار.
(٢) جمهرة أنساب العرب (ص٢٤).
(٣) التنبيه والإشراف (ص٣١٣).

اللهِ الحرامِ ، ثمَّ خرجَ معها وشيَّعَها إلىٰ النَّجفِ ، ثمَّ عَادَ ، ولما صارتْ إلىٰ الكوفَةِ أمرتْ لكلّ رجُلٍ من الطَّالبيين والعبّاسيين ألف درهم ، ولأبناءِ المُهاجرين بخمسمئة درهم ، ولكلّ امرأةٍ من الهاشميّات بخمسمئة درهم[1].

* وكانت شُجاع في حجّتِها هذه في صحبةِ حفيدها محمّد بن المتوكّل ، وهو الذي لُقِّبَ بالمنتصر عندما غَدا خليفة.

* وتروي أخبارُ شُجاع خَبَراً تتفرَّدُ به بين نِسَاء الخُلفَاء ، بأنَّه لا تُعرفُ امرأة رأت ابنَها وله ثلاثة أولاد ولاةُ عُهود إلاّ هي[2].

* ولشجاع أعمالٌ خيريّةٌ عظيمةٌ تَشْهَدُ بكمالِ مروءتها ومحبتها العظمىٰ لشعائِر بيتِ اللهِ الحرام ، فقد حَدَثَ أنْ غارَتْ عينُ مشَاش[3] التي تَصِلُ عرفَات وتفضي إلىٰ مكةَ ، فأصابَ إذ ذاك أهلُ مكّةَ العَطَشُ ، وبلغَ ثمنُ قِربَةِ الماءِ الواحدة ثمانين درهماً.

* هنالك عَلِمَتِ السَّيّدةُ شجاع أمّ المتوكّل بما حَدَثَ ، فعمِلَتْ علىٰ إنقاذِ أهلِ مكّةَ والحُجّاجِ منَ العَطَش ، وأرسلتْ مَنْ أصْلَح العَيْنَ ، وأصلحَ قَنَاتَها ، وأنفقتْ على ذلك العمل مالاً كثيراً منْ مالِها ، ولم تبْتَغِ بذلك إلاّ مرضاة اللهِ ـ عز وجل ـ ، وكان لها كثيرٌ منَ الأعمالِ الخيريّة والآثار الحِسَان

---

(١) أعلام النساء (٢/ ٢٨٦).

(٢) انظر: شذَرات الذهب (٣/ ٢٢٢) ، وابنها هو المتوكّل ، وأبناؤه: المنتصر بالله ، والمعتز بالله ، والمؤيد بالله.

(٣) منَ الجدير بالذّكْر أنَّ هذه العَيْن «عين مشَاش» من عَمَل السَّيّدة الجليلةِ الشّهيرةِ زُبيدةَ زوجِ هارون الرشيد ـ رحمهما الله ـ ، كما أنَّ لزبيدةَ آثاراً حِسَاناً في الحرمَيْن الشَّريفين وغيرهما من بلاد المسلمين.
قال محمّدُ بنُ أحمد النّهرواني المتوفىٰ سنة (٩٩٠ هـ): عين مشاش موجودة إلىٰ الآن ـ أي: إلى عَصْره ـ وهي من جملةِ العيون التي تنضبُ في ذيل عين حُنين ، وهي تجري وتضعفُ أحياناً لقلّة المطر ، ومحلّها معروف. (كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص١٦٣ و١٦٤).

في كثيرٍ منَ البِقاع والبُلدان ، وكانت من الخيِّراتِ ذواتِ الفَضْلِ ، الرَّاغبات في الخَيْرات ، ولها آثار كريمةٌ تشهدُ لها ، وتثبِتُ اسمها في ديوانِ الخَالدات منْ نساءِ الأُمَراء والخُلفَاء .

الثَّناءُ عَلَيْهَا :

* شجاعُ أمّ المتوكّل على الله واحدةٌ من نساءِ القُصور اللواتي حظينَ بالثَّناءِ العَطِر الشَّذي منَ النَّاس علىٰ اختلافِ طبقاتِهم ، وأثنى عليها كُتَّاب التَّراجم والمؤرّخون وغيرهم ممن تعرّضُوا لحياتِها وأخبارها .

* ففي تاريخهِ ذكرَها الخطيبُ البغداديُّ وأثنى عليها ، ونقل عن ابنِ عرفةَ أنَّه قالَ فيها : وكانتْ من سرَوات النّساء سخاء وكَرماً[١] .

* وفي «نُجومه» تعرَّضَ ابنُ تغري بردي لذكْر صلاحِها وأعمالِها العظيمة ، وحبِّها للصَّدقَاتِ ، وأوجزَ ذلك بقوله : وكانت تُدعى السَّيِّدة ، وكانت صالحةً كثيرةَ الصَّدقات والمعروف ، كانت تُخرجُ في السِّرّ علىٰ يَدِ كاتبها أحمد بنِ الخصيب[٢] .

* وعندما تحدَّث الحافظُ ابنُ كثير عنِ السَّيِّدة شجاع امتدحَها بقوله : كانتْ منْ سَرَواتِ النِّساء سَخَاءً وحزماً[٣] .

* وأثنىٰ عليها ابنُ العماد الحنبليّ في «شَذَراته» فقال : وكانت خيّرة كثيرةَ الرّغْبةِ في الخير[٤] .

* ولما تعرضَ ابنُ الجوزي لسيرةِ شُجاع أمّ المتوكّل ، أثنىٰ عليها بقولِه : كانت امرأة وافرةَ السَّماح ، شديدة الرَّغْبةِ في فعْلِ الخير[٥] .

---

(١) تاريخ بغداد (٧/ ١٦٦) ، وانظر المنتظم : (٦/ ٥٣٨) طبعة دار الفكر ١٩٩٥م .
(٢) النجوم الزاهرة (٢/ ٣٢٣) .
(٣) البداية والنهاية (١٠/ ٣٥٠) .
(٤) شذرات الذهب (٣/ ٢٢٢) .
(٥) انظر : المنتظم (٦/ ٥٤٠) .

* وافتتح عمر رضا كحّالة ترجمتها بالثَّناء عليها بقولِهِ: منْ ربَّاتِ البِرّ والإحسَان والعبادَةِ والصَّلاح[1].

* وهكذا وجدنا أنَّ المصنّفين قد خلعُوا أرديةَ الثَّناءِ علىٰ شُجاع أُمّ المتوكل، وذكروها بكُلّ فضيلة، واعترفُوا بحبّها ورغبتها في الخيرِ واصطناعِ المعروف، وفي القصّة التّالية نتعرف مصداق ذلك.

رغْبَتُهَـا فـي الإنـفَـاقِ وَالـخَيْـرَاتِ:

* كانتِ السَّيّدةُ شجاع امرأةً سخيةَ النَّفْس بالسَّجية، تحبُّ الإنْفاقَ من طَيِّب مالِها، وتحبُّ أنْ تَضَعه في مواضِعِه الصَّحيحة، وترىٰ أنَّ ذلك يجعلُها منَ السَّعيدات، فقد كانَ منى أملِها أنْ تجبرُ العثرَات، وتصنعَ المبرّات، ولها في هذا المضمار اليد الطّولىٰ، وقد سجَّل لها تاريخُها عَملاً وضيئاً في ذلك، ذكره لنا أحدُ المُقرّبين منها.

* فقد روىٰ أحمدُ بنُ الخصيب قصّةً عن إنفاقِ شُجاعٍ في سُبُل الخير مفادُها أنَّـه قال: قبل أنْ أكونَ وزيـراً كنْتُ كاتبـاً للسَّيِّدة شُجاع أمّ المتوكّل علىٰ اللهِ، فإنِّي ذات يوم في مجلسي في ديواني، إذْ خرجَ إليَّ خادمٌ خاصٌّ ومعه كيس، فقال لي: يا أحمدُ بن الخصيب، إنَّ السَّيِّدة أمّ أمير المؤمنين تقرئك السَّلام، وتقولُ لك: هذه ألفُ دينار من طيِّب مالي وصفْوته، خُذْها ثمّ ارفعها إلىٰ قومٍ مستحقّين تكتب لي أسماءهَم وأنسابَهم ومنازلهَم، فكلّما جاءنا منْ هذه النّاحية شيءٌ صرفناه إليهم.

* قال أحمدُ بنُ الخصيب: فأخذتُ الكيْسَ منَ الخادِمِ، ثمَّ ذهبتُ إلى منزلي، ووجَّهتْ خلْفَ مَنْ أثِقُ به منْ أصحابي، وعرفتُهم ما أمرتْ به السَّيِّدة شجـاع أمّ أمير المؤمنين، ثمّ إنّـي سألتُهـم أنْ يسمُّـوا لـي مَـنْ يعرفون مِنْ أهل السِّتْر والحاجَةِ، ممن ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ

---

(١) أعلام النساء (٢/ ٢٨٦).

ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] فذكروا لي جماعةً يعرفونَهم ، فقمتُ وفرّقْتُ فيهم ثلاثمئة دينار ، ثم عدتُ إلىٰ منزلي .

* وجاءَ الليل وأرخىٰ سُدُولَه على الدُّنيا ، والمالُ بين يدي لا أجدُ من أهْلِ السِّتر والحاجَةِ منْ يستحقّه ، وأنا أفكّرُ في مدينةِ سُرَّ مَنْ رأى[1] ، وبُعْد أقطارِها ، وتكاثُفِ أهلها ، ليس بها محقٌّ يأخذُ ألف دينار .

* وكان معي بعضُ حُرمي ، وقد مضىٰ منَ الليلِ ساعةٌ ، وغُلِّقتِ الدُّروبُ ، وطافَ العَسس ، وأنا مفكّرٌ في أمْرِ الدّنانير ، إذ سمعتُ بابَ الدّار يُدَقُّ ، وسمعتُ البوّاب يكلِّم رجلاً من ورائه ، فقلتُ لبعضِ مَنْ بين يدي : اذهبْ واعرفِ الخبرَ ، فانطلقَ ثم عادَ إليَّ فقال لي : بالبابِ فلانُ بنُ فلان منْ أهلِ البيت النَّبوي يسألُ الإذْنَ عليك ، فقلتُ له : يا هذا مُرْهُ بالدخول ، ثم قلتُ لمن بين يدي منَ الحرم : كونوا وراءَ هذا السِّتر ، فما قَصَدنَا هذا الرَّجل الشَّريف في هذا الوقتِ إلا لحاجةٍ مُلحّةٍ اضطرته إلى الخروجِ ليلاً .

* ودخل الرَّجلُ الشَّريف ، فسلَّم وجلسَ ، ثمَّ قالَ لي في استحياءٍ :

---

(١) «سُرَّ مَنْ رَأىٰ» : مؤنّثة ، وهي المدينةُ التي بنَاها الخليفةُ المعتصم بالله العباسي بالعراقِ سنة (٢٢٠ هـ) ، ونزلها بأتراكه .
قال ابنُ الأعرابي : السُّرُّ عندَ العرب : السُّرور بعينه ، فمعنى هذا الاسم : سرورُ مَنْ رأى .
ويجوزُ لك في بنائه وإعرابِه منَ الوجوه ما جازَ في حضرموتَ وبعلبكَ ونظرائهما ، فإنْ جعلتَ سُرَّ فعلاً ماضياً ألزمت الفتح ، وكذلك إنْ قلتَ : سَرَّ مَنْ رأىٰ ، بفتح السين ، ويجوز إعراب سَرَّ على الوجهين ، وأجاز الفرَّاء : هذا تأبَّط شرّاً ، ومررتُ بتأبط شرٍّ على الإضافة ، وقول العامة : «سامرّي» ، صواب على أن «سا» فعل ماض أصله ساء فتُرك همزه لكثرة الاستعمال ، وكذلك همز رأى ، وأدغم النون في الراء ، كما قرىء : ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين : ١٤] ، وقد أتى به البحتري في شعره ممدوداً فقال :
أخليتَ منه البذَّ وهو قرارُه ... وتركتَه عَلماً بسامرّاء
(معجم ما استعجم ص٧٣٤) بتصرف يسير .

يا أحمدُ بنُ الخصيب طرقَني في هذا الوقتِ طارقٌ لرسولِ اللهِ ﷺ من ابنةٍ لرسول الله ﷺ ، ولا واللهِ ما عندنا ولا أعددنا ما يَعُدُّ النَّاس ، ولم يكن في جواري من أفْزَعُ وأقرعُ بابه غيرك .

* قال أحمدُ بنُ الخصيب: فدفعتُ إليهِ ديناراً ، فشكرَ وانصرفَ ، وخرجتْ ربَّةُ المنزلِ منْ خَلْفِ السّتْر ، وقالت لي: يا هذا تدفعُ إليك السَّيِّدةُ شُجاع أمّ المتوكل ألف دينار تدفعُها إلىٰ مَنْ يستحقّ ، وقد شَكا إليك هذا ما نزلَ به ، وتدفع إليه ديناراً؟ !

فقلت لها: وما السَّبيلُ يا بنْتَ الكرام؟

قالت: تدفعُ الكيس إليه بالدَّنانير المتبقية .

قلتُ: يا غلام ، رُدَّ الرّجل قبل أنْ يصلَ منزلَه .

* وانطلقَ الغُلام مُسرعاً فردَّه ، فحدّثتُه بالحديثِ ودفعتُ الكيسَ إليه ، فأخَذَه ، وشكرَ ، ودعا لي ولها ، ثمَّ انْصرفَ وهو يلهجُ بالدّعاء والثّناء لتفريجِ الكربةِ التي نزلَتْ به .

* ولما خرجَ الرَّجلُ ساورني أنْ دفَعْتُ لهذا الشَّريف سبعمئة دينار ، وقلتُ لربةِ المنزل كاللائم لها: يا هذه قَد وقَّعتيني فيما أكره ، فإمّا سبعمئة دينار ، أو زوال النّعم ، وعرّفتُها ما عندي من الهمّ ، فقالت: توكَّل علىٰ الله ، فأنْتَ صنعتَ الخير مع جدّهم رسول الله ﷺ .

* وما زالتْ بمثلِ هذا القول ومثله ، إلى أنْ اطمأنَنْتُ وسكتُّ ، وذهبَ عنّي الرَّوع والقَلَق ، وقمْتُ إلىٰ فراشي ، وما كدتُ أغمضُ عيني إلا وصوتُ الدّليل علىٰ البابِ ، فقلتُ لبعضِ مَنْ كان بالقربِ منّي: مَنْ علىٰ الباب؟ فعادَ وقال: رسولُ السَّيِّدة شجاع أمّ المتوكل ، وهو يأمرُك بالرّكوب إليها السَّاعة .

* وخرجتُ إلىٰ صَحْنِ الدَّار ، والليلُ بحالتهِ مُرْخٍ سواده على الدُّنيا ، والنُّجومُ بحالتها تزينُ السَّماء الدُّنيا ، ثمَّ جاءَ دليلٌ ثانٍ وثالثٌ ، فأدخلتُهم

منزلي وقلتُ لهم: إنَّ الليلَ بحالِهِ، والصَّباحَ قريبٌ، وسأذهبُ إلى السَّيِّدة عنْدَ الفجر.

فقالوا: يا أحمد لابدَّ منْ أنْ تركبَ، وتذهَبَ إلىٰ السَّيِّدة في قَصْرها، فقد أصرَّتْ علىٰ قدومك الآن عليها.

* فأصلحتُ منْ شَأْني، وركبتُ إلى القَصْر، وما كِدْتُ أدخلُ إلا وأنا في موكبٍ منَ الرُّسل، فدخلتُ القَصْر، فقبض خادمٌ علىٰ يدي، وأدخلني إلىٰ الموضعِ الذي كنْتُ أَصِلُ وأدخلُ من قبل، ثمَّ قال لي: قِفْ هنا. ثم خرجَ خادمٌ خاصٌّ منْ داخلِ القَصْر، فأخذَ بيدي، وقال لي: يا أحمدُ، إنَّك تُكلِّم السَّيِّدة أمّ أمير المؤمنين فقفْ حيثُ تُوقَف، ولا تتكلمْ حتى تُسْأَل.

* وبعد ذلك أخذَ بيدي، وأدخلني إلىٰ دارٍ لطيفةٍ فيها بيوتٌ عليها ستورٌ مُسْبَلةٌ، وشمعةٌ وسطَ الدَّار، فوقّفني على بابٍ منها، فوقفتُ لا أتكلَّم، فصاحَ بي صائحٌ قال: يا أحمد، فقلتُ: لبيك يا أمّ أمير المؤمنين.

فقالت: حساب ألف دينار، بل حساب سبعمئة دينار، وبكتْ. فأمسكتْ عَنِ الكَلامِ قَليلاً ثمّ قالت: يا أحمدُ، حساب ألف دينار، بل سبعمئة دينار، فعلتْ ذلك ثلاث مرات، ثم أمسكت وسألتني عن الحساب، فصدقتُها عن القصّة، وأني أعطيتُ الرّجل الشريف سبعمئة دينار، فبكَتْ وقالت لي: يا أحمد، جزاك الله خيراً، وجزىٰ مَنْ في منزِلك خَيراً، لأنَّك فرَّجْتَ عن هذا الرجلِ كربته. خذْ هذا الحليَّ مع هذه الثّياب وهذه الدنَّانير وادفعها إلىٰ الرّجل الشَّريف جارك، وخذْ هذا الحليَّ وهذه الثّياب وهذا المال فادفعه إلىٰ زوجتِك، وقُلْ لها: يا مباركة، جزاك الله عنَّا خيراً، فهذه دلالتك، وخذْ هذا يا أحمد، فدفعَتْ إليَّ مَالاً وثياباً، وخرجتُ يُحْمَلُ ذلك بين يدي، وركبتُ منصرِفاً إلىٰ منزلي، وكان طريقي علىٰ الرَّجُلِ الشَّريف، فقُلْتُ أبْدَأُ به، إذْ كان اللهُ رزَقَنا هذا علىٰ يديه. فدققتُ البابَ ودفعتُ إليه هديَّةَ شجاع أمّ المتوكّل، ثم انصرفتُ إلىٰ منزلي، فإذا ربّة المنزلِ قائمةٌ تصلّي وتدعو، فحدثتُها عن خبري مع السّيدة أمّ المتوكل، فقالت لي: ألم أقُلْ لك: توكَّل

علىٰ اللهِ ، وسترىٰ من بركة آلِ البيت ما يسُرُّك؟! فدفعتُ إليها ما كان لها من هديّة ، فأخذتْه[1] .

* وهكذا كانتِ السَّيّدةُ شجاع ذاتَ صنائعَ ومعروف ، ويد تنضح بالندى والجود على الخاص والعام .

وفـاتُـهـا وتَـرِكَـتُهَـا :

* عاشتِ السَّيِّدةُ شُجاع أمّ المتوكّل عيشةً راضيةً في ظلِالِ القُصُور ، وحياةَ العزّ والمكانةِ والرّفْعَةِ في خلافَةِ ابنها المتوكّل على الله ، وكانت حياتُها حياةً مفعمةً بأعمالِ الخيراتِ والمبّرات وجَبْرِ العثَرات ، ولم تكنْ يدُها مقبوضةً عن المعروفِ في يومٍ منْ الأيّام ، وكانتِ الدَّراهمُ عابرات سبيل على كفِّها لِبَثِّ السَّعادة في نفوسِ النَّاس .

* وفي اليومِ السَّادس من شَهْر ربيع الأوّل من عام (٢٤٧ هـ) كانت رحلةُ السَّيدةِ شجاع إلى الدَّار الآخرة ، حيث صَعِدَتْ روحُها إلى ربِّها ، وماتت في الجعفرية ، حيث صلىٰ عليها المنتصرُ ، ودُفِنَتْ عند المسجدِ الجامع[2] .

* وكان يومُ وفاةِ السَّيدة شُجاع يوماً مشهوداً في سُرَّ مَنْ رأىٰ ، حيث بكاها النَّاس ، وعرفوا قَدْرَهَا وتذكروا معروفها وأعمالها ومبرّاتها .

* وكان موتُ السِّيّدة شُجاعٍ أليماً على قَلْبِ ابنها المتوكّل علىٰ الله ، فقد جَزِعَ لموتها أشدَّ الجزع ، وغلَّفَه الحزنُ ، فقد كان لأُمّه كبير الأَثر في نَفْسِه ، وبلغ من تأثّره لفقدها أنّه كانَ يجلسُ في مجلسه ولا يقدرُ على التَّعبير ، وربما كانتْ تخونُه ذاكرتُه وحافظتُه ، وربَّما خانَه لسانُه وأُرتجَ عليه القَول إذا ما أراد

---

(١) عن الجليس الصالح الكافي (٢/ ١٥٣ ـ ١٥٦) ، والمنتظم (٦/ ٥٣٨ ـ ٥٤٠) بتصرف .

(٢) انظر : تاريخ الطبري (٦/ ٦٩) طبعة دار الفكر . وذكر ابن تغري بردي أنها توفيت في سنة (٢٤٦ هـ) ، انظر : النجوم الزاهرة (٢/ ٣٢٣) ، وذكر ابن العماد أنها توفيت سنة (٢٤٨ هـ) ، انظر : شذرات الذهب (٣/ ٢٢٢) .

أنْ يتكلَّم ، وخاصة عندما يدخلُ عليه النَّاس ، كيما يعزّونَه في موتِ أمِّه شجاع .

* فعن جعفر بنِ عبد الله الهاشمي قال : دخلتُ علىٰ المتوكّل لما توفيتْ أمُّه ، فعزّيْتُه ، فقال : يا جعفرُ ، ربما قلتُ البيتَ الواحدَ ، فإذا جاوزتُه خلّطتُ ، وقد قلتُ بيتاً :

تـذكّـرتُ لمَّـا فـرَّقَ الـدَّهْـرُ بينَنـا   فَعَـزَّيْـتُ نَفْسِـي بـالنَّبـيِّ مُحمّـد

فأجازَه بعَض مَنْ حَضَر :

وقلـتُ لهـا إنَّ المنَـايـا سبيلُنـا   فَمَنْ لم يمتْ في يومِهِ ماتَ في غَد[1]

* وكانتِ السَّيِّدةُ شجاع منْ نساءٍ حَبَاهُنَّ اللهُ مالاً وفيراً ، فمن ذلك ما ذكَره المؤرّخون أنَّه كان لها قرية بناحيةِ واسط ، وذكر ابنُ العماد الحنبلي بأنَّها ذات ثروةٍ كبيرةٍ ، وخلَّفَت كثيراً منَ الذَّهَب والفضَّةِ والجواهِر ، فقال : وخلَّفَتْ منَ العيْن خمسة آلاف ألف دينار ، وخمسين ألف دينار ، ومن الجوهر ما قيمته ألف ألف دينار[2] .

* وفي معرضِ حديثه عن المتوكّل علىٰ الله ، ذكر الذّهبي ثروتَها وما خلّفته منْ أموال فقال : وقد ماتتْ أمّه شجاع قبله بسَنة ، وخلَّفت أموالاً لا تُحصَرُ ، ومن ذلك خمسة آلاف ألف دينار منَ العين وحْده[3] .

* وذكرَ القَاضي الرَّشيدُ بنُ الزُّبير ما خلّفَه أُمّهات الخُلفَاء وذووهنّ ، وتعرّض لذِكْر شجاع أمِّ المتوكّل فقال : وخلَّفتْ شجاعُ والدة المتوكلِ ، خمسة آلافِ ألف دينار عَيْناً ووَرِقاً ، وجوهراً قيمتُه ألفَ ألف دينار ، ومنَ الفُرش والرَّقيق والدَّواب وغيره بقيمةِ ألف ألف دينار ، وماتتْ في سنةِ سَبْع

---

(١) انظر : المنتظم لابن الجوزي (١١/ ٣٥٠)، وبدائع البدائه (ص ٩٦)، والنجوم الزاهرة (٢/ ٣٢٣) .

(٢) شذرات الذهب (٣/ ٢٢٢) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤١) .

وأربعينَ ومئتين قَبْل مقْتَل ابنها بستةِ أشهر ، وخلَّفَتْ أربع عشرة ضيعة مبلغ غلَّتها في السَّنَة أربعة آلاف دينار[1] .

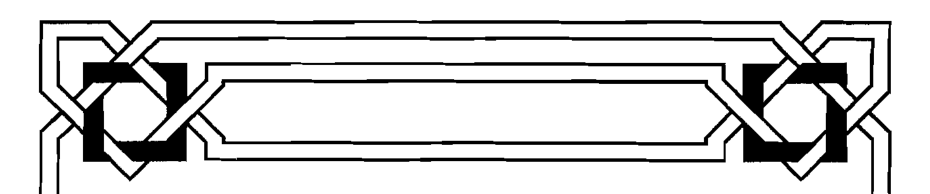
* وتغمضُ شجاعُ عينَيْها لِتَسْكُنَ إلىٰ الأَبد ، ولكنَّ أخبارهَا وأخبارَ نَداها تبقىٰ مفتوحةً إلىٰ الأبد ، وسيظلُّ اسمها مقروناً بعملِ الخيراتِ لتبقىٰ من أعلامِ النّساء المُحسنات ، وقدوة لذواتِ الفَضْل فيمن يأتي بعدها منَ الفَاضلات .

فرحم الله شجاعَ أمَّ المتوكِّل رحمة واسعة ، وأسكنها من الجنّة غرفاً .

* * *

---

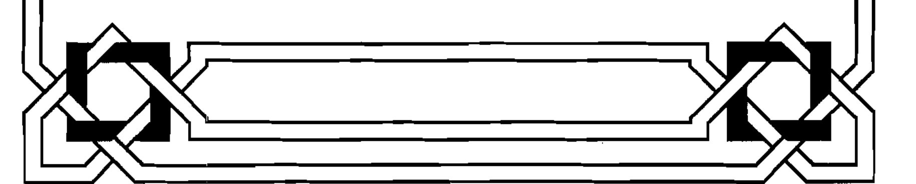
(١) الذخائر والتّحف (ص٢٣٥) .



(٩)

شجرة الدّر بنت عبدالله

* ملكة ذات مال وسلطان ، وضُربت النقود باسمها .
* كـانت سريعـة الفهـم ، وحكيمـة عاقلـة ، وسيـاسيـة باهرة .
* صاحبـة حُسْن وظرف ودهـاء ، وكانت جيدة السيرة ، قوية الشخصية ، خيِّرة ، ديِّنة .



عِنْدَمَا تبْتَسِمُ السَّعادَة:

لمعَ نجمُ هذهِ المرأة ، ولاحظَتْها عيونُ السَّعادة في أواسطِ القرن السَّابع الهجريّ ؛ ولا نعرف متى كان مولدها على وجه التحديد ، ولعلّه كان في نهاية القرن السّادس ، أو في بداية القرن السّابع الهجريِّ .

وهذه المرأةُ التي كانتْ جاريةً في قُصُورِ الأمراءِ ثمَّ ارتقتْ بها الأحوالُ ، فكانتْ زوجةَ مَلِكٍ خطيرٍ ، بل تولَّتْ إدارةَ المملكةِ بنفسِها لمّا مات زوجها ، ونالتْ منْ العزّ والجاهِ مالم تنلْهُ امرأةٌ في عَصْرِها ، حيثُ غَدَتْ ملكةً ذاتَ مالٍ وسلطان ، وخُطِبَ لها علىٰ المنَابِر ، وضُربتِ النُّقودُ باسْمِها ، وخدمتها السَّعادةُ ، وسَعَتْ بين أيديها :

وَإذا السَّعادةُ لاَحَظَتْكَ عُيونُها   نَمْ فالمخَاوِفُ كُلُّهنَّ أَمَانُ

وكلّما مررْنَا بأحداثِ التَّاريخ في عَصْرِها ، لا بدَّ أنْ يتحدَّثَ عنْها ، ويذكرَ ما لَها وما علَيْها ، لأَنَّها استطاعتْ أنْ تتركَ بصماتٍ نسائيةً واضحةَ المعالِمِ في صفَحاتهِ ، كما استطاعتْ أنْ تتركَ آثاراً نسويةً في قُصورالأمراءِ ، وفي إدارةِ شؤون الدَّولةِ في عَصْرِها المتموّجِ بالأحداثِ الجِسَام .

علىٰ أنَّ التَّاريخَ الذي أغْفَلَ كثيراً عن أخبارها ، وهي في بدايةِ حياتِها ، هو نفسُه الذي كانَ يَقِظَاً وسجَّلَ لنا كثيراً منْ أخبارِها لما انتظمتْ حياتُها في نساءِ القُصور ، وغدتْ ممن يُشارُ إليها بالبنَان ، فلقد سجَّل بدقةٍ بعضَ كلماتِها ، وذكر آثارهَا وشمائلهَا وصفاتِها ، وذلك عندما خدمتْها الظُّروفُ ، ولازمَها الحظُّ ، فَغَدتْ ممن تُقْرَأُ سيرتُها في تاريخ النِّساء والرِّجال علىٰ السَّواء .

والآن ، ما رأيكم لو ننزلُ ضُيوفاً علىٰ رحاب التَّاريخ كيما يفتَحُ لنا صفحاتِه ، ويحدثنا عن ضيفةِ هذه الصَّفحات؟!

حَسَناً ، يقولُ التَّاريخُ : إنَّها شجرةُ الدُّرِ[1] الصَّالحية أمّ خليل ، أمّ ولدٍ للملكِ الصَّالح نجم الدِّين أيّوب ، وهي إحدىٰ نساءِ قُصور الأمراء ، وإحدىٰ اللواتي سطع نجمهنَّ في السماء .

مِـنَ الـرِّقّ إلـىٰ الـعِـزّ :

أغْفَلَ التَّاريخُ حياةَ شَجرةِ الدُّرِّ في مطْلَعِها ، ولم نرَهَا إلا فجأةً في قصْرِالملكِ الصَّالح نجم الدِّينِ أيّوب ، ولعلَّ شجرةَ الدُّرِّ التي نحفلُ بسيرتها ، لم يكنْ هذا اسمُها ، وإنّما هو لَقَبٌ أطلقَهُ عليها الملكُ الصَّالح ، أمّا اسمُها الحقيقي فقد نُسِيَ ، أو تَنَاسَاهُ التَّاريخُ وطَواه ، ولم تعيَه أذنهُ الواعيةُ ، إذْ كانتْ شجرةُ الدُّرّ أحدى الجواري في قصر الخليفة العباسي كغيرها من الجواري ، فلما اشتراها الملك الصَّالح في أيام ابنه الملك العادل ، ظلّت في عداد الجواري في البلاد الشاميّة ، ولكنَّ شجرة الدُّرّ كانت تتمتَّعُ بذكاء ودهَاء ، وفوقَ هذا كُلِّه ، كانتْ ذاتَ حُسْنٍ وظَرْفٍ وجَمَالٍ نَادرٍ ، ولعلَّ الملكَ الصَّالح لمحَ فيها ما يجعلهُا درّةً نفيسةً ، فأَطْلَقَ عليها اسم شجرة الدُّرّ لملاحتِها وبهائِها وكمالِ جمَالِها ، وقَدْ زَانَ كلَّ هاتيكم الصِّفات رجاحةُ عَقْلِها وحسنُ تدبيرِها ، مما جعلَ هذه الجاريةَ أوالوصيفةَ التي كانتْ في عُمْرِ

---

(١) سير أعلام النّبلاء (٢٣/ ١٩٩ و٢٠٠) ، والمستظرف من أخبار الجواري (ص ٣٥ و٣٦) ، وأعلام النّساء (٢/ ٢٨٦ ـ ٢٩٠) ، ومرآة الجنان لليافعي (٤/ ١٣٧) ، والنّجوم الزّاهرة (٦/ ٣٠٧ و٣٠٨ و٣٣١ و٣٣٢ و٣٣٣ و٣٦٤ و٣٦٨ و٣٧٢ و٣٧٣ ـ ٣٧٩) ، والدُّرُّ المنثور (ص ٢٥٥) ، والعبر (٥/ ٢٢٢ و٢٢٣) ، وشذرات الذّهب (٧/ ٤٦٣ و٤٦٤) ، ونهـــايـــة الأرب (٢٩/ ٦٢ و٤٦٣ و٤٥٦ و٤٥٧ و٤٥٨) ، والرّوضة الفيحاء (ص ٢٨١ و٢٨٢) ، والأعلام (٣/ ٢٣١) ، والبداية والنّهاية (١٣/ ١٧٨ ـ ١٨٠ و١٩٦ و١٩٩) ، والخطط التّوفيقية (٥/ ٧٨ ـ ٨٢) ، والدَّليل الشَّافي على المنهل الصَّافي لابن تغري بردي (١/ ٣٤٢ و٣٤٣) ترجمة رقم (١١٧٩) وغيرها كثير جداً.
ويرى الإمام الذهبي أنَّ اسمها «شجر الدّرّ» وليس شجرة الدّرّ ، وكذلك المقريزي وكثير من القدماء ، ولكن الشائع الآن لفظ «شجرة الدر».

الزَّهْرِ ، وجمالِ الوَرْدِ ترقىٰ إلى قَصْرِ الصَّالح ، وتخلبُ لبه ، وتنالُ لديه حظوةً خاصّةً لم تَنَلْهَا واحدةٌ من أترابها في قَصْره الذي كثُرَتْ فيه الوصيفاتُ ، من جميعِ الجنسيّات ، من روميّاتٍ وفارسياتٍ وهنديّاتٍ وتركيّاتٍ وغيرهنّ.

وتمرُّ الأيّامُ هنيّةً بالشّام في عَهْدِ الصَّالحِ ، وتزدادُ شجرةُ الدُّرّ خلالها جمَالاً وبهاءً ، وتزدانُ في عيني الصَّالح الذي باتَ يفكِّرُ فيها تفكيرَ الجِد ، فقد احتلَّتْ مساحةً كبيرةً من كيانِهِ ، وحظيتْ عندهَ حظوةً كبْرى ، إذ كانتْ لمّاحةً ، سريعة الفَهْمِ ، تدركُ ما يريدُ منها سيّدهُا الصَّالح الذي لمسَ رصانتهَا وذكاءَها ، فتعلَّقَ قلبُـه بها ، وأكْبَرَ موهبتَها[1] ، وغدتْ أكبر حظاياه في قَصْره ، وولدتْ له ابنه خَليلاً ، هنالك أعتقها منْ الرِّق وتزوَّجَها ، وجعلَها سيّدةَ قَصْرِه.

وعرفتْ شجرةُ الدُّرّ هذه المكْرُمة للصَّالح ، فكانتْ له زوجةً وفيةً ، وكانتْ معه في البلادِ الشَّاميّة طيلةَ فترة أَمارتِه عليها تسهرُ علىٰ راحتِه ، وتساعده ببعضِ الشُّؤون المهمّة في الحكْمِ ، وفي الحقيقةِ أظهرت شجرة الدُّرّ براعتَها في ذلك ، مما جعلَ الصَّالح يَثِقُ بها وبتدبيرِها ، ويحترمُ رأْيَها ، ويكبرُ عَقْلَها ، ويستشيرُهَا في مُعْظَم أموره؛ وهذه الأعمالُ جميعها جعلتْ من شجرة الدُّرّ منَىٰ الآمالِ عند الصَّالح ، وجعلتْ صورتِها محفورةً في قلبه ، فلا يمكنُ للأيّام أنْ تمحوهَا.

---

(١) يظْهرُ منْ أخبارِ شجرةِ الدّرّ أنّها كانتْ جاريةً مملوكةً أرمنيّةً ، انتزعتْها أيدي النّخاسين منْ أرضها ، وبيعتْ في أسواقِ الجواري ، وعاشتْ في بدايتها عيشة الجواري المجهولات كغيرها ممن مضينَ مع الأيّام. ويبدو أنّها كانت ذات طموح ونفسٍ تطلبُ المعالي ، فتعلَّمَتْ وتأدَّبَتْ وحفظت كثيراً منَ الآدابِ واللطائفِ التي جعلتها أليفةً إلى القُلوبِ ، حتى وصلت إلى قَصْر الصَّالح جارية ، ثم ارتقت حتى غدتْ حليلة له ، وبرزت كأشهر نساء عَصْرها.

الـرِّحْـلَـةُ إلـىٰ مِـصْـرَ:

بينما كانَ الصَّالحُ في الشَّامِ يدبّرُ ويدير أمورَها ، جاءتِ الأخبارُ منْ مِصْرَ تحملُ خَبَـرَ وفاةِ أبيهِ الملكِ الكَاملِ ، وأنَّ أخَاه العادلَ قد أصبحَ الملكَ منْ بعدهِ.

وكانَ العادلُ أصغرَ سِنّاً منَ الصَّالحِ ، وعلمتْ شجرةُ الدُّرِّ بالأمْرِ ، فهمستْ في أذنِ زوجها أنْ يذهبَ إلى مصرَ ، ويتملكَ البلادَ والعبادَ ، فهو أحقُّ بالمُلْكِ منْ أخيهِ الصَّغيرِ.

وظلَّتْ شجرةُ الدُّرّ تزيّنُ له الانتقالَ إلى مِصْرَ ، وتعدُّ العُدَّةَ لذلك ، وتهييء الأُمورَ بما استطاعتْ إلىٰ ذلك سبيلاً ، حتى استجابَ الصَّالحُ إلىٰ رغباتِها.

وأصبحَ الصَّالحُ ذاتَ يومٍ متّجهاً تلقاءَ مصْرَ تاركاً الشَّام ، يحثُّه الحنينُ وتحملُه الأشواقُ إلىٰ الأرضِ التي ولدَ ودرجَ عليها ، وعرفَها وعرفَتْـه مُنْذُ نعومةِ أظْفَارِه.

ولما وصَلَ مصْرَ استطاعَ بحنكتِه ، وتدبيرِ شجرةِ الدُّرّ أنْ يستوليَ علىٰ المُلْكِ ، وأنْ يقبضَ علىٰ أخيهِ العادلِ ، وأنْ يُحْسِنَ إليه بعد أن جَعَلَهُ رهين الإقامةِ بقَلْعَةِ الجبَلِ بالقاهرةِ ، وظلَّ رهين القلعةِ إلىٰ أنْ جاءته سكرةُ الموتِ بالحقّ.

وبهذا تحقَّقَتْ أحلامُ شجرة الدُّرِّ ، وغدتْ آمالها حقائقَ لا مماراةَ فيها ، فها هو زوجُها الصَّالح قد أصبحَ مَلِكاً علىٰ مصرَ والشَّامِ ، إذ تمّ تنصيبُه مَلكاً علىٰ مصرَ في سَنَةَ (٦٣٧ هـ) ، وبدأ نجمُه في صعود يطاولُ الثُّريا ، مما جَعَلَ شجرة الدُّرّ تزدادُ بهجةً بهذهِ المكانة المرموقةِ لزوجها الذي كان في زينةِ شبابِه لم يتجاوز الرَّابعةَ والثَّلاثين عاماً بعد ، وراحتْ تشاطرُهُ أمجادَ الحُكْمِ والسُّلطان والعزّ والجاه منْ وراءِ الحجاب والسُّتور ، ولكنَّ هذا لم يحجبْ آثارها عن أعين الدَّهْماء ، وغدا اسمُها يرنُّ في كلّ مكان ، وعلىٰ كُلّ لِسَان ، ولعلَّ الملكَ الصَّالحَ كان سعيداً بذلك ، حيثُ يحدِّثُ حاشيته ومَنْ حولَه عن آرائِها السَّديدةِ ، وحكمتها الرّشيدة التي أحلَّتْه هذا المحلّ المرموق.

الحكيْمَـةُ الـعَـاقِـلَـةُ والـسِّياسِيَّـةُ الـسَّـاهِـرَةُ:

تمَّ تحقيقُ الحلْم الذي كانَ يداعبُ شجرةَ الدُّرّ وزوجَها الملكَ الصَّالحَ ، وغدا أمْرهُ نافِذاً في أرض الكنانَةِ .

ومنَ الجدير بالذّكر أنَّ شجرةَ الدُّرّ كانتْ منَ النِّساءِ النَّابهاتِ اللواتي خَبرنَ الحياةَ السِّياسيةَ ، وصقلتْ تجربتها في مصرَ ، حيث كانتْ تنظرُ إلىٰ الأمورِ نظرةَ الخبيرِ البصيرِ بما وراءها ، لذا أشارتْ علىٰ زوجها ببناءِ قَلْعةٍ في القَاهِرة ، كيما يجمع فيها المماليك ، ويجعل منهم حاميةً خاصةً به .

ففَعَلَ الصَّالحُ ذلك ، وشَعَرَ بالمنعةِ والقوةِ ، وأدرك فَهْمَ ما أرادتْهُ زوجَه شجرةُ الدُّرّ ، فازدادَ لها حبّاً ، وبها وَلَهاً وقرباً ، وبنىٰ لها قَصْراً قُرْبَ القَلْعَةِ تلذُّ عينها فيه ، وتقرُّ نَفْسُها في ظلالِ أفيائِه ومباهجِه .

وتسيرُ الأيَّامُ باسمةَ الثَّغْرِ أمام شجرة الدُّرّ وزوجها ، إلاّ أنَّ بعضَ شَواظ نيرانِ الفتْنَة كادتْ تصيبُ بلظاها أرضَ مملكتهِ ، وكانت نارُ الفتنةِ قد انبعثتْ علىٰ أرضِ الشَّام ، فلا بدَّ منْ خُروجِه لإخمادِها .

وأعدَّ الصَّالحُ عُدَّته ، وخرجَ إلى الشَّام ليسعىٰ في الإصلاحِ ، وإخْمادِ أوارِ الفتنةِ ، والقضاءِ على مدبريها ، وأوكلَ تدبيرَ أمورِ مملكته بمصرَ إلى زوجه شجرة الدُّرّ التي قامتْ بهذهِ المهمّة خيرَ قيام ، وأثبتتْ أنَّها جديرةٌ أنْ تقودَ دفَّةَ الحكْمِ من وراءِ حجابٍ ، وإنْ كانت من ذواتِ السّوار والنّقاب .

يقولُ خير الدِّيْن الزِّركلي ـ رحمه الله ـ عن حسْنِ إدارةِ شجرة الدُّرّ ونباهتها : لما انتقل ـ الصالح ـ إلىٰ مصْرَ وتولّى السَّلطنة ، كانت في بعضِ الأحيانِ تدبِّرُ أمورَ الدَّولةِ عند غيابِهِ في الغَزواتِ ، وكانتْ كما يقول ابنُ إياس : ذات عقْلٍ وحزمٍ ، كاتبة قارئة ، لها معرفةٌ تامّةٌ بأحوالِ المملكة ، وقد نالتْ منَ العزِّ والرِّفعةِ ما لم تنلْهُ امرأة قَبْلَها ولا بَعْدها[١] .

---

(١) الأعلام (٣/ ٢٣١) .

ويقولُ سبْطُ ابن الجوزي: وكانت تكتبُ خطاً يشبِهُ خطَّ الملِك الصَّالح، فكانتْ تُعلِّم علىٰ التَّواقيع[1].

وبهذهِ النَّباهةِ وحسنِ التَّدبير والسِّياسةِ والرِّياسةِ، استطاعت شجرة الدُّرّ أنْ تثبتَ اسمَها في ديوانِ العَظَائمِ، وتكتسحَ عبقريات نساء كثيرات ممن عاصرْنَها، فلم يبقَ إلا صوتُها يملأُ الأسْماع.

أمّا زوجُها الملكُ الصّالح فقد عادَ إلىٰ مصْرَ بعد أنْ جاءَهُ البريدُ منْ زوجِهِ شجرةُ الدُّرّ يخبرهُ بأنَّ الصَّليبيين قد أعدّوا عدّتهم لاكتساحِ مملكته.

وفي مملكتهِ راحَ الملكُ الصَّالح ينظّمُ أمورَ جيشِهِ، بينما بذلتْ شجرةُ الدُّرّ قُصارىٰ جهدها لتعزيزِ المقاتلين الذين عزمُوا علىٰ ملاقاةِ الصَّليبيين، وصدهم عنِ البلادِ الإسلاميّة.

وتروي المصادرُ أنَّ شجرةَ الدُّرّ بينما كانت تساعدُ زوجَها في تجهيزِ الجيش لصدّ المعتدينَ، مات ابنُها خليل ابن الملك الصَّالح، وكانت قد ولدته بالكركِ، وجاءت به مصرَ، فماتَ صغيراً[2]، فحزنتْ عليه أشدَّ الحزْنِ، وكاد يقضي عليها الأسىٰ عند وفاته لولا تأسيها، ولكنّها تجلَّدتْ وصبرتْ وأَرَتِ الدّهماء أنّها لريبِ الدَّهْر لا تتضعضع، وأنَّ عليها أنْ تستسلمَ لقضاءِ العزيز الحميدِ، وتصبرَ الصَّبْرَ الجميلَ، مما جعلها كبيرة القَدْر في عيني الملكِ الصَّالح الذي رأىٰ من تحمّلِها وصبرِها ما يعجزُ عنه عظماءُ مِنْ حولهِ في عَصْرهِ ومِصْرِه، لذلك شرَّفَها بلقبِ الأمومةِ، وصارت تُدعى: «عصمة الدِّين أم خليل».

وتابعتْ شجرةُ الدُّرّ مهمَّتها في إعداد الجيشِ مع زوجها، حتى إذا تمَّ لهما ذلك، اشتبك الجيشُ مع الصَّليبيين في المنصورةِ، وأحرزَ عدَداً منَ الانتصاراتِ.

---

(١) الأعلام (٣/ ٢٣١) نقلاً عن سبط ابن الجوزي.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٩).

وكان الصَّالح مريضاً آنذاك يعاني آلامَ الحمّى التي زارته دونَ حَيَاءٍ ، حيثُ سكنَتْ جسمه صباحَ مساءَ ، وكادَ الخوفُ يأخذ بنفوس جيشه لولا شجرةُ الدُّرّ وهمّتها الكبيرة التي أَتْعَبت جسمَها ، ولولا حزمُها وما تحلَّتْ به من العزم والشَّجاعَةِ والحكمةِ في أحْلَكِ الظُّروفِ وأشدها ، فراحتْ تغدقُ علىٰ الفرسان المكافآت والمِنَح ، مما جعلَهم يثبتونَ أمام جيوشِ الصَّليبيين مدّةً منَ الزَّمن .

وتشتدُّ العلَّةُ بالصَّالح ، وتعتوره الحمى ، ولم ترفقْ بحالِهِ ، ففي يوم منْ أوسط أيّامِ شعبانَ سنة (٦٤٧ هـ)[1] ، مات الصَّالحُ ورحلَ إلىٰ الدَّار الآخرة في مدينة المنصورةِ وهو لم يَجْنِ ثمرةَ النَّصْرِ بَعْدُ ، ولكنه عرفَ أنَّ شجرةَ الدُّرّ ستكون حازمةً ، وربما تدبّرُ الأمْرَ من بعدهِ كما ينبغي للمملكة .

وفي الحقيقةِ ، كان موته مصيبةً كبرىٰ في حياة شجرة الدُّرّ ، وفي تلكم الظّروفِ الحالكةِ تفْقِدُ زوجَها ، وهوالقائد الأعلىٰ للجيوشِ المجاهدة ضد الصَّليبيين ، ويالها من فاجعة كادت تحدثُ شَرخَاً في كيانِها ! .

وانحدرتْ دموعُها سخيّةً ساخنةً على زوجها الذي لفظَ أنفاسَه الأخيرةِ آنفاً ، وكانت دموعُها تترقرقُ علىٰ وجهها الجميلِ الذي لم يعرفِ الحزنُ إليه سبيلاً ، والذي كان يبدو دائماً مشرقاً باسماً جميلاً ، وعندما مات زوجها كانت ما تزالُ في ريعان الشَّباب ، وما تزالُ همّتها في صعود ، فهل تسترسلُ في بكائِها على زوجها؟ وهل تعْلِنُ وفاته علىٰالملأ وهُم في حربٍ ضروسٍ مع الأعداءِ الصَّليبيين؟ !

وأدركتْ شجرةُ الدّرّ أنَّ ذلك وهْنٌ وضعفٌ ، فمَسَحَتْ دموعَها ، وأيقنتْ أنَّ مصيرَ البلاد قد باتَ بين يديها ، وعليها أن تتابعَ الطَّريق لكيلا تنتشرَ

---

(١) انظر : شذرات الذهب (٧/ ٤١١) . ومن الجدير بالذكر أنَّ عُمْرَ الصَّالح عندما توفي يزيدُ عن أربعين ، فقد كان مولده في سنة (٦٠٣هـ) بالقاهرة ، ووفاته سنة (٦٤٧هـ) . وكان وافر الحرمة ، عظيم الهيبة ، طاهر الذيل ، خليقاً للملك .

الفوضىٰ ، ويعمَّ الفساد ، ويتقهقرَ الجيش الإسلامي الذي يجابهُ العدو .

وحزمتْ شجرةُ الدُّرّ أمرَها سريعاً ، وأظهرتِ التَّجلُّدَ والقوَة ، وصممت أنْ تتابعَ القتالَ ، وكأنّ شيئاً لم يكنْ ، وبراءة الأطفالِ في عينيها الجميلتَيْن اللتين أَسَرتا قديماً الملكَ المسجّى أمامَها .

وكتمتْ نبأَ وفاةِ الملك الصَّالح عن جميعِ مَنْ حولها ، فالمعاركُ قاسيةٌ بين جيشه وبينَ الإفرنج الصَّليبيين ، وهنالكَ ظهرتْ براعتُها وحكمتُها ، فاستمرّ كلّ شيءٍ كما كان في حياةِ الملك الصَّالح ، حيثُ يُمَدُّ السّماطُ كلَّ يومٍ ، والأمراءُ في الخدمةِ ، وكلٌّ علىٰ رأسِ عَملِه يؤدّي ما أُوكلَ إليه ، وهي تقول : إنَّ السُّلطانَ مريضٌ ما يصلُ أَحدٌ إليه[1] .

ثم إنَّ شجرةَ الدُّرّ أطلعتْ بعضَ المقرّبين على جليّةِ الأمْرِ ، فأجابَها : دبّري الأَمْر يا صاحبةَ العِصْمةِ ، فأمرتْ أنْ يُغَسّلَ الملكُ الصَّالح ويكفَّنَ ، ثمَّ نقلَتْهُ سِرّاً منَ المنصورة إلى قَصْرِ النّيلِ بالقاهرةِ ، حيث كانتْ تسكنُ شجرةُ الدّرّ ، وهناك دُفِنَ في قلعةِ الرَّوضة ، ولم يَعْلَمْ بذلك الأمْر إلا بضعةُ رجالٍ أشداءَ أوفياء .

وظلَّتِ الأمورُ طبيعيةً ، والأوامرُ تصدرُ منَ القَصْرِ الملكي إلىٰ القادَةِ وإلىٰ الرُّؤساءِ وأمراءِ الجنْدِ ، وعليها خاتَمُ المَلِكِ وخطّه وتوقيعه ، ولم يعلم أحدٌ بموتِ الملكِ الصَّالح .

وبهذه الحنكةِ من امرأةٍ لم تبلغِ الأربعينَ ، تمكَّنتْ شجرةُ الدُّرّ أنْ تنفِّذَ خطتّها بهدوءٍ وأناةٍ وبراعةٍ تبعثُ علىٰ الإعجابِ .

وكانتْ شجرةُ الدُّرّ قد بعثتْ بعضَ رجالها إلىٰ حِصْنِ كيفا ، ليأتي بابن الملكِ الصَّالح غياث الدِّين المشهور باسم «تُوران شاه» ، وكانت خلالَ ذلك قد أَخَذَتِ المواثيقَ والعهودَ علىٰ رجالِ الجيشِ بإطاعةِ الملك الصَّالح ، وولي عَهْدِه توران شاه منْ بعدِ موتِ الملك الصَّالح ، وكانَ الشَّعبُ ـ كعادته لها ـ

---

(١) انظر : الأعلام (٣/ ٢٣١) .

يتلقّى ذلك بالقَبول من شجرة الدُّرّ ، ولعلَّها استدعتْ أيّام ذلك الأطبّاء ليدخلُوا علىٰ الملكِ الصَّالح لتوهمَ النَّاسَ أنَّه ما يزالُ في حالةِ المرض .

ولكنَّ شجرةَ الدُّرّ علمتْ أنَّ الاستمرار في كتمانِ موتِ الملكِ الصَّالح ليس في مصَالحها ، وليسَ منَ الحكْمَةِ ، فقد استوثقتْ منَ الأمورِ كما تريدُ ، واندحرَ الصَّليبيون وزال خطرهم عن مصْرَ ، عندها شعرتْ بنشوةِ الانتصار والنَّجاحِ وتلاشي القَلقِ الذي خيَّمَ عليها حيناً منَ الدَّهْر ، وعندها أعلنتْ نبأَ وفاةِ الملك الصَّالح ، وأوحتْ إلىٰ كبارِ رجالِ الدَّولةِ أنْ يجعلُوا توران شَاه خَلَفاً للملك الصَّالح ، وأثبتتْ للملأ جميعهم أنَّها امرأة حكيمةٌ لم تتركْ مِصْرَ في حوالكِ الخُطوب ، فما أكرمَ امرأة تستطيعُ أنْ تؤديَ الأمانةَ بحكمة وعقْل!!

شَجَـرةُ الـدُّرِّ وتُـوران شَـاه:

اعتلىٰ توران شاه[1] عرشَ أبيهِ بَعْد قُدومهِ من حصْنِ كيفا ، وتابعَ رحلةَ الجهادِ ضدَّ الفِرنج المعتدين[2] .

وفي مَطْلَعِ سَنةِ (٦٤٨ هـ) كان الفرنجُ علىٰ المنصورةِ ، وكان المسلمون بإزائِهم مستظهرينَ عليهم لانقطاعِ الميْرَةِ عن الفِرنج ، ولوقوعِ المرضِ في

---

(١) «توران شاه»: بضم التَّاء ، ومعناهُ باللغةِ العجميّةِ: مَلِكُ المشرِق. وإنّما قيل للمشْرِقِ: تُوران ، لأنّه بلدُ التّركِ ، والعجم يسمّون الترك تركان ، ثمّ حرّفوه فقالوا: توران. واللهُ أعلم. (وفيات الأعيان ١/ ٣٠٩).

(٢) قال ابنُ واصل: لمّا دخَلَ المعظَّمُ ـ توران شَاه ـ مصْرَ ، قامَ إليه الشُّعراء ، فابتدأ ابنُ الدَّجاجية تاج الدّين فقال:

كَيـفَ كـانَ القُـدومُ مـنْ حِصْـنِ كيفا   حيـنَ أرغَمْـتَ لـلأَعـادي أُنُـوفـا

فَأجَابَه الملكُ المعظّم:

الطَّـريـقَ الطَّـريـقَ يـا ألْـفَ نَحْـسٍ   تَـارةً آمِنـاً وطَـوراً مُخيْفـا

أدركَتْهُ حرفَةُ الأَدب كما أدركتْ عبدَ الله بنَ المعتزّ.

انظر (شذرات الذّهب ٧/ ٤١٧ و٤١٨).

خَيْلهم ، ثمَّ عزم ملكُهُم الفرنسيسُ علىٰ المسيرِ في الليلِ إلىٰ دمياطَ ، فَعَلِمَ بذلك المسلمون ، وعملُوا مكيدةً له ولجيشهِ حيثُ طوَّقُوهم ، واستطاعُوا أن يأْسِروا الفرنسيسَ[1] ، وأنْ يهزموا جلَّ الفِرنج ويضعُوا فيهم السَّيْفَ ، وغَنِمَ النَّاس ما لا يُحدُّ ولا يُوصَفُ ، وأُرْكِبَ الفرنسيس في حرّاقةٍ ، والمراكبُ الإسلاميّة محدقةٌ به تخفقُ بالطُّبول ، وفي البّرِ الشَّرقي الجيش سائرٌ تحتَ ألويةِ النَّصر ، وفي البرِّ الغربي العُربان والعَوام ، وكانتْ ساعةً عجيبةً ، وكان اعتقالُ الفرنسيس بالمنصورةِ في أوّل يومٍ من المحرمِ سنة (٢٤٨ هـ).

وأكرمَ توران شاه والمسلمون الأسرىٰ منَ الفرنج ، وحفظُوا حياةَ أعدائِهم ، ووضعُوا مَلِكَ الفِرنج أسيراً في دارِ فخر الدِّيْن بن لقمان ، وانتدبُوا له خادماً طواشيّاً يحرسُه اسمه «صبيح» ، ثمَّ إنَّ الفرنسيس تقدَّمَ إلىٰ نُوَّابِهِ ، وسَلَّمَ دمياطَ للمسلمين ، وأُطْلِقَ عند ذلك الفرنسيسُ ، وفي ذلك يقولُ ابن مطروح[2] قصيدتَه المشهورةَ ، وكَتَبَ بها إلى الفرنسيس وهي :

---

(١) اقر أ ـ إن شئت ـ خَبَر ذلك في النّجوم الزّاهرة في مواضعَ مختلفةٍ.

(٢) «ابنُ مطروح»: أبو الحسنِ يحيى بنُ عيسى بنِ إبراهيم بنِ الحُسين بن مطروح المصريّ الملقب جمال الدِّين صاحب الشّعر الرّائق ، منْ أهْلِ صعيد مصْرَ ، وُلدَ بأسيوط في ٨ رجب سنة (٥٩٢هـ) وأقامَ بقوص مدّة ، ثمّ اتّصل بخدمةِ الملكِ الصَّالَح ، واتّصلت أسبابُه بهِ ، وحسُنَتْ حالُه ، وارتفعت منزلتُه؛ قال ابنُ خلّكان عن ابنِ مطروح: وكانتِ أدواتُه جميلةً ، وخلالُه حميدةً ، جمع بينَ الفَضْل والمروءةِ والأخلاقِ الرضيّة ، وكانَ بيني وبينَه مودّة أكيدة ، ومكاتباتٌ في الغيبة ومجالسُ في الحضرةِ تجري فيها مذاكراتٌ أدبيةٌ لطيفةٌ ، وله ديوان شعر أنشدني أكثره.

ونزلَ في بعضِ أسفاره بمسجدٍ وهو مريضٌ ، فأنشدَ قائلاً:

يَـاربِّ قَـدْ عَجـزَ الطَّبيـبُ فَـداوِنـي ... بِلَطيـفِ صنْعـكَ واشْفنـي يـا شَـافـي

أنا مِنْ ضيوفِك قَد حُسِبْتُ وإنَّ مِنْ ... شيـــمِ الكِـــرَامِ البـــرُّ بـــالأضْيـــافِ

وكانتْ بينَه وبينَ البهاءِ زُهير صحبةٌ قديمةٌ منْ زَمنِ الصّبا ، وإقامتهما ببلاد الصَّعيد حتى كانا كالأخوَيْنَ ، وليس بينهما فرقٌ في أمورِ الدّنيا ، ثمّ اتّصلا بخدمةِ الملك =

قُـلْ للفـرنْسيـسِ إذَا جِئْتَـه مقَـالَ صِـدْقٍ عـن قـؤُولٍ فَصيْـح

آجَـركَ اللهُ علـى مَـا جَـرى مِـنْ قَتْـل عبَّـاد يسـوعَ المسيـح

قَـدْ جئْـتَ مِصْـراً تَبْتَغـي مُلْكَهـا تَحْسَـبُ أنَّ الـزَّمْـرَ يـا طَبْـلُ ريـح

فَسَـاقَـكَ الحَيْـنُ إلـى أدهَـمٍ ضَـاقَ بـه عَـنْ نـاظـريـكَ الفَسيـح

رُحْـتَ وأصْحَـابـك أَوْدَعْتَهـم بقُبْـحِ أفعـالِـكَ بَطْـنَ الضَّـريـح

خَمْسُـونَ ألفـاً لا يُـرى منْهـم غيـرُ قَتيـلٍ وأسيـرٍ وجـريـح[1]

وفَّقـكَ اللهُ لأَمْثَـالِهـا لَعَـلَّ عيْسـى مِنْكـمُ يستـريـح

إنْ كـانَ بَـابـاكُـم بِـذَا رَاضِيـاً فَـرُبَّ غـشٍّ قَـدْ أتـى مِـنْ نَصيح

وقُـلْ لهـم إنْ أضمـرُوا عـودةً لأخْـذِ ثـارٍ أو لقصـدٍ صحيـح

دَارُ ابـنِ لقمـانَ علـى حـالِهـا والقَيْـدُ بـاقٍ والطَّـواشـي صَبيـح[2]

= الصَّالح ، وهما على تلكَ المودّة ، وبينهما مكاتباتٌ بالأَشْعار فيما يجري لهما .
وتوفي ابنُ مطروح ليلةَ الأربعاءِ مستهلّ شعبان سنةَ (٦٤٩هـ) بمصْرَ ، ودُفن بسفحِ المقطم ، وأوصى أنْ يُكْتَبَ عنْدَ رأسهِ دوبيت نظمَه في مرضه وهو :

أَصْبَحْـتُ بقَعْـرِ حفْـرةٍ مُـرْتَهَنـا لا أمْلِـكُ مِـنْ دُنْيـايَ إلاّ كَفَنَـا

يَـا مَـنْ وسعَـتْ عبـادَه رحْمَتُـه مِـنْ بعـضِ عبـادِك المسيئيـن أنـا

وممّا ذُكِرَ أنَّه وُجِدَ في رقعةٍ مكتوبةٍ تحتَ رأْسِه بعد موته :

أتجـزعُ مـن المـوتِ هـذا الجـزعْ ورحمـةُ ربّـك فيهـا الطّمـع

ولـو بـذنـوبِ الـورى جئتـه فـرحمتـه كـلّ شـيءٍ تسـع

(وفيات الأعيان ٦/ ٢٥٨ ـ ٢٦٦) بتصرف .

(١) وصفَ سَعْدُ الدِّين بن حمّويه انتصارَ المسلمين على الفرنج فقال : كانتِ الأَسْرى نيفاً وعشرينَ ألفاً ، فيهم ملوكٌ وكبارٌ ، وكانتِ القَتْلى سبعة آلاف ، واستُشْهدَ منَ المسلمينَ نحو مئة نفسٍ ، وخلعَ الملكُ المعظّم ـ تُوران شاه ـ على الكبارَ من الفِرنج خمسين خلعة ، فامتنعَ الكَلْبُ الفرنسيس من لُبْس الخلعةِ وقال : أنا مملكتي بقَدْر مملكةِ صاحب مصْرَ ، كيف ألبسُ خلعته؟!
(شذرات الذّهب ٧/ ٤١٤ و٤١٥) .

(٢) انظر : ديوان ابن مطروح (ص ١٨١) طبعة القُسطنطينية عام ١٢٩٨هـ) ، وانظر : النّجوم الزّاهرة (٦/ ٣٦٩ و٣٧٠) ، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ (٣/ ٥٦٣ و٥٦٤) ، وبدائع الزهور (١/ ٨٧ و٨٨) ، وحسن المحاضرة (٢/ ٣٥) ، والسلوك =

قال ابنُ تغري بردي: لله درُّه فيما أَجَابَ عنِ المسلمين مع اللّطفِ والبلاغَةِ وحُسْن التّركيْبِ رحمه الله[1].

شَجَـرَةُ الـدُّرِّ ونـهَـايَـةُ تُـورَان شَــاه:

* منَ العجيبِ في سيرةِ غياثِ الدِّيْن تُوران شاه أنَّ نَصْرَه على الفِرنج الصَّليبيين قد نَفخَ سَحْره، وحَملَ الغُرور إلى نَفْسهِ فمالَ إلى حياةِ التَّرفِ واللهو، فكانَ لا يصلِحُ لصَالحةٍ لفساده، ونسيَ أنَّه مَلِكٌ مسؤول عَنْ رعيته، وراحَ يتنكَّرُ لأبْطَالِ الجَيْشِ الذينَ بذلُوا جُهوداً جبَّارَةً لإحرازِ النَّصْرِ على الصَّليبيين؛ ـ والذين سمّاهم أبوه المماليك البحريّة ـ وَبَدلاً منْ مكافأةِ أولئكَ الفُرسَان، راحَ ينقمُ عليهم، ويوجسُ خيفةً في نَفْسهِ منْ نفوذِهم، وربّما أخذَ يصرِّحُ بأنَّهُ سيبيدُهم ويقتلعُ شأْفَتهُم، وكانَ يَصُفُّ الشُّموعَ المضيئةَ أمامَه، ويأخذُ رؤوسَها بالسَّيْفِ وهو يقولُ منتشياً: هكذا سأَفْعَلُ بالمماليكِ البحريّة، ثمَّ تعمَّدَ إلى إهانةِ كبَارِ الأمراءِ والقُوّاد، وأثارَ مخاوفَهم، فَنَبَتَتْ في أعماقِهم روحُ الحذَرِ منْ غَـدْرِ هذا المَلكِ الفاسدِ

= (١/ ٣٦٣ و٣٦٤) وذكرَ أحمدُ بنُ علي الحريريّ في كتابه: «الإعلام والتَّبيين» أنَّ الملكَ لويس التاسع بعثَ إلى السُّلطان المعزّ أيبك بعد إطلاقِ سراحهِ وعودتهِ إلى بلادهِ بكتابٍ يتوعّدُهُ، فكتبَ السُّلطانُ الجوابَ، وضمنه هذه الأبيات لابن مطروح. ومنَ الجديرِ بالذكْر أنَّ دارَ ابن لقمان ـ وهو جمال الدِّين الطّواشي ـ قد أصبحتْ مضربَ الأمثالِ في العالم، ويروى أن لويس التاسع هاجم مع عدد من ملوك أوربة تونس، ونزل بساحل قرطاجنة، وبقي هناك ستة أشهر، ويروي المقريزي أنَّ شاعراً من أهلِ تُونس يُدعى أحمد بن إسماعيل الزّيات، سَخِر من مَلكِ فرنسا، وأنشده قائلاً:

يا فرنسيسُ هذه أختُ مصرٍ ... فتأهَّبْ لما إليه تصيرُ
لك فيها دارُ ابنِ لقمانَ قبراً ... وطواشيكَ منكرٌ ونكيرُ

فكان هذا القول شؤماً عليه، ومات بعد ذلك. (السلوك ١/ ٣٦٥).

(١) انظر: النّجوم الزاهرة (٦/ ٣٧٠).

المضطربِ في تفكيرِهِ وعقلِه ، فنقموا عليه ، وقرَّرُوا القَضَاءَ على هذه الانتهاكاتِ ، وعلى هذا الاستهتار .

* أمّا شجرةُ الدُّرّ ، فكانتْ تقضي أيّامَها في قَصْرِها محفوفةً بالعزِّ والتَّقديرِ ، ولكنّها فُوجئتْ بمعاملةِ تُوران شَاه الذي أخذَ يعامِلُها بجفاءٍ وقسوةٍ ، وتنكَّرَ لها ، ونسيَ أنَّها هي التي صانت له حقَّه في المُلْكِ بعد موتِ أبيه ، وجعلتْه في المكانةِ العُظمى التي تجعله كابْنِها .

* وتَسلل الغُرورُ أكثرَ وأكثرَ إلى نَفْس توران شاه ، وبَعَثَ يُهَدِّدُ شجرةَ الدُّرّ ، ويطلبُ منها المالَ والجواهرَ والدُّرَّ والحليَ ، فأرسلتْ إليه أنّها قد أنفقتْ ذلك في تجهيزِ الجيشِ ضدَّ الصَّليبيين[1] .

* ولكنَّ توران شاه هدَّدَها ثانيةً ، وكان جزاؤُها على الإحسانِ إليهِ التَّهديدَ والوعيدَ ، فَغَدَتْ والمماليك يفكّرون بالقضاءِ عليه وهو غافِلُ عمّا يُنْسَجُ حولَه؛ إلى أنْ كان يومُ الإثنين التّاسع والعشرينَ منْ شَهْر محرّم منْ سَنَةِ (٦٤٨هـ) تناولَ توران شاه طعامَه مع الأُمَراء والحاشية ، فانقضَّ أحدُ المماليكِ عليه ، وضربَه ضربةً بسيفٍ فتلقّاها توران شاه بيدِه ، ثمَّ هَرَب إلى برجٍ خشبيّ ، فرمَوه بالنّفْطِ ، فرمى بنفسهِ ، وهربَ إلى النّيلِ فأتْلفُوه وهو يصيحُ : خذُوا مُلْكَكُم ، ودعوني أعودُ إلى حصْنِ كيفا؛ لكنَّ كلماتِه ذهَبَتْ أدراجَ الرِّياح ومعَ أصواتِ المياه ، ومات جريحاً غَريقاً حَريقاً مذموماً منَ النَّاس ، وبقيَ مُلقىً على الأرضِ ثلاثةَ أيّام حتى انتفخَ ، ثمَّ واروه التُّراب .

* ذكر ابنُ تغري بردي في «نجومِهِ» والنُّويري في «نهاية الأربِ» قصَّةَ مَقْتَلِ تُوران شاه فقالا : قالَ عمادُ الدِّين بنُ دِرباس : رأى بعضُ أصحابِنا الملكَ الصَّالح أيّوبَ في المنَامِ وهو يَقولُ :

قَتَلُوه شَرَّ قِتْلَه صَارَ للعَالَمِ مُثْلَه

---

(١) انظر : شذرات الذهب (٧/ ٤١٧) بتصرف ، وانظر : النجوم الزاهرة (٦/ ٣٧٢ ـ ٣٧٩) والخطط التوفيقية (٥/ ٨١) .

لَـــمْ يُـــراعُـــوا فيـــهِ إلاًّ لا ولا مَـــنْ كَـــانَ قَبْلَـــه
سَتَـــراهُـــم عـــنْ قَليـــلٍ لأقَـــلِّ النَّـــاسِ أكْلَـــه

وكانُوا قد جمعُوا في قَتْلِهِ ثلاثةَ أشْياء: السَّيف والنَّار والماء[1].

* وعلى هذهِ الصُّورة المُحزِنة ماتَ تُوران شاه لأنَّه استخفَّ بِمَنْ حولَه، ولم يحسن سياستَه مع حُمَاةِ الوطن وأصحابِ الجلادِ والجهادِ ضدَّ الأعداء والغُزاة، وعندها اتّجهتِ الأنظارُ إلى شجَرة الدُّرّ، وبدأَ النَّاس يفكّرونَ باختيارِ مَلِكٍ جديدٍ، تُرى مَنْ يكونُ هذا الملك؟!

شَجَـرةُ الـدُّرّ مَـلِكَـةُ الـمُسْلـمِيــنَ:

* بعد أنِ استقرَّتِ الأُمورُ في الدِّيار المصريّةِ، تقدّمتْ شجرةُ الدُّرّ للمُلْكِ، واستقرَّ رأيُ الأمراءِ على توليتِها ملكةً على مصْرَ باسْمِ «الملكةُ عصْمةُ الدِّين». فهيَ السَّيِّدةُ العاقِلةُ، المدبّرةُ لأُمورِ الدَّولةِ، تمرَّستْ بالإدَارَةِ في عَهْد زوجِها، واطّلَعَتْ على فُنونِ الحكْمِ في أيّامِه، وافتتنَتْ بالمُلْكِ وحياةِ القُصور، إلاّ أنَّها ظلَّتْ تحسُّ بالشَّعْبِ وآلامهِ وآمالهِ، حيثُ عاشَتْ مُديدةً بينَ الجواري في القُصُور قبل أنْ تصبحَ منْ سيّدات نساءِ الأُمراء.

* وأطلَّ على القَاهِرة يومٌ كانَ النَّاسُ فيهِ في غاية السَّعادة، إذ احتفلُوا فيهِ بتنصيبِ شَجرة الدُّرّ ملكةً عليهم.

* وانتقلتْ شجرةُ الدُّرّ إلى قَصْر السَّلْطَنة بعد أنْ غدَتْ ملكةَ المسلمين، وراحتْ تجتمعُ بالوزراء والأُمراء وهي من خَلْفِ السِّتار، وتَتَبادل معهم أمورَ الدَّوْلَة، وتبدي الآراءَ الصَّائِبة في كثيرٍ منَ الأُمور، وقد توالتِ الأيّامُ عليها، فأظهرتِ الجَدارةَ والمقدرةَ في تصريفِ الدَّوْلةِ، فحفلتْ بالثَّناءِ منْ الخاص والعام، فقد كانت كريمةَ ذات اليدِ، فخلعتْ على الأُمَراء والقادَةِ، وأكرمتْ مثوى الفُقَراء، وعملتْ على نَشْرِ الأمْنِ في أرضِ الكِنَانَةِ.

---

(١) انظر: النُّجوم الزَّاهِرة (٦/ ٣٧٢)، ونهاية الأرب (٢٩/ ٣٦٢) وانظر: بدائع الزّهور (١/ ٨٨).

* وعلى الرّغم منْ نجاحِها في تَصْريفِ الأمورِ وأحوال الدَّولة ، إلاّ أنَّ أنوثتَها ظلَّتْ عائقاً أمامَها ، فلم يسبقْ أنْ كانت هناك ملكة للمسلمين ، ولذلك حرصتْ أنْ تُدعى «أمّ خليل» كي تمحوَ أنوثَتها منْ أذهانِ النَّاسِ ، وتعمّق فيهم مدلولَ الأمومَةِ ومكانتها؛ وبهذا كانتْ علامتُها على المراسيم «أمّ خَليل».

* ومن ذكاءِ شجرة الدُّرّ وفطْنَتِها أنَّها اختارتْ لَقَباً خاصّاً بها ، يقرِّبُها منْ نُفوس الأقاربِ والأباعِدِ في مصْرَ وغيرِها ، فاختارتْ لقب «المستعصميّة» ، وضَرَبَتْ على السّكّةِ العبارة التّالية : «المستعصميّةُ الصَّالحيّةُ مَلِكةُ المسلمينَ والدةُ الملكِ المنصورِ خَليل أمير المؤمنين»؛ ولمْ يستقرَّ أمرُها غيرَ ثمانين يوماً ، وخُطِبَ لها ثلاثةُ أشْهرٍ[١].

* كانتْ شجرةُ الدُّرِّ تجلسُ على سريرِ الملْكِ ، ولكنَّ الاضطرابَ كان يبدو عليها أحياناً ، ونُميَ الخبرُ إلى المُستعْصِم[٢] باللهِ العبّاسي في بغدادَ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٩٩) ، والأعلام (٣/ ٢٣١) مع الجمع والتصرف اليسير. قال الذهبي: لما قتلوا المعظّم ، وخطبوا لأمّ خليل أياماً ، وكانت تُعلِّمُ على المناشير ، وتأمرُ وتنهى ، ويُخطَبُ لها بالسَّلْطنَة (سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١٩٨). وسارتْ أمور شجرةِ الدّر في المملكةِ على ما كانت تحبُّ ، وتروي المصادرُ أنّها ابتدعتْ بدعةَ المحملِ الشّريف ، ففي عهدها انطلقَ أولُ مَحْملٍ من مصرَ إلى الدِّيارِ المقدَّسةِ في الحجاز.

(٢) المستعصمُ باللهِ أبو أحمد عبدُ الله بنُ المستنصر بالله العبّاسي ، آخرُ خلفاء بني العبّاس ، وُلِدَ سنة (٦٠٩هـ) واسُتخلفَ في جمادى الأولى سنة (٦٤٠هـ) ، وكان حليماً ، كريماً ، سليمَ الباطنِ ، قليلَ الرّأي ، حَسنَ الديانة ، مبغضاً للبدعةِ في الجملةِ ، خُـتِمَ له بخيرٍ ، فإنَّ الكافر هولاكو أمَرَ بهِ وبولده ، فَرُفسَا حتى ماتا ، وذلك في آخرِ المحرم سنة (٦٥٦هـ). ولما دخَل التَّتار بغدادَ ، بذلوا السَّيف ، واستمرَّ القَتْلُ والسّبي نحو أربعين يوماً ، ولم يسلم إلا مَنْ اختفى في بئرٍ أو قناة ، وقُتِلَ الخليفةُ رفْساً ، ويُقال إنَّ هولاكو أمرَ بعدّ القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانمائة ألفِ وزيادة ، فعند ذلك نُودي بالأمانِ ، وكانت بليّةٌ لم يصبِ الإسلامُ بمثلها. =

بولايةِ شجرة الدُّرّ أَمْرَ مصْرَ سنة (٦٤٨هـ) وأنَّ ذلك من رضاءِ شعبِها الطَّيِّع لها، واطمئنانِهِ لحكْمِها الصَّارم، إلا أنَّه كتَبَ إلى أمراءِ المماليك يقولُ لهم: بلَغَنَا أنّكم ولّيتُم أمركَم شجرةَ الدُّرّ صاحبةَ المَلِكِ الصَّالح، فأَعْلِمُونا إنْ كانَ ما بقيَ عندكُم منَ الرِّجالِ مَنْ يَصْلُحُ للسَّلْطنَةِ، فنحنُ نرسلُ لكم مَنْ يصلحُ لها! أمَا سمعتم في الحديثِ عَنْ رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «لا أفلحَ قومٌ ولّوا أمْرهم امرأة»[1]، ثمَّ ختمَ رسالتَه بإنكارٍ شديدٍ ووعيدٍ وتهديد[2].

* وذكرَ علي مُبارك في «خُطَطِه» أنَّ الشَّيخ عزّ الدِّين بنَ عبد السَّلام قال: لما تولَّتْ شجرةُ الدُّرّ السَّلْطنة عملتُ مقامةً وذكرتُ فيها: بماذا ابتلى اللهُ النَّاس بولايةِ امرأةٍ عليهم.

* ويصفُ علي مبارك كيفيةَ توليتها، ويذكر رسالةَ المستعصمِ باللهِ العبَّاسي خليفة بغدادَ فيقول ما مفاده وملخّصه: وعند ولايتها ألبسوها خلعةَ السَّلْطَنة، وهي قندورةُ مخمل مرقومة بالذهب، وقبَّل لها الأمراء الأرضَ منْ وراءِ حِجاب، وساستِ الرَّعيةَ، وخُطِبَ باسمها على المنابر بمصرَ وأعمالها، وإلى شجرة الدُّرّ تُنْسَبُ نوبةُ خاتون التي تدورُ في القلْعَةِ بعد العشاء.

* ولما بلغَ المستعصمُ باللهِ وهو ببغدادَ أنَّ أهلَ مصرَ سلطنوا امرأةً، أرسلَ يقول: إنْ لم يكن عندكم رجالٌ تَصْلُح للسَّلْطنَة، فنحنُ نرسلُ مَنْ يصلّح لها، أمَا سمعْتُم قولَ رسولِ الله ﷺ: «لن يفلحَ قومٌ ولّوا أمرهم امرأة»؟! وقد قيل:

النِّسـاءُ نَـاقِصَـاتُ عَقْـلٍ ودَيْـنٍ   مَـا رأَيْنَـا لَهـنَّ عَقْـلاً ودِيْنَـا

= ورثى بعضهم المستعصمَ فقال:

يَـا عصْبَـةَ الإسْـلاَمِ نُـوحـي وانْـدُبـي   حُـزْنـاً علـى مـا تـمَّ للمُسْتَعْصِـمِ

(شذرات الذّهب ٧/ ٤٦٧ ـ ٤٦٩) بتصرف.

(١) الحديث أخرجه أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن أبي بكرة.

(٢) انظر: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها (٣/ ٧٩) بتصرف يسير.

ولأَجْلِ الكَمَالِ لَم يَجْعَلِ اللّـ ـه تَعالى مِنَ النِّسَاءِ نَبِيًّا

فلمّا بلغها ذلك ، وبلغَ الأمراء والقُضاة ، خلعَتْ نفسَها منَ السَّلْطَنَة ، وتزوَّجت بالأميرِ أَيْبك التركماني[١] .

* وهكذا استجابتْ شجرةُ الدُّرّ لرسالةِ المستعصم باللهِ أميرِ المؤمنين في بغدادَ ، وخلعتْ نفسَها ، وطلبتْ ممن حولَها أنْ يختاروا مَنْ يرونَه صَالحاً للمُلْكِ ، فاختاروا عزّ الدّين أيبك التّركماني الصَّالحي ، وملّكُوه عليهم في أواخِرِ شَهْرِ ربيعِ الآخر في سَنَة (٦٤٨هـ)[٢] ، وعندها بدأتْ حياةٌ جديدةٌ لشجرة الدُّرّ ، حياةٌ مملوءةٌ بالتَّناقضات والأعاجيب ، كما سنرى في الصَّفحات التَّاليات إنْ شاءَ الله .

زَوَاجُـهَـا بِـعـزّ الـدِّيْـنِ أَيْـبِـك :

* تذكرُ المصادِرُ التي بين أيدينا أنَّ شجرةَ الدُّرّ قد تزوَّجَتْ بوزيرِها عزّ الدّين أيبك[٣] ، ونزلتْ له عنِ السَّلْطَنةِ ، كما تذكرُ أنَّ عزَّ الدِّين أيبك كان ضعيف الشخصية أمام شجرة الدُّرّ ، وكان عزّ الدين أيبك قد تلقَّب بالملك المعزّ الصَّالحي ، وكانَ المعزُّ أكبرَ الصَّالحيّة ، وكان دَيّناً عَاقِلاً سَاكِناً كريماً ، وتزوَّج بأمِّ خليل بعد تمليكه مصْرَ ، فأَنِفَ منْ سلطتِهِ جماعةٌ ، فأقاموا في الاسم الملك الأَشْرف موسى بن النَّاصر يُوسُف ، وله عشر سنين ، وذلك بعد خَمْسةِ أيّام ، فكان التَّوقيعُ يبرزُ وصورتُه : رُسِمَ بالأَمْرِ العالي السُّلْطَاني الأَشْرفي ، والملكيّ المعزّي[٤] .

* وأصبحَ عزّ الدين أيبك التّركماني الصَّالحي صاحب مصْر وسيّدها الأوّل ، لكون الملكِ الجديد موسى بن النّاصر يوسُف صبيّاً منْصَرِفاً عن

(١) الخطط التوفيقية لعلي مبارك (٥/ ٨١) باختصار .
(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٩٨) .
(٣) انظر : البداية والنهاية (١٧/ ١٨٠) ، وكان ذلك الزواج في سنة (٦٤٩هـ) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٩٨) بتصرف يسير .

شُؤون الملْكِ ، لا يدري منْ أمورِ السَّلْطَنة شيئاً .

* وعلى الرّغم منْ أنَّ المعزَّ قد صَارَ مَلِكاً ، وصار هو الآمر النَّاهي ، ولكنَّ شجرةَ الدُّرّ ظَلَّتْ محتفظةً بالسَّيْطَرة عليه ، ولم تشكَّ في ولائِهِ لها ، فأَوْلَتْه ثِقتَها كاملةً ، وساعدتْه على المَلِكِ النَّاصرِ الحلبيّ الذي فاجَأهم بجنودِه ، وكادَ النَّاصِرُ أنْ يملِكَ ؛ فتناخَتِ الصَّالحيةُ ، وحملوا فكسروه ، وأبْعَدوا خطَره عنِ الدِّيار المصريّة[1] .

* وظلّتْ شجرةُ الدُّرّ وفيّةً لأَيْبك ، تتفانى في تقديم العَونِ له ، وتبذلُ ما وسعها كيما تدفعُ عنه الأَخْطارَ ، وكان المعزُّ لا يقْطَعُ أمْراً دونَها ، ولها عليه صَولةٌ ، وكانت تحتجرُ عليه ، فأنفَ من ذلك وتأفَّفَ وبدأ طموحُه يبعدُه عن شجرةِ الدُّرِّ ، ويودُّ أنْ يستقلَّ بالملكِ وحْدَه .

* ولكنَّ شجرةَ الدُّرّ كانت قبضتُها من حديدٍ على المعزّ ، وكانتْ تستبدُّ في بَعْضِ أمورِ المملكةِ ، ويبدو أنّها أرغمَتْه أنْ يطلِّقَ زوجتَه الأولى أمَّ ولدِه عليّ ، ولعلَّ غيرةَ شجرة الدُّرّ لم تجعلْها منَ الصَّابراتِ الحازماتِ على هذه الضّرّة ، ولذلك وصفَها الذَّهبيُّ ـ رحمه اللهُ ـ بقوله : وكانتْ جريئةً وقحةً قَتَلَتِ وزيرَها الأَسْعَد[2] . وكانت تمنُّ على أيبك وتقولُ له : لولا أنا ما وصَلْتَ إلى السَّلْطَنةِ[3] .

* ويبدو أنَّ المعزَّ قد بدأ يعارضُ شجرةَ الدُّرِّ ، فكانت تثورُ وترضى ، ولكنَّها لمحتْ منه بعضَ النُّفور ، ولما راحتْ تستقصي السَّببَ ، علمتْ أنَّه يودُّ أنْ يتزوَّجَ امرأةً أُخْرى ، فقد بدأ جمالها بالأُفُول ، وأخذتِ التَّجاعيدُ ترتسمُ على وجهها ، وتفْصِحُ عن تقدّمها بالسِّنّ ، وهذا لا يُرضي كثيراً منَ

---

(١) المصدر السابق نفسه بتصرف .
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٩٩) .
(٣) الخطط التوفيقية (٥/ ٨٠) .

النِّساءِ في كلِّ عَصْرٍ وأَوان ، بل إنَّ كثيرات منهنَّ يكْرَهْنَ أنْ يُقالَ لهنّ : إنّهنّ أصبَحْنَ كبيراتٍ أو غَدونَ جدّاتٍ أو في سِنّ اليأْسِ[1] .

* وقررتْ شجرةُ الدُّرّ في نفسِها إنْ تزوَّجَ المعزُّ امرأةً غيرها ، أنْ تصنعَ

---

(١) اليأسُ : هو التّوقّف الوظيفي لعملِ المبيض عندَ المرأةِ ، وهو حتميُّ الحدوث ولا مجالَ لمنعه ، ويحدثُ عادةً بين (٤٥ ـ ٥٠) سنة . وتتعرضُ المرأةُ خلالَ اليأسِ وبعده لمؤثراتٍ مختلفةٍ وخاصة عندما تصلُ إلى الخمسين ، ومنْ هذه المؤثّرات :

* أصبحَ أولادُها كباراً ، وكلٌّ استقلَ بنفسهِ وعائلتِه . وبالتَّالي أصبحتْ أمّاً ذات مسؤوليّات .

* فَقَدتْ بعضَ جاذبيتها كشابّة ، كما اضطربتْ بعضُ ميولها الوظيفيّة ، وأصبحتْ كذلك علاقاتها الاجتماعيّة تقليدية ذات صفَة خاصّة .

* يضمرُ جلدُها ويرقُّ ويتجعَّدُ ويجفُ ويصبح جمالها متلاشياً نوعاً ما .

* يزدادُ وزنُها بعد سنّ اليأسِ ، لأنّها تصبحُ أقلّ نشاطاً لازديادِ الأفرادِ المُساعدين في العائِلة وعدم تبدّل عادات الطَّعام .

ويختلفُ سلوكُ المرأةِ باختلافِ البلدان والحالةِ الاجتماعيّة والثَّقافية والعمر الذي بدأت فيه أعراضُ اليأْسِ ، ومن هذا السّلوك الذي يمكنُ أنْ يبدوَ في المرأةِ :

* الميلُ إلى التّقوى والدّين .

* الميلُ إلى التّمسُّك بالعاداتِ والتَّقاليد والمثُل الاجتماعية ، إذا كانت في بيئةٍ مثقّفة .

* الميلُ إلى فرط الزّينة وإبرازِ الصّفات الأنثوية ، وحبّ التكلّف والاستماع إلى المديح وخاصّة وصْفُها بصِغَر العُمر وبقاء جمالها ، وخاصّة إذا كانت في بيئةٍ متحررةٍ مُتَمَدْينة .

وقد تحدّث الشّعراء قديماً عن هذه الحالةِ عند المرأة المُتصابية فقال الشاعر :

عجـــوزٌ تمنَّـــتْ أنْ تكـــونَ فتيـــةً   وقد لَحبَ الجنْبانِ واحدودبَ الظَّهْرُ
تـروحُ إلـى العطّـار تبغـي صَـلاحَهـا   وهل يصْلِحُ العَطَّارُ ما أفْسَدَ الدَّهْرُ؟!

* ومن الجدير بالذكر أننا نرى كثيرات مِنَ المشهورات الآن يتظاهرن بصغَر السِّنّ عند المقابلات الإذاعية أو التلفزيونية ، ولعلّ فطرة المرأةِ تدعوها إلى ذلك ، انظر : (الأمراض الشّائعة ص ٣٨٣ ـ ٣٨٨) بتصرف .

أمْراً تتحدَّثُ به الأيّامُ ما دامتِ الأيَّامُ ، وما دارتِ الأعوامُ ، تُرى ما الأمر[1] المهمُّ الذي سيعلقُ في ذَاكِرةِ الأيّام على الدَّوام؟!

الـغَيْـرى الـقَـاتِلَـةُ :

* ظلَّتِ العلاقاتُ بين المعزّ وشجرةُ الدُّرّ غيرَ طبيعيّةٍ ولا تُرضي ، وتوجَّسَتْ خيفةً من تصرّفَاتِ المعزّ الذي لمْ يَعْدُ يسبحُ في جمالِها ، إلى أنْ تأكَّدتْ أنَّه لم يحفظْ جميلَها ، ولم يرعَ مشاعرها ، فقد بدأ يبعدها عن أمور الحكم ، وأخذَ يفكِّرُ في الزَّواجِ من أخرى تكونُ أكثر شَباباً وجمالاً .

* وكان في المعزّ تُؤدةٌ ومداراةٌ ، لكنّه لم يكنْ يخطُر ببالِهِ أن شجرةَ الدُّرّ ذاتُ خبَايا خطيرةٍ ، وأنّها امرأةٌ كغيرِها من النِّساء ، فربّما تدفعُها الغيرةُ إلى ارتكابِ عَملٍ مَا ، أو ربّما تقتلُها الغيرةُ .

* وبالفعلِ فقد خَطَبَ المعزُّ ابنَة بدر الدِّيْنِ لؤلؤ صاحبِ الموصلِ ، وهناك شَعَرت شجرةُ الدُّرِّ بأَنَّ الضَّربَة موجَّهةٌ إليها ، وأنَّ آمالَها تحطَّمَتْ وتلاشَتْ ، وعندها بدأتْ عقاربُ الغيرةِ تدبُّ بينَ جوانِحها وتلسعُها ، وتقضُّ مضجعَها ، ولا تتركُها لحظةً واحدةً . وحاولتْ شجرةُ الدُّرِّ أنْ تثنيَ منْ عنانَ المعزّ عن عزمهِ كيلا يتزوَّجَ من ابنةِ صاحب الموصل ، إلاّ أنَّه قابلها بالصَّدِّ والصُّدودِ ، وحاول أنْ يبعدَها عنِ القَصْر وأمورِ المُلْك .

* وشاعَ الخبَرُ بينَ النَّاس أنَّ المَلِكَ المعزَّ سيتزوَّجُ من ابنةِ صاحب الموصل ، فعظُم ذلك على زوجتهِ شجرة الدُّرِّ ، وعزمتْ على الفَتْك به ، وهنا انتفضتْ كالعصفُور بلَّله القَطْرُ ، وتخلَّتْ عن كلّ أنوثَةِ فيها ، وقررتِ الانتقامَ ، واستولى عليها الغَضَبُ الشَّديدُ ، ولعبتْ بها الغيرةُ[2] ، وتقاذفَتْها

---

(١) يقول الشاعر قديماً في هذا المعنى :

إذا رأيـــــــتَ أمُـــــوراً   منهــــا الفـــــؤادُ تَفتَّـــــتْ
فتّـــشْ عليهـــا تجــــدْهـــا   مــــنَ النِّســـاء تـــأتـــتْ

(٢) قال بعضُ الأدباءِ الظُّرفاء يذكرُ غيرةَ امرأتهِ منَ الكتاب؛ وكأنّه ضرتها : =

الأهواءُ والمشاعِرُ المضطربةُ يميناً وشمالاً ، ولكنّها حاولتْ أنْ تتمالكَ وتملك نفسَها قَدْرَ المُستطاع ، وأنْ تضبطَ عواطفَها لئلا ينتبه لها المعزُّ ، وبالتّالي يدمرُ حياتَها ويجعلها نسْياً منْسياً.

* لقد اعتبرتْ شجرةُ الدُّرِّ أنَّ أنوثتها قد تلاشَتْ وغابَتْ إلى الأَبدِ ، وأنَّها دُمِّرتْ بِيَدِ مَنْ صَنَعَتْه ، واعتبرتْ أنَّها قد طُعِنَتْ في كرامتِها وعزّها بأَنْ يجلبَ لها ضرّةً صغيرةَ السِّنّ تنافسُها كلَّ شيءٍ ، وما صدَّقَتْ شجرةُ الدُّرِّ أنْ خَلَّصَتْهُ منْ زوجتهِ السَّابقةِ بالطَّلاق ، فهل يعودُ ويُدخِلُ امرأةً أخرى شابّة جميلة وأميرة وابنة أمير؟!

* وأخذتِ الهواجسُ تلعبُ بشجرةِ الدُّرّ ذاتَ اليمين ، وذاتَ الشّمال ، وطارَ النَّومُ من مقلتَيْها الجميلتَيْن ، ولم يَجِدِ النُّعاسُ إليهما سبيلاً ، فقد راحتِ الأفكارُ والصُّورُ تمرُّ بخيالِها منْذُ أنْ كانَتْ جاريةً إلى أنْ أضْحَتْ زوجَ أمير ، ثمّ مَلِكٍ ، ثمّ غَدَتْ ملكةً ، وصَنَعتْ ما صَنَعَتْ؛ حتّى وقَفَ بها تفكيرهَا وخيالُها عند المعزّ الذي تنكَّرَ للعهودِ والمواثيقِ والإفْضَال.

* وفي لحظاتٍ قاتِمة سُودٍ تذكَّرتْ شجرةُ الدُّرّ خَادِماً يُدعى سُنْجر الجوجري[1]؛ فهذا الذي يخلِّصُها ممّا عَرَاها ، فَنَادَتْه وأوعزَتْ إليه أنْ يقتُلَ

= تغــارُ مــنَ الكتــابِ إذا رأتْنــي ... أطــالعُــهُ وأتــركُ وجنتَيْهــا
وتــرفــضُ فكْــرتــي فيمــا عَــدَاهــا ... وتنكــرُ نظــرتــي إلاّ إليهــا
وتحســبُ هَيْكلــي ومُحيــطَ نفســي ... بقيــةَ إرثهــا مِــنْ والــديهــا
وقــد ظفــرَ الكتــابُ ببعــضِ هــذا ... لــذلــك كــان إحــدى ضُــرّتَيْهــا
فَنَظْــمُ أبــي العَــلاء أحــبُّ منــه ... حــديــثٌ عــن نِظَــامِ ذؤابتَيْهــا
ونثــرُ ابــنِ المقفّــع لا يــوازي ... نثــارَ الــورد مــن إحــدى يــديهــا
ولكــنْ مــن كتــابــي لــي اعتــذارٌ ... فهــل هــو رائــحٌ فــي مسمعيهــا
أطــالعُــهُ فــأفهــمُ مــا لــدَيــه ... ولــم أفهــمْ بجهــدي مــا لــديهــا

(1) انظر: سير أعلام النّبلاء (٢٣/ ١٩٩).

المعزّ أيبك عندما يدخلُ الحمّام ، ويكون معه عددٌ منَ الخدّام الأشدّاء الذين لا يخالفونَه ، ووعدَتْهُ بأموالٍ عظيمة ، وبالحلي والحُلل الفَاخِرة.

* واستجابَ سنجرُ لعَرْضِ وغَرَض شجرة الدُّرّ ، وإنْ كان في ذلك إتلافُ مهجةِ مولاه ومَلِكِه الملك المعزّ.

* وشعرتْ شجرةُ الدُّرّ بالارتياحِ لهذهِ الفِكْرةِ القاتِمَةِ ، وهذه النّهاية السَّوداء التي رسمتْها لزوجِها أيبك ، ومن ثمَّ نامَتْ نوماً عميقاً؛ ولم تَعُدِ الهواجسُ تزورُها أو تساوِرُها.

* وهبَّتْ نسماتٌ عبقاتٌ في فَجْر اليومِ التَّالي تحملُ أنْفَاسَ الرَّيحان والوردِ منْ حديقةِ قَصْرِها ، ولكنَّها لا تحملُ العُنْفَ الذي خبّأَتْه شجرةُ الدُّرّ بينَ جوانِحها ، ولا القسوةَ التي في قلبِها الذي غادرتْه الرَّحْمَةُ والرّأفَة إلى الأَبَدِ ، ولله درُّ المتنبّي إذ قال:

وَمَـنْ خَبَـرَ الغَـوَانـي فَـالغَـوانـي ضِيَــاءٌ فــي بَــواطِنِــه ظَــلاَمُ[1]

وقالَ المتنبّي أيضَاً في حبِّ وكراهية المرأةِ منْ قصيدةٍ دالية:

وَإِنْ عَشِقَـتْ كَـانـتْ أشَـدَّ صَبَـابـةً وَإِنْ فَرِكَتْ فاذْهَبْ فما فَرْكُها قَصْدُ
وإنْ حَقَدتْ لم يَبْقَ في قلبِها رضاً وَإِنْ رضيتْ لم يبقَ في قلبِها حقْدُ
كـذلـك أخـلاق الـنـسـاء وربـمـا يضِلُّ بِهَا الهَادي ويَخْفى بها الرُّشد[2]

* ويبدو أنَّ أنْفَاسَ الصَّباحِ وأَنْسَامِه قَدْ جعلتِ النَّشَاطَ يدبُّ في نَفْس شجرةِ الدُّرّ ، فَـنَهَضَتْ عندما عَلمتْ أنَّ المعزَّ قد جاءَ إلى القَصْرِ؛ وهناك استقبلَتْه بابتسامةٍ أخفتْ وراءَها حِقْد كلِّ نساءِ عَصْرِها ومصْرِها ، ولكنَّه لم يشعرْ أنَّ في هذا العَسَل سُمّاً ناقِعاً ، وأنَّ وراءَ تلك الابتسامةِ الحلوةِ المصطنعَةِ نهايتَه ، وكأنَّ لِسَان حال شجرة الدُّرّ يقول:

يــا أيُّهَــا الــزَّوجُ الكــريــمُ وأيُّهــا الحِــبُّ المُــواصِــلْ

(١) ديوان المتنبي (٤/ ٢٤٣).
(٢) ديوانه (٢/ ١٢٤) و«فركت»: فركتِ المرأةُ زوجَها فركاً: أَبغضَتْهُ.

مَـــالـــي أراكَ مُعَـــانِـــدي ومعـــذِّبـي مـــنْ غيـرِ طـــائِـلْ
لـــم تَـــرْعَ لـــي عَهْـــدَ الـــوَفَـــا وهجـــرتَنـــي والهَجْـــرُ قَـــاتِـــلْ
هَـــلْ رُمْـــتَ غَيْـــري زوجـــةً يـــا لـــلأســـى ممَّـــا تُحـــاوِلْ
أنَـا مَـا حفظْـتُ سـوى الـوفـا ء ولا ادَّخـرتُ سـوى الفَضَـائـلْ
فجـــزَيتَنـــي شـــرَّ الجـــزَا ء وكنْـــتَ فيـــه غيـــرَ عـــادلْ
مـــاذا جَـــرى فَهجـــرتَنـــي والحـــبُّ شيمتُـــه التَّســـاهُـــلْ
ورضيـــتَ هَجْـــرَ حليلـــةٍ لمّـــا تَـــزلْ خَيْـــرَ الحَـــلائِـــلْ
فـــاعْلـــمْ بـــأنَّـــك قَـــاتلـــي والمـــوتُ فيمـــا أنـــتَ فـــاعـــلْ

* وفي الحقيقةِ فقد بدأتْ رحلةُ الموتِ لكليهما ، ولكنَّ موتَ المعزّ كان الأَسْبق ، ولم يعلمْ أنَّ بدايةَ نهايته قد بدأتْ منذ هذهِ اللحظات التي أشرقَتْ فيها الابتسامات المفْتَعلةُ منْ فمِ شجرة الدُّرّ ، فاطمأنَ إليها ولاطَفَها ، وجلسَ عنْدها وقْتاً طويلاً إلى أنْ طارتْ كلُّ شبهةٍ منْ رأسِهِ تجاهَها .

* وفي المساءِ طلبَ أنْ يدخلَ الحمّام ليزيلَ الأَوضَار عن جسمِه ، وصاحتْ شجرةُ الدُّرّ بإحدى الوصيفات قائلةً : ويحكِ أعدّي الحمّام للمِلك ، وجهّزي ما يلزمُه .

* كانَ ذلك في يومِ الثُّلاثاء (٢٤) من شَهْر ربيعِ الأوّل سنة (٦٥٥هـ) وفيه كانت نهايةُ المعزّ ، فما كادَ يدخلُ الحمّام حتى كان سنجرُ له بالمرصادِ ، ومعه ثلّةٌ منَ الخدّام والعبيد ، فأمسكُوا على خصيةِ أيبك فَتِلفَ ، ورَمَتْهُ الخدّامُ إلى الأرضِ وخنقوه وفارقتْ روحُه جسمَه وغَدا منَ الغابرين ، وتلاشتْ صيحاتُه وتوسّلاتُه بينَ أسْتَار الظَّلام ، وصيحاتِ الغِلْمان ، ولم يَدْرِ به أَحَدٌ .

* قال ابنُ تغري بردي في قَتْل المعزّ : وهو أنَّ شجرةَ الدُّرِّ لما غارتْ رتَّبَتْ للمعزّ سنجر الجوجري ، فدخَلَ عليه الحمّام ولكَمَهُ ورمَاه ، وألزمَ الخدّام

معاونَته ، وبقيتْ هي تضربُه بالقباقيبِ وهو يستغيثُ ويتضرَّعُ إليها إلى أنْ مَات[1] .

* ويذكرُ علي مبارك في «خُطَطه» قصَّةً وسبباً آخرَ لمقتل المعزّ فيقول: وسببُ قَتْله أنَّه لما تزوَّجها ، وسلَّمَتْ إليه الأَمْر ، خطبَ عليها بنْت بدرِ الدِّين لؤلؤ صاحب الموصل ، فبلغَها ذلك ، وأخذها ما يأخذُ النِّساء منَ الغيرة ، فتغيَّرت عليه وتغيّر عليها ، وكرهها لأنّها كانت تمنُّ عليه بأنَّها ملكَتْه مصر ، وسلَّمت إليه الخزائنَ والأَمْوال ، وكانت تتصرَّفُ في مملكتِه ، وتأمرُ وتنهى ، ومنعتْه منَ الاجتماع بزوجتِه أمِّ ولدِه نور الدِّين حتى ألزمته بطلاقِها ، ولما تمكَّن الغيظُ منه نزلَ إلى قناطرِ اللوق ، وأقامَ بها أيّاماً ، فبعثتْ إليه مَنْ حَلَفَ عليه وتلطَّفَ به ، وسكَّنَ غيظَه ، فطلَعَ إلى القَلْعَةِ ، وكانت قد أعدَّتْ له مَنْ يقتلُه ، فلما صَعِدَ إليها ، ودخلَ الحمّام ليلاً ، دخَلَتْ عليه ومعها خمسةُ خدّام ، فأخذَ بعضُهم بأنثييه ، وبعضهم بخناقه ، فاستغاثَ بها ، فقالتَ لهم: اتركُوه ، فقالوا: متى تركناه لا يبقي علينا ولا عليكِ ، ثمَّ قتلُوه .

* وأوردَ علي مبارك صورةً أخرى لمقتلِ أيبك فقال: وكانتْ ـ شجرة الدر ـ تركيةً شديدةَ الغيرةِ ، فبلغَها أنَّ الملكَ أيبك يخطبُ بنْتَ صاحِبِ المَوْصِل ، فصارَ بينهما وحشةٌ منْ كلِّ وَجْهٍ ، وأضمرتْ له السُّوء ، ولما طلَع إليها لاقَتْه وقبَّلَتْ يدَه من غيرِ عادة ، فظنَّ أنَّ ذلك على وجْه الرِّضَا ، فكان كما قيل:

أَلقى العَدوَّ بوجْهٍ لا قُطُوبَ به   يكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مَاءِ البَشَاشَاتِ
فأَدْرَبُ النَّاسِ مَنْ يلقَى أعاديه   في جسْمِ حقْدٍ وَثَوْبٍ منْ مودَّاتِ

وكانَ بينهما مَا كان[2] .

* ويروي النُّويري في «نهايةِ الأَرب» كيفيةَ مقْتَلِ المعزّ فيقولُ: لما خَطبَ

---

(١) الخطط التوفيقية (٥/ ٨٠).
(٢) انظر: الخطط التوفيقية (٥/ ٨٢).

المعزُّ ابنةَ صاحبِ المَوصِل ، تنكَّرتْ له ، وكان هو الآخرُ قد تغيَّر عليها بسببِ امتنانِها عليه ، وأنَّها هي التي ملكَتْه الدِّيار المصريّة ، وسلَّمَتْ إليه الخزائن ، وعزمَ المعزُّ على قَتْلِها ، فلم يُخفِهَا ذلك ، فبادرتْ بالتَّدبيرِ عليه ، واتَّفَقَتْ هي ومحسنٌ الجوجري الخادم ، ونصر العزيزي على قتله ، فقتلوه في الحمام. وكان مقتله يوم الثلاثاء ٢٤ ربيع الأول سنة (٦٥٥هـ) وشاع الخبر بقتله في بكرة نهار الأربعاء ، فَسُمِّرَ محسنُ الجوجري الخادمُ وغلامُه على بابِ قلعةِ الجبَل ، وأمّا نَصْر العزيزي فإنَّه هربَ إلى الشَّامِ ، وأُحْضِرَتْ شجرةُ الدُّرّ إلى أمِّ نور الدِّين بنِ الملك المعزّ ، فما زالت تضربُها ـ هي وجواريها وخدمُها ـ إلى أنْ ماتَتْ ، وأُلْقِيَتْ منْ أعلى السُّور إلى الخندق ، وبقيتْ أياماً عُريانةً في الخندقِ ، ثُمّ حُمِلَتْ ودُفنَتْ في تربتها المجاورةِ لمشهدِ السَّيِّدة نفيسة[١] .

* وهنـاك روايـات أخـرى تحكـي مقْتَـل المعـزّ ، وكلُّهـا متقـاربـةٌ فـي المضمون ، وتشيرُ إلى أنَّ شجرة الدُّرّ هي التي دبَّرت مقتله في ليلِ الثُّلاثاء (٢٤) ربيع الأوّل سَنة (٦٥٥هـ) ، وأصبح النَّاس منَ الأمراءِ والكُبراء على عادتهم للخدمةِ ، فإذا بالمعزّ ميت ، فاختبطتِ المدينةُ جميعها لهذا الخبرِ ، ولما علمُوا الحقيقة ، غضبُوا غضبةً مضريّةً ، ولكنَّ مماليكَ الصَّالحِ دافعُوا عن شجرةِ الدُّرّ ، فلم تُقْتَلْ إلا بعد اثنين وعشرينَ يوماً ، فقُتلت ورُميت مهتوكة[٢] . قال ابنُ العماد : وآلَ أمرها إلى أنْ قُتِلت وألقيتْ تحتَ قلعة مصْر مسلوبةً ولم يُدْرَ قاتلُها ، ثم دُفنَتْ بتربتها[٣] .

---

(١) انظر : نهاية الأرب (٢٩/ ٤٥٦ و٤٥٧) بتصرف.

(٢) قال علي مبارك : ولما قُتلت شجرةُ الدّرّ سحبوها منْ رجلَيها ورموها في الخندق ، وهي عُريانة ليس في وسطها غير اللباس ، واستمرت مرميةً ثلاثة أيّام؛ وقيل : إنَّ بعض الحرافيش نزلَ إليها تحتَ الليل ، وقطعَ تكّة لباسها ، وكان فيه أكرة لؤلؤ ونافجة مسك ، فسبحان مَنْ يعزّ ويذلّ. (الخُطط التّوفيقية ٥/ ٨٢).

(٣) شذرات الذَّهب (٧/ ٤٦٤).

* وهناك رواياتٌ تزعُمُ أنَّ أمَّ علي زوجة المعزّ الأولى قد كان لها كبيرَ الأثرِ في القَضَاءِ على شجرةِ الدُّرّ ، فقد كان ولدها عليُّ بن أيبك قد أقْصِي عنِ العرشِ لإرضاءِ شجرة الدُّرّ.

* ولعلَّ أمَّ علي لم تستطعْ حَراكاً طيلة حياةِ زوجها أيبك ، وأقامتْ زمَناً تخفي غيظها وتكتُمه إلى حينِ مقْتل أيبك ، فإنّها كانت هي وابنها علي يحرّضان على قَتْل شجرة الدُّرّ التي اقتيدت إلى السّجْن.

* وفيما كانت أمُّ علي والمماليك ينصّبون ابنها عليّاً مَلِكاً مكانَ أبيه المعزّ ، كانتْ شجرةُ الدُّرّ قعيدةَ الحَبْسِ ، وكانت شوكةُ أمّ علي تشتدُّ وتشتدُّ ، ونفوذُها يتَّسِعُ ويتّسعُ ، وغدتْ صاحبةَ الرّأي الذي لا يُرَدُّ ، والكلمةُ المسموعةُ ، وبدأت كوامنُ غضبِها تظهرُ لتنتقمَ منْ شجرةِ الدُّرّ التي كانت تَقْبَعُ في السِّجْنِ في أَسمالٍ باليةٍ ، وكانت صفراء الوَجْه ، قد تقرَّحَتْ أجفانُها من شدّة البُكاءِ ، هنالك أمرتْ أمّ علي جواريها أنْ يقتلْنَها بالقباقيبِ والنّعال ، فضربنَها حتّى ماتت في (١١) ربيع الآخر سنة (٦٥٥هـ) بعد مقتل المعزّ بأقلّ من شهر[1] ، ودُفنَتْ بتربتها بقرب السَّيدة نفيسة.

* قال ابنُ تغري بردي: وُجدتْ مقتولةً مسلوبةً خارجَ القلعةِ ، فحُملتْ إلى التُّربَةِ التي كانت بنتْها لِنَفْسِها بقربِ مَشْهَدِ السَّيدةِ نفيسة[2] ، ولشجرةِ الدُّرّ أوقافٌ على التّربةِ المذكورة[3].

---

(١) انظر: نهاية الأرب (٢٩/٤٥٦) ، والبداية والنهاية (١٣/١٩٦) والنجوم الزاهرة (٦/ ٣٧٥) ، والأعلام (٣/ ٢٣١) ، وسير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٩٩) وقال الذهبي: قيل: لما تيقنتِ الهَلاكَ ، أخذتْ جواهرَ مثمنة ودقّتها في الهاون ، وقيل: إنّها أودعت أموالاً كثيرة فذهبتْ. (سير أعلام النبلاء ، ٢٣/ ١٩٩ و٢٠٠).

(٢) النّجوم الزّاهرة (٦/ ٣٧٨) ملخصاً.

(٣) تربةُ شجرةِ الدّرّ: يُسْتَفادُ مما هو منقوشٌ على عصابةٍ بأسْفَل القُبّة التي بها قبر شجرة الدّر أنَّ هذه التربة أنشأتْها الملكةُ شجرةُ الدّر في سنة (٦٤٨هـ) قبل وفاتها ، ولما توفيت في سنةِ (٦٥٥هـ) دُفنت فيها ، ولا تزالُ هذه التّربة موجودةً إلى اليوم تحت =

* وقال علي مبارك في مقتل شجرة الدُّرّ: فتملَّك بَعْد المعزّ ولَدَه نور الدِّين المنصور، فَقَبَضَ على شجرةِ الدُّرّ، ودخَل بها على أُمّه، فقتلَها الجواري بالقَباقيب، ورماها في الخَنْدق، وهي عُريانة على بابِ القلعة، وبعد أيّام دُفِنَتْ في التُّربةِ التي كانت أعدّتها لنفسها، فالدهرُ قد جازاها منْ جنْسِ العمل، لأنَّها سَعَتْ في قَتْلِ الملك المعظّم ـ توران شاه ـ فقُتِل غَريقاً حريقاً، وتُرِكَ ثلاثة أيام على شاطىءِ البحر، قال الشَّاعر:

مَنْ يحتَفِر حفرةً يوماً يصيرُ لها فإنْ حفرتَ فوسِّعْ حِيْنَ تَحْتَفِرُ[1]

* وهكذا كان مصرعُ شجرةِ الدُّرّ على يَدِ ضرّتها التي لم تُفكِّر في يومٍ منَ الأيّام أنَّ الدَّهْرَ منلقبٌ يدورُ، فلا حزْنٌ يدومُ ولا سُرور.

* وأمّا عليُّ بنُ المعزّ، فقد تملَّكَ وسُمّي بالمنصورِ، ثم عُزِل وتملَّك قُطز الذي كَسرَ التَّتار؛ وبهذا تلاشى اسمُ شجرةِ الدُّرّ منْ مملكةِ مصْرَ، وأضحتْ إحدى نوادرِ نساء التَّاريخ اللواتي عشْنَ في القُصور، وتركْنَ آثاراً وأخْباراً تُروى على مرِّ الأَعْصَار والدُّهور.

شَجـرةُ الـدُّرِّ فـي الـميْـزَان:

* كثيرون الذينَ تحدَّثُوا عن شجرةِ الدُّرّ، وذكروا محاسِنها ومساوئها، وكثيرونَ الذين أثنوا عليها، وذكروا مآثِرها، ومواقِفها ومبرّاتِها وسيرتها الحسنَة، كما أنَّ كثيرينَ سجّلُوا وقاحَتَها وجرأتَها.

* وعلينا ألا ننسى قَبْل كلّ شيءٍ، أنّها كانت امرأة، وكانت تحبُّ وتكرهُ

= قبّة داخل مسجدٍ صغيرٍ أصله مدرسة أنشأتها شجرةُ الدّر بجوار تربتها بشارع الخليفة، بقسمِ الخليفة بالقَاهرة، والقبةُ التي أنشأتها شجرةُ الدّرّ فوق قبرِها شكلها من أقدمِ أشكالِ القباب المعروفةِ في مصرَ، ولا زالت محتفظةً بشكلها القديم، وأمّا المدرسة فتعرف اليوم باسمِ جامعِ شجرة الدّر، أو جامع الخليفة، وقد تجدَّد بناؤه مراراً.

(١) الخُطط التّوفيقية (٥/ ٨٠).

وتغارُ وتتألَّم ، وكانتْ جميلةً استخدمتْ جمالها في قَضاءِ بَعْضِ مآربها ، كما أنَّها كانت عاقلةً استخدمتْ عَقْلَها في كثيرٍ منَ المصَالحِ المهمّة في دولتها. ولكنْ قَبْل كلّ هذا وذاك كان يحكمُها قلبُها قَبْل عَقْلِها ، وكانت تتحكّمُ فيها عواطفُها قبل تفكيرِها ، ولو أنَّها سَلكَتْ طريقَ الاتّزان لبلغت حدَّ الكَمال في ضَبْطِ النَّفس ، وتجريدها منْ طغيانِ الأَهْواء والعواطفِ والميولِ ، ولكنّها كما قُلْنَا كانت امرأةً تتبعُ ما فَطرهَا اللهُ عليه منْ مشاعرَ وعواطفَ متناقضة ، فكانتِ النّهايةُ غيرَ حميدةٍ ولا سعيدة.

* ولو عُدْنَا إلى بعضِ آراءِ العُلماء والمؤرّخينَ وأقوالِهم في شجرةِ الدُّرّ ، لألفَيْنا أنّهم جمعُوا في أقوالِهم عنْها خلاصةَ ما تكلمنا فيهِ منَ الكَلام عنْ سيرتها. فالذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ وهو أحدُ علماءِ المؤرّخين الأثْبات يرسمُ صورةَ شجرة الدُّرّ بهذهِ العباراتِ فيقول: كانتْ شجرةُ الدُّرّ أمّ خليل أمّ ولَدٍ للصَّالح ذاتَ حُسْنٍ وظرفٍ ودهاءٍ، وعَقْلٍ، ونالتْ منَ العزّ والجاه ما لم تنلْهُ امرأةٌ في عَصْرِها، وكانَ مماليكُ الصَّالح يخضعونَ لها، ويرونَ لها، فملَّكُوها بَعْد قَتْل المعظَّم أزْيد من شهريْن، وكان الصَّالح يحبُّها كثيراً[1].

وعندما اقترنت شجرة الدُّرّ بأيبك الذي تلقَّب بالمعزّ ، قالَ عنها الذَّهبيُّ: وكانَ المعزُّ لا يقْطَعُ أمْراً دونَها ، ولها عليه صولة[2] ، وكانتْ جريئةً وقحةً ،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٩٩) بتصرف.

(٢) المصدرُ السَّابق نفسه. ومنَ العجيبِ أنّنا نجدُ في هذهِ الأيّام كثيراً منَ النّساء ممن لهنّ صولةٌ على رجالهنّ ، وقد حاولتُ أنْ أبحثَ في هذا الأمْرِ كثيراً ، وفي مختلفِ البلدان المشرقيّة والمغربيّة ، فوجدتُ الأمْر واحداً لا يختلفُ عن زمنِ شجرةِ الدُّرِ ، ووجدتُ رجالاً مسلوبي الإرادة أمامَ زوجاتِهم ، لا يملكون كلمةً تنطقُ بها أفواههم.
وقد حدّثني بعضُ الأصدقاء أنَّ أحدَ النَّاس كان في عاصمةٍ عربيةٍ مع أسرتِه ، وزاره أخوه مرة ومعه ابنتُه يريدُ علاجَها ، فلم يستقبِلْهُ الأخُ خَوفاً منْ زوجتِه التي حرمتْ دخولَ أحدٍ منْ أهْلهِ وإخوته عليه ، وتشاءُ المقاديرُ أنْ تموتَ هذه الزّوجة المتسلّطةُ ، فيتنفسُ زوجها الصُّعداء ويصالحُ أخاهُ ، ويعتذرُ منه ويذكرُ له أنّه لم =

قَتَلَت وزيرَها الأسعد ، وكانت تحتجرُ على المعزّ فأنفَ منْ ذلك[1] .

* ويقولُ الذَّهبيُّ أيضاً: وكانتْ حسنَةَ السِّيرة ، لكنْ هلكتْ بالغيرةِ ، وكان الخطباءُ يقولون: واحفظِ اللهمّ الحرمةَ الصَّالحةَ ملكةَ المسلمين عصمةَ الدُّنيا والدِّين أمّ خليل المستعصميّة صاحبة السُّلطان الصَّالح[2] .

* ويقولُ ابنُ إياس بعد أنِ استعرضَ بعضَ سيرة شجرة الدُّرّ: ذاتُ عقْل وحَزْم ، كاتبةٌ قارئةٌ ، لها معرفةٌ تامّةٌ بأحْوالِ المملكة ، وقد نالتْ منَ العزّ والرّفْعَةِ ما لم تَنَلْهُ امرأةٌ قَبْلَها ولا بعدها .

* وأمّا سبْطُ ابن الجوزي فيؤكّدُ على أنَّها كانت كاتبةً تجيدُ الخطَّ والكتابةَ فيقولُ: كانت تكتبُ خَطاً يشْبِهُ خطَّ الملك الصَّالح ، فكانتْ تعلّمُ على التَّواقيعِ .

* وفي «شَذَراته» يلخّصُ ابن العِماد أقوالَ مَنْ سَبَقه فيقول: شجرةُ الدُّرّ أمّ خليل ، كانت بارعةَ الحُسْنِ ، ذاتَ ذكاءٍ وعقْلٍ ودهاء ، فأحبَّها الملكُ

= يكن يستطيعُ أنْ يقطعَ أمْراً دونها. ومنَ العجيبِ أن الرجلَ الذي ماتتْ زوجته خطبَ امرأةً أخرى ، وعَقَدَ عليها قرانَه في بيتِ أخيه الذي منَعه من دخول منزله. فتأمل!!!.

وقد زوّدني كثيرٌ منَ الأصدقاءِ بقَصصٍ عجيبةٍ عن تسلُّط النِّساء على الرجال تصلح أن تكون كتاباً بل مجلداً كبيراً ، نعوذُ باللهِ من هذهِ الأمور الفظيعة التي تؤدّي إلى القطيعة بين ذوي الأرحام.

وأودُّ أنْ أذكّرَ القارىء الكريمَ بأنَّ هذا لا يمنعُ أنْ نناقشَ المرأة العاقلةَ الأصيلةَ ، ونأخذَ برأيها إنْ كانَ فيه فائدةٌ ، فهناك كثيراتٌ لهنّ آراءٌ رائعةٌ ، وفي تاريخنا أمثلةٌ كثيرة عن هذا المجال قد أوردته المصادر. ولكنّ التّسلط النِّسوي مصيبةٌ ، نعوذُ بالله منه.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٣/ ١٩٩). وعن زواج المعزّ بشجرة الدُّرّ ومَقْتَلِه يقولُ ابنُ تغري بردي: وكان زَواجُه بها سَبباً لقتلهِ. (النّجوم الزّاهرة ٧/ ١٣).

(٢) سير أعلام النّبلاء (٢٣/ ١٩٩ و٢٠٠).

الصَّالح ، وكانت تُعلِّم بخطِّها علامته ، ونالتْ منَ السَّعادة أعلى المراتب ، بحيث إنَّها خُطِبَ لها على المنابِر ، وملّكوها عليهم أياماً ، وتملك المعزّ أيبك ، فتزوَّج بها ، وكانت ربّما تحكمُ عليه ، وكانت تركيةً ذات شهامةٍ وإقدامٍ وجرأة[1] .

* وقال صلاحُ الدِّين الصَّفدي عنها : شجر الدُّرّ أمّ خليل الصَّالحية ، كان يحبُّها المَلِكُ الصَّالح حبّاً عظيماً ، ويعتمدُ عليها في أمورِه ومهمّاته ، وكانت بديعةَ الجمالِ ، ذات رأي وتدبيرٍ ودهاءٍ وعقل ، ونالتْ منَ السَّعادة ما لم ينلْه أحدٌ في زمانها .

* وقالَ الصَّفَدي أيضاً : شجرة الدُّرّ أمّ خليل الصَّالحيةُ الملكةُ ، تسلطنَتْ بعد موتِ أستاذِها الملك الصَّالح نجم الدِّين أيوب ، ثم تزوّجها عزّ الدِّين أيبك التّركماني ، ووقَعَ لها معه أمورٌ حتى قتلته ، ثم قُتِلَتْ في سنة خمسٍ وخمسين وستمئة[2] .

* وقال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ عنها : أمّ خليل التّركية ، كانت من حظايا الملكِ الصَّالح نجم الدِّين أيوب ، وكانتْ قويةَ النَّفْس ، لما علمت أنَّه قد أُحيط بها ، أتْلفَتْ شيئاً كثيراً منَ الجواهِرِ النَّفيسةِ واللآلىء المثمنة ، كَسرته في الهاونِ لا لَها ، ولا لغيرها[3] .

* ولعلَّ ابنَ تغري بردي قد أوضحَ صورةَ شجرة الدُّرّ وأبان مآثِرها وأوقافها فقال : وكانتْ خيّرةً ديّنةً رئيسةً عظيمةً في النُّفوسِ ، لها مآثرُ وأوقافٌ على وجوه البِرّ معروفة بها ، والذي وقَع لها من تملّكها الدّيار المصريّة لم يقعْ لامرأةٍ قبلها ولا بعدها في الإسْلام[4] .

---

(١) شذرات الذهب (٧/ ٤٦٥ و٤٦٦).
(٢) الدليل الشافي (١/ ٣٤٢ و٣٤٣).
(٣) البداية والنهاية (١٣/ ١٦٩) ملخصاً.
(٤) النجوم الزاهرة (٦/ ٦٤٨).

* وفي موضعٍ آخر يقولُ ابنُ تغري بردي في نُجومه: ولا زالتْ في عظمتها منَ الحشمِ والخدَمِ ، وإليها غالبُ تدبيرِ الدِّيارِ المِصْريّة ، والأمورُ تدبِّرهَا على أكْملِ وَجْه ، لم تدَعْ أحَداً يطمعُ في المُلْكِ لعظمتها في النُّفوس ، واتَّفقُوا على ولايتها لحُسنِ سيرتها ، وغزيرِ عقْلِها ، وجودَةِ تدبيرِها ، وكانت تركيةً ذاتَ شهامةٍ ونفسٍ ، وسيرةٍ حَسَنة ، شديدة الغيرة(١) .

* وعنها قالت ابنةُ جنْسها عنها زينب بنتُ يوسُف فوّاز العامليّة: كانتِ امرأةً عاقلةً مهذبةً خبيرةً بالأمورِ ، وكانَ يرجعُ إليها بالرّأي الملك الصَّالح أيّوب ، ويستشيرُها في مهمّات الأمورِ ، ومن مآثرها الجامع الذي بَنَتْه بخطّ الخليفة بمصرَ بقربِ مشهد السَّيِّدة سكينة بنْت الحسين ، ولها جملة مآثر ومبَانٍ خيرية بمصرَ وخلافها منَ البلادِ التي تملّكَتْ عليها(٢) .

* وفي مواضعَ مِنْ كتابِه «تراجم إسلاميّة» يلخّصُ محمّد عبد الله عنان شخصيَّة شَجرة الدُّرّ ، ويضعُها في الميزان ، فيقولُ ما مفادُه ، وما ملخّصُه ومحصّلُه: تَسْطَعُ في تاريخِ مصْر الإسلاميّة شخصيَّةٌ نسويةٌ تكادُ تغشى بروعتها وبهائِها كلَّ شخصيّةٍ نسويةٍ أخرى في تاريخنا ، تلك هي شخصيةُ شجرة الدُّرّ أوّلُ وآخرُ ملكةٍ جلسَتْ على عرشِ مصْرَ الإسلاميّة ، وحكمتْ

---

(١) النُّجومُ الزَّاهرة (٦/ ٣٧٤ و٣٧٥)؛ وفي غيرة النّساءِ يقولُ أحدُ الظرفاء متندراً من زوجته:

رأتْني أطلُّ لأفْقِ السَّماء	وأرنو إلى القَمر الأحْمَر
فقالتْ أينسيكَ هذا الجديدُ	جنونَك بالقمر الأسْمرِ
فقلتُ معاذَ الهوى أنْ تغاري	معاذ السَّنا المشرق النيِّرِ
تغارينَ منه ولو غَارَ منْك	لكانَ منَ الأخْلق الأجدرِ
تغارينَ منْ كوكبٍ طائرٍ	يبيعُ الحياةَ ولا يشتري
ينابيعُه زمهريرُ الشّتاء	وأنتِ منَ الخُلْد والكوثرِ
أعيذكِ يا زوجتي أنْ تغاري	فتُوبي إلى اللهِ واستغفري

«القمر الأحمر»: القمر الروسي في الفضاء. «القمر الأسمر»: تقصد نفسها.

(٢) انظر: الدر المنثور (ص ٢٥٥) بشيء من التصرف.

مصرَ حيناً لم يطُلْ أمَدُه ، ولكنَّه خَلَد في تاريخنا مثَلاً فريداً يثيرُ إعجابَ الأجْيَال.

* وقد لا تتفوّقُ شجرةُ الدُّرّ في خلالها أو شخصيّتها على شخصيّات نسويةٍ كثيرةٍ تبوأتْ مكانتَها في قُصُور الخلفَاء أو السَّلاطين ، وكان لها أحياناً أثرهُا البارز في توجيهِ سياسةِ الملْكِ ، ولكنْ منْ وراءِ السّتار ، لكن شجرةَ الدُّرّ تمتازُ على هذه الشَّخصيّات جميعاً بما هيّأَ لها القَدرُ منَ الجلوسِ على عرشِ الخُلفَاء والسَّلاطينِ ، وتخليدِ مكانتها بذلك في سِجلّ الملوكيّة الرّسميّ[1] .

* وفي موضع آخر يقولُ عنان: كانتْ شجرةُ الدُّرّ حسبما تصِفُها الرِّوايةُ جاريةً تركيةً أو أرمينيّةً أو روميّةً ، اشتراها الملكُ الصَّالح أيّامَ إقامتِهِ بالمشرقِ ، ولم تكنْ إلا واحدة منَ الجواري اللائي كانتْ تغصُّ بهنَّ قصورُ الخُلفاء والسَّلاطين في تلك العصُور ، ولا نعرفُ عنهنّ شيئاً إلا حينما يسطعُ نجمهنَّ ، فيغدونَ أمّهات وَلَدٍ ينجبْنَ الخُلفاء والسَّلاطين ، أو يجُزْنَ بذكائِهنّ وقوة سحرهنْ إلى ميدانِ السُّلْطة والنُّفوذ ، ويشاطرن في تزجية الشُّؤون.

* وكانتْ شجرةُ الدُّرّ امرأةً بديعةَ الخِلال ، وافرةَ الجَمال والسُّحْر ، حسنةَ التَّثقيف ، بارعةً في القراءةِ والكتابةِ ، ذكيةً داهيةً حسنَة التَّصريف للأُمور ، ولم تكنْ شجرةُ الدُّرّ غانيةَ قَصْرٍ فقط ، ولكنّها كانتْ فوقَ ذلك تتمتعُ بشخصية قويةٍ ، وقد استطاعتْ غيرَ بعيد أنْ تحرزَ بخلالها وقوة نفسها مكانةً ممتازةً لدى سيّدها ، فكانت حظيّتَه الأثيرةَ ، وتوثَّقَتْ مكانتُها بولادة ولدها خليل ، وبرزتِ الأمومةُ منْ بينِ صفاتِها فعُرفَتْ بأمّ خليل ، وغَلبَ عليها هذا اللقبُ حتى بَعْدَ وفاةِ ولدها ، ولازمها طول حياتها ، ولقبتْ به حين تولّتْ العرشَ فَعُرِفَتْ بالملكةِ: عصْمة الدِّين أمّ خليل شَجرة الدّر.

* ولما ابتسمَ الدَّهْرُ للملكِ الصَّالح ، وتولى عرشَ مصْرَ ، تألَّقَ نجمُ

---

(١) تراجم إسلامية (ص ٣١).

جاريتهِ وحظيتهِ شجرةِ الدُّرِّ ، فلم تلبثْ أنْ تبوأتْ في الدَّوْلَة أسمى مكانة ، وغدتْ ملكةً غير مُتوَّجَةٍ ، يغلبُ نفوذُها وسلطانُها كلَّ نفوذٍ وسلطانٍ ، ورأى الملكُ الصَّالِحُ أنَّ هذه المرأةَ الموهوبَة السَّاحِرةَ تستحقُّ أنْ تكونَ أكثر منْ حظيّة ، فأعتقها وتزوَّجها.

* ولم تَبْقَ شجرةُ الدُّرّ جاريةً تسمو بجمالِها وسِحْرِها ، ولكنّها غدتْ غيرَ بعيد سيّدة القَصر الشَّرعية[١].

* وكانتْ شجرةُ الدُّرّ ـ بالإضافةِ إلى جوانب خلالها الشَّخصية البديعة ـ امرأةً وافرةَ الهيبة ، تميلُ إلى التَّديُّنِ ، وتشغف بحبِّ الخير ، وأعمالِ البِر ، ولها في هذا السَّبيل مآثرُ لا تُحْصى ولا تُعَدُّ[٢].

* وعن توليةِ شجرة الدُّرّ مصْرَ يقولَ عنَان ما مفادُه: وكانتْ توليةُ شجرةِ الدُّرّ حَادثاً فريداً في التَّاريخ الإسلاميّ ، وكانَ للحادثِ أعظم وقْعٍ في العالم الإسلاميّ ، حتى قيل إنَّ الخليفةَ المستعصم باللهِ العبّاسي نعى علَى مصْرَ أنْ تجلسَ على عرشها امرأةٌ؛ ونعاهُ بعضُ فقهاءِ العَصْر ، واعتبروه خُروجاً على الدِّيْن.

* وقبضتْ شجرةُ الدُّرّ على زمامِ الأمورِ بحزمٍ ، وكانتْ يومئذٍ في نحو الأربعينَ منْ عُمرها تفيضُ قوّةً وعَزْماً ، واتَّخَذَتْ لنفسها طائفةً منَ الألقابِ الطَّريفةِ ، فهي الملكة عصمةُ الدِّينِ شَجرةُ الدُّرِّ ، وهي السّتْرُ العالي والدةُ خليل ، بالإضافة إلى ألقابٍ أخرى مشهورة لم تدمْ أكثرَ من ثمانين يوماً[٣].

* ويتابعُ محمّد عبد الله عنان الحديثَ عن شجرةِ الدُّرّ ، وعن مكانتها بينَ نساء قصورِ الأُمراء فيقول: كانتْ شجرةُ الدُّرّ بإجماعِ الرِّواياتِ المعاصرة والمتأخرةِ شخصيةً عظيمةً ، تمتازُ بخلالٍ ومواهبَ غيرَ عادية ، وكانتْ إلى

---

(١) تراجم إسلامية (ص ٨٧ ـ ٨٩) بتصرف واختصار.

(٢) المرجع السابق (ص ٨٩).

(٣) تراجم إسلامية (ص ١٠٢ ـ ١٠٥) بتصرف واختصار.

جانبِ جمالها الرّائع وسحرها الوافرِ كامرأة وحظيّة ، تتمتَّعُ بصفاتٍ باهرةٍ قلّما يجتمعُ في حسناءَ وافرةِ السِّحْر ، فقد كانتْ قويةَ النَّفْس صارمةَ العَزْم ، وافرةَ الحرمةِ والحشمةِ ، تعيشُ في جوٍّ من المهابةِ والجلالِ ، ولم تكن فقط جاريةَ القَصْرِ الأثيرةَ تسيطرُ بأنوثتها ودلالها ، ولكنّها كانت تسيطرُ أينما حلَّتْ بقوةِ عَقْلِها وذكائِها وروحها ، وقد لبثتْ مذْ تولّى سيّدُها وزوجُها الملكُ الصَّالحُ ملك مصْرَ ، زهاء ثمانية عشرة عاماً أبرزَ شخصيّةٍ في البلاطِ وفي الدَّولة ، يغلبُ رأْيها كلَّ رأي ، ونفوذُها كلَّ نفوذٍ ، ولم يكنْ تبوؤها العرشَ لفترةٍ قصيرةِ المدى ، إلاّ عنوانَ الذّرْوَة في هذا المجدِ العريقِ الذي شادتْه حولَها خلال أعوامٍ طويلةٍ منَ السُّلْطان غير المتوّج. وقد كان لصائبِ رأيها وثبت جنانِها وتوجيهها الجريء أثناءَ غزو الصَّليبيين لمصرَ أعظمَ الأثرِ في إنقاذِ مصْرَ من كارثةٍ مروّعة ، وتحويلها إلى نَصْر حاسمٍ باهر.

* وكانت هذه المرأةُ التي رفَعَها القَدَرُ إلى عَرشِ مصْرَ ، تتمتَّعُ فوق ذلك كلِّه بخلالٍ شخصيّةٍ جليلةٍ ، فقد كانتْ بالرغم من جمالِها وسحرِها سيّدةً متينةَ الخُلقِ ، وافرةَ العفافِ والصَّون ، تقيّةً خيرةً تعشقُ أعمالَ البِرّ ، وتوقفُ عليها الكثيرَ منْ مالها ، وكانتِ الغيرةُ العنيفةُ هي أظهر ما فيها من ضَعْفِ المرأةِ ، وهي التي أضلَّتْها ، ودفعتها إلى الخاتمةِ المؤسيةِ.

* وقالَ علي مُبارك: وكانت ذات عقْلٍ وحزمٍ ، كاتبة قارئة ، وكان لها برٌّ ومعروفٌ وأوقاف[١].

* ويقولُ عمر رضا كحّالة ما ملخّصه: شجرةُ الدُّرّ أمّ خليل الصَّالحية ، من شهيراتِ الملِكَات في الإسْلام ذات إدارةٍ وحزْمٍ ، وعقْلٍ ودهَاءٍ ، وبرٍّ وإحْسَان ، وكانت تكتُبُ خطّاً يشْبِهُ خطَّ الملك الصَّالح ، فتعلَّم على التَّواقيع ، وكانت تصدرُ المراسيم وعليها توقيع شجرة الدُّرّ بخطها باسْم والدةِ خليل ، وخُطِبَ في أيّام الجُمعَ باسمِ شجرةِ الدُّر على منابرِ مصْرَ والشَّام ،

---

(١) تراجم إسلامية (ص ١١٣ و١١٤) باختصار.

فكانتِ الخطباءُ تقولُ بعد الدُّعاء للخليفةِ: واحفظِ اللهمَّ الصَّالحة ملكةَ المسلمين عصمةَ الدُّنيا والدِّين ، ذاتَ الحِجاب الجميلِ ، والسِّتْرِ الجليلِ ، والدةَ المرحومِ خليل ، زوجةَ الملك نجم الدِّين أيّوب[1] .

* وعن توقيعاتِ ومناشيرِ شجرة الدُّرّ يقول النُّويري المولود سنة (٦٧٧هـ) والمتوفى سنة (٧٣٣هـ) : كانتِ المناشيرُ والتَّواقيع تخرجُ باسْمِها ، ويُكْتَبُ عليها ما صورتُه : والدةُ خليل ، ويكتبُ الموقّع : خرجَ الأمْرُ العالي المولوي السُّلطاني الخاتوني الصَّالحي ، الجلالي العِصَمي الرّحيمي ـ زادَه الله شَرفاً ونفاذاً ـ . قال النّويري : وقَدْ شاهدتُ مَنْشُوراً منها هذه ترجمته . وتواقيعُها موجودة بأيدي النَّاس إلى وقتنا هذا ، وخُطِبَ باسْمِها على المنابر[2] .

* ويروي النُّويري بأنَّه شاهَدَ بعضَ توقيعاتِ شجرة الدُّرّ ، وسجَّلَ ذلك التَّوقيع فقال : وقد شاهدتُ منها توقيعاً على ظَهْرِ قصّة مترجمُها عليُّ بنُ هاشم مضمونُها : يقبِّلُ الأرضَ بالمقامِ العالي السُّلْطَاني الخاتوني ، عصمة الدِّين ، بَسَطَ اللهُ ظلّها في مشارقِ الأرضِ ومغاربها ، وينهي أنَّ له خدمةً على مولانا الشَّهيد ـ قدَّس اللهُ روحه ـ وله مليكٌ اقتَناهُ في أيّامِه ، ولم يُسَقَّع[3] عليه قطّ ، وفي هذه الأيّام التمسوه ، وسأَل إجراءه على عادتِه من غيرِ حادث .

* وخرجَ التَّوقيعُ في ظَهرها ومثالُ العلامةِ عليه : والدةُ خليل الصَّالحية : «المرسومُ بالأوامِرِ العَاليةِ المولولية السُّلطانية ـ زادَها اللهُ شَرفاً وعلواً ـ أنْ يُجْري الأميرُ الأجلُ الأخصّ الأمجدُ الأعزّ ـ نورُ الدِّين مترجمها أدامَ الله توفيقَه ـ على عادته ، ولا يُطْلب بسببِ تصقيعٍ[4] ولا غيره ، وليُعْفَ من ذلك ـ رعاية لحقّ خدمته على الدَّولة الشَّريفة ، ولقدمِ هجرتِه وانقطاعِه إلى

---

(١) الخطط التوفيقية (٥/ ٨٢).
(٢) أعلام النساء (٢/ ٢٨٦ ـ ٢٩٠) بتصرف .
(٣) انظر : نهاية الأرب (٢٩/ ٤٥٦).
(٤) أي : لم تؤخذ منه ضريبة . والتسقيع والتصقيع بالسين والصاد .

اللهِ تعالى ، فليعْتَمدُ ذلك بعد الخطّ الشّريف أعلاهُ وثبوته ـ إنْ شاءَ الله تعالى ـ كُتِبَ في ثَاني عشرين جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وستمئة برسالةِ الطَّواشي شرف الدِّين مختصّ الجمدار أيّده اللهُ تعالى. وكتبَ عليه بالامتثالِ ، ونُفِّذَ حكْمُه وعمل بمقتضاه»[1].

* ويذكرُ المؤرّخُون أنَّه كانت لشجرةِ الدُّرّ أعمالٌ تدلُّ على البِرّ والإحسانِ ، وأنَّها أوقفتْ مدرسةً عُرفَتْ بمدرسةِ شجرة الدُّرِّ ، وحمّاماً عُرِفَ بحمّام السِّتّ.

* وقال عمرُ كحّالة: ولشجرةِ الدُّرّ مآثرُ وأوقافُ على وجوهِ البِرّ والإحسانِ معروفة بها[2].

* ومن هذهِ المآثر ما ذكرَه علي مبارك في «خُطَطه» بأنَّه يُوجد بالقاهرةِ جامعٌ اسمه: جامع شجرةِ الدُّرّ ، وهو بخطّ الخليفةِ بقرب مشهدِ السَّيّدة سُكينَة ، ويعرفُ أيضاً بجامعِ الخليفةِ باسم صاحبِ ضريحٍ يُقال له: محمّد بيك الخليفة ، وكان قد خَرِبَ فجدَّده ناظرُه السَّيد سُليمان عيسى منْ ريع أوقافِه ، وأُقيمت شعائِرُه ، وذلك في سَنَة (١٢٩٠هـ) ، وهو يشتملُ على أعمدةٍ منَ الرُّخام ، ومنبرٍ منَ الخَشب ، ولهُ مَطْهَرة وأخليةٌ ، ومنارةٌ وشعائر مُقامة ، وفيه قبّةٌ بها ضريحان: أحدهما لمحمّد الخليفة ، والآخر لشجرة الدُّر منقوشٌ على بابها:

هَـذَا ضَـريـحٌ بـالخليفـةِ قـد زَهَـا ... وتـزخْـرفَـتْ أوصـافُـه للنَّـاسِ
حَسُنَتْ عمـارتُـه وقـالـتْ أرِّخُـوا ... يهنيكـمُ فَخْـراً بنـي العبَّـاس

١٣٥ + ٨٨١ + ٦٢ + ١٦٤ = سنة ١٢٤٢هـ

يعني سنَة ألف ومئتين واثنتين وأربعين[3].

---

(١) انظر: نهاية الأرب (٢٩/ ٤٥٨).
(٢) انظر: أعلام النساء (٢/ ٢٩٠).
(٣) الخطط التوفيقية باختصار.

* ويتابعُ علي مبارك وصْفَ جامع شجرة الدُّر فيقول: وبالقبّةِ محرابٌ منقوشٌ عليه آية الكرسي، وبدائرها إزَاران منَ الخَشَب منقوشٌ في أحدِهما اسم شجرة الدُّرّ والدة الملك المنصور خليل بن الصَّالح بن المظفّر بن الملك الكَامل بن محمّد بن بكر بن أيوب، وبأسْفَل المنارةِ لوحٌ مصنوع منَ الجبسِ مكتوبٌ فيه تاريخ: سنة تسع وخمسمئة، وخارج الجامع مصطبة يُصلّى عندها على أمواتِ المسلمين الذين يُمَرُّ بهم من هذا الشَّارع[1].

* ويذكرُ محمّد عبدُ الله عنَان أنَّ مسجدَ شجرة الدُّر موجودٌ إلى الآن، وهو مسجدٌ صغيرٌ أصْلُه مدرسة أنشأتها شجرةُ الدر بجوارِ تربتها، وتُعْرفُ اليوم باسمِ جامع شجرة الدُّر، وعلى التُّربةِ قبَّةٌ منْ طرازٍ عبّاسي كُتِبَ في جنَباتِها ما يأتي: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم. عنِ السّتْرِ الرَّفيع، والحجابِ المنيع، عصْمَة الدُّنيا والدِّيْن، والدةُ المَلِكِ خَليل بن مولانا السُّلطان الملك الصَّالح نجم الدِّين أبي المظفّر أيّوب بن مولانا الملك الكامِل ناصر الدِّين أبي المعالي محمّد بن أبي بكْر بن أيّوب خليل أمير المؤمنين قدَّسَ اللهُ روحَه، ونوَّرَ ضريحَه، التي خَطَبت الأقلامُ بمناقِبها على منابرِ الطُّروس، وشهدتْ لها المفاخرُ بالمجدِ الثَّابت في أعلى العزّ بين الورى، وأصبحت شموسُ المملكةِ بها طالعة، وآراءُ الأمراءِ لها مطيعة وسامعةٌ، وأعزَّ اللهُ أنصارَها، وضاعفَ اقتدارها، وأعلى منارَها، وجعل في الملأ الأعلى خدّامها، ولم تزلْ مؤيدةً منصورةً على مرِّ الليالي والأيّام، بمحمّد وآلهِ وصحبهِ الطَّيبين الطَّاهرين الكرام[2].

* أمّا محمَّد سعيد العريان فيلخّصُ صفات شجرة الدّر، ويذكرُ ما تفرَّدَتْ به بينَ نساءِ قصورِ الأُمَراء فيقولُ ما مفادُه ومحصّله وملخّصه: وشجرةُ الدُّر اسمٌ مشهورٌ جدّاً في تاريخِ مصر؛ بل إنّها أشهرُ امرأةٍ في هذا التَّاريخِ، لعدّةِ

---

(١) الخطط التوفيقية باختصار.
(٢) انظر: تراجم إسلامية (ص ١١٣) الهامش.

أَسْباب: منها: أنَّها أوّلُ امرأةٍ وآخرُ امرأةٍ تولَّتْ عرشَ مصرَ الإسلاميّة فلا تُعْرفُ امرأةٌ قبلَها ولا بعدها ـ منذ أوّل عَهْد الإسلام إلى اليوم ـ تولتْ عرشَ هذه البلاد. تأمرُ وتحكمُ، وتولّي وتعزلُ، وتسيِّرُ الجيوشَ للحربِ، وتوقّعُ معاهداتِ الصُّلح، وتعيِّنُ الوزراء، وتعقدُ الألويةَ للقُوّاد، ويُنْقَش اسمُها على الدَّراهم والدّنانير، ويُدعى لها على المنابر في المساجد.

* ومنها: أنَّها كانت أوّلُ مملوكةٍ تجلسُ على العرش، فتصيرُ ملكةً يدينُ لها الملايينُ بالطَّاعة والولاء، بعد أنْ كانت جاريةً مشتراةً بالمال، يأمرها سيّدها فتأتمر وينهاها فتنتهي.

* ومنها: أنَّ عصرَها كان مزدحماً بالحوادثِ التّاريخيّة العظيمة، فكانت ولايتُها آخر عهدِ الدَّولة الأيوبيّة، وأوّلُ عهدِ المماليك؛ وفي عهدها انكسرَ الصَّليبيون كسرةً شنيعة، كما أنَّه في عهدها بدأَ زحفُ المغول منْ أواسطِ آسيا على البلادِ الإسلاميّة، حتى كانت هزيمتُهم السَّاحقةُ الماحقةُ في موقعةِ عين جالوت بفلسطين بعد وفاة شجرةِ الدّر بأمدٍ قليل.

* وفي عَهْدها بدأتْ عادة تسيير المحمل في كلِّ عام من مصرَ إلى الحجاز، في موسمِ الحجّ، يحملُ كسوةَ الكعبة.

* وفي عهدها نبغَ كثيرٌ منَ الأُدباء والشُّعراء من مثل: بهاء الدِّين زُهير، وجمال الدِّين بن مطروح وغيرهما.

* ومن أسبابِ شهرتها في ديوان نساء الأمراء، المسجد العظيم الذي بنتهُ في حيِّ الخليفة في القاهرة لتُدفنَ فيه بعد موتها، ولم يزلْ قائماً إلى اليوم بالقرب من مسجد السَّيِّدة نفيسة يقصده الزُّوَّار، وتؤدّى فيه الصَّلوات.

* إنَّ شجرةَ الدُّر نفسها كانت فتاةً مقطوعةَ الجذْرِ، لا يُعرفُ لها أبٌ ولا أمٌّ ولا أصْلٌ، ولم تتركْ بعد موتها ولَداً ولا بنتاً ولا ذريةً، فكانت ذات إرادةٍ وتدبير وكَيْد.

* وملكتْ وتسلَّطت وقبضتْ على الصَّولجان، وركعَ تحتَ قدميها

الرِّجال ، ولكنَّها لم تَنْسَ في لحظةٍ من لحظاتِ السُّلطان الباطش أنّها أنثى ، وأنَّ لكلّ أنثى رجُلاً تخضعُ له ، وتذوبُ إرادتها في إرادته ، فكانتْ ـ حتى في اللحظةِ التي ينسى فيها كلّ ذي سلطان أنّه بشرٌ ـ أنثى تستسلمُ للحبّ استسلامَ كلّ ذات قلب.

* فلما جدَّت في آثارِها الحوادثُ وأرغمتها على أنْ تختارَ بين أنْ تكونَ امرأةً لرجلٍ ، أو ملكةً لعرشٍ وتاجٍ وصَولجان ، تنازعتها الكبرياءُ والغيرةُ ، فطاشتْ ، فلم تكنْ في طيشها أنْثى ذات قَلْب ، ولا ملكة ذات تدبيرٍ ، وفقدتِ الرَّجل ، والعرشَ ، والحياةَ جميعاً. تلك شجرةُ الدّر ، تاريخ أمّةٍ في تاريخ أمّة[1].

* وبعد ، فهذه شجرة الدّر التي ملأتِ الدنيا وشغلتِ النّاس ، وكانت مَثلاً شروداً بين نساء قُصور الأمراء في دنيا النّساء ، لمع نجمُها في سماءِ الشُّهْرةِ زمَناً طويلاً ، ولكنّه أخذَ يخبو في أواخرِ أيّامها عندما اشتعلتْ نارُ الغيرةِ في صَدْرها ، فتلاشَتْ مكانتُها ، وانتهتْ أيّامُ عزِّها ، التي بدأتْ رائعةً باهرةً ، ثمّ انحدرتْ إلى ظلمات الجريمةِ.

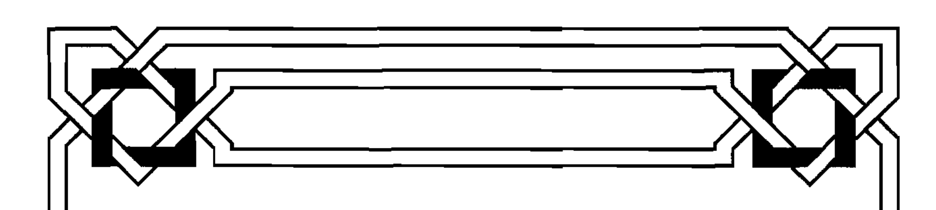
* وأرجو أنْ أكونَ قد وُفّقْتُ إلى رسمِ معالم صورةِ شجرة الدُّرّ أكثر ، وأنْ تتوضَّحَ في الأَذْهَانِ بشكلٍ أفْضَل من ذي قَبْل؛ لتكونَ النِّساءُ وذواتُ الخِمار بمعزلٍ عن الغيرةِ التي تَذْهَبُ بالمحاسنِ وإن كَـثُـرَتْ ، ولتكون الفائدةُ والعِظَةُ أيضاً ، لتسلكَ النّساءُ الطَّريقَ القويمَ ، ويستفدْنَ منْ عثَراتِ غيرهنَّ لتستقيمَ حياتهنّ في وقتٍ هُنّ بحاجةٍ إلى القدوةِ الحسنةِ.

* أمّا شجرةُ الدُّرّ فإنّا نتركُ أعمالَها إلى العليم الخبيرِ ، فهو المتصرّف بالأمورِ ، وإليهِ المصيرُ ، والحمدُ للهِ أوّلاً وآخراً.

* * *

---

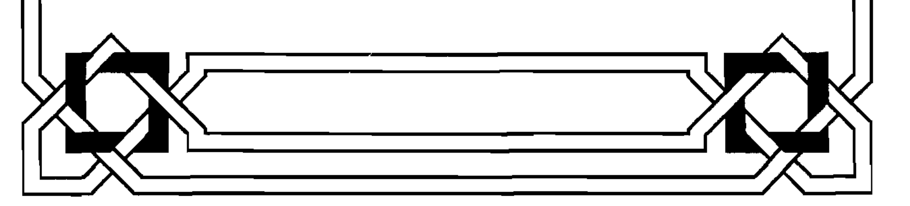
(١) انظر: شجرة الدر (ص ٤ ـ ١٣) لمحمد سعيد العريان باختصار وتصرف ـ طبعة دار المعارف ١٩٦٥م.



(١٠)

عاتكة بنت يزيد

* أعرق الناس في الخلافة ، فأبوها خليفة ، وجدها خليفة ، وأخوها خليفة ، وزوجها خليفة ، وولدها خليفة .
* ذات جمال بارع ، ومكانة رفيعة ، وغيرة شديدة .
* أُوتيت عقلاً راجحاً ، ودراية في تصريف الأمور .



أرْدِيَةُ الـمَجْـدِ:

* لو أردْنَا أنْ نقولَ: مَنْ هذهِ المرأة التي عاشتْ في قصور الأُمراء والخلفاءِ منْ يومها الأوَّلِ في هذهِ الحياة، إلى يومها الآخر؟ لأجبْنا: إنَّها عاتكةُ بنتُ يزيدَ بنِ معاوية بنِ أبي سفيان الأمويّة القرشيّة[1].

* فقد نَشَأَتْ عاتكةُ بنتُ يزيد وأرديةُ المجدِ تحفُّ بها من كلِّ جانبٍ، نشأتْ في قَصْرِ أبيها الذي كان مَلك الدُّنيا في وقتِهِ، وكان أميراً للمؤمنين بعد وفاةِ أبيهِ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ، وأمّا زوجها، فقد كان ملك الدُّنيا في عَصْره أيضاً، ومنْ أشهرِ خلفاء بني مروان على الإطلاق.

* ولهذا نَقَلَ الأصمعيُّ عن أبي عمرو قال: أعرقُ النَّاسِ في الخلافةِ عاتكةُ بنتُ يزيد بن معاوية، أبوها خليفة، وجدُّها خليفة، وأخوها معاويةُ بنُ يزيد خليفة، وزوجُها عبدُ الملك بنُ مروانَ خليفة، وولدها يزيدُ بنُ عبد الملك خليفة، وأربابُها الوليد وسُليمان وهشام خُلفاء[2].

---

(١) المحبر (ص ٢٨ و٥٧ و٤٠٤)، ونسب قريش (ص ١٢٩)، وأنساب الأشراف (٤/ ٢٩٠ و٣٥٥)، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٣ ـ ٢٠٦)، وجمهرة أنساب العرب (١/ ٩١) وتاريخ الطبري (٣/ ٦٨)، والبداية والنهاية (٩/ ٧٣)، ووفيات الأعيان (١/ ٤٨١) و(٤/ ١٠٨)، والتذكرة الحمدونية (٢/ ٥٤)، و(٨/ ٢٢٠ و٢٢١) والعقد الفريد (٤/ ٣٧٥ و٤٠٧ و٤٤١) و(٥/ ٣٢٣) و(٦/ ٢٦٩)، والأغاني (انظر الفهارس ٢٦/ ٦٠٠) وبلاغات النساء (ص ١٨٠ طبعة الكويت، وتاريخ اليعقوبي (٢/ ٣١٠)، والكامل في التاريخ (٤/ ٣٢٤ و٣٣٢ و٥١٩) و(٥/ ٢٨٩)، والكامل في اللغة والأدب للمبرد (ص ١٦ و٨٠٦ و٩٥١ و١١٥٦)، وثمار القلوب (ص ٣١٦ و٣١٧) والمعارف (ص ٣٥١ و٣٦٤) وتاريخ القضاعي (ص ٣٦٥ و٣٦٧).

(٢) انظر في هذا: العقد الفريد (٦/ ٢٦٩).
وقالوا عن عاتكةَ أيضاً: إنّها كانتْ تضعُ خمارَها بين يدي اثني عشَر خليفة، كلُّهم لها محرم. =

* وضيفتُنا عاتكةُ بنتُ يزيد الأمويّة ممن طابتْ أصولُها ، فأمُّها واحدةٌ من شهيراتِ قريش؛ وهي أمُّ كلثوم بنتُ عبد الله بن عامر بن كُريز؛ ولأمِّ كلثوم بنت عبد الله هذه يقول يزيدُ بنُ معاوية ـ وكان معاويةُ قد وجَّهَه يغزو الرُّوم فأقامَ بدير سَمْعان ، وجَّه الجنود ، وتلك غزوة الطُّوَانة ، فأصابَهم الوبَاءُ ، فقال يزيدُ بنُ معاوية :

أهونْ عليَّ بما لاقتْ جموعُهمُ   يَومَ الطُّوَانةِ من حمّة ومن مُومِ
إذا اتّكأْتُ على الأَنْماطِ مرتفقاً   بديرِ سَمْعان عندي أمُّ كلثومِ

فبلغَ معاويةُ ما قال: فأقسمَ باللهِ: لتلحقَنَّ بهم حتى يصيبَك ما أصابَهم ، فألحقَه بهم[1] .

* وعاتكةُ بنتُ يزيد هذه هي زوجُ عبدِالملك بنِ مروان ، وأمُّ يزيدَ بنِ عبد الملك ، وإليها تُنْسبُ أرضُ عاتكة خارج باب الجابية ، وكان لها بها قَصْر ، وبه ماتَ عبد الملك بن مروان[2] .

* وذكر ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ أنَّ عاتكةَ كانت ولُوداً ، فقد ولدتْ لعبد

= * أبوها: يزيدُ بنُ معاوية .
* وأخوها: معاويةُ بنُ يزيد .
* وجدُّها: معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ .
*وزوجُها: عبدُ الملك بن مروان .
* وأبو زوجها: مروانُ بنُ الحكم .
* وابنها: يزيدُ بنُ عبد الملك .
* وبنو زوجها: الوليدُ ، وسُليمان ، وهشَام .
* وابن ابن زوجها: يزيد بن الوليد بن عبد الملك .
* وابن ابن زوجها أيضاً: إبراهيم بن الوليد المخلوع .
(تاريخ مدينة دمشق؛ تراجم النساء ص ٢٠٥) .
وهذه خصوصية لم تتّفِق لامرأةٍ غيرها في نساء قصورِ الأمراء على مدى التَّاريخ .

(١) انظر: نسب قريش (ص ١٢٩ و١٣٠) .
(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٣) .

الملك بن مروان: يزيد، ومروان، ومعاوية توفي صغيراً، وابنة اسمها أمّ كلثوم[١].

* ويظهرُ منْ أخبارِ عاتكة أنّها نشأتْ في الشّامِ، وأخذتْ تنهلُ من العُلومِ في عَصْرِها، فكانتْ ممن رُوي عنها منْ نساءِ الأُمراء، وقد عدَّها ابنُ سُميع في الطَّبقةِ الثَّالثة فقال: عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية دمشقيّة[٢].

* بينما ذكَرها أبو زرعة فيمَنْ حدَّث بالشَّام منَ النِّساءِ فقال: عاتكةُ بنتُ يزيدَ بنِ معاوية، روى عنها مُهاجِرُ الأنصاري[٣].

مَالـي عِـنْـدَك إنْ رضيَـتْ عَـاتِـكَـةُ:

* كانتْ عاتكةُ بنتُ يزيد إحدى نساءِ القُصور ذوات السُّؤددِ والمجدِ والرِّفْعَةِ والعظمةِ، ناهيك بالحُسْنِ الباهِرِ والجَمالِ البَارِع، فقد شغلتْ في قلوبِ بني أميةَ مكاناً رفيعاً، بينما استولتْ على قَلْبِ زوجِها عبدِ الملك بن مروانَ، وتمكَّنَتْ منه، فكانَ لا يرى منْ دُنيا النِّساء سِواها، وكان يحبُّها حبّاً عظيماً، ويجلُّها ويعرفُ قَدْرَها ومكانتَها.

* وحدَثَ أَنِ اخْتَلَفَ مرّةً مع عاتكةَ خِلافاً تطوَّرَ إلى هَجْرٍ منها، وصدودٍ وجفَاءٍ وإعراضٍ، وعلى الرغمِ منْ أنَّ عبد الملك كان يهيمُ بحبِّها، إلاّ أنَّه لا يستطيعُ دفْعَ غضبها الشَّديد إلاَّ بالاستعانةِ بأهلِ المشوراتِ، وربما بالحيلةِ اللطيفةِ التي تفتحُ القلوب الموصدة.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٧٣).
(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٤).
(٣) مهاجرُ الأنصاري: هو مهاجرُ بنُ أبي مسلم واسمُه دينار الشّامي الأنصاري، مولى أسماء بنت يزيد الأنصاريّة ـ رضي الله عنها ـ؛ ـ وهي صحابيةٌ أنصارية كانت تدعى خطيبة النّساء، اقرأ سيرتها في كتابنا بنات الصّحابة ـ روى مهاجر عنْ مولاته، ومعاويةَ، وتبيع الحميريّ، وروى عنه: ابناه، عمرو ومحمّد، ومعاوية بن صالح الحضرميّ، والوليدُ بن سليمان بن أبي السّائب، ذكره ابن سُميع في الطّبقة الرابعة، وذكره ابن حبان في الثّقات (تهذيب التّهذيب ١٠/ ٣٢٣).

* تروي أخبارُ عاتكةَ التي وصَلَتْ إلينا بأنَّ زوجَها عبد الملك كانَ منْ أشدِّ النَّاس حبّاً لها ، ولكن حدثَ مرَّةً أنْ غَضِبَتْ عليه غَضَباً شَديداً ، وكان بينهما بابٌ ، فَعمدتْ عاتكةُ إلى البابِ وأغلقَتْه ، وحجبتْ عبدَ الملك عنها.

* وعندما علمَ عبدُ الملك بما فعلتْهُ عاتكة شقَّ عليه غضبُها ، وضاقَتْ نفسُه ، كما ضاقتْ عليه الأرضُ بما رحُبَتْ ، وحاول أنْ يسترضيها لكنّه لم يفلحْ بذلك أبداً ، واستمرَّ غضبُها أيّاماً فشَكا إلى رجلٍ من رجالِ خاصَّتِهِ يُقال له: عمر بن بلال الأسديّ ، وكان من أهلِ الرّأي والمشورةِ والسِّنِّ والظَّرفِ ، وكان ذا مكانةٍ مرموقةٍ عند أبيها وجدِّها ، وعند أعيانِ بني أميّة ، فكلُّهم يحسنُ رفْده ويكرمُه ويعظمُه؛ وأخبره عبد الملك بغضبِ عاتكة وصدودِها وهجرانها ، وأنّها معرضةٌ عنه منذ أيّام.

فقالَ له عمرُ بنُ بلال: ما لي عندكَ إنْ رضيتْ يا أميرَ المؤمنين؟ قال عبدُ الملك: حُكْمُك يا عمرُ وزيادة ، فلا صَبْرَ لي عَنْها.

* وراحَ عمرُ بنُ بلال يفكِّرُ فيما يفعلُ مع هذهِ الغاضبةِ التي تعتصمُ وراءَ الجُدْران ، إلى أنْ برقَتْ فكرةٌ في ذهنِه ، فأسرعَ إلى تنفيذها ، فانطلقَ وأتى بابَ عاتكة ، وجَعَلَ يتباكى ويصرخُ ويدعو على نَفْسِه ، ثمَّ أرسلَ إليها يقرِئها السَّلامَ ، ويشكو ما أصابَه ، فخرجتْ إليهِ حاضنتُها ومواليها وعددٌ منْ جواريها؛ ولما رأينَ عمرَ بنَ بلال الأسديّ يصرخُ تعجبْنَ وقُلْنَ: مالكَ يا بنَ بلال؟! قال عمرُ والدُّموعُ المصطنعةُ تنهمرُ من عينيهِ: فزعتُ إلى عاتكةَ ورجوتُها ، وقد عَلِمَتْ مكاني منْ أميرِ المؤمنين معاوية ، ومن أبيها يزيدَ بنِ معاوية بعده. فازدادَ عجبهنَّ وقُلْنَ له: مالكَ وما حالُك وعلامَ نحيبُك؟!

قال عمرُ وهو يحاولُ أنْ يكفكِفَ منْ دموعِهِ: ابنايَ لم يكُنْ لي غيرهما ، فقَتَلَ أحدهما صاحبَه ، فقال أميرُ المؤمنين عبد الملك: أنا قاتل الآخر به. فقلتُ له راجياً: يا أميرَ المؤمنين ، أنَا الوليُّ وقد عفوتُ.

قالَ: لا يا عمر ، لا أعوِّدُ النَّاسَ هذه العادةَ فيختلطُ الأمْرُ ، وتضيعُ الحقوق.

فقلنْ له: وما تريدُ الآن؟

قال: أخبروا زوجَ أمير المؤمنين وابنةَ أمير المؤمنين عاتكة أنْ قد رجوتُ أن ينجي اللهُ ابني هذا على يدها.

* وأسرعتِ الحاضنةُ والجواري، ودخلْنَ على عاتكةَ وهُنَّ مضطرباتٌ، فذكرنَ لها حالةَ عمرَ بنِ بلال الأسديّ وشدّة بكائِهِ وعويلهِ وخوفِهِ على قَتْل ابنهِ الآخر.

فقالت: وكيفَ أصنعُ له مع غَضبي على أميرِ المؤمنين، وما أظهرتُ له من الجفاء والهجران؟!

قُلْنُ: إذاً واللهِ يُقتل يا سيدةَ النّساء.

* ولم يزلنَ بها ويرققْنَ قَلْبَها على المُتباكي الحزينِ، حتى دعَتْ بثيابها، ثمّ عمدتْ إلى الطِّيْبِ والبخُور فوضعَتْه عليها، ولبسَتْها، ثمّ خرجتْ نحوَ البابِ الذي يفضي إلى أميرِ المؤمنين عبدِ الملك بن مروان.

* وكان عبدُ الملك يرقبُ الأحداث بعينٍ باصرة، وأذنٍ واعية، وشعرَ حُديجُ الخصيُّ بقدومها، ورآها عن كَثَب، فأسرعَ نحو عبد الملك وقال له: يا أميرَ المؤمنين هذه عاتكةُ قد أقبلتْ في حليها وحللِها تجرِّرُها.

فقال عبدُ الملك: ويلك، ما تقولُ يا حديج؟!

قال حُديج: قد واللهِ طلَعَتْ، وها هي قربَ البابِ.

* واصنطعَ عبدُ الملكِ الهدوءَ والوقارَ، فدخلتْ عاتكةُ، وألقتِ السَّلام على عبدِ الملك فلم يردَّ عليها، ولم يتحركْ من مكانِه، ولا نَظَرَ نحوها، وإنْ كان قلْبُه قد هَفَا واضطربَ، وجوانحُه قد لانَتْ وتحركت، وأساريرُه قد برقت.

فقالت عاتكةُ وهي عابسةٌ عبوسَ الدَّلال: يا أميرَ المؤمنين، أما واللهِ لولا عمرُ بنُ بلال الأسديّ ما جئْتُك، إنَّ أحدَ ابنيه قد تعدى على الآخرِ، فقتَله فأردتَ قَتْلَ الآخرِ، وهو الوليُّ وقد عَفَا.

فقال عبدُ الملك وهو يصطنعُ الحَزْمَ والعبوس: إنّي أكرُه أنْ أعوِّد النَّاسَ هذه العادة، فتكثرُ الجرأةُ بينَ النَّاس.

* فسُقِطَ في يَدِ عاتكة ولانَتْ وقالت: أنشدُكَ اللهَ يا أميرَ المؤمنين، قد عرفتَ مكانَ عمرَ بنِ بلال منْ أميرِ المؤمنين معاوية، ومن أميرِ المؤمنين يزيدَ ابنِ معاوية؛ وهو الآن ببابي يكادُ يتفطَّرُ قلبُه حُزناً وأسىً وشفقةً على ابنه الآخر؛ ثمَّ لم تزل عاتكةُ بعبدِ الملك من مثلِ هذا الكلام، وهذا الاستعطاف حتّى أخذت برجْلِهِ فقبلَتْها.

فقال عبدُ الملك وقد انفرجتْ أساريرُ وجهه: هو لكِ يا عاتكةُ. ثم إنّهما لم يبرحا حتى اصطَلحا، وكأنَّ شيئاً لم يكنْ بينهما.

* وراحَ عمرُ بنُ بلال بعد ذلك إلى عبدِ الملك وقال له: يا أميرَ المؤمنين، كيفَ رأيتَ حيلتي وعَمَلي؟

فقال عبدُ الملك: قد رأينا أثَرك يا عمر، فهاتِ حاجتَك تُعْطَها. قال: مزرعةٌ بعدّتها وما فيها وألفُ دينار، وفرائضُ لولدي وأهلِ بيتي وعيالي.

قال: لكَ ذلك، وبرَّ عبدُ الملك بوعدِه، وأكرمَ مثوى عمر بن بلال ووصَلَه لحيلتِه اللطيفة وحُسْن وسَاطته.

* واندفعَ عبدُ الملك بن مروان يتمثّل بشعرٍ لكثيرِ بنِ عبد الرحمن من داليتِهِ فقال:

وإنّي لأَرعى قومَها منْ جلالها ... وإنْ أظْهروا غشّاً نصحتُ لهم جهدي

ولو حَاربُوا قومي لكنْتُ لقومِها ... صَديقاً ولم أحملْ على قومها حقْدي

وعلمتْ ما أرادَ عبد الملك وما تمثَّلَ به، وعلمتْ أنَّ أمير المؤمنين قد تمثَّل في أَجْملِ نِسَاء العالَمين[1].

(١) انظر: الأغاني (٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٨)، والدر المنثور (ص ٢٢٤)، وأعلام النساء (٣/ ٢١٦ و٢١٧) مع الجمع والتصرف. وانظر: التذكرةِ الحمدونية (٨/ ٢٢٠ و٢٢١)، والجليس الصالح (٢/ ٣٦ و٣٧).

غيرتُها وحيلتُها:

* كانتْ عاتكةُ بنتُ يزيد امرأةً شديدةَ الغيرةِ، ولعلَّ هذه الغيرة جعلَتْها ذاتَ مزاجٍ عصبي، ولكنّها هذه المرَّة عمدتْ إلى الهدوءِ لتستردَّ قلبَ عبدِ الملك زوجِها.

* ذكرَ البيهقيُّ في كتابِهِ «المحاسن والمساوىء» أنَّ عبدَ الملك بنِ مروان قد أمرَ عمرَ بنَ محمَّد صاحبَ البَلْقَاء أنْ يخطبَ له الشَّقْراء بنت شَبيب بن عوانَةَ الطَّائية[1] في باديةِ أهلها، فانطلقَ عمرُ بنُ محمد إلى أعرابي بفناءِ خيمتهِ فقالَ الأعرابيُّ: أرسولُ أميرِ المؤمنين؟!

قال: نَعمْ.

قال: فإنَّا قد زوَّجْنَاهُ على صَدَاقِ نسائِنا مئة منَ الإبل، وما يتبعُها منَ الثِّيابِ والخَدمِ.

* فكتبَ عمرُ بنُ محمّد إلى عبدِ الملك بذلكَ فأرسَلَ إليهِ بما طلبَ، ثمَّ جهَّزَها أهلُها، وحُمِلتْ إلى عبدِ الملك، فبنى بها، فكانَ يقولُ: ما رأيتُ مثلَ هذه الأعرابيّة ظَرفاً وخلقاً ومنطِقاً.

* فاشتدَّ ذلك على عاتكةَ بنتِ يزيد بنِ معاوية، ولعبتْ بها الغيرةُ، وضاقتْ نفسُها من هذه الضُّرّةِ المرَّةِ، فأرسلتْ إلى رَوْحِ بنِ زِنْباع - وكان من أخصِّ النّاس بعبد الملك - فقالت: يا أبا زُرْعة، إنَّ أميرَ المؤمنين قد أعجبَه أمْرُ هذهِ الأعرابيّةِ وغلبتْ على قلبِهِ، فشأْنُكَ في إفسادِ ذلك عنده.

قال: نعم ونِعْمةُ عَيْن.

* ثمَّ خلا بعبدِ الملك فقال: يا أميرَ المؤمنين، كيفَ ترى هذه الأعرابيّة؟

قال: قد جَمَعَتْ ما جمعَ نساءُ الحاضرةِ والباديةِ.

قال: يا أميرَ المؤمنين، وإنَّكَ منَ الأعرابيّةِ كما قال الأوَّل:

---

(١) ذكر ابن الأثير أن اسمها: شقراء بنت مسلم بن حليس الطائية (الكامل ٤/ ٥١٩).

وَإذَا تَسـرُّك مـن تميـمٍ خُلَّـةٌ   فَلَمَـا يسـوءك مـنْ تميـمٍ أكثـرُ

فقال له: لا تَقُلْ ذلك.

* ثم إنَّ عبدَ الملك دخلَ على الشَّقْراء فقال لها: يا شَقْراء، أعلمتِ أنَّ رَوْحاً قال لي كذا وكذا؟!

قالت: ولمَ ذلك، وحالُ عشيرتي وعشيرته كما تَعْلم؟

قال: هو ما قُلتُ لك، وإنْ أحببتِ أسمعتُك ذلك منه.

فقالت: قد أحبَبْتُ.

* فأمرَها أنْ تجلسَ خَلْفَ السِّترِ، وأرسلَ إلى رَوْحٍ، فلما دخلَ عليه قال له: هيه يا أبا زُرعة، واللهِ لقد وقعَ كلامُك منّي موقعاً.

قال: نعم يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الأعرابيَّةَ تنكثُ، ثمَّ لا تدري ما أنتَ عليهِ منها.

* فعجلتِ الشَّقْراءُ، ورفعتِ السِّتْرَ وقالت: أنتَ فلا حيَّاكَ اللهُ، ولا وصَلَ رحمَك، قد كان يبلغُني هذا عنك فما كنتُ أصدِّقُ.

* فوثبَ روحٌ وقال: إنَّ هذا أرسلَ إليَّ، فأعلمني أنَّكِ خَلْفَ السِّتْر، وعزمَ عليَّ أنْ أتكلمَ بهذا، وأمّا أنت فلا يسوءك الله.

قالت: صدقَ واللهِ ابن عمي، وأنتَ الذي حَمَلْتَه على ماقال.

فقال عبدُ الملك: ويلكِ يا شقراء، لا تَقْبلَي منه ما قال.

قالت: هو عندي أصدقُ منك.

* وجعلَ روحٌ يقول وهو مُوَلٍ: هو واللهِ الحقّ كما أقولُ، فخرجَ ووقعَ الكلام بينهما.

* وبهذهِ الحيلةِ استطاعتْ عاتكةُ بنتُ يزيدَ أنْ تستردَّ قلبَ زوجها عبد الملك نحوها، بعد أنْ كادَ يذهبُ إلى ضرتها الشَّقْراء الطّائية[1].

---

(١) انظر: المحاسن والمساوىء للبيهقي (ص ٣٣٩ ـ ٤٤١) بتصرف.

عـاتـكـةُ وَوَلَـداهـا :

* عاتكةُ ابنةُ يزيدَ واحدةٌ منَ النِّساءِ اللواتي آتاهُنَّ اللهُ عَقْلاً واسِعاً ، ودرايةً في تَصْريفِ الأُمور ، وكانتْ تعرفُ منْ أينَ تُؤكَلُ الكتفُ ، وكيف تتعاملُ مع زوجها عبد الملك بنِ مروان ، ومع أولادِها منه .

* كما كانتْ عاتكةُ شديدةَ التَّعصُّبِ لآلِ أبي سُفيان ، فكانتْ تبرّهُم ما استطاعتْ إلى ذلك سبيلاً ، وكانتْ قد جعلتْ جميعَ أموالها لفقراءِ آل أبي سفيان ، ممّا أثار غضبَ عبد الملك عليها ، ولكنْ سُرعان ما أسْكَن روحُ بنُ زنباع غضبَه ، وجعلَه يكفُّ عنها ، فمتى كانَ ذلك؟!

* روي أنَّ عبدَ الملك قال لزوجهِ عاتكةَ بنةِ يزيدَ لما كبرَ ابناها يزيدُ ومروانُ ابنا عبد الملك منها : يا عاتكةُ ، إنَّ ابناكِ يزيد ومروان قد بلغَا وأصبحا رجليَنْ ، فلو أشهدتِ لهما ميراثك ومالكِ منْ أبيك ، لكانتْ لهما فضيلة ومنزلة على سائرِ إخوتهما ـ يعني إخوتهما لأبيهما عبد الملك وكان له أولادٌ من نساءٍ أخريات ـ .

فقالت عاتكةُ : حَسَناً ما أشرتَ به يا أمير المؤمنين ، وأنا فاعلةٌ ما قلْتَ ، فاجمعْ لي شُهوداً منْ مواليَّ ومواليك الثِّقات كيما أشهدهم على ذلك .

* وسارعَ عبدُ الملك بنُ مروانَ ، فجمعهم وبعثَ إليها بعدّة منهم ممن يثقُ بهم وتثقُ بهم ، فدخلُوا على عاتكةَ ، وأدخلَ عبد الملك معهم أبو زُرعة روحُ ابنُ زنباع الجذاميّ ـ وكانت بنو أمية تدخِلُه على نسائِها مداخلَ مشائخها وأهلها ، وكانَ روحٌ شِبْهَ الوزيرِ لعبدِ الملك وكان سيّد اليمانية في الشَّام وقائدها وخطيبها وشجاعها ـ؛ وكان عبدُ الملك قد قال له : يا أبا زُرعة رغِّبها فيما صنعَتْ هذا الصَّنيعَ العظيمَ، وحسِّنْه لها، ثمَّ أخبرهَا برضائي عنها وعنْ أعمالِها .

* ودخلَ روحٌ فتكلَّم كلاماً حسناً ، وأظهرَ منْ بلاغةِ الخِطَابِ ما جعلَ الحاضرين يلقونَ سَمْعَهم إليهِ ، ثمَّ قال ما قاله عبد الملك له قَبْل دخوله على عاتكةَ التي كانت تصيخُ بسمعها إليه .

* ولما فرغَ روحٌ منْ بلاغتهِ وأداءِ رسالته المُوكَلةِ إليه من عبد الملك قالت له: يا روحُ! أتراني أخشى على ابني يزيد ومروان العَيْلة [1]، وهما ابنا أمير المؤمنين؟! يا روحُ إنَّ ابنيَّ في غنىً عنْ مالي بأبيهم وموضِعهم منَ الخلافةِ، أشهدُكَ أنّي تصَّدقْتُ بمالي على فقراءَ آل أبي سُفيان.

* ثمَّ إنَّ عاتكةَ التفتَتْ إلى الحاضرين وقالتْ: أشهدُكم أنّي قد أوقفتُ جميعَ مالي على فقراءِ آل أبي سفيان، فَهُمْ إلى ذلك أحوجُ لتغيّر حالِهم وحياتِهم.

* وكادَ روح يخرجُ من جِلْدِه لما سمعَ ما سَمِعَ منْ عاتكةَ، وخرجَ القومُ من عندها، وخرجَ معهم روحٌ يجرُّ رجلَيْه وقد تغيَّر لونُه وبدا عليه الانزعاجُ. فلما بَصرَ به عبدُ الملك لم تَخْفَ عليه حالُه وقال: أمَّا أنَا، فأشهدُ أنَّك قد أقبلتَ بغيرِ الوجْهِ الذي أدبرتَ فيه!

فقال روحٌ: صدقَتْ فِراسَتُك يا أميرَ المؤمنين، فقد وجَّهْتَني إلى معاويةَ ابنِ أبي سُفيان، وإنّي تركتُه جالساً بأثوابِه في الدِّيوانِ - يريدُ أنَّ عاتكة كجدّها معاوية في الذّكاء والحَزْم -؛ ثمَّ إنَّ روحاً أخبرَه الخبرَ وما قالتْهُ عاتكة، وما أشهدتْ عليه القوم.

* فغضبَ عبد الملك غَضَباً شديداً وتوعَّدها وأرعدَ وأبرقَ، هنالك أظهرَ روحٌ نصيحتَه وظهرتْ عبقريتُه، فتقدَّم من عبد الملك وقال في هدوء: مَهْلاً يا أميرَ المؤمنين، فو الله لهذا الفعْلُ من عاتكةَ في ابنيها خيرٌ لكَ منْ مالِها، وإنّها لتعظم مكانكَ ومكانتَك فيما صَنَعَتْ، وهذا يشيرُ إلى كمالها وإلى أدبِها، فلا تغضبْ يا أميرَ المؤمنين.

* عندها، سكتَ عنْ عبدِ الملك الغَضَبُ، وكفَّ عن عاتكةَ، وعلم أنَّ عملَها هذا من بابِ البرِّ والإحسانِ إلى ذويها وآلها [2].

---

(١) «العيلة»: الفقر والحاجة.

(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٥)، وبلاغات النساء (ص ١٨٠) وأعلام النساء (٣/ ٢١٩)، والتذكرة الحمدونية (٢/ ٥٤) مع الجمع والتصرف.

عَاتِكَةُ بينَ الحَزْمِ والرَّأْفَةِ:

* منَ العجيبِ في أخبارِ عاتكَةَ بنتِ يزيد أنَّها كانتْ تحملُ قَلْباً يجمعُ بينَ الرَّأفَةِ والحزْمِ في بعضِ أمورِها ، وهذا ما نجدُه تماماً في موقفِها من مُصْعَبِ ابنِ الزُّبير الذي أجْهَدَ زوجَها عبدَ الملك بن مروان ، وأنزلَ بجيوشِهِ الهزائمَ ، ومَنَاهُ بكثيرٍ منَ الخسائرِ حتى باتَ عبدُ الملك يخشاهُ ويرهبُ جانبه.

* وعندما أعيا مُصعبُ عبدَ الملك قَرَّرَ إذْ ذاك الخروجَ إلى لقاءِ مُصْعَب ، ولمّا أخذ في جهازِه ، وأرادَ الخروجَ نحو العراق لملاقاةِ مُصْعب ومَنْ معه ، أقبلتْ عاتكةُ بنتُ يزيد في جواريها ، وقد تزيَّنَتْ بالحلي والجواهرِ النَّفيسة ، وناشدتْ زوجَها فقالت:

يا أميرَ المؤمنين لا تخرجْ بنفسك ، ولو قعدتَ في ظلالِ مُلْكِكَ ، ووجهتَ إليه غيرَكَ فربما يكفيكَ أمْرَه ، فأقِمْ يا أميرَ المؤمنين ، فليسَ من الرَّأي والحزمِ أنْ يباشرَ الخليفةُ الحربَ بنفسه ، وألحَّتْ عليهِ ألا يخرجَ ، وألا يجهدَ نَفْسَه.

* ولم تزلْ عاتكةُ تلحُّ على زوجِها عبد الملك في المسألةِ ، وترجو ألاّ يفرِّطَ بنفسهِ ، وهو يمتنعُ منَ الإجابةِ أو الإذعان لرغبتها أو حتى يلينَ ولو قليلاً ، أو يصغي لها ، وإنّما قال لها: هيهاتَ هيهاتَ يا عاتكةُ ، أمَا سمعتِ قولَ الأوَّل:

قَوْمٌ إذا مَا غَزوا شَدُّوا مَآزِرَهُم ... دُونَ النِّساءِ ولو باتَتْ بأَطْهارِ

* وفي روايةٍ أنَّه قال لها: اعلمي يا عاتكةُ أنِّي لو وجهْتُ إلى مُصعبَ أهل الشَّام كلّهم ، وعلم مصعب بن الزبير أنّي لست معهم لهلك الجيش كله وكان كأمْسِ الدَّابر ، ثم إنَّه تمثَّل قائلاً:

ومُسْتخبرٌ عنّا يريدُ بنَا الرَّدى ... ومُستَخبراتٌ وَالعُيونُ سَواكِبُ

* ولما أبى عبد الملك أنْ يلينَ أمامَ دموع عاتكة ، وأمام تضرعاتها وتوسّلاتها ، ولم يتحركْ قلبُه أو لبُّه لجمالها أو لحليها وحللها ، تعلَّقَتْ به

عاتكةُ تعلُّقَ الوحيد بأُمِّه ، ويئستْ من جلوسهِ ، هنالك أخذتْ في البُكاءِ حتّى بكى مَنْ كان حولَها من جواريها وحشمِها ، ولما أغرقْنَ في البُكاءِ وعلا صوتهنَّ ، رجعَ إليها عبد الملك وقال: قاتَلَ اللهُ ابن أبي جُمعة ـ يعني كثيّر عزّة ـ كأنَّه ينظرُ إلينا ، ويرى موقفنا هذا حينَ يقولُ:

إذا مَا أَرادَ الغَزْوَ لم يثْنِ عَـزْمَه   حَصَـانٌ عليهـا نَظْـم دُرٍّ يـزينُهـا
نَهَتْـه فلّمـا لـم تَـر النَّهْـيَ عَـاقَـهُ   بكَتْ فبكى ممّا دَهاهَا قطينُها[(١)]

* ثم إنَّ عبدَ الملك عزمَ على عاتكةَ ، وأقسم عليها أنْ تقصرَ عنِ البكاء ، وعمّا هي عليهِ وجواريها ، فأقصرتْ ثمَّ خرج لقصدِه[(٢)].

* وقُتِل مصعبُ بنُ الزّبير ، وفرحَ عبدُ الملك بمقتله ، وبعثَ برأسهِ مِنْ مكانٍ إلى مكان ، ولكنَّ عاتكةَ بنتَ يزيد قد تحرَّكَتِ الرَّأْفةُ بقلبها ، فلمْ يرضِها هذا ، وفعلتْ ما تفعله كرائم النّساء ، ذكر ابنُ الأثيرِ هذه المكرمة لها فقال: ولما قُتِلَ مُصْعَب ، بعثَ عبدُ الملك رأسَه إلى الكوفَةِ ، أو حمله معه إليها ، ثمَّ بعثَ به إلى أخيهِ عبد العزيز بن مروان بمصرَ ، فلما رآهُ وقد قَطَعَ السَّيْفُ أَنْفَه قال: رحِمكَ اللهُ! أمَا واللهِ لقد كنْتَ منْ أحسنِهم خلقاً ، وأشدّهم بأساً ، وأسخاهم نَفْساً ، ثمَّ سيَّرَه إلى الشَّام ، فأخذَتْه عاتكةُ بنتُ يزيد بن معاوية زوجة عبدِ الملك بن مروان ، وهي أمُّ يزيد بن عبد الملك ، فَغَسَلتْه ودفنَتْه ، وقالت: أمَا رضيتم بما صنَعْتم حتى تطوفوا به في المُدنِ ، هذا بَغْيٌ[(٣)].

* وهكذا كانتْ عاتكةُ ذات رقّة ورأفةٍ في مواضعِ شدّةِ القومِ ، فلم تَرْضَ بالظُّلم والبغي الذي صنَعه القومُ بمصعبَ بنِ الزُّبير.

---

(١) «القطين»: الإماء والحشم والخدم والأتباع وأهل الدار ، للواحد والجمع.
(٢) انظر: العقد الفريد (٤/ ٤٠٧) ، ووفيات الأعيان (٤/ ١٠٨) مع الجمع والتصرف. وانظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٤) ، والبداية والنهاية (٩/ ٢٦٢) ، والأمالي (١/ ١٣) والكامل (٤/ ٣٣٢ و٣٣٣) وغيرها.
(٣) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٤/ ٣٣٢ و٣٣٣).

* ويروي الزُّهريُّ خبراً آخر عن حَزْم وصَبْر عاتكةَ في مرضِ ابنها فيقول: دعاني عبدُ الملك بنُ مروان في قُرّاء منْ قرّاءِ أهلِ دمشق، فدخلنا عليه، وإذا امرأتُه عاتكةُ بنتُ يزيد بن معاوية جالسة، وابنٌ لها صغيرٌ مريضٌ، فأخذنا ندعو، وأخذَ هو يدعو، فقال: بحقّ مكاني الذي وضعْتَني، فلمْ يبرحْ حتى ماتَ، وكان هو أشدُّ جزعاً منْ أُمِّ الصَّبي، فلما ماتَ صَبر؛ فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أنتَ كنْتَ أشدَّ جزعاً منها، وهي الساعة أشدُّ جزعاً منك!!.
فقال: إنّا نجزعُ منَ الأَمْر ما لم يقَعْ، فإذا وقَعَ صبرنا[1].

عَاتِكَةُ وشُعَراءُ عَصْرِهَا:

* تذكرُ بعضُ المصادرِ والمراجعِ أن عُبيدَ اللهِ بن قيس الرّقيات كان يتغزّل بعاتكةَ بنةِ يزيد زوجةِ عبدِ الملك بن مروان؛ ويرى الدّكْتُور شوقي ضيف أنَّ هذا الغَزل يمكنُ أنْ نسمّيه هجاء، فنراهُ يتغزَّلُ في إحدى قصائِدِه غَزَلاً فيه حريّة، فهو يخاطبُها وهي تخاطبُه، وإنّها لتأسى على ما صارتْ إليه قريش منْ أضغانٍ تجعلُها لا تستطيعُ لقاءَه، يقولُ على لِسانِها:

وقالَتْ لو أَنَّا نستَطيعُ لِزَارَكم ... طَبيبانِ منّا عالِمانِ بِدَائِكا
ولكنَّ قومي أَحدثُوا بَعْد عَهْدِنا ... وعَهْدِك أضْغَاناً كَلِفْنَ بشَانِكا

فابنُ قيس يشبِّبُ بعاتكةَ هنا كما نرى ليؤذيَها، ويؤذي وقارَها ووَقَارَ زوجها، فهو غزلٌ لا يُرادُ به إلى مديحِ المرأةِ، وإنّما يُرادُ به إلى هجائها إنْ صحَّ هذا التَّعبير، فهو غزلٌ لا تجدُ فيه المرأةُ ما يرضيها، وإنّما تَجِدُ ما يؤلمها، فهو إلى الهجاءِ أقربُ منه إلى أي شيءٍ آخر[2].

* وإذا ما عُدْنا إلى المصادرِ القديمةِ ألفينا قَصَصاً متنوعةً حولَ غزلِ الشُّعراء بعاتكةَ ومنهم ابنُ قيس الرُّقيات، ونجدُ أيضاً أنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ يوصي ابنه يزيد بألاّ يتعرَّضَ لأحدٍ ممن يتغزّلُ بأختِه رملةَ بنتِ معاوية،

---

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٦).
(٢) انظر: الشعر والغناء في المدينة ومكة (ص ٢٩٨).

ولذلك عَملَ يزيد ـ كما ذكروا ـ بوصيةِ والدهِ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ.

* ففي «عقْدهِ الفريدِ» يذكرُ أبو عمر بن عبد ربّه أبياتاً لعُبيد الله بن قيس الرُّقيات ، يشبِّبُ بعاتكةَ بنتِ يزيد بن معاوية بهذه الأبيات الكافيّةِ فيقول :

أَعاتِكُ يا بنْتَ الخَلائِفِ عَاتِكا ... أَنيلي فَتىً أَمْسى بحبّكِ هَالِكا
تبدَّتْ وأترابٌ لها فَقَتَلْنَني ... كذلكَ يقْتُلْنَ الرِّجال كَذلِكا
يقلِّبْنَ ألحاظاً لهنَّ فَواتِراً ... ويحملنَ منْ فوقِ النِّعال السَّبائِكا
وقُلْنَ لنا لو نَسْتَطيعُ لِزَاركم ... طبيبانِ منّا عالِمانِ بدائِكا
فهلْ منْ طبيبٍ بالعِراقِ لعلَّه ... يداوي سَقيماً هَالِكاً مُتَهالِكا[1]

* ومن أخبارِ عاتكةَ مع الشّعْر والشُّعراء ، ما أورده أبو الفرجِ الأصبهاني في هذا الخبر ومفادُه ما قال: حجَّتْ عاتكةُ بنتُ يزيدَ في السَّنَة التي حجَّتْ فيها عائشةُ بنتُ طلحةَ ، فقال لها جواريها : هذا الغريضُ .

فقالت لهنَّ : عَليَّ به .

فجيءَ به إليها ؛ فلما جاءَ دخلَ فسلَّم ، فردَّتْ عليه السَّلام وطلبتْ منه أن يغنّيَها بما غنّى به عائشةَ بنْتَ طلحة ، ففعل ، ولكنَّ عاتكةَ لم تهشّ لذلك ، ولم ينشرحْ صدرها لغنائِهِ .

* وعندما لم يَرَها تهشُّ لغنائِه غنَّاها معرّضاً لها ومذكّراً بنفسه في شعْرِ مرّة ابن محكان السَّعْدي يخاطبُ امرأتَه وقد نزلَ به أضياف :

أَقولُ والضَّيفُ مخشيٌّ زمامتُه ... على الكريمِ وحقّ الضَّيف قَدْ وَجَبَا
يا ربةَ البيتِ قُومي غيرَ صَاغِرةٍ ... ضَمّي إليكِ رحَالَ القومِ والقُربا

عندها قالتْ عاتكةُ وهي مبتسمةٌ : قد وجَبَ حقُّك يا غريضُ ، فغنِّني ، فأنشأَ الغريضُ يغنيها :

يا دهْرُ قَدْ أكثرتَ فَجْعَتَنا ... بِسَراتِنا ووقَرْتَ في العَظْمِ
وسَلَبْتَنا ما لسْتَ مُخْلِقَه ... يا دهرُ ما أنصفتَ في الحُكْمِ

---

(١) انظر : العقد الفريد (٥/ ٣٢٣).

لـو كـانَ لـي قِـرْنٌ أنـاضِلُـه   مـا كـاشَ عنـد حفيظـةٍ سَهْمـي
لـو كـانَ يُعطي النّصْـفَ قلـتُ لـه   أحرزتَ سَهْمك فالْهُ عنْ سَهمي

فقالت عاتكةُ للغريض: نعطيكَ النَّصف، ولا نضيعُ سَهْمَك عندنا، ونجـزلُ لـك قِسْمَـك، وأمـرتْ للغـريـضِ بخمسـةِ آلافِ دِرهـم، وثيـابٍ عَدنيّةوغيرِ ذلك منَ الألطافِ وصرفَتْه[1].

* وتروي كتبُ الأَدب أنَّ الأحوصَ الأنصاري الشَّاعر المشهور المتوفى سنة (١٠٥هـ) كان يذكرُ عاتكةَ بنتَ يزيد في شعرِه، وقد أنشأَ فيها قصيدةً طويلةَ زادتْ عن أربعينَ بيتاً أوّلُها:

يـا بيـتَ عـاتكـةَ الـذي أتعـزَّلُ   حـذرَ العـدى وبـه الفُـؤادُ مُـوكَّـلُ
أصبحـتُ أمنحُـكِ الصُّـدودَ وإنّني   قَسَمـاً إليـكِ مـع الصُّـدود لأَمْيـلُ

* ذكر المُعافى بنُ زكريا النَّهرواني أنَّ عاتكةَ التي ذكرَ الأحوصُ بيتها هي عاتكةُ بنتُ يزيد بن معاوية، وإنّما كنّى عن امرأةٍ سمَّاها غيرها، وكان يشبّبُ بها، فذكر عاتكةَ وبيتها، لأنَّ بيتَ عاتكة كان إلى جنْب بيت تلك المرأةِ، وقد أُدْخِلا جميعاً في مسجدِ رسول الله ﷺ[2].

---

(١) انظر: الأغاني (٣/ ٣١٩ و٣٢٠) بتصرّف واختصار. و«سَراتنا»: أشرافنا. و«الحفيظة»: الغضب. و«النّصف»: العَدْل. ومنَ العجيب أن السَّيدة زينب فواز العامليّة قد أوردتْ قصّةً في ترجمتها استقتْها من الأغاني، وقد زوَّرت فيها التّزوير الواضح، وليس لعاتكةَ فيها ناقة ولا جمل، وقد ختمتِ القصّة على طريقتها وكما تشتهي، علماً بأنَّ صاحب الأغاني قد أوردَ القصّة ولم يصرِّحْ باسمِ المرأة الأمويّة. انظر (الأغاني ١/ ٣٤١ ـ ٣٤٥) تجدْ مصداقَ ما قلناه، وإنما افترتْ زينب فواز افتراءً كبيراً على عاتكةَ هذه القصّة المكذوبة مع الشّعراء وهم: نصيب والأحوص وكثير.

(٢) الجليس الصالح الكافي (٤/ ٦٥)، وذكر الأصفهاني أنَّ عاتكةَ التي يشبِّبُ بها الأحوص هي عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية (الأغاني ٢١/ ١١٢)، وانظر: ثمار القلوب (ص ٣١٦).

عـاتِكَـةُ وشَـاعِـرَاتُ عَـصْـرِهَــا:

* تدلُّ أخبارُ عاتكةَ بنة يزيد ـ رحمها الله ـ بأنَّه كانَ لها أخبار حِسَانٌ مع بعضِ شواعرِ العرب ممن عاصرنها؛ فقد كان لها خَبَرٌ طريفٌ مَعْ أشْهرِ شَواعرِ وقتِها ليلى الأخيليّة، وقد جمعَ ذلك الخبر الجمالَ والظّرافة وبلاغةَ المرأةِ عَصْر ذاك، كما دلَّ على قوةِ شخصيتها وحرّيتها في آرائِها وتفكيرها.

* فمن طريفِ خبرها مع ليلى الأخيلية ما روتْهُ المصادِرُ قالت: دخلَ عبدُ الملك بنُ مروانَ على زوجته عاتكةَ بنتِ يزيدَ بنِ معاويةَ، فرأى عندها امرأةً بدويةً أنكرَها، فقال عبدُ الملك لها: مَنْ أنتِ يا هذهِ؟ قالت المرأةُ بلسانٍ فصيحٍ وبيانٍ مليح: أنا الوالهةُ الحرّى الحَزْنَى، ليلى الأخيلية بنتُ عبد الله الرَّحالِ العباديّة.

فقال لها: يا ليلى أنتِ التي تقولين:

أُريقَتْ جفَانُ ابنِ الخليعِ فأصبحَتْ ... حياضُ النَّدى زَالت بهنَّ المراتبُ[1]

فعفـاؤُه لَهْفـى يطـوفـونَ حَـولَـه ... كما انقضَّ عرسُ البئرِ والوردُ عاصبُ[2]

فقالتْ ليلى بحزمٍ وفَصَاحةٍ وبيانٍ: يا أميرَ المؤمنين أنا التي أقولُ ذلك، وما أزالَ أقولُ، وهو حقٌّ.

قال عبدُ الملك: إذاً، فما أبقيتِ لنا يابنة عَبْدِ الله؟!

قالت ليلى: يا أميرَ المؤمنين، الذي أبقاهُ الله لك، وفيهِ كفايةٌ ومَغْنَم.

فقال عبدُ الملكِ متعجّباً: وما ذاك الذي أبقى اللهُ لي يا شاعرة العرب؟ قالت ليلى: نَسَباً قرشيّاً، وعيشاً رخيّاً، وإمرةً مُطاعةً.

فقال لها: هذا صحيحٌ يا ليلى، ولكنّك أفردتِ توبَة بالكَرَم والسَّخاء!

---

(١) «الجِفان»: جمع جَفْنَة وهي القَصْعَةُ. و«الخليع»: من آباء توبة بن حمير صاحب ليلى الأخيلية. والمعنى: إنّه قَدْ ماتَ فأريقت جِفانه، ومات الندى بموت توبة.

(٢) «عفاؤه»: جَمْعُ عاف: وهو طالبُ المعروف. «لهفى»: الذين يعتريهم الحزن والتّحسُّر. «الورد عاصب»: الماء جامع.

قالت ليلى: يا أميرَ المؤمنين، ولقد أفردتُه بما أفرده اللهُ به.

* وهنا انتفضتْ عاتكةُ كالعصفورِ بلّله القَطْر، وحَصَل لها الانزعاجُ منْ كلامِ ليلى الأخيلية التي جعلتْ منْ توبةَ بنِ الحمير مَثلاً شَروداً في النَّدى، وقدَّمتْه على عبدِ الملك بنِ مروان، ثمَّ أشاحتْ بوجهِها عن ليلى، وتوجَّهت نحو عبدِ الملك وقالت: يا أميرَ المؤمنين، إنَّها قد جاءتْ تستعينُ بنا في عينٍ لتسقيها وتحميها لها، ولستُ ليزيدَ إنْ شفَّعْتَها في شيءٍ من حاجاتِها، لتقديمها أعرابياً جَلْفاً على أمير المؤمنين.

* وعندها وثبتْ ليلى من مكانِها، وقامت فجلستْ على رحلها، واندفعتْ تخاطبُ عاتكة وتقولُ منْ أبياتٍ:

سَتَحْمِلُني ورحْلي ذاتُ وخْدٍ ... عَلَيْها بنْتُ آباءٍ كِرامِ
إذا جَعَلَتْ سَوادَ الشَّام جنْباً ... وغُلِّق دونَها بابُ اللئامِ
فَلَيْسَ بعائدٍ أبداً إليهم ... ذوو الحَاجَاتِ في غَلَس الظَّلام
أَعَاتِكُ لو رأيتِ غَداة بِنّا ... عزاءَ النَّفس عنكم واعتزامي
إذاً لَعَلِمْتِ واستيقنتِ أنّي ... مشيّعةٌ ولم ترعَي ذِمَامي

ثمَّ إنَّ ليلى انصرفَتْ وهي تنشدُ شعرها، وتعرض بعبد الملك[1].

عَاتِكَةُ وعَائِشَةُ بنْتُ طَلْحَةَ:

* كانتْ عائشةُ بنتُ طلحةَ بن عُبيد الله التَّيميّة[2] امرأةً جليلةَ القَدْرِ، وكانتْ تحدِّثُ عن خالتِها عائشةَ بنتِ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنهما ـ وتحدَّثَ النَّاسُ بقَدْرِها وأدبِها وعلمِها وكمالِها، وكانتْ مدنيّةً تابعيةً ثِقَةً، وكانت مشهورةً بجمالِها وملاحتِها ومالِها، فقد كانَتْ منْ أَحْسنِ النَّاس في زَمنِها،

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٣٢٦ و٣٢٧)، والحدائق الغناء (ص١٥٩ و١٦٠)، والأغاني (١١/ ٢٤٧ و٢٤٨) مع الجمع والتصرف. وانظر: الدر المنثور (ص ٤٧٤ و٤٧٥) وأعلام النساء (٤/ ٣٢٧ و٣٢٨).

(٢) اقرأ سيرتها بتوسع في كتابنا: «بنات الصحابة» طبعة دار اليمامة (ص ٤١٥ ـ ٤٩٨).

وكانتْ منْ أكابِر نساءِ التَّابعين ، قال عنها يحيى بنُ معين : الثِّقاتُ منَ النِّساء عائشةُ بنتُ طلحة ثقةٌ حُجَّة .

* وكانت عائشةُ إذا أرادتِ الحجَّ خرجَتْ في موكبٍ عظيمٍ ، ذكر الجاحظُ أنَّ عائشةَ بنتَ طلحة لما وفدتْ على عبدِ الملك ، وأرادتِ الحجّ حَملَها وأحشامَها على ستينَ بَغْلاً من بغالِ الملوك ، فقال عروةُ بنُ الزُّبير :

عـائِـشُ يـا ذاتَ البِغـالِ السِّتيـن أكــلّ عــامٍ هكــذا تحجّيــن[1]

* هكذا ذكرَ الرُّواة جانباً منْ حياةِ عائشةَ بنتِ طلحة ، أمَّا عاتكةُ بنتُ يزيد فعلى الرَّغم منْ أنها ابنةُ خليفةٍ وزوجُ خليفةٍ حَكَمَ الأرضَ بطولها والعَرْضِ ، وهي أيضاً ذاتُ حَسَبٍ ونَسَبٍ ، وأدبٍ ومال ، إلا أنَّها لم تَلْحَقْ بعائشةَ ، وكانت تعلمُ علْمَ اليقين أنَّ ما عند اللهِ خيرٌ وأبقى ، ولكنَّ النِّساء يحببنَ التَّفاخرُ .

* روي أنَّ عاتكةَ بنتَ يزيد قد استأذنتْ زوجَها عبد الملك بن مروان في أداءِ فريضةِ الحجّ ، فأذنَ لها ، ثمَّ قال لها وقد علم أنَّ عائشةَ بنتَ طلحة ستحجّ أيضاً : يا عاتكةُ ارفعي حوائجَكِ إليَّ واستظهري ، فإنَّ عائشةَ بنتَ طلحة بن عبيد الله ستحجُّ أيضاً هذا العام ، وإنْ أَقَمْتِ عندي كان أحبَّ إلي وأطيبَ إلى نفسي .

* فأبتْ عاتكةُ ، وعزمَتْ على الخروجِ إلى الحجّ ، ورفعتْ حوائجها وما تريدُه إلى عبد الملك ، وتهيّأت بما ينبغي لنساءِ الخلفاءِ والملوكِ ، وجهَّزَها عبدُ الملك أحسنَ جهاز .

* وسارتْ نحوَ البيتِ العتيقِ تقطعُ الفيافي والقفَار مع خدمها وحشمِها وحُرَّاسها ، فلمّا كانتْ بينَ مكةَ والمدينةِ ، أقبلَ ركبٌ في جماعةٍ فَضَعْضَعَها وفرّق جماعتَها ، فقال مَنْ معها : هذهِ عائشةُ بنتُ طلحة التَّيمية . ولكنَّ ذلك

---

(١) انظر كتاب : القول في البغال للجاحظ (ص٢٩) بتحقيق شارل بلا ١٩٥٥م؛ وانظر : الحدائق الغناء (ص٥٥) .

الموكبَ كانَ لجاريةٍ من جواريها ، ثمَّ جاءَ رَكْبٌ آخرُ في موكبٍ مثله ، فسألتْ عاتكةُ ، فقالوا : هذه ماشطةُ عائشةَ بنتِ طلحة ، ثمّ جاءَ موكبٌ أعظمُ منْ ذلك في ثلاثمئةِ راحلة ، عندها قالت عاتكة : ما عند اللهِ خيرٌ وأبقى[١] .

في ديْوَانِ مشَاهِيْرِ النِّسَاء :

* ظلّتْ عاتكةُ بنتُ يزيد واحدةً منْ نساءِ الأُمراء ثمّ الخلفاء ممن سَطَعَ نجمهُنَّ في سَماءِ الشُّهرة ، وبلغن السُّها في فضائِلِ المكارمِ والنَّدى والمكانَةِ ، وامتدتْ بها الحياةُ إلى عَصْرٍ متأخّر منَ القرنِ الهجري الأوّل ؛ قال ابنُ عَسَاكر : بلغني أنَّ عاتكةَ بقيتْ حتى أدركتْ قَتْل ابنِ ابنها الوليد بن يزيد بن عبد الملك[٢] .

* وهذا يعني أنَّ عاتكةَ ظلَّتْ على قَيْدِ الحياةِ طيلةَ الخلافةِ الأمويّة ؛ ويذكرُ أبو الحسن الصَّابئ ما يؤكّد ذلك ، فيروي أنَّ عاتكةَ قد امتدَّتْ بها الحياةُ إلى نهايةِ دولةِ بني أميّة في عام (١٣٢هـ) حيثُ رأتْ حُلُماً يشيرُ إلى انهيارِ الدَّولةِ الأمويّة ، ولم يمضِ على حلمِها شهرٌ حتى قُضِيَ على الخلافةِ الأمويّة في دمشقَ ، وكان ذلك في سنة (١٣٢هـ) على يَدِ العبّاسيين[٣] .

* ولا نستطيعُ بالتَّحديدِ متى كانت وفاةُ عاتكةَ بنتِ يزيد ، إلا أنَّ الدلائلَ تشيرُ إلى أنَّ وفاتَها كانت بدمشقَ بُعَيْد عام (١٣٢هـ) وقد دُفِنَتْ بدمشقَ في المحلّة التي تُنْسَبُ إليها فيقال : قَبْرُ عاتكة ، وهو منَ الأحياءِ المشهورةِ في مدينةِ دمشقَ الآن ، ويذكر نجمُ الدِّين الغزيّ في «الكواكب السَّائرة»[٤] أنَّ كثيراً من الأعيانِ قد دُفنوا في محلّة عاتكةَ .

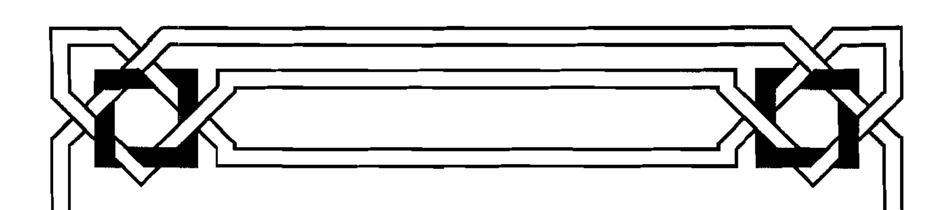
---

(١) عن تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٥ و٢٠٦) بتصرف؛ وانظر : الدر المنثور (ص ٢٨٦) .
(٢) انظر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٠٦)؛ ومن الجدير بالذكر أن مقتل الوليد كان في سنة (١٢٦هـ) .
(٣) انظر كتاب : الهفوات النادرة للصابئ (ص ١٠٨) بشيء من التصرف .
(٤) انظر فهارس كتاب الكواكب السَّائرة .

* قال أبو القاسم بنُ عساكر: وإليها تُنْسَبُ أرضُ عاتكةَ خارج بابِ الجابية، وكان لها بها قَصْرٌ، وبه ماتَ عبدُ الملك بن مروان.

* رحم اللهُ عاتكةَ بنتِ يزيد، وجعلَها منْ أهلِ الجنَّة ممن قال فيهم: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥].

* * *



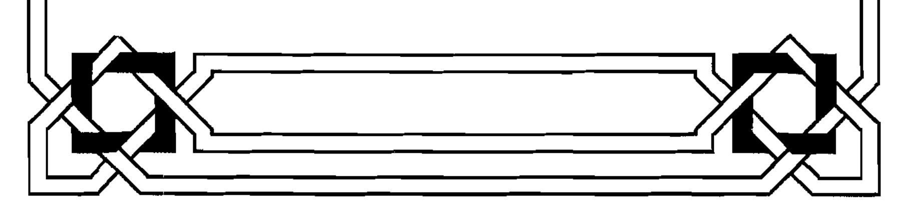
(١١)

عُليّة بنت المهدي

* جمعت بين عراقة المجد والمحتد ، وبلاغة البيان والخطاب .

* هي أخت هارون الرشيد وموسى الهادي ، وعمة الأمين والمأمون والمعتصم ، وحفيدة المنصور ، وجدُّها الأعلى عبد الله بن عباس .

* ديِّنة ، صيِّنة ، طاهرة ، عفيفة ، أديبة ، شاعرة ، ومِنْ أجمل الناس .



مِنْ أمَيْرَات الحَسَبِ والبيَانِ:

* انحدرتْ هذهِ المرأةُ منْ مَعْشَرٍ طيِّبة أخلاقُهم، كريمة أصولُهم وأحسابُهم، فصيحة ألسنتُهم، نشأَتْ ونَشَأَ معها نصيبٌ منَ الفَصَاحَةِ والبَلاغَةِ والبيَان، ومع وعْيِها لمكانَتِها في عالم الحَسيْبات الشَّريفات، كانت تَعِي تماماً فَصَاحتَها بينَ ذواتِ الخُدور، فَقَدْ نَسَجَتِ العُلا لبناتِ جنْسِها من فكرةٍ وقَّادةٍ، وحكمةٍ فوَّاحَةٍ، وشعْرٍ أنيقٍ ضَوَّعَ بعبيرِه روضةَ الأَدَبِ النَّسوي في عَصْرٍ لَمعَ فيهِ أكابرُ شُعَراءِ الدُّنيا منَ الرِّجال، وسَطَعَ فيه نَجْمُ الأَدَبِ بينَ ربَّات الحِجَال، حيثُ كانتْ أديبةً شاعِرَةً، ومنْ أظْرَفِ النِّساء وأَعْقَلِهِنَّ وأكرمِهِنَّ، ذاتَ صيانةٍ وأدبٍ بارع.

* وبهذا جَمَعَتْ ضيفتُنا بينَ عراقةِ المَجْدِ والمَحْتد، وبلاغَةِ البيانِ والخطابِ، وكانتْ قدوةَ الفُضْلياتِ من بعدها، وقَد نوّهتْ إليها عائشةُ التيموريّةُ[1] المتوفّاةُ سنة (١٩٠٢م) واتَّخذتْها ومثيلاتها قدوةً لها فَقَالَتْ:

فبنَيَّـةُ المَهْـدِي وَلَيْلَـى قُـدْوَتـي وبفطنَتِـي أُعْطِيْـتُ فَصْـلَ خِطَـابـي

* إذاً فالتي نَحْفلُ بسيرتها هي ابنةُ الخَلائِفِ وعمّة الخلائف، بل وحفيدةُ الخلائِفِ، إنَّها عُلَيَّةُ بنتُ المهدي العبّاسيّة[2] أختُ هارونَ الرَّشيدِ وموسى

---

(١) اقرأ سيرة عائشة التيمورية بتوسع في كتابنا: «نساء من التاريخ» (ص٤٤١ ـ ٥٠٩)، طبعة دار اليمامة بدمشق.

(٢) الأغاني (١٠/ ١٦٢ ـ ١٨٥) مصورة دار الكتب بمصر، وطبعة بيروت (انظر الفهارس ٢٦/ ٦٠٤)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٧ و١٨٨)، وشاعرات العرب (ص٢٥٩ ـ ٢٦٨) ونزهة الجلساء (ص٦١ ـ ٦٤) والمحاسن والأضداد (ص٢٨٤ ـ ٢٨٦)، والنجوم الزاهرة (٢/ ١٩١)، والدر المنثور (ص٣٤٩ و٣٥٠)، وأعلام النساء (٣/ ٣٣٤ ـ ٣٤٢)، وزهر الآداب (١/ ١٢ و٧٢٥) وفوات الوفيات (٢/ ١٩٧ ـ ٢٠٠)، والبصائر والذخائر (١/ ٨١ و٨٢) و(٥/ ١٦٨)، =

الهادي ، وعمَّة الأمينِ والمأمونِ والمعتصم ، وحفيدةُ المنصور ، وجدُّها الأعلى عبدُ اللهِ بنُ عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ وناهيكَ بهذا الجَدِّ! .

* وهذهِ المرأةُ الشَّهيرةُ في عالَم النِّساءِ ، لم تَسْلَمْ سيرتُها منْ عَبَثِ العَابِثين ، فقد تَقَوَّلَ عليها بعضُ الحاقدين ، ونسبَ إليها أشياءَ لا تَصْلُحُ لأنّ تكونَ لجاريةٍ من جواري عَصْرِها . وقد ذكَرَها الذَّهبيُّ في تاريخِه وأثنى عليها فقال: كانتْ عليةُ منْ أَحسنِ النِّساء ، وأظرفِهنّ ، وأعْقَلِهنَّ ، ذات صيانةٍ وأدبٍ بارعٍ[1] .

أخْـلاَقُـهَـا وَدِيْـنُهَـا وَالـثَّنَـاءُ عَلَيْـهَـا :

* قَبْلَ أنْ نعرضَ بعضَ القَصَص الشَّائعةِ ، وبعضَ الأشْعارِ والمنظوماتِ المصنوعةِ التي نُسِبَتْ إلى عليةَ بنتِ المهدي ، نودُّ أنْ نتحدَّثَ عَنْ شيءٍ من أخلاقِها ودِينها ، وشيءٍ منْ ورعها ومراقبتِها للهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وعمّا قِيْلَ عنْ أخلاقِها وما أثنى عليها أهْلُ عَصْرِها ومِصرِها ، وعمَّا شهِدُوه لها منْ فَضَائِلِ الفَضَائِلِ ، ومكارمِ المكارم ، لتكونَ صورتُها أكثرَ وضوحاً في الذّهنِ ، ولنعرفَ كيفَ ظُلِمَتْ عليةُ بما نَسَبَ إليها المبطلون الأخبار الزائفة دون تحقيقٍ أو تدقيقٍ في القول .

* ذكرَ غيرُ واحدٍ منَ المؤرّخين ممَّنَ عاصَرَ عُلَيّةَ بنتَ المهدي بأنَّها كانتْ

= ومختصر تاريخ دمشق (٤/ ١٣٧) و(٦/ ١٠٣) و(٢٧/ ٣٢ و٣٣) ، والوافي بالوفيات (٢٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧٤) ، والمنتظم في تاريخ الأمم والملوك (١٠/ ٢٣٠ ـ ٢٣٣) ، والمنازل والديار (ص٢٠٨ و٢٠٩) ، ونهاية الأرب (٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٧) ، ونُورُ الطرف ونَوْر الظرف (ص٢٣٩ و٢٤٢ و٢٤٣ و٢٤٧) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (وفيات ٢٠١ ـ ٢١٠). ص(٢٧٤ و٢٧٥) ، وأشعار أولاد الخلفاء للصولي (ص٥٥ ـ ٨٣) ، والمحبر (ص ٦١) ، والفرج بعد الشدة (١/ ٣٦٦ و٣٩٠) و(٣/ ١٧٧) و(٥/ ٤٣ و٤٥) وجمهرة أنساب العرب (ص٢٢) ، والحماسة البصرية (٢/ ٥٧٩ و٥٨٠) ، وغيرها كثير .

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (ص٢٧٥) .

ديِّنةً صيِّنةً طاهرةً عفيفةً ، أثنى عليها إبراهيمُ بنُ إسماعيل الكَاتِب ، وأثنى على أخلاقِها ودِيْنِها فقال: كانتْ عليةُ حَسَنَةَ الدِّيْنِ ، وكانت لا تغنّي ولا تشربُ النَّبيذَ إلاّ إذا كانتْ معتزلةَ الصَّلاة ، فإذا طهُرت ، أقْبَلَتْ على الصَّلاةِ والقُرآنِ وقراءةِ الكتبِ ، ولم تَلْهُ بشيءٍ غير قولِ الشِّعر في الأحْيَانِ[1].

* ولعلَّ منْ أوضحِ الأقوالِ التي نَتعرَّفُ منْ خلالها صفات عُليّة ، ما تحدَّثَتْ بهِ عن نفسِها ، وأبانَتْ طريقتَها وحياتَها ، وابتعادَها عمّا يسْخِطُ اللهَ ـ عزَّ وجلّ ـ وانْتِهَاكَ حُرماتِهِ ، وعمّا لا يليقُ بمكانَتِها وشَرفها ، فهيَ لا تعرفُ إلاّ ما أحلَّ اللهُ تعالى ، وفي هذا كانتْ تقولُ: ما حرَّمَ اللهُ شيئاً إلاّ وقَدْ جَعَلَ فيما حلّلَ منه عِوَضاً ، فبأيِ حديثٍ يحتجُّ عَاصيهِ والمنتهكُ لحرماتِه[2]؟!.

* وتؤكّدُ عليةُ ـ رحمها الله ـ بأنَّها ما سَلَكَتْ طريقاً يغضبُ الله ـ عزّ وجلَّ ـ ، ولعلَّها كانت تعرفُ بثاقبِ فكرتِها ما كانَ يُقالُ عن النّسوةِ العربيّاتِ منْ أولئكَ الجواري الفارسيّات والرُّوميّات والتّركيّاتِ وغيرهنَّ منَ الأعجميّاتِ ممن كُنَّ ينتشرنَ بكثرةٍ في قُصُورِ الأُمَراء ، وقصورِ الخُلفاءِ ، وقصور بغدادَ آنذاك.

* وكانتْ عليةُ تدركُ أيضاً وتعي بأنَّ كثيراً منَ المُغرضين يروِّجونَ شائعاتٍ تسيءُ إلى فضلياتِ النِّساء ، وخصوصاً أولئك الشَّهيراتِ العفيفاتِ اللواتي أَلِفْنَ الفضيلةَ والعَفَاف والطُّهرِ والنَّقاءِ ، ولهذا كانتْ تقولُ: لا غَفَرَ اللهُ لي فاحشةً ارتكبتُها قطُّ ، ولا أقولُ في شِعْري إلاّ عَبَثاً[3].

* وقد شَهِدَ لها الحُصَري ـ رحمه الله ـ بحصَائِلِ العَقْل ، وفَضَائِل البلاغةِ وحُسْنِ المقَال ، حيثُ قالَ في كِتاب «النُّورَيْن»[4]: كانتْ عليةُ تُعْدَلُ بكثيرٍ منْ

---

(١) الأغاني (١٠/ ١٦٣) ونهاية الأرب (٤/ ٢٣٢) ، وأعلام النساء (٣/ ٣٣٥).

(٢) انظر المصادر السابقة نفسها.

(٣) الأغاني (١٠/ ١٦٣) ، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٧) ، ونهاية الأرب (٤/ ٢٣٢).

(٤) قال ياقوتُ الحمويُّ في معجم الأدباء (٢/ ٩٥): اسمُه كِتَاب: «نُورُ الطّرف ونَوْرُ الظّرف» ، ويرىٰ ياقوت أنَّ هذا الكتاب هو اختصارٌ لكتاب: «زَهْر الآداب» =

أفاضِلِ الرِّجالِ في فَضْلِ العَقْلِ ، وحُسْنِ المَقَالِ ، ولها شعْرٌ رَائقٌ[1] .

* وعنْ طُهْرِها وقراءتِها القُرآنَ الكريمَ يقولُ إسحاق الموصلي : كانتْ عليةُ إذا طهرتْ لزِمَتِ المحرابَ ، وقَرَأَتِ القُرآن[2] .

* وأوردَ الذَّهبيُّ نَقْلاً عن إبراهيمَ بنِ إسماعيلَ الكاتب أنَّه ذكرَ علية بمحاسنِ الأَخْلاقِ فقال : كانتْ لا تُغنّي إلاّ زمنَ حيضِها ، فإذا طَهُرتْ أقْبلَتْ على التِّلاوةِ والعِلْم[3] .

* وأفاضَ الذَّهبيُّ نفسُه على عليةَ في «نُبلائه» ما تستحقُّ منَ الثَّناءِ فقال : عليةُ بنتُ المهدي ، وأختُ الرّشيدِ الهاشميّةُ ، العبّاسيّةُ ، أديبةٌ ، شاعرةٌ ، ذاتُ عفّةٍ ، وتقوى ، ومناقِبَ[4] .

* وجاءَ عنها أنَّها قالَتْ : ما كذبتُ قطّ[5] .

* وكانَ الرَّشيدُ يبالِغُ في إكْرامِها واحترامها ، حتّى إنَّه كان يدعوها «حَيَاتي»[6] ، فكانَ يَصْحَبُها معه إذا ما حجَّ أو سَافَرَ ، ولا يصبرُ عن غيابِها ، فقد خَرجَ الرَّشيدُ إلى الرِّي[7] مرةً ومعه عُلية ، فلما قاربَ مَرْجَ القَلْعَةِ قُربَ همَدَان ، تأجَّجَ الحنينُ في داخلِها ، وحنَّتْ إلى مدارجِ نشأتِها ، فاعتملَ الشّعْرُ بداخِلها فنظمتْ بيتَيْن اثنَيْن ، وكتبتهُما على مَضْرَب أخيها وهُما :

= للحُصري نفسِهِ ، فهو يقومُ علىٰ الأساس الذي يقومُ عليه . ومنَ الجدير بالذكْرِ أنَّ هذا الكِتاب قد طُبِعَ أخيراً في مؤسّسةِ الرّسالةِ ، بتحقيقِ لينة عبد القدوس أبو صالح ، ويقعُ في (٤٥٥ صفحة) .

(١) كتاب النّورين (ص ٢٣٩) .
(٢) نزهة الجُلساء (ص ٦٤) .
(٣) سير أعلام النّبلاء (١٠/ ١٨٧) .
(٤) المصدر السابق نفسه باختصار .
(٥) المصدر السابق (١٠/ ١٨٨) .
(٦) أشعار أولاد الخلفاء (ص ٨٢) .
(٧) انظر : سير أعلام النبلاء (١/ ١٨٨) .

ومُغْتَـربٍ بـالمـرجِ يَبْكـي لشَجْـوه   وقَدْ غَابَ عنه المُسعِدُون على الحبّ[1]
إذا ما أَتَاهُ الرَّكبُ مِنْ نحو أَرضِهِ   تنشَّـقُ يستشفـي بـرائحـةِ الـركـبِ

فلمّا وقَفَ الرَّشيدُ على البيتَيْن عَلِمَ أنَّها قد اشتاقَتْ إلى العراقِ ، وإلى أهلِها فقال : حنَّتْ عُليّةُ إلى الوطنِ ، ثمّ أَمرَ بها فردَّهَا إلى بغداد[2] .

* ولعلَّه منْ نافِلةِ القَوْلِ أنْ نُشيرَ إلى أنَّ عَدداً منْ شَواعِرِ العربِ قد قاسَينَ مفارقةَ الأوطانِ ، وشعرنَ بالحنينِ إليها ، ومنهنَّ وجيهةُ بنتُ أوسٍ الضَّبيّة ، حيثُ تتشوّقُ إلى مرابعِ صِبَاها ، ومَرَاتِعِ طفُولتِها ، ومَدَارجِ نَشْأَتِها ، فتقولُ :

وعـاذِلَـةٍ تَغْـدو عَلـيَّ تلـومُنـي   على الشَّوقِ لمْ تَمْحُ الصَّبابةَ منْ قَلْبِي
فما ليَ إنْ أَحْبَبْتُ أرضَ عشيرتي   وأَبْغَضْتُ طَرَفَاءَ القُصَيْبَةِ منْ ذَنبِ[3]
فَلو أنَّ ريحاً بَلَّغَتْ وحْيَ مرسلٍ   حفي لنَاجَيْتُ الجَنُوبَ على النَّقْبِ
وقُلْـتُ لهـا أَدِّي إليهـم رسَـالَتـي   ولا تَخْلطيْها ـ طالَ سَعْدك ـ بالتُّربِ
فـإنَّـي إذا هَبَّـتْ شمـالاً سَـأَلْتُهـا   هل ازْدَادَ صَدَّاحُ النُّميرةِ منْ قربِ[4]

* وذكرَ صاحبُ كتاب «المنَازِل والدِّيار» أنَّ حَفْصَ بنَ الأروعِ قال : رأيتُ صبيّةً في بلادِ طيء ، فقلتُ لها : أيُّ البلادِ أحبُّ إليك ؟ فقالت :

أَحَـبُّ بِـلادِ اللهِ مَـا بَيْـنَ مَنْعـج   إلـيَّ وسَلمـى أنْ يصـوبَ سَحـابُهـا
بِـلادٌ بهـا نِيْطَـتْ علـيَّ تَمـائِمـي   وأوّلُ أَرضٍ مسَّ جِلْـدي تـرابُهـا[5]

---

(١) «المسعدون» : أسعد : أعان .
(٢) نزهة الجلساء (ص ٦٣) ، والأغاني (١٠/ ١٨٢) ، وأعلام النساء (٣/ ٣٣٥) مع الجمع والتصرف ، وانظر : معجم البلدان (٥/ ١٠١) ، ونور الظرف (ص ٢٤٣) ، والحماسة البصرية (٢/ ٥٧٩) ، والمنازل والديار (ص ٢٠٨ و٢٠٩) ، وفوات الوفيات (٢/ ١٩٨) ، ونهاية الأرب (٤/ ٢٣١) وغيرها .
(٣) «القُصَيبة» : اسمٌ لعدّة مواضع ، منها وادٍ بينَ المدينة وخَيْبر ، وهو المرادُ هنا والذي قصدته الشّاعرة وجيهة بنت أوس .
(٤) انظر الأبيات في حماسة أبي تمام (٣/ ٣٣٨) ، والمنازل والدّيار لأسامَة بنِ منقذ (ص ٢٠٨) ، وأعلام النّساء (٥/ ٢٧٤) ، وانظر : معجم البلدان «القُصيبة» .
(٥) المنازل والديار (ص ٢٦٨ و٢٦٩) . =

* هذا وأدبُ الغربةِ والاغتراب جميلٌ عنْدَ ربّاتِ الخُدور ، وله في تُراثِنا الأدبيّ مساحاتٌ واسعةٌ ، وكذلك عنْدَ الأُدَباء والشُّعراء[1] .

= و«مَنْعج» : اسم وادٍ ، و«سَلمى» : أحدُ جبلَي طيء ، والثّاني : أجأ . و«نيطت» : عُلِّقَتْ .

و«التّمائم» : جَمْع تميمة ، وهي ما يُعَلّق في عنق الصّبي لدفْعِ العَين . قال أبو ذؤيب الهذلي :

وإذا المنيـــةُ أنشبـــتْ أظفـــارَهـــا ألفيـــتُ كـــلَّ تميمـــةٍ لا تَنْفـــعُ

(١) لعلّه منَ الاستطرادِ المفيدِ ، والاستطرادِ الجميلِ ، أنْ نشيرَ إلىٰ أنَّ العلماءَ والأدباءَ والشّعراءَ قديماً وحديثاً ، أشارُوا إلىٰ موضوعِ الغربةِ والاغترابِ ، وقالُوا في مَدْحِ الغُربة ، وذمِّها ، أشياءَ جميلة ، فمنْ روائعِ أقوالِ الشّعراء في بكاءِ الغريب قولُ أحدهم :

إنَّ الغـــريـــبَ إذا بَكـــىٰ فـــي جِنْـــدِسٍ بكَـــتِ النَّجـــومُ عَليـــهِ كُـــلَّ أَوَانِ

وفي تذكّر الغريبِ وطنَه يقولُ أحدُ البُلَغاء :

مَـــامِـــنْ غـــريـــبٍ وإنْ أبـــدىٰ تجلّـــده إلاّ سيـــذكـــرُ عنْـــد الغـــربـــةِ الـــوَطَنـــا

وقد امتدحَ بعضُهم الغربةَ ، ومنهم الحارثُ بنُ حباب ، فقد قالَ له معاويةُ رضي الله عنه : أيُّ البلاد أحبُّ إليك؟

قال : ما حسُنَتْ فيهِ حالي ، وعرضَ فيه جاهي ، ثمّ أنشأ يقولُ :

فـــلا كـــوفَـــةُ أمّـــي ولا بَصْـــرةُ أبـــي ولا أنَـــا يثنينـــي عـــنِ الـــرّحلـــة الكَسَـــلُ

وقال آخرُ : تألّفُوا النّعم بحسْنِ مجاورتِها ، والتمسوا المزيدَ بحسنِ الشّكر ، واغتربُوا لتكسبُوا ، ولا تكونوا كالنّساء اللاتي قد رضينَ بالكَنِّ ، واقتصرنَ علىٰ القعودِ ، فإنَّ الغربةَ تخرّجُ الغمر ، وتشجِّعُ الجبان ، وتحرّك المضطجع ، وتزيدُ في بصيرةِ الماهر ، وأنشد :

الفَقْـــرُ فـــي أوطـــانِنـــا غـــربـــةٌ والمـــالُ فـــي الغـــربـــةِ أوطـــانُ

وقال غيرُه وقد اعتبرَ الغربةَ منْ لذائذِ الدنيا : السّلامةُ إحدىٰ العصمتَيْن ، والدعاءُ للسّائِلِ إحدىٰ الصّدقتَيْن ، وخفّةُ الظّهْر إحدىٰ اليَساريْن ، والغربةُ إحدىٰ اللذّتَيْن .

وأنشدَ بعضُ الشُّعراء :

زعـــمَ الـــذيـــنَ تشـــرّقُـــوا وتَغَـــرّبُـــوا أنَّ الغـــريـــبَ وإنْ أُعِـــزَّ ذَليـــلُ

فـــأجبتُهـــم إنَّ الغـــريـــبَ إذا اتَّقـــىٰ حيـــثُ استقـــلَّ بـــهِ الـــركـــابُ جَليـــلُ

قـــالُـــوا الغـــريـــبُ يُهـــانُ قُلْـــتُ تجلُّـــداً إنَّ الإلـــهَ بنصـــرِهِ لكفيـــلُ=

بعضُ صِفَاتِ عُلَيّةَ وأَخْبارهَا :

* كانتْ عليةُ ـ رحمها الله ـ سيّدةً جليلةَ القَدْرِ ، رفيعةَ الشَّأْنِ ، ذاتَ أدبٍ وجَمالٍ ، وكان مولدها في سَنَةِ (١٦٠هـ) حيثُ كانَ أبوها المهدي وليُّ عَهْدِ المنصور يومذاك ، وقد تَسَلَّمَ الخلافةَ في سَنَة (١٥٩هـ) ، أي : قَبْلَ مولدِ عُليّةَ بسنةٍ واحدة.

* أمّا أمُّها فكانتْ أمّ وَلَدٍ تُدعى مَكْنُونَة[1] ، وكانتْ أَحْسنَ جاريةٍ بالمدينةِ وَجْهاً ، فاشتُرِيَتْ للمهدي في حياةِ أبيهِ بمئةِ ألفِ دِرهم ، فوقعتْ عنده موقعاً حَسَناً ، وغلبتْ عليهِ ، حيثُ كانتْ منْ أَحْسَنِ النِّساءِ وأظرفهنَّ وأعقَلِهنَّ ، ذاتُ صيانةٍ وأدبٍ بارعٍ ، أسَرَت المهدي بحُسْنِها ، وقد ولدتْ له ابنته عُليّة التي نَحْفَلُ بسيرتها.

* وقد حظيتْ مكنونة بمكانةٍ لائقةٍ في قَصْر المهدي ، وعرفَ النّاسُ مكانتَها لديه ، ممّا جَعَل الخيزُرَانَ زوجَ المهدي الأثيرة ، وأمَّ ولديه الهادي والرشيد تتضايقُ منها وتقولُ : ما مَلَكَ المهديُّ امرأةً أغلظَ عليَّ منْها[2].

* وزادتْ مكنونة منزلةً عنْدَ المهديِّ خُصوصاً بعد أنْ وَلَدتْ له عُلَيَة ،

= قالُوا إذا ماتَ الغريبُ ببلدةٍ أُدْلي ولم يُسْمَعْ عليهِ عويلُ
قلتُ الغريبُ كفَاهُ رحمة ربِّه وغِنى البكاءِ عن الفقيدِ قليلُ

وهذا البابُ بابٌ طويلٌ عريضٌ ، أحببنا أنْ نذكرَ منه شيئاً لتنشيطِ النّفس ، وقد تحدَّثَ الأدباءُ والشعراءُ كثيراً في هذا الموضوع ، وقلَّ أنْ تجدَ شاعراً لم يدلِ دلوه في هذا المضمارِ ، وهنالك قصائد بديعةٌ تقَطرُ رقّةً وجمالاً ومشاعرَ في هذا الموضوع ، ومنها قصيدةُ ابنِ زريق البغدادي وغيرها مما نُثِرَ في مصادِرنا الأدبية ، والتي تشيرُ إلىٰ ثراءِ هذا الموضوع.

(١) انظر : فوات الوفَيات (٢/ ١٩٨) ، ونهاية الأرب (٤/ ٢٣١) ، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٧) ، وتاريخ الإسلام للذهبي (ص ٢٧٥) ، وذكرت بعض المصادر أن أمها تدعى «بصبص».

(٢) الأغاني (١٠/ ١٦٣) بتصرف يسير ، ونهاية الأرب (٤/ ٢٣١ و٢٣٢).

فكان يكرمُها ويحبُّها ، ولهذا نَشَأَتْ عُليةُ نشأةَ بناتِ الملوكِ ، وحبَاهَا اللهُ جَمالاً وَافِراً ، وعَقلاً رصيْناً ، وأدَباً متميّزاً ، وفصاحةً وبياناً. قال ابنُ النَّجّار: كانتْ عليةُ منْ أحسنِ النِّساءِ وأظرفهِنَّ ، وأَعْقَلِهِنَّ ، ذاتَ صيانةٍ وأدبٍ بارع ، تقولُ الشِّعْر الجيِّد ، وتزوَّجت موسى بنَ عيسى بنِ موسى بنِ محمّد العبّاسي[1] . وسنتحدَّثُ بفصلٍ خاص عنْ زواجها .

* وقالَ الذَّهبيُّ : كانتْ عليةُ منْ ملاحِ زمانِها ، وأظرفِ بناتِ الخُلفاء[2] .

* وقال الكُتُبي : كانتْ منْ أحْسَنِ خَلْقِ اللهِ وَجْهاً ، وأظرفِ النَّاسِ ، وأعقلهِنَّ ، ذات صيانةٍ وأدبٍ بارعٍ[3] .

* وقال النُّويري : كانتْ عليةُ بنتُ المهدي من أجملِ النَّاسِ وأظرفِهم[4] .

* وقال الصَّفدي : كانتْ عُليَّةُ منْ أحسنِ النِّساء وأظَرفهِنّ وأعقلهِنّ، ذات صيانةٍ وَأدَبٍ بارعٍ[5] .

* ومن صفات عُليةَ بنتِ المهدي ما ذكَره الأخباريّون أنَّها كانت جميلةَ الصُّورةِ ، بديعةَ المحاسِنِ ، حلوةً مليحةً ، إلاّ أنَّه كانَ في جَبْهتِها اتساعٌ ، فاخترعَتِ[6] العَصَائِبَ المكلَّلة بالجَوهر .

---

(١) نزهة الجلساء (ص ٦١) ، والدر المنثور (ص ٣٤٩) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٢) ، وفوات الوفيات (٢/ ١٩٧) ، قال ابن حبيب: موسى بن عيسى كانت عنده علية بنت المهدي فولدت له عيسى وأسماء. (المحبر ص ٦١) ، وانظر الفصل الخاص بزواجها من موسى بن عيسى.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٧).

(٣) فوات الوفيات (٢/ ١٩٧).

(٤) نهاية الأرب (٤/ ٢٣٢).

(٥) الوافي بالوفيات (٢٢/ ٣٦٩) ترجمة رقم (٢٦٣).

(٦) منَ الأشياءِ اللطيفةِ التي اخترعتْها عليةُ: المروَحةُ ، فقد ذكروا أنَّ هارونَ الرشيد ـ رحمه الله ـ دخلَ يوماً علىٰ أختهِ عُلية في قيظٍ شديدٍ ، فأَلْفاها قد صَبَغَتْ ثياباً مِنْ زعفران وصَنْدل ، ونشرتْها علىٰ الحَبْل لتجفَّ ، فجلسَ هارونُ قريباً مِنَ الثّيابِ المنشورةِ ، فجعلتِ الريحُ تمرُّ علىٰ الثّيابِ ، فتحملُ منها ريحاً بليلةً عَطِرةً ، فوجدَ=

* ذكر هذا عليُّ بنُ محمد النّوفلي عن عمّه قال: كانتْ عليةُ بنتُ المهدي منْ أحسنِ النّاسِ، وأظرفِهم، تقولُ الشِّعْرَ الجيّد، وتصوغُ فيهِ الألحانَ الحسنةَ، وكان بها عيبٌ، كانَ في جبينها فَضْلُ سَعَةٍ حتى تسمُج، فاتّخذتِ العَصَائِب المكلّلةَ بالجوهرِ لتسترَ بها جبينَها، فأحدثت واللهِ شيئاً ما رأيتُ فيما ابتدعَتْه النِّساء، وأحدثَتْه أحْسَنَ منه[1].

* وقالَ ابنُ تغري بردي في «النُّجوم»: كانَ في جبهتِها[2] سَعَةٌ تشينُ وجهَها، فاتّخذتِ العصابة المكللّة بالجوهَرِ لتسترَ جبينَها[3] بها، وهي أوّلُ

= لذلكَ راحةً منَ الحرِّ، واستطابَه، فأمرَ أنْ يُصْنَع له في مجلسه مثلها.

(١) الأغاني (١٠/ ١٦٢).

(٢) قالَ التّجاني في تحفةِ العروس: الجبهةُ علىٰ التَّقْريب: موضعُ السُّجود منَ الإنسانِ، والجبينان يكتنفانِها منْ جانبيها، وقال ابنُ قُتيبةَ ـ رحمه الله ـ في أدَبِ الكاتبِ: ولا يكادُ النّاس يفرقونَ بينَ الجبهةِ والجبين، وإنّما الجبهةُ مَسْجِدُ الرّجل الذي يصيبُه نَدْبُ السّجود، والجبينان مكتنفان بها من كلّ جانب جَبين. هذا ويُسْتَحبُّ مِنَ الجبهةِ استرسالُها، ورقّة بشرتها، وعدمُ تغضّنها، ويُقال لمن كان بهذهِ الصّفة صَلْتُ الجبهة، وطَلْقها، وواضحُ الجبين، كنايةٌ عن البياضِ، وضدّ الصّلت والواضح: الأغضن، والمرأة: غضناء، والغضونُ تسمى الأسارير، واحدها سِرَر، قال أبو كبير الهذلي:

وإذا نظــرتَ إلــى أســرّةِ وجهــهِ   بــرقــتْ كبــرقِ العــارضِ المتهلــل

ويُستحبُّ أيضاً منَ الجبهةِ اتّساعها منْ غيرِ إفراط. (تحفة العروس ص ٢٧٦) بتصرف.

(٣) كانَ الحريريُّ علىٰ ما يبدو قد أُعْجِبَ بهذهِ الصُّورة وتخيَّلَها، فقال في إحدىٰ مقاماتِه: لا والذي زَيَّنَ الجباهَ بالطُّررِ، والعيونَ بالحَورِ. وقال في موضعٍ آخر: لو لم تُبرزْ جبهتُه السِّين، لما نقشَت الخمسين، وقد شبّه هنا أطرافَ الشَّعْرِ المصفوفِ برؤوسِ السّينات إذا كُتِبَتْ وهو تشبيهٌ معقولٌ مقبول.

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ النِّساءَ والجواري قد تَفَنَّنن في العَصائب، وجعلْنَ منْ هذه المساحةِ الصغيرةِ الجميلةِ ميداناً للشّعرِ والأدبِ، فقد عَقَد «الوشّاء» في كتابِه «الموشى» فَصْلاً عنوانه: بابُ ما وُجِدَ علىٰ الكُرزَان والعَصائب، ومشَادّ الطّرر =

مَنِ اتَّخذتها ، وسمِّيتْ شَدَّ جبينٍ لذلك .

عُليَّةُ وزَوَاجُـهَـا مـنْ مُـوسَى بـنِ عـيْسَـى :

* تذكرُ المصَادِرُ المتنوِّعةُ على اختلافِ أَلوانِها ومشاربها ، أنَّ عُليَّةَ ابنةَ المهديّ كانت قَدْ تزوَّجَتْ منْ أحَدِ الأُمراء المشَاهيرِ وهو موسى بنُ عيسى بنِ موسى بنِ محمد بنِ علي بنِ عبدِ الله بنِ العبَّاس الهاشميّ[1] .

* وكانَ عيسى بنُ موسى وليّاً للعَهْدِ ، إلاّ أنَّ أمْرَه لمْ يتمَّ ، فقد ألحَّ عليهِ المنصورُ والدُ المهديّ أنْ يخلعَ نَـفْسه منَ الخلافَةِ ، وذلك ليقدّم عليهِ ابنَه المهديّ ، فيكونَ الخليفة منْ بعده .

* وحاولَ عيسى أنْ يثنيَ المنصورَ عن عزمِهِ هذا ، ولكنَّه لم يفلحْ ، ولم يَسَعْهُ فيما بَعْدُ إلاّ الامتثالُ لأَمْرِ المنصورِ ، لكيلا تقومَ بينهما الفتْنَةُ؛ لأنَّ عيسى كان منْ فحولِ أهْله وشجعانهم ، ومن ذوي النَّجدة والبأْسِ والسُّؤدد منهم؛ وكانَ جواداً ذا مَعْروف ، وكان إذا حجَّ ، يحجُّ ناسٌ كثيرٌ منْ أهلِ المدينةِ يتعرَّضُون لمعروفِهِ فيَصِلَهم .

= والذَّوائب . ومنْ جميل ما كَتَبته جاريةٌ على عصابتها :

مَحاسِـنُ وَجْهِـك تمحـو الـذُّنـوبـا ... وتعمـلُ فـي القَلْـب شيئـاً عجيبـا

فمـنْ ثـمَّ تهجـرُني ظـالمـاً ... تجنَّـى وتُحصـي علـيَّ الـذُّنـوبـا

(الموشى ، أو الظرف والظرفاء ص ٢٥٦ ـ ٢٦٠) .

ـ وذكرَ الجاحظُ أنَّ جاريةً قد كتبتْ بالغاليةِ ـ أخلاطٌ منَ الطِّيب ـ علىٰ عصابتها ثلاثةَ أبياتٍ وهي :

إذا غَضِبَـتْ رأيـتَ النَّـاسَ قَتْلـىٰ ... وإنْ رضيـتْ فـأرواحٌ تعـودُ

لهـا فـي عينِهـا لحظـاتُ سِحْـرٍ ... تميـتُ بهـا وتحيـي مَـنْ تـريـدُ

وتسْبـي العـالَميـنَ بمقلتَـيْهـا ... فكـلُّ العـالميـنَ لهـا عبيـدُ

المحاسن والأضداد ص(٣٠٥١ و٣٠٦) .

(١) انظر : الأوراق (٢/ ٨٣) ، والنجوم الزاهرة (٢/ ١٩١) ، وفوات الوفيات (٢/ ١٩٧) وغيرها .

* ولما خلعَ أبو جعفر المنصور عيسى وبايعَ للمهدي قال عيسى بنُ موسى يعبِّر عما عَراه واعْتَراه:

خُيِّرْتُ أمرينِ ضَاعَ الحزْمُ بينَهما ... إمّـا صَغَـارٌ وإمّـا فتْنَـةٌ عَمَـمُ
وقـد هَمَمْـتُ مِـراراً أنْ أسـاقِيَهـم ... كـأْسَ المنيّـةِ لـولا اللهُ والـرَّحـمُ
ولـو فَعَلْـتُ لـزالـتْ عنهـمُ نِعَـمٌ ... بكُفْـرِ أمثـالِهـا تُسْتَنْـزَلُ النِّقَـمُ[1]

* وتولّى المهديُّ الخلافَةَ، وطلَب منْ عيسى أنْ يخلعَ نَفْسَه ليجعلَ الخلافةَ لابنهِ منْ بعده، وقال له: إنَّك أَجَبْتَ عمَّك على تَقْديمي، وأنا أحبُّ أنْ أُخْرجكَ عن هذا الأَمْر، وأنْ أجعلَه لابْني منْ بَعْدي، فإنْ عَصيتَنِي استحقَقْتِ ما يستحقُّه القَاطِعُ، وإنْ أطَعْتَني فما تبلغُ أُمْنيتك ما أنويهِ لكَ.

* وبادرَ عيسى مُكرهاً، فخلعَ نَفْسه، وأنشدَ:

أَشْكُـو إلـى مَـنْ يَعْلَـم الشّكـوى ... وَيَسْمَـعُ الإسْـرارَ والنَّجْـوَى
ومَـنْ بِـهِ أَمَـلُّ دَفْـعَ الـذي ... كنْـتُ لَـهُ مـنْ قَبْـل أنْ أَهْـوى
صَـارَ إلـى مـا كنْـتُ أَرْثـي لَـهُ ... وأَرتَجيْـه أَعْظَـم البَلْـوى
يضْـربُنـي سَيْفـي ويـرمـي العِـدى ... نَحـري بِسَهْـمٍ لـي مـا أَشْـوى
يُـولـي يمينـاً أنّـه نَـاصِـحٌ ... والنُّصْـحُ منْـه أبـداً دَعْـوى[2]

* وتولّى عيسى الكوفَة، وتوفيَ فيها سنة ١٦٧هـ، وكانَ قد خلَّفَ منَ الولدِ نيفاً وثلاثينَ ذكراً وأنثى[3]، أكبرهُم موسى الذي كان يكنى بأبي عيسى، وهو الذي تزوَّج عُليةَ بنتَ المهدي.

* وكان موسى رفيعَ القَدْرِ، تقلَّب في مَنَاصِبَ منها أنَّه وليَ الحرمَيْن للمنصورِ والمهدي، ثمَّ وَليَ اليمنَ للمهدي، ومصْرَ للرّشيد عام ١٧١هـ، ثم صُرِفَ عنها عام ١٧٢هـ؛ فعادَ إلى العراقِ حيثُ ولّاه الرَّشيدُ الكوفةَ؛

---

(١) الأغاني (١٦/ ٢٥٧).
(٢) الأوراق (٢/ ٣١٨ ـ ٣٢٣).
(٣) انظر: جمهرة أنساب العرب (ص ٣٣).

فَدِمشْقَ؛ ثم تولى إمْرَة مِصْرَ أكثر من مرّة ، واستقرَّ في بغدادَ ، وتوفيَ سنة (١٨٣هـ) ، وكانتْ عليةُ بنتُ المهدي إذْ ذاك في عمْرِ الوَرْدِ لم تبلغِ الثَّالثة والعشرينَ منْ عمرِها ، وولدت له عيسى وأسماء[١] .

* ولم تذكرِ المصادرُ أنَّ عليةَ تزوَّجت بغيرِ موسى ، وإنّما اقتصرتْ على ذلك ، وأكَّدت زواجها منه ، في حين أنَّنا نَجد في ثنايا بعضها عَدم ذكْرِ الأولاد .

* ومن خلالِ حياتنا مع عليةَ ومع أدبِ عُلية ، لم نلمحْ أنَّها خصَّتْ زوجَها موسى برثاءٍ أو تفجّع ، أو لعلَّ المصادر لم تَعْلَقْ بذاكرتها أشعارُ عُلَيَّةَ في الرّثاء لزوجها موسى ، بينما أفاضَتْ في ذكْرِ أغراضِها الشِّعريّة الأُخرىٰ؛ كما سنقرأ من خلال ترجمتها إنْ شاء الله .

عُلَيَّةُ وزُبَيْدَةُ:

* تروي المصادِرُ التي بينَ أيدينا ، أنَّ علاقةً حميمةً ، كانت تربطُ بينَ عليّة وابنةِ عمِّها زبيدةَ بنتِ جعفر زوجِ أخيها هارون الرشيد ، فقد كانتْ عليّةُ تأْنَسُ بزبيدةَ ، وكانت زبيدةُ كذلك تبادلها المودَّة والإيناسِ والائتناس والصَّفاء ، وتبثُّ كلُّ واحدةٍ منهما الأخرى ما يعتريها منْ مشَاكِلَ ، أو همومٍ ، كعادةِ النِّساءِ.

* وكانَ لأمِّ جعفر زبيدةَ مكانةٌ عند الرشيدِ لا يُلْحقُ شَأْوها ، وقد أخذتْ مساحةً كبيرةً من قَلْبِهِ وأحاسيسِه ، وكان لا يؤثرُ عليها أَحَداً ، فقد حَباهَا اللهُ ألوانَ الفَضْلِ ، ومكارمَ الأخلاقِ ، ورزقَها جَمالاً وهيبةً ، فكانتْ مِنْ آثرِ نساءِ بني العبَّاس عندَ الرشيدِ؛ ولذلك كانت تَعرِفُ عِظَمَ مكانتِها بقَلْبِه ، وتعرفُ أين محلّها في وجدانِه ولُبّه .

* ففي أحدِ الأيّام انقطعَ عنها الرشيدُ ، فَشَكَتْ أمُّ جعفر انقطاعه لصفيّتها

---

(١) انظر : المحبر لابن حبيب (ص ٦١) .

عُلية ، وهنالك صاغَتْ شِعْراً ، وألقَتْه على عددٍ منَ الجواري ، فأنْشَدْنَه أمامَ الرشيدِ فرجعَ إليها.

* زعمَ الأصبهانيُّ في «أغانيه» أنَّه أُهْدِيَتْ إلى الرشيدِ جارية في غايةِ الجمَالِ والكَمالِ ، فَخَلا معها يوماً ، فاتَّصلَ الخبرُ بأمِّ جعفرَ ، فَغَلُظَ عليها ذلك ، فأرسلتْ إلى عُليّةَ تشكو ما عَرَاها ، وما وقَرَ في نَفْسها منْ تلكمُ الجاريةِ التي سَلَبَتْ عَقْلَ الرشيدِ ، فأرسلتْ إليها علية: لا يهولنَّكِ هذا يابنة العمّ ، فو اللهِ لأردنَّه إليك ، قد عزمتُ أنْ أصنعَ في ذلكَ شِعْراً ، وأطرحَه على جواريَّ؛ ففعلتْ أمُّ جعفر ما أمرتْها به عُلية ، فلما جاءَ وقتُ العصْرِ ، لم يشعرِ الرشيد إلا وعليةُ قد خَرَجَتْ عَليهِ منْ حجرتها ، وأمّ جعفر منْ حجرتها ، معها تلكمُ الجواري ، عليهنَّ غرائبُ اللباس ، وكلُّهنَّ قد أنشدنْ ما نظمته عُليةُ:

منْفَصِلٌ عنّي ومَا قَلْبيَ عنْه منْفَصِلْ
يا قَاطِعي اليومَ لِمَنْ نويتَ بعدي أنْ تَصِلْ

فطربَ الرشيدُ وقامَ على رجليهِ ، حتّى استقبلَ أمَّ جعفر وعليةَ وهو على غايةِ السُّرور ، وقال: لَمْ أَرَ كاليومِ قطُّ ، وأمرَ أنْ تُنْثَرَ الدَّراهمُ على رؤوسِ الجواري ، فكانَ ما نُثِرَ يومئذ ستّة آلاف درهم ، وما سُمِعَ بمثل ذلك اليوم[1].

عُلَيَّةُ وأَخُوهَا الرَّشيْد:

* يزعمُ الأصبهاني أنَّ عليةَ كانتْ حاذقةً في الغِنَاء ، وأنَّ أخَاهَا الرشيدَ كان يزورُها ، ويطلبُ منها أنْ تغنيَه منْ نظمِها وألحانِها ، فكانَ يَطْرَبُ لذلك طَرباً شَديداً ، ويشربُ على اللحنِ سائِرَ اليوم!!.

---

(١) انظر: الأغاني (١٠/ ١٧٣ و١٧٤) باختصار وتصرف ، وانظر: نهاية الأرب (٤/ ٢٣٣ و٢٣٤) ، وديوان الصبابة (ص ٢٣٦). وفي النّفسِ شيءٌ من هذا الخبرِ ، ويحتاجُ إلى نخْلٍ وتمحيصٍ ، ولكنّا أوردناه ضمنَ أخبارِ عُلية لما فيهِ من طرافة.

* أوردَ الأصبهانيُّ خَبَراً ـ بعد أنْ ذكرَ ثلاثةً منْ رواتِه ـ قال: زارَ الرشيدُ عليّةَ ، فقال لها: بالله يا أُختي غَنّيني.

فقالت: وحياتِك لأَعْمَلَنَّ فيكَ شِعْراً ، ولأعملنَّ فيك لحناً ، فقالت منْ وقتها:

تَفْديكَ أُخْتُكَ قَدْ حبوتَ بنعمةٍ لَسْنَا نعـدُّ لهـا الـزَّمـانَ عَـديـلا
إلاَّ الخُلـودَ وذَاكَ قُـربُـك سيّـدي لا زالَ قـربُـكَ والبقـاءُ طَـويـلا
وحَمَدْتُ ربّي في إجَابةِ دَعْوتي فـرأيـتُ حَمـدي عنْـدَ ذاكَ قَليـلا

وعملتْ فيه لحناً منْ وقتِها ، فأطربَ الرشيد ، وشربَ عليه بقيّةَ يومه[1].

* وتذكرُ المصادرُ أيضاً أنَّ الرشيدَ كانَ إذا ذَهَبَ إلى مصيفهِ بالرَّقَّةِ[2] ، يشتاقُ إلى أختِه عُليةَ ، فقد ذكرَ عبدُ اللهِ بنُ إبراهيم بن المهدي ـ وهو ابن أخي عُلية ـ قال: اشتاقَ عمّي الرشيدُ إلى عمتي عُليّةَ بالرّقّةِ ، فكتبَ إلى خالِها يزيدَ ابنِ منصور في إخراجِها إليه ، فأخرجَها ، فقالتْ في طريقها:

اشْرَبْ وغَنِّ على صَوتِ النَّواعيرِ ما كُنْتُ أعرِفُها لولا ابنُ مَنْصُورِ
لـولا الـرَّجـاءُ لِمَـنْ أمَّلْتُ رؤيَتَه ما جُزْتُ بَغْدَادَ في خَوفٍ وتَغْريرِ[3]

---

(١) الأغاني (١٠/ ١٨١) ، وأعلام النّساء (٣/ ٣٣٨) ، وأشعارُ أولادِ الخلفاء وأخبارُهم (ص ٥٨) ، وهذه الرّواية أيضاً لا يرتاح العَقْل إلىٰ تصديقها.

(٢) «الرَّقَةُ»: مدينةٌ مشهورةٌ علىٰ الفراتِ ، ويُقال لها الرّقةُ البيضاءُ ، وأصلُها: كلّ أرضٍ إلىٰ جَنْب وادٍ ينبسطُ عليها الماء.
قال ربيعةُ الرّقي يصِفها:

حبّـذا الـرّقـةُ داراً وبَلَـدْ بلـدٌ سَـاكنـهُ ممّـن تَـوَدْ
مـا رأينـا بلـدةً تَعْـدِلُهـا لا ولاَ أخْبـرَنـا عنهـا أحَـدْ
إنّهـا بـريّـةٌ بحـريـةٌ سـورُهـا بَحْـرٌ وسـور فـي الجَـدَدْ

(معجم البلدان ٣/ ٥٨ و٥٩).
ومن الجدير بالذّكر أنَّ أبا جعفر هو الذي بنىٰ الرقة سنة (١٥٥ هـ).

(٣) الأغـانـي (١٠/ ١٨٢) ، وأشعـار أولاد الخلفـاء (ص ٥٩) ، وشـاعـرات العـرب (ص ٢٦١).

* ويبدو منَ الأخبارِ التي أمامنا أنَّ عُليّةَ كانتْ هي الأخرى لا تصبرُ على فراقِ أخيها ، فقد ذكروا أنَّ الرشيدَ طلبَ أخْتَيْها ولم يطلبْها ، فصاغَتْ شِعْراً تبيِّنُ فيه أنْ لا طاقةَ لها على فراقِهِ وفراقها ، وترجوه أنْ يرقَّ لها فقالت:

مَالي نُسِيْتُ وَقَدْ نُودي بِأَصْحَابِي وكُنْتُ والذّكْرُ عندي رَائحٌ غَادِي
أنَا التي لا أُطِيْقُ الدّهْرَ فُرقَتكم فَرِقَّ لي يا أَخي منْ طولِ إبْعَادِ

وبعثتْ مَنْ غنَّاه للرشيدِ ، فبعثَ فأحضرها[1].

* ويذكرُ الصَّوليُّ في «الأوراقِ» أنَّه كانتْ لعليَّةَ منزلةٌ كبيرةٌ عند أخِيْهَا الرّشيد ، وكثيراً ما كانَ يقولُ لها: لِمَ فَعَلْتِ هذا يا حَيَاتي؟

* فقد حدَّثَ مرَّةً مسرورٌ خادمُ الرّشيدِ ، أنَّ الرّشيدَ كانَ قد تشوَّقَ إلى أختِه عُليةَ بَعْدَ أنْ خَرجَ منْ عندِه الجلساءُ والمغنّون ، فنادى مَسْروراً الخادمَ ، وحَمَّلَه رسالةً شفويَةً إلى أختِهِ عُليةَ ، يتمنّى عليها أنْ تأتيهَ لتطيبَ عيشتَه بحضورِها.

* فلبَّتْ عُليَّةُ الطَّلبَ ، وأَسْرعَتْ إلى زيارةِ أخيها الرّشيد ، وما أنْ دخَلَتْ عليهِ وهو في مَجْلسهِ ، حتّى أومأَ إليها أنْ تجلسَ على السَّريرِ معه؛ فأبَتْ عُلَيّةُ وحلفَتْ ، ثم ثَنَتْ طَرفَ نَخٍّ ـ بِساط طَويل ـ كانَ بين يديْهِ ، وجَلَسَتْ على ظَهْره ، فقالَ لها الرّشيدُ: لِمَ فَعَلْتِ هذا يا حَيَاتي؟! وكثيراً ما كانَ يدعوها تحبُّباً بهذَا الاسْمِ؛ فَقَالَتْ: يا أميرَ المؤمنين ، إنّها مجالسُ آنفاً ، فَلَمْ أُحِبّ أنْ أقعدَ مقعدهم[2].

* وكانَتْ عليّةُ ـ كما يزعُم الأصبهانيُّ ـ تُبادِلُ الرشيدَ حبّاً بحبٍّ أقوى وأشدَّ ، وكثيراً ما كانَتْ تُدْخِلُ السُّرورَ والانبساطَ إلى قلبِهِ ، وكثيراً ما كانَتْ تصْنَعُ الألحانَ الشَّجيَّةَ وترسلُها إليهِ معَ إحدى جواريها ممن حذقَتْ بالغناء؛

---

(١) الأغاني (١٠/ ١٨١) ، وأعلام النساء (٣/ ٣٣٨ و٣٣٩) ، وأشعار أولاد الخلفاء (ص ٥٨) ، وشاعرات العرب (ص ٢٦٣).
(٢) انظر: الأوراق للصولي (٢/ ٥٢) بتصرف يسير.

لتؤدّي ما تعلَّمَتْه أمامَ الرّشيدِ ليَطْربَ ويُسرَّ.

* فقد أخْرجَ الأصبهانيُّ بسندِه عن امرأةٍ أو مغنّيةٍ تُدعى «رَيِّق»[١] أنَّها قالَتْ: كنْتُ يوماً بينَ يدي الرَّشيدِ وعنده أخوه منْصُور وهما يَشْربان، فدخَلَتْ إليهِ خَلُوبُ ـ جاريةٌ لعليةَ ـ ومعها كأْسَانِ مملوءتَانِ وتحيّتَانِ، ومعَ خادِمٍ يتبعُها عودٌ، فغنَّتْهما قائمةً، والكأْسَان في أيديهما، والتَّحيَّتان بين أيديهما:

حَيَّـــاكُمـــا اللهُ خَلِيْلَيَّـــا إنْ مَيِّتـــاً كُنْـــتُ وَإنْ حَيّـــا
إنْ قُلْتُمـــا خَيْـــراً فَخَيـــرٌ لكـــمْ أو قُلْتُمـــا غَيّـــاً فَـــلا غَيّـــا

فَشَرِبا، ثم دفَعَتْ إليهما رقْعَةً فإذا فيها: صَنَعَتْ يا سَيِّديَّ أختُكُما هذا اللحنَ اليومَ، وألقَتْه على الجواري، واصطبحت فَبَعَثْتُ لكما به، وبعثَتُ منْ شَرابي إليكما، ومنْ تحيّاتي وأحذقِ جواريَّ لتغنّيكما، هنأكُما اللهُ وسَرَّكُما، وأطابَ عَيْشَكُما وعَيْشي بكما[٢].

* ويَظْهَرُ منْ أشعارِ عُليّةَ التي وصلتْ إلينا عَبْر المصادرِ أنّها كانتْ تحبُّ أخَاهَا الرشيدَ محبّةً شديدةً، وأنّها كانتْ تنظمُ فيهِ المقطّعَاتِ والمدائحَ، كقولها تمدحُه وتبيِّنُ مكانَتَه:

قُـــلْ لـــلإمـــامِ ابْـــنِ الإمَـــا مِ مَقَـــالَ ذا النُّصْـــحِ المُصيـــب

---

(١) رَيِّق: مغنيةٌ منْ أشَهرِ المغنّيَاتِ في العَصْرِ العبّاسي، فقد جَعَلَ إبراهيمُ بنُ المهديّ لما أشْرَفَ علىٰ الموتِ يتذكّرُ شَغَفَه بالغِنَاء، وما سَلَف له فيه، ويتندّمُ عليه فقالَ له بَعْضُ مَنْ حَضَر: فَتُبْ وأحرقْ دفاترَ الغناء. فحرّكَ رأسَه ساعةً ثمْ قال: يا مجانين، فَهَبْني أحرقتُ دفاتِرَ الغِناء كلَّها، رَيِّق ايش أَعملُ بها؟! أقتلُها وهي تحفظُ كلّ شيءٍ في دفاترِ الغِناء؟! (أعلام النّساء ١/ ٤٨١ و٤٨٢) نقلاً عن الأغاني.

(٢) الأغاني (١٠/ ٢٠٩)، ويا سَلام على أخبارِ أكابرِ الخلفاء إذا كانتْ تَصِلُ إلينا عن طريقِ المغنيات!!! إذاً علىٰ الدنيا السَّلام، وهذا الخبرُ واضحُ الإفْك على عُليةَ والرشيد.

لَـولا قُـدُومُـك مـا انْجلَـى عنَّـا الجليـلُ مـنَ الخُطُـوب[1]

* وممّا نَسَبَه إليها الصّوليُّ قولُها في أخيها الرّشيدِ ، حيثُ تبثُّه نَجْوَاها ومشَاعِرَها :

هـارونُ يـا سُؤْلي وُقِيْتَ الرَّدَى قَلْبـي بِعَتْـبٍ فيـكَ مَشْغُـولُ
مـا زِلْـتُ مـذْ خَلَّفْتَني فـي عَمـىً كـأنَّنـي فـي النَّـاسِ مَخْبُـولُ[2]

* وربّما كانتْ تدبُّ الوحْشَةُ بينهما فيجفوها الرّشيدُ ، وهناك يَحزَنُ فؤادُها ، وتتفجرُ ينابيعُ أريحيتها الشّعرية بأرقِّ الكلماتِ التي تظْهرُ فيها حبَّها وإكبارَهَا لأخيها ، وكذلك تُظْهِرُ إيناسَها به ، وسرورَها في نعيم عَطْفه فتقولُ :

مَـالِـكُ رَقِّـي أنْـتَ مسـرورُ وبـالّـذي تهـواهُ مَحْبُـورُ
أَوحَشْتَنـي يـا نُـورَ عَينـي فَمَـنْ يُـؤنسُنـي غَيْـرُكَ يـا نـورُ
أنْـتَ علـى الأعـداءِ يـا سيّـدي مظَفَّـرُ الآراءِ مَنصُـور[3]

عُـلَيّـةُ وَأَخُـوهَـا إِبْـرَاهـيْـم :

* كانتْ علاقةُ عُليَّةَ مع أخيها إبراهيمَ بنِ المهدي علاقةً قويةً ، وكما يزعُمُ الأصبهانيّ أنَّهما اجتمعا على حُبِّ الطَّرب والغِنَاء ، وفي موضع من «أغانيه» يتحدَّث الأصبهانيُّ عنْ إبراهيمَ ويصفُه بقوله : كانَ رجُلاً عاقلاً فَهِماً دَيّناً أَديباً شَاعِراً راويةً للشِّعْر وأيّام العربِ خطيباً فصيحاً حَسنَ العَارضة[4] .

* وكانَ إسحاقُ الموصلي يقول : ما وَلَدَ العبّاسُ بنُ عبد المطّلب بَعْدَ عبدِ الله بنِ العبّاس رجُلاً أفْضَلَ منْ إبراهيمَ بنِ المهدي . فقيل له : مَعَ ما تبذَّلَ له منَ الغِنَاء؟

---

(١) الأوراق (٢/ ٧٢).
(٢) الأوراق (٢/ ٦٠).
(٣) الأوراق (٢/ ٥٨).
(٤) الأغاني (١٠/ ١١٩).

فقال: وهل تَمَّ فَضْلُه إلاّ بذاك[١].

* وأمّا ابنُ النَّديم فقد وصَفَه بقوله: إنَّه أوَّلُ نابغ نَبَغَ من بني العبّاس، وإنَّه لَمْ يُرَ مثلُه في أولادِ الخُلفاء قَبْله أفْصحَ منه ولا أَشْعَر، وإنَّ له صفةً في الغِنَاء يتقدَّمُ بها على كلِّ أحدٍ سواه[٢].

* وذكَرَ الأصبهاني أنَّ الحُسينَ بن إبراهيم قالَ: كنْتُ أسْأَلُ مُخارقاً ـ من مشَاهير المغنين ـ أيُّ النَّاسِ أحسنُ غِنَاءً؟

قال: كانَ إبراهيمُ الموصليّ أحسنَ غناءً منْ ابنِ جامع بعشْرِ طبَقَات، وأنا أحسنُ غناءً منْ إبراهيم الموصليّ بعشرِ طبَقَات، وإبراهيمُ بنُ المهديّ أحسنُ غناءً منّي بعشرِ طبَقَات. أحْسَنُ النَّاسِ غناءً وأحسنُهم صَوتاً، وإبراهيمُ بن المهدي أحسنُ الجنِ والإنسِ والوحشِ والطّيرِ صَوتاً، وحَسْبُك هذا[٣].

* ونَقَل الأصبهانيُّ بسندٍ عن عبد الله بنِ العبّاس بنِ الفَضْل بن الرَّبيع أنَّه قالَ: ما اجتمعَ في الإسلامِ قطّ أَخٌ وأختٌ أحسنُ غناءً من إبراهيمَ بنِ المهدي وأختِهِ عُليَّةَ، وكانَتْ تُقَدَّمُ عليه[٤].

ومنَ العجيبِ أنَّ هذَيْن العَلَمَيْن كانا يغنّيان أمامَ ابنِ أخيهما المأمون بنِ الرشيد، ومنَ الأعجب أنَّ الذي يروي قصَّة غنائِهما هو ابنُ أخيهما الآخر أبو أحمد بنُ الرَّشيد!.

فقد أخرجَ الأصبهانيّ بسندهِ عن أبي أحمدَ بنِ الرَّشيد قال: كنتُ يوماً بحضرةِ المأمون وهو يشربُ، فَدَعا بياسرٍ وأدخَلَه فسارَّهُ بشيءٍ ومضى وعادَ. فقامَ المأمونُ وقالَ لي: قمْ. فدخلَ دارَ الحُرَم، ودخلتُ معَه، فسمعتُ غناءً أذْهَلَ عَقْلي ولم أقدرْ أنْ أتقدمَ ولا أتأخرَ، وفَطِنَ المأمونُ لما بي، فَضَحك

---

(١) الأغاني (١٠/ ١١٩).
(٢) الفهرست (ص ١٦٨).
(٣) الأغاني (١٠/ ١٦٦).
(٤) الأغاني (١٠/ ٢٠٠).

ثم قالَ: هذه عمّتُك عُليّة تَطارِحُ عمَّكَ إبراهيم: ما لي أرى الأبصارَ بي جافية. والصَّوت هو:

مَا لي أَرى الأَبْصَارَ بي جَافِيَهْ ... لَمْ تلتفِتْ منّي إلى نَاحِيه

لا يَنْظُرُ النَّاسُ إلى المُبْتَلى ... وإنَّما النَّاسُ مَعَ العَافِيه

وقَدْ جَفَاني ظَالماً سيِّدي ... فأَدْمُعي مُنْهلَّةٌ هَامِيه

صَحْبي سَلُوا ربَّكم العافِيَهْ ... فَقَدْ دهتِني بَعْدَكم داهِيه

الشِّعرُ والغِناءُ لعُلية بنتِ المهديّ[1].

ولكنَّ الصَّوليَ يوردُ أبياتِ عُليةَ على النّحو التَّالي بنفسِ الوزنِ والقافيةِ، ولكنْ بألْفَاظٍ أخرى:

أَهْلي سَلُوا ربَّكمُ العَافِيهْ ... فَقَدْ دهَتْني بعدكُمْ دَاهِيه

فارقَني بعدَكُم سيِّدي ... فَعَبْرتي منهلّةٌ جَارِيه

مَا لي أرى الأبْصارَ بي جافيه ... ما تَنْثَني منّي إلى ناحِيَه

ما ينظرُ النَّاس إلى المبتلى ... وإنَّما النَّاسُ معَ العافِيه[2]

* هذا ولعليةَ أخبارٌ أخرى كثيرةٌ معَ أخيها إبراهيم، ومع الرَّشيد وبعضِ الجواري، وكلُّ هاتيكم الأخبار يحومُ حولَها الشَّكُّ، وتتّسمُ بالضَّعْفِ والوهنِ.

عليّةُ وَأَخُوهَا يَعْقُوب:

* كانَ للمهديِّ عشرةُ أولاد ذكُور من أشهرهم: موسى الهادي، وهارون الرّشيد، وإبراهيم، ويعقوب...

* ويزعُمُ الأصبهانيُّ أنَّ يعقوبَ هذا، كانَ مِنْ أحْذَقِ النّاسِ بالزَّمْرِ، وبهذا يخْلُصُ النَّاس منْ كلامِ الأصْبَهانيّ بأنَّ عُلَيَّةَ وأخَواها إبراهيمَ ويعقوبَ يؤلِّفُون جماعةً موسيقيةً راقيةً منْ أولادِ الخُلفاء، عرفَتْهم قُصور الأُمَراءِ

---

(١) الأغاني (١٠/ ١٣١) بتصرف يسير.
(٢) الأوراق (٢/ ٧٨).

والخُلفَاء في العَصْر الذَّهبيّ للخلافةِ العبّاسيّة.

وعن علاقةِ عُليةَ بأخيْها يعقوبَ هذا، وأخيها إبراهيم يروي الأصبهانيُّ قصَّةً عنْ عميدة الغناءِ العبَّاسي، عَرِيب[1] التي قالت: أحسنُ يومٍ رأيتهُ وأطيبُه، يومٌ اجتمعتُ فيهِ مع إبراهيم بنِ المهدي عند أختِهِ عُليَّة، وعندهم أخوهُم يعقوب، وكانَ أحْذَقَ النَّاسِ بالزَّمْرِ، فبدأتْ عُليةُ، فَغَنَّتْهُم منْ صَنْعَتِها، وأخوها يعقوبُ يزَمّرُ:

تَحَبَّبْ فَإنَّ الحبَّ داعيةُ الحبِّ   وكَمْ منْ بعيدِ الدَّار مستوجبُ القُربِ

وغنّى إبراهيمُ في صَنْعَتِه، وزمّرَ عليهِ يعقوب:

يا وَاحِدَ الحبِّ ما لي منْكَ إذْ كَلِفَتْ   نَفْسي بحبِّكَ إلاّ الهمُّ والحَزَنُ
لمْ يُنْسنيْكَ سرورٌ لا ولا حَزَنٌ   وكيفَ لا! كيفَ يُنْسى وجهُك الحسنُ

---

(١) عَرِيب: عَرِيب المأمونية. كانتْ عَرِيبُ مغنيةً حسنةً، وشاعرةً صالحةَ الشِّعْر، وكانت مليحةَ الخطِّ والمذهبِ في الكلامِ، ونهايةً في الحُسْنِ والجمالِ والظّرفِ، وحسنِ الصَّوت، وجودة الضّرب، وإتقانِ الصَّنعة والمعرفة بالنّغم والأوتار والرّواية للشّعر، لم يتعلقْ بها أحدٌ منْ نظرائها، ولا رُئي في النّساءِ ـ بعد القيان الحجازياتِ مثل جميلة وعزّة الميلاء وسلامة الزّرقاء ومَنْ جرى مجراهنّ على قلّة عددهن ـ نظيرٌ لها.
وكانَ فيها منَ الفضائلِ ممّا لا يكونُ في جواري الخُلفاء مثلهَا، ولا مَنْ نشأ في قُصور الخلفاءِ والأمراء؛ رُوي عن حمّاد بن إسحاقَ قال: قال أبي: ما رأيتُ امرأةً أضربَ منْ عَريبِ، ولا أحسنَ صنعةً ووجهاً، ولا أخفَّ رُوحاً، ولا أحسنَ خِطاباً بارعاً، ولا أسرعَ جواباً، ولا ألعبَ بالشّطرنجِ والنّرد، ولا أجمعَ لخصلةٍ حسنةٍ لم أرَها في امرأةٍ غيرها قطّ.
وقد اختُلِفَ في نَسبِها وسنّها، فقيل إنّها ابنةُ جعفَر بن يحيى؛ وأمّها تُسمّى فاطمة، وماتَتْ في حياةِ جعفر، فدفعها إلى امرأةٍ نصرانيةٍ فلما حدثَتْ نكبةُ البرامكةِ باعتْها للنخّاسين.
ولعَريب أخبارٌ كثيرةٌ استوفتها المصادر. انظر مثلاً (نهاية الأرب ٥/ ٩٤ ـ ١١١).
ومنَ العجيبِ أنْ ننقلَ أخبارَ عُليّة وأولادَ الخُلفاء عن عَريب التي قرأنا صِفتها، وأنّها كانتْ منْ أعاجيبِ النَّاس، فلا غرابةَ أنْ تصلنا الأخبارُ على غير حقيقتها.!!

ولا خَلا منْك قَلبي لا ولا جَسَدي   كُلّـي بِكُلِّـكَ مَشْغُـولٌ ومُـرتَهَـنُ
نـورٌ تـولَّـدَ مـنْ شمسٍ ومـنْ قَمـرٍ   حتّـى تكـامـلَ منـه الـرُّوحُ والبـدنُ

فما سَمِعْتُ مثْلَ ما سمعْتُه منهما قطّ ، وأعلم أنّي لا أسمعُ مثلَه أبداً[1].

* وهناك أخبارٌ أخرى عن عليّةَ ويعقوبَ ذكرتْها بعضُ المصادر الأخرى ، وتَظْهَرُ فيها عليةُ شرَّابةً منَ الدرجةِ الأُولىٰ ، ويعقوبُ منْ أحسنِ النَّاس جميعاً زَمراً وضَرباً ، ومنَ العجيبِ أنَّ الذي يروي هذا الخبرَ جارية تُدعىٰ جلنار[2].

قصَـصٌ مَـكْـذُوبَــةٌ فـي سِيْـرَة عُـلَيَّــةَ :

* كثيرةٌ هيَ القَصَصُ والأخبارُ والحكاياتُ التي نُسِجَتْ وصُنِعَتْ ونُسِّقَتْ لتوضعَ في جَبينِ سيرِ أعْلاَم النُّبَلاءِ من الرِّجال والنِّساءِ ، وذلك لمآربَ في نفوسٍ أولئك الذينَ يحيكونَ الأخبارَ الشَّائِهَةَ ، ليلصقُوها في فُضَلاءِ الرِّجالِ ، وفضْلَيات النِّساء.

* وضيفةُ حلقتنا اليومَ إحدى النِّساء اللواتي نالهُنَّ الأذىٰ ، وذلك بنصيبٍ وافرٍ منَ الأشْعارِ والقَصَصِ المزعومةِ التي تُنافي التَّاريخَ والواقعَ والعاداتِ ، ناهيكَ بمكانِتها الاجتماعيةِ ، وموضعِها في بيتِ الخلافةِ التَّليد العريقِ ، ثمَّ أخلاقُها الفاضلةُ وطهرُها وعفافُها ، وكلّ ما نشأَتْ عليه من صالحِ الأعمالِ والأقوالِ والآثارِ.

* ولستُ أزعمُ أنَّ عليةَ منَ المعصوماتِ ، ومنَ كوامِلِ النِّساءِ اللائي حُزْنَ كلَّ فضيلةٍ ، هي أو غيرُها منْ نساءِ قصورِ الأُمَراء ، أو ممن نَظَمْتُهُنَّ في هذهِ الموسوعةِ ، وقد يكونُ لعليةَ أو لغيرِها بعضُ السَّقَطات الطفيفةِ التي لا تؤثِّر في حياتِها ، ولا تخدِشُ عفافَها أو تلوِّثُ صيانتَها[3] ، فالإنسانُ خَطَّاءٌ ،

---

(١) الأغاني (١٠/ ١١١و٢١٢).
(٢) انظر كتاب: قطب السرور في أوصاف الخمور (ص ١٠ ـ ١٢) لأبي إسحاق إبراهيم.
(٣) ذكرَ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ عُليَة كانتْ أديبةً شاعرةً ، عارفةً بالغناءِ والموسيقا ، رخيمةَ الصَّوتِ. (سيرَ أعْلام النبلاء ١٠/ ١٨٧). أقولُ: وربّما كانتْ تترنّمُ بينها =

. . . .

= وبينَ نفسِها بأشعارِها أو معَ الأشعارِ التي تُنْظَمُ لها ، أو تترنمُ مع جواريها ، وهذا لا شيءَ فيه .

ـ ومنَ الجديرِ بالذّكرِ أنّه كانَ لها جاريةٌ تدعىٰ «منوسة» كانتْ تغنّي ، وكان صوتُها جميلاً . وقد جاءَ في ترجمةِ منوسة جارية علية بنت المهدي ما مفادُه :

ـ كانتْ منوسةُ ذاتَ حُسْنٍ وجمالٍ ، وبهاءٍ وكمالٍ ، وأدَبٍ مالَهُ مِثَال ، تعلّمتِ الغناءَ حتى صارت أحسنَ المغنّين والمغنيات ، وساعدها على ذلك صوتُها وحدّة ذِهْنِها ، وشدّة استحضارِها ، وكانت تختلفُ إلى الأميرِ محمّد بنِ عبد الله بن طاهر ، وترتاحُ لمنادمتِه ، وهو يشتاقُ لسماعِ صوتها .

ـ وكانتْ منوسةُ تحضرُ مجالِسَه ، وتغنّيه بشعرِ أبي العتاهية وأبي نُواس وغيرهما ، وقد حضرَ مجلس غنائه مرّة ماني الموسْوَس ، وغنّتهم منوسة ، وطربَ ماني فأنشد :

ظبيــةٌ كــالغــزالِ لــو تلحـظُ الصَّخـ ـــرِ بطـــرفٍ لغـــادرَتْـــه هَشِيمـــا
وإذا مــا تبسَّمــتْ خِلْــتَ مــا تبــدّى مـــنَ الثَّغْـــرِ لـــؤلـــؤاً مَنْظُـــومـــا

فاستحسنَ الأميرُ محمّد بن عبد الله ذلك منه وقال له : أَجِزْ :

لـــم تَطِـــبِ اللـــذاتُ إلا لمـــنْ طـــابـــتْ لـــه لـــذّات منـــوســـه
غنّـــتْ بصـــوتٍ أطلقَـــتْ عبـــرةً كـــانـــتْ بحســـنِ الصَّبـــر محبـــوســـه

فقال ماني :

وكيــف صَبــرُ النَّفــسِ عــن غــادةٍ تظلمهـــا إنْ قلـــتَ طـــاووســـه
وجُـــزْتَ إنْ شبهتهـــا بـــانـــةً فـــي جنّـــةِ الفـــردوسِ مغـــروســـه
وغيـــرُ عَـــدْلٍ إنْ قـــرنّـــا بهـــا لـــؤلـــؤةً فـــي البحـــرِ منفـــوســـه
جلَّـتْ عــن الــوصــفِ فمــا فكــرةٌ تلحقهـــا بـــالنّعـــتِ محســـوســـه

فشكرتْهُ منوسة ، ثم انصرفَ ماني عنْ ذلك المجلسِ ، بعد أنْ وصَلَه الأميرُ بِصلاته إلى أن ماتَ .

وبقيتْ منوسة معززةً مكرمةً في منزلِ عُليّة بنة المهدي إلى أنْ ماتَتْ بعدما عمّرت ، ولم يتغيرْ شيءٌ منْ صوتِها وجمالِها . (الدر المنثور ص ١١٤ ـ ١١٦) و(الأغاني ٢٣/ ١٩٣ ـ ١٩٥) ، و(بدائع البدائه ص ١٤٢ ـ ١٤٧) بتصرف . أقول : ولعلَّ بعضَ الأخبارِ قد اختلطتْ فنُسبَتْ إلى عليةَ بدلاً منْ جاريتها ، وربما نُسبت عمداً إلى عليةَ ليُسَاءَ إلى سيرتِها . والله أعلم .

ولكنَّ هناكَ بعضُ الأمورِ وبعضُ القَصصِ قد شبَّتْ عن طوقِ الحَقائِق ، وَرَبَتْ عنِ المعقولِ ، وفي ظاهِرها وباطنِها الإساءةُ والجرحُ والحطُّ منْ شَأْنِ عُليةَ وحرائر النِّساءِ اللاتي شَهِدَ التَّاريخُ بفضلِهنَّ ، بل وشهدَ عظماءُ التَّاريخ بمكارمهنَّ وخلالهنَّ الحِسَان.

* وقَدْ حِيكَتْ كثيرٌ منَ القَصَصِ حولَ عُليّةَ ، وكثيرٌ منْ هذه القَصصِ يحوُم حولَها الشَّكُّ ، حيثُ فيها إساءةٌ لِعليّةَ ولمَنْ حولَها منْ أكابر خُلفاءِ الدّنيا كأخيْهَا هارونَ الرشيدِ الذي زعموا أنَّه كان مُعْجَباً بغنائِها وجودتَهِ ، وزعموا أيضاً أنَّه سَمِعَ مرَّةً غناءَها بِطَلَب منه ، ولشدّة طربهِ أمَرَها أنْ تكرِّرَ الغناءَ ، وهو يشربُ أرطالاً ، ثمَّ يقومُ فيقبِّلُ رأْسَها ويقولُ مُكْبِراً فنَّها : يا سيّدتي ، هذا عنْدَكِ ولا أعْلم!!.

* ومنَ العجيب حقّاً أنَّ هذه الأكذوبة البلهاءَ قد رُويت مرتَيْن ، الأولى يكون الرّشيدُ معجباً بها ، وفي الثَّانية يقتلها الرشيدُ شرَّ قتْلَة؛ وسنتعرفُ خبرَ القصتَيْن في السطور التَّاليات ، كيما نكتشفَ التّزوير على أكابرِ خَلْق الله ، وهاكم الأكذوبة الأولى.

إعْجَابُ الرَّشيدِ بغنَاءِ عُليةَ:

* في أغانيهِ يزعُمُ أبو الفرج الأصبهانيُّ أنَّ عليّةَ بنةَ المهدي كانتْ في أوَّلِ أمرِها تَصْنَع الشِّعْر ، ثمّ تغنّيه سِرّاً ، فلا يطّلعُ على ذلكَ إلا خواصّ جواريها وخلصائهنّ ، أو أعلياء المغنّين عَصْر ذاك من مثل : إبراهيم الموصليّ ، أو ابنه إسحاق ، كما زَعم أنَّ عُلَيَّةَ لم تَجْهَرْ بفنِّ الغِنَاء إلاّ بعْدَ أنْ تناقلَ النَّاسُ أشعارَهَا وألحانَها العِذَاب.

* فقد روىٰ الأصبهانيُّ ما محصّلُه ومفادُه أنَّ هارونَ الرَّشيد قد انتبَه مرّةً في نصْفِ الليلِ ، فقال : هاتُوا حِماري؛ فأُتيَ بحمارٍ كانَ له أسود يركبُه في القَصْرِ قريبٌ منَ الأرض ، فركبَهُ ، وخرجَ وعليه بُرْدٌ موشّىٰ ، وقد تلثّمَ بعمامةٍ موشّاة أيضاً ، وخرجَ بين يديه مئةُ خادمٍ أبيضَ سوىٰ الفراشين ، ثمَّ أمرَ بَعْضَ الخدم بِالسَّعي بين يديه ، وخرجَ منْ دارهِ ، فلم يزلْ سَائراً بالليلِ

حتى دخلَ على إبراهيم الموصلي ، فتلقّاه وقبَّل حافِرَ حمارِه وقال: يا أميرَ المؤمنين ، جَعَلنِي اللهُ فداءَك أفي مثْلِ هذه السَّاعة تظهر؟!

قال: نعم يا إبراهيم ، شوقٌ طرَقَ بي.

* وجلسَ الرّشيدُ ، فَنَظرَ إلى مواضعَ قد كان فيها قومٌ ، ثم مضُوا ، ورأىٰ عِيْداناً كثيرةً ، فقال: يا إبراهيم ما هَذا؟ فجعل إبراهيمُ يدافعُ وقد ظَهَرَ عليه الارتباكُ والإحراجُ والوجَلُ. فقال الرشيدُ: ويلك يا إبراهيمُ اصدقني القَول.

فقال إبراهيمُ: نعم يا أميرَ المؤمنين ، جاريتان أعلِّمهما ألحاناً من الغِنَاءِ وأَصْواتاً جديدةً صَنَعْتُها في هذهِ الأيّام.

قال الرَّشيدُ: ويحكَ ، عجِّل وهاتِهما.

فأحضرَ جاريتَيْن ظريفَتيْن ، وكانتِ الجاريتان لعُليّة بنتِ المهديّ بعثَتْ بهما يُعلّمُهما الغناءَ ويطرحُه عليهما.

فقالَ الرَّشيدُ لإحداهما: غَنِّي. فَغَنّتْ:

بُنِـيَ الحـبُّ علـىٰ الجَـوْرِ فَلـو ... أَنْصَـفَ المعْشـوقُ فيـهِ لَسَمُـجْ
ليسَ يُسْتَحْسَنُ في حُكْمِ الهوىٰ ... عـاشِـقٌ يُحْسِـنُ تـأْليـف الحُجَـجْ
لا تَعِيْبَـنْ مِـنْ محـبٍّ ذِلّـةً ... ذلَّـةُ العـاشـقِ مِفْتَـاحُ الفَـرجْ
وقَليـلُ الحـبِّ صِـرْفـاً خَـالِصـاً ... لـكَ خَيْـرٌ مـنْ كثيـرٍ قـد مُـزِجْ

فأَحْسَنَتِ الجاريةُ إحْساناً شَديداً وجوَّدَتِ الغِناء ، وطرِبَ الرَّشيدُ لها ، وقالَ: يا إبراهيمُ لمن الشِّعْر؟ ما أمْلحَه! ولمن اللحنَ؟ ما أظرفَه!

فقالَ إبراهيمُ: لا عِلْمَ لي.

فقالَ للجاريةِ: لِمَنِ الشِّعر والغِنَاء واللحن؟!

قالت: لسِتّي.

قال الرّشيدُ متعجّباً: ومَنْ تكونُ سِتّك يا جارية؟!

قالت: ستّي عليةُ أختُ أمير المؤمنين.

قال: والشِّعر واللحن؟!

قالت: نَعمْ لها يا سيّدي!.

فأطرقَ الرَّشيدُ ساعةً، ثمَّ رفَعَ رأْسَه إلى الجاريةِ الأخرىٰ، ثمَّ قالَ: غنّي، فَغنَّت:

تحبَّبْ فإنَّ الحبَّ داعيةُ الحُبِّ   وكَمْ منْ بعيدِ الدَّارِ مُستوجبُ القُربِ
تَبصَّرْ فإنَّ حُدِّثْتَ أنَّ أخَا هوىً   نجا سَالِماً فَارْجُ النَّجاة مع الحُبِّ
إِذَا لم يكُنْ في الحبِّ سُخْطٌ ولا رِضاً   فأينَ حلاواتُ الرَّسائِل والكتْبِ

فَطَرِبَ الرشيدُ للغِنَاءِ، وسأَل إبراهيمَ عنِ الشِّعر والغِنَاء فقال: لا عِلْمَ لي يا أميرَ المؤمنين.

فقالَ للجاريةِ: لمن الشِّعْرَ واللحن يا جارية؟

فقالت: لِستّي يا أميرَ المؤمنين.

قال: ومَنْ ستّك؟

قالت: عليةُ أخت أميرِ المؤمنين.

* ثمَّ جاءَتْ صبيّةٌ منْ حاشيةِ إبراهيم، فغنَّتْ:

يا مُورِيَ الزَّنْدِ قَدْ أَعْيَتْ قَوادِحَه   اقبِسْ إذا شئْتَ مِن قَلْبي بمقْباسِ
ما أَقْبَحَ النَّاسَ في عَيني وأسمجَهم   إذا نظرتُ فَلمْ أبصرْكَ في النَّاس

فَطَرِبَ الرشيدُ لغنائِها، واستعادَ الصَّوتَ مِراراً، وشَرِبَ أرطالاً، ثمَّ سألَ الجاريةَ عن صانِعِ اللحنِ، فأمْسَكَتْ، فاستَدْنَاها فتقاعَسَتْ. فأمرَ بها فأُقيمَتْ إليه، فأخبرتْه بشيءٍ أسرَّتْه إليهِ، فدعا بحمارِه، فانْصَرفَ، والتفتَ إلى إبراهيمَ، فقال: ما عليكَ ألاَّ تكونَ خليفةً! فكادتْ نفسُه تخرجُ، فهدَأَ منْ روعِهِ وقالَ لَهُ: احتفظْ بالجاريتَيْن وبهذهِ الجاريةِ أيضاً.

* ثمَّ ركبَ منْ ساعتِه إلى أختِه عُلية فقالَ لها: أحببتُ أنْ أشربَ عندكِ اليومَ؛ فتقدَّمَتْ فيما تُصْلِحُه، وأخَذَا في شأنِهما، فلما أنْ كانَ آخرُ الوقتِ

حَملَ عليها بالنَّبيذِ؛ ثمَّ أخذَ العودَ منْ حِجْرِ جارية فدفَعَهُ إليها ، فأكْبَرتْ ذلك؛ فقال: وتربةُ المهديّ لَتُغَنِّنَّ!

قالَتْ: وما أغنّي يا أميرَ المؤمنين؟!

قالَ: غنّي: بُني الحبُّ على الجَوْر فَلو. . . .

فعلمتْ عُليّةُ أنّه وقَفَ على القصّة وعَلِمها ، فغنَّتْهُ ، فلمّا أتَتْ عليهِ؛ قال لها: غنّي: تحبَّبْ فإنَّ الحبَّ داعيةُ الحبِّ. . . فلَجْلَجَتْ ، ثمَّ غنَّتْه ، فقامَ وقبَّل رأْسَها وقال: يا سيّدتي ، هذا عندكِ ولا أعلمُ ، وتمَّمَ يومَه عندها.

* هذهِ الرّواية[1] تَجْعل الرَّشيدَ مُعجباً بِعُليّةَ ، وأمَّا الرِّوايةُ الثَّانيةُ فَتَجْعَلُ منَ الرَّشيد قاتلاً مُجرماً ، فإلىٰ الأكذوبةِ الثَّانية نَستَجْلي وقائِعها.

الـرَّشيْـدُ يَـقْتُـل عُـلَيَّـةَ:

* وهذهِ أكذوبةٌ أخرىٰ أوردَهَا الجاحِظُ[2] في كِتابِه المنسوبِ إليهِ

---

(١) انظر: الأغاني (١٠/ ٢١٤ ـ ٢١٦) بشيء من التصرف.

(٢) «الجاحظُ»: هو عمروُ بنُ بحر بنِ محبوب ، ويكنى بأبي عثمان ، إمامُ الفُصَحاء والمتكلمين ، الذي ملأتِ الآفاقَ أخبارُه ، وفوائدُه وبيانهُ ، وُلدَ بالبصرةِ ، ونشأَ على حبِّ العِلْمِ والمعرفةِ ، وتأمّل كُتُبَ الفلاسفةِ ، فَسَادَ على المتكلمين بفصاحتِه وحسنِ عبارتِه. ومصنّفاته كثيرةٌ منها: «البيانُ والتّبيين» ، و«الحيوان» ، و«الأمصار» ، و«البخلاء» وأمّا كتابُ «المحاسن والأضداد» فهو منسوبٌ إليه. وله كثيرٌ من الرسائلِ المشحونةِ بأنواعِ الفضائلِ. وله أخبار ظريفةٌ ، ونثرٌ طائلٌ ، ونظمٌ ضعيفٌ ، فمن نثرهِ قولُه: البخلُ والجبنُ غريزةٌ واحدةٌ ، يجمعُهما سوءُ الظّنِ بالله تعالى. وقال: مَنْ قابلَ الإساءةَ بالإحسانِ فقد خالفَ الرَّبَّ في تدبيرِه ، وظنَّ أنَّ رحمتَه فوقَ رحمةِ اللهِ جل ثناؤه ، والنَّاسُ لا يصلحون إلاّ على الثّواب والعِقاب. وقال: مِنْ رسالةٍ: منَ العَدْلِ المحضِ أنْ تحطَّ عن الحاسدِ نصفَ عقابه ، لأنَّ أَلَمَ حسدِه لكَ قد كفَاك شرّ مؤونة غيظه عليك.

ومن شعره قوله:

يطيبُ العيشُ أنْ تلقى حكيماً ... غذاهُ العِلْمُ والفَهْم المصيبُ

فيكشفُ عنكَ حيرةَ كلِّ جَهْلٍ ... وفضْل العِلمْ يعرفُه اللبيب=

«المحاسن والأَضْداد» وهذه القصّة تَجعَلُ الرشيدَ قاتِلاً لعُلية ، وتجعلُها شرَّابةً للخمرِ حتى الثَّمالة ، وأشياءَ أخرى سيطَّلِعُ عليها القارىءُ الكريمُ حيثُ سأوردُها حرفيّاً كما جاءتْ في ذلك الكتاب المزعوم ، ولكي يعرفَ القارىءُ أيضاً مدىٰ الهَزْلِ والإسفافِ في حَبْكَةِ القصّة ، والتَّناقُضِ والمخالفاتِ الشَّرعيّةِ والأدبيّةِ ، بل والاجتماعيةِ التي تَعارَفَ عليها النَّاسُ عَصْر إذْ ، ومنَ العجيبِ أنَّ محقِّقَ الكتابِ لم يعلِّقْ بكلمةٍ واحدةٍ على القصّة؟!! .

* وها نحنُ أولاءِ نوردُ قِصَّة خَنْقِ عُليّةَ بنتِ المهدي علىٰ يَدِ أخيها الرَّشيد ـ لاحظْ قُتِلَتْ خَنْقاً ـ كما وَرَدَتْ في كتاب «المحاسن والأضْداد» ؛ تحتَ عنوان ؛ مساوىء شدّة الغِيرة والعقوبة عليها :

قيل : وطربَ الرشيدُ إلى الغِناءِ ، فخرجَ متنكّراً ومعه خادمُه مسرور ، حتى انتهى إلى بابِ إسحاقَ بنِ إبراهيم الموصلي ، فقال : يا مسرور اقرع البابَ ، فخرجَ إسحاقُ ، فلما رأىٰ الرشيدَ ، انكبَّ على رجلِهِ فقبَّلَها ، ثمَّ قال : إنَّ رأىٰ أميرُ المؤمنين أنْ يدخُلَ منزلَ عبدِه ، فنزلَ الرَّشيدُ ، فدخلَ فرأىٰ أَثَر الدَّعْوةِ ، فقال : يا إسحاقُ إنِّي أرىٰ موضعَ الشُّرب ، مَنْ كانَ عندك؟

قال : ما كان عندي يا أمير المؤمنين سوىٰ جاريتَيَّ كنتُ أطارحُهُما .

قال : فَهُما حاضِرتان؟

قال : نعم .

= سقـامُ الحِـرْصِ ليـسَ لـه شفـاءٌ ... وداءُ الجهـلِ ليـسَ لـه طبيـبُ

وللجاحظِ نوادرُ كثيرةٌ مطربةٌ وجميلةٌ ، وكان أحياناً يتندَّرُ على نفسه ، وقد ذكرَ ذلك في كُتُبهِ ، وكان منقطعاً إلى الوزير محمد بن عبد الملك الزّيات ، ولما قُبِضَ عليه وعُوقِبَ في التّنور ـ وكان ابنُ الزيات قد صنعَه ليعذّب الناسَ فيه ، وكان فيه مساميرُ محمّاة فعُذِّبَ حتى مات ـ هربَ الجاحظُ ، فقيل له : لِمَ هربتَ؟ قال : خفتُ أن أكونَ ثاني اثنين إذْ هما في التّنور. وأخبارُ الجاحظِ كثيرةٌ ، وقد أكثرتِ المصادرُ الحديثَ عنه. توفي سنة (٢٥٥ هـ) بعد أن بلغَ من الكبر عتياً وتجاوز تسعين حجّة. (استُقيتْ هذه الترجمة من بضعة مصادر متنوعة).

قال: فأحضرهُما.

فدعَا الجاريتَيْن، فخرجَتَا معَ إحداهما عودٌ، حتى جَلَستا، فأمرَ الرشيدُ صاحبةَ العودِ أن تغنّي فغنَّتْ:

بُنـيَ الحـبُّ علـىٰ الجَـوْرِ فَلـوْ　　أنصَـفَ المعشـوقُ فيـه لَسَمـجْ
ليسَ يُسْتَحسنُ في وصْفِ الهوى　　عـاشـقٌ يكثـرُ تـأليـفَ الحُجَـجْ
فقَليـلُ الحـبِّ صِـرْفـاً خـالِصَـاً　　هـو خيـرٌ مـنْ كثيـرٍ قـد مُـزِجْ

فقالَ الرشيدُ: يا إسحاقُ لمن الشِّعْر والغِنَاء فيه؟

قال: لا عِلْمَ لي بهِ يا أميرَ المؤمنين.

فنكسَ رأسَهُ ساعةً ينكتُ في الأرضِ، ثمَّ رفعَ رأْسَه وأخذَ العودَ منْ حجرِ هذهِ فوضعَه في حجْرِ الأخرى، ثمَّ قال لها: غنّي، فغنَّتْ:

إنْ يُمسِ حَبْلُكَ بَعْد طُولِ تَواصُلٍ　　خَلَقَـاً وأَصْبـحَ بيتُكـمْ مَهْجُـورا
فلَقْـد أَرانـي والجـديـدُ إلـى بلـىً　　زمنـاً بـوصلِـكَ راضيـاً مَسْـرورا
كنتَ الهوىٰ وأعزَّ مَنْ وطىءَ الحصَىٰ　　عنـدي وكنـتُ بـذاكَ منْـكَ جَـديـرا

فقالَ: يا إسحاقُ لمن الشِّعرَ والغناءَ فيه؟

قال: لا عِلْمَ لي يا سيّدي.

فَرَدَّ المسألةَ على الجاريةِ فقالت: لِستّي.

قال: ومَنْ سِتُّكِ؟

قالت: عليةُ أختُ أمير المؤمنين.

فنكس رأسَهُ ساعةً، ثمَّ وثَبَ وقال لمسرور خادمه: امضِ بنا إلى منزلِ عليةَ. فلما وقفَ بالبابِ قال: استأذنْ يا مسرور، فخرجتْ جاريةٌ، فلما رأتِ الخليفةَ، رجعتْ تبادرُ تُعْلِمُ ستّها، فخرجتْ تستقبلُه وتفدّيه، فقال: يا عُلية، هل عنْدك ما نأكلُ؟

قالت: نعم يا سيّدي.

قال: وما نَشْربُ؟

قالت: نعم.

* فدخلَ وجلسَ، فقدَّمت إليهِ الطَّعامَ، فأكلَ حارّاً وبارِداً ورطباً ويابساً، ثمَّ رُفِعَ الطَّعام، ووُضِعَ الشَّرابُ والطِّيْبُ وأنواعُ الرَّياحين، ودَعَتْ جواريها، وكان عندها ثلاثون جارية يغنين، فألبستهنَّ أنواعَ الثِّياب، وصَفَّتْهُنَّ في الإيوانِ، وتناول الرشيدُ الشَّراب، فأمرَ الجواري يغنين، ثمّ سقىٰ أخْتَه حتّى أخَذَ الشَّراب منها، واحمرَّتْ وجنتاها، وفَتَرتْ أجْفَانُها، وكانت من أَجلِّ النِّساء، فَضَرَبَ الرشيدُ إلى حجرِ بعضِ الجواري فأخذَ العودَ وقال: يا عَلية بحياتي غنّي: بُني الحبُّ علىٰ الجور فلو...

فعلمتْ أنَّها داهيةٌ فبَكَتْ، فصاحَ الرشيدُ، فخرجَ الجواري، وبقيَ هو وهي، فدفعَها، وأخذَ وسادةً فجعلَها علىٰ وجهها، وجلسَ عليها، فاضطربت اضطراباً شديداً ثمَّ بردَتْ، فنحىٰ الوسادةَ عنها وقد قَضَتْ نحبهَا، فخرجَ وقال للخادم: إذا كان غدٌ فادخلْ وَعَزِّني، وركبَ متوجّهاً إلى قَصْره، فلما كان الغدُ، عزّاه مسرور، فبكى وقال:

قَبْــــرٌ عـــــزيـــــزٌ عَلينـــــا	لـــــو أنَّ مـــــا فيـــــهِ يُفْـــدَى
أسْكَنْـــــــتُ قـــــرَّةَ عينــــــي	ومهجـــــةَ النّفـــــسِ لحـــــدا
مـــــا إنْ أرىٰ لـــــي عليهـــــا	مـــــنَ التَّـــــوجُّـــــعِ بُـــــدّا[1]

* هذه هيَ القصَّةُ حرفيّاً، وأنتَ تلاحظُ معي مدىٰ إسْفَافِها، ومدىٰ التَّعريضِ بأعاظمِ خُلفاءِ بني العبَّاس هارونَ الرَّشيد، إذْ يتركُ أمورَ رعيّتهِ، ويستمعُ إلىٰ الجواري اللاتي أخذنَ الألحانَ والغناءَ عنْ أختِهِ عُليّةَ ـ فيما زعموا ـ ثمّ تحملُه غيرتُه أنْ يذهبَ إلىٰ بيتها مع خادِمهِ مسرور، ويدخلَ، ويطلبَ الطَّعامَ والشَّرابَ، وتشربَ معه أختُه، ولما أخذ منهما الشَّرابُ

(١) انظر: المحاسن والأضداد (ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦)، وأرجو القارىء أن يقارن بين القصتين ليدرك كذبهما.

مأخَذَه ، يطلبُ منها أنْ تغنِّيه ، ثمَّ يأمرُ الجواري بالخروجِ ، وعندما يخلو البيت ، يطرحُها أرضاً ثمَّ يضعُ وسادةً علىٰ وجهها ويجلسُ عليها حتى تفارقَ الحياة ، ومنْ ثمَّ يخرجُ ، ويطلبُ منَ الخادمِ أنْ يعزيهِ في الغَدِ ، وكأنَّ شيئاً لم يكن ، وبراءةُ الأَطْفالِ في عينيه.

* وبهذا النَّسْجِ السَّخيفِ ، وذاك الحوار الممجوج تنتهي هذه الأحبولةُ الكاذبةُ التي لا تصلَحُ أنْ تكونَ فلماً سَخيفاً لو قُدِّر أن يُمَثَّل.

ويكفي أنَّ في هذه القصَّةِ إساءةً مزدوجةً إلىٰ الرشيدِ وعليةَ ، وإلىٰ الحطِّ منْ مقامِهما ، ومخالفتِهما العُرْفَ ، ثم يكونُ الرشيد قاتِلاً في النَّهاية؟ واللهِ إنَّ هذا لمن العَجَائِب؟ ومن عجائِبِ الأَكاذيب!!

كِذْبَةٌ أُخْرىٰ تَتَعَلَّقُ بِمَقْتَل جَعْفَر البَرْمَكيّ:

* منَ القَصَصِ المصنوعةِ ، والافتراءاتِ الموضوعةِ ، تلكمُ القصةُ بل الكذبةُ التي أُشيعَتْ عن عُليةَ ، والتي تقولُ بأنَّ الرشيدَ قد زارها مرَّةً ، وبصحبته وزيرُه جعفرُ بنُ يحيى البرمكيّ ، فأمَرَها الرَّشيدُ بالغناءِ ، فغنَّتْه منْ وراءِ ستار ، وما كانَ منَ الرشيدِ إلاَّ أنْ عرَّفَه بها ، وحذَّره منْ ذِكْرِ غنائِها علىٰ لِسَانِهِ ، وإنْ فَعَلَ ذلك فسيكونُ حَتْفُه ، ترىٰ كيفِ صيْغَتْ هذه الأكذوبة البَلْهاء أو في أي مَصْنعٍ للكذبِ نُسِجَتْ؟!!!

* ذكرَ أبو الفرج الأصبهانيّ أنَّ محمَّد بنَ جعفرَ بنِ يحيىٰ البرمكيّ قال: شهدتُ أبي جَعْفراً وأنا صغيرٌ ، وهو يحدِّثُ يحيىٰ بنَ خالد جَدّي في بعضِ ما كان يخبرُه به منْ خَلَواتِهِ معَ الرشيدِ ، قال:

يا أبتِ ، أخذَ بيدي أميرُ المؤمنين ، ثمَّ أقبلَ علىٰ حُجرةٍ يخترقُها حتى انتهىٰ إلىٰ حجرةٍ مُغْلَقةٍ ، فَفُتِحَتْ له ، ثمَّ رجعَ مَنْ كان معنا منَ الخدمِ ، ثم صِرْنا إلىٰ حجرةٍ مغلقةٍ ، ففتَحها بيدِهِ ، ودخَلْنا جميعاً ، وأغْلَقَها منْ داخِلِ بيدِهِ ، ثمَّ صِرْنا إلىٰ رواقٍ فَفَتَحه ، وفي صَدْرِهِ مجلسٌ مُغْلَقٌ ، فَقَعَدَ علىٰ بابِ المجلسِ ، فَنَقَرَ هَارونُ البابَ بيدِهِ نقراتٍ ، فسمعنا حِسّاً ، ثمَّ أعادَ النَّقر ، فسمعنا صوتَ عودٍ ، ثمَّ أعادَ النَّقرةَ ثالثةً ، فغنَّتْ جاريةٌ ما ظَنَنْتُ واللهِ أنَّ اللهَ

خَلَقَ مثْلَها في حُسْنِ الغنَاء وجَوْدَةِ الضَّرب.

فقال لها أميرُ المؤمنين بعد أنْ غنَّت أصواتاً: غنّي صوتي، فغنَّت صوتَه وهو:

ومُخنَّـثٍ شَهِـدَ الـزَّفـافَ وقَبْلَـه غنّـى الجـواري حَـاسِـراً ومُنَقَّبـا
لَبِـسَ الـدَّلالَ وقـامَ ينْقُـرُ دفَّـه نَقْـراً أقـرَّ بـهِ العيـونَ وأطـربـا
إنَّ النِّســـاء رأيْنَـــه فَعَشِقْنَـــه فَشَكـونَ شـدَّةَ مـا بهـنَّ فـأكْـذَبـا

قال: فطربتُ واللهِ طَرَباً هممتُ معه أن أنطحَ برأسي الحائطَ، ثمَّ قال: غنّي: «طال تكذيبي وتَصْديقي»: فغنَّت:

طَــالَ تكْــذِيبــي وتَصْــديقــي لــمْ أجِــدْ عَهْــداً لمخْلُـــوقِ
إنَّ نَــاســاً فــي الهَــوىٰ غَــدروا أحْـــدَثُـــوا نَقْــضَ المــواثيــقِ
لا تَــرانــي بَعْــدهُــم أبَــداً أشْتكـــي عشْقـــاً لمعْشُـــوقِ

قال: فرقصَ الرشيدُ، ورقصتُ معه، ثمَّ قال: امضِ بنا فإنّي أخافُ أنْ يبدوَ منّا ما هو أكثرُ منْ هذا، فمضينا.

* فلمّا صِرْنَا إلىٰ الدّهليز قال وهو قابضٌ علىٰ يدي: أعرفتَ هذهِ المرأةَ؟

قال جعفرُ: لا يا أميرَ المؤمنين.

قال: فإنّي أعلمُ أنَّكَ سَتَسْألُ عنها، ولا تُكْتمُ ذلك، وأنا أخبرُك أنّها عليةُ بنتُ المهدي، واللهِ لئن لفظتَ بهِ بين يدي أَحَدٍ، وبلغَني لأقتلنَّكَ.

قال محمّد بنُ جعفر: فسمعتُ جدّي يقولُ له: فَقَدْ واللهِ لَفَظْتَ به، واللهِ ليقتلنَّكَ، فاصْنَعْ ما أنتَ صانِعٌ[1].

---

(١) الأغاني (١٠/ ١٧٨ ـ ١٨٠)، وعنه نَقَل ابنُ عسَاكر القصّة، انظر مختصر تاريخ مدينة دمشق (٦/ ١٠٢ و١٠٣)، ونهاية الأرب (٤/ ٢٣٦ و٢٣٧). وهذه الأقصوصةُ موضوعةٌ مصنوعةٌ ـ كما ترى ـ فهل يُعْقَل أنْ يكونَ للرشيدِ ألحانٌ تغنّى، ومَنْ يغنّيها؟ أختهُ عليةُ!! ثمَّ هلْ يُعْقَل أنْ يأخذَ به الطَّربُ كلَّ مأخذٍ فيرقصُ وترقصُ أختهُ ثمّ يقول لجعفر: إنّي أخافُ أنْ يبدوَ منّا أكثر من هذا؟ ثم يتوعَّدُ جعفراً البرمكيَ بالقَتْل إنْ تحدَّث بأنّ المغنيَة كانت عُلية؟ والأدهى منْ ذلكَ أنَّ يحيىٰ بنَ خالد والد جَعْفر عرفَ أنَّ ابنَه مقتولٌ لا محالة، ولا ندري مَنْ سبب نكبةِ البرامكة، عُلية أم =

أَكَاذِيْبُ مُتَنَوِّعَةٌ عَلىٰ عُلَيَّةَ :

* لم يكتفِ الوضَّاعُونَ في كذبِهم في القَصَصِ التي أَلْصَقُوها في سيرةِ وحياةِ عليةَ بنتِ المهدي ، وإنَّما نسبُوا إليها أشعاراً متنوّعةً تحملُ معانيَ متعدّدةً ، فقد وَرَدَ أنَّها قد استثقلتْ شَهْرَ الصَّومِ ، وأنشدتْ فيه لحناً وغنَّته الرَّشيدَ في يومِ فطْر ، وأعربتْ عنْ شوقها لمجالسِ الأُنْسِ فَقالَتْ :

طالَتْ عليَّ ليالي الصَّومِ واتَّصَلَتْ حتّى لَقَدْ خِلْتُها زادَتْ علىٰ الأَبَدِ
شَوقاً إلىٰ مجلسٍ يُزْهىٰ بصاحِبِه أعيذُه بِجَلالِ الوَاحِدِ الصَّمَدِ[1]

* وهناكَ قَصَصٌ وأشعارٌ يُشْتَمُّ منها رائحةُ الوضعِ والزُّور منها ، منْ ذلك أنَّها تركتِ الغِنَاء لموتِ أخيها الرشيد كما تركتْ شُربَ النَّبيذِ ، ولكنَّ ابنَ أخيها الأمين ألحَّ عليها ، فعادت وغنَّت على كُرْهٍ منها .

* ومنْ ذلك أيضاً أنَّ ابنَ أخيها إسماعيل بنَ الهادي سَمِعَها تغنّي عند المأمونِ ، فأَذْهَله غناؤها ، وكاد يموتُ طَرَباً من حُسْنِ أدائِها ، وكانت تغنّي بهذهِ الأبْياتِ ـ كما زعموا ـ :

لَيْسَ خَطْبُ الهوىٰ بخَطْبٍ يسير ليسَ ينْبيكَ عَنْه مثلُ خَبير
ليسَ أمْرُ الهوى يُدَبَّرُ بالرَّأْ ي ولا بالقياسِ والتَّفكير
إنّما الأَمْر في الهَوىٰ خَطَراتٌ محدثاتُ الأُمورِ بَعْد الأُمور[2]

* ومنَ القَصَصِ الشَّنيعةِ أيضاً ما ورد بأنَّها حجَّتْ في أيّامِ الرَّشيد ، ولما قَضَت مناسِكَها ، ومسحتْ بالأركانِ مع مَنْ هو ماسِحٌ ، ضُرِبَتْ آباطُ الإبلِ ، وانصرفتْ عائدةً إلىٰ بغدادَ دارَ السَّلام ، ولكنَّها أقامتْ أيّاماً بِمُتَنَزَّهٍ بينَ الكوفةِ والقادسيّةِ كان منْ أَنْزَهِ المواضعِ وأجملِها ، ويُدعىٰ هذا المُتَنَزَّهُ

= العبّاسة أم ماذا؟ ولا ننسى أنَّ راوي القصّة محمد بن جعفر موتور حاقد .

(١) الأغاني (١٠/ ١٨٣ و١٨٤). وتفوح من البيتين رائحة الذكورة .

(٢) المصدر السابق عينه (١٠/ ١٨٥) ، وانظر زهر الآداب (٢/ ٧٢٥).

طيزنَابَاذ[1] ، وكان يُقْصَدُ للهو وقضاءِ الفَراغ ، فلمَّا عَلِمَ الرشيدُ ذلك ، غَضِبَ ولكنَّ عليةَ أنشأتْ تقولُ:

أَيُّ ذنْـــبٍ أَذنَبْتُـــه أيُّ ذَنْـــبِ   أيُّ ذنْـبٍ لـولا رَجَـائـي لـربّـي
بِمقَـامـي بطِيـزَنـابـاذَ يـومـاً   بَعْـدَه ليلـةٌ علـىٰ غيـرِ شُـرْبِ
ثـمَّ بـاكـرتُهـا عُقَـاراً شَمُـولاً   تَفْتِـنُ النَّـاسـكَ الحليـمَ وتُصْبِـي
قـرقفـاً قهـوةً تـراهَـا جهـولاً   ذات حلْـمٍ فـرّاجـة كـلَّ كَـرْبِ

وعندما سَمِعَ الرشيدُ الشِّعَر واللحن رضيَ عنها[2].

---

(١) «طيزَناباذ»: قريةٌ بينَ الكوفةِ والقادسيةِ على جادَّةِ الحاجّ ، منْ أنْزَهِ المواضع ، وهي محفوفةٌ بالكروم والأشجار والخاناتِ والمعَاصِر ، كانتْ أحدَ المواضع المقصوَدةِ بالبطالةِ ، والآن خرابٌ ، لم يبقَ بها إلا قبابٌ يسمّونها قبابَ أبي نواس ، قَال أبو نُواس:

قـالـوا تَنَسَّـكَ بَعْدَ الحـجّ قُلْتُ لَهـم   أرجـو الإلـهَ وأَخْشَـىٰ طيـزَنَـابَـاذَا
أخشـىٰ قُضَيّـبَ كَـرمٍ أنْ ينـازعنـي   رأسَ الحطـام إذا أسْـرعـتُ إغْـذَاذَا
فـإنْ سلمـتُ ومـا نفسـي علـى ثقـةٍ   مـنَ السَّـلامـةِ لـمْ أسلـمْ ببغـذَاذَا

وقال محمدُ بنُ عبد الله: قدمتُ من مكةَ ، فلما صرتُ إلىٰ طيزناباذ ذكرتُ قولَ أبي نواس:

بطيـزنـابـاذَ كـرمٌ مـا مَـررتُ بـه   إلا تعجبـتُ ممـن يَشْـربُ المـاءَ
إنّ الشَّـرابَ إذا مـا كـانَ مـن عِنْـبٍ   داءٌ وأيُّ لبيـبٍ يشـربُ الـدَّاءَ

فهتف بي هاتف أسمع صوته ولا أراه:

وفـي الجحيـمِ حَميـمٌ مـا تجـرَّعـه   خَلْـقٌ فـأَبْقـىٰ لـه فـي البَطْـنِ أمعـاءَ

(آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤١٧ و٤١٨) و(معجم البلدان ٣/ ٥٤ و٥٥) مع الجمع والتصرف.

وقال ياقوتُ الحموي: طيزناباذ: الذي يظهرُ لي في اشتقاقه وسبب تسميته بهذا الاسمِ أنَّه منْ عمارةِ الضّيزن والد النَّضيرة بنتُ الضَّيزن ملكُ الحَضْر ، وأن الفرسَ ليسَ في كلامِهم الضَّاد ، فتكلموا بها بالطّاء فغلبَ عليها ، ومعناهُ: عمارةُ الضيزن.

وقال ابنُ الفقيه: وكانتْ طيزناباذ تُدعى: ضيزناباذ ، منسوبة إلىٰ ضَيزن بنِ معاوية بن عبيد السّليحي. (البلدان ص ٢١٨).

(٢) الأغـانـي (١٠/ ١٨١ و١٨٢) بتصـرف يسيـر ، وانظـر: أشعـار أولاد الخلفـاء (ص ٥٩) ، وشاعرات العرب (ص ٢٦٤).

* وهكذا وبسهولةٍ يرضىٰ الرشيدُ عن علية ، ولو كانَ في ذلك سخْط اللهِ عَليه ـ إنْ صَحَّتِ القصَّةُ ـ ثمَّ تُظْهِرُ عدمَ مبالاةِ عُليّة بالدِّين ، وأنَّها عندما قَفَلَتْ منْ حجّتها عاقرتِ الخمرةَ التي تَفْتِنُ النَّاسِكَ الحليمَ ، وتعيدُه إلى أيّام الشَّبابِ! ! وتفرّجُ الكروبَ! واللهُ المستعانُ علىٰ ما يصنعون.

هَلْ تَستَخِفُّ عُلَيّةُ والرَّشِيْدُ بالدِّيْنِ؟ :

* منَ المثيرِ والمُلفتِ للنَّظر أنَّه قد وَرَدَتْ عدّةُ قَصَصٍ عن عليةَ بنتِ المهدي ، وفيها شيءٌ منَ الاستخفافِ والاستهانةِ بأمورِ الدِّينِ ، ويسمعُ الرشيدُ ذلك فيسامحُها ، بل ويشجِّعُها علىٰ المُضي في سبيلِ الهوىٰ والغيِّ ، ناهيكَ بالتَّغزُّلِ الفاضح .

* ولكي نعرفَ أنَّ تلكم القَصَصَ والأخبارَ والأشعارَ مصنوعةٌ ومدسوسةٌ في سيرةِ الرشيدِ وعليةَ ، تعالوا نستمعْ إلىٰ شهاداتِ علماء المؤرّخين ، وأكابرِ العلماءِ في الرَّشيدِ ، وشدَّة غيرته علىٰ الدِّين ، وتعصُّبهِ للدّيانَةِ .

* وممن تحدَّثَ عَنِ الرَّشيد وشَهِدَ له بحسنِ التَّديُّن الماوردي حيثُ قال : وكانَ هارونُ الرَّشيدِ متديّناً ، شديدَ التَّعصُّب للإسلام والدِّيانةِ ، ظاهرَ الشَّهامةِ ، جَلْداً في السِّياسةِ والحكمةِ ، ذابّاً عن أركانِ الملة[1] .

* وفي مقدمته النَّفيسةِ ردَّ ابنُ خلدون علىٰ أولئك الذينَ يلوّثُون ويشوهونَ سيرةَ الرَّشيدِ ، فقال : فحاشَا للهِ ما عَلِمْنَا عليهِ منْ سُوء ، وأينَ هذا منْ حالِ الرَّشيد وقيامِهِ بما يجبُ لمنصبِ الخلافةِ منَ الدِّينِ والعَدالة ، وما كانَ عليهِ منْ صَحَابةِ العلماء والأولياءِ ، ومحاوراتِه للفُضيل بنِ عياض ، وابنِ السَّمَاك ، والعمريّ ، ومكاتبته سفيانَ ، وبكائِه منْ مواعِظِهم ، ودعائِهِ بمكةَ في طوافِهِ ، وما كانَ عليه منَ العبادةِ ، والمحافظةِ علىٰ أوقاتِ الصَّلاة وشهودِ الصُّبح لأوَّلِ وقْتِها[2] .

---

(١) نصيحة الملوك للماوردي (ص ١٣٧).

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص ١٧).

* وفي «سِيَرِهِ» قال الذَّهبيُّ: وكانَ منْ أَنْبلِ الخُلفَاء، وأحْشَمِ الملوكِ، ذا حجٍّ وجهادٍ، وغزوٍ وشجاعةٍ ورأي. . . وكان يحبُّ العلماء، ويعظِّمُ حرماتِ الدِّين، ويبغضُ الجدلَ والكلام[1].

* وقالَ الذَّهبيُّ أيضاً: ومحاسنُه جمَّةٌ.

* وأمَّا ابنُ كثيرٍ فقال عنه: روىٰ الحديثَ عنْ أبيهِ وجدِّه، وحدَّثَ عنِ المباركِ بنِ فَضَالةَ عنِ الحسنِ عنِ أنس بنِ مالك، وقد حدَّث عنه ابنُه وسُليمان الهاشميّ والدُ إسحاقَ، وبنانةُ بنُ عمرو[2].

* وقال عنه صاحب «الفخري»: كانَ الرشيدُ منْ أفَاضِلِ الخُلفاء ونُصَحائِهم وعلمائِهم وكرمائِهم[3].

* وبعدَ هذا السَّيْلِ منَ الثَّنَاءِ علىٰ الرشيدِ، وامتداحِ الأماثل له، نودُّ أنْ نشيرَ إلىٰ أن الرشيدَ ـ رحمه الله ـ كان غَيوراً علىٰ الدِّينِ، حتى كادَ مرَّة أنْ يبطشَ بعمه.

* وقصَّةُ ذلك أنَّ أبا معاويةَ قد حدَّث الرَّشيدَ يوماً عن الأعمشِ عن أبي صالح، عن أبي هريرة بحديثِ احتجاجِ آدمَ وموسىٰ، فقال عمُّ الرّشيد: أينَ التقيا يا أبا معاويةَ؟!

فغضبَ الرشيدُ غَضَباً شديداً وقال: أتعترضُ علىٰ الحديثِ؟ عليَّ بالنِّطْعِ والسَّيف؛ فأُحْضِرَ ذلك، فقامَ النَّاسُ إليه يشفعونَ فيه. فقالَ الرشيدُ: هذه زَنْدَقَةٌ، ثمَّ أمرَ بسجنِهِ؛ وأُقْسِمُ ألا يخرجَ حتى يخبرَني مَنْ ألقىٰ إليه هذا، فأقسمَ عَمُّهُ بالأيمانِ المغلَّظَة ما قالَ هذا له أحدٌ، وإنَّما كانتْ هذهِ الكلمةُ بادرةً منّي، وأنا أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ منها، فأطْلَقَه.

* ومنْ شِدَّةِ غيرةِ الرشيدِ علىٰ الدِّينِ، ما زَجَرَ به ابنُ أبي مريمَ، وكان

---

(١) سير أعلام النبلاء (٩/ ٢٨٧) بتصرف.

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٢٢٢).

(٣) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (ص ١٩٣).

يضحِكُه؛ وكانَ ابنُ أبي مريم هذا، عنده فضيلةٌ بأخبارِ الحجازِ وغيرِها، وكانَ الرَّشيدُ قد أَنْزَله في قَصْرِه وخَلَطَه بأَهْلِهِ، فَنَبَّهَهُ الرشيدُ يوماً إلىٰ صلاةِ الصُّبح، فقامَ متوضئاً، ثمَّ أدركَ الرَّشيدُ وهو يقرأُ ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢]، فقال ابنُ أبي مريم: لا أدري واللهِ؟! فَضَحِكَ الرَّشيدُ، وقَطَعَ الصَّلاة، ثمَّ أقبلَ عليه وقال: ويحكَ اجتنبِ الصَّلاة والقرآنَ، وقُلْ فيما عَدا ذلك[1].

* أفبعدَ هذا كلِّهِ يتساهلُ الرشيدُ مع عُليةَ في الدِّينِ في القصَّةِ المكذوبةِ عليهما؟! فقد ذكرتِ المصادرُ أنَّ عُليةَ كانت تحبُّ أنْ تراسلَ بالأشعارِ مَنْ تختصُّه، فاخْتَصَّتْ خادماً يقال له: «طَلّ» منْ خَدمِ الرَّشيدِ، فكانتْ تراسلُه بالشِّعر، فلم تَرَهُ أيّاماً، فَمَشَتْ علىٰ ميزابٍ وحدَّثَتْه، وقالتْ في ذلك:

قَدْ كانَ ما كُلِّفْتُه زمَناً ... ياطَلُّ منْ وجْدٍ بكم يكْفِي
حتّى أتيتُكَ زائراً عَجِلاً ... أَمشي علىٰ حَتْفٍ إلىٰ حَتْفِ

فحلفَ عليها الرَّشيدُ ألاّ تكلّمَ طَلاًّ، ولا تسمّيه باسمِهِ، فضمِنَتْ له ذلك، واستمعَ إليها يوماً وهي تدرسُ آخِرَ سورة البَقرة حتى بَلَغَتْ إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وأرادتْ أنْ تقول ﴿فطلّ﴾، فقالتْ: فالذي نهانا عنه أمير المؤمنين! فدخَلَ فقبَّلَ رأْسَها وقال: قد وهبتُ لكِ طَلاًّ، ولا أمنعُك بَعْدَ هذا منْ شيءٍ تريدينه[2].

* وأقولُ للقارىء الكريم: كيفَ نوفّقُ بينَ هذه القصَّة المزعومة، وأخلاقِ الرشيد[3]، وأخلاقِ عُليَّة؟ وهل يُعْقَل أنْ تَعْشَقَ أميرةٌ حسيبةٌ

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٢٢٣).

(٢) الأغاني (١٠/ ١٦٣ و١٦٤)، ونزهة الجلساء (ص ٦٤)، ونهاية الأرب (٤/ ٢٣٣)، والدر المنثور (ص ٣٤٩)، وزادَ الحُصري على هذه الرّواية بأنَّ الرشيد كان قد قَتل طلاًّ. (نور الطرف ص ٢٤٤).

(٣) إنَّ رجلاً منْ عامّةِ النَّاسِ لا يرضىٰ بهذا، فكيفَ بعُلية أو الرشيد؟! ومما يُستجادُ ذكْره في هذا المجال ما جاءَ عند ابنِ الفقيه قال: مَرَّ خليلُ النَّاسكِ بغرفةِ مخلَّد =

خادماً؟! هذا فقط في عُرْفِ الوضّاعين والمغرضين. ومنَ المضحكِ أنَّ راوي القصّة وصانعَها زعمَ بأنَّ الرَّشيدَ قد تركَ الحَبْلَ على الغاربِ لعليةَ وقال: لا أمنعُك بَعْدَ هذا من شيء تريدينه! وقال أيضاً: وقد وهبتُ لكِ طلاًّ[1].

* ويبدو أنَّ عليةَ ـ كما أراد الوضّاعون ـ لم ينفعْها تساهلُ الرشيدِ معها، فقد حُجِبَ عنها طَلٌّ مرّةً أوّلَ ما أحسَّ الرشيدُ، فقالتْ فيه شِعْراً وصحَّفَتْ اسمه لكيلا يفطَنَ إليها أحدٌ، فَنَقَلَتْ «طلّ» إلى ظِلّ وقالت:

أيـا سَـروةَ البُستَـانِ طَـالَ تشـوُّقـي   فَهَلْ لي إلىٰ «ظلٍّ» لديكِ سَبيلُ
متَىٰ يلتقي مَنْ ليسَ يُقْضَىٰ خروجَه   وليـسَ لمـن يهـوىٰ إليـهِ دخُـولُ
عَسىٰ اللهُ أنْ نرتاحَ منْ كربةٍ لنَا   فيلقـىٰ اغْتبـاطـاً خلّـة وخليـلُ
عسىٰ اللهُ أنْ يُـرْتـاحَ منه بـرحمـةٍ   فيُشْفى جوىً منْ مُدنَفٍ وعويلُ[2]

* هذا وليعلمِ القارىءُ الكريمُ أنَّ فنَّ التَّصحيف لم يكنْ قدَ استوىٰ على

= الموصلي الشّاعر وهو لا يعرفُه فسمعَه يقول:

أسأتُ ولـمْ أحسنْ وجئتُـك هَـارباً   وأنّـى لعبـدٍ غيـرَ مـولاه مهـربُ

فوقف خليلُ ومخلَّد يردِّدُ البيت ويبكي، وخليلُ يبكي معه، ثمَّ ناداه: يا قائلَ الخيرِ عُد، يا سائِلَ الفَضْل زِدْ.

فقال مخلَّد: نعم وكرامة يا أبا محمّد:

غــزالٌ إذا قبَّلْتَــه ولَثمْتَــه   رَشَفْـتَ لـه ريقـاً مـنَ الشَّهْـدِ أطيـبُ

فقال خليل: سقاكَ اللهُ حميماً وغسَّاقاً.

ثم قال: اللهمّ لا تؤاخذني بهذا الموقفِ ومضىٰ. (كتاب البلدان ص ١٠٠ و١٠١).

وهذا النّاسكُ غيرُ المشهور لم يرضَ بسماع هذا القَول، فكيفَ نقبلُ بسماعِ الرشيدِ لأشياءَ عظيمةٍ فظيعةٍ وفيها الاستهزاءُ بالدِّين؟! نسألُ الله اللطف.

(١) نور الطرف (ص ٢٤٤).

(٢) الأغاني (١٠/ ١٦٤)، وزهر الآداب (١/ ١٠)، ونزهة الجلساء (ص ٦٤)، وأشعار أولاد الخلفاء (ص ٦١)، والدر المنثور (ص ٣٤٩)، وشاعرات العرب (ص ١٦٦)، ونور الطرف (ص ٢٤٥)، والفرج بعد الشدة (٥/ ٤٥)، والعمدة (ص ٥٢٩)، وفوات الوفيات (٣/ ١٢٣) طبعة بيروت، والوافي بالوفيات (٢٢/ ٣٦٩) وغيرها.

سُوقِهِ بينَ فحولِ شُعراء العَصْر العبّاسي ، حتى يستوي بين شواعر النِّساء.

* وزعم الأصبهاني في أغانيه ، بأنَّ عُليةَ لها في طَلٍّ هذا عدّةُ أشْعار ومقطّعاتٍ ، وفيها لها صنعةٌ ومنها:

يَا ربّ إنّي قَد غُرِضْتُ بِهجرِها ... فـإليـكَ أشْكـو ذاكَ يـا ربّـاهُ
مـولاةُ سَـوءٍ تَسْتَهيـنُ بِعَبـدِهـا ... نِعْـمَ الغـلامُ وبئْسَـتِ المـولاهُ
طـلٌّ ولكنّـي حُـرِمـتُ نعيمَـهُ ... وَوِصَـالُـه إنْ لـم يغثْنـي اللهُ
يـا ربُّ إنْ كـانـتْ حَياتـي هَكـذا ... ضـرّاً علـيَّ فمـا أريـدُ حَيَـاهُ[1]

* وزعموا أنَّ عليةَ قالَتْ في طَلٍّ هذهِ الأبيات ، وصحَّفَت اسمه ، وغنَّتْ فيه:

سَلِّـمْ عَلـىٰ ذَاكَ الغَـزَا ... لِ الأغْيَـدِ الحَسـنِ الـدَّلَال
سَلِّـم عليـهِ وقُـلْ لـه ... يـا غُـلَّ أَلْبـابِ الـرِّجَـال
خلَّيْـتَ جسْمـي ضَـاحيـاً ... وسَكَنْـتَ فـي ظـلِّ الحِجَـال
وبلَغْـتَ منّـي غـايـةً ... لـم أدْرِ فيهـا مـا احتيَـالـي[2]

* ولم تتوقفْ تلكمُ القَصَصُ والأشعارُ عند «طلّ» فحسب ، وإنّما ابتدعُوا لعليةَ خادِماً آخر يُدعىٰ «رشأ[3]» ، وزعموا أنَّ عليةَ كانت هائمةً به أشدَّ الهُيام ، وكانت تقولُ فيه الأشعارَ والمقطّعات ، ولكنْ تكني عنه بزينبَ ، وقالوا: إنَّ منْ شعرِها فيه وكَنَّتْ عنه بزينبَ قولُها:

وَجَـدَ الفُـؤَادُ بِـزَيْنَبَـا ... وَجْـداً شَـديـداً مُتْعِبَـا
أَصْبحَـتُ مـنْ كَلَفِـي بهـا ... أُدْعَـىٰ سَقيمـاً منْصِبَـا
ولَقَـد كنيـتُ عـن اسْمِهـا ... عَمْـداً لكَـي لا تَغْضَبَـا
وجَعَلْـتُ زَيْنَـبَ ستْـرةً ... وكَتَمْـتُ أَمْـراً مُعْجبَـا

(١) انظر: الأغاني (١٠/ ١٦٤) ، وأشعار أولاد الخلفاء (ص ٥٨).
(٢) الأغاني (١٠/ ١٦٥) ، وانظر: نور الطرف (ص ٢٣٩) ، وزهر الآداب (١/ ١٠) ، والدر المنثور (ص ٣٤٩).
(٣) لا نعلم هل رشأ هذا ذكر أم أنثى؟! وهذا راجع إلى الرواة ونسّاجي الكذب!!!.

قـالـتْ وقَـدْ عَـزَّ الـوِصَـا لُ ولـمْ أَجِـدْ لـي مَـذْهبَـا
واللهِ لا نِلْـتَ المـو دَّةَ أو تنـالَ الكـوكَبَـا[1]

* ويزعمُ الأصبهانيُّ أنَّه قد كشفَتِ الأَسْتارَ عن تكنيةِ علية لرشأ بزينبَ، فلما عُلِمَ منها ذلك، صحَّفَتْ اسمَ زينب في «ريب»، وهذا ممّا يُدْخِلُ الرَّيب إلىٰ النُّفوس؛ ويجعلُنا ممن يشكُّون في مثْلِ هذهِ الأشْعَار التي تعلُوها الصَّنْعُة، ويكتنفُها التكلُّفُ لكي يَصِلَ واضعُ الشِّعر إلىٰ الهدفِ الذي يقصدُه، والتّزوير الذي يهدفُ إليه.

* ومن أمثلةِ الصَّنْعةِ الواضحةِ، والتَّزوير المتكلَّف ما زعموه أنَّ علية قد صحَّفَتْ اسمَ زينبَ إلىٰ «ريب يا» وقالت:

القَلْـبُ مُشْتَـاقٌ إلـى رَيْـبِ يَـا رَبِّ مَـا هَـذَا مـنَ العَيْـبِ
قَـدْ تَيَّمَـتْ قَلْبِـي فَلَـمْ أَسْتطـعْ إلاّ البُكَـا يـا عَـالِـمَ الغَيْـبِ
خَبَّـأْتُ فـي شعـريَ ذِكْـرَ الـذي أحْبَبْتُـه كـالخَبـءِ فـي الجَيْـبِ[2]

فقد كَنَّتْ في قولها في نهايةِ الشَّطرِ الأوَّلِ منَ البيت الأوَّلِ، وأوّل الشَّطْر الثَّاني «ريب يا» تصحيف رشأ[3].

---

(١) الأغـانـي (١٠/ ١٦٥ و١٦٦)، ونـور الطـرف (٢٤٥)، وأشعـار أولاد الخلفـاء (ص ٦١)، وشاعرات العرب (ص ٢٦٥)، وأعلام النساء (٣/ ٣٣٧).
هذا وزعَمُوا أنَّها صحَّفَتْ اسمَ «رشأ» في قولها: «زينبا»، وهذا منَ الجناسِ الخطّي. وفي اعتقادي أنَّ فَنَّ التّصْحيف لم يكنْ قد قامَتْ سوقُه واستوتْ عَصْر ذاك، فَضْلاً عن هذا النوعِ منَ التّصحيفِ الذي لا يفطنُ له فحولُ البلغاء، ويحتاجُ لفهمِه بلغاءُ الأدباء.

(٢) الأغـانـي (١٠/ ١٦٦)، ونـزهـة الجلسـاء (ص ٦٤)، وأشعـار أولاد الخلفـاء (ص ٦٢)، وزهر الآداب (١/ ١٠)، وزعمَ صاحبُ «الزّهر» أنّ الأَمْرَ نُميَ إلىٰ الرشيدِ، فأَبْعَده، وقيل: قَتَله.

(٣) إنَّ رسْمَ كلمةِ «ريب يا» إذا وصَلْنا الأحرفَ تصبحُ «ريبيا» وتقصدُ بذلك «رشا»، وهذا عينُ الوَضْع والافتراء، إذْ إنَّ فَنَّ التَّصحيفِ لم ينضجْ بَعْدُ في عَهْد علية بهذا الشَّكْلِ الذي يعجزُ عنْ إدراكهِ فحولُ البُلَغاءِ، وبلغاءُ الفحولِ، ناهيكَ بأنَّ الحريريَ=

* ويبدو أنَّ شُغْلَ عليةَ الشَّاغل في هذهِ المرّة هو رشأٌ ـ كما زعموا ـ فهي تهجو مَنْ يَشِي إليهِ أخبارها ، فقد وَرَدَ أنَّها هجتْ جاريةً لأمِّ جعفر اسمها «طُغْيان» لأنَّها وشَتْ بها إلىٰ رشأ[1] ، وهي تحزنُ إذا امتنعَ رشا عن شُرب النَّبيذ[2] ، ومثل هذا كثيرٌ ، وكلُّه غثاءٌ واضحُ التكلُّفِ والصَّنعةِ والوضْعِ .

* ومنَ القَصَصِ التي تنالُ منْ مكانةِ عليةَ والرشيدِ ، وتجعلُهما لا يحفلان بالدِّين ما قيل : غَضِبَ الرشيدُ علىٰ عليةَ بنتِ المهدي ، فأمرتْ أبا حَفْص عمرَ بنَ عبد العزيز الشَّطرنجي[3] ـ هو شاعرُهَا ـ بأنْ

= في مقاماتِه لم يصلْ إلىٰ هذا المستوىٰ الرفيع من فنِّ التّلاعب بالحروفِ ، ولم يصلْ إلىٰ هذا المستوى ابنُ الوردي في شِعْره أو نثرِه .
ومما يجعلُنا نرتابُ في نسبةِ هذه الأبياتِ لعُلية أنَّ الحصريَ قد زَعَم في كتابهِ «النّورين» بأنَّ عُليةَ قالت : لأكتبنَّ عنه ـ أَي عن رشَا ـ كنايةً خفيفةً ، ثمّ أوردَ تلكم الأبيات ، وهذه ليستْ بكنايةٍ خفيفةٍ كما زَعم ، بل لا تخطرُ علىٰ بالِ إنسانٍ في ذلكَ العَصْر منَ الأدباءِ ، إذ لم يكنْ فنُّ التَّصحيفِ قد استوىٰ واشتدَّ عودهُ بعد ، وكأنَّ هذه الأشياء أقربُ إلىٰ الأحاجي والملاحن . هذا واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الصَّوابِ ، وعن فنّ التَّصحيفِ؛ انظر : شرح مقامات الحريري للشّريشي (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٤) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

(١) الأغاني (ص ١٦٧) .

(٢) الأغاني (ص ١٦٧) .

(٣) أبو حفصٍ عمرُ بنُ عبد العزيز الشّطرنجي : مولىٰ بني العبَّاس ، وكانَ أبوهُ منْ موالي المنصور ، وكان اسمُه أعجمياً ، فلّما نشَأَ أبو حَفْص ، غيَّره وسمّاه عبد العزيز . ونشأَ أبو حفص في دارِ المَهدي مع أولادِ مواليه ، وكانَ كأحدِهم ، وتأدَّب ، وكان لاعباً بالشَّطرنج ، مشغوفاً به ، فَلقِّبَ به لغلبتهِ عليه .
ولما مات المهدي انقطعَ إلى عُليّة ابنته ، وخرجَ معها لمّا زوجت ، وعادَ معها لما عادتْ إلىٰ القصرِ ، وكان يقولُ لها الأشعار فيما تريدهُ منَ الأمورِ بينها وبينَ إخوتها ، وبني أخيها منَ الخلفاء ، فتنسبُ بعضَ ذلك إليها ، وتتركُ بعضَه ، ومما ينسبُ إليها منْ شِعْرِه ولها فيه غناء :
«تحبَّب فإنَّ الحبَّ داعية الحبّ» . وكانتْ عُليةُ تأمره أنْ يقولَ الشّعر في المعاني التي تريدها ، فيقولها وتغني فيها . =

يقولَ شعْراً يعتذرُ فيه عنها ، ويسألَه الرِّضا عنها ، فقال:

لو كانَ يمْنَعُ حُسْنَ العَقْلِ صاحبَه ... مِنْ أنْ يكونَ له ذَنْبٌ إلىٰ أَحَدِ

كانَتْ عُليَّةُ أعلىٰ النَّاس كلِّهم ... مِنْ أَنْ تُكافأ بسوءٍ آخِرَ الأبَدِ

مالي إذا غِبْتُ لمْ أُذْكَرْ بواحِدَةٍ ... وإنْ سقمْتُ فَطال السُّقم لم أُعَدِ

ما أعجب الشَّيءَ نرجوهُ ونضمرهُ ... قد كنتُ أَحْسَبُ أنّي قد ملأْتُ يدي

فَغَنَّتْ عليهِ لحناً ، وألْقَتْه علىٰ جماعةٍ منْ جَواري الرَّشيد ، فَغَنَّينَه إيّاه في أوّلِ مَجْلَسٍ جَلَس فيه ، فَطَرِب طرباً شديداً ، وسألَ عنِ القصّة ، فأخبرنَه بذلك ، فأحْضَر عليةَ ، وقبَّلَتْ رأْسَه ، واعتذرتْ إليهِ ، وسألها إعادةَ الصَّوتِ ، فغنَّتْه ، فبكىٰ وقال: لا غضبتُ عليكِ ما عشتُ أبداً[1].

* ترى هل هذا صحيحٌ؟ وهل كانَ الرشيدُ وعليةُ كذلك؟!

إنَّ للجواري والقيان كبيرَ الأثرِ في ذلك ، وهذا ما ستكشفُه السُّطور التّاليات في الفِقْرة الآتيةِ إنْ شاءَ اللهُ.

مِنْ آثَارِ الجَواري وَالقِيَانِ:

* لعلَّ بعضَ الأخبارِ والقَصصِ التي نُسِبَتْ إلى علية بنتِ المهدي ، ومَنْ سَاواها منَ النِّساءِ في عَصْرها خاصّة ، يعودُ إلى بعضِ مظاهرِ الانحلالِ التي سادتْ في المجتمعِ العبّاسي عَصْر ذاك ، وإلى انتشارِ بيوتِ القيان والجواري في بغدادَ والبصرةِ والكوفةِ ، وبعضِ الأمصارِ الفارسيةِ التَّابعةِ لحكم العبّاسيين.

* وظهرَ هناكَ قيّانونَ في القرنَيْن الثّاني والثّالث الهجري ، وذلك في

= وأخبارُ أبي حفص الشّطرنجي كثيرة ذكرَها الأصبهاني في أغانيه ، وذكر أنَّه رثى نفسه قبل وفاته من أبيات منها:

نعىٰ لكَ ظلّ الشَّباب المشيبُ ... ونادَتْك باسمٍ سواكَ الخطوبُ

يخافُ علىٰ نفسهِ مَنْ يتوبُ ... فكيف ترىٰ حال مَنْ لا يتوبُ

الأغاني (٢٢/ ٤٦ ـ ٥٧) بتصرف.

(١) أعلام النساء (٣/ ٣٣٨) نقلاً عن الأغاني (٢٢/ ٥٣).

العَصْر الذي عاشَتْه عليةُ بنتُ المهدي ، وكانَ منْ أشهرِ القيَّانين عَصْر ذاك : «أبو الأصبغ ، وأبو الخطّاب النّحّاس ، وأبو عمر ، وابن رامين» . وفي أخبارِ هؤلاء وسلوكِهم أشياءُ لا تتوافقُ والذَّوقُ الأخلاقي في عَصْرهم أو ما بعد عَصْرِهم .

* ولابدّ لنا ونحنُ نتعرَّضُ ـ هنا ـ للقيانِ منْ أنْ نشيرَ إلى أن أبا عثمان الجاحظ قد أنشَأَ رسالةً عنوانُها «رسالة القيان[1]» ذكر فيها المساوىءَ والمفاسدَ التي تعودُ علىٰ الرجالِ منهنَّ ، وكذلك أثرهنَّ علىٰ المجتمع وأخلاقِهِ ، وما تركْنَ فيهِ من آثارٍ خطيرةٍ ظلَّتْ معالمُها مدّةً طويلةً ، استمرتْ حتى بُعَيد القرنِ الرّابعِ الهجريِ .

* فهذا أبو حيّان التّوحيدي الأديبُ المشهورُ الذي عاشَ في القرنِ الرابع الهجري والمتوفىٰ سنة (٣٨٠ هـ) ، يذكرُ في كتابه الجميل الشّهيرِ «الإمتاع والمؤانسة»[2] إحصاءً لأَحَدِ أحياءِ بغدادَ ويقولُ بأنَّه وُجِدَ في حيّ الكَرخِ وحْدَه أربعمئة وستينَ جاريةً من القيناتِ ، هذا غيرُ ما خَفِيَ عليه وَنَدَّ عن حَصْره ، ويضيفُ إلى ذلك مئة وعشرين حرَّةً منَ النِّساء ، وخمسةً وتسعينَ منَ الغِلْمان .

* وفي هذا الكتابِ يذكرُ التَّوحيديُّ جانباً مهمّاً منْ أخلاقِ القيان والجواري وظرفِهنَّ وشعرهنّ ، ومن ثمّ حِيَلِهِنَّ في نَصْبِ الشِّباك لمرتادي بيوتهنَّ ومَجالِسِهِنَّ .

* ولعلَّ منْ أوضحِ الصُّورِ التي تجلو الحقائقَ في ثوبٍ أنيق ، ما وردَ في شِعْر علي بنِ الجَهْم الشَّاعر الشَّهير ، شاعرِ المتوكّل العبّاسي ، فقد رسمَ ابنُ الجهم صورةً واضحةَ المعَالِمِ لبيوتِ القِيان والمقينين في بغدادَ ، لكنَّه لم يندفعْ كما اندفعَ غيره من الناسِ في اجتناءِ اللذات ومعاقرةِ الخمرة؛ فها هو

---

(١) هذه الرسالة مطبوعة ضمن رسائل الجاحظ في مصر ، ثم في بيروت .

(٢) الكتاب مطبوع بتحقيق أحمد أمين ورفاقه بمصر وغيرها .

يصفُ منزلَ مُقَيِّن في حي الكرخِ اسمه «المُفَضَّل» فيقولُ قصيدةً طويلةً نختارُ منها ما يوضِّح فكرتنا:

نَـزَلْنَـا بِبَـابِ الكَـرخِ أطْيَـب مَنـزِلٍ ... علـىٰ مُحْسِنَـاتٍ مـن قيَـان المُفَضَّـلِ
أَوَانِـسُ مَـا للضَّيـفِ منهـنّ حشْمَـةٌ ... ولا ربُّهـــنَّ بـــالجليـــلِ المُبَجَّـــلِ
يُسَـرُّ إذا مـا الضَّيْـفُ قَـلَّ حيـاؤُه ... ويَغْفُـلُ عنْـه وهـو غَيْـرُ مُغَفَّـلِ
ويكثـرُ مـنْ ذمِّ الـوَقَـارِ وأَهْلـهِ ... إذا الضَّيفُ لـم يـأْنَس ولـمْ يَتَبدَّلِ
ويُطْـرِقُ إطْـراقَ الشُّجَـاعِ مَهَـابـةً ... ليطلـقَ طَـرْفَ النَّـاظِـرِ المتـأَمّـلِ
أَشِرْ بِيَـدٍ واغْمِزْ بِطَرْفٍ ولا تَخَفْ ... رقيبْـاً إذَا مـا كُنْـتَ غَيـرَ مُبَجَّـلِ
وأعْرِضْ عنِ المِصْباحِ والْهَجْ بمثْلِهِ ... فـإنْ خَمَـدَ المصبـاحُ فـادْنُ وقَبِّـلِ
وسَلْ غَيرَ ممنوعٍ وقُل غيرَ مُسْكَت ... ونَمْ غيرَ مذعورٍ وقُم غيرَ مُعْجلِ
لكَ البيتُ ما دامتْ هداياكَ جَمَّةً ... وكنْـتَ مليـاً بـالنَّبيـذِ المُعَسَّـلِ
هَـلِ الـدَّهْـرُ إلا ليلـةً طـرحَـتْ بنَـا ... أَوَاخِـرُهَـا فـي يـومِ لَهـوٍ معجـلِ
سَقَىٰ اللهُ بَابَ الكَرخِ مِنْ مُتَنَـزَّهٍ ... إلـى قَصْـرِ وَضَّـاحٍ فَبِـرْكَـةِ زَلْـزَلِ
مسَاحِبُ أَذْيالِ القيانِ ومَسْرحِ الحِسَان ... ومثـــوىٰ كـــلّ خِـــرْقٍ معـــذّلِ[1]
لو أنَّ امرأَ القَيْس بنَ حُجْر يحلُّها ... لأَقْصَرَ عنْ ذكْرِ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ
إذاً لـرأَى أنْ يمنـحَ الـودَّ شَـادِنـاً ... مُقَصِّـرَ أَذْيـالِ القبَـا غَيْـرَ مُسْبِـلِ
إذَا الليلُ أَدنىٰ مَضْجَعِي منْه لم يَقُلْ ... عَقَرتَ بعيري يا امرأَ القَيسِ فانزلِ[2]

* هذه صورةٌ لبيوتِ القيان وأصحابها، وفيها بيانٌ واضحٌ لبعضِ أخْلاقهنَّ وما نجمَ عن ذلك من تردّي بعضِ أخلاقِ النَّاس؛ فضْلاً عن إساءةِ كثيرٍ منَ الجواري إلىٰ سيداتهنّ[3] وأسيادهنّ.

---

(١) «الخِرق»: الكريمُ منَ الرجالِ. «المعذّل»: الذي يكثرُ النَّاس عذْلَه ولومَه علىٰ إسرافِه في الكَرمِ.

(٢) انظر: الأغاني (١٠/ ٢٦٤ و٢٦٦) بتصرف.

(٣) أصَابَ عبدُ اللهِ عفيفي في هذا المجالِ عندما قال:
لا نكذبُ الحقَّ، فَقَدْ ظهرَ منَ الشَّواعر جماعةٌ أَخَذْنَ بطرفٍ منْ ذلكَ اللغو، فَهُنَّ =

* إذاً فالمرأةُ العربيّةُ الحرّةُ لم تَعُدْ تبرزُ صُورتُها الحقيقيّةُ في تلكم البيئةِ المتموّجةِ المضطربةِ ، وذلك لكثرةِ الإماءِ والقيانِ والجواري ، وغَزْوهنَّ المجتمعَ غَزْواً لم يشهدْ لهُ المجتمعُ العربيُّ مَثيلاً ، إذْ تَقَدمْن هؤلاء صفوفَ المجتمعِ النَّسوي ، وتنحَّتِ المرأةُ الحرّةُ جَانباً ، فكيفَ بنساءِ الأُمراء وَعلْيَةِ القومِ مِن مثْل عُليّةَ بنتِ المهدي ، وأختِها العبَّاسةِ ، وزبيدةَ بنتِ جعفر ، وغيرهنَّ ممن ملأْنَ دُنيا الإفْضَالِ وشَغَلْنَ جِيْدَ الجُودِ بكثرةِ فَضْلهنَّ .

* ولهذا أصبحتْ بضاعةُ القيان والعنايةُ بهنَّ تجارةً رائجةً رابحةً ، يقولُ الأستاذ أحمد عبد السَّتار الجَواري عن هذا الموضوع : ولقد جاءتِ الحضارةُ ، فجعلَتْ منَ المرأةِ مَتاعاً يُباع في الأسواقِ ، ويستطيعُ أنْ ينالَه منْ ينْفِق فيه المالَ ؛ وكثُرَ الجواري ، وبلغَ عددهنَّ في بيوتِ الأغنياءِ والموسرين مَبْلغاً عظيماً ، وصرْنَ يُتَّخذْنَ للغناءِ واللهو والعَبَثَ ، فهبطَ شَأْنُ المرأةِ في الشِّعْرِ ، وأصبحَ الحديثُ عنها عند أكثرِ الشُّعراء ضَرباً منَ اللهوِ والعَبَثِ والمُجون[1] .

* لَقَدْ أدَّتِ المرأةُ في عَصْرِ عُليّةَ بضعةَ أدْوارٍ ، فكانتْ جاريةً في القصورِ ، وعند الأغنياءِ والموسرينِ ؛ وساقيةً في الحانَاتِ والأديرة ، وقينةً عند النَّخَّاسين والمقيّنينَ ، وعضواً في مجتمعِ القرن الثَّاني والثَّالث

= نوازحُ منَ الجواري جِيءَ بهنَّ إلىٰ مُدُن العِراقِ والشَّامِ والأندلس ، ممّا وليهنَّ منَ الأقطار ، فَتَصديْنَ لرجالِ العربِ بما شئْنَ من دعابةٍ وتأنقٍ ، فظهرَ كثيرٌ منَ السَّرفِ والتَّهتُّكِ علىٰ مقالهنَّ ، حتى لَقَدْ سَتَرنَ بذلكَ الانحسار تلكَ الملاحةِ الرُّوحيةِ المعنويةِ في المرأةِ العربيّةِ ، فَتَضاءَلَتْ وتراجعتْ ، وقَذَفَ بها ذلك السَّيلُ الآتيُ إلىٰ مكانٍ سحيقٍ .
(المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ٢/ ١٨١) .

(١) انظر : الشِّعر في بغداد (ص ٢٠٧) لأحمد الجواري ، مطابع الكشاف بيروت عام ١٩٥٦ م .

الهجري ، وهو عَصْر حياةِ عُليّةَ بنتِ المهدي ضيفةِ هذه الصَّفحات ، وزينةِ نساءِ هذا الكتاب وريحانتِهِ.

* ولكثرةِ ألوانِ وأدوارِ المرأةِ الجاريةِ في ذلك العَصْر ، تلوَّنَتْ اتّجاهات الغَزَل ، وتلوَّنَتِ الأحاديثُ عنِ النِّساءِ عامّةً ، وهَبَطَ مستواهنّ هُبوطاً شَديداً ، وكادتِ الحرائرُ يصبحْنَ نَسْياً منْسياً في هذا الجوّ الدّاكنِ؛ وكانَ للمغنياتِ منَ الجواري دورٌ كبيرٌ في الحياةِ الاجتماعيةِ ، حيثُ نَهَضْنَ بنصيبٍ كبيرٍ في خدمةِ ألوانِ الغزلِ والشِّعْر الفَاضِح ونَشْرهِ بينَ النَّاس؛ أمّا الجواري الفاجرات اللواتي كُنَ يُشِعْنَ ألوانَ المتعةِ واللهو ، ويدفعْنَ الشُّعراء إلى القولِ دفْعاً ، فكُنّ كَثيراتٍ جدّاً ، وقد ذكرَهُنَّ الأصبهانيّ في أغانيهِ ، وخاصَّة جواري النَّخَّاسين وبيوتِ القيان.

* ومنَ الطَّبيعي أنْ يكونَ من بينِ هؤلاء الجواري والقيان عددٌ منَ الأديْبَاتِ والشَّواعرِ ، وعددٌ ممن درسْنَ الأدبَ والمذاكرة وتثقفْنَ ثقافةً واسعةً ، ومنهنّ جاريةٌ شاعرةٌ مغنيةٌ يُقال لها «دنانير» ، كان أهلُ الأدبِ يقصدونَها للمذاكرةِ والمساجلةِ في الشِّعر.

وكذلك جارية أخرىٰ تُدعى أَمَان ، كانت مغنيةً مجيدةً حاذقَةً ، وغيرهما.

* ولعلَّ كثرة هذه الطَّبقةِ منَ النِّساء هي التي جَعَلَتِ الحابلَ يختلطُ بالنَّابلِ ، وهي التي دَفَعَتْ جماعة منْ شُعراء العَصْر لأَنْ يتحدّثُوا عنهنّ ، لكثرةِ ما كانُوا يشهدونَ ويمارسون منْ تهتُّكٍ وخلاعةٍ ومجونٍ وفجورٍ ، ولهذا نَجدُ بشارَ بنَ بُرد يرمي جميعَ نساء العالمين بالفاحشةِ في قوله:

لا يــؤْيسَنَّــكَ مــنْ مخبَّــأَةٍ قَــوْلٌ تُغَلِّظُــهُ وإنْ قَبُحَــا
عُسْــرُ النِّســاءِ إلــىٰ مُيــاسَــرةٍ والصَّعبُ يمكنُ بَعْدما جَمحَا[1]

* وبمثلِ هذه الأشعار اشتدّتِ الحملةُ علىٰ بشار ، والتَّشهير به ، حتى

---

(١) انظر: ديوان بشار (٢/ ٩٧).

قال مالكُ بنُ دينار: ما شيءٌ أدعىٰ لأَهْلِ هذه المدينة - يعني البصرة - إلىٰ الفِسْقِ منْ أشعارِ هذا الأعمى.

* وقالَ واصلُ بنُ عطاء: إنَّ منْ أخدعِ حبائل الشَّيطان وأغواها لكلماتُ هذا الأعمىٰ المُلْحِد.

* وهنا تدخَّلَ الخليفةُ المهدي والدُ عُليّة إلىٰ إيقافِ بشار عند حدّه، ثمّ قَتْلِهِ لاستهتارِه وزندقَتِهِ.

بُيوتُ القِيَانِ وذَمُّهُنَّ:

* لبيوت القيان أثر كبير وسيِّىء على الحرائر في عصر علية بنة المهدي وبعده، فقد كانت بيوتهن منتشرة في أكثر أمصار الدولة العباسية، ويقوم عليها جماعة من المقينين الذين أعدوها للترفيه والمجون، وذلك بتوفير أنواع اللهو من غناء وعزف وشراب وفجور.

* وكان يتردد على هاتيك البيوت وفود من الشعراء المجان وغير الشعراء، وكان للشعراء مساجلات وأشعار وأخبار مع القيان والجواري، وكانت أكثر المدن احتواء لتلك البيوت: الكوفة وبغداد.

* ففي الكوفة كانت توجد عدة بيوت منها؛ بيت أبي الأصبع الذي كان يألفه يحيى بن زياد، ومطيع بن إياس، وحماد عجرد وغيرهم[١].

وبيت محمد بن سيار الذي كان يخرج قيانه إلى ندمائه، وكان أبو نواس من أكثر المترددين عليه، ثم بيت الشاعر إسماعيل القراطيسي الذي كان يجمع فيه الغلمان والقيان، ومنها بيت أم أبي نواس التي كانت تجمع فيه الغواني كما قال ابن منظور.

* أما أشهر بيوت القيان في الكوفة، فكان بيت عبد الملك بن رامين وكان يغشاه عدد من الشعراء وغيرهم، وكان له ثلاث جوار، هُنَّ: سلامة

---

(١) انظر: الديارات للشابشتي (ص ٢٥٤).

الزرقاء ، وسعدة ، وربيحة ، وكن من أحسن الناس غناء ، ولشعراء العصر فيهن أشعار ذكرها الأصبهاني في أغانيه .

* أما بيوت القيان في بغداد ، فكان أكثرها في محلة الكرخ ، ومنها بيت أبي عوان نافع بن عون بن المُقعد الذي كان يغشاه حماد عجرد ، ويتغزل بقينة تدعى «جوهر» .

* ومن مقيني بغداد : الأصبغ بن سنان ، وسيرين بن طرخان النخاس ، والجند يسابوري ، وأبو الخير .

* ومن بيوت بغداد بيت حرب بن عمرو الثقفي الذي كانت له جارية مغنية ، وكان الشعراء والكتاب وأهل الأدب ببغداد يختلفون إليها يسمعونها ، وينفقون في منزله النفقات الواسعة ويبرونه ويهدون إليه .

* ومنها بيت أبي عمير النخاس بالكرخ ، وقد كانت له جوار قيان لهن ظرف وأدب . ومن مقيني بغداد رجل اسمه حسنويه؛ وكانت فضل الشاعرة جارية له ، وكانت تجلس إلى الرجال ويأتيها الشعراء ، ومنهم الجنيد النخاس الذي كان يتردد عليه كثيراً أبو دلامة .

* ومن مقيني بغداد ، أبو الخطاب النخاس ، وكانت له جارية يقال لها خُنْث قيل إنها كانت من أجمل النساء وأكملهن ، وكان لها خال فوق شفتها العليا ، وكانت تعرف بذات الخال . وكان يهواها إبراهيم الموصلي ، وكان يقول فيها الشعر ويغني فيه فشهرها بشعره وغنائه .

* وهناك أخبار لبيوت أخرى من بيوت القيان ، ونخاسين آخرين في بعض المدن الآخرى ، ففي البصرة كان بيت أبي هاشم ، وفي المدينة كان بيت حماد بن عمران الطليحي الملقب «عُطْعُط» الذي كان له قيان يسمعهن الناس عنده ، وكان في المدينة بيت يحيى بن نفيس ، وكان صاحب قيان يغشاه الأشراف ، ويسمعون غناء جواريه ، وكانت هناك بيوت أخرى في الرقة وغيرها من الحواضر الأخرى .

* وكان في القيان شاعرات يُجِدْن قرض الشعر ويجالسن الشعراء المجان ، ويبادلنهم الأشعار الفاضحة كنقائض أبي نواس مع عنان ، وغيرها من مواجن النساء.

* وكانت سجية القيان البعد عن ضوابط الأخلاق ، والخلاعة ، وعدم الاتزان ، وقد فطن القدامى من النقاد والمؤلفين ومن الكتاب والشعراء إلى أخلاق القيان السيئة ، فأفاضوا في وصفها وذمها ، وتحدثوا عن ألاعيبهن وعن تصنعهن العشق ، وخداعهن الشعراء وروّاد بيوتهن.

* ونلمح ذم القيان عند أبي عثمان الجاحظ عندما صنع رسالة خاصة بهن تسمى «رسالة القيان» فقال: إن القينة لا تكاد تخلص في عشقها ، ولا تناصح في ودها ، لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ليقعوا في أنشوطتهما ، فإذا شاهدها المشاهد رمته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته في أشعار الغناء... وربما شاركت صاحبها في البلوى حتى تأتي إلى بيته ، فتمكنه من القبلة فما فوقها ، وتفرشه نفسها إن استحل ذلك منها.... وأكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال الغدر والحيلة.... وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة ، أو أربعة على أنهم يتحامون عند الاجتماع ، ويتغايرون عند اللقاء ، فتبكي لواحد بعين ، وتضحك للآخر بأخرى ، وتغمز هذا بذاك[1].

* وإذا تركنا الجاحظ ، وانتقلنا إلى الوشاء المتوفى سنة (٣٢٥ هـ) ، لألفينا أنه أفاض في ذم القيان ، وذكر خطرهن ، فهن غدارات لا يوثق بعهودهن ، محتالات لا يؤمن كيدهن ، وفي كتابه «الموشى» يقول تحت عنوان: باب صفة ذم القيان ، ونفوذ حيلتهن في الفتيان:

لم يُبْتَلَ أحد من أهل المروءات والأدب ، وأهل التظرف والأرب ، ولا امتحن سراة الفتيان ببلية هي أعظم من هوى القيان ، ولأنَّ حبهن حب

---

(١) انظر: ثلاث رسائل للجاحظ ـ رسالة القيان (ص ٦٩ ـ ٧١) بتصرف.

كذوب ، وعشقهن عشق مشوب ، وهواهن منسوب إلى الملل ، ليس بثابت ولا متصل. . . وأن محبتهن تظهر ما ظهرت علامات اليسار والمال ، وتنتقل عند الإفلاس والإقلال. . . وكل ذلك منهن غرور ، وخداع وزور(١).

* ويقول الوشاء أيضاً عن خبث القيان: ومن أدل الأشياء على خبث سرائر الإماء أن الواحدة منهن ، إذا رأت في مجلس فتى له غنى وكثرة مال ، ويسار وحسن حال ، مالت إليه لتخدعه ، وأقبلت عليه لتصرعه. . . وغمزته بطرفها ، وأشارت إليه بكفها. . . حتى توقع المسكين في حبالها ، وترهقه باحتيالها ، وتعلق قلبه بحبها ، وتطمعه بقربها. . . حتى إذا حوت عقله ، وصارت شغله ، أخذت في طلب الهدايا السرية ، وتشهت الثياب المعدنية. . . . حتى إذا نفد اليسار ، وذهب الإكثار ، وأُتلف المال ، وجاء الإقلال. . . أظهرت الملل ، وأعلنت البدل ، وصرفت عنها هواه ، ومالت إلى سواه. ولله در القائل:

صَحَوتُ فَأَبْصَرتُ الغوايةَ منْ رُشدي ... وأيقنْتُ أنّي كُنتُ جُرْتُ عَنِ القَصْدِ
فلا يَعْشَقَنْ مَنْ كانَ يعشقُ قينةً ... فما هوَ منْها في سعيدٍ ولا سَعْدِ
تَوَدّكَ ما دامتْ هَداياك جَمّةً ... وتَزْفدكَ عشْقاً ما غَنيتَ أخا رِفْدِ
فَذَا فِعْلُها حتّى إذا عَاد مُفْلِساً ... تَجنَّت وأَبدتْ جانبَ الهجرِ والصَّدِّ
فقُولا لمنْ يهوىٰ القِيانَ تفهّمُوا ... مقالي فإنّي قد نصحتُ لكم جهدي(٢)

* ويقول الوشاء عن القيان أيضاً: واعلم أنه لا وفاء لهن ، ولا يدمن على ود ، ولا يفين لعاشق بعهد. . . على أنهن يحتملن القبح والشيب مع اليسار ، ويكرهنهما مع الفقر والإقتار(٣).

* وقد أبان الجاحظ عن سبب انحطاط أخلاق القيان وسوء فعالهن ،

---

(١) انظر: الموشى (ص ١٣٤) باختصار.
(٢) انظر: الموشى (ص ١٣٤ ـ ١٣٩) باختصار وتصرف.
(٣) انظر: الموشى (ص ١٤٦) بتصرف.

وتشويه سمعة الحرائر بتصرفاتهن فقال: وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة؟! وإنما تكتسب الأهواء، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب والأخانيث بين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه إلى ثقة، ولا دين ولا صيانة مروءة[١].

* لقد كانت بيوت القيان مسارح لرواد اللهو والمتعة من الشعراء، وكانوا مدركين لحقيقة القيان، وكانت أشعارهم فيهن بضاعة زائفة، ووسيلة لمبادلتهن سلعة بسلعة، ولم يغب عن بال بعض الشعراء حتى من المجان أنفسهم في ذلك الوقت ألاعيب القيان ومكرهن وخداعهن وكذبهن، وتجارتهن في أفئدة الناس، فتغيرت وزيفت صورة المجتمع والمرأة.

* ونحنُ لا ننكرُ أنَّ هناك بعضَ النَّاس منَ الشُّعراءِ كأبي نُواس ومَنْ سَار على دَرْبهِ ورسْمِهِ وأطلالِه، قد جعلُوا حياتَهم نَهْباً للّذّاتِ، واتّخذوا منَ المجونِ والخمرةِ ديدناً لهم، وهؤلاءِ بالطَّبعِ لا يمثّلُون المجتمعَ الذي عاشُوا فيه، ولا يمكنُ كذلك أنْ نُفَصِّلَ منْ قَصصِ الجواري قَصَصاً نُلْبِسها الحرائرَ الطَّاهرات الشَّريفات، كي يتسنّىٰ للمغرضينَ الطَّعنَ في سِيرهنّ وأخبارِهنّ.

* وهذا لا يمنعُ أيضاً أنْ تكونَ بعضُ الحرائرِ، قد عشْنَ بشيءٍ منَ الحريةِ، لكنهنَّ لم يخرجْنَ عمّا تعارفَ عليه مجتمعهنَّ من قِيَمٍ وأخلاقٍ وآداب.

عُلَيَّةُ وَالشِّعْرُ وَالأَدَبُ:

* عُرِفَتِ المرأةُ العربيةُ بقولِ الشِّعْرِ سَلِساً فَصيحاً بليغاً في الجاهليةِ والإسلامِ، وعَصْر بني أميّة، وكانَ أمْراً طبيعياً أنْ تنبغَ شاعراتٌ منْ بين النِّساء في عَصْر بني العبّاس، ومن أشْهرِ الشَّاعرات العبّاسيّات علىٰ الإطلاق

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ ـ رسالة القيان (ص ٧٢).

أميرةُ شاعراتِ عَصرها عليةُ بنتُ المهدي.

* ولئن نضّرتِ المرأةُ العربيةُ جوانبَ الأدبِ العربي بموقفِ المرأةِ، وضاءَتْ مذاهِبَه، ورقَّتْ مشارَبه، لقد فاضَتْ مشارعُه، وتدفَّقتْ متالعُه، وزكَتْ فنونُه، وتهدَّلَتْ غصونُه بما أثمرتْ قريحتُها، وانحسرَ عنه لبُّها من نَثْرِ الكلام وشعْرِه.

* لقد وردتِ المرأةُ مناهلَ القَول جميعاً، علىٰ أنَّها لم تجاوز الصَّافي الفرات منها، فكان قولُها قِطَعاً منْ قَلْبِها ومشاعرِها، فهي إذا خَطَبتْ أو كَتَبتْ أو شافَهَتْ أو نَظَمتْ، لم تَعْدُ ما تؤمنُ به، وتهفو إليه، أما سِفَالُ القولِ منْ إغراقٍ في المدحِ، وأقذاعٍ في الهِجَاء، ومجونٍ في الغَزَلِ، وذَهابٍ في الخمر، وسخفٍ في الدِّين، فذلك ما تركتِ الرجلَ يستأثرُ به ويتسكَّعُ فيه[1].

* ولا شكَّ في أنَّ عُلَيّةَ واحدةٌ منْ عِلْيَةِ نساءِ القوم قدماً في الحَسَبِ والنَّسب، وكذلك في الشّعر وفنِّ الأدب، فقد نشأتْ نشأةً علميةً في بيئة تزخرُ بالعِلْمِ والأدَبِ والمعرفةِ، ناهيك بعلوم الدِّين جميعها، وأخذتْ منْ كلّ فنٍّ بطرف، ونبغتْ في فنِّ الشِّعْرِ[2]، ويُقال: إنَّ لها ديوان شِعْر، وقد أُثرتْ عنها بعض المقطَّعَاتِ التي تشيرُ إلىٰ مكانتِها ونباهتِها وذكائِها، كما أنَّ الأشعارَ التي وصلتنا عنها ـ وإن كان يحومُ حولها الشَّك ـ تدلُّ علىٰ أنَّها شاعرةٌ

---

(١) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها (٢/ ١٨١).

(٢) بعد أنْ تحدَّثَ عبدُ الله عفيفي عن بعضِ النّسوة الشَّواعرِ الأديباتِ الناقدات، ذكر عليةَ بنتَ المهدي فقال:
وكثيرٌ منْ غيرِ هؤلاء خصصْنَ بنقدِ الشّعر، ليثرنَ فيه قوّة الخيَال، وروعةَ الجمالَ، ومن عيونِ هؤلاء: أسماء وعُلية ابنتا المهدي، وأختا الرشيد في الدّولة العبّاسية، (المرأة العربية ٢/ ١٧٦).
هذا ولا نعلمُ بأنَّ للمهدي ابنةً اسمُها «أسماء» فمن أينَ أتىٰ عبد الله عفيفي بأسماءَ ابنةِ المهدي، والمصادر لم تذكرْ له ابنة بهذا الاسم!!.

رقيقةٌ ذكيةٌ ، واسعةُ الثّقافةِ ، حسنةُ الدِّيباجة ، جميلةُ المعاني .

* هذا وإنَّ بعضَ الأشعارِ التي نُسِبَتْ إليها قد اختلطتْ بأسماء شعراءَ آخرين ، وبعضُها يُنْسَبُ لها أو لأَحَدٍ مِمَّن عَاصَرَها كأبي العتَاهية ، أو أبي نُواس وغيرهما ، ولا يمكنُ أنْ نعولَ علىٰ أنَّ ما نُسِبَ إليها علىٰ وجْهِ الصَّحيح سوىٰ مقطَّعاتٍ متنوعة الاتجاهات ، حيثُ فيها الغَزَلُ العفيفُ ، وفيها النَّصائحُ والوصفُ وفيها الحكمةُ ، إلاَّ أنَّ أكثرَ ما يُروىٰ لها كلمات عِذَاب موشّحةٌ برقيقِ الغَزل العفيفِ .

* ففي «عِقْدِهِ الفريد»[1] أوردَ ابنُ عبد ربّه ثلاثةَ أبياتٍ قال :

أنشدَ محمدُ بنُ يزيد المبرّد لعليةَ بنتِ المهدي :

تَمارضْتِ كَي أَشْجىٰ وما بكِ علَّةٌ ... تريدينَ قَتلي قَدْ ظَفِرْتِ بذلك
وقولُكِ للعُوَّادِ كيفَ تَرونَه ... فَقَالُوا قَتيلاً قلتُ أَهونُ حالك
لئنْ ساءني أنْ نِلتني بمساءَةٍ ... لقد سرّني أَنّي خَطَرتُ ببالك

* وفي «زَهْره» اقتطفَ الحصريُّ زهْراً أنيقاً من رياضِ أفكارِها وأشعارِها ، وأنشدَ لها قولَها الرَّائقَ في الصِّياغة والمعنى :

ليسَ خَطْبُ الهَوىٰ بخَطْبٍ يَسير ... لا ينبيكَ عَنْه مثْلُ خَبِير
ليسَ أمْرُ الهوىٰ يُدَبَّرُ بالرَّ ... أي ولا بالقِياسِ والتّفكيْر
إنّما الأمْرُ في الهوىٰ خَطَراتٌ ... محدثاتُ الأمورِ بَعْد الأمور[2]

* ومنْ شِعْرها في هذا المجالِ قولها :

---

(١) العقد الفريد (٢/ ٢٥٦) بتحقيق محمد سعيد العريان .

(٢) زهر الآداب (٢/ ٧٢٥) ، والأغاني (١٠/ ١٨٥) ، وأشعار أولاد الخلفاء (ص ٦٥) ، وشاعرات العرب (ص ٢٥٩) ، ومن الجدير بالذكر إنْ صحّتْ نسبةُ هذهِ الأبيات لها ، فإنّه يظهرُ منْ قولها بأنّها ذكيةٌ فطنةٌ مثقفةٌ ثقافةً دينيةً فقهيّةً ، حيثُ تستعملُ المُصْطَلحات الفقهيةَ في شعر الغَزَلِ برشاقةٍ تُحْسَدُ عليها ، وأسلوبٍ ينمُّ عَنْ نَفْسٍ صافيةٍ عذبةٍ ، وشاعريةٍ خصبةٍ تنثالُ عليها المعاني ميسّرةَ الأسبابِ متى استدعتها .

كَتمْتُ اسْم الحبيبِ عَنِ العِبَادِ وَرَدَّدْتُ الصَّبابـةَ فـي فُـؤَادي
فَـوَاشَـوقـي إلـىٰ أيّـامِ خلّـي لعلِّي بـاسْمِ مَنْ أهـوىٰ أُنـادي[1]

* وقالت أيضاً:

إذا كُنـتَ لا يُسْليـكَ عمَّـن تُحبُّـه ثَنَـاء ولا يشْفيـك طُـول تَـلاقِ
فمـا أنْـتَ إلاّ مستعيـرٌ حُشَـاشـةً لمهجـةِ نفـسٍ آذَنَـتْ بِفِـراقِ[2]

* ومنْ شِعْرِها قولها:

نـامَ عُـذَّالـي وَلَـمْ أَنَـمِ واشْتَفـىٰ الـواشُـون مـنْ سَقَمـي
وَإذا مـا قُلْـتُ بـي أَلَـمٌ شـكَّ مَـنْ أهـواهُ فـي أَلَمـي[3]

* ومنْ رقيقِ شِعْرِها الغزلي:

تَجنَّبْ فـإنَّ الحبَّ دَاعِيَـةُ الحُـبِّ وكَمْ منْ بعيدِ الدَّارِ مُسْتَوجبُ القُربِ
تَبَصَّرْ فإنَّ حُدِّثْتَ أنَّ أَخا هوىً نَجا سَالماً فارْجُ النَّجاةَ منَ الحُبِّ
إذا لمْ يكُنْ في الحبِّ سُخْطٌ ولا رضاً فأينَ حلاواتُ الرسائل والكتب
وأطيـبُ أيّـامِ الفتـى يـومُـه الـذي يـروَّعُ بـالهِجْـرَانِ فيـهِ وبـالعُتْـبِ[4]

* ومن جميلِ نظمِها في الغَزَلِ قولها: ـ وتُنْسَبُ لأخيها إبراهيم ـ:

يا وَاحِدَ الحبِّ مَالي منْكَ إذْ كَلفَتْ نفْسـي بحبِّـك إلاّ الهـمُّ والحَـزَنُ
لـم يُنْسينـكَ سـرورٌ لا ولا حَـزَنٌ وكيفَ لا كيفَ يُنْسىُ وجهُك الحَسَنُ
ولا خَلا منْكَ قَلْبِي لا ولا جَسَدي كلّـي بكُلِّـك مشغـولٌ ومُـرْتَهَـنُ
نُورٌ تَولَّدَ منْ شَمْسٍ ومنْ قَمَرٍ حتّى تكَامَل منْهُ الرُّوحُ والبَدَنُ[5]

* ومن بليغِ شِعْرها وبديعهِ قولها:

---

(١) فوات الوفيات (٢/ ١٩٩)، والدر المنثور (ص ٣٥٠)، ونزهة الجلساء (ص ٦٢).
(٢) انظر: الحماسة البصرية (٢/ ٥٨٠) قطعة رقم (٩٥٦).
(٣) الأغاني (١٠/ ١٦٧).
(٤) الأغاني (١٠/ ١٧٦)، والدر المنثور (ص ٣٥٠)، وأعلام النساء (٣/ ٣٤١).
(٥) الأغاني (١٠/ ١٧٣)، والدر المنثور (ص ٣٥٠)، ونهاية الأرب (٤/ ٢٣٥)، وشاعرات العرب (ص ٢٦٠)، وفوات الوفيات (٢/ ٢٠٠).

سَأَمْنَعُ طَرفي أنْ يلمَّ بِنَظْرةٍ وأحْجُبُه بالدَّمْع عَنْ كلِّ مَنْظَرِ
وأَشْكرُ قَلْبي فيكَ حُسْنَ بلائِهِ أَليسَ بهِ أَلْقَاك عنْد التّفكُّرِ[1]

* ومن قولها في الفِراقِ والتَّوديع:

لا حُزْنَ إلاّ دونَ حزْنٍ نالَني يومَ الفِراقِ وَقَدْ خَرجْتُ مُودِّعا
فَإذا الأحبَّةُ قَد تفرّقَ شَمْلُهُمْ وَوَقَفْتُ فَرْداً والهاً مُتَفَجِّعا[2]

* ومنِ شعْرِها في الحكمةِ والنَّصيحةِ قولُها:

وَأَفِضْ جُودَكَ في النَّا سِ تكُنْ فيهم إمَامَا
لَعَنَ اللهُ أَخَا البُخْـ ـلِ وإنْ صلَّى وصَامَا[3]

* ولعليةَ شعرٌ توبِّخُ به وكيلاً لها ظَهرَتْ منه خيانةٌ في مالِها، فقد وَردَ أنَّه كانَ لها وكيلٌ يُقال له سِبَاعٌ، فوقَفَتْ على خيانتِه، فضربَتْه وحبسَتْه، فاجتمعَ جيرانُه إليها، فعرّفوها جميلَ مذهبِه، وكثرةَ صِدْقِهِ، وكتبوا بذلكَ رقعةً، فوقعت فيها:

أَلا أيّهذَا الرَّاكبُ العِيْسَ بلّغَنْ سِباعَاً وقُلْ إن ضمَّ ركْبَكُمُ السَّفَرُ
أَتسلبُني مَالي وإنْ جاءَ سَائِلٌ رَقَقَتَ لهُ إنَّ حطَّه نحوكَ الفقْرُ
كَشَافيةِ المرضىٰ بعائدةِ الزّنىٰ تُؤَمّل أَجْراً حيثُ ليسَ لها أَجْرُ[4]

* هذا وأشعارُ عُليّة منثورةٌ في كُتُبِ الأدبِ والتَّراجِم، وقد أوردنا منها جملةً متنوّعةً، ولكنّي أذكرُ القارىءَ الكريمَ بأنّنا نَشُكُّ في بعضها، حيثُ وردَ بأنَّ معظم الأشعارِ تُنْسبُ إليها، أو نُظِمت لها، والله أعلمُ بالصَّواب.

---

(١) البصائر والذخائر (١/ ٨١ و٨٢).
(٢) البصائر والذخائر (١/ ٨١ و٨٢).
(٣) نزهة الجلساء (ص ٦٢).
(٤) الأغاني (١٠/ ١٨٣)، ولعلّ الشَّاعر قد استوحىٰ منها قوله:

كساعيةٍ للخير منْ كَسْبِ فرجِها لكِ الويل لا تَزْني ولا تتصدّقي

ويروى:

ومطعمةُ الأيتامِ منْ كسْبِ فرجِها لكِ الويلُ لا تَزني ولا تتصدّقي

عـلـيَّـةُ وآرَاءٌ ورُدُود:

* هذهِ السَّيِّدةُ الأميرةُ الأنيقةُ الرّقيقةُ خالدةُ الذّكْرِ بينَ نساءِ العلْيَة في قُصور الخُلفَاء والأمَراءِ في المَشْرقِ العربيّ ، وفي مَشْرقِ الخلافَةِ العبّاسيّة بغدادَ دارِ السَّلامِ.

* ومنذُ أنْ نَهَدَتْ ، تعلَّمَتْ وتهذَّبَتْ وتأدَّبَتْ ، وغُذِّيتْ علىٰ موائدِ العِلْم والأدَبِ والشِّعْر ، فنشَأَتْ نشأةَ العفيفاتِ ، وكانت تقولُ: لا غَفَر اللهُ لي فاحشةً ارتكبتُها قَطّ ، ولا أقولُ في شِعْري إلا عَبَثاً.

* وكانتْ عليّةُ تترنَّمُ في شِعْرِها الذي تَنْظِمه ، حتّى قالَ النَّاسُ: ما اجتمعَ في العُصُورِ الإسلاميّة قطّ أخٌ وأختٌ ، أحْسَنُ غناءً منْ إبراهيمَ بن المهدي وأختِهِ عليّة ، ولكنَّها سَبقَتْه في ذلك ، فكانتْ إذا غنَّتْ تكادُ تحرِّكُ الحجرَ ، وتطيِّرُ الوَقُورَ ، وتستخفُّ أربابَ العقولِ الرَّاجِحَة ، وتقتلُ النُّفوسَ المُغْرَمةِ طرَباً ، ولكنْ لم يكُنْ يسمعُها إلاّ أهلُها[1].

* ولكنَّ كثيراً منْ أعداءِ عُليّةَ وأعداءِ الرَّشيدِ لَفَّقُوا قَصَصاً وأحداثاً لها للإساءة إليها ، والنَّيل من مكانتها ،والعدوُّ إذا أرادَ مقَالاً في عدوّه وَجَدَ له مَجالاً ، وتلمَّسَ العثَراتِ والسَّقَطات ، وترقَّب الهنَاتِ فأذاعَها وضخَّمهَا ، وطبَّلَ لها وزمَّرَ ، وعَمِلَ من الحبَّةِ قُبّة.

* من ذلك ما نقرؤهُ في شِعْرِ أبي فِراس الحَمْداني الشَّاعر المشهور ، حيثُ حطَّ من مكانَةِ عُليّة وأخيها إبراهيم بنِ المهدي بل ومنْ بني العبَّاس ، وذلكَ في قصيدةٍ طويلةٍ نَظَمها يعارضُ فيها محمَّدَ بنَ عبد الله بنِ سكَّرة الهاشميّ في قصيدتهِ التي يفتخرُ بها علىٰ الطَّالبيين ، يقولُ أبو فِراس في مَطْلَع القصيدة:

الـدِّيْـنُ مُخْتَـرَمٌ والحـقُّ مُهتَضَـمُ   وَفَـــيءُ آلِ رسُـــولِ اللهِ مقْتَسَـــمُ

---

(١) انظر: سيدات البلاط العباسي (ص ٢٩) باختصار.

ومنْها:

يَـا لَلـرِّجَـالِ أَمَـا للهِ منتَصِـفٌ ... مِـنَ الطُّغَـاةِ أمَـا للـدِّيـنِ منتَقِـمُ

بَنُـو علـيٍّ رعَـايَـا فـي دِيَـارِهِـمُ ... والأمـرُ تَمْلِكُـه النِّسـوانُ والخـدَمُ

لا يُطْغِيَـنَّ بنـي العبَّـاس مُلكُهُـمُ ... بَنُـو علـيّ مَـوَاليْهـمْ وَإنْ زَعَمـوُا

أَتَفْخـرونَ عَلَيهـم لا أَبَـا لكُـمُ ... حتّـى كـأَنَّ رسـولَ اللهِ جـدّكُـمُ

ويذكرُ أبو فِراس في هذه القَصيدةِ الطويلة مثالبَ العبّاسيين، ويبين مناقبَ الطَّالبيّين، ويبيّنُ كذلك مكانَتَهم منْ رسولِ اللهِ ﷺ، ثمّ يقارنُ بينهم وبينَ العبّاسيين ويذكرُ عليّةَ وإبراهيم بن المهدي فيقول:

تَبْـدو التِّلاوةُ مِـنْ أَبيَـاتِهم أَبَـداً ... وفـي بُيُـوتكـمُ الأوتَـارُ والنّغَـمُ

منكُـم عُليّـةُ أمْ مِنْهُـم وكـانَ لَهُـم ... شَيـخُ المُغَنِّيـنَ إبـراهيـمُ أمْ لكُـمُ

ثم يختمُها بقولهِ:

الرّكْنُ وَالبَيْتُ وَالأسْتَارُ مَنْزِلُهمُ ... وَزَمـزَمٌ والصَّفَـا وَالحِجْـرُ وَالحَـرَمُ

صَلّـىٰ الإلـهُ عَلَيْهـم أيْنَمـا ذُكـروُا ... لأنَّهـم للـوَرَىٰ كَهـفٌ ومُعْتَصَـمُ[1]

* ومن الآراءِ الفَاسِدة التي نَجِدُها في بَعْضِ المصادر الأدبيّة من مثْل الأغاني، قصّة عشقِ عليّة لخادمَيْن عندها، حيثُ تَظْهَرُ عليةُ عاشقةً قد خَلَعَتْ عَذارَ الحياءِ، وراحتْ تعبِّرُ عنْ لواعجِ الحبّ غير مباليةٍ بأحَدِ حتَّى ذاعَ سرُّ هذا الحبِّ في قَصْرِها، وعُرِفَ أمرُهَا بينَ الوشَاةِ والعذّال في حبِّها لغلامها «طلّ» و«رشَأ» ـ كما مرّ معنا ـ، وعندما عَلِمَ الرّشيدُ منعها، ثمَّ سمحَ لها بحبِّ طلّ! والتغزّل في الخادِمِ الآخر رشأ!!. ومن ثم راحتْ عليةُ تعمدُ إلى الاستتارِ والتّعميةِ والتَّصحيف في غَزَلها بهذيْن الخادمَيْن، وتنظمُ فيهما مارقَّ وراقَ لها منَ المقطّعات والأشْعار ثمَّ تغنّيها وتذيعها بينَ النَّاسِ.

* وعندما كَثُرتْ أَغْزالُها في رشأ، وصكَّتَ أسْمَاعَ الرَّشيدِ، ضاقَ ذَرعاً

---

(١) انظر: ديوان أبي فراس (ص ٢٨٨ ـ ٢٩٤) طبعة دار الجيل بتحقيق د. يوسف شكري فرحات.

بهذهِ الشَّائعاتِ ، فأَصْدَر حُكْماً ـ كما يزْعمُ الأصبهاني ـ بإبعادِ رشأ عن القَصْر ، وقيل قد قتَله.

* ومنَ العجيبِ أنْ نَجِدَ في عَصْرِنا الحاضرِ الدّكتور «زكي مبارك» يوافِقُ الأصبهانيّ في «أغانيه» وفي مَزَاعِمِه بحبِّ علية لِطَلّ ورشأ ، وتغزّلها بهما ، أو تكنيتها مرّة باسمِ فتَاةٍ ، ومرّة باسمِ فَتىً ، وذلك محاولة منها لتعميَةِ وتَغْطيةِ الحقيقةِ ، وتنفيسِ العواطفِ المكبوتةِ والأحاسيس المتأجّجة ، يقول الدّكتورُ زكي مبارك في معرض حديثهِ عن عليّةَ : وحديثُ علية بنتِ المهديّ معروفٌ ، فقد حرَّمَ عليها أخوها هارونُ الرّشيدُ أنْ تشبِّبَ بغلامها طلّ ، فكانَ منْ نتيجةِ ذلك أنْ تشبَّبَتْ بجاريتها زينب وقالَتْ فيها :

وَجَــدَ الفُــؤَادُ بــزَيْنَبَــا وَجْــداً شَــدِيْــداً مُتْعَبــا

* ويتابعُ زكي مُبارك رحلةَ هذا الاكتشافِ العظيم فيقول :

هو شعرٌ سخيفٌ ، ولكنَّه يدلُّ علىٰ أنَّ عشْقَ المرأةِ للمرأةِ ممّا تسيغُه النُّفوس في ذلك العَهد ، وليس معنىٰ ذلك أنّنا ننكرُ أنَّ زينبَ هنا كِنايةٌ عن طلّ ، ولكن معناه أنَّ تشبيبَ عليةَ بزينبَ كانتْ حيلة سائغة لِسَتْر هَواها الصَّحيح[١].

* ثمّ يتابعُ قائلاً : ولا مَريّة في أنَّ العربَ قَتَلُوا عواطفَ المرأةِ ، وحرمُوها منَ التَّشبيب ، ولهم في ذلك عُذْرٌ مقبولٌ ، فإنَّ الغيرةَ لم تُوجَدْ ، ولن توجدَ في مثْلِ النُّفوس العربيّة ، والعربُ بطبيعتهم يكرهونَ الشَّريك أو شبْه الشَّريك ، ويأْبَونَ أنْ يسمعوا حديثَ المرأةِ عن هواهَا المشبوبِ ، بل يغارون منْ تحدُّثِ الرَّجل عن هواه[٢].

* إنَّ هذَا الاضطرابَ الذي جاءَ به زكي مُبارك ، وهذه الآراء السَّقيمة التي لا تعتمدُ علىٰ الأصولِ قد أوقعتْ كثيراً منَ الدَّارسين في حيرةٍ وتساؤلاتٍ أمامَ

(١) انظر : مدامع العشاق (ص ١٠٤).
(٢) المرجع السابق نفسه (ص ١٠٥).

قصَّةِ عليَّةَ بنتِ المهدي الملفَّقة ، ومنْ هذا المنطلقِ يتساءلُ «فايد العمروسيّ» في كتابهِ «الجواري المغنّيات» فيقولُ: كيفَ تغرمُ عليةُ بِخَدَمِ الرَّشيد وأمامَها الأشرافُ والأمراءُ والقوّادُ والشّعراءُ وغيرُهم منْ ذوي المكاناتِ الذين يَليْقُونَ بها وتليقُ بهم؟! والجوابُ أنَّ عليَّةَ كانَتْ محجبة فهي واحدةٌ منْ نساءِ القُصور اللواتي لهنَّ جَوَارٍ وحاشية ، فلم يكنْ لها منَ السُّبُلِ ما يمكّنُها منْ مخالَطَةِ طوائفِ النَّاس ، كما لغيرِها منَ الجواري المحترفات وغيرِ المحترفات.

ففي الجواري مَنْ أحبَّهُنَّ الخُلفَاءُ وتزاحمَ عليهنَّ الأمراءُ والقوّادُ والأشرافُ! أمَّا عليَّةُ فقد عَصَرَتْ قَلْبَها وفنَّها لـ «طل ورشا»؛ وتلكَ ظاهرةٌ حتميّةٌ منْ ظواهِرِ الكَبْتِ والتَّحجب[1] ، وخاصَّة لفنّانةٍ شَاعِرةٍ كعُليَّةَ التي عاشَتْ خمسينَ عاماً ، ولم تُعْرَفْ عنها فاحِشَةٌ أو رِيْبَةٌ[2].

* وهكذا اضطربَ العمروسيُّ هذا ، كما اضْطَرب قَبْله زكي مُبارك في عليّةَ ، بل أتمَّها زكي مُبارك بالانحرافِ الجنسيّ ، وذلك عندما قال: إنَّ تشبيبَ عليَّةَ بزينبَ كانت حيلة لِسَتْرِ هواها الصَّحيح[3].

* فهل كانتْ عليةُ ذات علاقَةٍ جِنْسيّةٍ شاذَّة مَعَ بنَاتِ جنْسها كما يزعم الدّكتورُ زكي مبارك؟! وبعضُ محلّلي علْم النَّفس الآن؟!

* إنَّ الأمْر جدٌّ خطير إذا حكَمْنَا علىٰ إنسانٍ أو امرأةٍ من خلال أبياتِ قالَها أو أشعارِ نُسِبَتْ إليه ، ونستخرجُ بذلك مقوّمات شخصيّته ونحكمُ عليها ، فليسَ كلُّ ما يُقَال بصحيح؟ وخصوصاً في شخصّيةٍ مثل شخصيّةٍ عليّةَ ذات المكانةِ المرموقةِ ، وذاتِ الأَعْداء الكُثُر لها ولأخيها هارون الرّشيد الذي أطاحَ بالبرامكةِ فَصَارَ أنصارُهم يكيدونَ له ولأُخْتِهِ ما وسعَهم منَ الكَيْد ، ويختلقُون قَصَصَ الغَرام عن عليةَ وعَنْ أختها العبّاسة ، بل ويخترعونَ

(١) لاحظ كيف تخبط هذا المسكين وتعثر في هذا القول.
(٢) انظر: الجواري المغنيات (ص ١٣٩) طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦١ م.
(٣) مدامع العشاق (ص ١٠٥).

الأكاذيب حولَ زُبيدةَ ابنة جعفر[1] تلك المرأة التي لا يوجدُ لها نظيرٌ في تاريخِ نِساء الخُلفاء ، كما كَادَ الأعداءُ كَيْداً شديداً لهارونَ ، لأعْمالِهِ العِظَام ومنها ما نظمه الشَّاعر فيه :

وَطَافَ هَارُونُ والدُّنْيا تَطُوفُ بهِ ... فـي مَـوْكـبٍ يَبْهَـرُ التَّـاريـخَ مَنْظَـرُهُ
يَسْعَىٰ إلىٰ البيتِ أو يغزو تحفُّ بهِ ... رايـاتُـهُ ومَـوَاضِيْـهِ وعَسْكَـرُهُ
فَـإنْ سَعـىٰ فنَـدىٰ كَفَّيْـه مُسْتَبِـقٌ ... إلـىٰ العَتيـقِ وخَـوفُ اللهِ يَعْمـرُهُ
وإنْ غَزَا فالحُتوفُ السُّودُ تَسْبِقُه ... إلىٰ العِدا والفتوحُ البيضُ تَحضُرهُ
سَلِ الغَمـامـةَ إنْ ضَنَّتْ بمُـزْنَتِهـا ... أأَبْصَـرتْ غَيْـرَهُ فـي الأرضِ تمْطِـرُهُ
وَسَـلْ زُبيـدةَ عَـنْ هـارونَ مُعْتكفـاً ... يتلـو الكِتَـاب أَلَـمْ يَخْضَـلَّ مئْـزَره؟

* لقد نسي الخَراصُون والمغرضونَ أنَّ عليّة ـ رحمها الله ـ كانَتْ تناجي ربَّها وتخاطبُه قائلةً في إيمانٍ وثقةٍ ونَقَاءٍ وطُهْرٍ : اللهمّ لا تغفرْ لي حَراماً

---

(١) كانت زبيدةُ ابنةُ جعفر ـ رحمها الله ـ وجْهاً منْ وجوه بغدادَ المشرقةِ في عَصْرها ، عملتْ علىٰ ازدهارِ العمران ، وصنعتْ منْ أعمالِ البرّ ما عجزَ عنه الملوكُ العِظَام ، وخُصوصاً في الحرمَيْن الشَّريفَيْن.
لقد كانتْ زُبيدةُ الدُّرةَ اليتيمةَ اللامعةَ في تاجِ هارونَ الرَّشيد ، بل هي الشّمسُ المشرقةُ لبلاطهِ وقصوره.
ومنْ أعمالِها الخيّرة إقامة المنازل والمصَانِع والبِركَ منْ بغدادَ إلى مكّة ، نَدَبتْ نَفْسَها وأموالَها وعرفاءَ عمّالها ، وبرعاء مهندسيها لإتمام مشروعها بحفر عَيْن زُبيدة بمكةَ فتمَّ لها ما أحبّتْ ، وأصبحَ ركبُ الحاجِّ يلقىٰ الماءَ والرِّفْدَ والبِرَّ ، وكانَ لها مئةُ جاريةٍ يحفظْنَ القُرآن الكريمَ ، لكلِّ واحدةٍ منهنَّ ورْد عشْر منَ القرآن ، يُسْمَعُ في قَصْرها صوتٌ كَدويّ النّحل منْ قراءةِ القُرآن ، وكان لها أيادٍ بيض علىٰ أهلِ العِلْم ، تبرّهم ، وتديمُ صِلاتِهم ، كما أنَّ إفْضَالها على الفُقراء والمسَاكينَ مضْرِبَ الأمثال ، وكانت مفزعَ الخائفِ وملاذَ الملهوف ، وشفاعتُها لا تردُّ عند الرّشيد ، ونزعتها العربيةُ معروفةٌ تقاومُ نفوذَ الفرس وكانتْ من عواملِ القضاء علىٰ البرامكة لِما كانت تحسّ من نفوذهم وافتتان النّاس بهم ، ولا سيما أهل فارس . واقرأ سيرتها بتوسع في كتابنا «نساء من التاريخ ص ٢٩٩ ـ ٣٤٤» فسيرتها إمتاع للأسماع رحمها الله.

أتيتُه ، ولا عَزْماً علىٰ حرامٍ إنْ كنتُ عزمتُه؛ ولا استغرقَني لهوٌ قَطُّ إلاّ ذكرتُ نَسَبي منْ رسولِ اللهِ ﷺ فقصّرتُ عنه ، وإنَّ اللهَ ليعلم أنّي ما كذبتُ قطّ ، ولا وعدتُ وعْداً فأخلفْتُه[١].

* وكانت عليةُ تقولُ أيضاً: لا غَفَرَ اللهُ لي فاحشةً ارتكبتُها قطّ ، ولا أقولُ في شعْري إلا عَبثاً[٢].

* أَبَعْدَ هذا نتّهمُ عليّة بالعَبَثِ ، ونتّهمُها بما ليسَ فيها تجنياً وافتراءً؟! ألم يُؤْثَرْ عنها قولُها تعتزُّ بسلوكِ الطّريق السّوي الذي يؤدي إلىٰ مرضاةِ الله ، ويشهدُ بسلامةِ عقيدتها عندما قالت: ما حرّمَ الله شيئاً إلا جَعَلَ فيما حلّلَ منه عِوضاً ، فبأي شيءٍ يحتجُّ عاصيهِ والمنتهكُ لحرماته[٣]؟!

* ومع هذا وذاكَ نجدُ الشّاعرة الدّكتورة عاتكة الخزرجيّ لا تبرىءُ ساحةَ عليّةَ ، بل تجعل منها مُلهمةَ الشّاعرِ العباسِ بنِ الأحنف ، كما سنقرأُ ذلك في الصّفحات التّاليات ، ونرى تخبُّطَ عاتكة وأوهامَها.

آرَاءُ عَاتِكَةَ الْخَزْرَجِيّ وَأَوْهَامُهَا:

* الشّاعرة العراقيّةُ الدّكتورةُ عاتكةُ الخزرجي[٤] واحدةٌ منْ ذواتِ الأَقْلام

---

(١) انظر: الأوراق للصولي (٢/ ٥٧) ، وفوات الوفيات (٢/ ١٩٨).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) هي عاتكةُ وَهبي الخزرجيّ منْ شَواعرِ العَصْر الحديثِ، وُلدتْ ببغدادَ سنة ١٩٢٤م، وتوفيَ والدُها ولها ستةُ أشهرٍ ، وكان قد أرّخَ وِلادَةَ عاتكةَ ، وأعقبها بهذهِ الدّعواتِ: سَتَرهَا اللهُ تعالىٰ، وجَعَلَها خادمةً له، ولحبيبه صلى الله عليه وآله وسلم. ـ ومَنَّ اللهُ علىٰ عاتكةَ بأمٍّ حانيةٍ ، فأَوْلَتْها كلَّ العنايةِ ، وعلّمتها ، وظهرَ تفوّقُها علىٰ مثيلاتها ، حيث اشتهرت بإجادةِ الإنشاءِ وجَوْدَة الإلقاء ، وتخرّجت في المرحلةِ الثّانويةِ بتفوقٍ عجيب ، فلحقتْ بقسمِ آدابِ اللغةِ العربية وأتمّتها سنةَ ١٩٤٥ م ، ثم عُيِّنَتْ مدرّسةً ، ثم التحقتْ بجامعةِ فؤاد الأوّل بالقاهرةِ ، وظهرت عبقريتها الشّعرية ، وعُرِفَتْ في إرهافِ الأَحاسيس وحبِّ المطالعةِ لأُمّاتِ الكُتب الأدبيّة كالأغاني وغيره. =

النَّاضِجَةِ الجميلةِ ، وواحدةٌ من شَاعِراتِ عَصْرِنا الحالي ممن رقَّ شعرُهَا وَرَاق ، وهو كالرَّيحان عَطِرُ الانتشاق في وجدانِ عشّاقِ الفنِّ والكلمةِ الحلوةِ المِغْنَاج ، وشعرُهَا جميلُ الموضوعاتِ ، كثيرُ الصُّور ، يدلُّ علىٰ شاعريتها وجمالِ أنفاسِها اللطيفةِ التي تهزُّ الألباب بشَذَاها.

* ولكنَّ هذا لا يمنعُنَا أنْ نضعَ النّقاطَ على الحروفِ ، وأنْ ننقدَ هذه الشَّاعرة التي وهمَتْ في قصّةِ عليّةَ بنتِ المهديِ ، وخَلَطَتْ بينها وبين «فَوز» محبوبَة الشّاعرِ العبّاسِ بنِ الأحنف الشّاعر العبّاسي الغَزِل ، حيثُ قامت الدكتورة عاتكةُ الخزرجي بتحقيق ديوانه عام (١٩٥٤م) ، وكانتْ قد كَتَبَتْ مقالَيْن في مجلّةِ الرِّسالةِ المصريّة الشّهيرة عام ١٩٦٣ م في العددَيْن رقم (١٠٣٥ و١٠٣٦) ، ثمَّ أعادتْ نَشْرَ المقالَيْن في فَصْلٍ من كتابها «العبّاس بن الأحنف» ونشرته وزارةُ الإعلام ببغداد عام (١٩٧٧ م) دون أنْ تغير فيهما شيئاً ، وزعمتْ في هاتَيْن المقالتَيْن أنَّ العبَّاس بنَ الأحنفَ قد تغزَّلَ بسيّدةٍ من سيّداتِ البلاطِ العبّاسي ، وأنَّ هذه السَّيّدة عندها هي عُليّةُ بنتُ المهدي أختُ

= ـ وقضت عاتكةُ ستَّ سنواتٍ في باريس ، حيث أعدَّتْ رسالةَ الدّكتوراه التي حقَّقَت فيها ديواناً للشَّاعر الغَزِل «العبَّاس بن الأحنف» الشّاعر العبّاسي المعروف ، ثم عملت بالتَّدريسِ في جامعةِ بغداد ، وزارتْ عدداً منَ العواصم العربية.

ـ ولعاتكةَ بضعةُ دواوين منها: «أنفاس السَّحر» وكَتَبَتْ في صدره الإهداء التَّالي: إلى كلّ ناطقٍ بالضّاد ، ومؤمنٍ بلغةِ القرآن ، ومباركٍ لوحدة العربِ ، أهدي أوّل تسبيحةٍ لي في محراب الأدب.

ـ ولعاتكة أعمال أخرىٰ في الشّعر منْ مثل ديوانها: لألاء القمرُ ، وأفوافُ الزّهر ، ولها مسرحية شعرية بعنوان مجنون ليلى ، توفيت عاتكة في شهر (١١ سنة ١٩٩٧ م رحمها الله).

ـ وتمتازُ أشعارُ عاتكةَ بالرقّةِ والجمالِ ، كما شاركتْ في كثير من الأحداثِ التي ألمّتْ بالوطنِ العربي من مَشْرقِهِ إلى مَغْربه ، ومن محيطهِ إلى خليجه ، وفي أشعارها نفحاتٌ رومانسية أخّاذة ، وديباجةٌ مشرقة ، ونغمٌ عذب عبّرت فيه عن عواطفها ومشاعرها.

هارونَ الرشيد ، وأنَّ عليّةَ هي صاحِبَةُ العبَّاس ـ كما سنرىٰ بزعمها ـ.

* ومنَ العجيبِ أنَّ الدّكتورةَ عاتكة الخزرجي تؤكِّد ذلك في واحدةٍ من قَصائِدها الحِسَان ، والتي تتحدَّثُ فيها عن بغدادَ ، بلدِ الهوىٰ النَّشْوان ، والتي ظَهَرت لها بأنَّها بلد السِّحْرِ في هَمْس العُيون ، وبينَ السَّالفة والجِيْد ، وأنَّها ذاتُ دلٍّ كالنَّسيم اللطيفِ يعطِّرُ الدُّنيا بأَنْدائه الرَّقيقة ، ثمّ تتعرّضُ لذكْرِ عُليَّةَ ، والعباسِ بنِ الأحنف فتقولُ من قصيدةٍ طويلة :

السِّحْـــرُ فـــي بَغْـــدادَ أَطْـ ـيــافٌ مِــنَ الأمْــسِ البَعيــد
وكَــأَنَّنــي أَلقــىٰ بِهــا بَعْــثَ الشَّــواعِــرِ مــنْ جَــديــد
وَأَرىٰ «عُليَّــة» تُنْشِــدُ الـ أَشْعَــارَ فــي حَــرَمِ الــرّشيــد
والشَّــاعِــرَ المفتــونَ «عبَّـ ـاسَــاً» يُــدَنْــدِنُ بــالقَصيــد[1]

* ونعودُ لنلتقي عاتكةَ الخزرجيّ في حديثها ومقالَتِها عن العبّاس بنِ الأحنف وفَوز محبوبتِه التي جَعَلَتْها أميرة «عبّاسية» هي عليّةُ؛ فقد شكَّتْ عاتكةُ فيما رواهُ أبو الفرج الأصبهانيّ من أنَّ «فوزاً» كانتْ جاريةً لمحمَّد بنِ منصور الذي كان يلقَّبُ بفتى العَسْكَر ، وهذا ليس غريباً في عَصْر كَثُرتْ فيه الجواري كثرةً مفرطةً ، فكم منْ جاريةٍ لَمَعَ اسمُها ولانَعْرِفُ عنها ولا عَنْ صاحِبِها أيَّ شيءٍ! ولذا فإنَّ عاتكةَ الخزرجيّ تؤكّدُ بأنَّ تكتُّمَ العبَّاسِ بنَ الأحنفِ عن اسمِ محبوبَتِهِ ليس عَادياً ، واحتاطَ لذلك لئلا يعرِّضَ نَفْسَه للأخْطَارِ.

* تقولُ عاتِكةُ: إنَّ صاحِبَةَ العبَّاس هذه لو كانَتْ جاريةً أو امرأةً عاديةً ، لما كلَّفَ الشَّاعر نَفْسَه عناءَ هذا التّكتُّمِ فأحاطَها بهذا السِّياج فَظَلَّتْ مختفيةً عنّا طولَ هذه العُصور ، وبقيتْ هكذا إلىٰ اليومِ لُغْزاً يرقُدُ في ضميرِ الزَّمن.

* ثمّ تخْلُصُ عاتكةُ الخزرجيّ في مقالها الأوّلِ إلى النَّتيجةِ الآتيةِ ،

---

(١) انظر: بغداد في الشعر العربي (ص ٢٦٤) لجمال الدين الآلوسي ، طبعة المجمع العلمي العراقي عام ١٩٨٧م.

فتقول: إنَّها لابدَّ أنْ تكونَ سيّدةً منْ سيّدات البلاطِ العبَّاسي ، وهذا وَحْدَهُ يمكنْ أنْ يفسِّرَ لنا سَبَبَ حيْطَةِ الشَّاعر في كتمانِهِ هَواه ، وإحاطة شَخْصِ الحبيبةِ بهذا الجوِّ منَ الغموض.

* وفي المقالِ الآخر ترفعُ عاتكة الخزرجيّ السِّتار عن شَخْصِ الحبيبةِ ، ترفعُ السِّتار بِيَدِها هيَ وعلىٰ طريقتها ، فكانتِ الحبيبةُ عندها «عليّة بنت المهدي» معتمدة بذلك الاكتشافِ والاستنتاج على ما أوردَه الأصبهانيُّ في «الأغاني» منْ أوصافِ عليّة وربطَتْها بالأوصافِ والخصائِص التي ذكَرهَا العبَّاسُ بنُ الأحنفِ لصاحبتِهِ في أشعارِهِ ومقطعاتِهِ ، وظَهَرَ لها أنَّ الشَّبَهَ كبيرٌ ، والأحوالَ متقاربةٌ نوعاً ما ، وهذا ما جَعَلها بأنْ تقولَ: إنَّ صاحبةَ العبّاسِ بنِ الأحنف كانتْ عليّةُ بنت المهدي نَـفْسها.

* ومنْ أوهامِ عاتكة أنَّ عليَّة كانت ابنةَ جاريةٍ مغنية مِنَ المدينة ، وهي مكنونةُ جارية المروانيّة ، وكما زعمَ الأصبهاني أنَّها كانتْ من أَحْسنِ النَّاس وأظرفِهم ، وكانتْ شاعرةً تقولُ الشِّعْرَ الجيّد[1].

* وتزعمُ عاتكةُ قائلةً: إنَّ هذهِ الأوصافَ موجودةٌ في صاحِبَةِ العبَّاس وقد ذكَرها في شِعْرِه.

* وفي «الأغاني» يقولُ الأصبهاني: كانتْ عليّةُ تحبُّ أنْ تُراسِلَ بالأشْعَارِ مَنْ تختصّه[2]. ولاحظتْ عاتِكَةُ منْ خلالِ شِعْرِ العبّاسِ أنَّه كانتْ بينَه وبينَ صاحبته مُراسلاتٌ ، بل ومراسلاتٌ شِعْرية أيضاً.

* ومن خلالِ استقراء شِعْر العبَّاس ، ومعرفةِ محبوبته فَوز تبيَّن أنَّ صاحِبَتَه لم تكن شاعرةً ، وأنَّ ما في شِعْرِه منْ رسائلَ ومراسلات بينهما لا يدلُّ على أنَّها كانَتْ مراسلات شِعْرية ، وأنَّ العبَّاس كان يتحدَّثُ عن مَضَامينِ هذه الرَّسائل المُرسلة منه إليها ، أو مرسلة منها إليه.

---

(١) انظر: الأغاني (١٠/ ١٩٩) بتصرف يسير.
(٢) انظر: الأغاني (١٠/ ٢٠١).

* ومنْ أوهامِ عاتكة ، وتجنّيها علىٰ عليَّةَ ، ما فسَّرَتْه من شِعْر العبّاس :

عَصَبَتْ رأسَها فَلَيْتَ صُدَاعاً   قَدْ شَكَتْهُ إلَيَّ كانَ بِراسي

* فقد قارنَتْ بين هذا البيتِ وبين ما ذكَره الأصبهانيّ من أنّه كان في جبينِ عُليّة فَضْل سَعَة ، فاتَّخذتْ منْ أجْلِهَا العَصَائِب المكللة بالجوهَرِ لتَسْتُرَ جبينَها[1].

* وتقولُ عاتِكةُ : وقد لا يصُعُبُ عليك بعد هذا أنْ تتفهَّم سرَّ تعلّلِ المحبوبةِ بالصَّداع أمامَ شاعِرِهَا تعتذرُ به عنِ العصَابةِ تشدُّ بها رأسها .

* بينما أوردَ أبو الفرج خِلاف ذلك عن حقيقةِ عصابةِ فَوز محبوبة العبّاس فقال : وجَّهَ العبّاسُ بنُ الأَحْنَفِ رسُولاً إلىٰ فوز ، فعادَ فأخبرَه أنَّها تَجِدُ صُداعاً ، وأنَّه رآها معصوبةَ الرَّأْسِ ، فقال العبّاس :

عَصَبَتْ رأْسَها فَلَيْتَ صُداعاً   قَدْ شَكَتْهُ إلَيَّ كانَ بِراسي

ثمَّ لا تَشْتكي وكانَ لها الأَجْـ   ـرُ وكنْتُ السَّقَامَ عنْها أُقَاسي

ذَاكَ حتَّى يقولَ لي مَنْ رآني   هكَذا يفْعَلُ المحِبُّ المواسي[2]

* وقرأتْ عاتكةُ في الأغاني بأنَّ عليَّةَ كانَتْ ورعةً تقيّةً ، حَسنَةَ الدِّيْنِ ، وكانت لا تغنّي ولا تشربُ النَّبيذ إلا إذا كانت معتزلةَ الصَّلاة ، فإذا طهرتْ أقبلتْ علىٰ الصَّلاة والقرآن[3] ، وأنَّها كانَتْ تصومُ وقد ذكرتْ هذا في شِعْرها[4] ، وأنَّها أيضاً حجَّتْ في أيّام أخيها الرَّشيد[5] ، فاستقرأتْ عاتكةُ أنَّ في دِيوانِ العبّاس شِعْرٌ يبيّن تقوىٰ صاحبته وصيامها وحجّها .

* واختلطتْ بعضُ الأحداثِ عند عاتكةَ اختلاطاً عجيباً ، حيثُ إنّها

---

(١) المصدر السابق (١٠/ ٢٠٠).

(٢) الأغاني (١٧/ ٧٥) ، وانظر : ديوان العباس بن الأحنف (ص ١٦٢).

(٣) الأغاني (١٠/ ٢٠٠).

(٤) الأغاني (١٠/ ٢٢٢ و٢٢٣).

(٥) الأغاني (١٠/ ٢٢١).

جَعَلَتْ فَوزاً تسخرُ منْ شَيْبِ العبَّاس ، وذلك في خَبرٍ رواهُ صاحِبُ الأغاني حيث أوْرَدَ خَبراً رفَعه إلىٰ إبراهيمَ بنِ إسماعيل قال :

جاءَنَا العبَّاسُ بنُ الأحنفِ يوماً وهو كئيبٌ ، فَنَشَّطْنَاهُ ، فأبىٰ أنْ ينْشَطَ ، فقُلْنا : ما دهاكَ؟ فقالَ : لقيتني فوزٌ اليومَ ، فقالت لي : يا شيخ! وما قالَتْ ذلك إلاّ منْ حَادِثِ مَلالٍ ، فقُلْنا له : هوِّنْ عليكَ ، فإنَّها امرأةٌ لا تَثْبُتُ علىٰ حَالٍ ، وما أرادتْ إلاّ العبثَ بك ، والمُزاحَ معك[1] .

* وأخذتْ عاتكةُ هذا الخبرَ ببساطةٍ وقالت : إنَّ العبَّاس يسبقُ عليّةَ بستٍ وعشرينَ سَنة ، فلا عَجبَ أنْ تَسْخَر من شَيبةٍ تدلُّ علىٰ كُهولَته بِصَباهَا الغَضِّ النَّضير .

* وآخرُ أوهام عاتكة الخزرجيّ في عُليّة ما ورَدَ في شِعْرِ العبّاس ، من أنَّ أهْلَ الظَّرف قد تهادوا المسَاويك ، وأقاموها مقامَ الرّهينة ، والتّذكرةِ ، والوديعةِ ، والقُبْلةِ ، كما فعلوا باللّبان الممضوغ ، والتّفاح المعضوض؛ وكذلك وقَعت عاتكةُ في وهْم آخرَ عندما وَرَد في شِعْر العبّاس منْ أنَّ جواري الخليفةِ المهدي ، وزوجه الخَيزُران بنت عطاء قد تشفَّعْنَ له عند عُليّة ، قال :

طَالَ لَيْلي بِجَانِبِ البُسْتَانِ ... مع جَوارِيْ المَهْدي والخَيْزُرَانِ
أيُّها العَاشِقُون قُومُوا جَميعاً ... نَشْتكي ما بِنَا إلىٰ الرحمٰنِ
إنَّ فَوْزاً لمّا أتَاهَا الجَواري ... يَتبَاكَيْنَني لِما قَدْ شَجَانِي
وتعطَّفْنَها علَيَّ ويَحْلِفْـ ... ـنَ على ما ذَكَرْنَ بالأَيْمانِ
أَرسَلَتْ باللُّبانِ قَدْ مَضَغَتْه ... فَوقَ تفَّاحَةٍ علىٰ رَيْحَانِ
وبمسْواكِها الذي اخْتَارَهُ اللّـ ... ـهُ لِفيْهَا منْ طيّبِ الأَغْصَانِ
فَكَأنّي وَجَدْتُ ريْحاً منْ الفِر ... دوسِ فَاحَتْ منْ ريحِ ذَاكَ اللُّبانِ[2]

---

(١) الأغاني (١٧/ ٧٦ و٧٧) .
(٢) انظر : الموشى (ص ٢١٢ و٢١٣) ، وديوان العباس بن الأحنف (ص ٢٦١ و٢٦٢) مع الجمع والتصرف .

* ولكنْ هل تستطيعُ الجواري الباكيات أو المتباكيات أنْ تشفعَ في مسألةٍ كهذه للعبّاسِ عند أميرةٍ خطيرةٍ هُنَّ من جواريها وجواري أبيها وزوجِ أبيها؟! بل هل يجرؤونَ أنْ يتحدثنَ معها في مثْلِ هذا الحديثِ الخطيرِ الذي يسيءُ إلىٰ عليّةَ حتّى لو كان صحيحاً؟! وهل تستطيعُ الجواري كتْمانه وعدم التَّحدُّثِ به ولو بين بعضهنّ؟ فالسِّرُّ لا يُكْتَمُ مطلقاً بينَ جماعةِ النِّساء ، ولا يمكن أنْ يُسْتَوْدَعَ السِّرُّ امرأة[1].

* وتخْلُصُ عاتكةُ منْ كلِّ ما عرضْنَاه إلىٰ قولها: وليسَ بعجيبٍ بعد ذلك أنْ تبقىٰ علاقةُ الشَّاعرِ بأميرةٍ مثل هذه ، علاقةَ حُبٍّ أفلاطوني عفيف ، وأنْ يعانيَ شاعرٌ منْ هواهُ المحرومِ ما عَانَاهُ.

* ولقد اختلطَ الأَمْرُ علىٰ عاتكة في كثيرٍ منْ أخْبارِ العبَّاسِ ومحبوبتِهِ «فوز» ، وخُصوصاً عندما قَال:

كأَنَّها حِيْنَ تَـمْشي في وصَـائِـفهـا ... تَخْطُو علىٰ البَيْضِ أو خُضْر القَوايرِ[2]

* وكذلكَ عندما وصَفَ محبوبتَه بأنَّها تسْكُنُ القُصور ، وأنَّه كانَ يراها تطلُّ منْ شرفةِ قَصْرِها ، ووصائِفها إلىٰ جانِبها ، فقال:

وَتَشَـرَّفَـتْ مـنْ قَصْـرِهَـا فَلَمَحْتُهـا ... فَـلأَسْـأَلَـنْ عَـنِ النَّعيـمِ الأَكْبَـرِ
وكأَنَّ نِسْوتَها الكَواعِبَ حَولَها ... زُهْرُ الكَواكِبِ حَوْلَ بَدْرٍ أَزْهَرِ[3]

* ولعلَّ هذه الصِّفَاتِ وهذه الأوصاف وغيرها قد أغْرَتْ عاتكةُ في أنْ تقولَ إنَّ صاحبةَ العبَّاس ما كانتْ إلاّ سيّدة من سيِّداتِ البلاطِ العبّاسي هي عليَّةُ نَفْسُها ، ونَسيَتْ عاتكةُ أنَّ قصورَ الأغنياءِ عَصْرَ ذاكَ كانت تَزْخَر بالجواري من كلِّ حَدَبٍ وصوبٍ ، ولا غرابةَ في أنْ يكونَ العبّاسُ قد تغزَّلَ بواحدةٍ منهنّ أو أكثرَ منْ واحدة؟ وفي شِعْره ما يدلُّ علىٰ ذلك كقوله مثلاً:

---

(١) انظر: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري (ص ٢٦٧) بشيء من التصرف.
(٢) ديوان العباس (ص ١١٣).
(٣) المصدر السابق نفسه (ص ١٢١).

أبْكي ومثْلي بكَىٰ منْ حبِّ جَاريةٍ　　لَم يَجْعَلِ اللهُ لي في قَلْبِها لِيْنَا[1]

* ولعلَّ أوهامَ عاتكة التي وقَعتْ فيها بشأنِ عليّةَ بنتِ المهدي تتلخَّصُ في أنَّ عاتكةَ كانت فتاةً شاعرةً مرهفةَ الأحاسيسِ ، مشبوبةَ العاطفَةِ ، نشأَتْ وهي تشعرُ بالوحْدَةِ وتحسُّ بالفَراغِ ، حيثُ ماتَ أبوها وهي في المَهْدِ ، ولم تَجدْ أمامَها سوىٰ أمِّها ، فأحسَّتْ عاتكةُ بحاجَتِها إلىٰ القَلْبِ العَاطِفِ ، واليدِ الحانيةِ التي تبدِّدُ وحْشَتَها الجاثمة بالأُنْسِ والمسرَّةِ ، والنَّظرةِ المشرقةِ إلىٰ الحياةِ.

* والدَّارسُ لحياةِ عاتكةَ يكتشفُ أنَّها وصَفَتْ نَفْسَها بأنَّها ابنةُ الآلام ، والشِّعر ، والحبّ ، حيث تقولُ:

قِفِي أَنْشديْنِي مِنْ لُحونِكِ مَا يُصْبي　　فَأَنْت ابْنَةُ الآلامِ وَالشِّعْرِ والحُبِّ
قِفِي أَسْعِدي قَلْباً بَرَتْهُ يَدُ الأَسىٰ　　وَمثْلكِ مَنْ يأْسُو الجِراحاتِ في القَلْبِ[2]

* ولهذا أَلَّفَتْ عاتكةُ مسرحيّةً عنوانها «عليّةُ بنتُ المهدي» وكلّها منَ الشِّعرِ العَاطِفيّ البديع ، من مثْلِ قولِها:

أَنْتَ لو يسْعفُني الوصْفُ أثيرٌ عِنْد نَفْسي
أنْتَ منّي كلّ شيءٍ مالكٌ عَقْلي وحسّي
لستُ أَدري أيّ سِرّ في لِقَانَا وَهَوانَا
قَدَرٌ كانَ بهِ الحبُّ فلا كُنَّا وَكَانَا

* وقد نجحَتْ عاتكُة في تقمّصِ شخصيّة عُليّةَ بنتِ المهدي ، فعبَّرتْ عنها في حرارةٍ ، وأعْرَبَت عنْ مشَاعِرها في أداءٍ رائعٍ ، في شِعْرٍ عالٍ في عذوبَته وسلاسَته ، وفي انتقاءِ ألفاظِه ، وفي جَمال معانيه ، وانسيابِ مغَانيه.

* وَبعْدُ ، فلا عجبَ أنْ تَقَع عاتكةُ في بَعْضِ الأوهامِ في شخصّيةِ

---

(١) ديوان العباس (ص ٢٥٥).
(٢) انظر ديوانها : أنفاس السحر.

عليَّة بنتِ المهدي ، وتخلطُ بينها وبين شخصيةِ فوز محبوبة العبّاس ، وبين آلامها وشِعْرها وحبِّها.

* إنَّ كثيراً مما حِيْكَ وقيلَ حولَ عُلية بنتِ المهدي يحتاجُ إلىٰ تمحيصٍ وتدقيقٍ ، فكلُّ ما نُسِبَ إليها في أخبارِها سَهْلُ التَّلفيق ، صَعْبُ التَّحقيق؛ ولا يمكن أنْ نسلِّمَ بسهولةٍ لما يُقال ، أو أنْ نستسلمَ للزُّور والمحال.

* إنَّ عليّة ـ رحمها الله ـ ونساءَ القومِ الأعلياء قديماً كُن ذواتَ فَضْلٍ ومكارم ، بل كانتِ المرأةُ العربيةُ ذاتَ ماضٍ مجيد ، وبطولاتُها وأعمالُها ممّا سجَّلها التَّاريخُ في شتّى الميادين ، وخُصوصاً في الأَدبِ والعِلْمِ والجهاد وعملِ المبرّات وما شَابَه ذلك ، وكثيرٌ من آثارِها شاهدةٌ لها إلى عَصْرِنا الحاضر.

* وللمرأةِ في القديم دورٌ بطوليٌّ في أَلْوان متعددةٍ من البطولةِ قَولاً وَفِعْلاً ، وعلىٰ نسائِنا المعاصراتِ ومَنْ يليهنَّ أنْ يتخذْنَ منْ مُثُلِ الماضياتِ نِبْراساً لَهُنَّ ، ويَسِرْنَ علىٰ دربهنَّ ، ليكُنَّ منْ ذواتِ الفَضْل والإحسانِ ، وإنْ تأخرتْ بِهِنَّ الأَزْمَان.

* وبعدُ ألا تستحقّ عليةُ بنتُ المهدي ومَنْ في طبقتِها منَ النِّساء الفَاضِلات هذه الأبيات هديةً لطيفةً نُزجيها إليها وإلى كلّ امرأةٍ تودُّ الاستزادةَ من معينِ النُّور؟!

ذاتُ فَضْلٍ وعفّةٍ وجَمَالِ	وجَلالٍ ما بَعْدَه منْ جَلالِ
ذاتُ عَزْمٍ ورقَّةٍ وَاشْتياقٍ	لاعْتِنَاقِ الهدىٰ ووَصْلِ المَعالي
أحرزَتْ كلَّ سامياتِ المزَايا	وَخِلال الكَمالِ خَيْر الخِلالِ
رَجَحان في عَقْلها لا يُضَاهىٰ	وسُموٌّ في قَولِها والفعَالِ

في دِيْوَانِ الشَّهيْرَاتِ:

* إذا كانتْ عُليةُ واحدةً من بناتِ الخُلَفاء ، وواحدةً من أخواتِ الخُلفاء ، وواحدة من عِلْيةِ القومِ ، وواحدةً من فصيحاتِ وبليغاتِ النِّساءِ ، فإنَّ مكانتَها في ديوانِ المشَاهير لا يخفىٰ علىٰ كلّ ذي بَصيرة ، حيث تركتْ آثاراً حِسَاناً في

تاريخِ المرأةِ العربيّةِ ، وفي تاريخِ النِّساء في قصورِ الأُمَراء .

* وأمّا عن وفاةِ ونهايةِ عليةَ بنتِ المهدي ، فقد وردَ أنَّها ولدتْ سنة (١٦٠ هـ) ، وماتتْ سنة (٢١٠ هـ) ، ولها خمسون سنة ، وكانت عند موسى بن عيسى بنِ موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس .

* قال ابنُ الأثير : وفيها ـ أي سنة ٢١٠ هـ ـ توفيتْ عليّةُ بنتُ المهدي ، مولدُها سنة ستين ومئة ، وكان زوجُها موسى بنُ عيسى فولدت منه[١] .

* ويروي أهلُ الأخبارِ سَبَباً غريباً لموتها منَ الصَّعب أنْ تقبلَه العقولُ ، لكننا نوردُه هنا كما جاء في المصادِر المتنوعة حيثُ قالت : كانَ سببُ وفاةِ عُليةَ بنتَ المهدي أنَّ المأمونَ ابن أخيها الرشيد قد ضَمَّها إليه ، وجَعلَ يقبِّلُ رأسَها ، وكان وجهُها مغطًّىٰ ، فَشَرِقَتْ منْ ذلكَ وسَعَلَتْ ثمَّ حُمّتْ بعقبِ هذا أيّاماً يسيرةً وماتَتْ ، فصلَّىٰ عليها المأمونُ ، ودفَنَها في مقابِرِ العبّاسيين ببغداد[٢] .

* وبعدُ عزيزي القارىء ، فهذه عُليةُ بنتُ المهدي العبّاسية ، إحدىٰ نساءِ التَّاريخ الشَّهيرات ، وإحدىٰ النِّساءِ اللائي عِشْنِ في قُصور الأمراءِ ، وكانت ابنة خليفة ، وأخت خليفة ، وعمّة خليفة ، وزوج أمير .

* ولابدَّ منْ أنْ أنوِّهَ إلىٰ ناحيةٍ مهمّة قَبْلَ وداعِ سيرة عُليّة ، من أنَّ بعضَ المؤرّخين قد جَعَلَها وأختها العبَّاسة شخصيةً واحدَةً ، وهذا يخالفُ الحقائِقَ التَّاريخية ، وقد تحدَّثنا في هذا الكتاب عنِ العبَّاسةِ بنتِ المهدي ، ونوَّهنا إلىٰ بناتِ[٣] المهدي ، ومنهنّ العبّاسة وعلية .

---

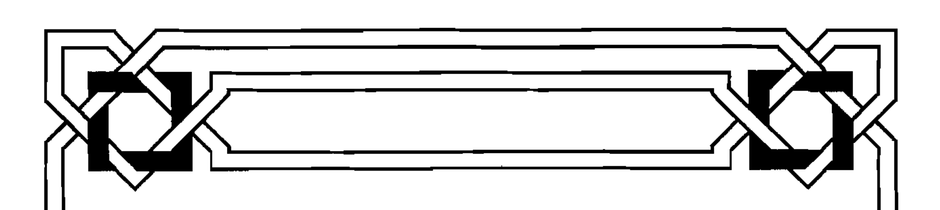
(١) الكامل (٦/ ٤٠١) .

(٢) الأغاني (١٠/ ١٨٥) ، ونهاية الأرب (٤/ ٢٣٧) ، وفوات الوفيات (٢/ ١٩٧) ، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١٨٨) ، والدر المنثور (ص ٣٤٩) ، وأعلام النساء (٣/ ٣٤٢) وغيرها .

(٣) ذكر النويري بنات المهدي وأورد أسماءهن فقال : البانوقة ، وعلية ، وعباسة ، وسليمة . (نهاية الأرب ٢٢/ ١٢٠) .

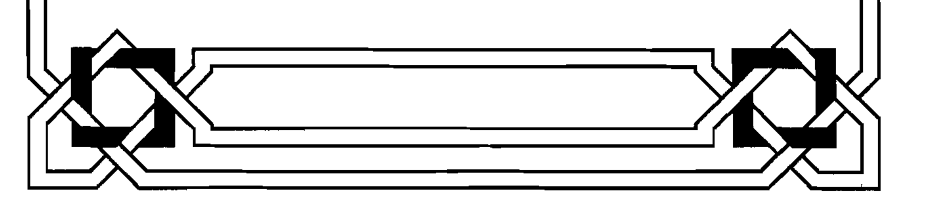
* أخيراً ، أرجو اللهَ أنْ أكونَ قد وفّقْتُ بالحديثِ عنْ واحدةٍ من نسائنِا العربيَّات اللواتي كانَ لهنَّ في التَّاريخ النَّسوي نصيبٌ وفي تاريخنا الوضيء آثارٌ حِسَان .

* * *



(١٢)
العبّاسة بنت المهديّ

* سليلةُ الأعيان ، وجامعةٌ للفضل والعِزّ من أطرافه .
* عُرِفت بالجود والكرم ، والعطف على ذوي الحاجات .
* مباركةٌ ممنعةٌ رزانٌ
تردُّ عن النِّسا ذَمّاً وريبا



أَصْلٌ كَرِيْمٌ وَنَسَبٌ عَرِيقٌ:

* امرأةٌ حازتْ كَرَمَ المفاخرِ ، وأوتيتْ طيْبَ الأَوائِلِ والأَواخرِ ، وجمعتْ عناصرَ الكَرَمِ وكَرَمَ العَنَاصِرِ ، وأصبحتْ سليلةَ الأعيانِ الأكابرِ ، ومَنْ إذا قَال زوجُها: كانَ جَدي ، قالتْ: وجَدّي ، وإنْ ذَكَرَ مبتدأً صالحاً قالتْ: الخبرُ عندي ، وإنْ عُدَّتْ آباؤُهُ الأعيانُ فهم آباؤُها ، وإنْ طابَ ثناؤُه بِسَلَفِهِ فهو ثناؤُها.

* وهذهِ المرأةُ جَمعتِ الفَضْلَ والعزَّ منْ أطرافِهِ ، وجُمِعَ لها المجدُ والكرمُ منْ أصولِه ، كانتْ في عَصْرِها نَجْماً وضَّاءً في سَماءِ الشَّرفِ والإبَاءِ ، والعِفَّةِ ، والصَّونِ والأدَبِ والحُسْنِ والجَمالِ ، ناهيك بالفَضْلِ في مجالِ الفَضَائِلِ ، وفي مكارمِ الأَخْلاقِ.

* فأبوها المهديُّ؛ واسمُه محمَّد أبو عبد اللهِ بنُ أبي جعفر عبد الله بن محمّد بن عبد الله بن عبّاس العَبّاسي ، ثالثُ الخلفاءِ منْ بني العبّاسِ في بغدادَ ، كانَ جَواداً مُمدَّحاً محبّباً إلى النّاسِ ، وصولاً لأقاربه؛ حَسنَ الأخلاقِ ، حَليماً ، حَازِماً ، قصَّاماً للزَّنادِقَة ، ومنْ محاسِنِه أنَّه بنَى العَلَمَيْن في المَسْعى بنين الصَّفَا والمروةَ في المسجدِ الحرامِ بمكةَ المكرمةِ؛ ولهُ منَ الآثارِ الحسَنةِ في عَمارَةِ المسجدِ الحرامِ ومسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ ، والاهتمامِ بذلكِ ما ترويه الأيَّامُ والنَّاسُ والمصادرُ.

* وأَخُوها هارونُ الرَّشيد أبو جعفر بنُ المهدي بن المنصور بنِ عبد الله العبَّاسي؛ أحد أفاضِلِ خُلفَاءِ بني العبَّاسِ ، حجَّ مرَّاتٍ في خلافته ، وغَزَا عدَّةَ غَزَواتٍ ، حتى قِيْلَ فيه:

فَمَنْ يَطْلُبْ لِقَاءَكَ أو يُرِدْهُ ... فَبِالحَرَمَيْنِ أوْ أقْصَى الثُّغُورِ

* وكانَ شَهْماً ، شُجَاعاً ، حَازِماً ، جَوَادَاً ، مُمَدَّحاً ، فيهِ دِيْنٌ وسُنَّةٌ ، وَرَدَ أنَّه كانَ يُصلِّي في اليومِ مئةَ ركعةٍ إلى أنْ ماتَ ، ويتصدَّقُ كلَّ يومٍ من بيتِ

مالِهِ بألفِ درهم ، وكان يخضعُ للكِبارِ ويتأدَّبُ معهم ، ولهُ مشاركةٌ في الفِقْهِ ، والعِلْمِ ، والأدبِ ، وكانَ يتواضَعُ لأَهْلِ العِلْمِ والدِّينِ ، ويكثرُ منْ محاضَرة العُلماءِ والصَّالحينَ ، ويميلُ إلى أَهْلِ الفِقْهِ ، ويكرهُ المِراءَ في الدِّينِ ، كثيرُ البكاءِ من خشيةِ اللهِ تعالى ، سريعُ الدَّمعةِ عنْدَ الذِّكْرِ ، مُحبّاً للمواعِظِ ، ومحاسنُه جمَّةٌ غزيرةٌ تكَفَّلَتْ بها كُتُبُ التَّراجمِ المعتمدة.

* وجدُّها أبو جعفر المنصور المؤسِّسُ الحقيقيُّ للدَّولَةِ العبَّاسيةِ ، وصانِعُ مَجْدِها وتراثِها ، كان قد روى العِلْمَ ، وعَرَفَ الحلالَ والحرامَ ، وساسَ هو وبنوه مُلْكَهم سياسةَ الملوك ، وكانَ يخالطُه أبَّهةُ المُلْكِ بِزيِّ أُولي النُّسْك ، ذا حَزْمٍ وعَزْمٍ ودَهَاء ، ورأي وشجاعةٍ وعَقْل ، وله أعمالٌ تَشْهدُ لَهُ لا عَليه.

* وأقاربُ ضيفة حلقتِنا منَ الرِّجالِ كلُّهم أَعْلامٌ ، ومنهم أخوها موسى الهادي ، الذي اشتُهرَ بشدَّة الغيرَةِ على النِّساء ، وعلى حريمِه خاصَّة ، وكان شُجاعاً بطَلاً جَواداً سخيّاً أديباً صَعْبَ المرام.

* أمّا قريباتُها منَ النِّساء فكُنَّ نجومَ السَّماءِ في الأدَبِ والفَضْلِ والعَفَافِ والصَّون ، وعَمَلِ المبرّات والخيراتِ ، ومنهن: زبيدةُ[1] ابنةُ عمِّها جعفر ، وزبيدةُ هذه منْ فُضْليات الدَّهر كلّه ، وحَسَنَةٌ منْ حسنات العُمر ، وناهيك بفضائلها الحِسَان في الحرمَيْنِ الشَّريفَيْنِ ، وزُبيدة اسمُها الحقيقي أمةُ العزيزِ بنتُ جعفرَ بنِ المنصور ، وهي زوجُ هارون الرشيدِ أشهرُ خلفاء بني العبّاس ، وأشهرُ مشاهيرِ المشاهير ، وهيّ أمُّ الأمين بن الرشيد ، وُلِدَتْ في حياةِ جدِّها المنصور ، فكان يرقِّصُها وهي صغيرةٌ ويقول لها: أنت زُبيدة ، أنتِ زُبيدة[2] ، فَغَلَبَ هذا اللقبُ على اسْمِها الحقيقي.

---

(١) للتوسّع والمزيدِ منْ أخبارِ هذه السَّيدة الفاضلةِ ، اقرأْ سيرتَها الطَّيِّبةَ في موسوعتنا: «نساء منَ التّاريخ» (ص ٢٩٩ ـ ٢٤٤) ، وستجدُ بإذن اللهِ ما يسرُّك ، وما يجعلك تزدادُ إعظاماً لها ولمثيلاتها في تاريخنا.

(٢) قال ابنُ منظور ـ رحمه الله ـ: زبيدةُ لَقَبُ امرأةٍ قيل لها زبيدة لنعمةٍ كانت في بَدَنِها ، وهي أمُّ الأمين محمّد بن هارون الرّشيد. (لسان العرب ٢/ ١٩٣ و١٩٤).

* وفي تاريخه الكبير النَّفيس: «تاريخ بَغْداد» أثنى عليها الخطيبُ البغداديُّ بما هي أهلُ ذلك فقال: كانتْ معروفةً بالخيرِ والإفْضَالِ على أهلِ العِلْمِ والبرِّ للفقراءِ والمسَاكين، ولها آثارٌ كثيرةٌ في طريقِ مكَّةَ، منْ مصانع حَفرتْهَا، وبِرَكٍ أحدثَتْها، وكذلك بمكةَ والمدينةِ. وبلغتْ نفقتُها في الحجِّ في ستين يوماً أربعةً وخمسينَ ألفَ ألفٍ (٥٤ مليوناً)، وكانتْ على جانبٍ كبيرٍ منَ العَقْل، ولها كلماتٌ سَلِسَةٌ أندى منَ السَّلسبيل، وأحلى منَ الدَّواء الشَّافي للعليل. توفيت ببغداد سنة (٢١٦هـ).

* ومنَ الفُضْليات اللواتي عاصرتْهُنَّ ضيفتنا: زوجة أبيها الخَيزُرَان[1]، والخيزُرانُ إحدى شهيراتِ النِّساءِ في دُنيا خُلَفاءِ بني العبَّاس، وهي زوجةُ المهدي وأمُّ ولدَيْه: الهادي والرَّشيد، وأصلُها من جُرَش[2] باليمن.

---

(١) اقرأ سيرةَ الخَيْزُران بالتفصيل في موسوعتِنا الشّهيرةِ: «نساء من التَّاريخ» (ص ٢٢٩ - ٢٥٤) ففي سيرتها أطواقُ الذَّهب لمن أراد أنْ يحلّي جِيْدَ معارِفه. والله الموفق للصواب.

(٢) «جُرَش» بضمّ أوّله، وفتح ثانيه: موضعٌ معروفٌ باليَمنِ؛ والعربُ تقولُ: ناقةٌ جُرَشِيَّة، أي: حمراءُ جيّدةٌ؛ وعنبٌ جُرشي: جيّدٌ. قال الهمداني: مَرَّ تُبَّعُ أسْعَدُ أبو كرب في غزوتِهِ الأولى بجُرش منْ أرضِ طَوْدٍ، فرأى موضعاً كثيرَ الخير، قَليلَ الأَهْل، فخلَّف فيه نفراً منْ قومِهِ، فقالوا: بمَ نعيشُ؟ فقال: اجْتَرِشوا منْ هذهِ الأرض، وأثيروها واعْمُروها، فسُمّيت جُرَش. وقيل: سمّيت بجرش بنِ أسلمَ، وهو أوّل مَنْ سَكنَها. (معجم ما استعجم للبكري ١/ ٣٧٦).
وهذهِ المدينةُ معروفةٌ قديماً، وقد خَربتِ الآن، ولا تزالُ أطلالُها قائمةً في أعلى وادي بيشَة.
ومن العجيب أنني وجدت الشيخ محمد سويد!! الذي حقق كتاب: المحاسن والأضداد يعرف جرش كالتّالي فيقول: جَرَش: بلدةٌ في المملكةِ الأردنيةِ على سَفْح جَبَل عجلون في الجنوبِ الشَّرقي، كانتْ إحدى المدنِ العَشْر الفلسطينيّة ازدهرتْ في العَهْد الرُّوماني، وفيها منْ هذا العَهْد آثارٌ رائعة (المحاسن والأضداد ص ٢٣٣) هذا ولم يفرّق المحقق المذكور بين جُرَش اليمن وجَرَش الأردن، ومن العجيب أنّه ضبطها جَرَش!!.

* وللخيزُرانِ آثارٌ حِسَانٌ في مكةَ المكرمةِ ، فقد عمَّرتْ دارَ الأَرقمِ بنِ أبي الأرقم المخزوميّ[1] التي كان يجتمعُ فيها المسلمون في أوَّلِ الإسلام ، وفيها أسلمَ عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ حتى أصبحتْ تلك الدَّارُ تُعْرفُ بدارِ الخيزُران ، وقد حجَّت الخيزران سنَة (١٧١هـ) ، وتوفيتْ سنة (١٧٣هـ) في خلافةِ ابنها هارون الرَّشيد.

* وأختُها عُليَّةُ بنتُ المهدي[2] أختُ الرَّشيدِ ، وأوفرُ نِساءِ زمانِها عَقْلاً ، كانت ذاتَ صيانةٍ وأدبٍ بارعٍ ، وكان الرشيدُ يبالغُ في إكرامِها واحترامِها ، وُلدت سنةَ (١٦٠هـ) ، وتوفِّيتْ في سنة (٢١٠هـ).

* لقد ظهرتْ ملامحُ امرأةِ هذه الصَّفَحات ، فهي العبَّاسةُ بنتُ المهدي بنِ المنصور العبَّاسيّة[3] ، أختُ الرشيدِ ، وأمُّها أمُّ وَلَدٍ اسمُها رضيم.

* وكانَ للمهدي بضْعَةُ أولادٍ: موسى الهادي ، وهارون الرشيد ، وعليّ ، وعبدُ الله ، ومنصورُ ، ويعقوبُ ، وإسحاق ، كما كان له بضْعُ بنات وهنّ: البَانُوقة ، وعُليَّة ، وعبَّاسة ، وسُليمة ، وقد ذكرهنَّ القُضَاعي في تاريخهِ.

---

(١) اقرأ سيرة الأرقم في كتابنا «فرسان من عصر النبوة» (ص ٣١٦ـ٣٢٧) حيث تجد خيراً كثيراً مع هؤلاء الرعيل المبارك.

(٢) اقرأ سيرتها في هذا الكتاب مع الرد على مفتريات المفترين وتخرصات الكذابين.

(٣) انظر نهاية الأرب (٢٥/ ١٢٠) ، وتهذيب كتاب لطف التدبير في سياسات الملوك (ص ٢٥٧) ، وشذرات الذهب (٢/ ٣٩٢) ، وأعلام النساء (٣/ ٢٢٨ ـ ٢٣٤) ، ونزهة الجلساء (ص ٦٠) ، والمحبر (ص ٦١) ، وكتاب فاكهة الصيف وأنيس الضيف (ص ٩٤ ، ٢٩٧) ، والكامل لابن الأثير (٦/ ١٧٥) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٢) ، وإعلام الناس فيما جرى للبرامكة مع بني العباس (ص ٦ و٢٤٤ ـ ٢٥٥) ، والأغاني في مواضع كثيرة؛ والمعارف (ص ٣٨٠) ، وتاريخ القضاعي (ص ٤٠٨) ومصادر أخرى كثيرة.

صُورٌ مِنْ كَرَمِهَا وعَطْفِهَا:

* كانتِ العبَّاسةُ بنتُ المهدي إحدى كريماتِ بناتِ بني العبَّاس، واشتهرتْ بالجودِ والكرمِ، والعَطْفِ على ذوي الحاجاتِ، وكانتْ تجزلُ العَطَاء لأصحابِ البلاغَةِ منَ الشُّعراءِ والشَّاعراتِ.

* وكان نُصيبُ الأَصْغر[1] وابنتُه حَجناء ممّنْ نالهنَّ عَطاء العبَّاسةِ، فقد جاءَ في المصادِرِ أنَّ حجنَاءَ بنتَ نُصيب قد دَخَلَتْ مع أبيها إلى المهدي وهو بعيسى باذ[2]، فأَنْشَدتْه حجناءُ قصيدةً بلغَتْ (١١ بيتاً) مطلعُها:

رُبَّ عيشٍ ولـذَّةٍ ونعيمٍ ... وبهاءٍ بمشْرِقِ المَيْدَانِ
بَسَطَ اللهُ فيه أَبْهى بسَاطٍ ... مِنْ بهارٍ وزَاهِرِ الحوذَانِ[3]

* ولما فرغَتْ منْ إنشادِها ومديحِها للمهدي، أمَرَ لها بعشرةِ آلافِ درهم، وله بمثْلِها؛ ثمَّ إنَّ الحجناءَ دخلَتْ على العبَّاسةِ بنتِ المهدي، وشَكَتْ حالَها وما أصابَها، وكيفَ جَارتْ عليها السُّنون التي لم تَتْرُكْ لهم شيئاً، كما ذكرتْ قِلَّةَ الأَمْوالِ عندهم، وها هي قد لجأَتْ إلىٰ العبَّاسةِ ابنةِ المهدي جَابِرةِ عثراتِ النَّاس، فبابُها مَحَلُّ الخيراتِ، وهي خيّرةٌ ابنةُ أَخْيار، وفي هذا أَنْشَدتها قائلةً:

أَتَيناكِ يا عبّاسَةَ الخَيرِ والحَيَا ... وَقَدْ عَجَفَتْ أُمُّ المهَارى وكَلَّتِ

---

(١) نُصَيب: مولى المهدي، عبدٌ نَشَأَ باليمامةِ، واشتُري للمهدي في حياةِ المنصور، فلما سَمِع شِعْره قال: واللهِ ما هو بدونِ نُصيب بنِ ربَاح مولى بني مروان، فأَعْتَقه، وزوَّجَه أمةً له يُقال لها: جَعْفَرة، وكنَّاه أبا الحجناء، وأَقْطَعه ضيعةً بالسَّواد، وعُمِّر بعدَه، وتوفي نحو سنَة (١٧٥هـ) ويحفلُ كتاب الأغاني بجملة من أخباره. (الأغاني ٢٣/ ٥ ـ ٢٥).

(٢) عيسى باذ: محلّة كانتْ بشرقي بغداد منسوبةٌ إلى عيسى بنِ المهدي، وأمُّه وأمُّ الهادي والرشيد الخيزُرَان، وهو أخوهما لأمِّهما وأبيهما، وكانتْ إقطاعاً له. (معجم البلدان ٤/ ١٧٢).

(٣) الحوذَانِ: نباتٌ عشبي من ذواتِ الفلقتَيْن، منه أنواعٌ تزرع لزهْرِها.

وما تَركتْ منّا السُّنونُ بقيةً | سوى رمّةٍ منّا مِنَ الجهْدِ رَمَّتِ
فقالَ لنا مَنْ يَنْصَحُ الرَّأي نَفْسَه | وقد وَلَّتِ الأَمْوالُ عنّا فَقَلَّتِ
عليكِ بابنةِ المهديّ عُوذي ببابِها | فإنَّ محلَّ الخيرِ في حيثُ حَلَّتِ

فأمرتِ العبَّاسةُ لحجناء بثلاثة آلاف درهم، وكسوة وطيب، وهنالك راحت حجناء بنت نصيب تطري عمل العباسة وتمتدح جودها، فقالت:

أَغْنيتِني يا بنةَ المهديّ أيَّ غنىً | بأَعْجَرينِ كثيرٌ فيهما الوَرِقُ
منْ ضَرْبِ تَسعٍ وتسعينٍ محككةٍ | مثلِ المصابيحِ في الظَّلماءِ تأتلقُ
أمّا الحسودُ فَقَد أمْسى تغيُّظُهُ | غَمّاً وَكَادَ بِرجْعِ الرِّيق يختنقُ
وذو الصَّداقَةِ مَسْرورٌ بنا فَرِحٌ | بادي البشَارة ضاحٍ وجههُ شَرِقُ[1]

* وبهذا خلَّدتْ حجناءُ بنتُ نصيب العبَّاسةَ في تاريخِ الكريمات، وسجلِ المكرماتِ، وفي تواريخِ النّسوة العربياتِ اللواتي أثْرَيْن جِيْدَ الدَّهْرِ بحُلى أعمالِهنَّ النَّاصِعة.

قِصَّةُ زَوَاجِ العَبَّاسَةِ منْ أَمِيْرِ البَصْرَةِ:

* روى الأديبُ محمّدُ بنُ عبدِ الله الخطيبُ الإسكافي قصَّة زواجَ العبَّاسةَ بنتِ المهدي من محمّد بنِ سليمان أميرِ البصرةِ فقال:

حُكيَ أنَّ أبا جَعْفَر المنصور، أخذَ البيعةَ لابنهِ على جميعِ بني هاشم والقُوّاد إلاّ عيسى بن موسى[2]؛ فإنَّه امتنعَ منْ ذلك، فلما حَجَّ المنصورُ

---

(١) انظر الأغاني (٢٢/ ٤٢٠ و٤٢١) بتصرف يسير طبعة مصر، والأغاني (٢٣/ ٢٠ و٢١) طبعة بيروت، وانظر: أعلام النساء (١/ ٢٤٨ و٢٤٩)، وشاعرات العرب (ص ٦٣ و٦٤)، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ١٩٦ و١٩٧) والمعارف (ص ٣٨٠). و«الورق»: بكسر الراء: الدراهم المضروبة، أو الفضة. و«عجفت»: هزلت. و«أدم» جمع أدماء وهي شديدة السمرة. و«الرمة»: العظام البالية.

(٢) عيسى بنُ موسى بنِ محمّد بنِ عليّ بنِ عبد الله بن عبّاس العباسيّ، ولي عهد السَّفَّاح بعد أخيهِ المنصور، وقد توفيَ عيسى بنُ موسى سنة (١٦٨هـ). وقد ذكرَ ابنُ العماد في شَذَراته أنَّ المهديَ كان في سنةِ (١٥٩هـ) قد ألحَّ على عيسى بكلّ =

حجّته التي تُوفي فيها ، حجَّ معه عيسى بنُ موسى ، والعبّاسُ بنُ محمد ، ومحمدُ وجعفرُ ابنا سليمان بن علي ، فلما توفيَ أبو جعفر بمكةَ كَتَمَ الربيعُ بنُ يُونس وزيرُه موتَه ، ثمَّ بعثَ فأَحْضَر الهاشميينَ وسائرَ القُوّاد ، فقعدوا في مراتِبهم ، ثمَّ خلا بعيسى بنِ موسى ، حيثُ ينظرُ النَّاسُ إليهما ولا يسمعون كلامَهُما .

* ثمَّ قالَ له الرَّبيعُ : إنَّ أميرَ المؤمنين أيَّدهُ اللهُ ، أمرنَي أنْ أخطبَ إليكَ ابنتَك فُلانةَ على ابنهِ محمد المهدي ، وأنْ أبذلَ لكَ منَ الصَّداقِ أَلْفَ أَلْفِ درهم .

قال عيسى : الأمْرُ في ذلك إلى أميرِ المؤمنين .

* فدخلَ الرَّبيعُ كأنَّه يؤامرُه ، ثمَّ خرجَ ومعه المالُ فدفَعه إلى عيسى ، ومَسحَ عيسى على يَدِ الرَّبيعِ عقدةَ النِّكاحِ ، والنَّاسُ ينظرون إليهما ، ثمَّ حملَ المالَ إلى منزل عيسى بنِ موسى ، وأدخله حجرةً فَحبسَه فيها .

* ثمَّ إنَّ الرَّبيع قال لجميعِ مَنْ حضَر منَ الهاشميين والقوّاد الأماثلِ : إنَّ عيسى بنَ موسى قد بايعَ للأميرِ المهدي ابنِ أمير المؤمنين المنصور ، وأخذَ صِلَتَه على البيعةِ ، ودخلَ على أميرِ المؤمنين وخرجَ وقال : أمرني أميرُ المؤمنين بتجديدِ البيعةِ عليكم لابنِه المهدي .

* فأُحْضِرَتِ الأموالُ ، فبايعَ النَّاسُ بولايةِ العَهْدِ للمهدي ، ثمَّ دخلُوا وقد أُسنِدَ المنصور ، فسلَّمُوا منْ بعيدٍ ، وقبضُوا صِلاتِهم وانصرفوا .

* ثمَّ إنَّ الربيع أظهرَ موتَ المنصورِ منَ الغَدِ ، فخرجَ عيسى بنُ موسى فَجَحدَ البيعةَ ، فوثبَ عليه محمدُ بنُ سُليمان فأكْذَبه وتهدَّده ، وهمَّ بهِ ،

= ممكنٍ ، وبالرَّغبة والرَّهبة في خَلْعِ نفسهِ ليولي العَهْدَ لولده موسى الهادي ، فأجابَ خوفاً على نفسهِ ، فأعطاهُ المهديُ عشرةَ آلافِ درهم وإقطاعاتٍ (شذرات الذهب ٢/ ٢٦٥) .

فأَمْسَكَ وبايعَ ، فشكرَ له المهدي ، وزوّجه ابنتَه العبَّاسة ، فتزوَّج ولم يعقب[١] .

* وذكرَ ابنُ قُتيبة في «المعارفِ» أنَّ هارونَ الرشيدِ هو الذي زوَّج أختَه العبَّاسةَ ابنةَ المهدي ، إلى محمد بنِ سليمان ، ولمّا ماتَ عنها تزوَّجها إبراهيمُ بنُ صالح بنِ عليّ بنِ عبد الله بن عبّاس[٢] . وذكر ابنُ تغري بردي أنَّ الرشيدَ زوَّج أختَه العبَّاسةَ بمحمد بنِ سليمان العبّاسيّ الهاشميّ أميرِ البصرةِ في سَنَة ١٧٢هـ[٣] .

* وانتقَلَتِ العبَّاسةُ منْ بغدادَ إلى البصرةِ[٤] ، حيثُ كانَ زوجُها محمّدُ بنُ سُليمان بنِ علي أمير البصرة وأمير فارس ، وعاشتْ معه هنالِك ، وكانَ هارون الرّشيد يبالغُ في تعظيمِهِ وإكرامِهِ .

* وكانَ الرشيدُ يكرمُه ويعظِّمُه ويحترمُه لأنَّه منْ أعلياءِ قريش ، فهو محمدُ بنُ سُليمان بنِ علي بنِ عبد الله بن عبّاس ، وأمُّه أمُّ حسن بنتُ جعفرَ بنِ حسن بنِ حسن بنِ عليّ ، وكانَ منْ رجالاتِ قريش وشُجْعانِهم ، جَمَعَ له المنصورُ بينَ البصرةِ والكوفةِ ، وزوَّجه المهدي ابنتَه العبَّاسة ، وكان له منَ الأموالِ شيءٌ كثيرٌ ، كان دَخْلُه في كلِّ يومٍ مئةُ ألف ، وكان له خاتَمٌ منْ ياقوتٍ أَحْمرَ لَمْ يُرَ مثلُه[٥] .

---

(١) تهذيب لطف التدبير (ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧) ، هذا وقد ذكر النويري في نهاية الأرب قصة أخرى في خلع عيسى بن موسى . (نهاية الأرب ٢٢/ ١١١و١١٢) .
(٢) المعارف (ص ٣٨٠) ، وانظر : المحبر (ص ٦١) .
(٣) النجوم الزاهرة (٢/ ٧٠)؛ وذكر ابن حزم الأندلسي أن العباسة قد تزوجها محمد بن سليمان بن علي ، ونقلها إلى البصرة . (جمهرة أنساب العرب ص ٢٢) .
(٤) انظر ما جَاء عن البصرة في معجم البلدان (١/ ٤٣٠ ـ ٤٤٠)؛ والبصرةُ لها عدّةُ مَعَان : منها الأرضُ الغَليظَةُ . والبصرةُ : حجارةٌ رخْوةٌ فيها بياضٌ . وقيل : الأرضُ الطّيّبةُ الحمراءُ . والبصرةُ بلدٌ بالعراقِ جاءَ مدحُها وذمُّها على لسانِ البلغاء .
(٥) البداية والنهاية (١٠/ ١٦٢) .

* وظلَّ محمد بنُ سُليمان عاملاً على البصرةِ كأَفْضَلِ ما يكونُ الأمراء ، يقيم حدودَ اللهِ ، وكان يتتبَّعُ الزَّنادقةَ ويقتلُهم ، وذكر ابنُ خلّكان أنَّه قَتَل حماد عَجْرد[1] الشَّاعر المشهور على الزَّنْدَقةِ[2].

* وفي كَنَفِ محمّد بنِ سُليمان عاشَتِ العبَّاسةُ بنتُ المهدي ترفلُ في أثوابِ النَّعيمِ ، إذ كانَ زوجُها أحدَ الأغنياءِ الموسرين في الدنيا عَصْر ذاك.

* وفي سنةِ (١٧٣هـ) توفي محمد بنُ سُليمان وعمرُه (٥١ سنة) ، ولما ماتَ احتوى الرَّشيدُ على خزائنِه وكانتْ خمسين أَلْفَ ألف درهم. وجاءَ في تاريخ الطَّبري[3] أنَّهم أصابُوا له ستينَ أَلْفَ ألف درهم. بينما ذكرَ ابنُ كثير في البدايةِ والنّهايةِ[4] أنَّ الرشيدَ قد أرسلَ من اصْطَفى منْ مالِهِ الصَّامِتِ فوجَد له منَ الذَّهَبِ ثلاثةَ ألف ألف دينار ، ومن الدَّراهم ستة آلاف ألف.

* وقال النُّويري ، وابنُ تغري بردي: وأرسلَ الرشيدُ مَنْ قبضَ تَركَتَهُ ، فحملَ منها ما يصلحُ للخلافَةِ ، فكانَ جملة ما أُخِذَ منها ستين ألف ألف[5].

* وفي «كامِلِه» ذكرَ ابنُ الأثير سببَ احتجازِ الرَّشيدِ لأموالِ صهرِه محمد ابنِ سُليمان فقال: وسببُ احتجازِ الرشيد لأَمْوالِهِ أنَّه لم يكنْ له وَلَدٌ ، ولم

---

(١) حماد عَجْرد ، أبو عمرو حماد بنُ عمر بن يونُس الكوفي ، منْ مخضرمي الدَّولتَيْن الأموية والعبّاسية ، ولم يشتهرْ إلا في العباسيّة وكان خبيثاً ماجناً ، بينه وبين بشّار ابن برد أهاجٍ فاحشة وكان يبري النّبلِ ، وكان ظريفاً خليعاً متّهماً في دينهِ بالزندقةِ. وقال ابنُ قتيبة في كتاب «الشّعر والشُّعراء» (ص ١٦٣): كان في الكوفةِ ثلاثةٌ يقال لهم الحمّادون: حمادُ عجرد ، وحمادُ الراوية ، وحمادُ بن الزّبرقان النحوي ، وكانوا يتعاشرون وكانوا كلّهم يُرمون بالزَّندقة. توفي سنة (١٦١هـ) قَتله محمد بنُ سليمان على الزندقةِ (وفيات الأعيان ٢/ ٢١٠ ـ ٢١٣).

(٢) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٢١٣).

(٣) تاريخ الطَّبريّ (٨/ ٢٣٧) طبعة مصر.

(٤) البداية والنهاية (١٠/ ١٦٣).

(٥) نهايةُ الأَربِ (٢٢/ ٢٢٧) ، والنُّجومُ الزَّاهرةُ (٢/ ٧٥).

يكنْ له أخٌ لأبيهِ وأمّه سوى جعفر[1] ، وكانَ جعفرُ يدسُّ على أخيهِ عند الرَّشيد ، ويتقوّلُ على أخيهِ أنَّه يريدُ الخلافةَ ، وأنَّ أمواله حِلٌّ طِلْقٌ ـ حلالٌ ـ للخليفةِ ، وقَدْ أظهرَ الرشيدُ لجعفرَ كُتُبَه التي أرسلَها يدسُّ فيها على أخيهِ ، وحَرَمَه لهذا السَّبب منَ الميراث[2] .

* وذكر ابنُ كثير أسباباً أُخَرَ لاحتجازِ الرَّشيدِ أموال صهره محمد بنِ سليمان فقال: أمرَ الرشيدُ بالاحتياطِ على حواصِلِ محمد بنِ سُليمان التي تصلحُ للخُلَفاء ، فوجدوا منَ ذلك شيئاً كثيراً منَ الذَّهَبِ والفضَّةِ والأمتعَةِ وغيرِ ذلك ، فنضّدوه ليُسْتَعانَ به على الحربِ ، وعلى مَصَالحِ المسلمين[3] .

* كانت حياةُ العبَّاسةِ في البصرةِ عيشةً راضيةً ، تتقلَّبُ في نعيمِ المالِ والعزّ والإمارةِ والحَسَبِ والنَّسبِ ونعيمِ القُصُور ، فأخوها خليفةٌ وزوجُها أميرٌ منْ كبارِ أمراء[4] الرَّشيد ، ولكنّه بوفاةِ زوجِها الأمير محمد بنِ سُليمان ، عادتْ إلى بغدادَ كيما تعيشُ في دارِ أخيها هارونَ الرشيد ، الذي كانَ يجلُّها ويجلُّ زوجَها ، وكانت تحتلُّ من نفسِه كلَّ احترامٍ وتوقيرٍ وتقدير .

---

(١) رويَ أنَّ أبا تمّام حبيبَ بنَ أوسٍ الطّائي الشّاعر البليغ المشهور ، قَدْ دَخَلَ على جعفرَ بنِ سليمانَ بنِ عليّ يعزّيه بأخيهِ محمّد بنِ سُليمان ، وقد كانَ جَزِعَ عليهِ جَزعاً عظيماً ، فقال جعفرُ حينَ رآه: إنْ يكُنْ عند أحَدٍ فرجٌ فعندَ حبيب ، فلّما سَلَّم قال: أيّها الأميرُ ، التمسْ ثوابَ اللهِ بحسنِ الجزاءِ ، والتّسليم لأمْرِ الله ، واذكرْ مصيبتَك في نفسِكَ تُنْسك مصيبتَك في غيرِك والسَّلام. (وفيات الأعيان ٢/ ٢٥ و٢٦).

(٢) الكامل في التاريخ (٦/ ١١٩). وعلّقَ ابنُ تغري بردي على هذا الخبرِ بَعْدَ أنْ أوردَه فقال: انظرْ إلى شؤمِ الحَسَدِ وسوءِ العاقبة ، ولله درُّ القائل: الحاسدُ ظالمٌ في نفسهِ مظلومٌ مبتلى غيرُ مرحوم. (النّجوم الزاهرة ٢/ ٧٥).

(٣) البداية والنهاية (١٠/ ١٦٢).

(٤) ذكر ابنُ تغري بردي في نجومه: أنَّ محمَّدَ بنَ سُليمان بنِ علي بنِ عبد الله بن العبَّاس ، كانَ منْ وجوهِ بني العبّاس ، وتولى الأعمالَ الجليلة ، وهو الذي تزوَّج العبَّاسةَ بنتَ المهدي أخت هارون الرشيد ، وكانَ له خمسون ألف عبدٍ ، منهم عشرون ألفاً عتْقاً. (النجوم الزّاهرة ٢/ ٧٣ و٧٤).

* وظلتِ العبَّاسَةُ في قَصْرِ أخيها الرَّشيدِ ، إلى أنِ انقضَتِ عدّتها ، وهنالكَ تقدَّم لخطبتها الأمير إبراهيمُ بنُ صالح العبّاسي ، ثم تزوَّجها وعاشتْ معه حيناً منَ الدَّهر إلى أنْ وافَتْه المنيةُ في سنةِ (١٧٦هـ).

* ثمَّ بعد ذلك تزوَّجَها موسى بنُ عيسى العبّاسي ، وعاشت معه بضعةَ أعوامٍ إلى وافَتْه المنيةُ في سنة (١٨٣هـ) ، وكانتِ العبَّاسةُ قد توفيتْ قَبْله في سَنَةِ (١٨٢هـ) ، وكانَ الشَّاعر الفَكِهُ أبو نُواس يتندَّرُ بقوله: مَنْ أرادَ الموتَ فليتزوجْ منَ العبَّاسَةِ.

* هذهِ هي حياةُ العبَّاسَة ابنة المهدي ، وتلكم قصَّةُ زواجِها كما روتها المصادرُ الموثوقَةُ ، وكانتْ خِلالَ حياتِها مثالَ المرأةِ العفيفةِ الدَّيِّنةِ الصَّيِّنةِ الشَّريفةِ التي تَعي أصلَها ونسبَها وقُربَها منَ البيتِ الطَّاهرِ بيتِ عبد الله بن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ إذْ لم يكنْ بينها وبينَ جدِّها الأعْلى عبدِ الله بنِ عبّاس إلا خمسةُ رجالٍ ، بل لم تَنْسَ في يومٍ منَ الأيَّام أنَّها أميرةٌ منْ ذواتِ الفَضْلِ والإحسانِ ، وأنَّها ابنةُ أميرِ المؤمنين المهدي أَعْظَم ملوكِ عَصْره ، وأنَّ أخَاها الرشيدَ ذو قَدْرٍ لم يبلغْهُ أحدٌ في زمَانِه ، ولم يلحقْ أحدٌ شَأْوه.

* على أنَّنا نَجِدُ مع هذا كُلِّه مَنْ يقتحمُ ، ومنْ ثمَّ ينتحلُ قصَّةَ عشْقٍ وغرامٍ للعبَّاسةِ معَ جعفرَ بنِ يحيى بنِ خالد مولى الرشيد ، وعملُوا منْ الحبَّةِ قبّةً ، ومَنْ الخيالِ والتَّخيُّلِ حقيقةً ، ومنْ مغالطةِ الحقائِقِ والتَّاريخِ مَسْرحاً للأحْداثِ ، وكأنَّنا نعيشُ أَحَدَ أفلامِ عَصْرِنا التي تعرضُ صُوراً منَ الحُبِّ والغَرامِ المزعومِ.

* ومع أنَّني رحتُ أقرأ الأقاصيص والقصص التي أوردها جماعةٌ من المؤرِّخين والأخباريّين عن العبَّاسة في هذا المجال ، وأنَّ الرشيد قد نكب البرامكة ، وشتّت شملهم من أجل العبَّاسة؛ إلا أنَّني وجَدْتُ ثغراتٍ كثيرةً في تلكَ الرِّواياتِ منْ أهمّها أنَّ العبَّاسةَ كانتْ عاقِراً لم تنجبْ ، ولم يكُنْ لها عَقِبٌ ، وقد تزوَّجت أكثرَ منْ مرّةٍ ، ناهيك بأشياءَ وأشياءَ ليس لها دليلٌ في تاريخِ هذه المرأةِ الوضيءِ ، ولسوفَ نعرضُ ـ بإذنِ الله ـ دفاعنا عنها ، بعد أنْ

نوردَ بعضَ تلكم القَصص السُّودِ الشَّائِهةِ الزَّائفة ، التي نَسَجَها حاقدونَ على المرأةِ العربيّةِ الشَّريفةِ ، وعلى فُضلياتِ النِّساء في كلِّ عَصْرٍ ومصْرٍ ، وجُلُّ هدفِهم بذلك الطَّعنُ في شَرفِ النِّساءِ ، والنَّيْل منَ الخُلفَاء ومنَ العُظَماء الذين ملؤُوا الدُّنيا بأعمالِهم العِظَام ، وشغلُوا تاريخَ الدُّنيا بأياديهم البيض ، تلكَ الأَيْدي التي قَلَّدَتْ جِيْدَ الدَّهْرِ بأعمالٍ فواحةٍ كأريجِ الزَّهرِ ، من مثْلِ هارون الرشيد ، ومثل العبَّاسة ، وغيرهما.

هَـلْ الـتَـقَـتِ الـعَبَّـاسَـةُ جَـعْفَـرَالـبَـرْمَـكـيّ؟

* إنَّ تعدُّدَ القَصصِ التي حيْكَتْ حولَ التقاءِ العَبَّاسةِ جعفَر البرمكي تثيرُ الشَّكَّ في صحّتِها ، بل تجعلُها ضعيفةَ الحبكةِ ، هزيلةَ الأحداثِ ، لأنَّ وقائِعَها وأحداثَها تخالفُ حقائقَ التَّاريخ ، فَضْلاً عنْ أنَّها تخالفُ الأَعْرافَ والقيمَ في عَصْرِ العبَّاسَةِ القريبِ من عَهْدِ كبارِ التَّابعين ، فالصَّحابةِ ، فالعَهْدِ النَّبويّ.

* وقَبْلَ أنْ أرويَ وأنقلَ لكم القَصَصَ التي حَكَتْ غرامَ العبّاسةِ بجعفرَ بنِ يحيى البرمكيّ ، أودُّ أنْ أشيرَ إلى أنَّ واضعيها أرادُوا بذلكَ الانتقامَ منَ المرأةِ العربيةِ بدافع الشُّعوبيّةِ ، وبدافع العداوةِ لسيرةِ الرشيدِ الوضيئةِ ، والتي تسفرُ عن أعمالِه البيضِ في غزو الرُّوم ، وربما إزالته أثرَ البرامكةِ[1] من جسْمِ

(١) كانَ البرامكةُ يمثّلُون أوْجَ النُّفوذِ الفارسيّ ، وسلاحَ الشُّعوبية الخفيّ ، هذا ويكتنفُ نَسبَ البرامكةِ شيءٌ منَ الغموضِ ، إذْ ليسَ لهم شَأنٌ يُذكرُ قَبْل أنْ يَسْطعَ نجمُهم في الدّولةِ العبّاسيةِ. ولكنَّ الأسرةَ البرمكيةَ كانَ لها نفوذٌ دينيٌّ في بَلَخ ، وكان جدُّهم برمك منْ مجوسِ بلخ وكان يخدمُ بيوتَ النَّار. وأولُ مَنْ ظهرَ منهم خالدُ بنُ برمك الذي تولّى الوزارةَ لأبي العبّاس السَّفاح (الوزراء والكتاب ص ٨٩).
ثم ظهرَ بعده ابنه يحيى وكان ليحيى أربعةُ بنين: الفَضْل ـ جَعْفر ـ محمّد ـ وموسى ، وأشهرهم جعفرُ والفضل. ويُروى أنَّ الرشيدَ كان يحترمُ يحيى بنَ خالد ويدعوهُ أحياناً «أبي» ، ثمّ إنَّ الرشيدَ قلَّده أمْرَ الرعيةِ ، ونهضَ يحيى بأعباء الدَّولة نهوضاً كاملاً. وكانَ يحيى وابناه جعفر والفَضل مقرّبين منَ الرشيد ومنْ ابنيه الأمين والمأمون.
=

دولته ، ونكبتَه إيّاهم ، وربما عَمدَ بعضُ محبّي البَرامكة إلى تشويهِ سيرَةِ العبَّاسَةِ ، وجعلَها أحدوثةً بينَ النَّاس يمضغونَها ، ويجترُّها بعضُهم بدافعِ السَّمَر ، وآخرون بدافعِ الحِقْدِ.

* ومع احترامنا للمصادرِ التي روتْ سيرةَ العبَّاسةِ مع جعفرَ البرمكيّ ، ونقلَتْ أكثرَ منْ صورةٍ لذلك الغرامِ المزعومِ ، فإنَّنا نشكُّ ، بل نُوقِنُ بافترائِها

= وكانَ الرشيدُ يأنسُ بجعفر أكثر منْ أخيهِ الفَضْل نَظَراً لدماثةِ خُلُقه ولينِ عريكته ، وأنزلَه الرشيدُ بالخُلْدِ بالقربِ منْ قَصْره ، وجاءَ أنَّ جَعْفراً انفردَ بمنزلةٍ عند هارون الرّشيد لم يشارِكْه فيها أحدٌ ، وكانَ غالباً على أمْره (مرآة الجنان ١ / ٤٠٤). وكان يحلفُ بالله أنَّه امتازَ بصفاتٍ لم ينفردْ فيها أحدٌ سواه. وقد امتازَ جعفرُ بحسنِ البيان ، وبلاغة اللسان (ثمار القلوب ص ١٦١).
وكان الرشيدُ يسمّي جعفراً «أخي» وقلَّده بريدَ الآفاقِ ودور الضَّرب والطَّرز ، وأشركَه معه في النّظر في المظالِم ، ووثق به كلَّ الثقة.
وكان جعفرُ يتصرَّفُ ويُمضي كثيراً منَ الأمورِ قَبل أنْ يطلعَ الرشيد عليها ، ومنها أنَّه وعَدَ عبدَ الملك بنَ صالح بقضاءِ ثلاث حوائج وهي: قضاءُ مليون درهم سدادَ دَيْن ، وولّى ابنَ عبد الملك بن صالح مصرَ ، وزوَّج ولدَ عبد الملك من ابنةِ الخليفة لأنَّها بنت عمّه ، ثمَّ إنَّ جعفراً في اليومِ التَّالي أطْلَع الخليفةَ على ذلك ، فعجبَ ولم يعارضْ وأمضى العقدَ والولايةَ. (الفخري في الآداب السّلطانية ص ١٥٣ و١٥٤).
وقد أثارَ هذا التّصرّف عجبَ المعاصرين ومنهم إبراهيمُ بنُ المهدي الذي قال: ونحنُ نتعجّبُ منْ إقدامِ جعفر على قضاءِ الحوائج من غيرِ استئذان ، وقُلنا: لعلّه أنْ يُجاب إلى ما سألَ منَ الحوائجِ ، فكيفَ بالتّزويج؟! (الوزراء والكتاب ص ٢١٣).
وهذه التصرّفات قد جعلتْ يحيى بنَ خالد يتوجسُ خيفةً منَ العواقبِ ، فكان يعيبُ على ابنهِ جعفر دخولَه على الرشيد فيما يدخله ، حيث لا يأمن العاقبة. وبالفعل أوقع الرشيد بالبرامكةِ ، واختلفَ المؤرّخون الذينَ عاصروا أحداثَ نكبة البرامكة في ذلك ، حيث انقسموا إلى فريقين: فريقٌ يتعصَّبُ للبرامكةِ ، وفريقٌ يتعصّبُ عليهم. وبعضُهم جَعل قصّة العبّاسة سبباً لزوالهم ، وبعضُهم أكّد أنَّ استبدادهم بأمورِ الدولة هو الذي نكبهم ، وآخرون قالوا إنّهم احتازوا الأموالَ دون الرشيد ، وكذلك ترفهم وبذخهم ، أو أنهم اتّهموا في دينهم. وهناك أقوال كثيرة فصلها المؤرخون.

وتزويرها لأكثر منْ عشرين دليلاً ، وكلُّ دليلٍ يشيرُ بأصابعِ الاتّهامِ إلى وضْعِها وصنعتها وصياغتِها في مصانعِ الكذبِ الهزيلةِ المكشوفةِ التي نَسَجَتْ تلكمُ القَصَص ، وشبكتْ أحداثها بين لحمتها وسُدَاها ، ناهيكَ بوجودِ الخيالِ والاختراعِ فيها ، والذي يُظهِرُ بسخريةٍ عَقْدَ زَوَاجٍ صُوريٍّ يجمعُ بينَ العبَّاسةِ وجعفر كيلا يخالفَ الشَّرعَ والعُرفَ ، كما ويُظْهِرُ الرشيدَ وأختَه العبَّاسةَ في مَجْلسِ شَراب ثملَيْن ، وما شَابه ذلك!!

* والآنَ دَعْني أروي وأسردَ قصَّةَ العبَّاسةِ وجعفَر البرمكيّ ، كما أوردَها الطَّبريُّ في تاريخِهِ عن أحمدَ بنِ زهير عن عمّه زاهر بنِ حرب [١]، وذلكَ أثناء حديثِهِ عن أسبابِ الإيقاعِ بالبرامكةِ ، وعن استئصالِهم من جسْم الدَّولةِ العبَّاسيّةِ فقال: إنَّ سببَ هلاكِ جعفرَ والبرامكة ، أنَّ الرشيد كانَ لا يصبرُ عَنْ جعفرَ ، وعن أختِه عبّاسة بنتِ المهدي ، وكان يُحْضِرُهما إذا جلسَ للشُّربِ ، وبعد ذلك أَعْلَمَ جعفراً قلَّةَ صَبْرِه عنْه وعنها؛ وقال لجعفر: أزوجُكَها ليحلَّ لك النَّظَرُ إليها إذَا أحضرتُها مجلسي ، وتقدَّمَ إليهِ ألا يمسَّها ، ولا يكونَ منه شيءٌ مما يكونُ للرَّجُلِ إلى زوجتِهِ؛ فزوَّجها منه على ذلك ، فكانَ يُحْضِرهُما مجلسَه إذا جلسَ للشُّربِ ، ثمَّ يقومُ عنْ مجلسهِ ويخليهما ، فَيَثمُلان منَ الشَّرابِ ، وهما شابَّانِ ، فيقومُ إليها جعفر فيجامعُها ، فحملَتْ منه وولدتْ غُلاماً ، فخافَتْ على نَفْسِها منَ الرشيدِ إنْ عَلِمَ بذلك ، فوجَّهتْ بالمولودِ معَ حواضِنَ له منْ مماليكها إلى مكةَ ، فلم يزلِ الأَمْر مَسْتُوراً عنْ هَارونَ ، حتى وقعَ بينَ عبَّاسةَ وبين بعضِ جواريها شرٌّ[٢] ، فأَنْهَتْ أمرهَا وأمْرَ الصَّبيِّ إلى

---

(١) هذان الرَّجُلان لا يُعْرفان ، فالقصَّةُ إذاً لا تصحُّ ، وليسَ لها منْ أساسٍ ولا جذْرٍ (سير أعلام النبلاء ٩/ ٦٦) الهامش.

(٢) يظهرُ لنَا أنَّ الذي وضَعَ هذه القصَّة المكذوبةَ ، وضَعَ كذلكَ ـ منْ قبلُ ـ ما يشبهُه هذا في سيرةِ وحياةِ أمِّ البنينَ بنتِ عبد العزيز بنِ مروانَ زوجِ الوليدِ بنِ عبد الملك. وقد تحدَّثْنا عنْ ذلكَ في توسُّعٍ وذلك في كتابنا الشّهير: «نساءٌ منَ التَّاريخ» في سيرةِ أمّ البنينَ بنتِ عبد العزيز ، وذكرنا هنالك خيوطَ وضْع القصّة وأسبابها؛ فمنَ أراد معرفة ذلك فليرجعْ إلى كتابنا المذكور.

الرَّشيدِ ، وأخبرتْهُ بمكانِهِ ، ومَعَ مَنْ هُوَ منْ جواريها ، وما معه منَ الحُليّ الذي كانتْ زيّنتَه بهِ أمُّه ، فلما حجَّ هارونُ هذه الحجّة ، أرسلَ إلى الموضع الذي كانتْ الجاريةُ أخبرتْه أنَّ الصَّبيَّ بهِ مَنْ يأتيه بالصَّبي ، وبمَنْ معه مِنْ حواضِنِه ، فلمّا أُحْضِرُوا سألَ اللواتي معهنَّ الصَّبيَّ ، فأخبرنْه بمثل القصَّة التي أخبرتْه بها الرَّافعةُ على عبّاسة ، فأرادَ ـ فيما زُعِمَ ـ قَتْلَ الصَّبيِّ ، ثُمَّ تحوَّب منْ ذلك[1] .

* هذه هي روايةُ الطَّبريِّ في تاريخه ، وعلى عِلاّتِها ، وعلى شَغبِها ، وعُجرِها وبُجرِها ، أَخَذَ بها بعضُ مَنْ جاءَ بَعْدَهُ ، فَرَوَاهَا برواياتٍ مختلفةٍ أحياناً ، وفي الوقتِ نَفْسِه متناقضة أشدَّ التَّناقُض ، لكنَّ بعضَ عُلَماءِ المؤرّخين قد وَقَفَ موقفَ الشَّكِّ والرِّيبةِ منْ هذهِ الرِّوايةِ العجيبةِ ، بل تعجَّبَ من ابنِ جرير الطَّبري إذْ رَواها وأوردَها في تاريخه ، قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ : ومنَ العُلماء مَنْ أنْكَرَ ذلك ، وإنْ كانَ ابنُ جرير قَدْ ذكَره[2] .

* وممّا يُؤْسَفُ له أنَّ كَثيراً منَ العُلَماء والأُدبَاء والمؤرّخين قد نقلُوا هذه القصّة وزادُوا فيها ، وشرّقُوا وغرّبُوا ، وأتوا بالعجبِ العُجاب ممّا لا تقبلُه النُّفوسُ المُنْحَطَّةُ ، فكيفَ بابنةِ خليفةٍ ، وحفيدة خليفةٍ ، وأخت خليفةٍ ، وعمّة خلفاءَ ، وبنت الخلائفِ الكبارِ والأئمةِ العِظَام؟!

* ومنَ العجيبِ أيضاً أنَّ عدداً منَ المصنّفينَ قد رَوَوا قصَّةَ العبَّاسةِ المزعومةِ ، وزادوا فيها زياداتٍ تصلحُ لأَنْ تكون عَمَلاً لأَحَدِ الأفلام المهترئةِ في عَصْرِنا ، ومنْ هؤلاء : ابنُ خلّكان في «وَفَياتِ الأَعْيان»[3] ، والنُّويري في

---

(١) تاريخ الطبري (٨/ ٢٩٤) ، ووفيات الأعيان (١/ ٣٤٤).
(٢) البداية والنهاية (١٠/١٩٦) ، ومنَ العجيبِ أنَّ ابنَ جرير وابنَ كثير قد ذَكَرا هذه القصّة في تاريخِهما بروايات متناقضة وغير صحيحة!! (البداية والنهاية ١٠/ ١٩١ و٢٠٥).
(٣) انظر: وفيات الأعيان (١/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤).

«نهايةِ الأَربِ»[1] ، بل إنَّ محمَّدَ دياب الأتليديّ قد صنَّفَ كِتَاباً كامِلاً سمَّاه: «إعلام النَّاس فيما جرى للبرامكةِ مع بني العبَّاس»[2] ، وذكَرَ فيه ما ذكَرَ منْ رواياتٍ باطلةٍ ما أنزلَ اللهُ بها منْ سُلْطَان ، ولم يكتفِ الأَقْدمونَ بهذا ، بلَ طَلَعَ علينا جرجي زيدان في العَصْر الحديثِ ببضع وعشرينَ روايةً ، زعم أنَّها رواياتُ تاريخِ الإسلام ، ومنْ بينها روايةٌ بعنوانَ «العبَّاسةُ أخْتُ الرَّشيد» ، وأفرغَ في هذهِ الرِّواية سمومَ الأوَّلينَ والآخرِين ، وغير هؤلاء كثيرٌ وكثيرٌ؛ ولكنْ ما يضرُّ الشَّمس أنْ قال عنها قائِلٌ: إنَّها مظلمة:

وَهَبْنِـي قُلْـتُ هـذا الصُّبـحُ لَيْـلٌ   أَيَعْمَى العَالِمُونَ عنِ الضِّيَاءِ[3]؟!

* وها نحنُ أولاءِ نوردُ ما جاءَ في عَدَدٍ منَ المصادِرِ والمراجع عن قصَّةِ العبَّاسةِ ، ومنها: وفيَاتُ الأعيان ، ونهايةُ الأَرَب ، وفاكهةُ الصَّيَف وأنيسُ الضَّيف ، وأعلامُ النِّساء ، والرَّوضةُ الفيحاء وإعلامُ النَّاس ، وغيرُ ذلك منْ مصادرَ.

* تقولُ القِصَّةُ المزعومةُ: إنَّ العباسةَ بنتَ المهدي كانتْ من رباتِ الحُسنِ والجمالِ ، وكانَ أخوها هارون الرشيد يحبُّها حبّاً عظيماً ، كما أنَّه كان يحبُّ وزيرَه جعفرَ بنَ يحيى البرمكيّ حبّاً عظيماً أيضاً ، حيثُ كانَ جعفرُ بنُ يحيى متمكناً عند الرَّشيدِ ، غالِباً على أمْرِه ، واصِلاً منه ، عالي المرتبةِ عنده ، فلم

---

(١) انظر: نهاية الأرب (٢٢/ ١٣٥ ـ ١٣٧).

(٢) الكتاب مطبوع بمصر وفي بيروت بدار صادر ، وكلا النُّسختين فيهما تحريفٌ وتخريفٌ كثير.
وقال حاجي خليفة: إعلامُ النَّاس فيما جرى للبرامكة مع بني العباس ، تأليف محمد دياب الأتليدي المصري ، فرغَ من تأليفه سنة (١١٠٠هـ) مطبوع. (كشف الظنون ٣/ ٦٧). وطبع هذا الكتاب مؤخراً بمصر تحت عنوان «نوادر الخلفاء».

(٣) البيتُ من قصيدة شهيرة للمتنبي ، ومطلعها:
أتنكـرُ يـا بـنَ إسحـاقٍ إخـائـي   وتحسـبُ مـاءَ غيـري مـن إنـائـي
(ديوان المتنبي ١/ ١٢). و(بشرح البرقوقي ١/ ٧).

يكنْ للرشيدِ صَبْرٌ عنه ، وكانَ الرَّشيدُ شديدَ المحبةِ للعبَّاسةِ ، وهي من أعزِّ النِّساءِ عليه ، ولا يقدرُ على مفارقتها ، أو مفارقةِ جعفرَ ، فكانَ متى غابَ أحدٌ منْ جعفرَ أو العبَّاسةِ لا يتمُّ له سرورٌ ، ولذا فإنَّه كانَ لا يقوى على مفارقتهما ، وكان يُحْضِرُهما إذا جلسَ للشُّربِ.

* وأعملَ الرشيدُ فِكْرَهُ ماذا يفعلُ بهذهِ الحال التي هو فيها من محبَّةِ العبَّاسةِ وجعفر ، فاهتدى إلى فكرةٍ تَحلُّ له الخروجَ من هذه الورطةِ وهذا المأزقِ ، فاستدعى جَعْفَراً وقال له : ويحكَ يا جعفرُ ، ليسَ في الأرضِ طلعةٌ أنَا بها آنَسُ ، ولا أمْيَل ، وأنا بها أشدُّ استمتاعاً وأنساً منّي برؤيتكَ ، وإنَّ للعباسةِ أختي موقعاً ليس بدونِ ذلك ، وإنَّه لا يتمُّ لي سرورٌ إلا بكَ وبالعبَّاسةِ ، وإنّني قد نظرتُ في أمري معكما فوجدتُني لا أصبرُ عَنْك ولا عَنْها ، ورأيتُني ناقصَ الحظِّ والسُّرورِ بدونكما ، وتتكاثفُ لي به اللّذةُ والأُنْس بكما.

فقال جعفرُ : وفَّقك اللهُ يا سيدي يا أميرَ المؤمنين ، وعزَمَ لك على الرَّشدِ في الأُمور كُلِّها.

فقالَ له الرَّشيد : إنّي سأزوّجُها منكَ ليحلَّ لكما أنْ تَجْتَمِعا ، وليحلَّ لك النَّظر إليها ، ولا تقربْها ، ولكنْ إياكما أنْ تجتمِعَا وأنا دونكما في مَجْلِسي.

قالَ الرَّاوي : فأجابَه جعفرُ إلى ذلكَ الشَّرطِ ، وأتى فأشْهَدَ له مَنْ حَضَرَهُ من خَدَمِهِ وخاصّةِ مواليه ، وأخذَ الرشيدُ عليهِ عَهْدَ اللهِ ومواثيقَه ، وغليظَ أَيْمانِه أنَّه لا يخلو بها ، ولا يجلسُ معها ، ولا يظلُّه وإياها سَقْفُ بيتٍ إلاّ وأميرُ المؤمنينَ هارون الرّشيد ثالثُهما.

* وحَلفَ له جعفرُ البرمكيّ بأغلظِ الأيْمانِ ، وأعطاهُ العهودَ والمواثيقَ على ذلك ، ورضيَ وأَلْزَمَ نَـفْسه بذلك ، فكانَ هذا الثُّلاثي المُتصافي ـ على ما زعُموا ـ يجتمعون على هذهِ الحالة إلى ما شاءَ اللهُ لهم أنْ يشاءَ ، وجعفرُ في هذهِ المدَّة كُلِّها صَارِفٌ بصرَه عنها ، مزورٌّ بوجههِ هيبةً وخوفاً منْ أميرِ

المؤمنينَ هارون ، ولما أمْضَاه بينَ يديهِ ـ من قَبْلُ ـ منَ العهودِ والمواثيقِ والأَيْمانِ.

* وتتابعُ الرِّوايةُ المزعومةُ حَبْكتَها لتقولَ: ثمَّ اتَّفقَ أنْ أحبَّتِ العباسةُ جعفراً ، وعَلِقَتْه ومالَتْ إليه مَيْلاً شَديداً ، وراودتْه عَنْ نفسِهِ ، وسَهَّلتْ له الأَمْر ، ولكنَّ جَعْفراً أوجسَ خيفةً في نفسِهِ منْ وليّ نعمتِه ، فأبى وخافَ وأَشْفَقَ على نَفْسِهِ من مواردِ الهلاكِ والدَّمار.

* أمّا العباسةُ فَقَدْ أخذتْ تحتالُ على جعفرَ ، وتعملُ فكْرَها في استمالَتِهِ وإيقاعِهِ في حَبَائِلها التي نَشَرتها كيما يقع في شباكِها ، ولكنْ ما الحيلةُ ، فالحبُّ والغرامُ والعشقُ قد ألهبَ جوفَها كما زعموا؟!

* حكى شهابُ الدِّين أبو العبَّاس بن أبي حَجلة[1] في كتابِهِ الشَّهيرِ ديوان الصَّبابة[2] ما مفاده: أنَّ العبَّاسة ابنةَ المهدي قد كَلِفَتْ بجعفر البرمكيّ ،

---

(١) شهابُ الدِّين أبو العبّاس أحمدُ بنُ يحيى بنِ أبي بكْر بنِ عبد الواحدِ التّلمساني ، المعروفُ بابنِ أبي حَجَلة ، نزيلُ دمشقَ ثمّ القاهرة ، وُلدَ سنة (٧٢٥هـ) بتلمسانَ ، ثم قدمَ الحجَّ فلم يرجعْ ، ومَهَرَ في الأدبِ ، ونظمَ الكثيرَ ، ونَثَر فأجادَ ، وتَرسّلَ ففَاقَ ، وعَمِلَ المقاماتِ وغيرَها ، وكان حنفيَّ المذْهَبِ ، حنبليَّ الاعتقادِ ، وكانَ يحطُّ منْ مكانَةِ ابنِ الفارض.
وكان بارعاً في الشِّعْر مع أنَّه لا يُحْسنُ العَروض ، وكانَ كثيرَ العشْرة للظلَمَة ، ومن مُدمني الخمر ، وكان كثيرَ النَّوادر والنّكتِ ، ومنْ نوادِره أنّه لقَّب ولدَه جنَاحَ الدِّين. وجَمَع مجاميعَ حَسَنة منها: «ديوان الصَّبابة». وقد طُبعَ هذا الكتاب مذيّلاً على كتابِ: «تزيين الأسواق» لداود الأنطاكي ، وكذلك طُبعَ له في آخر كتاب «المخلاة» لبهاء الدين العاملي كتاب بعنوان: «سَكْردان السُّلطان» ، وفي كتابَيه هذَيْن غرائبُ العجائبِ وعجائبُ الغَرائب ولا يعوّل عليهما. وكان قد طُبعَ أخيراً في مصْرَ كتاب ديوان الصَّبابة منفصلاً. توفي ابنُ أبي حجلة سنة (٧٧٦هـ) وعمره (٥١ سنة). (شذرات الذهب ٨/ ٤١٥ و٤١٦) و(الدرر الكامنة ١/ ٣٢٩) مع الجمع والتصرف.

(٢) قال حاجي خليفة: ديوانُ الصَّبابةِ لابنِ أبي حجلةَ أحمدَ بن يحيى التّلمساني الحنفيّ المتوفى سنة (٧٧٦هـ). (كشف الظنون ١/ ٦٠٤).

وراودَتْه عن نَفْسِه ، ولما شَغَفَها حبّاً ولم تستطعْ وِصَاله ، واشتدَّ وَجْدُها بهِ وعشْقُها له ، ولم يطاوعْها على ما أحبَّتْ ، وخافَ على نَفْسِه منَ الرَّشيدِ أنْ يظهرَ أمرُها ، فكتبتْ إليه قَبْلَ مواقعتِه إياها:

عَزَمْتُ عَلى قَلْبِي بأَنْ يكْتُمَ الهَوى ... فَصَاحَ ونَادَى إنّني غَيْرُ فَاعِلِ
فَإِنْ لم تَصِلْنِي بُحْتُ بالسِّرّ عنوةً ... وإنْ عَنَّفْتَنِي في هواكَ عَواذِلي
وإنْ كَانَ موتٌ ولا أموتُ بغصَّتي ... وأقْررتُ قَبْلَ الموتِ أنَّكَ قاتِلي[1]

* قالَ واضِعُ القصَّة ومزخرفُها ومُنَمِّقُها: ولما وَصَلَتْ هذهِ الرَّقْعَةُ وبها الأبياتُ ، قرأَها جعفر ، فخافَ ومَحاهَا ، وتَهدَّدَ العبَّاسَةَ ، ولكنَّ الغرامَ تغلَّبَ على العاشقةِ الوالهةِ عبّاسة ، فعادَتْ ثانيةً إلى مراسلةِ جعفر بأعذبِ الكلماتِ ، وأرقِّ الهَمَسات ، فعادَ هو الآخرُ يتهدّدها ، ويمحو كلماتها منْ على الرّقاع ومنْ ذاكرتِهِ.

* وَلمَّا أَعيتْها الحيلةُ ، ولم تَجدْ لِغَرامِها أيّ وسيلةٍ ، هنالك رأتْ أنَّ بصيصَ الأَمَلِ ينبثقُ منْ عنْدِ النِّساء العَجَائِز[2] ، إذْ هُنَّ أقربُ إلى الخديعةِ ،

---

(١) ديوان الصّبابة (ص ١٠١) ولاحظْ أنَّ هذهِ الأبياتِ منحولةٌ ومنسوبةٌ إلى العبّاسةِ ، ويظهرُ أنّها منْ وضعِ أحَد الصُّوفيةِ الذين هامُوا ـ فيما زعموا ـ بالعشقِ الإلهيّ! وهل يُوجد عشْق إلهيّ؟! وتذكّرْ عزيزي القارىء أنّ كلمةَ «عشْق» لم تَرِدْ مُطْلَقاً في القُرآن الكريم.
ومنَ العجيبِ أنْ يقولَ ابنُ أبي حجلة بَعْدَ أنْ أوردَ تلكم الأبيات: فنالتْ منه ما أرادتْ ، وهلْ حَصَل لها ذلك إلاّ بإفشَاءِ سرّها ، وشكوى ضرّها؟ (ديوان الصَّبابة من ١٠١).
ولا يخفى على القارىء اللبيبِ ما في هذا الكلام منْ خطورةٍ على سمعةِ المرأةِ العربية الشّريفة التي شهدت مَجْد الحضَارة العربية وذروة الشّرف العربي.

(٢) قال أبو بكر بنُ عمّار الأندلسي في العجائزِ ومكرهن:

عَجوزُ النّحس إبليسٌ يَراهَا ... تُعلِّمُه الخديعةَ منْ سكوتِ
تجرُّ بمكرِها سبعينَ بغْلاً ... إذا شَرَدُوا بخيطِ العنكبوتِ

ويُروى البيت الثاني:

تقودُ منَ السّياسةِ ألفَ بغْلٍ ... إذا شَرَدُوا بخيطِ العنكبوت

وهُنَّ اللواتي يحللنَ صِعَابَ الأمور ، فَعَدلَتْ عند ذلك إلى المكرِ وإلى الخديعةِ ، وقَصَدَتْ أمَّ جعفر بنِ يحيى واسمُها فاطمةُ ، وقيل عتَّابَة ، ولم تكنْ بالحازمةِ ، فاستمالَتْها بالهَدايا منْ نفيسِ الجَواهرِ والأَلْطَاف وما شَابه ذلكَ منْ كثرةِ المالِ وأَلْطَافِ الملُوك ، حتّى إذا ظنَّتِ العبَّاسةُ أنَّ أمَّ جَعْفَر قد صارتْ في الطَّاعة كالأَمَةِ ، وفي النَّصيحَةِ والإشفاقِ كالوالدةِ ، أَلْقَتْ إليها طَرفاً منَ الأَمْر الذي تريدُه ، وأعلمَتْهَا بغرامِها وهيامها وما يعتريها منَ الشَّوقِ والتَّشوُّقِ والأشواقِ ، ووعدتها بمالها في حَلِّ مبتغاهَا منْ جزيلِ العاقِبَةِ ، ومالَها منَ الفَخْر والشَّرفِ بمصاهرة أميرِ المؤمنين ، وأوهمتها أنَّ هذا الأَمْرَ إذا وقَعَ كان بهِ أَمَانٌ لها ولولدها منْ زوالِ النّعمةِ وسُقُوطِ مرتبته ، وكان فيما قالَتْه العبَّاسةُ لأُمِّ جعفر: ويحكِ يا أُمَّ جَعْفَر أرسلِيني إلى ابنِك كأنّي جاريةٌ منَ جواريكِ اللواتي ترسلين إليهِ.

* وكانتْ أمُّه ترسلُ إليه كلَّ يوم جُمُعةٍ جاريةً بِكْراً عَذْراءَ ، وكانَ لا يطأُ الجاريةَ حتى يأخذَ كأْساً منَ النَّبيذِ.

* فأبتْ أمُّ جعفر وخافَتْ خَوفاً شديداً منْ هذهِ الفِعْلَة ، هنالك قالتْ لها العبَّاسَةُ: يا هذه إنْ لم تَفْعَلي ما آمرُكِ بهِ لأذكرنَّ لأخي الرّشيد أنَّك كلمتني في كَيْتَ وكَيْت ، ثم أردفتِ العبَّاسَةُ تقول: ويحكِ يا أمَّ جعفر لئن اشتمَلْتُ من ابنِك على وَلَدِ ، زادَ في شَرفِ ابنِكِ ، وليكوننَّ لكم الشَّرفُ ، وما عسى أنْ يفعلَ أخي لو عَلِمَ أمرنا؟

* قالَ الرَّاوي الخرَّاص الأفَّاك: وظلَّتِ العبَّاسةُ تَفْتُلُ لها في الذِّروةِ والغَارِب حتّى مَالَتْ إلى ذلك ، واستجابتْ لرغبةِ العبَّاسةِ ولغَرامها ، ووعدتْها أنْ تَعْمَلَ بكلِّ ما أُوتيتْ منْ حيلةٍ ومكْرٍ كي تبلغَ مأربَها ، وأنَّها ستلطفُ لها حتى تجمعَ بينهما ، ومن ثمّ تسعدها.

* وراحتْ أمُّ جعفر تفكّرُ في طريقةٍ تجذبُ فيها ابنَها جعفراً؛ إلى أنْ خَطَرتْ في ذهنِها فكْرةٌ وتأكدتْ من نَجاحِها ، فأقْبَلَتْ ذاتَ يومٍ على ابنها جعفر وقالتْ له: يا بنيّ، إنّي قَدْ وصِفَتْ لي جاريةٌ في بَعْضِ القُصور من تربيةِ

المُلوك ، قد بلغَتْ في الأَدَبِ الذِّروَة ، وفي المعرفةِ والظُّرف السُّهَا ، مع حلاوةٍ وملاحةٍ وجمالٍ رائع ، وقَدٍّ بارع ، وخصالٍ محمودةٍ مما لم يرَ الرَّاؤون مثْلَه ، وقد عزمتُ على شرائِها لكَ ، وقد قربَ الأمْرُ بيني وبينَ مالكها.

* كانَ جعفرُ ـ فيما زعموا ـ يسمعُ منْ أُمِّه صفةَ هذه الحسناء البديعة ، فتعلَّقَ بها قلبُه على السَّماع ، واستقبلَ كلامَ أُمِّه بالقَبُول ، وتطلعتْ نفسُه إلى تلكَ الجاريةِ ، وأخذَ يطالبُها بما وعدَتْه المرَّة بعد المرَّةِ ، وجعلتْ أمُّه تُماطِلُه حتى عِيْلَ صبرُه ، واشتدَّ شوقُه ، وقويتْ شهوتُه ، وهو في ذلك كُلِّه يلحُّ عليها.

* ولما علمتْ أمُّ جعفر أنَّ جَعْفراً قد عَجزَ عنِ الصَّبر ، واشتدَّ به القَلَقُ ، واشتاقَ إلى الجاريةِ التي وصَفَتْها أمُّه ، قالتْ له: أنا مهديتُها إليك ليلةَ كَذا وكذا؛ ثمَّ أرسلَتْ إلى العبَّاسةِ وأعلمتها أنْ تَهَيئي في الليلةِ الفُلانيةِ ، وكادتِ العبَّاسةُ ـ فيما زعموا ـ تطيرُ فَرحاً ، وتأهَّبَتْ ثمَّ سارتْ إلى أمِّ جعفر في الليلةِ المحدَّدةِ.

* قالَ الرّاوي الكذَّاب: وانصرفَ يومَها جعفرُ من عند الرشيدِ وقد بقي في نَفْسهِ منَ الشَّرابِ فَضْلة لما عزمَ عليه ، فَدَخَلَ منزلَه ، وسألَ عنِ الجاريةِ ، فأُخْبِرَ بمكانِها ، فأُدخِلَتْ على فتىً سكرانَ ، لم يكن بصورتِها عالماً ، ولا على خَلْقِها واقفاً ، لأنَّه كان لا يثبِتُ صورتَها!!!!؛ ولأنَّه لم يكنْ يَراها إلا عندَ الرَّشيد ، وكان لا يرفعُ طرفه إليها مخافةً ورهبةً من سيِّدهِ الرَّشيدِ؛ فاجتمعَ بها تلكَ الليلة ، وقضى وطرَه منها ، وعندها قالتْ لَهُ العبَّاسة: كيفَ رأيتَ خديعةَ وحِيَلَ بنَاتِ الملُوكِ؟!

فقال جعفرُ: وأيّ بنتِ ملِك أنتِ؟ وأي بناتِ الملوكِ تعنينَ؟ ـ وهو يرى أنَّها منْ بعضِ بناتِ الملوك ـ.

فقالتِ العبَّاسَةُ: أنا مولاتُكَ العبَّاسةُ بنتُ المهدي.

* قال الرَّاوي: فطارَ السُّكْر منْ رأْسِ جعفر ، ووثبَ فزعاً وقد زالَ عنه سُكْره ، وغابَ وعْيُه ، وفارقَه عقلُه ، وتألَّمَ لذلك ، وذهبَ إلى أُمِّه يتمطّى

وقال لها: يا أمّاه بعْتِني واللهِ رخيصاً، وحمّلتِني مَرْكباً وعْراً، وانظري ما يؤول إليهِ حالي.

* قال الرَّاوي: وفي تلكَ الليلةِ، اشتملتِ العبَّاسةُ منه على حَمْل، ولما جاءَها المخاضُ، انتبذتْ منْ قَصْرِ أخيها مكاناً خفيّاً، ولم يطَّلِعْ عليها ـ كما زعموا وخطّطوا وكادوا ـ سوى حاضنةٍ سمّوها «برّة» ـ لكي تتمّ حبكةُ الرِّوايةِ المزعومةِ ـ، وكذلك عَلِمَ بحالها غلامٌ اسْمُه «رِيَاش»، والخلاصةُ وَلَدتِ العبَّاسةُ غُلاماً زكياً، فوكَّلَتْ به الخادمَ رياش والحاضنةَ برَّة؛ ولما خافَتِ العبَّاسة ظهورَ خَبرِها وانتشارَ أمرِها، وخافتْ أنْ يقولَ لها أهلُها: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[1]، أو أنْ يقُولُوا لها: يا عبّاسة؛ ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[2] هنالك استجمعتْ أمرَها، وشاورتْ مَنْ تَثِقُ به ممن يعلمُ حالَها، أو عنده علْم بقصّتها، فأجمعوا أَمْرَهم بأنْ يوجِّهُوا الصَّبيَّ إلى مكةَ، ولم يلقُوه في غَيابةٍ من غياباتِ الجُبِّ، هنالك وجَّهتِ العبَّاسةُ الصَّبيَّ والخادمَ والحاضنةَ إلى مكةَ، وأمرتْها بتربيتهِ.

* قالَ الرَّاوي الأفَّاك: وطالتْ مدَّةُ جعفر وغَلَب هو وأبوهُ وإخوتُه على أمْرِ المملكةِ، وكانَ أبوه يحيى بنُ خالد البرمكيّ ينظرُ إلى قَصْرِ الرَّشيدِ وحرمِهِ وخدمِهِ، ويغلقُ بابَ القَصْرِ بالليلِ، وينصرفُ بالمفاتيح معه، فضيَّقَ على حرمِ الرَّشيد، وعلى زبيدةَ زوجِ الرَّشيد، ـ وكانتْ زبيدةٌ منَ الرَّشيدِ بالمنزلةِ التي لا يتقدَّمها أحدٌ منْ نظرائِها ـ فَدَخَلَتْ زبيدةُ على هارونَ الرشيد وقالت: يا أمير المؤمنين، ما بالُ يحيى بن خالد يضيِّقُ علينا؟

فقال الرَّشيدُ ليحيى: يا أَبَتِ، ما لزبيدةَ أمّ جعفر تشكوكَ؟ فقال يحيى بنُ خالد البرمكيّ: يا أميرَ المؤمنين أَتَّهَمُ وأنا في حرمِكَ وتدبيرِ منزِلكَ عندكَ؟

---

(١) اقتباس من سورة مريم آية (٢٧).

(٢) اقتباس من سورة مريم آية (٢٨)، وقد اقتبستُ ذلكَ لتوافقِ هارونَ أخي العباسة مع الآيةِ، والقارىء الفَطِنُ لا يخفى عليه المقْصدُ. واللهُ منْ وراءِ القَصْد.

فقال الرشيدُ: لا يا بنْ خالد.

عندها قالَ يحيى بنُ خالد: فلا تَقْبَلْ قولَها فِيَّ، ولا تسمعْ شكواها عليَّ.

فقال له الرشيدُ: إذاً، فلستُ أُعاوِدُكَ في شيءٍ منْ هذا.

* وازدادَ يحيى بنُ خالد غلظةً وتشديداً، وزادَ في الحَجْرِ والتَّضييقِ والإرْهَاقِ، وازدادَ يحيى لزبيدةَ منْعاً، كما ازدادَ عليها غلظةً، فكان يأمرُ بقَفْلِ أبوابِ الحرمِ بالليلِ، ويمضي بالمفاتيحِ إلى منزلهِ، فبلغَ ذلك من أمّ جعفر كلَّ مبلغٍ.

* وذاتَ يوم دخلتْ زُبيدةُ على هارونَ الرشيدِ فقالت: يا أميرَ المؤمنين، ما يحملُ يحيى على ما يفعلُ منْ منعهِ خدمي ووضعي في غيرِ موضعه؟

فقال لها: إنَّ يحيى بن خالد غير متّهم عندي في حرمي.

فقالتْ: لو كان كذلكَ لحفظَ ابنَه مما ارتكَبَه!!.

قال الرشيدُ في دهْشَة: وما ذاكَ يا زُبيدة؟

* قالَ الرَّاوي: وعندَ ذلك أخبرتْه زبيدةُ خَبرَ العبَّاسةِ من أَلِفِها إلى يائِها.

فقال الرشيدُ وقد سُقِط في يده: وهل لكِ على هذا منْ دليلٍ، أو شَاهِدٍ؟!.

فقالتْ زبيدةُ: وأي شيءٍ أدَلُّ منَ الولَدِ؟!

قال الرشيدُ: وأينَ هو؟

قالت: قد كانَ ها هنا، فلما خافَتْ ظهورَ أمْرِه، بعَثَتْ بهِ إلى مكةَ.

فقال لها الرشيدُ: أفيعلم بهذا سِواك يا زبيدةُ؟!

قالت زبيدةُ: ما في قَصْرِك منْ جاريةٍ إلا وقد عَرَفَتْ ما أخبرتُك به[1].

---

(١) لاحظْ هذا الحوار السَّخيفَ الموضوعَ المصنوعَ لتتمَّ الحبكةُ!!

* فأمْسَكَ الرشيدُ ، وسكتَ عنها مدّةً منَ الزَّمَنِ ، ثم أظهرَ أنَّه يريدُ الحجَّ ـ وكان موسمُ الحجِّ قد اقتربَ ـ فخرجَ وأخذَ معه جعفرَ بنَ يحيى البرمكيّ .

* قال الرَّاوي : وأحسَّتِ العبَّاسةُ بشيءٍ منَ الخَطَرِ ، فكتبتْ إلى الخادم رِياش والحاضنةِ برّة بمكةَ أنْ يَخْرُجا بالصَّبي إلى اليمنِ قَبْلَ قدومِ الرَّشيد مكةَ .

* ووصلَ الرشيدُ مكةَ ، ووكَّلَ مَنْ يثقُ بهِ في البَحْثِ عن أمْرِ الصَّبي والخادمِ والحاضنةِ ، ولم يزلْ حتّى تَحقَّقَ الأَمْرُ ، ووجَدَهُ صَحيحاً ، فأضمرَ السُّوء للبرامكةِ[1] .

* ومما يزيدُ الطِّين بلّةً أنَّهم نسبُوا قصيدةً لأبي نُواس تشيرُ إلى طَرفٍ من قصَّةِ العبَّاسةِ وجعفر ، ليكملَ لهم ما أرادوا من التَّمويه . فقد ذكر ابنُ خلكان الأبياتَ التي زعم أنّها تدلُّ على طرفِ واقعةِ العبّاسةِ وجعفر وهي :

ألاَ قُــــلْ لأَميـــــنِ اللَّـ ـــهِ وابـــنِ القَـــادَةِ السَّـــاسَـــه
إذا مَـــا نَـــاكِـــثٌ سَـــرَّ كَ أَنْ تُفْقِـــــدَهُ راسَـــــه
فـــلا تَقْتُلْـــهُ بـــالسَّيـــفِ وزوِّجْـــهُ بِعَبَّـــاسَـــه[2]

---

(١) انظر : وفيات الأعيان (١/ ٣٣٣ و٣٣٤) ، ونهاية الأرب (٢٢/ ١٣٥ ـ ١٣٧) ، ومروج الذهب (٣/ ٣٨٤ ـ ٣٨٧) والكامل في التاريخ (٦/ ١٧٥) ، والنجوم الزاهرة (٢/ ١١٥) ، وأعلام النساء (٣/ ٢٢٨ ـ ٢٣١) ، وفاكهة الصيف (ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧) ، مع الجمع والتصرف اليسير جداً.

(٢) انظر : وفَيَات الأعيان (١/ ٣٣٤) ، والواقعُ أنَّ هذهِ الأبيات لا تدلُّ على المعنى الذي ذكَرهُ ابنُ خلّكان ، وإنْ ذكرَها ابنُ بَدْرون في شَرحِهِ قصيدةَ ابن عبدون التي رثى بها بني الأفْطس بالأَنْدلس وأولها :

الـدَّهْـرُ يفجـعُ بَعْـدَ العيـنِ بـالأثَـرِ فمـا البكـاءُ علـى الأشْبَـاحِ والصُّـور

وهي (٦٩ بيتاً) انظرها في «قَلائِد العِقْيان» (١/ ١٢٣ ـ ١٣١) ، ومنها هذا البيت :

وأشـرقَـتْ جَعْفـراً والفَضْـلَ يـرمُقُـه والشَّيـخ يحيـى بـريـقِ الصَّـارم الـذّكَـرِ

هذا وقد وردت الأبياتُ : ألا قُلْ لأمينِ الله. . . في ديوانِ أبي نواس (ص ٣٨٦) طبعة دار صادر في بيروت . ومنَ المزري حقّاً ما جاءَ في تعليقِ مصحّح الدّيوان ما =

* وقد يظنُّ بعضُ النَّاسِ أنَّ هذه الأبيات التي تُنْسَبُ لأبي نُواس ، تنطبقُ على قصّةِ العبَّاسةِ مع جعفر ، ولكنَّ حقيقةَ الأمْرِ بعيدةٌ كلَّ البعدِ عن ذلك؛ وقد استغلَّ المغرضونَ صياغتَها ومعانيها وألصقوها بحادثةِ مَقْتَلِ جعفر البرمكي ، ليلوثُوا سيرةَ العبَّاسةِ ، ويجعلُوا منْ حياتِها حياةَ اللاهياتِ اللواتي لا يَعيْنَ مكانتهنَّ في بيتِ الخلافةِ ، بل في بيتِ العِلْمِ والنُّبُوةِ ، فالعبَّاسَةُ منْ نَسْلِ سيِّدنا عبد الله بن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ وكفَاهَا بهذا فَخْراً وبُعداً عن كلِّ رِيْبَةٍ.

* إنَّ قصَّة أبيات أبي نواس قد أَنْشَدها في التَّندُّر على أزواجِ العبَّاسَةِ الذين كانوا يموتُون بَعْدَ الزَّواج منها ، ـ كما مرَّ معنا في مَطْلَع ترجمتها ـ واسمعْ إلى قصّة ذلك: كانت عبّاسَةُ بنتُ المهدي ، أختُ الرشيد تحتَ محمّد بن سليمان ، فتوفي عنها فورثَتْه ، ثمَّ تزوَّجها إبراهيمُ بنُ صالح ، فولّاه الرشيدُ مِصْرَ فتوفيَ بها وورثَتْه ، فخطبها عيسى بنُ جعفر [1]، فقال مُهلهل الشَّاعر ـ أَحَدُ شُعراء ذلك العَصْر ـ:

أعبَّاسُ أنْتِ الذُّعَافُ الذي ... يَضِلُّ لَديهِ رُقى النَّافثِ[2]

= يلي: العبّاسةُ: هي أختُ الرّشيد ، قيل: إنَّ أخَاها الرشيد زوَّجها وهو في حالةِ سُكْر جعفراً البرمكيّ ، ثمّ قَتَلَه منْ أجلِ ذلك! (ديوان أبي نواس ص ٣٨٦) الهامش. وهذا الكلامُ أشدّ نكراً مما سبقَ! علما بأنّه تُوجدُ في الدّيوان نفسه قصائد ومقطعات في هجاء جعفر البرمكي ، فتأمل.

(١) عيسى بنُ جعفرَ بنِ المنصورِ العبّاسي ابنُ عمّ العبَّاسة ، وأخو زُبيدةَ زوجِ الرشيد ، بَعَثَه الرشيدُ عاملاً على عُمَانَ ، فبعثَ إليه إمامُ الأَزْدِ «الوارث الخروصي» جيشاً قاتَله ، فأسِرَ عيسى وسُجِنَ في صَحَار ، ثم قُتِلَ حوالي سنة (١٨٥هـ).

(٢) «أعبّاسُ»: ترخيم عبّاسة. والتَّرخيمُ: هو حَذْفُ آخرَ اللفظِ بطريقةٍ معينةٍ لداعٍ بلاغي كالتّخفيف ـ وهو الغالبُ ـ ، أو التّلميح ، أو الاستهزاء. وهو ثلاثةُ أنواع: ترخيمُ التَّصغير ، وترخيمُ الضّرورة الشّعرية ، وترخيم النّداء. وترخيمُ الضّرورةَ الشِّعرية هو الذي يجري على غير المنادى بشروطٍ ثلاثةٍ وهي: أن يكونَ في شِعْر؛ وأنْ يصْلُحَ الاسمُ للنّداء فلا يجوزُ في نحو الإنسان لأنّه لا يصلحُ للنِّداء؛ وأنْ يكونَ زائداً على ثلاثةِ أحرف أو مختوماً بتاء التّأنيث. انظر: أخبار أبي نواس لابن منظور (ص =

قَتَلْتِ عظيمَيْنِ مِنْ هَاشِمٍ وأنْتِ على طَلَبِ الثَّالِثِ
فَمَنْ ذَا الذي غَمَّه مَالُهُ يُعَرِّضُ بالمَالِ للوَارِثِ

فلم يتزوَّجْها عيسى بنُ جعفر ، ولا غيرُه حتّى ماتَتْ. وفيها يقولُ أبو نواس متنّدراً ـ لا كما زعموا ـ:

أَلا قُلْ لأَمينِ اللـ ـهِ وابنِ القَادَةِ السَّاسَه
إذَا ما نَاكِثٌ سَرَّ كَ أنْ تُفْقِدَه راسَه
فلا تَقْتُلْه بالسَّيفِ وزوّجْهُ بعبَّاسَه

* وكما يلاحظُ القارئُ الحصيفُ أنَّ أبا نُواس ، قد أنشدَ هذه الأبيات متظرّفاً مُتَندّراً ، بعد أنْ سَمِعَ أبياتِ معاصره مُهَلْهل الشّاعر الذي تندّرَ أيضاً بأبياتِه في حادثةِ زواجِ العبّاسة بنتِ المهدي وموتِ أزواجها ، وأشارَ إلى أنَّ الذي يريدُ أنْ يُوْرَثَ وغمَّه مالُه ، فليتزوَّجْ منَ العباسةِ ، فإنّه يموتُ وتَرِثُه!.

* إنَّ الذينَ زعمُوا ذلكَ الافتراءَ الغاشِمَ وأَلْصَقُوه بالعبَّاسةِ ، ما أرادُوا منْ ذلكَ إلا تشويهَ صُوَرِ حرائرِ النِّساءِ العربيّاتِ ، اللاتي كُنَّ عنوانَ الطُّهْرِ والعفَّةِ ، ومنهنَّ كثيراتٌ في مُخْتَلفِ العُصُور ، ومنهنّ عائشةُ بنتُ طلحة[1] وسكينةُ بنتُ الحسين[2] ورملةُ بنتُ معاوية[3] من بنات الصَّحابة ، وكذلك أمُّ البنين[4] بنتُ عبد العزيز في عَصْر التَّابعين ، وزبيدةُ بنتُ

= ١٩٩) ، وهو ملحق بكتاب الأغاني (٢٥/ ١١٩) طبعة بيروت.

(١) اقرأ سِيرة هذه الكريمة هذه في موسوعتنا الشّهيرة «بنات الصَّحابة» (ص ٤١٥ ـ ٤٩٨) ففيها ما يسرُّ بإذنِ اللهِ.

(٢) اقرأ سِيَرة هذه الكريمة في موسوعتنا الشّهيرة «بنات الصَّحابة» (ص ٣٠٨ ـ ٣٩٧) ففيها ما يسرُّ بإذنِ اللهِ.

(٣) اقرأ سِيرَة هذه الكريمة في موسوعتنا الشّهيرة «بنات الصَّحابة» (ص ٢٩٤ ـ ٣٠٧) ففيها ما يسرُّ بإذنِ اللهِ.

(٤) أمُّ البنين بنتُ عبد العزيز بنِ مروانَ الأمويّة ، منَ النِّساء الطَّاهراتِ اللائي أساءَ المُرجفُون إلى سِيَرهنَّ ، وأمُّ البنين هذه هي أختُ عمر بن عبد العزيز ، فقد كانتْ زوجةَ الوليد بنِ عبد الملكِ مَلِكِ الدُّنيا آنذاك ، والتَّاريخُ المأثورُ يُقَدِّمُ لنا صورتَها =

. . . .

= نقيةً تقيةً صالحةً في إطارٍ وقورٍ يتّفقُ ومالها منْ عظمةٍ وطيبِ أُرومةٍ وذروةِ الحَسَبِ والنَّسبِ ، ناهيكَ بالإحسان إلى أهلِ الإحْسان ، ومعَ هذا نجدُ وضَّاعينَ نسَّاجينَ كذّابينَ يشوّهون سُمعتَها في قصّةٍ مزعومةٍ مع وضّاح اليمن ، وظاهرُ القصَّة وباطنَها باطلٌ مصنوعٌ ، حتى إنَّ وضَّاحَ اليمنِ مشكوكٌ في وجودِهِ أصْلاً.

وملخَّصُ القِصَّةِ ومحصّلُها أنَّ أمَّ البنينَ قد عشقتْ ـ كما زعموا ـ وضّاحَ اليمن ، فكانتْ تدْخلُه في صندوقٍ خشبيٍ إذا ما ارتابتْ من أحدٍ ، إلى أن اطَّلعَ عليها أحَدُ الخَدمِ فوشى لزوجِها الوليدِ ذلك ، وجاءَ الوليدُ ، واستوهبَ منها الصّندوقَ المزعومَ ، ثم أمَر بحفرِ بئرٍ عميقةٍ ، وقذفَ بالصَّندوقِ فيها ، واختفى بذلك أثَرُ وضَّاح اليمن ، ولم يتأثرِ الوليدُ لهذهِ الحادثةَ ، ولم يعاتبْ أمَّ البنين كما جاءتِ الروايةُ الكاذبةُ بذلك.

والرّواياتُ كثيرةٌ بذلكَ ومتناقضةٌ ، وقد دحَضْنَاها في كتابنا «نساءٌ من التَّاريخ» وبَسَطنا فيها القولَ هنالك ونوجزُ أهمّها هنا للفائدة:

(١) إنَّ روايةَ أمّ البنين ووضّاح قد ذكَرَها أبو الفرجِ الأصبهاني ، وذلكَ ليرضيَ نزعةَ غيره ، وهوى النَّاقمين على المرأةِ الأمويّةِ وكانتْ أمُّ البنين إحدى ضحاياه إذ نَسَبَ إليها الفجورَ والاستهتارَ بالشّرف والعفّة.

(٢) الرواياتُ التي تحدَّثَتْ عنْ أمّ البنينِ متناقضةٌ وبعيدةٌ عنِ الحقائقِ التَّاريخية.

(٣) إنّه ليسَ منَ المعقول أو المنطقِ أنَّ سيّدةً فاضِلةً مثل أمّ البنين وأخت عمر بن عبدِ العزيز تتبذّل لدرجةٍ أنّها تدعو وضّاح اليمنِ أو غيرِه للمغامراتِ العاطفيةِ ، أو التّشبيب بِها وهي تؤدّي فريضةَ الحجّ ، وإذا ما صحَّ ذلك فأينَ الحُرّاس الأشداء الذين يمنعونَ هذا الاستهتار منْ جانبِ الشّعراء؟

(٤) هل يُعقل أنْ تكونَ أمُّ البنين حَمقَاء تطلِعُ الخادمَ على خليلها ، وتضعُه في الصُّندوق أمامه؟ وهل يُعْقَل أن يكونَ الوليدُ بنُ عبد الملك زوجها ـ وهو مَلِكُ الأرض عَصْر ذاك ـ مغفّلاً أرعنَ التّصرفات يأتي بالصُّندوق ويدفُنه بمجلسهِ أمامَ رجالِ دولته دونَ مبالاةٍ بهم ، وبما يترتّبُ على ذلكَ من افتضاحِ أمْرِ زوجتِهِ وتلويثِ عرضِها؟ والوليدُ منْ أوائلِ الذين نكّلُوا بالمخنّثين والشّعراء الشّاذين ، فهل يُعقل عنه ذَلك؟!

(٥) إنَّ السَّيدةَ الأولى في دُنيا الخلافةِ الأمويّةِ ذاتُ الخصالِ الحميدةِ ، وحصائل العقلِ الأكيدة ، لنْ تقدمَ في رعونةٍ وطيشٍ على بيعِ شرفها الغالي ـ ناهيك بالحرامِ =

جعفر[1] ، وعليةُ بنتُ المهدي[2] وأختُها العبَّاسة في العَصْرِ العبّاسيّ ، وغيرهنَّ كثيرات .

* إنَّ مثلَ هذا كثيرٌ في رواياتِ الأخباريّين ، وخصُوصاً عن ضيفةِ حلقتِنا العبّاسةِ بنتِ المهدي ، ولكنْ هل هذهِ الأخبارُ صحيحةٌ؟ وهل نستطيعُ أنْ نَجدَ فيها روحَ الصِّحَّةِ؟!

* إنَّ تخبُّطَ الرِّواياتِ حولَ العبَّاسة وتنوّعِها تشيرُ إلى بُطْلانِ القِصَّةِ منْ أساسِها ، وتدلُّ على الافتراءاتِ التي تغضُّ من مكانةِ العبَّاسةِ بنتِ المهدي في عالَم بَنَاتِ الخُلَفاء ، وعَالَمِ نساءِ الرَّعيلِ الطَّاهرِ الذي كان قدوةً لمن بعده ، وكنَّ قدوةً لمن بعدهنَّ .

* وأريدُ أَنْ أُسْمِعَ القارىءَ الكريمَ ما وردَ منْ أكاذيبَ بلهاءَ في بعضِ المصادرِ والمراجعِ عن السَّيِّدة الحصيفةِ العبَّاسةِ بنتِ المهدي ، وذلك ليقفَ بنفسه على أمواجِ التَّناقضاتِ العديدةِ ، ويدركَ الرِّواياتِ المختلفةَ المُخْتَلقةَ التي همُّها تلويثُ وتعريضُ العبَّاسةِ إلى الشُّبَهِ وإلى الشَّكِّ في صيانتِها وعفّتِها . ثمَّ بعد ذلك يدركُ براءَتَها مما نُسِبَ إليها .

الأكْذُوبَةُ في كِتَابِ الرَّوْضَةِ الفَيْحَاء :

* في كتابِه «الرَّوضة الفَيحاء في تواريخ النِّساء» يوردُ ياسينُ بنُ خير الله العمريّ[3] منَ المهازلِ والنَّوازِل في قصَّةِ العبَّاسةِ ما لا تَقْبلُه عقولُ الحُلماءِ

= ومعصية الله ـ دونَ مبالاةِ على النّحو الذي أثارَه المغرضون .

(١) اقرأ سيرة زبيدة بنت جعفر في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٢٩٩ ـ ٣٤٤) واعرفْ أعمالَها العظَام .

(٢) اقرأ سيرة علية بنت المهدي في هذا الكتاب .

(٣) ياسين بنُ خير الله بنِ محمود الفاروقيّ المَوْصِليّ الأديبُ الحنفيُّ المعروف بالخطيبِ العمري ، توفي بالموصلِ سنةَ (١٢٢٤هـ) منْ تصانيفِه الدّرُّ المكنونُ في تاريخِ القُرون ، والروضة الفيحاءُ في تواريخِ النّساءِ. وصفةُ الأدباءِ في محاسنِ الشّعراءِ وغيرها (كشف الظنون ٦/ ٣٩٩) . =

ولا أهل البَلَةِ ، وما لا يقبلُه عَقْلٌ أو مَنْطِقٌ ، وينقلُ رواياتٍ تاريخيةً مؤيداً لها دونَ تحقيقٍ ويضْفي عليها تعليقاتِه غير القيِّمة ، فقد أَوْرَدَ قصّةَ العبَّاسةِ المُفْتَعلةِ دونَ أنْ يشيرَ إلى المصادرِ التي قَبَسَ منها ظُلمَاتِ الافتراء على العبَّاسةِ ، والتي زَعَم أنَّها سَبَبُ مَقْتَلِ البَرامِكَةِ ونكْبَتِهم .

* ومنَ الجديرِ بالذّكْرِ أنَّ العمريَّ هذا قد قَسَّمَ كتابَه إلى مقالَتَيْن اثنتَيْن :

الأولى : في ذِكْرِ النِّسَاءِ الصَّالحاتِ .

والثَّانية : في ذِكْر النّسَاءِ الطَّالحات .

* ومنَ العجيبِ أنَّه صنَّفَ العبَّاسَة منَ النِّساءِ الطّالحات ، بل وصَفَها بأنَّها رَعْنَاء حَمْقَاء ، وزعمَ بعد هذا كُلِّه أنَّ كتابَه جاءَ بحمدِ اللهِ كتاباً فائِقاً ، وزَهْراً رائِقاً ، ونَشْراً عابِقاً ، معانيهِ ظاهرةٌ ، ومحاسِنَهُ زَاهِرة :

كِتَـابٌ فـي مَحَـاسِنِـه سُـرورٌ مُنَـاجِيــهِ مــنَ الأَحْــزَانِ نَــاج
كَــرَاحٍ فــي زُجَــاجٍ أو كَــروْحٍ سَرَتْ في جِسْمِ مُعْتَدِلِ المِزَاجِ[1]

* إذاً فلننظرْ في قصَّةِ العبَّاسةِ كما أورَدَها تَماماً ، ثمَّ نرى كيفَ ظلَمها وظلمَ أخاها الرشيدَ وظلمَ القُرّاءَ مَعَه أيضاً ، حيثُ جاءَ بأشياءَ لمْ توردْهَا المصادرُ منْ قَبْلُ ، فلنقرأْ ولنسمعْ ما قالَه في روضتِه الفيحاء التي تَقَلَّصَتْ فيما بَعْدُ فأضحت عَوراء .

* يقولُ ياسينُ العمريُّ ما نصُّه : العباسةُ بنتُ الخليفةِ المهدي العبّاسيّ ؛ وهي أختُ الخليفةِ الرشيدِ ، وهي التي كانَتْ سَبَباً لقَتْلِ البرامكةِ ، وذلك أنَّ الوزيرَ جعفرَ بنَ يحيى ، كان يدخلُ إلى حرمِ الرشيدِ ، وكانَ للرشيدِ أختٌ اسمُها عبّاسة ، وكانتْ حَسَنَةً جميلةً إلاّ أنَّها رَعْنَاء ! ! ! .

= وهناكَ أقوالٌ تشيرُ إلى أنَّ العمري وُلِدَ سنة (١١٥٧هـ) وتوفيَ بعد سنةِ (١٢٣٢هـ) وتدلُّ على أنَّه كانَ من فضلاء ومشاهير الموصلِ وأدبائِها وشعرائِها ، وكانَ منَ المتصوفة ، واشتهر بالورع والتقوى. وكان واسع الثقافة ، ألَّف في الطب والأدب والتاريخ والشعر .

(١) الروضة الفيحاء (ص ٧٨).

* فقالَ الرَّشيدُ يوماً لوزيرِهِ جعفر: إنّي قَدْ أَذنتُ لكَ أنْ تدخلَ إلى حرمي ، ولكنَّ النَّظرَ منكَ إلى أختي العبَّاسةِ حرامٌ ، فإنِّي أريدُ أنْ أَعْقدَ لكَ عليها عقْدَ النِّكاحَ ليحلَّ لك النَّظرُ إليها ، ولكنْ بشرط أنْ لا تقربَها؛ فَقَبِلَ الوزيرُ ، فَأَمَر الرشيدُ بإحْضَارِ القَاضي والأعيانِ ، وعَقَدَ للوزيرِ على العبَّاسَةِ ، وشَرَطَ عليه أنْ لا يقربَها؛ فأقاما على ذلك برهةً منَ الزَّمنِ ، فاشتاقتِ العبَّاسةُ للرَّجُلِ ، فَلَبِستْ أفخرَ ثيابَها ، وتطيَّبَتْ ، وأمرتْ دايتها أنْ تأخذَ بيدِها ، وتذهبَ إلى عند الوزيرِ جعفرَ ، وتقولُ له: هذه جاريةُ العبَّاسةِ أختِ الخليفةِ أَهْدَتْها إليك.

* ففعلتِ العجوزُ ما أمرتْها الرَّعْناءُ ، فأخذتْ بيدِها ، ودخلتْ على الوزيرِ جعفرَ ، وقد لَعِبَ برأسِهِ السُّكْرُ ، وبقَي لا يشعر ، فقالتْ له الدَّايةُ: يا جعفر هذهِ جاريةُ العبَّاسةِ أَهْدَتْها إليكَ ، فتلقَّاها جعفرُ بالقَبول ، وأخذَ الجاريةَ وجَعَلَ يلاعبُها ، وهي منْ تحتِ السِّتار إلى أنْ غَلَبَ عليه البَاهُ ، فواقَعَها ، وقد أطاعَتْه مثْلَ الأرضِ العَطْشَانةِ لوابِلِ المطر.

* فلما أتمَّ عَمَلَه وحقَّقَ النَّظرَ بها ، فإذا هيَ العبَّاسَةُ ، فقال لها: ما هذهِ الصَّنيعةُ؟ قَتَلْتِنِي وقَتَلْتِ البرامكة.

فقالتْ له: لا بأْسَ عليك ، أَلَسْتَ زوجي؟ وحَمَلَتْ منْ وقتِها ، وأخفتْ حَمْلَها إلى أَنْ قربَ أوانُ وضْعِها ، فاستَشَارَتْ جعفراً بما تصنعُ ، وقد ظَهَرَ حَمْلُها ، ونَدمَتْ على ما فَعَلَتْ ، وليس ينفعُها النَّدمُ خوفاً منَ القَتْلِ ، فأَشَار عليها جَعْفَرُ بالمسير إلى الحجّ ، فاستأذنتْ من أَخيها الرّشيد فأَذنَ لها ، وأرسلَ معها جعفر ، فسارتْ منْ بغدادَ.

* ومنْ تقديرِ اللهِ تعالى أنَّها وضَعَتْ غُلاماً جميلاً قَبْلَ وصولِها إلى المدينةِ المنورةِ ، ومنْ تقديرِ اللهِ على جعفرَ أنَّه أحبَّ ذلك الغُلام ، ولم يعلمْ أنَّه سيكونُ سَبباً لِقَتْله ، وإلاّ لو عَلِمَ لكان قَتَلَه وأَخْفَاه.

* ثمَّ إنَّ العبَّاسةَ الرَّعناءَ أعطتِ الغُلام لبعضِ نسَاءِ مكةَ ، وأَعْطَتْهم مَالاً

جزيلاً ليربُّوه إلى أنْ يكبرَ ، وحجُّوا وعادوا ولمْ يَعْلَمِ الرشيدُ بذلكَ إلى أنْ كانَ يوماً منَ الأيَّام بلغَ الوزيرُ ابنُ الربيعِ الفَضْلُ خَبرَ الغُلام ، وكان بينَه وبينَ جَعْفرَ عداوةٌ ، فَقَصَّ خبرَ الغلامِ على الرشيدِ ، فاغتاظَ لذلك ، وهمَّ بقَتْلِ البرامكة ، فحذَّرتْه بطشَ ربِّه زوجتُه زبيدةُ ، وقالتْ له : أليستْ هي زوجتُه؟ ثمَّ حرَّضَه ابنُ الرَّبيعِ الفَضْلُ على قَتْلِ جعفر ، فَقَتَلَه سَنَةَ سَبْعٍ وثمانينَ ومئة ، وحَبَس أباه يحيى ، وأخاه الفَضْلَ ، وأقَامَا بالحبسِ إلى أَنْ ماتَا ، فكانتِ العبَّاسَةُ سَبباً لِقَتْلِهم وذَهَابِ دولتهم ، وقد كانُوا أعزَّةً في جَبين الدَّهْرِ ، وفي قَتْلِهم يقولُ الرَّقاشي :

وَقُـلْ للمنَـايَـا قَـدْ ظَفِـرْتِ بجعْفَـرٍ	ولـمْ تَظْفَـري مـنْ بعـدِهِ بِمسَـوَّدِ
وقُـلْ للعَطَـايـا بَعْـدَ فَضْـلٍ تَعَطَّـلي	وقُـلْ للـرَّزَايـا كـلَّ يـومٍ تَجـدّدي
ودونَـك سَيْفـاً بـرمَكيّـاً مُهَنَّـداً	أُضيْـفَ بسَيْـفٍ هـاشمـيّ مُهَنَّـدِ[1]

---

(١) الروضة الفيحاء (ص ٣٤٢ و٣٤٣) ومنَ العجيبِ في أَمْرِ العُمري هذا أنَّه يُعَقِّبُ على القصةِ بهذا التّعليق السَّاذجِ السَّخيفِ الذي يدلُّ على الغَفْلة حيثُ قال : وكيف سَمحتْ له نفْسُه ـ أي هارون الرشيد ـ بقَتْل وزيرِه حيثُ واقَعَ منكوحتَه وهو سَكْرانٍ ، لا يعقِل ولا يَعْلمُ هيَ أمْ غيرها ، فإن قيل : قَتَله لخسَّةِ أصْلِه ، أقولُ : قد رفَعَهُ الإسلامُ ، وعظَّمه جُودِه الذي شَمِلَ الخاصّ والعام ، ولكنَّ ذلك بتقديرِ اللهِ الملكِ العَليم العلاّمِ ، وعند الله تصيرُ الأمور (الرَّوضة الفيحاء ص ٣٤٥) .
ولا ندري في الحقيقة من هو السَّكران . وليتَه سَكَت ولم يُعلِّق.
ولا نودُّ أنْ نعلِّقَ على هذا الخبرِ ، ولا على القصة التي أوردَها العمريُّ حيثُ الكلامُ المهترىءُ الصَّفصفُ ، وسنتركُ للقارىءِ الكريمِ أنْ يعجب منْ واضِعها وصانِعها ، ويرى ما فيها منَ التَّناقضاتِ ومن السُّخريات والأعاجيب!! ناهيكَ باللغةِ المهلهلةِ التي تنعى نَفْسَها لضَعْفِ أسلوبِها ، وتفضحُ مؤلفها لركالة تراكِيبها وتنافرها؛ حيثُ تمخَّضَ فولَد فأراً.
ولعلَّ هذه الاضطرابات والأوهام قد أصبحتْ منَ الحقائقِ عند بعضِ النَّاس ، فقد جَعَلت ـ مثلاً ـ نزار قبّاني يقول متّهماً هارون الرشيد بمأْسَاته :

مـأسـاةُ هـارونَ الـرشيـدِ مـريـرةٌ	لـو تـدركيـنَ مـرارةَ المـأْسـاةِ

(الأعمال الشعرية الكاملة ١/ ٤٥٦).

أُكْذُوبَةٌ بَلْهَاءُ في كِتَابِ إعْلام النَّاسِ:

* لنرجعَ قليلاً في الزَّمنِ إلى ما قبل ياسين العُمري وكتابه: «الروضة الفيحاء في تواريخ النِّساء»، لنلتقيَ محمَّد دياب الأتليدي المتوفى سنة (١١٠٠هـ) والتي توافق ١٦٨٨م، وذلك في كتابِهِ المشهور: «إعلام النَّاس» بما وَقَعَ للبرامكةِ مع بني العبّاس. الذي انتهى من تأليفهِ سنة (١١٠٠هـ)[1]، حيثُ أَوْرَدَ هو الآخرُ بَعْضَ المهازلِ، وبعض القَصَصِ السَّقيمةِ التي لا تثبتُ عنِ العبَّاسَة بنت المهدي والتي أطلقَ عليها اسم «ميمونة»، ولا نَدْري من أينَ نَزَلَ عليه هذا اليُمْنُ!؟! ومنْ أينَ وَصَلَتْه تلكمُ الأخبارُ والأَسْرارُ، أمْ كيفَ وصَل تلكمُ الأخبار بالخَيالِ، وجَعَلَها بينَ دفَّتي كتاب، والتي تُشْبِه فُصولاً منْ ليالي ألف ليلة وليلة؟!.

* وسأنقلُ للقارىء الكريم فِقْرات ممّا جاءَ في ذلكم الكتاب الخَطير «إعلام النّاس» حتى يتبيَّنَ لنا جميعاً زَيْفَ ما افتُريَ على العبَّاسَةِ وأمْثالها منْ فُضْلياتِ نسائِنا العربيّات الطَّاهراتِ المُسلمات، وكذلك ما افتُري بهِ على أعاظِمِ الخُلفاءِ كالرشيدِ وغيرهِ منْ أهلِ الفَضْل والعَقْلِ.

* ذكرَ الأتليديُّ سَبَبَ قَتْلِ البرامكةِ، فقال: كانَ لهارونَ الرشيدِ مجلسٌ بالليلِ مع جعفرَ البرمكي، فقالَ له يوماً: لا يطيبُ لي ذلكَ إلا بِمحْضَرِ أختي ميمونة (أي العبّاسة)، ولكنْ لا يجوزُ إلاّ إنْ كَتَبْتُ لكَ عليها، لإباحةِ النَّظرِ منْ غيرِ أنْ تَقْرَبها.

* فاتَّفقَا على ذلك، وعَقَد له عليها، ثمَّ أَحْضَرها، فكانت تحضرُ لذلكَ المجلس، إلاّ أنَّه زادَ غرامُها وعشْقُها فيه، وكانَ لجعفرَ البرمكي امرأةٌ تزيّنُ له الجواري كلَّ ليلةٍ، فجاءتْ ميمونةُ ـ العبَّاسة ـ إليها ورشَتْها بمالٍ، فزيَّنَتْها له، وأدْخَلَتْها عليه، فَظَنَّ أنَّها جاريةٌ فواقَعَها.

---

(١) كشف الظنون (٣/ ٦٧).

* فلمَّا أصبحوا قالتْ له: أنا ميمونةُ؛ وقد كنْتُ أسألُكَ أنْ تساعدَني في مودَّتك فتأبى، فلما أيسْتُ منْكَ، احْتَلْتُ عليكَ بما رأيتَ في هذهِ الليلةِ، وإنْ لم تواظبْ لأكوننَّ سبباً في سَلْبِ نعْمَتكَ، وهَلْ أنْتَ إلاّ زوجي[1]؟

فقال لها جعفرُ: ويْحَكِ أَهْلكتِني وأهلكتِ نَفْسَكِ.

* وكانَ كما قَال، ولمْ يَزُرْها حتّى ظَهَر أمْرُهَا للرشيدِ، فهذا كانَ سَبَبُ قَتْلِ البرامكة[2].

* ثمَّ إنَّ الأتليدي يَمْضي في حديثهِ عَنْ مَقْتَلِ البرامكةِ، ويأتي بشيءٍ منَ التَّفْصيلِ في القِصَّة، حيث تظهرُ الأكاذيب في كلِّ سَطْرٍ، وبينَ الكلمات، وذلك بما يخالفُ الواقعَ والوقائِعَ والتَّاريخَ والحقائقَ، إذاً فلتسمعْ إلى هذهِ الملحمةِ، بل الملهاةِ التي جاءتْ عند الأتليدي حيثُ يقول:

* وكانَ الرشيدُ قَدْ أحَلَّ جعفراً مَحلاًّ لم يحلَّه أخوهُ ولا أبوهُ، وأَمَره أنْ يدخلَ على الحريمِ في السَّفر والحَضَر، وأبرزَ إليه جواريَه وأخواتِه، وبناته لأنَّه كان بينَهُما رضَاع[3]، سوى امرأتِهِ زُبيدة، فإنَّه لم يكنْ رآها، ولا دخل عليها، ولا قَضَى لها حاجةً.

* فلما فَسَدَ قَلْبُ الرشيدِ، وعزمَ على هلاكِ البرامكة، وجَدَتْ سبيلاً على البرامكةِ، فحطَّتْ على جعفر، وكانَ جعفرُ يدخلُ على الحريم في غيابِ الرَّشيدِ، ويقضي حوائجهنَّ لأنهنَّ لا يستترنَ منه، وكان ذلك بأمْرِ الرشيدِ، ولم يعلمِ الرشيدُ ما حدثَ من جعفر.

* فخرجَ الرشيدُ واستدعى أرجوانَ الخادمَ، وأحْضَرَ السَّيفَ والنِّطْعَ، وقال: برئتُ منَ المنصورِ إنْ لمْ تصدقْني في حديثِ جعفرَ لأقتلنَّك.

---

(١) لاحظْ هذا التّلفيق والتّزوير، ولاحظْ قبولَه الرِّشْوة!؟!.

(٢) إعلام الناس (ص ٢٤٤) طبعة دار صادر ببيروت.

(٣) لاحظ الرّضاع ـ عزيزي القارىء ـ ثمّ انظرْ بقيةَ القصّة وتمعَّنْ في التّناقُض.

فقال: الأمَانُ يا أمير المؤمنين[1].

قال: نعم لك الأمانُ.

فقال: اعلمْ أنَّ جعفراً قد خَانَك في أختِك ميمونة، وقد دخلَ بها منذُ سَبْع سنينَ، ووَلَدت منه ثلاثةَ بنين[2]، أحدهم له ستّ سنين، والآخرُ له خمسُ سنين، والثَّالِثُ عاشَ سنَتيْن ومات قريباً[3]، والاثنان قد أنْفَذَتْهُما إلى مدينةِ الرَّسولِ ﷺ، وهي حاملٌ بالرَّابع[4]، وأنتَ أَذِنْتَ له بالدُّخُولِ على أهلِ بيتك، وأمرتَني أنْ لا أمنعَه في أيِ وَقْتٍ شاءَ ليلاً أو نَهاراً.

قال: أمرتُك أنْ لا تحجبَه، فحينَ حدَثَتْ هذه الحادثةُ، لِمَ لا أخبرتني أوّلَ مرّةٍ؟! ثمَّ أَمَرَ بضربِ عنقِهِ.

* وقامَ منْ وقتِه على الفورِ، ودخلَ على زُبيدةَ، وقال لها: أرأيتِ ما عامَلني به جعفر، وما ارتكبَ منْ هَتْكِ سِتْري، ونكَّسَ رأسي، وفَضَحني بينَ العربِ والعجمِ؟!!.

فقالت: هذه شهوتُك وإرادتُك، عَمَدتَ إلى شابٍّ جميل الوجْهِ، حَسن الثّياب، طيِّب الرائحة، جبَّار في نَفْسه، أدخلْتَه على ابنةِ خليفةٍ منْ خلفاءِ الله، وهي أحسنُ منه وجْهاً، وأنظفُ منه ثوباً، وأطيبُ منه رائحةً، لكنّها لم تَرَ رجُلاً قطّ غيره، فهذا مَنْ جَمَعَ بينَ النَّار والحَطَب.

* فخرجَ منْ عندها مكْروباً، فَدَعا بخادمِه مَسْروراً، وكانَ قاسيَ القَلْبِ، فظّاً غليظاً، قد نَزَعَ اللهُ الرَّحمةَ منْ قَلْبِهِ، فقالَ: يا مسرورُ، إذا كانَ الليلةَ بعد العتمة فائتِنِي بعشرةٍ منَ الفَعَلَةِ[5] أجلاداً ومعهم خادمان.

---

(١) لاحظ أثرَ العَصْر الذي عاشه الأتليدي، وأثرَ بعضِ المفرداتِ التركيّة.

(٢) لاحظ عزيزي القارىء زيادةَ الأولاد هنا عن الرّوايات السَّابقة.

(٣) وهنا جَعلُوا الثَّالث ـ المزعومَ ـ منَ الأمواتِ لِتَخْلُو ـ بزعمهم ـ الحكايةُ المكذوبةُ.

(٤) لاحظ الحملَ الرَّابعَ زيادةً في غباءِ واضع القصةِ عن العبّاسة.

(٥) لاحظْ أثرَ البيئة التّركيّة والبيئة المموّجة المختلطة التي عاشها الأتليدي في مصرَ في =

قال: نعم.

* فلمّا كانَ بعد العتمة جاءَ مسرورٌ، ومعه الفَعَلَةُ والخادمان، فقامَ الرَّشيدُ وهمْ بينَ يديهِ حتّى أتى المقصورة التي فيها أخته، فنظرَ إليها وهيَ حاملٌ[1]، فلم يُكلِّمْها بشيءٍ، ولم يعاتبْها على ما فَعَلَتْ، وأمرَ الخادمَيْن بإدخالها في صندوقٍ كبيرٍ في مقصورتها بعد قَتْلِها، ووضَعَها بحليِّها وثيابِها[2] كما هي وأقْفَلَ عليها، وقد علمتْ أنَّها بعد قَتْلِ أرجوان لاحقة به، فلما عَلِمَ أنَّه استوثقَ بها، دعا بالفَعَلَةَ ومعهم المعاولُ والزَّنابيلُ، فحفروا وسطَ تلك المقصورةِ حتى بلغُوا الماء، وهو قاعدٌ على كرسي[3]، ثمَّ قال: حسبُكم! هاتُوا، فدلُّوه في تلكَ الحفْرةِ، ثمَّ قال: ردُّوا التُّراب عليه، ففعلُوا وسووا الموضعَ كما كانَ، ثمَّ أخرجَهم، وأقْفَل الباب، وأخذَ المفتاحَ معه، وجلسَ في موضعِهِ، والفَعَلَةُ والخادمان بين يديهِ، ثمَّ قالَ: يا مسرور خُذْ هؤلاءِ القومَ وأعْطِهم أجرتَهم. فأخذَهم مسرور وجَعَلَهم في جواليقَ وخَيَّطَ عليهم بَعْدَ أنْ ثقَّلَهمُ بالصَّخر والحصى، ورَمَاهُم في وسطِ الدَّجْلةِ

= عَصْرِه، وكيفَ تأثَّر بها وبخرافاتِها، بالإضافةِ إلى القَصَصَ المترجَمة عن التّركيةِ والفارسيةِ وغير ذلك.

(١) بَعْد الحملِ الرَّابع يلاحظُ الرشيدُ ذلك، أو يُنْقَلُ له الخبرُ عنْ ذلك، فتأمَّل طُولَ وعَرْضَ هذهِ الفِريةِ الآثمةِ والكذبةِ الكافرةِ.

(٢) لاحظْ تَدخُّلَ بعضِ المعتقداتِ والدِّيانات في هذه القصَّة منْ دَفْنِ المرأةِ بحليها وثيابِها!!.

(٣) القصَّةُ نفسُها هنا حَدَثَتْ ـ كما زعموا معَ الرَّشيد ـ وكذلك معَ أمِّ البنينَ بنتِ عبد العزيز منْ قَبْلُ، ولكنْ بإخراجٍ مختلفٍ فعمليةُ الدَّفْن واحدةٌ. وهكذا افترى المفترونَ على الرشيدِ، وعلى أُمِّ البنين، واتّهموها بعشق وضّاح اليمنِ حتى أنْهى ـ فيما زعموا ـ زوجُها الوليدُ هذه الرِّواية، وأمر بحفرِ بئرٍ بمجلسه، ثم ألقي بوضاح اليمن فيها، وسُوِّيَ فوقَه التّراب، وكأنَّ شيئاً لم يكنْ وبراءةُ الأطفَال في عينيهِ، وللمزيد من هذه التّفاصيل والردّ على المفتريات، اقرأْ كتابنا «نساء من التاريخ» ترجمة أم البنين واقرأ الرَّد على الكذابين.

ـ نهر دجلة ـ ، ورجعَ منْ وقتِه ، فوقفَ بينَ يديه ، فقال: يا مسرورُ ، فَعَلْتَ ما أمرتُك به؟!

قال: وفيتُ القومَ أجورهم.

فدفعَ إليه مفتاحَ البيتِ وقال: احْفَظْه حتّى أسألَك عنه ، وامضِ الآنَ ، فانصُبْ في وسطِ المحلِّ القُبّةَ التُّركيّةَ. ففعلَ ذلك ووافاهُ قَبْل الصُّبح ، ولم يعلمْ أحدٌ ما يريدُ ، فلمَّا جَلَسَ في مَجْلِسِه ، وكانَ يومُ الخميسِ يومَ موكبِ جعفر ، قال: يا مسرورُ؛ لا تتباعَدْ عنّي.

* ودخلَ النَّاسُ ، فسلَّمُوا عليهِ ، ووَقَفُوا على مراتِبهم ، ودخلَ جعفرُ بنُ يحيى البرمكي ، فسلم عليه ، فردَّ السَّلامَ أحْسَنَ ردٍّ ، ورحَّبَ به ، وضَحِكَ في وَجْهِه ، فجلسَ في مرتبتِه ، وكانتْ مرتبتُه أقربَ المراتبِ إلى أميرِ المؤمنين ، ثمَّ حدَّثَه ساعةً وضَاحَكَه ، فأخرجَ جعفرُ الكُتُبَ الواردةَ عليهِ منَ النَّواحي ، فَقَرأَها عليه ، وأَمَر ونَهَى ، ومنَعَ ونفَّذَ الأمورَ ، وقضى حوائجَ النَّاسِ ، ثمَّ استأْذَنه جعفرُ في الخروجِ إلى خُراسَانَ في يومِهِ ذلك ـ وكان الرشيدُ قد ولاه كورة خراسان كلّها وما يُضافُ إليها فَدَعا الرَّشيدُ بالمُنَجِّمِ[1] وهو جالسٌ بحضرتِه ، فقالَ الرشيدُ: كم مضى منَ النَّهَارِ؟!

قال: ثلاثُ سَاعاتٍ ونِصْف.

وأخذَ له الارتفاع ، وحَسَب له الرشيدُ بنفسِه ، ونظرَ في نَجْمِه ، فقال: يا أخي ـ جعفر ـ هذا يومُ نحوسِك ، وهذه ساعةُ نَحْس!! ولا أرى إلاّ أنَّه يحدثُ فيها حَدَثٌ ، ولكنْ تُصلّي الجمُعَةَ وترحلُ في سعودِك... فما رضيَ جعفرُ بما قاله الرشيدُ ، حتى حَسَب الطَّالع لنفسِه ، وقال: صدقْتَ يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ هذه السَّاعة نَحْسٌ.

---

(١) لاحظْ هذا التّخريف والتّهريج ، وهو أنَّ الرشيدَ يأخذُ بآراءِ المنجّمين ، ويتركُ أكابر علماء الأَمصار وأعلياء الفقهاء كأبي يوسُف وغيره!! ولكنْ هكذا أرادَ واضِعُ القصّة.

* ثمَّ قامَ وانصرفَ إلى منزلِهِ ، والنَّاسُ والقُوَّادُ والخاصُّ والعامُّ منْ كلِّ جانبٍ يعظِّمُونَه ويبجِّلُونَه إلى أنْ وصَلَ إلى قَصْرِه في جيشٍ عظيمٍ ، وأمَرَ ونهى ، وانصرفَ النَّاسُ ، فلم يستقرَّ بهِ المجلسُ حتى بعثَ إليهِ الرشيدُ مَسْروراً ، وقال له: امْضِ إلى جعفرَ وائتِني به السَّاعة ، وقُلْ له: وَرَدَتْ كُتُبٌ منْ خراسانَ ، فإذا دخَلَ البابَ الأوَّلَ أوقِفِ الجنْدَ ، وإذا دخلَ البابَ الثَّاني أوقفِ الغلمانَ ، وإذا دخَل البابَ الثَّالث فلا تدعْ أحَداً يدخلُ معه منْ غلمانِهِ ، بل يدخُلُه وحْدَه ، فإذا دخَلَ صَحْنَ الدَّار ، فَمِلْ به إلى القُبَّةِ التُّركيةِ التي أمرتُك بِنَصْبِها ، فاضربْ عُنقَه ، وائتِني برأسِه ، ولا تُوقفْ أحَداً منْ خَلْقِ اللهِ على ما أمرتُك بِهِ ، ولا تراجعْني في أمْرِه ، وإنْ لم تَفْعَلْ أمرتُ مَنْ يَضْرِب عنقَك ، ويأتيني برأسِك ورأسِه جُملةً ، وفي هذا كفاية ، وأنتَ أعْلم ، وتبادر قَبْل أنْ يبلغَه الخبر منْ غيرِك.

* فمضى مسرورٌ واستأْذَن على جعفر ، فدخَل عليهِ ، وقَدْ نزعَ ثيابَه ، وطرحَ نَفْسَه ليستريحَ ، فقال: سيّدي ، أجبْ أميرَ المؤمنين.

* فانزعجَ وارتاعَ منه ، وقال: ويلكَ يا مسرورُ! أَنَا في هذِه السَّاعة خرجتُ منْ عندِه ، فما الخبرُ؟!.

قال: وردتْ كتُبٌ منْ خراسانَ يحتاجُ أنْ تقرأَها.

* فطابتْ نفسُه ، ودعا بثيابه ، فَلَبِسَها وتقلَّدَ سَيْفَه ، وذهبَ معه ، فلمَّا دَخَلَ منَ الباب الأوَّل أوقفَ الجنْدَ ، وفي الثَّاني أوقفَ الغِلْمان ، فلما دخَل منَ البابِ الثَّالث ، التفتَ فَلَمْ يَرَ أحَداً منْ غلمانِه ، ولا الخادم الفَرْدَ ، فَندمَ على ركوبِهِ تلكَ السَّاعة ، ولم يمكنْه الرَّجوع ، فلّما صارَ بإزاءِ تلكَ القُبَّةِ المضروبةِ في صَحْنِ الدَّار ، مالَ به إليها ، وأنزله عَنْ دابَّتِه ، وأَدخَلَه القُبَّةَ فلم يَرَ فيها أحَداً ، ورأى سَيْفاً ونِطْعاً ، فحسَّ بالبلاءِ ، وقال لمسرور: يا أخي ما الخبرُ؟!

فقال له مسرورُ: أَنَا السَّاعة أخوك ، وفي منزلكَ تقولُ لي: ويلك! أنتَ

تدري ما القضيةُ؛ وما كانَ اللهُ ليُمْهِلَك ولا ليغْفِلك ، فقد أمرني أميرُ المؤمنين بضَرْبِ عنقكَ ، وحَمْلِ رأسِكَ إليه السَّاعة .

* فبكى جعفرُ ، وجَعَل يقبِّلُ يدي مسرور ورجلَيْه ، ويقولُ : يا أخي يا مسرورُ ، قد علمتَ كرامتي لكَ دونَ جميعِ الغِلْمان والحاشيةِ ، وأنَّ حوائجَك عندي مقضيةٌ في سائرِ الأوقاتِ ، وأنتَ تعرفُ موضعي ومحلّي منْ أميرِ المؤمنين ، وما يُوحيه إليَّ منَ الأَسْرارِ ، ولعلَّ أنْ يكونوا بلّغُوه عنّي باطلاً ، وهذه مئةُ ألف دينار أحضرُها لك السَّاعة قبل أنْ أقوَم منْ موضعي هذا ، وخَلِّني أهيمُ على وجهي .

فقال : لا سبيلَ إلى ذلك أبداً .

قال : فاحْمِلنْي إليهِ ، وأوقفني بينَ يديه ، فلعلَّه إذا وَقَعَ نظره عليَّ تدركُه الرَّحمةُ فيصفحُ عنّي .

قال : مالي سبيلٌ إلى ذلك أبداً ، ولا يمكنني مراجعته ، وقد علمتَ أنَّه لا سبيلَ إلى الحياةِ أبداً .

قال : فتوقَّفْ عنّي ساعةً ، وارجعْ إليهِ ، وقُلْ له : قد فرغتُ ممّا أمرتَني به ، واسمعْ ما يقولُ ، وعُدْ فافْعَل ما تريدُ ، فإنْ فعلتَ ذلك ، وحَصَلتْ لي السَّلامةُ ، فإنّي أشهدُ اللهَ وملائِكته أنّي أشاطرُك في نِعْمتي ممّا ملكَتْه يدي ، وأجعلُك أميرَ الجيشِ ، وأمكّنُكَ أمْرَ الدُّنيا .

* ولم يزَلْ بهِ وهو يبكي حتّى طمعَ في الحيَاةِ ، فقالَ له مسرورٌ : ربّما يكونُ ذلك[1] ، وحلَّ سَيْفَه ومنطقتَه وأخذَهما ، ووكَّلَ به أربعينَ غُلاماً منَ

---

(١) مِنَ المناقضاتِ العجيبة في كُتُبِ التَّاريخ ، ما ذكرَهُ ابنُ طبَاطبا العلويّ في كتابه : «الفَخْري في الآدابِ السُّلطانية» حيثُ قال : إنَّ الرشيدَ لمّا أرادَ أنْ يقتُل جعفرَ بنَ يحيى البرمكيّ ، أرسلَ إليهِ مَسْروراً الخادمَ ليقتله ، فلما دخَلَ مسرورٌ على جَعْفَر ، وأخبرَهُ بأمْرِ الرشيدِ ، وقَعَ على قدميهِ وقال له : عَاوِدْ أميرَ المؤمنين ، فإنَّ الشَّراب قَد حمَلَه على ذلك . =

السُّودانِ يحفظونَه ، ومضى مسرورٌ ، ووقفَ بين يدي الرَّشيد وهو جالسٌ يَقْطُر غَضَباً ، وفي يدِه قضيبٌ ينكُتُ بهِ الأرضَ ، فلما رآهُ قال له : ثكلتْكَ أمّك ، ما فَعَلْتَ في أمْرِ جَعْفَر؟!

فقال : يا أميرَ المؤمنين ، قد أنفذتُ أمركَ فيه .

فقال : فأينَ رأسُه!؟!

فقال : في القُبَّةِ .

قال : فائتِني برأسهِ السَّاعة .

* فرجعَ مسرورٌ وجعفرُ يصلي ، وقد ركعَ ركعةً ، فلم يمهلْهُ أنْ يصليَ الثَّانية حتى سَلَّ سَيْفَه الذي أخذَ منه ، وضربَ عنقَه ، وأخذَ رأْسَه بلحيتِهِ فطرحَه بين يدي أميرِ المؤمنين ، وهو يشخبُ دمَاً ، فتنفَّسَ الصُّعَداء ، وبكى بكاء شديداً . . . ويقولُ : يا جعفر ، خُنْتَني في أَهْلي ، وفَضَحْتَني بينَ العَربِ والعجمِ ، ياجعفرُ أسأتَ إليَّ ، وإلى نَفْسِكِ ، وما تفكَّرتَ في عاقبةِ أمرِك .

* فلما أصبحَ يومُ السَّبْتِ ، وجَّهَ الرَّشيدُ إلى مدينةِ النَّبيِّ ﷺ فأتى بالصَّبيَّين ولَدَيْ جَعْفر منْ أخته ميمونةَ ، فأُدْخِلا عليه في بيتِه ، فلمّا رآهما أُعْجِبَ بهما ، وكانَا في نهايةٍ منَ الحُسْنِ والجمالِ ، فاستنطَقَهما ، فوجدَ لغتَها مَدَنيّةً ، وفصاحتُهما هاشميةً ، وفي ألفاظِهما عُذوبة وبَلاغة ، فقال لكبيرِهما : ما اسمك يا قرَّة عيني؟

قال : الحَسَن .

= وهذا القولُ واضحٌ في الدَّلالةِ على أنَّ الرشيدَ كان يشربُ الخَمر ـ كما زعَمَ ـ ، ولكنَّنا نلمحُ بعد صفحةٍ واحدةٍ قولاً لابنِ طباطبا يناقضُ قولَهِ السَّابق إذ قال : إنَّ الرشيدَ قد أقامَ الحدَّ على ابنِهِ المأمونِ في جاريةٍ وُجِدَ مَعَها ، أو خَمْرٍ شَربه . (الفخري ص١٥٤) . فتأملْ أيّها القارىء الكريمُ كيف يبيحُ الرشيدُ لنفسه شربَ الخمر ، ثم يقيمُ الحدّ على ابنهِ في شربها . أليسَ هذا من باب الافتراء على هؤلاء؟!! ومن باب عدم التّثبت؟!

وقال للصَّغير: ما اسْمُك يا حَبيبي؟

قال: الحُسين[1].

فنظرَ إليهما وبكى بكاءً شديداً، ثمَّ قالَ: يعزّ عليَّ حُسْنُكما وجمالُكما، لا رحمَ اللهُ مَنْ ظَلَمكما، ولم يَدْرِيا ما يُرادُ بهما، ثمَّ قالَ لمسرور: ما فعلتَ بالمفتاحِ الذي دفعْتُه لكَ وأمرتُك بحفْظِه؟

قال: هو حاضرٌ يا أميرَ المؤمنين.

قال: فائْتِني بهِ.

ثمَّ دعا بجماعةٍ منَ الغلمانِ والخدمِ، وأمرهم أنْ يحفرُوا في البيتِ حفرةً عميقةً، ودعا مَسْروراً وأمره بقتلِهما ودفْنهما مع أمِّهما في تلكَ الحُفْرةِ، وهو مع ذلك يبكي بكاءً شديداً، ثمَّ مَسَحَ عينيه منَ الدُّموعِ، وأمَرَ أنْ لا تُذْكر البرامكةُ في مجلسٍ، ولا يُستعانُ بمن بقيَ منهم في المَدينةِ أبداً، فخرجُوا على وجوهِهم في البلادِ شاردين، متنكّرين، وقطعَ اللهُ دابرهم[2].

أُكذُوبَةُ العَبَّاسَةِ في العَصْرِ الحَدِيْثِ:

* امتدَّتْ ذيولُ قصَّةِ العبَّاسةِ إلى العَصْرِ الحديثِ تجرِّرُ أذيالَها المزعومَة، حيث إنّنا وَجْدَنا بعضَ الكُتَّاب والمؤلّفين قد أقرَّها، ولم يستنكرْ ما افترى بهِ الرُّواةُ والوضَّاعون والأفّاكُونَ على العبَّاسةِ ابنةِ المهدي العفيفةِ الحَصَان.

* ومنَ المعاصرينَ الذينَ تلقَّفُوا قصَّةَ العبَّاسةِ بالقَبولِ وتلقَّوها دونَ استنكارٍ «عبد الله عفيفي» في كتابه الشّهير: «المرأة العربيّة في جاهليتها وإسلامها»، فلنستمعْ إليهِ حيثُ يقولُ عنِ العبَّاسةِ وكأنَّه يسخرُ من ابنِ خلدون الذي استنكرَ قديماً قصَّة العبَّاسَة وماحِيْكَ حولها: وأمّا العباسةُ فقد قالَ

(١) لاحظْ عزيزي القارىء كيفَ اختارَ واضعُ القصّةِ الأسماءَ والحوارَ لتتمَّ لهُ المسرحية.

(٢) انظر: إعلام الناس (ص ٢٤٩ ـ ٢٥٦) باختصار يسير. وأتركُ القارىء الكريمَ ليحاكمَ هذه القصَّة المزعومةَ في ميزانِه الصحيح.

المؤرّخون في أمْرِ صِلَتِها بجعفرَ بنِ يحيى البرمكيّ ما قالوا ، وذكروا أنَّ هذه القصَّة هي التي حَملتِ الرشيدَ على قَتْلِهِ جَعْفراً وإيقاعِهِ بالبرامكةِ ، كذلك كانَ النَّاسُ يعرفونَ قَبْلَ ابن خلدون ، فلما أَنْشَأَ هو مقدمةَ تاريخِهِ ، جَعَل هذا القَوْل من أوْهَامِ المؤرّخين .

ثمَّ إنَّ عبدَ اللهِ عفيفي يسوقُ رَدَّ ابن خلدون[1] ، ويعلِّقُ عليه بقوله : ذلك قولُ ابنِ خلدون ، وما كانَ أَوْلاَنا بما رآه ، أو ذهبنا فيما ذهبَ إليهِ لولا أنَّه ناقشَ المؤرّخين بمشاعرِه وبعضِ عَقْلِهِ ، وراحَ يَعْتمدُ على فخامَةِ اللفْظِ ، ورنَّةِ الإيقاعِ ، وكلُّ ذلك ليس خليقاً بأنْ يمحوَ خبراً ذاع ، ويقطعَ حديثاً نمي .

* ثمَّ إنَّ عفيفي هذا يؤكّد أنَّ العبَّاسَة قد نزعَتْ في شذوذِها إلى أمِّها فيقول : ومَنْ أمّ العبَّاسة؟! أليستْ مغنيةً من القِيَان اشْتَراها المهدي ، وكانَ منْ أمرِها أنْ أصْبَحتْ أمّ ابنته؟ أفي قُدْرَة هذه أنْ تُنْشِىء فتاةً تحفظُ ما لبيتها العظيم من سموٍ وجلال[2]؟! وإنّ النَّفْس لا تَطْمئنُّ لما ذكر ابن خلدون عن نكبةِ البرامكةِ ، فإنَّ المُثْلةَ الشَّنعاء التي مثلها الرَّشيدُ بجثمان جعفرَ من تمزيقهِ ثلاث فلذات ، وصَلَبَ كلّ واحدةٍ على بابٍ من أبوابِ بغداد بعدما كان منْ فرطِ حبّه له ، وتقريبه منه تقريباً لم يكنْ بين أخويْن أليفَيْن ، كلّ ذلك لا يكون إلا حين تتَّقِدُ الغيرة ، وتهتاجُ الحفيظة ، ويُصابُ العِرض ، وما أظنُّ ما قالَ القائلونَ من احتِجازِ الأَمْوالِ ، وممالأَةِ بني علي بن أبي طالب إلا تمويهاً للأَمْر ، وإبلاغاً للعُذْرِ ، ولو كانَ ذلك حقّاً لَقَتَلَ البرامكة على سواء ، ولم يختصَّ واحداً بالقَتْلِ ، ويترك الباقين رهائن السّجن ، بل لكان أولى بالقَتْل يحيى أبو جعفر ، لأنَّه هو الذي استَنَّ لبنيهِ سياسةَ الرِّفْقِ والمودَّة للعلويين[3] .

---

(١) سنوردُ ردّ ابن خلدون كاملاً إن شاء الله .
(٢) لاحظْ هذا الاستنتاجَ السّخيفَ الذي لا يعتمدُ على المنطقِ ، ولا على أدْلةٍ صحيحة ، ولكنْ على رأيٍ شخصي سمج .
(٣) انظر : المرأةَ العربيّةَ في جاهليتِها وإسلامِها (٣/ ٨٨ ـ ٩٠). وقولُ عبد الله عفيفي =

* ولم يكنْ عبدُ الله عفيفي في هذا الميدان يطلبُ الطَّعْنَ وحْدَه والنّزال ، وإنّما نَجِدُ مُعَاصراً آخر هو محمَّدُ عبد الله عَنَان صاحب كتاب «تراجم إسلامية» يوافقُ ما ذهبَ إليه عبد الله عفيفي في كتابِه «المرأة العربيّة» ، وهو لا يستنكرُ قصَّة العبَّاسة ، بل ينعتُ ابن خلدون بضَعْفِ المنطق ، يقولُ محمد عبد الله عنان ملخِّصاً قصّة العبّاسة : إنَّ الرشيدَ كانَ يحبُّ العبَّاسةَ حبّاً جماً ، ولا يطيقُ بُعْداً عنها ، وكان يدعوها إلى مجالسِ أُنْسِه ولهوِهِ ، وكانَ منْ جهة أخرى كلفاً بصحبةِ وزيرِه جعفر ، شغوفاً بسمره ، فكان لا يصبرُ عنه ، فرأى الرّشيدُ أنْ يزوِّجَ جعفر منْ أختِهِ العبَّاسة حتى يحلَّ له الاجتماع بها في مَجْلِسه ، على أنْ يكون هذا الزَّواج اسميّاً فقط ؛ ولكنَّ العباسةَ هامتْ بحبّ جعفر ، وهامَ بها ، فتلاقيا سِرّاً ، وحمَلَتْ منه ، وكانتْ زبيدةُ زوج الرشيدِ تحقدُ على العبَّاسةِ لفرطِ جمالِها ونفوذِها على الرَّشيد ، فلما وقفتْ على علاقتِها بجعفر ، وظفرتْ بالأدِّلة ، فَضَحتْ أمْرَهَا للرشيد ، فقررَ إهلاك البرامكةِ ، وإهلاك أختِه[1] .

* ويعاملُ ابن خلدون هذه القصَّةَ بازدراءٍ وسخريةٍ ، وينكرُها بِشدَّة ، ويستندُ في إنكارِه إلى منزلةِ العبَّاسة منْ بيتِ الخلافةِ وبيتِ الرَّسول ، وإلى حَسَبِها النَّبويّ ، والعربيّ العريق ، ويتساءلُ كيفَ تدنّسُ سليلةُ الصَّون والطُّهر شرفَها العربيَ بمولى منْ موالي العَجم ، وكيف يسوغُ منَ الرشيدِ أنْ يصهرَ إلى موالي الأعاجم؟! وهو بلا ريب منطقٌ ظاهر الضَّعف ، وتدليلٌ لا يتَّفق في

= هذا ضعيفٌ لا يُؤْبَه له ، وفيه تناقضٌ ، إذ يعتمدُ على العاطفةِ وأقوالِ العامّة ، ولا يعتمدُ على الحجة العلميّة ، وهو يناقضُ نَفْسه في الكتاب عينِه. انظر ص (١٠٤ و١٠٥) حيثُ تجد مصداق ما قلناه.

(١) علَّقَ محمّدُ عبدُ اللهِ عنَان على هذه الفِقْرة بما يلي: تختلفُ الرِّوايةُ في مصيرِ العبّاسَة ، فيقولُ البعضُ: إنَّ الرَّشيدَ طردَهَا منْ قَصْرِه فعاشَتْ مع ولَدِها في أنحاءَ مجهولةٍ عيشةً شقيةً؛ ويقولُ البعضُ الآخر: إنّهما قُتِلا سِرّاً بأمْرِ الخليفة ، ولم يَعْلَمْ بمصيرهما أَحَدٌ. (تراجم إسلامية ص ٢٠ الهامش). !!! . . !! .

نظرنا مع دقّةِ الفيلسوف وعقليته المستنيرة[1].

* ويطلعُ علينا معاصرٌ آخر هو محمّد السَّيِّد الوكيل ، ويظهرُ أنَّه يوافقُ مَنْ سَبَقَه ويزعمُ بأنَّ العبَّاسَةَ قد خَدَعَتْ جعفرَ البرمكي وأوقعَتْه في حبائِلها بحيلتها؛ ويزعمُ الوكيلُ هذا أنَّ الرَّشيدَ كانَ ماهِراً في قَتْلِ جعْفرَ البرمكي ، إذْ أوصاهُ أنْ يشربَ حتى الثّمالة ليكونَ غائباً عن الوعيِ عندما يُقدَّمُ للقَتْل. ولا ندري منْ أينَ هَبطَ وحيُ الإلهام على الوكيلِ فجاءَ بما لم تأْتِ بهِ الأوائلُ كما ظَنَّ ، وقد عدَّد التُّهمَ التي وجّهَتْ للبرامكةِ ، ورأى أنَّ قصَّةَ العبَّاسةِ مع جعفر هي التي نَسفَتِ البرامكة ونسفَتْ رأسَ جعفر البرمكي.

* يقولُ الدّكتور محمّد السَّيِّد الوكيل بعد أنْ عَرضَ قصَّةَ العبّاسةِ وحيلتَها مع أمِّ جعفر على جعفر البرمكي: إنَّ الموضوعَ خطيرٌ ، وإنَّ ما نَزلَ بالبرامكةِ أشدّ وأخْطَر ، والمناقشةُ فيه تحتاجُ إلى فِكْرٍ ثاقبٍ ، وذهْنٍ حاضرٍ ، وألمعيةٍ نافذة[2].

* ثمّ يبدأُ الوكيلُ بمناقشةِ وتحليلِ أسباب نكبةِ البرامكة فيقول: أمّا السَّببُ الأوّلُ ، فهو عندي أقوى الأسبابِ لنكبةِ البرامكةِ ، فقد زوَّجَ الرَّشيدُ أختَه العبّاسةَ إلى جعفرَ على ألاّ يقربها ، ولا يعاشرَها معاشرةَ الأَزْواجِ ، ولا يجتمعان معاً على انفرادٍ.

* ولكنَّ المسألةَ أخذتْ شَكْلاً آخرَ غيرَ الذي أرادَه الرشيدُ ، فقد وقَع عليها جعْفَرُ ، وإنْ لم يكنْ ذلكِ بعِلْمٍ منه ، ولكنْ كانَ بالحيلةِ والخديعة ، واشتملتْ منه على وَلَدٍ ـ وإنْ لم يكنْ ذلكَ في الحَرام ـ ولكنْ كان مُخلاً

---

(١) انظر: تراجم إسلامية (ص ١٩ و٢٠) وأودُّ أنْ ألفِتَ نظرَ القارىء الكريم إلى أنَّ محمد عبد الله عنان ، قد كَتبَ نقيضَ ذلك بَعْدَ سَبْع صفحات فقط من سيرةِ العبّاسة؛ ومنْ أراد معرفةَ ذلك فليرجعْ إلى كتابه تراجم إسلامية (ص ٢٧ و٢٨) يجدْ مصداقَ ما قلناه.

(٢) انظر: العصر الذهبي للدولة العباسية (ص ٢٤٠) طبعة دار القلم الأولى ١٩٩٨م.

للشَّرط الذي اشتَرَطَهُ الرَّشيْدُ عليهما ، والرشيدُ كخليفةٍ يعزُّ عليه أنْ يُخَلَّ بشرطِه مهما كانَ السَّبب .

* ولهذا كانَ همُّه أنْ يعْلَم : أهناكَ مَن يعرِفُ ذلك في القَصْرِ ، فردَّتْ زُبيدةُ : ليسَ هناك أَحَدٌ إلا وهو يعرفُ بالحادثة ويعرفُ ما جرى .

* فاغتاظَ الرَّشيدُ ، ولكنَّه كتمَ ذلكَ في نَفْسهِ ، وهو القادرُ على كتمانِ ذلكَ وأكثر .

* وخرجَ حاجّاً في هذا الموسمِ ، ليستطلعَ الخبرَ ، ويقفَ على حقيقتِهِ ، ولكنَّ العبَّاسَة ذاتُ دهاءٍ هي الأخرى ، فكتبتْ إلى الحاضنةِ أنْ تذهبَ بالولدِ إلى اليمنِ ، واستطاعَ الرَّشيدُ أنْ يعرفَ صحَّةَ الخبرِ ، ورجعَ منَ الحجّ هو وجَعْفَرَ[1] .

* ويتابعُ الوكيلُ هذه الرِّحْلةَ السَّاذَجة ، ويذكرُ مقْتَل جعفر البرمكي ويتساءلُ عن مقْتَلِه فيقول : وفي سَلْخِ محرّم ، أو أوّلِ صفر قَتَل الرشيدُ جعفرَ ابنَ يحيى دونَ أبيه وإخوته؛ فلماذا جعفر بالذاتِ ، وفي هذه المناسبة؟!

* لقد كانَ الرشيدُ أشدَّ غيظاً على جعفر ، وهو حبيبُه الذي لا يطيقُ إلاّ أنْ يكونَ معه حاضِراً ، فكيفَ غَضِبَ عليه هذا الغَضَب حتى يأمرَ الخادِم بالإتيانِ برأسِهِ؟!

* يقولُ الطَّبري : إنَّ الرَّشيدَ خرجَ إلى الصَّيْدِ ، وهو بالعُمُر في اليومِ الذي قَتَلِ فيه جَعْفراً في آخرِه ، فكانَ ذلك اليومُ يومَ الجُمعَةِ ، وجعفرُ بنُ يحيى معه؛ قد خَلا بهِ دون وُلاةِ العَهْد ، وهو يسيرُ معه ، وقد وضَع يَدَهُ على عاتِقهِ ، ولم يزلْ معه ما يفارقُه حتى انصرفَ مع المغربِ . فلما أرادَ الدُّخول ضمَّه إليهِ وقال له : لولا أنّي على موعد للجلوسِ الليلة مع النِّساء لم أفارقْكَ ، فأقمْ أنتَ في منزلكَ ، واشربْ واطربْ لتكونَ أنتَ في مثْلِ حالي .

---

(١) انظر : المرجع السّابق نفسه (ص ٢٤١) .

فقالَ جعْفَرُ: لا واللهِ لا أشتهي ذلك إلاَّ معك.

فقالَ الرَّشيدُ: بحياتي ما شربْت، وانصرفَ عنْه إلى منزلهِ.

* فلم تزلْ رسلُ الرَّشيدِ عنده ساعةً بعدَ ساعةٍ، تأتيه بالأنفالِ والأبخرةِ والرَّياحينِ حتى ذهَبَ الليلُ، ثمَّ بعثَ إليه مسروراً فحبَسهَ عنده، وأمَر بقَتْله، وحبسَ الفَضْلَ ومحمّد وموسى، ووكَّل سلاماً الأَبْرش ببابِ يحيى بنِ خالد[1].

* ويعلِّقُ الوكيلُ ـ بزعمه ـ على هذه الرّوايةِ فيقول عن الرشيدِ: إنَّه كان بعد عودتِه منَ الحجّ يضمرُ لجعفرَ القَتْلَ، غير أنَّه كانَ ماهِراً في ستْرِ ما يريدُ فعْله حتى عن أخصِّ النَّاسِ به، فظلَّ مع جعفرَ طولَ اليومِ حتى يخفي ما يخبئُه له، وضمَّه إليهِ عند الانصرافِ، وأوصاهُ بأنْ يشربَ ويطربَ، لا ليكونَ على مثْل حالِ الخليفةِ، ولكنْ ليكونَ غائباً عن الوعي عندما يُقدّم للقَتْل، وظلَّ يُرسلُ إليهِ الأنْفَالَ والأبخرةَ والرَّياحين، ليزيلَ عن نَفْسهِ الشُّبْهَة، ثمَّ يبعثُ إليه آخرَ الليل ليقتله[2].

* ويخلصُ الوكيل بعد أنْ عرضَ قصّة مَقْتل جعفر إلى الاكتشافِ التَّالي، وكأنَّه أعادَ القُدس! فقال بعد أنْ عدّد المشاكل الموجبة لقَتْلِ جعفر: إذاً، فالمشكلةُ مشكلةُ جعفر الذي أخلَّ بشرطِ الرَّشيد، ووقَعَ على العبّاسةِ برضاها بعد أنْ دبَّرتْ له الخديعةَ، فكان على جعفرَ أنْ يتحمَّلَ مسؤوليتها وحدَه، وقد أحسَّ هو بذلك بعد أنْ عرفَ الحقيقة، حتى قال لأُمِّه: واللهِ لقد بِعْتني رخيْصاً[3].

---

(١) العصر الذهبي للدولة العباسية (ص ٢٤٢) نقلاً عن تاريخ الطبري (٨/ ٢٩٩).

(٢) المرجع السابق نفسه (ص ٢٤٢).

(٣) العصرُ الذَّهبي للدولة العباسية (ص٢٤٣).

* منَ العجيبِ حقّاً أنْ نجدَ رجُلاً كالوكيلِ هذا الذي تحدَّثَ عنْ سببِ نكبةِ البرامكةِ بهذا الأسلوبِ الطُّفولي غيرِ النّاضج، والذي لا يستندُ إلى الحقائقِ التّاريخية، والذي يخالفُ ركائزَ التّاريخِ والمعقولِ والمنقولِ. =

* ومنَ العجيبِ أنْ نضيفَ إلى المعاصرين إحدى الكاتباتِ التي أدلتْ دلْوَها في هذا المِضْمار ، دون أنْ تستنكرَ زيفَ قصّة العبّاسة ، بل زعمتْ أنّها تميلُ إلى تصديقِ حدوث القصّة.

* تزعمُ الدكتورةُ زاهية قدّورة رئيسة قسم التّاريخ بالجامعةِ اللبنانية في كتابها : «الشُّعوبية وأثرها الاجتماعي والسّياسي في الحياة الإسلاميّة في العصر العباسي الأوّل» ، وتقول ما ملخّصه قصَّة العبّاسة بما يلي : وتتلخَّصُ هذه القصّة في أنَّ الرشيدَ شُغِفَ بجعفر الذي كان نديمه وسميره ، وكانَ يشعرُ بمثْلِ هذا الشُّعور نحو أخته العبَّاسة ، لما اتَّصفتْ به من حُسْنٍ وذَكاءٍ وفطْنَةٍ

= * فهل يكونُ هارون الرّشيد خادعاً ماهِراً في إخفاءِ ما يضمُره لجعفر البرمكي؟! وهل يأمرُ هارون الرَّشيدَ جعفراً بأنْ يشربَ ويطربَ ليكونَ غائباً عن الوعي عندما يُقتل؟! هل نصدِّقُ أنَّ الرشيدَ يأمرُ وزيرَه بارتكابِ جريمة السُّكْر لينفّذَ فيه مأربَه ـ وهو التّقي الورعُ ـ؟! منْ أينَ جاءتِ الفُتوحات والفُيوضات إلى الوكيل؟!
ثمَّ نعجبُ أكثرَ من الوكيلِ عندما يتحدَّثُ عن العبَّاسة بأنّها كانت ذات دهاءٍ هي الأخرى ، وأنّها تكتبُ إلى الحاضنةِ بمكةَ لتذهبَ بالولدِ إلى اليمن كيما تخفيه عن عيني الرَّشيد؟! نقولُ : أين كانت عينا الوكيل عندما قرأ أنَّ العبَّاسة قد تزوَّجَتْ من أميرِ البصرة ومن غيرِه ولم تنجبْ؟! بلِ أينَ كانت عينا الوكيلِ هذا عندما زعم أنَّ العبَّاسَة خدعَتْ جعفراً وحملتْ منه وأنَّ الرشيدَ لم يكن يصبِر على فراقهما ، فكيف لم يلحظْ حَمْلَ أخته؟! مع العِلْم أنَّ جميعَ مَنْ في القَصْر يعلمون قصّتهما كما زعم الوكيل!! بل كيفَ يرضى الرشيدُ بعَقدٍ صُوري لأختِه الأميرة؟!
إنَّ الأستاذَ الوكيلَ هذا اجتهد فأخطأَ ، وكانَ في مناقشتِه لنكبةِ البرامكةِ غير موفّق للصَّواب ، وجزَم بأنَّ السَّبب الرئيسَ القوي لقتل جعفر هو العبّاسة التي خدعته مع أمّه ، ثم حملْت ، وعلم بحملها كلُّ مَنْ بالقصر إلا الرّشيد؟!!
ومنَ العجيبِ في أمْرِ الوكيل أنّه بَعْدَ صَفَحاتٍ من كتابِه يوردُ كثيراً من الآراءِ التي تنقضُ رأيَه ، كما يذكرُ بأنَّ الرَّشيد قد نَدمَ على ما فَعل بالبرامكةِ ، وأسفَ أشدَّ الأسفِ على ما أنزلَه بهم (العصر الذَّهبي للدولة العباسية ص ٢٤٨).
ونودُّ أنْ نقولَ للوكيل : هل الرشيدُ وأختُه العبّاسة داهيان وماكران ، وأنَّ جعفرَ البرمكي غيرُ ذلك؟! نرجو الله أنْ يوفّقنا جميعاً للصَّواب فهو به أعلم.

وظرفٍ وأدبٍ ، فعمدَ إلى زواجِهما زواجاً شَكْلياً ليبرّرَ حضورهما معاً في مجلسِه ، فحدثَ خلاف ذلك ، وتمَّ الزَّواجُ وقد وقع في بيتِ الرشيد ، وفي مكانِ سَمره ليلاً حينَ كان يقومُ ، فيخلوانِ إلى نفسيهما . وتقولُ رواية أخرى : إنَّ العبَّاسةَ هي التي قادتْ جعفرَ إلى التّهلكةِ ، فاحتالت على والدتهِ ، ودخلتْ إليه على أنّها إحدى الجواري ، فلما اكتشفَ جعفرُ أمرها بعد أن قضى معها ليلته جَزِعَ لذلك وقال لها : لقد بعتني بالثَّمن الرخيصِ وحملتني على المركب الوعْرِ . ويذكرُ الأتليدي أنَّه قال لها : أهلكتني وأهلكتَ نَفْسَك . ويقال : إنَّ العبَّاسةَ أنجبتْ منه وَلداً ، وتقول روايةٌ أخرى : إنّها أنجبتْ منه أكثر منْ ولد[١] .

* وتعلِّقُ الدكتورة زاهية على هذه القصّة بقولها : وعلى كلّ حال وإنّ كنّا نميلُ إلى تصديقِ حدوث هذه القصّة ، إلا أنَّنا نَشكُّ في أنها السّبب الرئيسي للنّكْبةِ دونَ أنْ نكرِّرَ في الوقتِ نَفْسه أنّها قد تكونُ سَبباً منَ الأسبابِ الثَّانوية[٢] .

العَبَّاسَةُ بَرِيْئَةٌ مِمَّا نُسِبَ إلَيْهَا :

* لئن أكلَ يوسفَ ـ عليه السلام ـ الذّئبُ ، كما زعمَ إخوته ، لقد كانتِ العبّاسةُ كذلك فيما زعمُوا ، حيث افتُري عليها ، وأكلتْ ذئابُ الحاقدينَ لحمها ولحمَ أهْلِ بيتها الأطْهار المنسوبينَ إلى عبد الله بنِ عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ وهو مَنْ هو في العِلْمِ والفَضْل والذّروة منَ الشَّرف والنَّسَبِ .

* وممّا لا ريبَ فيه كما أوضَحنا منْ سيرةِ العبَّاسةِ بأنَّها كانتِ امرأةً آتاها اللهُ الفَضْل منْ جميعِ أطْرافِه من حَسَبٍ ونَسَبٍ ومالٍ وجَمالٍ ، وزوج صاحب نَسب زكي من آلِ العَبَّاس أيضاً ، ولم تكنْ في يومٍ منَ الأيّام خَلياً من زوجٍ ،

---

(١) انظر : الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول لزاهية قدورة (ص ٢٦٥ و٢٦٦) .
(٢) المرجع السابق (ص٢٦٧) .

أو قعيدةَ بيتٍ دونَ زواج ، إلى أن استأثرتْ بها رحمةُ الله .

* ويبدو لي أنَّ بعضَ أصحابِ الأهواء[1] وبعضَ المُغْرمين بوضع وصنْع قصّة العبّاسة ، لم يكنْ هدفُهم هَدْم شَرف العبّاسة وحدها ، وإنّما هدم القِيَم الطَّيبة في بيتِ الخلافَةِ ، وفي النِّساء الشّريفاتِ الحسيباتِ الأَصيلاتِ ، كي تُهَوَّنَ الأمورُ وتُمَيَّعَ ، وتُصبحَ النّساءُ الفُضْليات بلا وزنٍ ولا قيمةٍ ولا قدوةٍ! فقد كانتِ العبَّاسةُ ابنةُ المهدي هي الضَّحيةَ البريئةَ التي تُمثّلُ الأنثى في كلِّ عَصْر ، وفي كلِّ زمان .

* وفي تقديري أنَّ العبَّاسةَ كانت إحدى نوادرِ عَصْرها أدباً وعِلْماً وفَضْلاً .

---

(١) إنَّ منْ أسبابِ الغَلَط في رواياتِ التَّاريخ ما نراهُ من مؤلّفي القَصَصِ منْ مثلِ قصّة العبّاسةِ وما شابَه ذلك ، حيثُ صَنَعَ هؤلاءِ هذه القَصَص لبعضِ الرِّجال أصحاب النُّفوذِ ، إذْ يجمعونَ منَ الأشتاتِ والافتراءاتِ ما وافَقَ هواهم ، غيرَ معتمدينَ على صحّةِ الرّوايةِ ، وما لم يوافقْ هَواهُم طعنُوا فيه ، وارتكبوا أوجه التّأويلِ .
أضفْ إلى ذلكِ كلِّه أنّهم ابتدعُوا شخصياتٍ لحبكةِ القصّة ، ثمّ إنَّهم عملُوا على إدخالِ عنصرِ المرأةِ في قَصَصهم ، وعملوا أيضاً على تلوينِ الأحداثِ وخلْطِها بمغامراتٍ وقَصصٍ جنسيةٍ لتكون أكثرَ رواجاً بين المستمعين والقرّاء ، وقد تعمدُوا الكذبَ ليكونَ كذبُهم أكثرَ وقْعاً في النّفوس. وممن كذبَ متعمداً وكانَ قاصداً في كذبِهِ وقَصصِه جرجي زيدان ، حيث حكى ما لا يُحكى عنِ العبّاسةِ بنتِ المهدي العباسيّة القرشيّة ، وذلكَ في روايةٍ طويلةٍ عريضةٍ أساءَ فيها إلى العبَّاسةِ وإلى الطَّاهراتِ في قصورِ الخُلفاء والأمراءِ. كما تولَّد عن فكرهِ الفيّاض في الكذبِ قرابة ثلاثين رواية زعمَ أنّها في تاريخِ الإسلام ، ومعظم أبطال هذه الرّوايات نساءٌ لهنَّ نفوذٌ في قلوبِ وعقولِ الرّجال .
ومنْ أسبابِ الخَلْط والغَلَط والوضْع في القصصِ المزعوم أنْ يكونَ ذلك الوضْع منْ أجلِ دعوةٍ مذهبيةٍ أو نزعةٍ سياسيةٍ مع العلْم بالحقِّ وإنكارِه ، وهذا منْ أشْنَع أنواعِ الغَلَط .
وقد اعتمدَ بعضُ ضعاف النّفوس على أوهَنِ الرِّواياتِ ، وعلى أضعفها في تاريخنا ، وصاغُوا منها ما وافقَ هواهم ، ومن ثمَّ جاء مَنْ نَقَل عنهم دون علْمٍ أو بنيّةٍ صَادِقة ، وفهم ساذج .
اللهم وفقنا للصواب ، ولقول الحقّ.

قال ابنُ النَّجار: كانتِ العبَّاسةُ بديعةَ الجمالِ، فاضلةً جَليلة[1].

* إنَّ شهادةَ المنصفين للعبَّاسَة، تجعلنا نَضْرِب صَفْحاً عن كلِّ ما وَرَدَ عنها، خلافَ ما يتعارضُ مع سُلوكها وسيرتها الحقيقيّة، ولعلَّ قصَّةَ تغريرِها بجعفر ـ كما زعموا ـ مستوحاةٌ من قَصَص ألف ليلة وليلة، ومن القَصصِ المدخولةِ على أدبِ العرب وقصصِهم منْ فارسيّة ويونانيّةٍ وتركيّة وهنديّة وغيرِها.

* وعلى الرغمِ من شُهرةِ العبّاسةِ بنتِ المهدي في عالم الشَّهيرات، فإنَّ المنصفين منْ أمثالِ الطَّبري، وابنِ الأثير، وابنِ كثير، وابنِ تغري بردي، والنُّويري، وغيرِهم لم يترجموا للعبّاسةِ، بل لم يرسموا صورةً لأخلاقها وسلوكها، علماً بأنَّهم ترجموا لمن هي أقلّ منها شَأناً ومكانةً وعلماً وحَسَباً ونَسَباً، ويبدو أنَّ عدمَ ترجمتهم لها لم يكنْ متعمّداً، وإنّما شهرةُ قصّتها المزعومة مع جعفر، طغَتْ على ترجمةِ شيءٍ منْ حياتِها، اللهم إلا شذرات وردَتْ هنا وهناك مبعثرةً لا تصلحُ أنْ تكونَ ترجمةً، بل هي أحداثٌ مع زواجها أو قدومها منَ البصرةِ إلى بغدادَ بعد وفاةِ زوجها محمد بنِ سُليمان العبّاسي، أو بما كان لها من خُططٍ وأماكنَ في بغدادَ، أو كما وَرَدَ اسمُها في شِعْرٍ سخيفٍ هزلي لا يغني ولا يسمنُ منْ جوع.

* على أنَّ هناك أعلاماً وعلماء أعلياء تصدّوا لقصّةِ العبّاسةِ، ودحضوا الافتراءات التي شكَّلت هالةً حولَ سيرتها، وبيّنوا ما فيها من خَللٍ وفَسادٍ، ومنهم ابن كثير حيثُ قال: ومنَ العلماءِ مَنْ أنكرَ ذلك، وإنْ كانَ ابنُ جرير قد ذكره.

* وممن أثنى على العبَّاسةِ: ابن خلدون[2]، حيث طهَّر ساحتَها، وأبانَ

---

(١) نزهة الجلساء (ص ٦٠).

(٢) ابنُ خلدون: وليّ الدينِ أبو زيد عبد الرحمن بنُ محمّد الحضرميّ الإشبيليّ المالكيّ المعروفُ بابن خلدون، وُلدَ في أوّلِ شَهْرِ رمضانَ سنة (٧٣٢هـ) في تُونسَ، ونَشأ =

مكانتَها وقَدْرها ، ودحضَ بالحجّةِ المنطقيّةِ ما افتُري عليها ، وأقامَ الدَّليلَ الصَّحيح ، حيثُ قال في مقدمتِه: ومنَ الحكاياتِ المدخولةِ للمؤرّخين ما ينقلونه كافّة في سَبَبِ نكبةِ الرشيد للبرامكَةِ ، من قصّةِ العباسةِ أخته مع جعفرَ ابن يحيى بنِ خالد مولاه ، وإنّه لِكَلَفِهِ بمكانهما منْ معاقرتِه إياهما الخمر ، أذِنَ لهما في عقْد النّكاح ، دون الخلوةِ حرصاً على اجتماعهما في مجلسهِ ، وأنَّ العبَّاسَة تحيَّلَتْ عليه في التماسِ الخلوة به ، لما شغَفَها من حُبّه حتى واقَعَها ـ زعموا في حالة السُّكر ـ فحملتْ ووشي بذلك للرشيدِ ، فاستغضب[1] .

* بهذه الطَّريقة أوردَ ابنُ خلدون قصَّة العبّاسةِ أختِ الرشيدِ مع جعفر البرمكي ملخّصةً ، وأبانَ أنَّها مدخولةٌ على المؤرخين ، ثمّ إنّه يتصدّى للرّدِّ بمنطقهِ المعروف وعقليته المتنوّرة ، وتفكيره العلمي فيقول: وهيهات[2]

= بها ، وطلبَ العِلْم ، وبرعَ في العلومِ والفنونِ ، ومَهَر في الأدبِ والكتابةِ. قال ابنُ تغري بردي: كانَ إماماً عالماً بارعاً في فنونٍ منَ العُلومِ وله نظمٌ ونَثْرٌ ، وقد وَلي القضَاء غيرَ مرّة ، صنَّف التَّاريخَ الكبيرَ في سَبْعِ مجلداتٍ ضخمة ، ظَهرتْ فيه فضائله ، وأبانَ عنْ براعتِه.

قال عنْه لسانُ الدّينِ بنُ الخطيب في «تاريخ غرناطة»: رجلٌ فاضلٌ ، جمُّ الفَضَائِل ، رفيعُ القَدْرِ ، أصيلُ المجدِ ، وقورُ المجلسِ ، عالي الهمّة ، قويُّ الجأْشِ ، متقدِّمٌ في فنونٍ عقليةٍ ونقليةٍ ، كثيرُ الحَفظ ، صحيحُ التّصوّر ، بارعُ الخطِ ، حسنُ العِشْرة ، مفخرةٌ منْ مفاخرِ العرب. وأخبارُه كثيرةٌ ، توفي فجأةً في ٢٥ رمضان سنة (٨٠٨هـ) وعمره (٧٦سنة) ـ رحمه الله ـ.

(شذرات الذهب ٩/ ١١٤ و١١٥) ، و(النجوم الزاهرة ١٣/ ١٥٥ و١٥٦) مع الجمع والتصرف.

(١) انظر: مقدمة ابنِ خلدون (ص ١٥).

(٢) «هيهاتَ»: تُلْفَظُ هيهاتِ؛ أو هيهاتُ؛ أو هيهاتَ : اسم فِعْل ماض بمعنى بَعُدَ ، كقولهِ تعالى: ﴿ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]. و«لما»: اللام حرفُ جرٍّ زائد. . «ما»: اسمٌ موصولٌ مبني على السّكون في محلِ رفع فاعل هيهات. «تُوعدون»: فعلٌ مضارعٌ للمجهولِ مرفوعٌ بثبوتِ النُّون لأنّه منَ الأفعالِ الخمسةِ. =

ذلك منْ منصبِ العبّاسةِ في دِيْنها وأبويها وجلالها ، وإنّها بنتُ عبد الله بنِ عبّاس ليس بينَها وبينه إلا أربعةُ رجالٍ ، هم أشراف الدِّيْن ، وعظماءُ الملَّةِ منْ بعدِه ، والعبّاسةُ بنتُ محمّد المهدي ، ابن عبد الله أبي جعفر المنصور ، ابن محمد السَّجَّاد ، ابن علي أبي الخُلفاء ، ابن عبد الله ترجمان القُرآن ، ابن عمّ النّبيّ ﷺ . ابنة خليفة ، أخت خليفة ، محفوفةٌ بالملْكِ العزيز ، والخلافةِ النبويةِ ، وصحبةِ الرَّسولِ وعمومته ، وإقامةِ الملّة ، ونورِ الوحي ، ومهبطِ الملائكة منْ سائرِ جهاتها ، قريبة عَهْدٍ ببداوةِ العروبةِ ، وسذاجةِ الدِّين ، البعيدةِ عن عوائدِ التَّرف ومراتعِ الفواحشِ ، فأين يُطلبُ الصَّون والعَفَافُ إذا ذَهَب عنها؟ أو أينَ توجدُ الطَّهارة والذّكاء إذا فُقِدَ منْ بيتها؟ أو كيف تلحمُ نسبَها بجعفرَ بنِ يحيى ، وتدنسُ شرفَها العربي بمولى من موالي العجم بمملكة جدّه منَ الفُرسِ[1]؟! أو بولاءِ جدّها من عمومةِ الرَّسول ، وأشرافِ قريش وغايته ، إن جذبتْ دولتهم بضبعِه وضبعِ أبيه ، واستخلصتْهم ورفَعتْهم

= والواو ضميرٌ متّصلٌ مبني على السّكون في محلّ رَفْعِ نائب فاعل. وجملةُ «توعدون» لا محلّ لها من الإعراب لأنّها صلةُ الموصول. وفي هيهات لغات منها: أيهان ، هيهان ، هايهات ، هايهان.

(١) يقولُ عبد الله عفيفي مبيناً أثرَ الفرسِ السّيىء على العربِ: وكان مُلْكُ بني العبّاس مُلكاً فارسياً يعلوهُ خليفةٌ عربيٌّ ، فالفرسُ هم ركنُ الخلافةِ ودعامتها ، وهمُ وُلاتُها وساسَتُها ، وهم كفاتُها وقادتُها ، وهم مشيروها ، ووزراؤها ، وهم مفكّروها وعلماؤها وهم كُتّابها وشعراؤها ، وهم مغنّوها وندماؤها ، وانتقلتِ الخلافةُ من بلادِ العربِ إلى العراقِ الفارسي ، فأصبحتْ بغدادُ خَـلَـفَـاً منَ المدائن.
وأرادَ الفرسُ أنْ يخمدوا آخرَ جذوةٍ منَ الحميّةِ العربيّةِ ، وأنْ يقطعُوا آخرَ عقْدةٍ من العصبيّةِ العربيةِ ، فأجلبُوا عليهم بكلّ ما يُوهنُ النُّفوس ، ويُصبي القلوبَ منْ سماعٍ وشرابٍ وكواعبَ أتراب ، وأغرقوهم في بحرٍ طامٍ منَ السَّرفِ والتَّرف والزّهوِ واللهوِ والمحارمِ والمآثمِ ، ولم يمضِ غيرُ قليلٍ حتى راح العربُ يخطرون في مطارفِ الفرس ، ويلعبونَ في ملاعبِ الفرسِ ، ويشربون في مشاربِ الفرس ، ويتأدبون بآدابِ الفُرس ، ويتخلّقُون بأخلاقِ الفرس ، والمرأةُ والرجلُ كقوتي الكهرباء ، إذا تأثّر أحدُهما ، تأثَّر الآخر. (المرأةُ العربيّةُ ٣/ ٩).

إلى منازلِ الأشرافِ؟ وكيف يسوغُ منَ الرشيدِ أنْ يصهرَ إلى موالي الأعاجم على بعد همّته وعظمِ آبائه؟ ولو نظرَ المتأمّل في ذلك نَظَر المنصف ، وقاس العبَّاسة بابنةِ ملك منْ عظماء ملوكِ زمانه ، لاستنكفَ لها عن مثله مع مولى منْ موالي دولتها ، وفي سُلطان قومها ، واستنكره ولجَّ في تكذيبه ، وأين قَدْر العبّاسةِ والرّشيد منَ النّاس[١]؟!

* إنَّ مناقشةَ ابن خلدون لواقعةِ العبّاسة وجعفر تجعلنا نؤمنُ ببطلان ما نُسِبَ إلى هذهِ الطَّاهرة منْ خسيسِ القولِ ، وساقطِ الكلام ، ونردُّ كلَّ ما جاءَنا ومَنْ جاءَنا بما يتعارضُ مع العفَّة والحشمةِ للعبّاسةِ أو للمرأةِ العربيةِ الأصيلةِ التي هي عنوانُ العفّة والطّهارة .

* هذا وقد لَفَتَ نظرنا أثناءَ دراسةِ أطوارِ حياة العبَّاسة ، وتزوّجها بأكثر منْ إنسان مِنَ البيتِ العبّاسي بأنّها لم تنجبْ ، وفي تقديري أنَّها كانتْ عاقِراً ، فكيفَ زعمَ واضعُ القصّة بأنّها حملتْ وولدتْ مرتَيْن أو ثلاثة ، إنَّ هذا لشيءٌ عجيب ، ولعلَّ السَّذَاجة ، أو البلاهة وإن شئتَ فَقُل الحماقة قد لعبتْ دورها ، ومرّت مرورَ الكرام ، فلن يفطنَ لها واضعُ القصة .

* ثمّ هناك تناقضاتٌ عديدة في جسْمِ القصّة فكيف تحملُ العبّاسةُ ، وتجلسُ كلَّ يومٍ مع أخيها الرشيدِ ، ولا يلاحظُ عليها علامات الحَمْل؟! وبعضُ الوضَّاعين نَسي أو تَناسى مصيرَ الطِّفلين ، بينما زعمَ الأتليدي أنّهما لقيا نهايةً محزنةً كما رأينا قُبيل صَفَحات! .

* ولعلَّ ما يؤكّد كَذِبَ القصّة ما أكّده التَّاريخ[٢] منْ أنَّ أُمَّ الفَضْلِ بنَ يحيى

---

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون (ص ١٥) .

(٢) قال الزّركليُّ ـ رحمه الله ـ في الأعْلامِ في ترجمةِ العبّاسة : وليسَ منَ التَّاريخِ ما يُقال عنْ صِلَتِها بجعفر بن يحيى البرمكي .
وذكرَ صاحبُ كتاب «تراجم إسلامية» في هامشٍ (ص ٢٠) : أنَّ قصَّة غرام العبّاسةِ وجعفر كانت مُستقىً لبعضِ كُتّاب الخَيَال الغربيين ، فَنُشِرَتْ عنها عدَّةُ قَصَص معروفة منها ما نَشَره «لارهاب» بالفرنسية ، و«فون هامار» بالألمانية . =

قد أرضعتِ الرشيد ، وأنَّ الخيزرانَ أمّ الرشيد قد أرضعتِ الفضْل ، فكانا أخويْن منَ الرَّضاعِ[1] .

* وذكر التّاريخُ أنَّ الرشيدَ كثيراً ما كان يخاطبُ والد جعفر البرمكي بقوله : يا أبتِ ، كما كانَ يخاطب أمّ جعفر بقوله : يا أمّ الرشيد[2] ، وبهذا تكونُ العبّاسةُ أختَ جعفر منَ الرّضاع ، فكيف يتزوّج جعفر أخته؟! وكيف سوَّغَ الوضّاعون ذلك؟!

* وهناك أدلّةٌ كثيرة تشيرُ إلى بطْلان هذه القصّة ، ومنها أنَّ الرشيد كان يحجُّ عاماً ويغزو عاماً ، فمتى كان يتفرّغ لشربِ الخمر؟! ومتى كان يخالفُ الشَّريعة ويجمعُ بين أختِه ورجل فارسيّ غريب؟! ثم يستدركُ ما فاتَه فيعمل عقْداً صُورياً ، وحيلة شرعيةً يسوّغ بها تصرّفاته؟!

* وهناك ناحيةٌ مهمّةٌ ، وهي أنَّ أمَّ جعفر تدركُ أنَّ ضرّتَها أمّ الفضل قد أرضعتِ الرشيدَ ، وأنَّ الخيزرانَ قد أرضعتِ الفَضْلَ ، فكيف تعملُ على تزويجِ أخ منْ أخته؟! أمْ أنَّ واضعَ القصّة غَفلَ عن هذا أيضاً؟ أو تغافلَ عن ذلك عمداً؟!

* إنَّ الأدلةَ كثيرةٌ على بطلانِ تلكم القصّة المزعومة ، ولكنّنا نعتقدُ أنَّ فيما أوردناه كفاية ، وفيه إيضاحُ الإشكالِ ، ولعلَّ سببَ انتشارِ هذه القصّة وأشباهها هم سَوادُ النّاس ، وكذلك هم عددٌ منَ الحاقدين الذين ساعدتهم نكبةُ البرامكةِ ، وقد عزى المؤرّخون نكبةَ البرامكةِ إلى بضعةِ أسْباب ليس هنا

= وذكرَ كثيرٌ منَ المؤرخين أنَّ ما يُشاعُ منْ علاقةِ حبٍّ بين جعفرَ والعباسةِ أختِ الرّشيد ، فهو مما تذهبُ إليه العامّةُ في تعليلاتِها المخترعةِ أو المروّج لها ، وقد نفى مسرورٌ خادمُ الرّشيدِ بعد وفاةِ سيّده بزمنٍ طويل ـ وهو الذي تولى قَتْل جعفر وإرسالَه إلى الدّارِ الآخرة ـ أنْ يكونَ لهذه الدَّعوى أثارةٌ منَ الصَّحة ، وذكر أنَّها منْ أباطيلِ النَّاس . (الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٣٩) .

(١) شذرات الذهب (٢/ ٤٢٥) .

(٢) اقرأ سيرة أم جعفر البرمكي بتوسع في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص١٤٣ ـ ١٥٨) .

محلّها[1]؛ ولكن منها أنَّ البرامكةَ كانوا يُرْمَون بالزَّندقة[2] ، إلا مَنْ عَصَم الله منهم ، ولذلك قال الأصمعي فيهم:

إذا ذُكِرَ الشِّرْكُ في مَجْلِسٍ أَضَاءَتْ قُلُوبُ بني بَرمَكِ
وإنْ تُليَتْ عِنْدَهم آيةٌ أتوْا بالأحَاديثِ عَنْ مزدكِ[3]

وينقلُ لنا ابنُ كثير سببَ نكبةِ البرامكةِ فيقول: إنَّ البرامكة كانوا يريدون خلافةَ الرشيدِ وإظهار الزَّندقة[4].

* وبعد هذا كلّه يمكنني أنْ أعزوَ ظهورَ القصصِ المفتراةِ عن العبّاسةِ وغيرها منَ النّساء إلى طبيعةِ الحياةِ في العَصْر العبّاسي وما بعده ، وإلى الظّنونِ التي احتلّتْ كثيراً منَ الأفكارِ في ذلك العصر.

* ففي العَصْر العبّاسي لعبتْ نشوةُ الحضَارة بأفئدةِ كثيرٍ من النَّاسِ ، وساهمت سَكْرةُ النَّعيمِ في ذلك أيضاً ، وسارت بعضُ النسوةِ في أثرِ الرّجال ، فالمرأةُ ذات حسٍّ وثّابٍ ، يدفعها إلى الكمالِ فتسير إلى أبعدِ حدوده ، وتقذفُ بها إلى النقص فتتردى إلى أعمقِ وِهَادِه.

* لذلك أضحتِ المرأةُ العابثةُ مرخاةَ العنانِ لا يردّها زجرٌ ، وعندها راحَ الرجلُ يعزو ما تورَّطَت فيه المرأةُ إلى سوءِ فطرتها ولؤم غريزتها ، وأنّها شرٌّ وسوء. وأخذ بعضُ المغرضين يزوّرون أحاديثَ نبويةٍ نحلُوها رسولَ الله ﷺ ، وفيها أنَّ المرأةَ منبتُ الشَّرَّ ونبعته ، وقرارُ اللوم ودارته ، كأنَّ هؤلاء الفاسقين تناسوا أو نسوا أنَّ المرأةَ منها أمُّه ، أو زوجُه ، أو ابنتُه ، أو أختُه.

---

(١) انظر مثلاً: نهاية الأرب (٢٢/ ١٣٥) وما بعدها ، ووفيات الأعيان (١/ ٣٣٢) وما بعدها ، وغير ذلك من كتب التاريخ.

(٢) ذكر الدميري أن البرامكة اتهموا بالزندقة وفساد الملك فأوقع الرشيد بهم (حياة الحيوان ٢/ ١١٢).

(٣) شذرات الذهب (٢/ ٤٣٦) ، وعيون الأخبار (١/ ٥١) والوزراء والكتاب (ص ٢٠٦).

(٤) البداية والنهاية (١٠/ ١٩٦).

* ومما زوّروه من أحاديثَ قولهم: أوثقُ سلاح إبليس النّساء. النّساءُ حبائل الشّيطان. شاوروهنّ وخالفوهنّ. إيّاك ومشاورة النّساء فإنَّ رأيهنّ إلى أفَنٍ وعزمهنّ إلى وهَن. النّساء شرٌّ كلُّه وشرُّ ما فيهنّ كلّه الاستغناء عنهنّ.

* ولم يكتفِ المغرضونَ بأنْ نَحلُوا الحديثَ عن الرَّسول ﷺ ، وإنّما نحلُوا الصَّحابة أقوالاً ضدَّ النِّساء. ومما نحلوه على لِسان عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنَّه قال: لا تطيعوا النّساء على حال ، ولا تأمنوهنَّ على مَالٍ ، ولاتذروهنّ يدبرنَ العيال ، فإنهنّ إنْ تُركنَ وما يُردنَ أوردنَ المهالكَ ، وأزلنَ الممالك ، لا دِيْنَ لهنَّ عند لذّاتهنَّ ، ولا عقْلَ لهنَّ عند شهواتهنَّ ، ينسينَ الخيرَ ، ويحفظنَ الشَّرَّ ، يتهافَتْنَ في البُهتان ، ويتمادينَ في الطُّغيان ، ويتصدين للشَّيطان.

* وأمثال هذا كثير حتى نسبُوا قَصَصَاً وحكَماً إلى سُقْراط ، ومنها أنَّه رأى امرأةً تحملُ ناراً ، فقال: نارٌ تحملُ ناراً ، والحاملُ شرٌّ منَ المحمولِ.

* وقيل لسقْراط: أي السِّباع شَرّ؟ فقال: المرأة.

* كلُّ ذلك ظَهر في العَصْر العبّاسي ، بل ظهرتْ خيانةُ المرأةِ في أحطّ مَظْهرٍ ، وأسوأ مخبرٍ على ألسنةِ الشُّعراء ، ومن أشنع ما قيل عصر ذاك:

تَمتَّعْ بهَا ما سَاعَفَتْكَ ولا تكُن ... جَزُوعاً إذا بانَتْ فَسوفَ تَبينُ
وإنْ هي أعْطَتْكَ الليانَ فإنَّها ... لغيرِك منْ خلالها سَتلينُ
وخُنْها وإنْ كانت تَفي لك إنّها ... على مدِ الأيامِ سوف تخونُ
وإنْ حَلَفَتْ لا ينقضُ النّأي عهدها ... فليسَ لمخضوبِ البنَان يمينُ

* ثمَّ ما زالَ الشُّعراء والغَاوون يسلكونَ ذلك الطَّريق الوعر ، حتى جاءَ أبو العَلاء المعري فاتَّهم المرأةَ في دِينها وخلقِها وذمّتها وأمانتِها ، بل لم يتركْ لها خلَّةً منَ الخيرِ ، وعدَّها أساس الشَّر ، وفي أشعارِه نماذجُ كثيرةٌ عن ذلك.

* إنَّ تلكم الأهواء والأفكار قد ساهمتْ في عَدمِ وضْعِ المرأة في مكانها الصَّحيح ، بل ساعدَتْ على إيذاءِ المرأةِ واتّهامها ، وخصوصاً أولئك النّسوة

اللاتي كُنَّ كواكبَ السَّماء في المُثُلِ والفَضَائل.

* وبعدُ عزيزي القارىء، فهذه العبّاسةُ أختُ الرَّشيد المرأة المفترى[1] عليها، فهل وفيتُ حقّها؟! أرجو اللهَ أنْ يوفّقني لكَشْفِ الإيهام عن صورِ كثيراتٍ منْ نسائِنا الخالداتِ الطَّاهرات.

* وأخيراً كانتْ رحلةُ الخلودِ، فقد مَضَتِ العبَّاسةُ إلى بارئها في أحَدِ أيّام سنة (١٨٢هـ)[2]، مضتْ ليبقى ذكرها خالداً جَليلاً بين أهل عَصْرها ومَنْ بعدهم:

ومَاضيةٌ إلى الرَّحمنِ أَضْحَتْ ... أجَلَّ نِساءِ أهلِ صَيْبَا
مباركةٌ ممنعةٌ رزانٌ ... تردُّ عنِ النِّسا ذماً وريبا
تزيدُ على الرِّجالِ نُهىً وعَقْلاً ... وما التأنيثُ لاسمِ الشَّمس عَيْبا[3]

* رحمَ اللهُ العبَّاسة[4]، وأجزلَ مثوبتَها، وجعلَها في مستقرّ رحمتِهِ.

* * *

(١) أَلَّفَ أحدُ المعاصرينَ وهو: «عدنان مردم بك» مسرحيةً شعريةً عنوانُها «العبّاسة»، وقسَمها إلى أربعةِ فصول، وأشارَ إلى أنَّ العباسةَ كانت ضحيةَ المقولاتِ والإشاعات. انظر (العباسة) لعدنان مردم بك. منشورات عويدات بيروت ط١ ١٩٦٨.

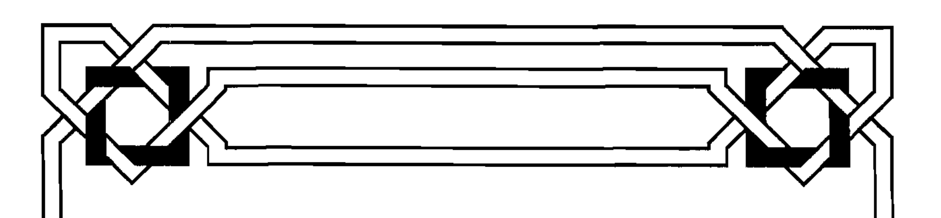
(٢) أمّا نكبة البرامكة فكانت سنة (١٨٧هـ).

(٣) هذا العجزُ صدر بيتٍ للمتنبي في رثاءِ والدةِ سيف الدولة وهو:

وما التَّأْنيثُ لاسمِ الشَّمسِ عيبٌ ... ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

(ديوان المتنبي ١/ ٢٥٧٧) تصحيح عبد الوهاب عزام.

(٤) ذكر القاضي الرشيدُ بنُ زبير أنَّ العباسَة قد خلَّفَتْ ضياعاً كانت تبلغُ غلّتُها في كلِّ سنةٍ أربعة آلاف ألف دينار ـ أي أربعة ملايين ـ وورثَها أخواها إبراهيمُ ومنصور أولاد المهدي. (الذخائر والتحف ص ٢٣٥).



(١٣)

غانمة بنت غانم

* قالوا عنها :

- إنها من الوافدات على معاوية رضي الله عنه .
- خطيبة بارعة ، وذات لسان سليط .
- من الشخصيات النسوية المدخولة على التاريخ .

مِنْ عَالَمِ الوَهْمِ:

ثمةَ ظاهرةٌ بارزةٌ في بعضِ المؤلّفاتِ والمصادرِ التي وصلتْ إلينَا ، ألا وهي تلكمُ النِّسبة العالية غير المتوقعةِ من الأخبارِ الخاصَّةِ بشهيراتِ النِّساء ، بيد أنَّ هذهِ الظَّاهرة ليست غريبةً كما تبدو للوهْلَةِ الأُولى ، فكثيراتٌ منَ النِّساء قد ذاعَ صيتهنَّ في عَالَم الشُّهرة في مجالاتٍ متنوعةٍ ، ولذا فإنّنا نجدُ أنَّ بعضَ أسماءِ النِّساءِ قد ظهرتْ بينَ أسماءِ مشاهير الفُقَهاء ، والزُّهّاد ، والشُّعراء ، والبُلغاء ، والنقّاد ، وفئة كبيرة منهنّ ظهرتْ بين أسماءِ أهلِ الحديثِ وهذا الفَنِّ العظيم.

ولكننا ونحنُ في رحلتِنا المِغْناج اللطيفةِ هذه بين قصورِ الخُلفَاء والأُمَراء ، ألفينا امرأةً جاءَ بها الوضَّاعون من عالم الوَهْم ، واختلقُوا لها اسْماً منْ عالَم الإفْكِ والزُّور ، وأوقفوها في قصورِ الخُلفاء ، لتفصحَ عن أشياءَ في داخِلِها للخليفةِ ، ومنها شَتْمهُ وسبُّه وانتقاصُه ، وكلُّ ذلك في إطارٍ منَ الرّكاكةِ التي لا تقبلُها عقولُ الصِّغار ، فكيف بالآخرين؟!

إنَّه مِنَ العجيبِ حقّاً أنْ نَجدَ بينَ ثنايا المصادرِ بعضَ الشَّخصيّاتِ النَّسويةِ الوهميّةِ ، أو التي هي أقربُ إلى الخرافةِ؛ قَدْ أُلْصِقَتْ بتواريخِ النِّساء ، وأُلْصِقَ بهنَّ بعضُ العباراتِ لكي يظْهَرنَ منَ الخطيباتِ أو البليغَاتِ أمامَ الخليفةِ وجَمْعٍ منْ أعلياءِ القَومِ.

ونحنُ الآن بإزاءِ شخصيّةٍ خرافيّةٍ وهميةٍ ، اختلَقَها الوضَّاعون ، وجعلوها تدخلُ على معاويةَ بنِ أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما ـ ثمَّ تَسبُّه وتشتُمه وتأخذُ عليهِ العهودَ والمواثيقَ بألا يشتمَ الهاشميين ، أو يخطرَ أحدٌ منهم ببالِهِ ، وهناكَ ـ كما زعموا ـ خافَها معاويةُ ، وحَلَفَ ألا يَسُبَّ بني هاشم أبداً ، وألَّا ينتقصَ أحداً منهم.

ولقد وَجَدْنا في تراثِنا كثيراً منَ الشَّخصيّات النَّسويةِ المزعومةِ والوهميّةِ ،

وكلُّ هذا لو تدبَّرناهُ لألفيناه يسيءُ إلى مكانةِ المرأةِ ، وإلى أدبِها ، فهؤلاءِ اللواتِي نقرأُ عنهنَّ لا يُحْسِنَّ سوى السَّبّ والشَّتائم ، وهَتْكِ أعراضِ الأمّهاتِ ، وخصوصاً أمّهات الصَّحابة وشريفات النّساء ، ولا يُحسِنَّ أيضاً سوى التعريضِ بالشَّرفِ ، وإثارةِ الشّكُوك حولَ عفَّةِ النِّساءِ ، وممارستهنّ الزّنىٰ ، والعياذ بالله .

نحنُ لا نريدُ أنْ نمحوَ منَ التَّاريخِ النَّسوي كلّ شيءٍ لا يتناسبُ معَ الذَّوقِ السَّليمِ أو الميزانِ الأدبِي ، فلا شكَّ أنَّ هناكَ بعضَ الهنَّات الخفيفة التي لا تؤثّرُ في تاريخِ النّساءِ ، ولا تسيءُ إلى واحدةٍ ممن عُرِفْنَ بالحَسَبِ والنَّسبِ والأدبِ والأنَفَةِ .

لكنّا لا نقبلُ أنْ تُوضَعَ لنا شخصيةٌ مزعومةٌ وهميةٌ ليس لها أصْلٌ في تاريخ المرأةِ ، وذلك منْ أَجلِ أنْ يُنْتَقَصَ فلانٌ ، أو أنْ يعرضَ بفلانة ، ثم يزعُمُ مخترعو هذه الشَّخصية أنَّها ممن عُمّرت بضعة قُرون ! ! !

إنّني لا آتي بالبدعِ منَ الأَشياءِ ، ولا بالغرائبِ منَ الأَنْباءِ ، ولكنْ أَلْفَيتني أقفُ موقفَ الشَّكِّ أمامَ ما وجدتهُ من أخبارٍ تهزأُ وتستهزىءُ بالعقولِ ، وتلعبُ بالنُّفوسِ ، وتتقاذَفُها ذات اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ . وها أنا ذا أذكرُ لك مِثالاً عنْ ذلك كيما تتوضح الصُّورة ، وتظهرُ المعالم ، ويميزُ الخبيث منَ الطيِّب .

امْـرَأَةٌ مَـزْعُـومَــةٌ :

في موسوعتِنا هذه نَجِدُ بينَ النِّساء مَنْ هيَ مِنَ الأديباتِ ، والشَّاعِرات ، والمُحدّثاتِ ، ومنهنَّ مَنْ عُرِفَتْ بخبرٍ نادرٍ ، أو مُلْحةٍ لطيفةٍ ، ولكثيرٍ منهنّ ذِكْرٌ في كُتُبِ الأَنْسابِ والتَّاريخ ، فمعظمهنَّ عربياتٌ منْ ذواتِ الحَسَبِ والنَّسبِ ، وقد عَرفْنَا منْ خلالِ أخبارهنَّ طرفاً منَ الحياةِ الاجتماعيةِ والأدبيةِ والسّياسيةِ والدينيةِ عَبْر تاريخهنَّ منذ عَصْرِ الجاهليّة إلى عصورٍ متأخّرة ، ولاحظنا أنَّ أخبارَهُنَّ مطبوعةٌ بطابعِ الإثارةِ والتَّشويقِ ، ويحسُّ قارِئُها بالمُتعةِ وهو يسيرُ في متاهاتِها ينعمُ بالأخبارِ ، لا يشعرُ بالمللِ ، أو يجدُ السَّأم إلى نَفْسه سبيلاً .

أمّا أنْ نَجدَ امرأةً هَبطَتْ منْ عالَم الغيبِ ، ودُسَّتْ بينَ النِّساء ، وصُنِعَ على لسانِها الشِّعْرُ ، ثم لُفِّقَتْ بعضُ الأخبارِ ، فهذا ما لا نقبلهُ ، ولا نصدقهُ؛ وامرأةُ هذه الصَّفحات من هذه القائمةِ المزعومةِ وهي غانمةُ بنتُ غانِم[1] ، ولا ندري منْ أينَ غَنِمَ الوضّاعونَ هذهِ الشَّخصيّة المزعومةَ ، ولا ندري منْ أينَ جاؤوا بها ، ولكنَّنا نجدُهَا فجأةً تظهرُ في مكةَ ، وتقفُ خطيبةً بينَ الجماهيرِ المكيّةِ تذكرُ مفاخِرَ بني هاشِم وتذكرُ محاسِنهُم ومناقبهم ، ثم تشيرُ إلى فضائِل الأجدادِ حتى تصلَ إلى الحسنِ والحُسينِ ابني عليّ ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ثمّ إنّها ـ كما زعموا ـ تتوعَّدُ معاويةَ ، وأنَّها ستقدمُ عليهِ في قَصْرِه وستعرّفه مكانَه .

ونجدُها في قَصْرِ معاويةَ تشتمُ وتسبُّ ما هبَّ ودبَّ ، وتتعرَّضُ ليزيدَ بن معاويةَ ، ولمعاويةَ ولعمروِ بنِ العاص ولأُمّه ، فيهَابُها جَميعُ مَنْ حَضَر ، وأَقْسم جميعُهم أنْ يكونوا طوعَ أمرِها ، ولا يتعرّضُون لأحدٍ منْ بني هاشم في سبٍّ أو شَتْمٍ . وبعد ذلك لم نَعُدْ نَرَى أثراً لهذهِ المرأةِ المزعومةِ . وفي السُّطور التَّالياتِ نَسْتَجلي خبرَها المصنوعَ ، لذا فإنِّي أرجو من القارىءِ الكريم أنْ يرهفَ سَمْعه ، ويحدَّ بَصَرَه فيما يسمعُ ويقرأُ ، ومن ثمَّ يحكمُ على القصّةِ ، ويرىٰ سذاجتَها ، وضَعْفَ نَسْجها .

غـانِمَـةُ وَخُـطْبَـةُ قَـعْسَـاء :

قيل : بلغَ غانمة بنت غانم[2] سبّ وثَلْب معاوية وعمرو بن العاص ـ رضي

---

(١) المحاسنُ والأضداد للجاحظ (ص١٦٠ ـ ١٦٢) ، والمحاسنُ والمساوىء (ص١١٦ ـ ١١٩) . وعن هذين المصدرين أخذ عبد الله عفيفي ترجمتها في كتابه المرأة العربية (٢/ ٢١٣) . وكذلك أخذت المراجعُ الأخرى أخبارها عن المصدرين السّابقين .

(٢) ذكرَ عبدُ الله عفيفي في كتابه : «المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها» ، أنَّ اسمها عاثمة بنت عاثم ، وعلّق في الهامشِ قائلاً : هي إحدى حكيماتِ العربِ المعمَّرات ، روى الجاحظُ أنَّها كانت تعدُّ في العَهْدِ النبوي أربعمئة عام . !!! =

الله عنهما ـ لبني هاشم؛ فقالتْ لأَهْلِ مكةَ: إنَّ بني هاشم سادَتْ فجادَتْ، ومُلِّكتْ فملكَتْ، وفضِّلتْ ففضلَتْ، واصطُفيَتْ فاصطفَتْ، ليسَ فيها كَدَرُ عيبٍ، ولا إفْكُ ريبٍ، ولا حَشَروا طاغينَ ولا خازنين، ولا حادوا نادمينَ، ولا هم منَ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالين.

إنَّ بني هاشم أطولُ النَّاس باعاً، وأمجدُ النَّاسِ أَصْلاً، وأحلمُ وأعظمُ النَّاسِ حلْماً، وأكثرُ النَّاسِ علْماً وعطاءً.

منَّا عبدُ مناف المُؤْثِر الذي يقولُ فيه الشَّاعر:

كانَتْ قريشٌ بيضةً فتَفَلَّقتْ فالمحُّ خالِصُها لعَبْدِ مَنَافِ

وولدَ هاشم الذي هَشَم الثَّريدَ لقومهِ، وفيه يقول الشَّاعر:

عَمرو العُلا هَشَم الثَّريدَ لقومه ورجال مكّةَ مسنتُونَ عِجَاف[1]

ثمَّ منَّا عبدُ المطلب الذي سُقينا بهِ الغيث، وفيه يقول الشَّاعر:

ونحنُ سِنيّ المَحْلِ قَامَ شفيعُنَا بمكةَ يدعو والمياهُ تَغُورُ

وابنهُ أبو طالب عظيمُ قريش، وفيه يقول الشَّاعر:

أتيتهُ مَلِكاً فَقَامَ بِحَاجَتي وترىٰ العُلَيِّجَ خائباً مذْمُوما

ومنَّا العبَّاسُ بنُ عبد المطلب، أردفَهُ رسول الله ﷺ، وأعْطَاه مالَه، وفيه يقول الشَّاعر:

رَديفُ رسُولِ الله لَمْ نَرَ مثْلَه ولا مثْلُه حتى القيامةِ يوجَدُ

ومنَّا حمزةُ سيِّدُ الشُّهداءِ، وفيه يقول الشَّاعر:

أَبا يَعْلىٰ لكَ الأَرْكَانُ هُدَّتْ وأنتَ الماجِدُ البرُّ الوصولُ

= (المرأة العربية ٢/ ٢١٣).

وهذا منْ أعجبِ العَجَب، كيفَ يستشهدُ عبد الله عفيفي بهذه الشَّخصيّةِ المزعومةِ، ويصفُها بالحكمةِ، وأنَّها منَ المعمّرات. فاللهُ المُستعان وحْده.

(١) وبعدَ هذا البيت:

سنتْ إليهِ الرِّحلتان كلاهما سفَر الشِّتاء ورحْلة الأَصْياف

ومنّا جعفرُ ذو الجناحَيْن ، أحسنُ النَّاسِ حالاً ، وأكملهُم كمالاً ، ليسَ بغدَّار ولا ختَّار ، أبدلَه اللهُ جلَّ وعزَّ بكلتا يديه جناحَيْن يطيرُ بهما في الجنَّةِ ، وفيه يقول الشَّاعر :

هـاتُـوا كجَعفـرِنـا ومثـلِ عَلِيِّنـا ... كـانـا أعـزَّ النَّـاسِ عنْـدَ الخـالـقِ

ومنّا أبو الحَسن عليُّ بنُ أبي طالب ـ صلواتُ اللهِ عليه ـ أفرسُ بني هاشم ، وأكرمُ من احتفَىٰ وتنعَّلَ ـ بعد رسول الله ﷺ ـ ومَنْ فَضائِلهُ ما قَصُرَ عنكم أنباؤها ، وفيه يقول الشَّاعر :

علـيٌّ أَلِـفَ الفُـرقَـانَ صحفـاً ... وَوَالـى المُصْطَفـى طفْـلاً صبيّـا

ويقول فيه الشَّاعر أيضاً :

وهَـذا علـيٌّ سيّـدُ النَّـاسِ فـاتقُـوا ... عليّـاً بـإِســلامٍ تقـدَّمَ مـنْ قَبْـلُ

ومنّا الحسنُ بنُ علي ـ رضي الله عنه ـ سِبْطُ رسول الله ﷺ ، وسيّدُ شَبابِ أَهْلِ الجنَّةِ ، وفيه يقول الشّاعر :

يَـا أَجَـلَّ الأَنَـامِ يـا بْـنَ الـوصـيّ ... أنــتَ سبْــطُ النَّبــيِّ وابــنُ علــيّ

ويقولُ فيه الشَّاعر أيضاً :

ومَــنْ يَــكُ جَــدُّه حقّــاً نبيّــاً ... فــإنَّ لَــهُ الفَضيلَــة فــي الأَنــامِ

ومنّا الحسينُ بنُ علي ـ رضوان الله عليه ـ حَمله جبريلُ ـ عليه السلام ـ علىٰ عاتِقهِ ؛ وكفىٰ بذلك فَخْراً ، وفيه يقول الشَّاعر :

حُـبُّ الحُسيـنِ ذخيـرةٌ لمحبِّـهِ ... يا ربّ فاحْشُرني غداً في حِزْبِهِ

وفيه يقول الشَّاعر أيضاً :

نَفَـىٰ عَنْـه عَيْـبَ الآدميـينَ ربُّـه ... ومَنْ مَجْدهُ مَجْد الحُسين المُطَهَّرِ

ثمَّ قالت : يا معشرَ قريش ، واللهِ ما معاويةُ كأَميرِ المؤمنين عليّ ، وما معاويةُ بأميرِ المؤمنين ، ولا هو كما يزعُم ، هو واللهِ شَانىء[1] رسول الله

---

(١) هذا الكلامُ خَرْط القَتَاد دونه ، نعوذُ باللهِ منَ الهوى والأهواء ؛ ولا يمكنُ لعاقلٍ أن =

ﷺ؛ وإنِّي آتيةٌ معاويةَ ، وقائلة له ما يعرقُ منه جبينه ، ويكثرُ منه عويله وأنينه .

غَـانِـمَـةُ أَمَـامَ مُـعَـاوِيَـةَ :

يزعمُ واضعُ القصَّةِ أنَّ خطبةَ غانمةَ قد انتشرتْ في مكةَ ، وأنَّ غانمةَ قد عزمَتْ على السَّفَرِ وعلىٰ لقاءِ معاويةَ ، فما كان منْ عاملِ مكةَ وأميرِها منْ قِبَلِ معاويةَ إلاَّ أنْ سارَعَ وكتبَ رسالةً فَصَّلَ فيها ما حَدَثَ ، وأخبرَه بقدوم غانمة .

ولما بلغَ معاوية أنَّ غانمةَ بنتَ غانم قد قربتْ منه ، أمرَ بدار ضيافةٍ فَنُظِّفَتْ ، وأُلقيَ فيها فرشٌ ، فلما قربتْ منَ المدينةِ استقبلها يزيدُ في حَشَمهِ ومماليكهِ ، فلما دخلتِ المدينةَ ، أتتْ دارَ أخيها عمروَ بنَ غانم ، فقال لها يزيدُ : إنَّ أبا عبد الرحمن ـ كنية معاوية[1] ـ يأمُرك أنْ تصيري إلىٰ دارِ ضيافَتهِ ، وكانت لا تعرفُه .

فقالت : مَنْ أنتَ كلأَكَ اللهُ؟!

قال : أنا يزيدُ بنُ معاويةَ .

قالتْ : فلا رعاكَ اللهُ يا ناقصاً لَسْتَ بزائد[2] .

قال الرَّاوي : فتغيَّر لونُ يزيد ، وأتىٰ أباه فأخبَرهُ ، فقال : هي أسنُّ قريش ، وأعظمُهم حِلْماً .

قال يزيد : كم تعدُّ لها يا أمير المؤمنين؟

قال : كانت تعدُّ علىٰ عَهْدِ رسول الله ﷺ أربعمئة عام!!! وهي منْ بقيةِ الكرام!!!!

= يقبلَ هذا الكلام الخطير .

(١) لاحظ السَّخافة ، إذْ إنَّ يزيدَ ـ كما زعم الراوي ـ قال لغانمةَ المزعومة : إنَّ أبا عبد الرحمن بدلاً منْ أنْ يقولَ : إنَّ أبي ؛ وذلك ليتسنى لواضعِ القصة شتمَ يزيد وانتقاصه .

(٢) لاحظ أنَّ هذا التَّعبير وأمثاله يدلُّ على الصنعةِ التي قيلت فيما بعد عصر يزيد .

فلما كانَ منَ الغَدِ أتاها معاويةُ ، فسلَّم عليها ، فقالت: علىٰ المؤمنين السَّلامُ ، وعلىٰ الكافرينَ الهوانُ والملامُ.

ثمَّ قالت: أفيكم عمرو بنُ العاص؟!

قال عمرو: ها أنا ذا.

قالت: وأنتَ تسبُّ قريشاً وبني هاشم؟ وأنتَ أهلُ السَّبِّ ، وفيك السَّبُّ ، وإليك يعودُ السَّبُّ.

يا عمرو؛ إنِّي واللهِ عارفةٌ بكَ وبعيوبكَ ، وعيوبِ أُمِّك ، وإنِّي أذكرُ لك ذلك عَيْباً عَيْباً.

وُلدتَ منْ أَمَةٍ سوداءَ مجنونةٍ حمقاءَ ، تبولُ منْ قيامِها ، ويعلوها اللئامُ ، إذا لامَسها الفحلُ كانت نطفتُها أنفذَ من نطفتهِ ، ركبهَا في يومٍ واحدٍ أربعون رجلاً ، وأمَّا أنتَ فقد رأيتُك غاوياً غيرَ راشد ، ومُفْسِداً غيرَ صالح ، ولقد رأيت فحلَ زوجتِك على فراشِك فما غِرْتَ ولا أنْكرتَ !!!

وأمّا أنتَ يا معاويةُ ، فما كنْتَ في خير ، ولا رُبّيتَ في نعمةٍ ولا خير ، فمالكَ ولبني هاشم؟ أنساؤُكَ كنسائِهم؟ أمْ أُعطي أميةُ ما أُعْطِي هاشم في الجاهليةِ والإسلامِ؟ وكفىٰ فخراً برسول الله ﷺ.

فقال معاويةُ: أيتُها الكبيرة ، أنا كافٌّ عن بني هاشم.

قالت: فإنِّي أكتبُ عليكَ كتاباً وعَهْداً؛ فقد كانَ رسول الله ﷺ دعا ربَّه أنْ يستجيبَ لي خمسَ دعواتٍ ، فأجعلُ تلكَ الدَّعواتِ كُلَّها فيك!!!!.

فخافَ معاويةُ ، وحَلَفَ لها ألا يسبَّ بني هاشم أبداً[1].

هذه هي قصةُ غانمة المزعومة تماماً ، وأبشّرُ القارىءَ الكريم بأني قد رجعتُ إلى كُتب تراجم النِّساء وتواريخهنَّ فلم أجدْ هذه المزعومة غانمةَ بنتَ

---

(١) انظر: المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ (ص ١٦٠ ـ ١٦٢) ، والمحاسن والمساوىء للبيهقي (ص ١١٦ ـ ١١٩).

غانم ولا عاثِمة ولا عاتمة ، ثم إني عدتُ إلى كتبِ المعمَّرين فلم أجدْ أيضاً هذه المُصيبة ، وقد لاحظَ القارىء الكريم مدى سَخَافة القصّة والأشعار المرصوفة التي زعموا أنّها أنشدتها في الفَخْر أمامَ الملأ المكيّ قبل رحيلها إلى معاوية ، وكيف ادَّعَتْ بأنَّ معاويةَ يبغضُ النَّبي ﷺ ، ثمَّ قَدِمَتْ على معاويةَ ، والتقتْ ابنه يَزيد وعنَّفَتْه وانتقصتْه ، ثم اتَّهمت معاوية ومَنْ معه بالكُفْر ، ومن ثمّ سألتْ عن عمروِ بنِ العاص[1] وتكلَّمت في حقّه وحقِّ أُمِّه ما يخجلُ منْ ذِكْرِ ذلك أحطّ النَّاس؛ ولا أدري ما الذي يروي غلَّ الوضَّاعين منْ أنَّه وقَعَ على أمِّ عمرو في يومٍ واحدٍ أربعون رجُلاً؟! ثمّ هي سوداءٌ ، مجنونةٌ ، حمقاءُ ، تبول من قيامٍ و. . . و. . . ؛ وتتهم عَمْراً بقلّةِ الغيرة والدّياثة ، ثمّ يأتي دور (البهدلة) والشّتم لمعاويةَ ونسائِه ونساء بني أميّة؛ وفي نهايةِ الملحمةِ المزعومةِ يخافُ معاوية ، ويحلفُ بأغلظِ الأَيمان بألا يسبّ بني هاشم أبداً ، وإلاَّ أصابته دعوة غانمة ذات المئين الأربع ، وصار في خَبر كانَ وليس وصارَ وأمسى!!!

والآن ، ما الشيءُ وما الفائدةُ التي نحصلُ عليها من هذه المُهاترات ، وهذه المهازل المزعومة ، وهذه العيوب الكلامية التي تحطُّ منْ شأنِ النِّساء في الصَّدْرِ الأوَّلِ في الإسلام؟!

إننا نعتقدُ أنَّ مَنْ وضَعَ هذه القصّة قد لَعِبَ به الوسنُ ، وغفلَ عنه الزمنُ ، كما غفلَ عن غانمةَ المزعومةِ ، فتركها تعيشُ أكثرَ منْ أربعمئةِ سنة ، حتى تدركَ عَصْرَ معاويةَ وتسبَّه وتفضحَ عرضَه وعرضَ كُبراءِ الصَّحابة ونساء الأشراف!!.

إنَّ هذه المزاعمَ لا تقدِّمُ ولا تؤخّرُ ، ولا تضرُّ ولا تنفعُ ، ولا ترفعُ من قَدْرِ هؤلاء النِّساء ، ولا تزيدُ منْ عَظَمةِ معاويةَ أو تنقصُ منْ قَدْرِه ، مع العِلْم

---

(١) تذكر عزيزي القارىء أن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قد توفي في مصر سنة (٤٣ هـ) ، ولعل واضع القصة فاته ذلك.

أنَّنا قد وجْدنا قَصَصاً وُضِعَتْ وصُنعت على معاويةَ كي تحطَّ منْ شَأْنهِ ، ولكنَّ حَبْلَ الكذبِ قصيرٌ؛ وإليكم بعضاً من تلكم المزاعم التي تحطُّ من شأْنِ واضعيها لا منْ شَأْنِ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ.

قَصَصٌ مَزْعُومَةٌ مُفْتَرَاةٌ:

سننقلُ في هذه الفِقْرة بعضَ القَصص المُفْتَرَاةِ على معاوية ـ رضي الله عنه ـ كما جاءتْ في بعضِ المصادرِ ، والتي ندخلُ في عَالَم السَّذَاجة والكذب الصُّراح.

ومنْ أمثلةِ ذلك ما ذكَرهُ المسعودي في «مروجِهِ» ذلك الأَمْر المريج الذي مفادُه أنَّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ كانَ حليماً عَارِفاً بتصريفِ الأمور ، وبلغَ منْ إحكامِهِ في معالجةِ شؤونِ النَّاسِ أنَّ رجُلاً منْ أهْلِ الكوفةِ أتىٰ دمشقَ ودخلَها على بعيرهِ ، والقومُ منصرفونَ عن صِفِّين ، فتعلَّقَ به رجُلٌ منْ دمشقَ قائلاً : هذه ناقتي أُخِذَتْ منِّي بصفّين.

وتَشَاجرا فشكَيا أمرهُما إلى معاويةَ ، فقضىٰ معاويةُ على الكوفيّ ، وأمَره بتسليم البعيرِ إلى خَصْمِه ، فقالَ الكوفيُّ: أَصْلَحَكَ اللهُ إنَّه جَمَلٌ وليسَ بِنَاقَةٍ!.

فقال معاويةُ : هذا حكمٌ قد مَضَىٰ.

وبعد انصرافِ القومِ ، استدعىٰ معاويةُ الكوفيَّ ، وسألَه عن ثمنِ بعيره ، ودفعَ له ضعْفَ الثَّمن ، وبَرَّهُ وأَحْسَنَ إليهِ ، وقال له : أبلغْ عَليّاً أنِّي أقاتِلهُ بمئةِ ألفٍ ما فيهم مَنْ يُفرِّق بينَ النَّاقَةِ والجَملِ[1].

ومن مهازِل المهازِل ما ورد أيضاً أنَّه بلغَ منْ أمْرِ معاوية في طاعةِ أهلِ الشَّام لَه ، أنَّه صلَّى بهم عنْد مسيرِهم إلى صفِّين الجُمعَةَ في يومِ الأَرْبِعاء[2]!!!!

---

(١) مروج الذهب (٣/ ٤١) ونترك التعليق على هذا الاختلاق للقارىء الكريم.

(٢) المصدر السابق نفسه.

ومنَ العجيبِ أنْ نَجِدَ أيضاً مثل هذه القصّة الآتية عند المسعودي: ذكرَ بعضُ الأَخْباريين أنَّه قال لرجلٍ منْ أهل الشَّامِ منْ زعمائِهم وأهلِ الرأي والعَقْل منهم[1]: مَنْ أبو تُراب ـ كُنْيَة عليّ ـ هذا الذي يلعنهُ الإمامُ على المنبر؟ قال: أراهُ لِصّاً منْ لصوصِ الفِتَن[2].

ولعلَّ العامةَ وسوادَ النَّاس هم الذين تَنْطلي عليهم مثلُ هذه الحكاياتِ المصنوعةِ في قوالبَ معينةٍ، وذاتِ برامجَ إعلاميةٍ معينةٍ أيضاً، وبذلك تسودُ الفَوضىٰ.

وهناك كلمةٌ للمسعودي تفيدُنا في هذا المجَالِ عن أخلاقِ العامَّةِ ومفادُها قولهُ: ومنْ أخلاقِ العامَّةِ أنْ يسوِّدوا غيرَ السَّيِّد، ويفضِّلُوا غَير الفَاضِل، ويقولوا بِعِلْمِ غيرِ العَالِم، وهم أتباعُ مَنْ سَبَقَ إليهم من غيرِ تمييز بينَ الفاضلِ والمفضولِ، والفَضْلِ والنُّقصانِ، ولا معرفة للحقّ منَ الباطلِ عندهم.

أمّا مجالسُ العُلماء فهي مشحونةٌ بالخاصَّةِ مِنْ أُولي التَّمييز والمروءةِ والحِجا، وتفقّد العامّة في احتشادِها وجموعها، فلا تراهمُ الدَّهرَ إلاَّ مُرقلينَ إلى قائِدِ دُبٍّ وضَارِبٍ بدُفٍّ علىٰ سياسةِ قِرْد، أو متشوقينَ إلىٰ اللهو واللعب، ومختلفين إلى مشعبذٍ متنمِّسٍ ممخرقٍ، أو مستمعين إلى قاصّ كذَّاب... لا يبالون أنْ يُلحقوا البارّ بالفاجِرِ، والمؤمنَ بالكافرِ، لم يستضيؤوا بنورِ العلْمِ، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق، قال الشَّاعر:

ولكنْ فِطامُ النَّفْسِ أثقلُ مَحْملاً   منَ الصَّخرةِ الصَّماءَ حينَ ترومُها

وبعدُ، فنرجو منَ القارىءِ الكريمِ أَلاَ يملَّ منْ هذا الاستطراد في هذهِ القصَّةِ المزعومةِ، ولعلَّ المقامَ قد ألجأنا إلى ذلك، وأعتقدُ أنَّ القارىءَ الفاضِلَ قد اجتنىٰ معنا بعضَ الفوائدِ المهمّةِ التي نرجو منْ خلالها إظهارَ

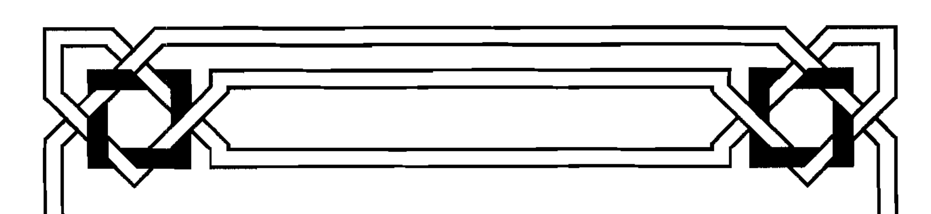
---

(١) لاحظ قوله: من زعمائهم وأهل الرأي والعقل منهم؛ ثمّ أمعنِ النظرَ في نهايةِ القصة لتدرك مدى السّخرية في نسجها.

(٢) مروج الذهب (٣/ ٤٢).

الحقِّ ، بل نريدُ وَجْه اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ فيما نورده ، لتظهرَ لنا صورُ نسائِنا واضحةَ المعَالم ، ونعرف قدرهنَّ معرفةً حقيقيةً ، ونعرفَ كذلك ما دسَّه أهلُ الأهواءِ من أخبارٍ تسيءُ إليهنَّ ، أو ما اختلقه بعضُهم من شخصياتٍ مزعومةٍ ليضربوا ويشوّهوا صورةَ المرأةِ وصورَ بعضِ الأعلامِ في عَصْرِ الرِّسالةِ. ويجبُ أنْ نعرفَ أنَّ عَصْرَهم وقرنَهم خيرُ قَرْنٍ ، كما أشارَ إليه رسول الله ﷺ ، ولا نلتفتُ إلى سفاسفِ القول ، وإلى ما يحطُّ من أَقْدارِ النَّاس ، فَضْلاً عن كبارهم وأعلامهم. اللهم ألهمنا الصَّواب يا ربَّ العالمين.

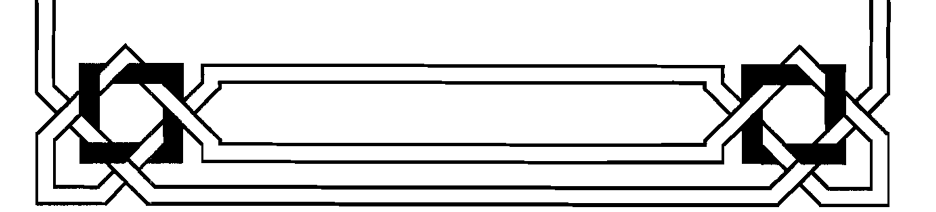
* * *



(١٤)
دارمية الحجونية

* قالوا عنها:

- إنها من الوافدات على معاوية رضي الله عنه.
- مُحِبَّة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.
- بليغة من بليغات النساء.



لَوْ سَأَلْنَا التَّارِيخَ :

إذا كانَ لقاءُ الخُلفَاءِ والأمراءِ ، والوفودِ عليهم ، يحتاجُ إلى بيانٍ منَ القولِ ، وفَصْلٍ منَ الخِطَاب ، فإنَّ ذلك شيءٌ طبيعيٌّ ، لأنَّها مقاماتُ فَضْلٍ ، ومشَاهِدُ حَفْلٍ ، يُتَخيَّرُ لها الكلامُ اخْتياراً ، وتُستَهذبُ الألفاظُ ، وتُسْتَجزلُ المعاني .

ولكنْ ما عسىٰ الوافدُ أو مَنْ يطْلبُهُ الخليفَةُ أو الأميرُ أنْ يتكلَّمَ لو فُوجِىء بموقفٍ أمامَ الخليفةِ؟!

لا شكَّ في أنَّ المتكلِّمَ عندها يحتاجُ إلى رباطةِ الجأْشِ ، واختيارِ الكلماتِ التي تُناسِبُ المقام .

بَيْدَ أنَّ ضيفةَ اليومِ واحدةٌ منَ النِّساءِ التي لو سألْنَا التَّاريخ عنها ، لأقْسَم وأغلظَ الأَيْمانَ أنَّه لم يحفظْها في سِجلِّه ، ولمْ تعيَها أذنُهُ الواعيةُ ، ولكنَّها جاءتْ من ذاكرةِ الوضَّاعين ، أو جاءتْ كلماتُها من افتراءِ المُفْتَرين ، وحاكوا حَوْلَ شخصيّتها حِواراً في قَصْرِ مُعاوية بنِ أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، ثمَّ تخيَّروا بعضَ الكلماتِ وألصقُوها بها ، كما ألْصقوا شخصيّتها بينَ النِّساء في قصور الأمراء .

والمرأةُ التي نحنُ بصَددِ سيرتها اليوم تُدعىٰ دارميّة الحَجونية[1] ، وقد عُنيَ الكذَّابون وصانِعُو الأَخْبارِ بأشياءَ سخيفةٍ ، فقالوا عنها: كانتِ امرأةً

---

(١) بلاغات النساء (ص ١١٠ و١١١) طبعة الكويت ، والعقد الفريد (٢/ ١١٣ ـ ١١٥) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ١٨٩ و١٩٠) ، وانظر: صبح الأعشى ، وغيرها من مصادر من مثل: الوافدات على معاوية من النساء للزبير بن بكار ، والمختار من نوادر الأخبار (ص ٨٠ و٨١) وفيه مية بدلاً من دارمية .

سوداءَ ، وكانتْ سمينةً كثيرةَ اللَّحم ، تحبُّ سيِّدنا عليّاً ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وتبغضُ معاويَة وأمَّه هنداً ، وتعرِّضُ بهما تلميحاً وتَصْريحاً ، ثمَّ بعد هذا تتّهمُ معاويةَ في دِيْنِهِ؛ وتأخذُ منْهُ المالَ .

ومنَ العجيبِ والغريبِ أنْ نجدَ معاويةَ نَفْسَه ، يدعو هؤلاء النّسوة اللواتي كُنَّ منْ شيعةِ عليّ ، فيسمعُ ثناءهم وامتداحَهم لعليّ ، وذمَّهم وشَتْمهم له!! هكذا أرادَ الرُّواة!!!.

كَيْفَ حَالُكِ يَا بِنْتَ حَامٍ :

في حديثهِ الطَّويل عن الوفود أوْرَدَ أبو عمر أحمد بنُ محمد بنِ عبد ربّه الأندلسيّ أخبَار الوافداتِ علىٰ معاويةَ بنِ أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ حيث عدَّدَ ثماني نساءٍ ممن وَفَدنَ علىٰ معاويةَ ، أو ممن دَعاهُنَّ معاويةُ إلى قصرهِ كي يسمعَ ما أُوتينَ منْ بلاغةٍ وفَصْلِ خِطَاب ، ومنهنّ دارميّة الحجونية التي افتتحتْ ترجمتَها زينبُ بنتُ يوسُف فوّاز العامليّة بقولها: كانتْ فصيحةَ اللسانِ ، بليغةَ البَيَانِ ، غيرَ هيَّابةٍ في المَقَالِ ، لا يسألهُا أحدٌ سؤالاً إلا جَاوَبْته بأَحْسَنِ جواب ، وأقْنَعِ خطاب[1] .

أمّا كيفَ وُجِدَتْ دارميةُ هذه في قَصْرِ معاوية أو في نُزُلِهِ بمكةَ ، فهذا ما تكشفُ عنه السُّطورُ التَّوالي .

حجَّ معاويةُ بنُ أبي سفيان ـ عليه سحائب الرضْوان ـ سنةً منْ سنيّه ، فسألَ عنِ امرأةٍ من بني كِنانَة كانت تنزلُ في الحَجون[2]، يُقال لها دارميَّة

---

(١) انظر الدر المنثور (ص ١٨٩).

(٢) «الحَجون»: قال ابنُ منظور: الحجونُ موضعٌ بمكة ناحيةَ البيت ، قال الأعشى:

فما أنتَ منْ أهلِ الحَجُونِ ولا الصَّفا ... ولا لكَ حقُّ الشُّرب في ماءِ زمزم

قال الجوهري: الحَجون: بفتح الحاء ، جَبَلٌ بمكةَ وهي مقبرةٌ. وفي الحديث: أنَّه كان على الحجونِ كئيباً.

(لسان العرب ١٣/١٠٨ ـ ١١٠) باختصار وتصرف.

وقال أبو الوليد الأزرقي: الحجونُ: الجَبلُ المشرفُ حذاء مسجدِ البيعة ، الذي =

الحجونيّة ، وكانتِ امرأةً سوداءَ كثيرةَ اللحمِ؛ فقيل له: يا أميرَ المؤمنين ، إنَّ دارميةَ ما تزالُ حيّة تَسْعىٰ ، وهي سَليمةٌ ، ومنزلُها بالحَجون كما كُنْتَ تَعْهدُهُ من قبلُ ، كما أنَّها ما تزالُ ذاتَ جنَانٍ ولسَانٍ ، لا تتركُ لأَحدٍ مَقَالاً ، وهي حاضرةُ الذِّهْنِ سريعةُ الجواب.

فأرسلَ معاويةُ أحدَ معارِفهِ ، وأَمَره أنْ يأتيَ بدارميّة ، وما هي إلا ساعةٌ وبعضُ السَّاعةِ حتى جيء بها ، فلما دخلتِ المجلسَ قالت: السَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتهُ.

فقال معاويةُ: وعليكمُ السَّلامُ ورحمةُ اللهِ وبركاته. ثمَّ قال: ما حالُك يا بنتَ حَامٍ؟

فقالت: بخير وفَضْلٍ منَ اللهِ ونِعْمةٍ ، ولكنّي لَسْتُ لِحَامٍ أُدْعىٰ إنْ عِبْتَني ،

= يُقال له: مسجدُ الحرس ، وبأصْلِهِ في شعبِ الجزَارين كانتِ المقبرةُ في الجاهليةِ ، وفيه يقول كثير بن كثير:

كم بذاكَ الحجونِ من حيّ صِدْقٍ ... مــنْ كهــولٍ أعفّــةٍ وشَبــاب

(تاريخ مكة ص ٦٧٥).

وقال ياقوتُ الحموي: الحجون: جَبَلٌ بأعلى مكةَ عنده مدافنُ أهلها. وقال السُّكري: مكانٌ منَ البيتِ على ميل ونصف. وقال السُّهيلي: على فرسخٍ وثلث ، عليه سقيفة آلِ زياد بن عبيد الله الحارثي ، وكان عاملاً على مكةَ أيّامَ السَّفّاح ، وبعض أيام المنصور. وقال الأصمعي: الحجونُ هو الجبلُ المشرفُ الذي بحذاءِ مسجدِ البيعة على شِعْب الجزّارين. وقال مضاضُ بن عمرو الجرهميّ يتشوقُ مكة لما أجْلَتْهمُ عنها خزاعةُ:

كأَنْ لم يكنْ بينَ الحجونِ إلى الصَّفا ... أنيــسٌ ولــم يسمــر بمكــةَ ســامِــرُ
بلــى نحــنُ كنّــا أهلَهــا فــأبــادَنَــا ... صــروفُ الليــالـي والجـدودُ العــواثـرُ
فــأخْــرجَنــا منهــا المليــكُ بقــدرةٍ ... كــذلــك يــا للنّــاس تجـري المقــادرُ
فَصِــرْنــا أحــاديثــاً وكنــا بغبطــةٍ ... كــذلــك عضتنــا السّنــونُ الغــوابــرُ
وبــدّلنــا كعــبٌ بهــا دارَ غــربــةٍ ... بهــا الــذئبُ يعـوي والعدو المكــاثـرُ
فَسَحَّــتْ دمـوع العيـن تجـري لبلـدة ... بهــا حــرمٌ آمــنٌ وفيهــا المشــاعــر

(معجم البلدان ٢/ ٢٢٥).

فأنا دارميّةُ[1] امرأةٌ منْ قريش من بني كنانة ، ثمَّ منْ بني أبيك ، وأنتَ الذي بعثْتَ خَلْفِي وطلبتَني .

قال معاويةُ رضي الله عنه وقد ارتسمتْ علىٰ وجههِ ابتسامةٌ مشرقةٌ : صدقتِ يا دارميّة ، ولكنْ أتدرينَ لم بعثتُ إليكِ وأرسلتُ في طلبِك؟ قالت دارميةُ وهي متعجّبةٌ : لا ، سبحان الله ، وأنَّى لي بِعِلْمِ ما لم أعلم؟ فلا يعلمُ الغيبَ إلا الله ! .

أَوَ تُـعْفِينـي يـا أَمِـيـرَ الـمُـؤْمِـنيْـنَ :

بعد أنْ تكلَّمَتْ دارميةُ أمامَ معاويةَ وأعلمته بأنَّها لا تدري لِمَ بعَثَ خَلْفَها ، سكتتْ وسكتَ معاويةُ لحظاتٍ ، ثمَّ عادَ فسألَها السُّؤال نَفْسَه ، فأجابته الإجابةَ عَيْنَها .

---

(١) «دارمية» : قال ابنُ فارسٍ : درم : الدَّرَمان : تقارب الخطو ، يُقال منه : دَرَمْتُ . وبذلك سُمّي الرجلُ دَارِماً .
ويُقال : الدَّارِمةُ : المرأةُ القصيرةُ ، وهو قول الشّاعر :
مِـنَ البيـضِ لا دَرَّامـةٌ قَمَليَّـةٌ ... تبُـذُّ نِسـاءَ الحـيّ دَلاًّ وميسَمـا
(مجمل اللغة ص ٢٣٩) بتصرف .
وقال الزَّمخشري : درم : جاء بخريطة يدرِمُ تحتها منْ ثقلِها ، أي : يقاربُ الخطوَ . (أساس البلاغة ص ١٨٧) .
وقال ابنُ منظور : الدَّرَمُ : استواءُ الكعبِ ، وعظم الحاجب ونحوه . والأدرمُ : الذي لا حَجْمَ لعظامِهِ ، ومنه : الأدرمُ الذي لا أسنان له . وامرأةٌ درماء : لا تستبينُ كعوبُها ولا مرافقُها . وأنشد ابن بري :
وقـد ألهُـو إذا مـا شئـتُ يـومـاً ... إلـى درمـاءَ بيضـاءَ الكعُـوبِ
والدَّرّامةُ منَ النّساء : السّيئة المشي القصيرةُ مع صغر .
ودارِم : حيٌّ منْ بني تميم فيهم بيتُها وشرفُها ، وقد قيل : إنَّه مشتقٌّ منَ الدَّرمان الذي هو مقاربةُ الخطو في المشي . (لسان العرب ١٢/ ١٩٧ و١٩٨) باختصار .
وقال الفيومي : دَرَم درماً من باب ضرب ، مشىٰ مشياً متقاربَ الخُطى ، فهو دارمٌ ، وبه سُمّي دارم أبو قبيلة من تميم ، والنسبة دارِميّ . (المصباح المنير ١٩٣) .

يقولُ راوي القِصَّة وصانعها: إنَّ معاويةَ قال لدارمية: بعثتُ إليكِ كيما أسألُك عنْ مسألةٍ تعتملُ في خاطري.

قالت دارمية: وما هي يا أميرَ المؤمنين؟!

فقال معاوية: لقد بعثتُ إليك حتّى أسألَك علامَ أحْبَبْتِ عليَّ بنَ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وعلامَ أبْغَضْتِني؟! وعلام واليتهِ وعاديتني؟!

قالت دارميةُ في هدوءٍ واتّزان: أو تعفيني يا أميرَ المؤمنين منَ الإجابةِ عنْ سؤالكَ هذا؟!

قال: لا أعفيكِ، يا دارميّة، ولذلك دعوتُكِ.

قالت: يا أميرَ المؤمنين، أمّا إذْ أبيتَ، فإنِّي قَدْ أحببتُ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ علىٰ عَدْلهِ في الرَّعيةِ، وقَسْمهِ بالسَّويّةِ.

قال معاويةُ: قَدْ عرفْنَا سببَ حُبّكِ لعليّ الآنَ، فَلِمَ أبغضتِني إذاً؟

قالتْ: لقد أبغضتُك علىٰ قِتَالِكَ منْ هُو أولىٰ منْكَ بالأَمْرِ، وطلْبَتك ما ليسَ لك بحقّ.

وسكتتْ دارميّةُ قليلاً وهي تنظرُ إلى معاويةَ الذي كانَ يسمعُ كلامَها وقد عَلَتْ وجْهَه علاماتُ الاستغرابِ، ثمَّ تابعتْ كلامَها قائلةً: ولقد واليتُ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ علىٰ ما عَقَدَ له رسول الله ﷺ منَ الولايةِ، وحُبِّهِ المساكينَ، وإعظامِه لأَهْلِ الدِّيْن.

وتوقفتْ دارميةُ ثانيةً عنِ الكلامِ، ثمّ إنَّها جاستِ المكانَ بعينيها، وتفرَّسَتْ ثانيةً وجْهَ معاوية وقالت: ولقد عاديتُك علىٰ سَفكِك الدِّماء، وجَورِك في القَضَاء، وشقِّكَ العصَا، وحُكمِك بالهوى!!..

وتعجَّبَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ منْ جرأةِ دارمية الحجونية، كما تعجَّبَ مِنْ شدَّةِ إعجابِها وحبِّها لعليّ ـ رضي الله عنه ـ وهناك قال لها: صدقتِ يا دارميّة فيما قُلْتِ وأَفْصَحتِ عمَّا بنفسِكِ، ولذلك انتفخَ بَطْنُك، وكَبُرَ ثَدْيُك، وعظمُت عُجيزتك..!!.

قالَ الرَّاوي: ولما سمعتْ دارميةُ منْ معاويةَ هذا الكلام ، تناوشَتْها سِهَامُ الغَضَبِ ، وظهرتْ علائمُ الانتقامِ علىٰ وجهها ، ثمّ قالتْ لمعاويةَ بنبرةٍ ولهجةٍ حادَّةٍ: يا هذا ، بهند بنت عتبة[1] واللهِ كان يُضْرَب المثَلُ في ذلك وفيما قلتَ ، لا بِيْ أنا.

قال معاويةُ: يا هذه لاتغضبي وارْبعي وانتظري ، فإنّا لم نَقُلْ إلاَّ خيراً ، إنَّه إذا انتفخَ بَطْنُ المرأةِ تَمَّ خَلْقُ ولدِها ، وإذا عظُمَ ثدياها ارتوىٰ رضيعها ، وحَسُنَ غذاؤهُ ، وإذا عظُمت عُجيزتها رَزُن مجلسُها. فرجعتْ دارميةُ وسكنتْ وسكتَ عنها الغَضَبُ.

هَلْ رَأَيْتِ عَلِيّاً؟

يذكرُ الرُّواة أنَّ دارميةَ هدأَتْ بعد أنْ اجتاحهَا الغَضَبُ ، وأحبَّ معاويةُ أنْ

---

(١) هند بنتُ عتبةَ أمّ معاوية رضي الله عنهما؛ وقد أغْرِمَ الوضّاعون بوضع أخبارٍ لا تتناسبُ مع مقامِها ومقام ابنها معاوية ، بل لا يتناسبُ مع مكانةِ هذَيْن الصَّحابيين الكريمين ، ومن ذلك أنَّ رجُلاً عيّر معاوية بأمه وأنَّ عجيزتها كبيرةٌ فقالَ له معاوية ـ فيما زعموا ـ: إنَّ ذلك كان يعجبُ أبا سفيان!!!

ومنْ ذلكَ ما جاءَ عند التّجاني قال: كانتْ هندُ بنتُ عتبةَ زوجَ أبي سفيان وافرةَ العُجيزة؛ وجلسَ يوماً أبو الجهم بن حذيفة العدويّ على المائدةِ مع معاويةَ بن أبي سفيان ، فقال له: يا أبا الجهم ، مَنْ أسنُّ أنا أمْ أنتَ؟!

فقال: يا أميرَ المؤمنين ، واللهِ لكأنّي أنظرُ إلى أمّك ، وإلى عِظَم عُجيزتها ، وقد جئتُ أخطُبُها قبلَ أبيكَ ، وقبل زوجها ـ الفاكه بن المغيرة ـ ثم تزوّجها أبوك فأتَتْ بك وبإخوتك.

فقال معاويةُ: أمّا أنّها كانتْ تستكرمُ الأزواج ، وتقل الخِدَاجِ ـ نقص الخَلْق ـ ، ثمّ قال له معاوية: يا أبا الجهم ، إياكَ والسُّلطان ، فإنّه يغضبُ غضبَ الصَّبي ، ويَثِبُ وثوبَ الأَسد ، وهذه مئةُ ألف فاستعنْ بها ، والْحَقْ بأهلِكَ ، وإيّاك ومثل هذا ، فقبَّلَ أبو الجهم بين عينيه وقال: أبيتَ إلا حُلماً وكرماً! ، ثم قال:

نقلّبُـــه لنخبُـــرَ حــــالتَيْــــه ... فنخبــــر منهمـــا كـــرمـــاً ولينـــا
نميـــلُ علـــىٰ جـــوانبـــه كـــأنّـــا ... نميـــلُ إذا نميـــلُ علـــى أبينـــا

(تحفة العروس ص ٣٣٩ و٣٤٠) نقلاً عن (البيان والتبيين ٣/ ٢٣٣).

يتابعَ الحديثَ عنْ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، وهنالك ألقىٰ نظرةً على دارميّة فألفاها تستعدُّ للإجابةِ عمّا سيسألُها ، وعندها قال لها : يا هذه ، هل رأيتِ عليّاً؟ قالت دارميّةُ : إي والله ، لقد رأيتهُ يا أميرَ المؤمنينَ ، وخبرتهُ.

قال معاويةُ : فكيفَ رأيتِهِ وخبرتيهِ؟

قالت : رأيتهُ واللهِ لم يفتِنْه المُلْكُ الذي فَتَنَك ، ولم تَشْغَلْهُ النِّعمةُ التي شَغَلَتْك وصَقَلَتْك ونَفَخَتْك.

قال معاويةُ : فهل سمعتِ كلامَه يا أمةَ الله؟!

قالت دارميةُ : أي واللهِ ، لقد سمعتهُ ، فقد كان كلامهُ يجلو القلوبَ منَ العمىٰ ، كما يجلو الزَّيتُ صدأَ الطَّسْتِ.

قال معاويةُ : صَدقْتِ واللهِ يا دارمية لقد كان كما قُلْتِ.

ثمَّ إنَّ معاويةَ صَمتَ قليلاً ، وراحَ ينظرُ إلى دارمية التي أثقلتْ كاهلَها السُّنون ، لكنَّها صقلتْ حُبَّها لعليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ، بَيْدَ أنه ـ كما زعموا ـ حاول أنْ يستميلَ دارمية بالمالِ ، فقال لها : يا هذه ، هل لكِ من حاجةٍ فنقضيها لكِ؟!

قالت : أو تفعلُ إذا سألتُكَ إيَّاها يا أمير المؤمنين؟!

قال : نعم.

قالت : يا أميرَ المؤمنين ، تُعطيني مئةَ ناقةٍ حمراءَ فيها فَحْلُها وراعيها.

وتعجَّبَ معاويةُ منْ هذا الطَّلبِ وقال لها : ماذا تصنعينَ بها؟!

قالت : يا أميرَ المؤمنين ، لها عندي خلائقُ أربع.

قال : وما هي يا دارميةُ؟

قالت : أغذو بألبانِها الصِّغار؛ وأستحيي بها الكبار ، وأكتسبُ بها المكارم ، وأصلحُ بها بين العشائر.

قال: حَسَناً تفعلينَ بها، بارك الله عليك.

قال الرَّاوي: وفي هذه اللحظاتِ أحبَّ معاويةُ أنْ يغتنمَ الفرصة بعد أن سمعَ من دارمية الذي طلبت، وهنا توجّه لها بهذا السُّؤالِ فقال: إنْ أنا أعطيتُك ما طلبتِ منَ النَّعم، فهل أحلُّ منك محلَّ عليَّ بن أبي طالب[1] - رضي الله عنه -؟!

قالت: ماء ولا كَصَدَّاء[2]، ومرعىً ولا كالسَّعدان، وفتىً

---

(١) ذكر الحافظُ ابنُ كثير - رحمه الله - عن جرير بنِ عبد الحميد - وهو ثِقَةٌ - عن مغيرة قال: لمّا جاءَ خبرُ قَتْلِ عليّ إلى معاويةَ جَعَل يَبْكي.
فقالتْ له امرأتُه: أتبكيه وقد قاتَلْتَه؟!
فقال: ويحكِ إنّكِ لا تدرينَ ما فَقَدَ النَّاسُ منَ الفَضْلِ والفِقْهِ والعِلْم!!

(٢) «ماءٌ ولا كصَدّاء»: يُضرَبُ مَثَلاً للرّجلين لَهُما فَضْلٌ إلاّ أنَّ أحدهما أفْضَلُ، ويُقال: صدّاء، وصدآء، وصيداء، وهو ماءٌ للعربِ ليس لهم أعذبُ منه.
وهذا المثَل لقذورَ بنتِ قيس بنِ خالد ذي الجدّين الشَّيباني؛ وكانَ منْ حديثها أنْ زُرَارةَ بنَ عُدَس رأى ابنه لقيطاً يختالُ في مشيتهِ، فقال له: كأنَّك أصبتَ ابنةَ قيس بنِ خالد، ومئةً منْ هجائنِ المنذرِ بن ماء السَّماء، فحلفَ لقيطٌ لا يمسُّ الطِّيبَ، ولا يشربُ الخمرَ، حتى يصيبَ ذلك، فسارَ حتى أتىٰ قيسَ بن خالد، وهو سيّدُ ربيعةَ، وكانتْ عليه يَمينٌ، لا يخطبُ إليه إنسانٌ علانية إلاَّ أصابَه بسوءٍ، فخطبَ إليهِ لقيطٌ في مجلسهِ، وقال: عرفتَ أنّي إنْ أعالنْكَ لمْ أشِنْكَ، وإنْ أُناجِك لم أخْدَعْكَ، فزوَّجه ابنتهُ القذورَ، وساقَ عنه المَهْر، وهداها إليهِ منْ ليلتهِ، فاحتملَ بها إلى المنذرِ، فأخبرهَ بما قالَ أبوه، فأعطاهُ مئةً منْ هجائنه، فرحلَ بها إلى أَهْلِهِ، فقالتْ: ألقىٰ أبي وأودّعه، فلّما جاءَتْه قال لها: يا بُنية، كُوني له أمَةً يكنْ لكِ عَبداً، وليكنْ أطيبَ طيبكِ الماء، وإنّه فارسُ مُضَر، ويوشكُ أنْ يُقْتَلَ، فإنْ كان ذلك فلا تخمشي وجْهاً، ولا تحلقِي شعراً، فقُتِلَ لقيطٌ، فاحتملَتْ إلى قومِها، فتزوَّجها بعده رجلٌ منهم، فجعلتْ تكثرُ من ذكر لقيط، فقال لها: أي شيءٍ رأيتِ منه كانَ أحسنَ في عينيك؟ قالتْ: خرجَ في دجْنٍ، وقد تطيَّبَ وشربَ، فطردَ البقرَ، وصَرعَ منها، وأتاني وبه نَضْحُ الدَّمُ والطِّيبُ، فَضَمَمْتُه ضمَّةً، وشممته شمَّةً، ووددتُ أنّي كنتُ متّ ثمّةَ. فسكتَ عنها، حتى إذا كان يومُ دَجْنٍ، شربَ وتطيَّبَ وركبَ، وصرعَ من البقرِ، وأتى وبه نَضْحٌ منَ الدَّمِ والطّيب=

ولا كَمالِك[1] ، يا سبحانَ اللهِ ، أَو دونَه[2] يا أمير المؤمنين؟!

وتعجَّبَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ من حبِّ دارمية لعلي ـ رضي الله عنه ـ كما تعجَّب من سرعةِ بديهتِها ، وجمالِ فطْنَتِها ، ثم أنشأَ يقولُ :

إِذَا لَمْ أَعُدْ بالحِلْمِ منِّي عَلَيكُمُ ... فَمَنْ ذا الذي بَعْدي يُؤَمَّلُ للحِلْمِ

خُذيها هَنيئاً واذْكُري فِعْلَ ماجدٍ ... جَزَاكِ على حَرْبِ العَداوَةِ بالسِّلْمِ

ثم إنَّه نظرَ إلى دارميةَ وقال لها: يا دارميةَ ، أمَا واللهِ لو كانَ عليٌّ حيّاً ما أعطاكِ منها شيئاً.

قالت: أي واللهِ يا أميرَ المؤمنين ، ولا وبْرة واحدة منْ مالِ المسلمين يعطيني[3].

= والشّراب ، فضمّها إليه ، وقال: كيف ترينَني. أنا أحسنُ أمْ لقيط؟ فقالتْ: ماءٌ ولاكصدَّاء ، فذهبتْ مثلاً. قال ضرارُ بنُ عبيد السَّعدي:

وإنّي وتهيامي بزينبَ كالذي ... يُطالبُ من أحواضِ صدَّاء مَشْرَبا

ومثْلُ هذا المَثَل سواء قولِهم: مرعى ولا كالسَّعدان؛ وهو لامرأةٍ من طيء ، تزوَّجها امرؤ القيس بن حجر ، وكانَ مفرّكاً ، فجعلتِ المرأةُ تعرِضُ عنه ، فقال لها يوماً: أينَ أنا منْ زوجِك الأوّل؟! فقالت: مرعىً ولا كالسَّعدان. أي أنْتَ رِضاً ولا كَهُوَ. والسَّعدان شوكٌ إذا أكلته الإبلُ غَزَرَتْ عليه أكثر مما تَغْزُر على غيره منَ المرعى. (جمهرة الأمثال ٢/ ١٩٨).

(١) «فتىَ ولا كَمالِك»: يُضْرَب مثلاً للرّجلَين ذوي الفضل ، إلا أنَّ أحدهما أفْضَلُ ، وهو مثْل قولهم: ماء ولا كصدَّاء ، والمثَل لأكثم بن صيفي ، ومالكُ هو مالك بن نويرة. (جمهرة الأمثال ٢/ ٨١).
وهنا تريدُ دارمية ـ أو يريد حائِكُ القصَّة وصانعها ـ أنَّ كلا الرَّجلين عليّ ومعاوية ـ رضي الله عنهما ـ من أهل الفضل ، ولكنَّ عليّاً أفضل؛ وقد غيّر الوضّاع موجةَ القصةِ قليلاً وخفّفَ من غلوائِها بهذا المثل.

(٢) هنا استفهام إنكاري منْ دارميّة ، أي أولىٰ بك أنْ تطلبَ دون محلّه ، لا أنْ تطلبَ مثله محله ، وكأنّها تفهمه ألا تطمع بمكانه ومكانته.

(٣) عن بلاغات النِّساء (ص ١١٠ و١١١) ، والعقد الفريد (٢/ ١١٣ ـ ١١٥) مع الجمع والتصرف ، وانظر: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ١٨٩ ، ١٩٠) ، =

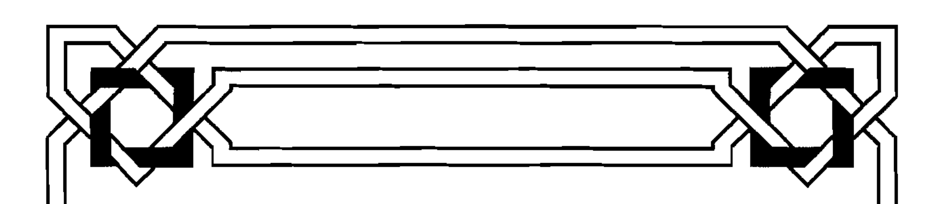
قال الرّاوي: ثمَّ إنَّ معاويةَ أمرَ لدارمية بما سألتْ ، وخرجت عنه وهي ترضىٰ عن عليّ.

وهنا يسدلُ التَّاريخ سِتاره ، فلم نَعُدْ نَجِد لدارميةَ أثراً ، ولم نعدْ نسمعُ عنها خبراً ، وإنّما رأيناها في هذا الموقفِ العاجلِ بين يدي معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ في قَصْره ، وبهذا دخلت هذه المرأة ـ المزعومة[1] ـ قُصور الأمراء والخُلفاء.

* * *

= والمختار من نوادر الأخبار (ص ٨٠ و٨١) ، وغيرها.

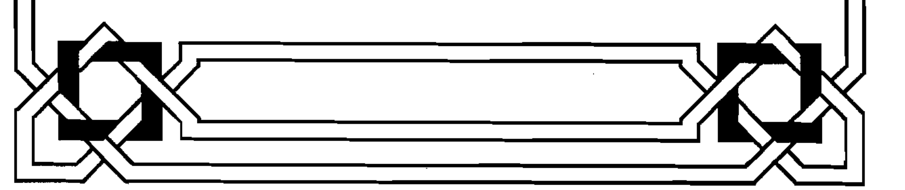
(١) وإذا صحَّ وجودها ، ففي الكلام المنسوب إليها تزيّدٌ ومبالغة لا تقبلها العقول!



(١٥)

فاطمة بنت عبد الملك

* ابنة خلفاء ، وأخت خلفاء ، وزوج خليفة .
* فاضلة ، فصيحة ، أديبة ، ديِّنة ، عالمة ، مُحدِّثة .
* وفية لزوجها عمر بن عبد العزيز ؛ إذ عاشتْ معه أيام الدعة ، وليالي الشظف .



ابْنَـةُ الـخُلَـفَـاءِ وَأُخْـتُ الـخُلَـفَـاءِ:

* إنَّ ضيفةَ القَصْرِ اليوم ، منْ نوادرِ النِّسوةِ الفاضلاتِ اللواتي نشَأْنَ في قُصُور الأمَراء ، ولها آثارٌ حِسَانٌ في تاريخنا العَطِر الشَّذي المندَّى برحيقِ زَهْر الرُّبى الفَوَّاح بِريحانِ الأَخْبَار التي تُحيي القُلُوبَ العَطْشى ، وتوقظُ العيونَ الوسنى لمعرفةِ أخبارِالنِّساءِ الفَاضلاتِ ، في الأعْصُرِ الخالياتِ.

* ولما رحْتُ أتتبَّعُ أخبارَ هذه المرأةِ الفَاضِلةِ القدوةِ بين نسْوَة الأُمراءِ ، ثمّ الخُلفاء ، ألفيتُ كثيراً منَ الأخبارِ المنسوجةِ المصنوعةِ قد أُلْبِسَتْ سيرتَها ، ولا تنسجمُ مع تربيتها ومع نشأتِها وحقيقتِها ، فَمَنْ يقرأ حياتها قراءةً متأنيةً يجدُ أنَّ كثيراً منَ الأخْبارِ التي ألصقَها الرُّواةُ بحياتِها لا تتَّفقُ مع منهجِ سلوكها ، وهي بريئةٌ منها[1] براءةَ الذِّئبِ من دَمِ نبيِّ اللهِ يوسفُ بنِ يعقوبَ ـ عليهما السَّلام ـ.

* فضيفةُ حلقتِنَا أميرةٌ أمويّةٌ قرشيّةٌ دمشقيّةٌ شريفةٌ ، ولدتْ وَوُلِدَ معَها النَّصيْبُ الأوفى منَ العِزّ والرفْعَةِ والشّأْنِ ، وعاشتْ في قُصورِ الملوكِ والأُمَراء والخُلفاء حياةً مفعمةً بالمكارمِ والفَضَائِل ، ومحاسنِ الخَصائِل ، وحسْنِ الأُحْدوثة.

* وإذا أردنا أنْ نعرفَ مكانَها ومكانتَها في مقْعَد الخلافةِ ، فعلينا أنْ نعرفَ آلهَا وذويْهَا الذين كانوا غُرةً زاهرةً في جبينِ الدَّهرِ في عَصْرِ مشرقِ الخلافةِ الأمويةِ في دمشقَ الشَّام.

* فقد فتحتْ هذهِ الأميرةُ عينَها على دنْيا زاخرةٍ بالعزِّ والرفعةِ ، ترفرفُ فوقها أعلامُ الإعزازِ والشُّهرة ، وتخفقُ من حولها أرديةُ المجْدِ المؤثَّلِ الذي

---

(١) سنتعرض لبعض الأخبار الواهية المصوغة المصنوعة في آخر ترجمتها إن شاء الله تعالى ، وذلك لتمييز الخبيث من الطيب.

رَفَعها إلى مصافّ الشَّهيراتِ في دنيا النِّساء الفُضْليات ، فهي ابنةُ الخلائف ، وأختُ الخلائفِ ، وزوجُ الأميرِ ثمّ الخليفة ، فقد كان عَددٌ منْ محارمها خلفاءَ وأمراء ، وصيتُهم قد طارَ في البلادِ ، وفي كلّ سَهْل وواد.

* فجدُّها: مروانُ بنُ الحَكَم الأمويّ القرشيّ أبو عبد الملك ، كان يُعَدُّ منَ الفُقَهاء ، وهو صحابي[1] عند طائفةٍ كثيرة لأنَّه وُلدَ في حياةِ رسولِ الله ﷺ ، وروى عن عددٍ من أَعْلامِ الصَّحابةِ من مِثل عمرَ وعثمانَ وعليّ ، وزيد بنِ ثابت ، وروى عنه ابنُه عبدُ الملك ، وسهلُ بنُ سَعْد ، وسعيدُ بنُ المسيّب ، وعروةُ بنُ الزُّبير ، وعليُّ بنُ الحسين ـ زين العابدين ـ ومجاهدٌ؛ وغيرُهم.

* كانَ مروانَ منْ ساداتِ قُريش وفُضلائها ، وصَفَهُ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ بقولِهِ: القارىءُ لكتابِ اللهِ ، الفقيهُ في دِيْنِ اللهِ ، الشَّديدُ في حدودِ اللهِ ، مروانُ بنُ الحكَم[2].

* وأخبارُ مروانَ كثيرةٌ ، ولهُ أعمالٌ عظيمةٌ تكفَّلَتِ المصادرُ بذكْرِها ، توفيَ بدمشقَ لثلاث خَلَوْنَ من شَهْرِ رمضانَ سنة (٦٥هـ) ، وهو ابنُ ثلاثٍ وستينَ سنة ، وكانت مدّةُ خلافته تسعةَ أشْهرٍ وثمانيةَ عشرَ يوماً ، ودُفِنَ بينَ بابِ الجابية وبابِ الصَّغير[3] ، ـ رحمه الله ـ.

* وأبوها: عبدُ الملك بنُ مروانَ بنِ الحكَم الأمويّ القُرشيّ ، وُلدَ بالمدينةِ سنة (٢٦هـ) ، وكان قَبْلَ الخلافةِ عَابداً ناسكاً[4]، قالَ الحافظُ ابنُ كثير: كانَ عبدُ الملكِ قبلَ الخلافةِ من العُبّادِ الزُّهّادِ الفُقراءِ الملازمينَ للمسجدِ وتلاوةِ القُرآن ، وكانَ حازماً فَطِناً سَائِساً لأمُورِ الدُّنيا ، لا يَكِلُ أمْرَ

---

(١) عدَّهُ ابنُ سَعْد في الطَّبقةِ الأولى من التّابعين ، وبهذا يقولُ ابنُ حجر : ولمْ أرَ مَنْ جَزَم بصحبتِه . (الإصابة ٣/ ٤٧٧).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٥٧).

(٣) المصدر السابق (٨/ ٢٦٠).

(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٣٤) .

دنياهُ إلى غيرِه[1].

* وكان معاويةُ بنُ أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما ـ جالِساً يوماً ، ومعه عمرو بنُ العَاص ـ رضي الله عنه ـ ، فمرَّ بِهما عبدُ الملك بنُ مروانَ ؛ فقال معاويةُ : ما آدَبَ هذا الفتى وأحسنَ مُروَّتَه!

فقال عمرو بنُ العاص : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنَّ هذا الفتى أخذَ بأربعِ خصالٍ ؛ وتركَ خِصَالاً ثلاثاً :

● أخذَ بحُسْنِ الحديثِ إذا حدَّث
● وحُسْنِ الاستماعِ إذا حُدِّثَ
● وحُسْنِ البِشْر إذا لقيَ
● وخفّةِ المؤونةِ إذا خُولفَ
● وتركَ منَ القولِ ما يعتذرُ منه ، وتركَ مخالطةَ اللئامِ منَ النّاس ، وتركَ ممازحةَ مَنْ لا يُوثَقُ بعَقْلهِ ولا مروّته[2].

* روى عبدُ الملك الحديثَ النَّبويَّ عن أبيهِ ، وعن جابر بنِ عبدِ الله ، وأبي سعيد الخدريّ ، وأبي هُريرة ، وابنِ عمر ، ومعاوية ، وأمّ سلمة أمّ المؤمنين ـ رضي الله عنهم ـ.

* وروى عنه جماعـة منهم : عروةُ بنُ الـزُّبير ، والـزُّهريّ ، ورجـاءُ بن حَيوةَ ، وغيرهم.

* وقد شَهدَ لـه الثِّقاتُ بشهاداتٍ عظيمـةٍ تجعلُـه في مصـافّ العُظَماءِ ، وأعمالـهُ كثيرةٌ لا تُحصى ، أوردتْهـا المصَادِرُ الكثيـرةُ ، وله أوّليـاتٌ نـادرةٌ أوصلها السُّيوطي إلى عشر أوائل[3].

* ماتَ عبدُ الملك بنُ مروانَ يومَ الخميس للنّصْف منْ شَوّال سنةَ

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٦٢) بتصرف.
(٢) انظر : طبقات ابن سعد (٥/ ٢٢٤).
(٣) انظر : تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٢١٩).

(٨٦ هـ)[١] ، وله ستّونَ سَنةٍ ، ودُفِنَ بباب الجابيةِ الصَّغير[٢] .

* وعمُّها : وأبو زوجها هو الأميرُ الكريمُ عبدُ العزيزِ بنُ مروان بنِ الحكَم القرشيّ الأمويّ المدنيّ ثمّ الدِّمشقيّ ، والدُ عمر بن عبد العزيز ، كانَ والياً على مصْرَ ، ولاّهُ إياها أبوه ، وجعلَه وليّ عَهْدِه بَعْدَ أخيهِ عبد الملك؛ وكان له دارٌ بدمشق ، ثم كانتْ لابنهِ عمر بعده .

* سمعَ عبدُ العزيز ابنَ الزُّبير وأبا هريرة وأبَاهُ مروانَ بنَ الحكم؛ وروى عنه الزُّهريُّ وعليُّ بنُ رَبَاح وابنُه عمر وآخرون . وكان ثقةً قليلَ الحديثِ توفي بمصرَ سنةَ (٨٥هـ)[٣] ـ رحمه الله ـ .

* وإخوةُ ضيفتِنا الأربعة خُلفاء ، ملكُوا الدنيا ، وهم :

* الوليدُ بنُ عبد الملك بنِ مروانَ الأمويّ القرشيّ ، وُلدَ سنةَ (٥٠هـ)؛ بُويع بالخلافةِ في اليومِ الذي توفيَ فيه أبوه عبدُ الملك في شوَّال سنة (٨٦هـ) ، وكان يختمُ في رمضانَ سَبْعَ عشْرةَ ختمةً .

* فتحَ الهنْدَ والسِّنْدَ والأندلسَ وغيرها ، وبنى مسجدَ النَّبيِّ ﷺ ووسَّعه ، وبنى مسجدَ دمشق ، وكان نَقْشُ خاتمه : أومنُ باللهِ مُخْلِصاً ، وكان آخر ما تكلَّمَ بهِ : سبحانَ اللهِ ، والحمدُ لله ، ولا إله إلاّ الله[٤] .

* وللوليدِ إصلاحاتٌ داخليةٌ في دمشقَ تشهدُ له بالفَضْلِ ، بالإضافةِ إلى عمارةِ مسجدِ النَّبي ﷺ ، وبناءِ المسجدِ الأمويّ بدمشقَ ، وفتوحِ كثيرٍ من البُلْدان ، ناهيك بأنَّه كانَ يهتمُّ بالقُرآنِ ، ويكافىءُ الحفَظةَ ، ويعطي كلَّ واحدٍ منهم ما يطلبُه .

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٢٣٥) .

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٦٨) .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٢٨٥) ترجمة رقم (٣٦٧) ، وانظر سيرته في النجوم الزاهرة في الجزء الأول .

(٤) البداية والنهاية (٩/ ١٦٢) .

* توفيَ الوليدُ بنُ عبد الملك بدمشقَ للنِّصْفِ من جمادى الآخرة سنة (٩٦هـ) ، ودُفِنَ بباب الصَّغير ـ رحمه الله ـ.

* وأخوها الثَّاني : سليمانُ بنُ عبد الملك بنِ مروانَ القرشيّ الأمويّ أبو أيوب ، وُلدَ سنةَ (٦٠هـ) ، ونشَأَ في الشَّامِ في كَنَفِ أبيه نشأةً علمية ، وتولّى الخلافةَ سنةَ (٩٦هـ) في اليوم الذي ماتَ فيه أخوه الوليد.

* كان سُليمانُ فَصيحاً بليغاً ، يُحْسِنُ العربيّة ، ويرجع إلى دِيْنٍ وخيرٍ ومحبّة للحقِّ وأهله ، واتّباعِ القرآنِ والسُّنَّةِ ، وإظهارِ الشَّرائعِ الإسلاميّةِ[1].

* قالَ السُّيوطيُّ ـ رحمه الله ـ: كانَ سُليمان فصيحاً مفوّهاً ، مؤثراً للعَدْلِ ، محبّاً للغزو[2].

* وقد انعكستْ هذه الصِّفاتُ الجميلةُ على خُلُقهِ ، فقرَّب الصَّالحين ، واتَّخذَ لنفسه بِطانةً صالحةً تدلُّه على الخيرِ إذا غاب عنه ، وتذكِّرُه بوقوفِهِ بين يدي الله فيخشعُ وينْحَني ، وكان عمرُ بنُ عبد العزيز مستشارَه ووزيرَه ، وفُتِحَتْ كثيرٌ منَ البلدانِ في عَهْده؛ ففي سنة (٩٨هـ) فُتِحَت مدينةُ الصَّالقبة ، وقهستان ، وجُرجان ، وغيرها.

* هذا وأخبارُ سليمانَ بنِ عبد الملك وأعمالُه كثيرةٌ ، أوردتها مصادرُ التَّاريخ ، توفيَ سُليمان في شهر صفرَ سنة (٩٩هـ)[3] ، وكان آخرُ ما تكلَّم به أن قال : أسألُكَ مُنْقَلَباً كَريماً[4] ـ رحمه الله ـ.

* وأخوها الثَّالث : يزيدُ بنُ عبد الملك بنِ مروانَ أبو خالد القرشيّ

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٨٣).
(٢) تاريخ الخلفاء (ص ٢٢٥).
(٣) تاريخ الطبري (٦/ ٥٣٩).
(٤) البداية والنهاية (٩/ ١٨١).

الأمويّ ، وُلدَ سنة (٧١هـ) ، ونشأَ في حجْرِ جدّه عبدِ الملك بنِ مروان؛ وأمُّه عاتكةُ[1] بنت يزيد بنِ معاوية .

* قال عنه ابنُ كثير: وقد اتّهمَهُ بعضُهم في الدِّين ، وليس بصحيحٍ ، إنّما ذلك ولدُه الوليدُ بنُ يزيد ، أمّا هذا فما كانَ بهِ بأْس[2] .

* توفيَ يزيدُ في شعبانَ سنة (١٠٥هـ) رحمه الله .

* أمّا أخوها الرّابعُ فهو هشَامُ بنُ عبد الملك أبو الوليد ، عاشرُ الخلفاءِ الأمويين ، وسابعُ المروانيين ، وُلدَ سنة (٧٢هـ) ، ولما جاءتْه الخلافةُ قامَ بأمْرِها أتمَّ قيام ، وكانَ في خلافَتِهِ حازمَ الرّأي ، وكان ذكيّاً مدّبِراً له بصَرٌ بالأمورِ جليلها وحقيرهَا .

* وهو أحدُ السُّوَّاسِ الثَّلاثةِ من بني أميّة؛ وهم: معاويةُ وعبدُ الملك وهشام؛ وبهشام خُتِمَت أبوابُ السِّياسةِ وحسنِ السِّيرة؛ ولهشام أخبارٌ كثيرة أوردتْها المصادرُ ، التي تروي أنَّه كان يهتمُّ بأمور الدِّين ، وله حكاياتٌ شهيرةٌ في ذلك .

* كانت وفاةُ هشام بن عبد الملك يوم الأربعاء ٦ ربيع الآخر سنة (١٢٥هـ) ، وكان نَقْش خاتمِه: الحكْمُ للحَكَمِ الحكيم[3] ـ رحمه الله ـ .

* وأمّا أخوها الشَّقيقُ ، فهو مَسْلَمَةُ بنُ عبد الملك بن مروانَ القرشيّ الأمويّ أبو سعيد؛ كانَ مسلمةُ رجُلاً منْ رجالِ بني أمية ، وله آثارٌ كثيرةٌ في نكاية العدو منَ الرُّوم وغيرهم .

* قال عنه ابنُ كثير: وقد فتحَ حصوناً كثيرةً في بلادِ الرُّومِ ، ولما ولي أرمينية غَزَا بلاد التُّركِ ، فبلغَ بابَ الأبوابِ فهدمَ المدينةَ التي عنده ، ثمَّ أعادَ بناءها بعد تسْع سنين؛ وفي سنة (٩٨ هـ) حاصَرَ القُسطنطينيّة ، وافتتح مدينةَ

---

(١) اقرأ سيرة عاتكة في هذه الموسوعة المباركة .
(٢) البداية والنهاية (٩/ ٢٣٢) .
(٣) البداية والنهاية (٩/ ٣٥٤) .

الصَّالقبة ، وكَسرَ مَلِكَهم البُرجَان ، ثمَّ عادَ إلى محاصرةِ القُسطنطينيّة .

* وكانتْ لمسلمة[1] مواقفُ مشهورةٌ ، ومساعٍ مشكورةٌ ، وغزواتٌ متتاليةٌ منثورةٌ؛ وقد افتتحَ حصوناً وقلاعاً ، وأحيا بعزمِه قُصوراً وبقاعاً ، وكان في زمانِه في الغَزَواتِ نظيرَ خالد بن الوليد في أيَّامه في كثرةِ مغازيه ، واتّساع فتوحه ، وقوّةِ عزيمته ، وشدّةِ بأْسِه ، وجودةِ تصرُّفهِ في نقضِهِ وإبرامِه ، هذا مع الكرَمِ والفَصَاحة ، وكان قد أوصى بثلُثِ مالِه لأَهْلِ الأَدَب وقال : إنها صنْعَة جُحِفَ أهلها .

* توفي مسلمةُ بنُ عبد الملك يومَ الأربعاء ٧ محرّم في سنة (١٢١)[2] ـ رحمه الله ـ .

* ومن محارمِ ضيفةِ حلقَتنا أيضاً : الوليدُ بنُ يزيد بن عبد الملك ، ويزيدُ ابنُ الوليد بن عبد الملك ، وأخبارهما مشهورةٌ في كتُب التّواريخ والأدب .

* وأمّا زوجُها؛ فهو العلاّمةُ المجتهدُ ، والزَّاهدُ العَابدُ ، ومنْ أولياءِ اللهِ المتّقين؛ كان أوحدَ أمّتِهِ في الفَضْلِ ، ونجيب عشيرتِه في العَدْل ، جَمَعَ زُهْداً وعفَافاً ، وورَعاً وكفَافاً ، وكانَ للرَّعيّةِ أمْناً وأمَاناً ، وعلى مَنْ خالَفَه حجّةً وبُرهاناً، وكان مفوّهاً عليماً ومفهماً حكيماً، إنّه أبو حفص عمرُ بنُ عبد العزيز ابنِ مروان الأمويّ القرشيّ؛ وأمّه أمُّ عاصم ليلى بنتُ عاصم بن عمر بن الخطاب .

* روى عن أبيهِ ، وأنسِ بنِ مالك ، وعبدِ اللهِ بنِ جعفر ، وسعيد بن المسيّب ، وعروة بنِ الزُّبير ، وغيرِهم .

* وروى عنه الزُّهري ، ومحمّدُ بنُ المنكدر ، ومسلمةُ بنُ عبد الملك وخلائقُ كثيرون .

* وأخبارُهُ مشهورةٌ منثورةٌ معروفةٌ كالنُّجوم في صفحةِ السَّماء ، وقَصَصُهُ

---

(١) اقرأ سيرته بتوسع في موسوعتنا الكبرى «فرسان من التاريخ» .
(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣١٨) بتصرف .

يحفظُها الأدباءُ والكُبراء ، وكانَ أستاذاً للعُلماء ـ رحمه الله ـ .

* أمّا النِّساءُ الشَّهيراتُ حولها في بيتِ الخلافةِ فكثيراتٌ كثيرات؛ منهنّ عمّتُها فاطمةُ بنتُ مروانَ ، ومنهنّ عاتكةُ بنتُ يزيد زوجة أبيها ، ومنهنّ حماتها أمُّ عاصم بنتُ عاصم بن عمر بن الخطّاب ، زوجةُ عمّها عبد العزيز ، وأمّ زوجها عمر ، وأُخريات كثيرات .

* هذا جانبٌ منْ حياةِ هذهِ المرأةِ في قُصُور الخلفاء والأمراء ، فهي ابنةُ خليفة ، وحفيدةُ خليفة ، وأختُ الخُلفاء ، وزوجُ خليفة .

* آنَ لنا بعد هذه التّوطئةِ الطَّويلة أنْ نقرأَ بطاقةَ هذه المرأةِ العظيمةِ المحفوفةِ بالملْكِ من كلِّ جانب ، إنّها فاطمةُ بنتُ عبد الملك بنِ مروانَ الأمويّة القرشيّة الدّمشقيّة[1] .

* كانت فاطمةُ من فواضلِ نساء عَصْرِها ومصْرِها ، ومن صفَةِ صفوةِ بناتِ عبد الملك ، وكانت فصيحةَ زمانِها ، وأديبةَ عَصْرها وأوانِها ، وكانت ذات جمالٍ رائقٍ ، وحُسْنٍ فائق ، ودِيْنٍ ووَرعٍ لم يسبقْ إليه أحَدٌ من نساءِ بني أميّة الشّهيرات[2] .

---

(١) تاريخُ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص ٢٩٠ ـ ٢٩٦) ، والدُّرُّ المنثورُ (ص ٣٦٦) ، والكاملُ في التّاريخ (٥/ ١١٧ و١٢٨ و١٣٥ و١٣٦ و١٤٢) ، والأغاني (١/ ١٩٦ ـ ٢٠٢) و(٣/ ٣٥٤ و٣٦١) و(٦/ ١٣٩) و(٩/ ٣٠٦) ، ونهايةُ الأرب (٢١/ ٣٥٧ و٣٦٦ و٣٦٨) ، والعقدُ الفريد (٤/ ١٥١) و(٦/ ١٠٠) ، والمحبّر (ص ٥٩) ، وطبقاتُ ابن سعد (٥/ ٣٣٠ و٣٦٧ و٣٩٣ و٣٩٧ و٤٠٢ و٤٠٤ و٤٠٥) ، والروضةُ الفيحاء في تواريخ النّساء (ص ٢٥٦ و٢٥٧) ، وأعلامُ النّساء (٤/ ٧٥ و٧٦) ، وجمهرةُ أنساب العرب (ص ٨٨) ، وعيونُ الأخبار لابن قتيبة (١/ ٣٠٤) ، ونسبُ قريش (ص ١٦٥) ، والمعرفةُ والتّاريخ (١/ ٥٦٩ و٥٩٩) ، وحليةُ الأولياء (٥/ ٢٨٣) ، وديوان عمر بن أبي ربيعة في مواضع متعددة ، والرقة والبكاء لابن قدامة المقدسي (ص ٢٩٥ و٢٩٧ و٢٩٨ و٣٠٢ و٣٠٤ و٣٠٧) ، وغيرها كثير جداً.

(٢) الدُّرُّ المنثورُ (ص ٣٦٦) ، ومنَ الجديرِ بالذّكر أنَّ أمَّ فاطمةَ هي: أمُّ المغيرة بنتُ

* وسوف نعيشُ مع فاطمةَ بنتِ عبد الملك أويقات تنضحُ بالعبيرِ ، وستظلّ تتألّقُ في أعماقنا وفي نفوسِنا ووجداننا كُلّما قرأْنَا أخبارَها وسيرتها ، وستظلُّ واحدةً من أعلياء النِّساءِ في قُصورِ الأُمراء ، وستحكي لنا كثيراً منَ الأخبارِ العمريّةِ الجميلةِ التي سجَّلَتْها لزوجها عمر بنِ عبد العزيز في ديوان العظماءِ وسماءِ المكارم؛ كما رسمتْ لنفسها جوانب العظمةِ النّسوية التي عبّرتْ من خلالها عن نَفْسها الكبيرةِ ، وهمّتها العاليةِ التي أتعبتْ جسمها:

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً　　تعِبتْ في مُرادِها الأَجْسَامُ

* وفي الصَّفحاتِ التَّالياتِ سنعيشُ فصولاً كريمة طيِّبةً مع سيرةِ فاطمةَ بنتِ عبد الملك لتكون قدوةً لنسائِنا في كلِّ مكانٍ وزَمان.

اللهُمَّ احْفَظْنِي فِيْهَا:

* كانَ لعبد الملك بنِ مروانَ بضعُ بنات منهنَّ: عائشةُ ، وأمُّ كلثوم ، وفاطمةُ ، وكانت فاطمةُ من أحبِّهنَّ إليه ، حيثُ أخذتْ مساحةً كبيرةً من قلبهِ ، وكانَ ينظرُ إليها بعينِ البصيرةِ ، ويتوقّعُ لها مَجْداً مؤثّلاً ، ومكانةً مرموقةً بينَ نساءِ بني أميّة ، فكان يفيضُ عليها من عطْفِهِ وحنانِهِ شيئاً كثيراً ، ويغدقُ عليها منَ العَطايا والجواهرِ المثمنةِ النَّادِرَةِ ، لأنَّه يعتبرها نادرةً بين بناتِ الخُلفاء وبينَ نساء قُصور الأمراء.

* وبلغَ منْ حُبِّ عبد الملك لفاطمةَ أنْ أوصى بها أحبَّ أبنائِهِ إليه الوليد ابن عبد الملك ، فقد كان يحرصُ على رعايتها ، ورعايةِ أخواتها الأُخْريات ، ولكنّه يخصُّها بعطفِهِ وحُبِّه وودّه ، ويقرّبها منه[1] ، فكان يقولُ للوليد: يا

= المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرةَ. (تاريخ مدينة دمشق تراجم النّساء ص ٢٩١) والكامل (٤/ ٥١٩).

(١) كانتْ فاطمةُ شديدةَ التعلُّقِ بوالدها عبد الملك ، ولما حضرتْه الوفاةُ قال لها: يا بنيةُ ، اسقني ماءً. فمنعها أخوها الوليد.
فقالَ له عبدُ الملك: يا وليد ، لتدعنّها تحضرُ الماء ، أو لأخلعنَّكَ منْ ولايةِ العَهْد.
فتركَها الوليدُ ، فسقَتْه فماتَ. =

بُني ، عليك بالإحسانِ إلى أخواتِك فأكرمهنّ ، وأحبهنَّ إليَّ فاطمة .

* ثمَّ إنَّ عبدَ الملك توجَّهَ إلى السَّماء وهو رافعٌ يديهِ يناجي ربّه داعياً ومبتهِلاً : اللهمّ احفظني فيها .

* ولعلَّ دعوةَ عبد الملك قد لقيتِ القبولَ عند المليك المقتدرِ ، وحُفِظَ عبدُ الملك فيها من خلالِ زواجها من ابن أخيه عمر بنِ عبد العزيز الذي تسنّم ذِرْوة الشّهرة في عَصْرِ المشاهيرِ ، وكانت فاطمةُ زوجته منَ الشَّهيرات في دنيا الأَميرات الفَاضلاتِ العاقلاتِ .

* ولكنْ كيفَ تزوَّجَ عمرُ بنُ عبد العزيز فاطمةَ بنت عبد الملك؟! وكيف عاشَ هذان العَلَمان في دُنيا المشَاهير ، وسجَّلا أعْطَر الأَخْبارِ في ديوانِ الأَخْبار ، فكانت سيرتهما من عيونِ الأَخْبار ، تُروى للأخيارِ ، ويقتدي بها الأطْهار .

قَـدْ زَوَّجَـكَ عَبْـدُ الـمَلِـكِ ابـنَتَـه فـاطَـمَـة :

* بهذِهِ العبارةِ اللطيفةِ الرَّقيقة : «قد زوَّجكَ عبدُ الملك ابنته فاطمة» خاطبَ عبدُ الملك بنُ مروانَ ابنَ أخيه عمرَ بنَ عبد العزيز بنِ مروان ، فكيفَ توصَّلَ عبدُ الملك إلى ذلك؟!

* كانَ عبدُ الملك عميقَ النَّظْرةِ ، ذكيَ الخاطِرِ والخاطِرَةِ ، يعرفُ مقاماتِ الرّجال؛ وكيفَ لا وَقدْ خَبِرَ الأيّام وخبرتْه الخلافةُ والرِّجالُ والبلادُ والعبادُ؟!

* فَعُمرُ ابنُ أخيهِ أميرٌ شابٌّ يحملُ بينَ جنْبَيْه روحاً عمريّة فاروقيّة ، فأمُّه هيَ أمُّ عاصم بنِ عمر بن الخطّاب ، وما أدراك ما أمُّ عاصم[1] هذه وأمُّها!

= ودخلَ عليه الوليدُ وابنتُه فاطمة عند رأسِهِ تبكي ، فقال : كيفَ أميرُ المؤمنين؟ قالت : هو أَصْلَحُ ، فلمّا خرجَ قال عبدُ الملك :

ومُستخبِرٌ عنّا يُريدُ لنَا الرَّدى ... ومُستخبراتٌ والدُّموعُ سواجِمُ

(الكامل ٥/ ٥١٧) بتصرف .

(١) اقرأ سيرة أمّ عاصم بنت عاصم في كتابنا «نساء من عَصْرِ التَّابعين ص ٢٠٩ ـ ٢١٧» طبعة دار ابن كثير الثالثة .

* نشأَ عمرُ بنُ عبد العزيز في المدينةِ المنوّرة ، ووُلِدَ بها ، وكانتْ علاماتُ النَّجابةِ تلوحُ عليه ، وتشهدُ له ، وأتاحَ له المناخُ العلميُّ المباركُ في المدينة المنوّرة ، أنْ يسلُكَ سُبُلَ العلْمِ ، وهو في ميعةِ الصّبا وزَهْرِ الشَّباب ، فغدا أحدَ عُلماءِ الاجتهاد المرموقين ، وفيه قال ميمونُ بنُ مهران : كان معلِّمَ العُلماء .

* ولكنَّ هذا الفتى العالِمَ المُعلِّمَ ، الذي غَدا في يومٍ من الأيّامِ أميراً للمؤمنين ، كان من قَبْلُ أميراً من أمراءِ البيتِ الأمويّ العريق ، وعلى الرغمِ من صلاحِهِ وفضْلِهِ إلاّ أنَّه كان يحبُّ أنْ يَرى أثرَ نِعَم اللهِ عليه ، فكان يعيشُ في خفْضٍ منَ العيشِ ، ودَعَةٍ منَ النَّعيم واليُسْرِ .

* وكان عُمَرُ منْ أكْثرِ أمراءِ بني أميّة ، بل من أكثرِ النَّاس اهتماماً بنفسهِ ، وبتَرفهِ وأناقَتِهِ ، فقد غُذِّي بالأمارةِ والملكِ منذُ نعومَةِ أظْفَاره ، وحُبِّبَ إليه الطِّيْبُ ، فكانَ لا يُعْرَفُ إلاّ وهو تَعْصِفُ ريحُه بالعِطْر ، وتُوجَدُ رائحتهُ في المكانِ الذي يمرُّ فيه ، وكان شديدَ الغرام بالطِّيْبِ ، وكان من أعظَم النّاسِ وألبسِ النَّاس ، وأجملِهم مشْيَةً ، حتى كانت له مشيةٌ خاصّةٌ به تسمّى المشية العمرية ، وكانتِ الجواري والإماء يتعلّمنَها ويحاكينها من حسْنِها وتبختُرِه فيها .

* نعم لقد كان هذا الفتى الجميل منْ أكثرِ النَّاس اهتماماً بثيابِه ومَلْبَسهِ ، فكان يشتري الحلَّة بألفِ دينار ، فإذا لبسَها استخشَنَها ولم يستحسنْها[1] ، وكان يشتري القميصَ بأربعمئةِ دينار ، فإذا لَمَسَه بيدهِ قال : ما أخشنه وأغلظه !

* ويهتمُّ بعِطْره وعطْرِ ثيابِه حتى كان منْ أَعْطَرِ قريش كما قال أحبابُه ومخالطُوه ، ولقد بلغَ من حُبِّ أتْرابه لعطْرِه أنّهم كانوا يدفعونَ المالَ الوفيرَ لمن يتولّى غَسْلَ ثياب عمر حتى يغسلُوا ثيابَهم بعد ثيابِه كي تكتسبَ عِطْراً منْ ملابسهِ .

---

(١) انظر : مروج الذهب (٢/ ١٤٥ و١٤٦) .

* ولقد أثَّرتْ مظاهرُ النِّعمةِ بهذا الفتى الأموي الصَّالح النَّبيل ، فمن مظاهرِها الجميلةِ تلك السُّمْنةِ اللطيفةِ التي كانت تجعلُ حزامَ إزارِه يغوصُ بين تلافيفِ جسمِهِ ، وإذا ما مشى بَهَرَ الأعيُنَ ، وخَطَرَ بيديه في خُيَلاء ، تميَّزَ بها عن كثيرٍ من الأَقْرانِ والأتْراب[1] .

* وكان يمتلكُ عبيداً وثياباً وعطْراً ، وكانت لديه جوارٍ ومتاع كثير ، ويزينُ ذلك هدوءٌ وذكاءٌ ونقاءٌ وعلْمٌ وفقْهٌ ، ممّا جَعَل عمّه عبد الملك بن مروان يُوليه جُلَّ اهتمامِهِ ، ويعدُّه لأَمْرٍ عظيمٍ .

* وكانَ عبدُ الملك قَدْ ضمَّ إليه ابن أخيه عمر ، ذلك الشَّاب الألمعي الأديب العاقل الفَطِن الفَهِم على الرّغمِ من أنه ما يزالُ في عُمْر الورْدِ ، وريعانِ الشَّباب ، ومن شدَّةِ حُبِّه له خَلَطه بولدِه كأنَّه واحدٌ منهم ، بل قدَّمه على كثيرٍ منهم[2] .

* وكانَ السَّببُ الرئيسُ لاهتمامِ عبد الملك بعمر ، سعَةَ علْم عمر ، ونباهتِه ، وحصافَتِه ، وثقافتِه ، ودينِه ، يُضافُ إلى هذا الرّصيد أنَّ النَّاسَ كانوا يتوقّعون في عمر بأنّه أشجّ بني أميّة الذي يملأُ الأرض عدلاً .

* ولما كان عمرُ بنُ عبد العزيز في هذهِ الصِّفاتِ النَّادرةِ ، والفضائلِ المشتهرةِ ، أصبحَ عبدُ الملك يفكِّرُ في أمرٍ يجمعُ فيه بين حُبِّه لابنتِهِ فاطمةَ وتقديره لابنِ أخيه عمر ، على الرّغم منْ أنَّ بعضَ لِدّات عمر كانوا يحسدونه لفَضْلِه وعلْمِه ، ولكنَّ الله يعزُّ منْ يشاءُ .

* وفي يومٍ منْ أيّامِ الخلافةِ الأمويّةِ الزَّاهرةِ ، كانَ مجلسُ عبدِ الملك بنِ مروانَ في دمشقَ حافِلاً بساداتِ الأرضِ يومذاك ، وطابتْ نفسُ عبدِ الملك

---

(١) انظر : كتاب الخَراج لأبي يوسُف (ص ١٧) بتصرف ؛ ولما تولّى عمرُ بنُ عبد العزيز الخلافةَ غيّرَ مشْيَته ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين ، غيَّرتَ كلَّ شيءٍ حتى مشيتك .
فقال : والله ما رأيتها كانتْ إلا جُنوناً . (الخراج ص ١٧) طبعة القاهرة ١٣٥٢هـ .
(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٧) بتصرف .

بابنِ أخيه عُمر ، فتوجَّه إليه وقال: يا عمر ، قد زوَّجك أميرُ المؤمنين فاطمةَ بنتَ عبد الملك .

فقال عمرُ في أدبٍ وحَياءٍ وبلاغةِ خطاب رفعَتْه مكاناً عليّاً في عينِ عمِّهِ ، وزادَتْه رِفْعَةً من نَفْسهِ: وَصَلَكَ اللهُ يا أميرَ المؤمنين ، فقد كَفَيْتَ المسألةَ ، وأجْزَلتَ العطيّةَ .

* وأعْجَبَ عبدَ الملك هذا الرَّدُّ ، وطربَ له طَرباً شديداً ، وبدا السُّرورُ على وجْهِهِ ، ممّا جعلَ بعضَ ولدِه عبد الملك يحسُدُه ويقول: يا أميرَ المؤمنين هذا كلامٌ تعلَّمَهُ فأدَّاه ، ولا يحسنُ غيرَه ، وربَّ رميةٍ من غيرِ رامٍ .

* وسكتَ عبدُ الملك ولم يردَّ على ولده ، وانفضَّ المجلسُ ، وفي اليومِ التَّالي دخلَ عمرُ على عبدِ الملك وحيَّاهُ بأدَبٍ ، فأحبَّ عبدُ الملك أن يُرِيَ ولَده مكانَةَ عمر وعلْمَه وفطنتَه ، فقالَ: يا عمر ، كيفَ نَفَقَتُك؟

قالَ: يا أميرَ المؤمنين ، بينَ السَّيئتَيْن .

فقال عبدُ الملك: وما هُما يا عمر؟

فقال عمرُ بلسانِ العارفينَ المتفقّهين: نَفَقَتي يا أميرَ المؤمنين كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفُرقان: ٦٧] .

* فازدادَ عبدُ الملك إعجاباً بهذهِ الإجابةِ الكافيةِ الشَّافيةِ ، وقال لولدِه: مَنْ علَّمه هذا[1]؟

* وتزوَّج عمرُ فاطمةَ ، وكانتْ منْ أجْمَلِ النِّساءِ وأَحْسنِهِنَّ ، وأكملهنَّ

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٩١) بتصرف ، وانظر: العقد الفريد (٦/ ١٠٠). وكما يرى القارىءُ الكريمُ بأنَّ إجابةَ عمر نابعةٌ من عِلْمهِ ومعرفتِه بالقُرآن والفِقْه ، كما تَدلُّ على الحكمةِ التي يختصُّ بها اللهُ مَنْ يشاءُ ويهبها لمن يشاءُ ، أليسَ اللهُ قد قال: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

أدباً ورقَّـةً ، وكان يوم زفافِها منَ الأيّامِ المشهورةِ المشهودِة في دمشقَ الشّام في تاريخِ أعراسِ النِّساء ، حيثُ بذلَ الغالي والنَّفيس في ذلك العُرسِ سنة (٨٥ هـ).

* ويروي ابنُ عسَاكر بسندِه عن عُمارةَ بنِ غزيّة وكان قد شَهِدَ عرس فاطمةَ وعمر فقال: حضرتُ عُرسَ عمرَ بنَ عبدِ العزيز بفاطمةَ بنتِ عبد الملك ، فكانوا يُسرِجُون القناديل بالغاليةِ مكان الزَّيتِ[1].

* ويوردُ ابنُ قتيبةَ من قبل ابن عساكر هذا الخبر بسندِه أيضاً عن عمارةَ بنِ غزيّة قال: لما أَوْلَمَ عمرُ بنُ عبد العزيز بفاطمةَ بنتِ عبد الملك أسرجَ في مسارجِهِ تلك الليلةِ الغالية[2].

* وذكرَ الرُّواةُ كثيراً منَ الأخْبَارِ في قصَّةِ زَوَاج فاطمةَ بعمر ، ومنها ما أوردهُ الحافظُ أبو القاسم بنُ عساكر ، بأنَّ ابنَ عائشة قال: سمعتُ أبي يقول: حدَّثني مَنْ رأى على قُبَّةِ فاطمةَ بنتِ عبد الملك بن مروان امرأةَ عمر بن عبد العزيز مكتوباً:

بِنْـتُ الخليفَـةِ والخليفَـةُ جـدُّهـا   أخْتُ الخَلائِفِ والخليفةُ بَعْلُها[3]

---

(١) تاريخ دمشق (تراجم النساء ص ١٩١ و٩٦٢).

(٢) عيون الأخبار (١/ ٣٠٤) و«الغالية»: أخلاط من الطيب.
ومنَ الجديرِ بالذّكر أنّ كثيراً منَ النّساء كُنَّ يحببْنَ العِطْر والطِّيب ، فقد اهتمّتْ بعضُ النّساء قديماً بالعِطْر والطِّيب ، فمن شأْنِ العِطْر أنَّه يزيدُ المرأةَ جمالاً ؛ والرِّجالُ يستطيبونَ رائحةَ الطِّيب في المرأة ، لأنَّ هذا دليل النَّظافة والتّجمُّل والثَّراء ، وضربٌ منَ الجاذبية ، وله أثرٌ عظيمٌ في العاطفةِ ، والعربُ تحبُّ في المرأةِ الجميلةِ أنْ تكونَ رائحتها جميلةً أيضاً ، ذكر الجاحظُ أنَّ أعرابيّاً وصفَ امرأةً فقال: لها جلْدٌ مع لؤلؤِ رطْبٍ من رائحةِ المسكِ الأذْفَر. ولهذا لم تتركِ المرأةُ طيباً إلا استعملته ، والنّساء عندهنّ خليط منَ الطِّيبِ يتضمخْنَ به فيكسبُ وجوههنَّ حمرةً وإشراقاً ، ولا يكونُ ذلك إلا في ذواتِ العزِّ والثّراء. وكانتِ المرأةُ المسلمةُ الحرةُ الشّريفة تتزيّنُ وتتعطّرُ لزوجِها لتسعِدَه وتبعدَه عن الحرامِ.

(٣) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٩٢) ، وسير أعلام النبلاء =

* وفي بيتِ الزَّوجيّة العمريّة الوارفِ المُنْعَم بألوانِ النَّعيم ، عاشتْ فاطمةُ بنتُ عبد الملك ترتشفُ حلْوَ الحياةِ ، وتتذوّقُ طَعْمَ الحنَان مِنْ زوجِها الكريم

= (١١٧/٥)، والأخبار الموفقيات (ص ٢٠٩) وعلَّق الزبيرُ على هذا البيتِ فقال: ولم تكنِ امرأةٌ تستحقُّ هذا البيت إلى يومنا هذا غيرُها. (الأخبار الموفقيات ص ٢٠٩).
ولكنّنا نشكُّ أَصْلاً في هذا البيتِ، وفي قائلِه أيضاً، بل وفي كتابةِ البيت على قُبَّةِ فاطمة، لأنَّ فاطمةَ لما تزوَّجَتْ لم يكنْ زوجُها عمر خليفة للمسلمين، وإنّما اعتلى الخلافةَ سنة (٩٩هـ)، وكان زواجُها قَبْل سنة (٨٥هـ)، فكيف يكونُ زوجُها خليفة؟ أو حتى إخوتها خلفاء؟
ثم إنَّ هذا البيت مع بيتٍ آخر قد نُسِجَ في قصّةٍ واضحة الكذب والافتراءِ من حيثُ مخالفة التَّاريخ والحقائق والوقائع والواقع، وسأوردُ القصّة كما جاءَتْ عند الأصبهاني في أغانيه، حيث ذكر أنَّ وضّاح اليمن قد شبَّبَ بزوجةِ الوليد أمّ البنين بنت عبد العزيز بنِ مروان، وأختِه فاطمةَ بنتِ عبد الملك فدفَنَه حيّاً.
قال الأصبهاني: بلغَ الوليدُ بنُ عبد الملك تشبُّبَ وضّاح بأمِّ البنين فهَمَّ بقتْلِهِ، فسأله عبدُ العزيز ابنه فيه، وقالَ له: إنْ قَتَلْتَه فَضَحْتَني وحقَّقت قولَه، وتوهَّم النَّاس أنَّ بينَه وبينَ أمّي ريبةً. فأمْسَكَ عنْه على غيظٍ وحَنقٍ، حتى بلغَ الوليدُ أنَّه قد تعدَّى أمّ البنين إلى أختِه فاطمةَ بنتِ عبد الملك، وكانت زوجةَ عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وقال فيها:

بنـــتُ الخليفـــةِ والخليفـــةُ جـــدُّهـــا	أخـــتُ الخليفـــةِ والخليفـــةُ بَعْلهـــا
فـرحـتْ قـوابلُهَـا بهـا وتبـاشَـرتِ	وكـذاك كـانـوا فـي المسـرَّةِ أهلُهـا

فأحنقَ واشتدَّ غيظُه وقال: أما لهذا الكلبِ مزدجرٌ عن ذكْرِ نسائِنا وأخواتِنا، ولا لَهُ عنَّا مذهبٌ؟ ثم دعَا بِهِ فأحضَرهُ، وأمرَ ببئرٍ فحفِرَتْ، ودفَنَه فيها حيًّا.
(الأغاني ٦/ ٢٣٩ و٢٤٠).
هذه هي القصَّة حرفياً كما أوردهَا الأصبهانيُّ في أغانيهِ، وهي ظاهرةُ الافتراءِ والوضْع، ويعتريها الوهنُ من وجوهٍ منها: أنَّ وضّاح اليمن ـ إنْ سلّمنا بوجودِهِ ـ عندما أَنَشدَ هذين البيتَيْن لم يكن عمرُ بنُ عبد العزيز خليفةً، ومنها أنَّ الوليدَ بنَ عبد الملك قد توفي سنة (٩٦هـ)، وتولّىٰ أخوهُ سُليمان الخلافةَ إلى سنة (٩٩هـ) ثمّ تولّى عمر الخلافة، ولما تولاّها أضحى من أئمةِ الزَّاهدين وأسيادِ العارفين، فهل يرضى أنْ يُكتب على قبّة زوجته ذلك الكلامُ؟! ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ أعراضَ الوضعِ والصَّنعة تبدو على البيتين، والله أعلم بالصَّواب.

الخِصَالِ ، النَّدي الفِعَال ، ولعلَّها كانتْ معه في المدينةِ المنوّرة حينما كانَ أميراً عليها ، حيثُ تابَعَتْ حياةَ الدَّعةِ وخَفْض العَيْشِ ، ترفُلُ في الدَّمَقْسِ وفي الحريرِ ، وتتحلَّى بغالي الجوهرِ الثَّمين والعقودِ الفَاخِرةِ والحُلى النَّادرة[1] ، وذُلّلتْ لها قطوفُ السَّعادةِ تذليلاً ، وخُصُوصاً عندما وَلَدتْ لعمر بن عبد العزيز ابنه إسحاق ، ومن وراءِ إسحاق يعقوب[2] ، فكانَا من خيرِ النَّاس .

---

(١) دعْني أحدثكَ قليلاً عن زينةِ المرأة في السَّابق كيما تتوضح المعالم أكثر ، فالحليُ والزينةُ هما أسُّ حياةِ المرأةِ ، وروحُ حياتِها وحياةُ روحها ، وأملُ مناها ومنى أملها في كلّ عَصْر ومصْر وزمانٍ ومكانٍ ، فالمرأةُ هي المرأةُ ، عواطفُها مشتركةٌ ، وأحاسيسُها متقاربةٌ ، وعشقها للزينة والحلي من طبيعتِها وأنوثتِها؛ ذلك أنَّ حليَ المرأةِ وجواهرَها ودُررَها منْ أخصّ خصائِصها في سائرِ العصور ، وفي سائر الشّعوب ، فهي تضيفُ به إلى جمالِها جمالاً ، وتتزَينُ به وتفاخرُ وتكاثر ، وربما تخلبُ بعضَ ألبابِ الرِّجال ، وقلّما تبدو المرأةُ عاطِلاً منْ حلي ، فالمرأةُ أينما كانتِ لا يكفي أنْ تكونَ جميلةً فاتنةً ، ولكنها تحبُّ أنْ تزيد في جمالها لتبدو أجمل وأمْلَح ، ولترضي غرورها وغرائِزَها .

* إنَّ استخدام المرأة لأنواع الحلي والعقود والجوهر الثَّمين يدلُ على حُبّها لذلك وعلى حضريتها ، إذ إنَّ النسوة الحضريات يجلبن ذلك ، أمّا غيرهنّ فتكتفينَ بجمالهنّ الطبيعي ، وقديماً تنبه أبو الطيب المتنبي لهذا ، وعرف نفسية المرأة المتحضرة المتمدنة ، والمرأة البدوية فقال :

حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ ... وفي البداوة حُسْنٌ غير مجلوب

وإذا كانت المرأة تتزيَّنُ وتستخدمُ ألواناً مختافةً من الحلي ، فليس معنى هذا أنها غيرُ جميلة ، ولكنَّها تفعلُ ذلك من أجْلِ أنْ تُظْهِرَ جمالِها بثوبٍ حَضَري جديدٍ ، فهي عندما تتزينُ تضيفُ إلى جمالِها ألواناً حضاريةً تضاهي بها شعاعَ الشّمس ، كقولِ عمر بن أبي ربيعة :

إذا احتَفَلتْ عثيمةُ قلْتُ شَمْسٌ ... وإنْ عطلتْ عُثيمة قلتُ ريمُ

ولم تكن الزينةُ متوقّفةً على استخدامِ الحليِ والجواهرِ ، وإنّما كانتْ هناكَ مظاهرُ أخرى للزينةِ تصطنعُها المرأةُ ، ومنها الخِضَابُ ، فقد كانتْ يَدُ وأناملُ المرأةِ ملونة بالخضابِ لتزدادَ جمالاً وجاذبيةً . وفي أدبنا العربي القديم صورٌ كثيرةٌ تُظهرُ ألوان وأنواعَ الزينةِ عند المرأةِ ومنها الخضابُ الذي تفنّنوا في إبرازِ جمالِه على يَد المرأةِ .

(٢) انظر : نَسب قريش (ص ١٦٥) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٩٢) .

فـاطِـمَـةُ والـعِـلْــمُ:

* كانتْ فاطمةُ بنتُ عبد الملك ـ رحمها الله ـ من ذواتِ الشُّهْرَةِ في عَصْرِها، فقد خصَّها اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بمنحة الفَضْلِ والجمالِ والفصاحَةِ والأدبِ، كما خصَّها اللهُ بالحصافَةِ والذّكاء وحبّ العِلْم والرّوايةِ.

* وتبرزُ فاطمةُ بنتُ عبد الملك من بينِ نساءِ بني أميّة لتسجِّلَ فَضْلاً في ميدانِ العِلْمِ؛ مع العِلْم أنَّها منَ النّسوةِ القرشيّات الأمويّات اللواتي كُنَّ قريبات جدّاً منَ الحياة السِّياسيّة والاجتماعيّة في عَصْرهنّ، ولكنَّ ذلك كلّه لم يلْهِهَا عن التماسِ المعرفةِ، وحبِّ العلْمِ وهي في ميعةِ الصِّبا، ومطْلَعِ الشَّبابِ ونعومةِ الأظْفار.

* فقد كان زوجُها عمرُ بنُ عبد العزيز ممن روى الحديث عن ثلّةٍ منَ الصَّحابةِ والتَّابعين، وحكَتْ هي عن زوجِها وروت عنه ما رواه عنِ الصَّحابة الكرام من مثل: عبدِ اللهِ بنِ جعفر والسَّائبِ بن زيد، وسَهْلِ بنِ سَعْد ـ رضوان الله عليهم ـ.

* وروى عـن فـاطمـةَ بنتِ عبـد الملك عَـدَدٌ منَ جلّـةِ علمـاء التّـابعيـن وأعليائِهـم، من مثـل: المغيـرة بن حكيم الصَّنْـعَانـي[1]، وعطـاء بـن

---

(١) المغيرةُ بنُ حكيم الصَّنْعاني الأبناوي، روى عن رجالٍ منَ الصَّحابةِ والتَّابعين، وروى عن أبيهِ، وابنِ عمر، وأبي هُريرة، وعمرَ بنِ عبد العزيز، وطاووس. وروى عن النِّساء مثل: صفيَّة بنتِ شيبةَ العبدريّة ـ رضي الله عنهما ـ؛ ومنَ التَّابعيات: أمّ كلثوم بنت أبي بكر الصّديق، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان.
وروى عنه مجاهدٌ، ونافعٌ مولى ابن عمر، وعمرو بن شُعيب وآخرون. قال ابنُ معين، والنّسائي، والعجليّ: ثقةٌ، وقال الآجريُّ عن أبي داود: المغيرةُ بنُ حكيم أحدُ الآخذين.
وذكرهُ ابنُ حبّان في الثّقات. وله في صحيح مُسلم حديثُه عن أمّ كلثوم عنْ عائشةَ؛ اعتمَّ النَّبيُّ ﷺ بالعشَاء... الحديث. قال ابنُ حجر: ولهُ في البخاري موضع واحدٌ معلَّقٌ. (تهذيب التّهذيب ٨/ ٢٩٨) ترجمة رقم (٧١١٠).

أبي رباح[1] ، وأبو عُبيدة بن عقبة بن نافع الفِهْري ، ومزاحم مولى عمر ، وزُفَر مولى مسلمة بن عبد الملك[2] .

* ويذكُرُها أبو زرعةَ في ديوانِ العَالِماتِ المُحدّثات اللواتي أشرقْنَ بنور العِلْمِ والفَهْم بالشَّام ، فيقولُ في طبقاتِهِ فيمن حدَّثَ بالشَّام منَ النِّساءِ : فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبد العزيز[3] .

* إذاً لَقَدْ حلَّقَتْ فاطمةُ بنتُ عبدِ الملك في سماءِ العِلْمِ والمعرفةِ ، وهي واحدةٌ مِنْ عالماتِ نساءِ قُصُور الأُمراء ، ومن بناتِ الخُلفاء ونساءِ الخلفاء ، ومنْ شريفاتِ النِّساء وأعليائِهِنَّ أدباً وحَسَباً ونَسَباً وفَضْلاً .

* وسنعيشُ فيما يلي أُويقات حُلْوة مع فرائد منْ أخبارِ هذه المرأةِ المطْوَاع لربِّها وزوجها ، المكثارِ منْ عَمل الخيراتِ ، المخلصةِ لدينها ، الرَّاضيةِ

---

(١) عطاءُ بنُ أبي رَبَاح أبو محمّد التَّابعي من مولَّدي الجَنَد ، وأمّه سوداء تُسَمَّى بركةَ ، وكان صبياً نَشَأَ بمكةَ وتعلّم الكتاب بها ، قال ابنُ قتيبة عنه : كان أسودَ ، أعورَ ، أفطسَ ، أشلَّ ، أعرجَ ، ثم عمي بعد ذلك وماتَ ، وله ثمانٌ وثمانون سنة .
وقال الذّهبيُّ : كانَ من مولدي الجَنَد ، أسودَ مُفَلْفَلَ الشَّعْر ، سمعَ عائشةَ ، وأبا هريرة ، والعبادلةَ الأربعة ، وجماعات آخرين من الصَّحابة ، وأدرك مئتين منَ الصَّحابة ، وروى عنه جماعات منَ التَّابعين كالزّهري وقتادَة والأعمش والأوزاعي وخلقٌ كثير . وهو منْ مُفتي أهلِ مكةَ وأئمتهم المشهورين ، واتّفقُوا على توثيقهِ وجلالتِه وإمامتهِ ، وهو منْ أعلم النَّاس بمناسكِ الحجّ ، وفاقَ أهلَ مكةَ في الفتوى ، وكان أحسنَ النَّاس صلاةً . قال الأوزاعي : ماتَ عطاء يوم ماتَ وهو أرضى أهل الأرض عند النَّاس . وذكره ابنُ حبّان في الثّقات وقال : مولدُه بالجند سنة (٢٧هـ) ، وكانْ من ساداتِ التَّابعين فِقهاً وعلماً وورَعاً وفَضْلاً ، توفي سنة (١١٤هـ) ـ رحمه الله ـ أخبارُه ومناقبه كثيرةٌ . (تهذيب الأسماء واللغات ١/٣٠٦ و٣٠٧) ترجمة رقم (٤٠٩) ، وتهذيب التهذيب ٥/٥٦٧ ـ ٥٧٠) ترجمة رقم (٤٧٢٧) ، والمعارف (ص ٤٤٤) ، وشذرات الذهب (٢/٦٩ ـ ٧١) مع الجمع والتصرف .

(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٩٠) .

(٣) عن تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٩١) .

بقضاءِ اللهِ وقدره ، والتي سجَّلَتْ في ديوانِ العظائمِ أجْمَلَ الآثارِ ، وأوضأَ الصَّفحات ، وهاكم الفريدة الأولى من عقْدِ أخبارها النَّفيس الفريد.

بَلْ أَخْتَارُكَ عَلى أَضْعَافِهِ:

* ممّا لا شكَّ فيه أنَّ السَّيِّدةَ فاطمة بنة عبد الملك بن مروان ، قد عرفتْ نعيمَ الحياةِ ، وذاقتْ حلْوها وتنعَّمتْ بحللها منذ أنْ فتحتْ عينيها على الدُّنيا ، وغرقتْ في حَلي الجواهرِ والدُّرر جلَّ حياتها ، ولكنَّها تخلَّتْ عمّا تحلَّتْ به من زُخْرفِ الدُّنيا وزينتها في ساعةٍ واحدة ، أتصدّقُون أنَّ امرأةً منعّمةً طيلةَ حياتِها تتركُ أغْلى ما عندها منْ جوهرٍ ودررٍ في موقفٍ حاسم؟! إنَّ هذا الأَمْرَ عجيبٌ منَ المرأةِ؛ ولكنَّ الإيمانَ إذا وقرَ في الصَّدْرِ ، وصدَّقَهُ العَملُ ، أزالَ عنه صورَ الأملِ ، وأزاحَ عنه كلَّ العلل.

* ترى متى كانت فاطمةُ منَ السَّابقاتِ إلى ميدانِ التَّخلّي عن الحلي والحلل والجواهر والدّرر؟!

* كانَ ذلك في (٢١) من شَهْر صَفَر من سنة (٩٩هـ) يوم أنْ أَتتِ الخِلافَةُ إلى زوجها عمر بن عبد العزيز وهي تجرِّرُ أذيالَها ، ولم تكُ تصلُح إلاّ له ، وحَسِبَتْ فاطمةُ يومَها أنَّها اقتادتِ السَّحابَ من شدَّةِ السُّرور ، وأنّها غَدَت امرأةَ أميرِ المؤمنين ، وحاكم الدُّنيا من أقصاها إلى أقصاها ، وأنَّ خراجَ الأرضِ سيغدو بين يديها ، وأنَّ جَواهرها ستكثرُ وتزدادُ.

* ولكنَّ الرِّياحَ تجري بما لا تَشْتَهي السُّفُنُ ، فمنذ أنْ تولَّى عمرُ مقاليدَ الخلافةِ زهدَ بزخارفها وجَلَبَتها ، وطلَّقَ الدُّنيا ثلاثاً منَ السَّاعةِ الأولى التي تسلَّمَ فيها مقاليدَ أمورِ المسلمين ، وكانتِ الأمور الدّنيويّة عنده نسْياً منْسياً ، وغدا النَّعيمُ الذي عاشه مجرَّدَ ذكريات على أطلالِ الماضي ، إذ جاءه شُغل شاغِلٌ.

* أمَّا فاطمةُ بنتُ عبد الملك فقد تبدَّلَتْ أحوالُها أيضاً ، وغدا النَّعيمُ

والثَّروةُ عندها ذكرياتٌ عبرت ، ولكنّها تداعِبُ خيالها أحياناً في جنْحِ الليالي وفي ومضاتِ الأيّام ، لقد تخلَّتْ عن حليتها الثّمينة التي وهبَها عبدُ الملك منذ سنين خوالٍ ، وعاشتْ معَها قرابةَ عشرينَ سنة ، فوهبَتْها فاطمةُ لبيتِ المال ، مع زوجها المفْضال ، وتحلَّت بحلى الفَضْل والمكارم ، بعد أنْ كانت تفخرُ على بناتِ جنْسِها بحلى الذَّهب ، وأساور المعاصم.

* لقد غابَ كلُّ ذلك عن حياتِها إلى الأَبدِ ، واستقبلت حياةً جديدةً هي حياةُ الخُلود الحقيقي ، وسرّ العظَمة الحقَّةِ ، فقد استطاعَتْ فاطمةُ ـ رحمها الله ـ أنْ ترسَم أحْلى الصُّوَر في تاريخِ نساءِ قصور الأُمراء ، لتظلَّ قدوةً لكلِّ النِّساء.

* تذكرُ أخبارُ فاطمةَ الوضيئة أنَّ عُمر بنَ عبد العزيز لما استقرَّتْ له البيعةُ ، وآلتْ إليهِ الخلافَةُ ، جاءَ فاطمة يخيّرها بينَ صحبَتِه ، أو حليها وجواهرها ، فقد غدا يشعرُ بثقلِ المسؤوليّةِ التي جعلتْ منه رجُلاً آخر. تلك المسؤولية التي جثَمتْ على كاهله ، وشغلته عن محاسنِ المحاسنِ حتى عن فاطمةَ الزّوجةِ الحسْنَاءِ الغيداءِ ، وأنشأَ يقولُ معبِّراً عمّا جاءه من الشُّغْل:

قَــدْ جَــاءَ شُغْــل شــاغِــلٌ   وعَــدَلْـت عــنْ طُـرقِ السَّـلامَـة
ذَهَــبَ الفَــراغُ فَــلا فَــرا   غَ لنَــا إلــى يــومِ القيَــامَــة

* قال عمرُ لفاطمةَ: يا بنَة عمّي ، إنْ أردتِ صُحبتَي فاسْمَعي منّي هذه الكَلِمات.

قالت فاطمةُ: حُبّاً وسُروراً ، قُلْ ما بدا لك.

فقال عمر: منْ أينَ صارَ إليكِ هذا المال؟ ـ وكان عندها جوهَرٌ لم يُرَ مثْلُه ـ.

أجابتْ فاطمةُ في هدوء: يا أميرَ المؤمنين ، أعطانيه أمير المؤمنين أبي عبد الملك بن مروان ـ رحمه الله ـ.

فقال عمرُ في هدوءِ العارفين العازفين عن زُخْرفِ الدُّنيا ومباهِجها: يا

فاطمة إنْ أردتِ صُحْبَتي فأنا مخيِّرك بينَ اثنتَيْن : إمّا أنْ تردّي حليكِ وما مَعَكِ منْ مالٍ وجواهرَ إلى بيتِ المسلمين فإنَّه لهم ؛ وإمّا أنْ تأذني لي في فِراقِكِ ، فإنّي أكرَهُ أنْ أكونَ أنا وأنتِ وهو في بيتٍ واحد .

* وهنا تألَّقَتْ فاطمةُ بإيمانها وأصلِها وعقلِها ، وسَمَتْ بتفكيرِها وفهمِها عن غيرِها منْ كثيرٍ منَ النِّساءِ ، وأجابتْهُ إجابةً جَعَلَتْهُ منَ المسرورين : لا ، بل أختارُك على أضعافِهِ لو كان لي ؛ ثم ردَّتْه جميعاً إلى بيتِ مالِ المسلمين لأنَّه لهم ، وهي لم تنَلْهُ إلاّ منْ هدايا أبيها عبد الملك بن مروان[1] .

* ومنَ المُطْربِ في حياةِ فاطمَة أنَّها غَدَتْ منَ الزَّاهِداتِ المتقشّفَاتِ العَابِدات بعد ذلك العزِّ والرَّخاءِ ، فقد حرَّم عمر على نَفْسهِ أنْ تتجاوزَ طعامَها إلى طَعامِ العامَّةِ ، وطلبَ إلى أهلهِ كذلك أنْ يمتنعُوا عنْ إدخالِ طعامِ العامّة في طعامِهم الخاص .

* وكان عمرُ قد أقام دارَ طعامٍ للفقراء والمساكين وأبناءِ السَّبيل ، وذوي الحاجاتِ وقال لأَهْله : إياكم أنْ تصيبُوا منْ هذه الدَّار شيئاً منْ طعامها ، فإنَّما هو للفُقَراء والمساكين وابن السَّبيل . وكانتْ له زوجة تاقَتْ نفسُها إلى قليلٍ منَ اللبن ، وخافتْ إنْ هي حُرِمَتْ منه أنْ يسقطَ جنينُها ، فجاءتها خادمتُها

---

(١) انظر : الكامل في التاريخ (٥/ ٤١ و٤٢) ، ونهاية الأرب (٢١/ ٣٥٧ و٣٥٨) ، وطبقات ابن سعد (٣/ ٣٩٣) و(٥/ ٥٩٣) ، وحلية الأولياء (٥/ ٢٨٣) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٩٢) مع الجمع والتصرف . وتروي المصَادرُ أنَّه لما توفيَ عمرُ ، وليَ أخوها يزيدُ بنُ عبد الملك ، وأحبَّ أنْ يردَّ الجواهرَ عليها ، وقال : أنا أعلمُ أنَّ عمرَ قد ظلمكِ في أخْذِه ، فإنْ شئتِ رددتُه عليك أو قيمته . فقالت فاطمةُ وأنوارُ اليقين والوفاءُ يشعّان منْ وجهها : كلا واللهِ ، لم يظلمْني عمر ، وواللهِ لا أريدُه ، طِبْتُ به نَفْساً في حياتِهِ ، وأرجعُ فيه بَعْد موتِه ؛ ما كنتُ أطيعُه حيّاً ، وأعصيهِ ميتاً ، لا واللهِ أبداً ، لا حاجةَ لي فيهِ ، ففرّقه يزيد على أهله . (الكامل ٥/ ٤٢) بتصرف يسير .
وذكر أبو نُعيم أنَّ فاطمةَ كان عندها جوهرٌ أمَرَ لها أبوها بهِ لم يُرَ مثلُه (الحلية ٥/ ٢٨٣) ولكنّها تركتْ ذلك كلّه ابتغاءَ مرضاةِ الله ـ عزّ وجل ـ .

بغرفةِ لَبَنٍ من دارِ طعامِ الفُقراء ، فأبصرها عمرُ فاشتدَّ غضبُه ، ومنعَ زوجتَه من تناولهِ ، وقال لها غاضباً معنّفاً: إنْ لم يُمْسكْ ما في بطنكِ إلا طعام المساكين والفقراء فلا أمْسَكه الله[1] .

* وهكذا اختارتْ فاطمةُ عمَر ، اختارتِ النَّعيمَ المقيمَ على النَّعيم الزَّائلِ ، وغدتْ سيّدة القُصُور الأولى؛ الأولى في الزُّهد وحمل المسؤوليّة ، لقد أمستْ هذه السَّيِّدةُ الأولى التي كانت زوجَ خليفة ، وحفيدةَ خليفة ، وابنةَ خليفة ، وأختَ خليفة ، والخلافةُ تحيطُ بها إحاطةَ السِّوارِ بالمعْصَم ، والحلي والحُللِ يثقلها ، أمستْ كذلك ، وأصبحتْ لا تمتلِكُ منَ الدُّنيا إلاّ ما غلظَ منَ الثِّياب ، فلم تكنْ تملكُ إلا ثوبَيْن خَشِنَيْن ، وأصبحَ طعامُها العدسُ والبَصَل وكَسَرات الخبزِ اليابسة ، وكثيراً ما كانت تبيتُ على الطّوى وأمعاؤُها خاويةً لِيالي طويلة ، حتى قالت مرّةً عندما سُئلَتْ عن حياتها : يا ليت كان بيننا وبينَ الخلافةِ بعد المشرقَيْن ، فو الله ما رأينا سُروراً مذ دخلَتْ علينا .

يَا فَاطِمَةُ أَخْبِرِيْنَا عَنْ عُمَرَ:

* في عباراتٍ أنيقةٍ رقيقةٍ تحملُ زَهْرَ الحقّ ، ووِرْدَ الحقيقةِ ، ترسمُ فاطمةُ بنتُ عبدِ الملك صورةَ زوجِها عمرَ بنِ عبد العزيز ، وتوضّحُ صفاتِهِ قَبْلَ الخلافةِ وبعدها فتقولُ: كانَ عمر بنُ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ من أعظمِ قريش ، وأرفههم مَرْكَباً ، وألينهم ثوباً ، وأطيبهم طعَاماً ، قبل أنْ يليَ الخلافةَ؛ فلما وُلِّي الخلافةَ لبِسَ الكرابيس والصُّوف ، وربما ادَّهَن بزيتِ العلّة ، ـ تعني الماء ـ ولا رفَعَ ثوباً يدّخره ، ولا اتَّخذ أمّة منذ وَليَ إلى يوم مات ، فهذه كانتْ حياتُه[2] .

* لقد عاشَ عمرُ حياةَ التَّقوى كما ينبغي ، وكانتِ الحقيقةُ تجري على

---

(١) انظر : الكامل في التاريخ (٥/ ١٦) بتصرف يسير .
(٢) انظر : محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لمحيي الدين بن عربي (٢/ ٤٠٧) .

لسانِه ، والحقُّ ينبعثُ من فؤادِهِ ، حتى في لحظاتِ السَّعادةِ عند الخلفاء؛ فقد وردَ أنَّ سُليمانَ بنَ عبد الملك سألَه عمّا هو فيهِ من ملْكٍ عظيمٍ ونعيمٍ مُقيم قائلاً : يا عمرُ ، كيف ترى ما نحنُ فيه؟

فقال: سرورٌ لولا أنَّه غرورٌ ، وحياةٌ لولا أنَّه موتٌ ، ومُلْكٌ لولا أنه هلْكٌ ، وحسْنٌ لولا أنَّه حزْنٌ ، ونعيمٌ لولا أنَّه عذابٌ أليم[(١)] .

* إنَّ هذهِ الإجابةَ العمرية لسُليمان كانت وعمر ما يزالُ أميراً منْ أمراءِ بني أميّة ، ولكنَّه عندما أصبحَ خليفةً ، ورحلَ وهو خليفة ، زادتْ إشراقاته الرّوحية والزِّهدية ، كما روت زوجته فاطمة عندما ذهب إليها الفقهاء ـ بعد موت عمر ـ مُعزّينَ ، ومن ثمَّ سائلينَ عن تقوى الخليفةِ الزَّاهدِ الرَّاحلِ الصَّالحِ ، فقالوا لها: يا فاطمةُ أخبرينا عن عمرَ ، فإنَّ أعلمَ النَّاسِ بالرَّجُل أهله .

فقالتْ فاطمةُ: واللهِ ما كان بأكثرِكم صلاةً ولا صياماً ولكن واللهِ ما رأيتُ عَبْداً أشدَّ خوفاً للهِ منْ عمر ، كان همّه بالنّاسِ أشدّ من أمْرِ همّه بنفسهِ ، قد فرَّغَ بدنَه ونَفْسَه للنَّاس ، يقعدُ لحوائجهم يومَه ، فإذا أمسى وعليه بقيةٌ منْ حوائِجهم وصَلَه بليله[(٢)] .

* ولكنْ ما حالُ أهلِ بيت عمر وحالُ زوجتِه معه؟!

لقد انصرفَ عن ملذّاتِ الحياةِ الزَّوجيّة[(٣)] إلى حدّ تمنَّت فاطمةُ على اللهِ أنْ لو بعدتِ الخلافةُ عن حياتها الزّوجية بعد ما بين المشرقِ والمغرب . وتتابعُ فاطمةُ رسْمَ ملامح عمر وتقواه ، فتقولُ للفقهاء :

وواللهِ ، إنْ كان عمر ليكون في المكانِ الذي ينتهي إليه سرورُ الرّجُل مع

---

(١) مروج الذهب (٢/ ١٤٠).
(٢) انظر : كتاب الخراج لأبي يوسف (ص ١٦ و١٧).
(٣) ذكر الذهبي ـ رحمه الله ـ أن فاطمة قالت عن عمر : ما اغتسل من احتلام منذ استخلف . (سير أعلام النبلاء ٥/ ١٣٦).

أهْلِهِ ، فيذكرُ الشَّيءَ في أمْرِ اللهِ فيضطربُ كما يضطربُ العصفور قد وقَعَ في الماءِ ، ثم يرتفعُ بكاؤُه حتّى أطْرحُ اللحافَ عنّي وعنه رحمةً له. ووالله لوددتُ لو كان بيننا وبينَ هذه الإمارة بُعْدَ ما بين المشرقَيْن[1].

* وتَسْأَلُ فاطمة زوجها عن سببِ بكائِه ووجَلهِ فيقول لها: لقد تولّيتُ أمْرَ هذه الأمّة ، أسودها وأحمرها ، فذكرتُ الغريبَ القانعَ الضَّائعَ ، والفقيرَ المحتاجَ ، والأسيرَ المقهورَ ، وأشباهِهم في أطرافِ الأرض ، فخفْتُ على نفسي حساب اللهِ عن هؤلاء النَّاس[2].

* وعند ابنِ الأثير في «الكامِل» نَجِدُ صورةَ عمر ترسمُها فاطمة بشكلٍ أوضحَ وأوضأَ فتقولُ: دخلتُ عليه وهو في مصلاّه ودموعه تجري على لحيتِه؛ فقلتُ: أحَدَثَ شيءٌ؟

فقال: إنّي تقلّدتُ أمْرَ أمّةِ محمّد فتفكرتُ في الفقيرِ الجائعِ ، والمريضِ الجائعِ ، والغازي ، والمظلومِ ، والمقهور ، والغريبِ الأسير ، والشَّيخ الكبيرِ ، وذي العيال الكثيرِ ، والمالِ القليلِ ، وأشباهِهم في أقطارِ الأرض ، فعلمت أنَّ ربّي سيسألُني عنهم يومَ القيامة ، وأنَّ خَصْمِي دونهم محمّد ﷺ إلى اللهِ، فخشيتُ ألا تثبتَ حجّتي عند الخصومةِ ، فرحمتُ نَفْسي فبكيتُ[3].

* ومنَ الممتعِ والمُطرب أنْ نَجِدَ هذا الخبر قد وَرَدَ في عددٍ من المصادرِ بمعانٍ متقاربةٍ وأساليبَ متعدّدةٍ ، فقد كان كثيرٌ من النَّاس يحبُّ معرفةَ أخبار عمر بن عبد العزيز من خلالِ سؤال زوجِه فاطمة بنت عبد الملك لأنّها أعرفُ الخَلْقِ به.

* روى ابنُ طيفور الخراساني بسنده عن محمّد بنِ الليث بن عطاء قال: قلْتُ لفاطمةَ بنتِ عبد الملك: أخبريني عن عمر بن عبد العزيز. قالت:

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) الكامل في التاريخ (٥/ ٦٥).

أفعلُ؛ ولو كان حيّاً ما فعلتُ؛ إنَّ عمرَ ـ رحمه الله ـ كانَ قَدْ فرَّغَ للمسلمين نَفْسَه ، ولأمورِهم ذهْنَه ، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرغْ فيه من حوائج يومه ، دعا بسراجِه الذي كان يُسْرَجُ له من مَالِه ، ثمَّ صلّى ركعتَيْن ، ثمّ أقعى واضعاً رأْسَه على يديه ، تسيلُ دموعُه على خَدَّيهِ ، يشهقُ الشَّهقَة يكادُ يتصدَّع لها قَلْبُه ، أو تخرجُ لها نفسه ، حتى يرى الصُّبح ، وقد أصبحَ صائماً ، فدنوتُ منه فقلْتُ له : يا أميرَ المؤمنين ، ألشيءٍ كان منك ما كان؟

قال : أجَل ، فعليكِ بشأنِكِ وخلّني بشأني .

فقلتُ : إنّي أرجو أنْ أتعظَ .

قال : إذن أخبركِ؛ إنّي نظرتُ فوجدتني قد ولِّيتُ أمْرَ هذه الأُمَّةِ أحمرها وأسودها ، ثمّ ذكرتُ الفقيرَ الجائعَ ، والغريبَ الضَّائعَ ، والأسيرَ المقهورَ ، وذا المالِ القليلِ ، والعيالِ الكثيرِ ، وأشياءَ من ذلك في أقاصي البلادِ وأطرافِ الأرض ، فعلمتُ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سائلي عنهم ، وأنَّ رسولَ الله ﷺ حجيْجي ، فرحمتُ واللهِ يا فاطمة نفسي رحمةً دمَعَتْ لها عيني ، ووجعَ لها قلبي ، فأنا كلّما ازددتُ ذِكْراً ازددتُ خوفاً ، فاتَّعظي أو دَعي[1] .

* وفي مرّةٍ أخرى نتعرفُ خَبراً مهمّاً عن عمرَ وعن حالِهِ مع أهْلِه؛ فقد أخرجَ ابنُ سعد بسندِه عن أبي الحوّاري قال : حدثنا هشامُ أنَّ فاطمةَ بنتَ عبد الملك بعثتْ إلى رجُلٍ من الفُقهاء فقالت : إنّي أخافُ ألا يَسَعَ أمير المؤمنين ما يصنع! قال : وما ذاك؟

قالت : ما كانَ منْ أهْلِهِ بسبيل منذ وُلّي .

فلقيَ الرّجلُ عمرَ فقال : يا أميرَ المؤمنين ، بلغني شيءٌ وأخافُ ألاّ يسَعك .

---

(١) بلاغات النساء (ص ١٠٦ و١٠٧) طبعة الكويت ، وانظر : الرقة والبكاء (ص ٢٩٥ و٢٩٦).

قال: وما ذاك؟

قال: أهلُكَ لهم عليك حقٌّ.

قال عمرُ: وكيفَ يستطيعُ رجلٌ أنْ يأتيَ ذاك، وأمْرُ أمّةِ محمّد في عنقِه، اللهُ سائلُه عنها يومَ القيامة[1]؟

* ونتعرفُ أحوالَ عمر أكثر حينما نسمعُ إجابةً عن سؤالٍ لفاطمةَ؛ فقد أخرجَ ابنُ سعد بسندِه عن الأوزاعيّ أنَّ محمّد بنَ المِقْدام سألَ فاطمةَ بنتَ عبد الملك امرأةَ عمر بن عبد العزيز: ما تُرَينَ بَدْيَ مرض عمر الذي ماتَ فيه؟

قالت: أرى بَدْيَه؛ أو جُلَّه الوَجَل[2].

* وعندما تُسْأَلُ فاطمةُ عن خوفِ عمر من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تجيبُ قائلةً: إنّي قد أرى أنَّه يكونُ في النَّاسِ مَنْ هو أكثرُ صلاةً وصوماً منْ عمر، فأمّا أنْ أكونَ رأيتُ رجُلاً أشدّ فَرقاً من ربِّه من عمر فإنّي لم أَرَه، كان إذا صلّى العشاء الآخرة، ألقى نَفْسَه في مسجدِه فيدعو، ويبكي حتّى تغلبُه عينُه، ثمَّ ينتبِهُ، فيدعو ويبكي حتى تغلبُه عينه، فهو كذلك حتّى يصبح[3].

* ومن كلامها عن عمر أنَّ عطاءَ بنَ أبي رباح سأَلها فقال: أخبريني عن عمرَ؛ فقالت: إنَّ عمرَ ـ رحمةُ اللهِ عليه ـ قد فرَّغَ للمسلمين نَفْسه، ولأمورِهم ذِهْنَه، فكان إذا أمسى مساءً لم يفرِغْ فيه من حوائج يومه وصَلَ يومه بليلتِه[4].

ولله درُّ القَائل:

وصَلَ النَّهارَ بِلَيْلهِ في طَاعَةٍ فَصَلاتُهُ مَوصُولَةٌ بِصِيَامِ

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٩٧).

(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٠٢)، والمعنى أن بداية مرضه أو كل مرضه سببه الخوف من الله عز وجل.

(٣) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٦٧).

(٤) أعلام النساء (٤/ ٧٥).

فَاطِمَةُ وَالمَرْأَةُ العِرَاقِيَّةُ :

* مَنْ يصدِّقُ أنَّ فاطمةَ بنتَ عبد الملك انتقلتْ من حياةِ القصورِ المزدانَةِ بكلِّ ما تشتهيهِ الأَنْفُس وتلذّ الأعين ، ومنَ القصورِ ذات الحشَمِ والخدمِ والحضارةِ ، إلى دارٍ ضيقةٍ شمالي المسجدِ مبنيّةٍ منَ الطِّينِ ، قد أثّرتْ فيها السُّنون ، وأهرمَتْها الأيَّام؟!

* لا شكَّ في أنَّ هذه الحياة قفزة عظْمى من امرأةٍ عظمى ، ففي حياةِ عمر مع فاطمة وقْفاتٌ تستحقُّ الاحترامَ والإكْبار لها ، إذ تركتْ كلَّ شيء لا يريدُه زوجها بنفسٍ راضيةٍ ، وقلبٍ يخفقُ للحقّ والصَّوابِ ، فكانتْ منَ الخالداتِ منْ ذواتِ الحجابِ.

* فقد بدأتِ الأميرةُ الأمويّةُ ، وامرأةُ أميرِ المؤمنين تعملُ كلَّ شيءٍ بيدها ، وتخيطُ ثيابَها وثيابَ أولادِها ، وترقَعُ ما بَلِيَ منَ الملابسِ ، وتطبخُ الطَّعام البسيطَ الذي هو عبارة عن العدسِ والبَصَلِ ، وترضى بهذا كُلّه ، وربّما كانتْ تساعدُ زوجهَا عمر في ترميم وإصلاح البيتِ إذا احتاجَ لذلك ، ونسيتْ كلَّ مظاهرِ الخلافةِ والحسبِ والنَّسبِ ، فهي سعيدةٌ ما دامتْ تعملُ لمرضاةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ومرضاةِ زوجها ، وهذا ممّا أثارَ عَجَبَ امرأةٍ عراقيةٍ رأتْ فاطمةَ في الحالِ البسيطِ من معالجةِ قُطْنٍ بيدها ، ومساعدةِ زوجها وهو يصلحُ البيت.

* ففي سيرةِ عمر بن عبد العزيز لابنِ عبدِ الحكم يذكرُ أنَّ امرأةً قدمَتْ منَ العراقِ لحاجَةٍ على عمرَ بنِ عبد العزيز بنِ مروانَ ، فلمّا صارتْ إلى بابِ بيته سألت قائلة: هل على أميرِ المؤمنين عمر حاجبٌ يمنعُ النَّاسَ منَ الدُّخول عليهِ؟

فقالوا لها: لا يا أمةَ اللهِ ، ادخلي إن أحبَبْتِ.

* ودخلتِ المرأةُ على فاطمةَ بنتِ عبد الملك وهي جالسةٌ في بيتها ، وفي

يدِها قطْنٌ تعالجه ، فسلَّمَتْ عليها ، فردَّتْ فاطمةُ السَّلام وقالتْ لها: ادخلي.

* فلما جلَسَتِ المرأةُ راحتْ تجوسُ المكانَ بعينيها ، ورفعت بصرَها إلى أعالي البيتِ ، ونظرتْ في جوانبه أيضاً ، ولكنّها لمْ تَرَ فيهِ شيئاً له قيمة؛ بل لم يلفتْ نظرها شيءٌ يُذْكَرُ ، فلا توجدُ فيه السُّررُ المرفوعةُ ، ولا الأكوابُ الموضوعةُ ، أو النّمارقُ المصفوفةُ والزَّرابيُّ المبثوثةُ ، ولم تَجِدِ الغِلْمانَ وهمُ يطوفونَ هنا وهناك ، بل لم تَجِدْ منْ مظاهِرِ الحضَارةِ المجلوبةِ ما يستحقُّ الذِّكْر ، فدهشَتْ وتعجَّبَتْ وتمتمتْ قائلةً: عجيبٌ إنّما جئتُ لأعمرَ بيتي منْ هذا البيت الخَرِب؟!

وسمعتْها فاطمةُ فقالت لها تُصحِّحُ مفهومَها المضطربَ: إنّما خرَّبَ هذا البيت عمارة بيوتِ أمثالِك.

* وسمعتْ فاطمةُ والمرأةُ وقْعَ خطى رجُلٍ ، فإذا هو عمر قد أقبل حتّى دخلَ الدَّار ، واتَّجه نحو بئرٍ في ناحيةِ الدَّار ، وأخذَ دلْواً منَ الماءِ وأفرغه على طينٍ كان في البيتِ ، وكان يكثرُ النَّظرَ إلى زوجته فاطمة.

* وتعجَّبَت المرأةُ العراقيةُ من عمرَ ـ وهي لا تعرفه ـ لأنَّه ينظرُ إلى فاطمةَ.

فقالتْ لها المرأةُ وقد تعجَّبَتْ منْ نظره إليها: يا فاطمة استتري منْ هذا الطَّيَّانِ ، فإني أراهُ يُديمُ النَّظرَ إليكِ ، وأنتِ أنتِ منَ المكانةِ والفَضْل والرِّفعةِ!.

قالتْ فاطمةُ والبسمةُ تعلو وجْهَها: يا أمةَ اللهِ ، ليس هذا الرَّجل بطيَّان.

فقالتِ المرأةُ: ومن هو إذاً؟!

قالت فاطمةُ: هو أميرُ المؤمنين عمر بنُ عبد العزيز زوجي.

* ثمَّ أقبلَ عمر ، فسلَّمَ ، ودخلَ بيتَه ، فمالَ إلى مصلّى كانَ لهُ في البيتِ فصلّى فيه ، فسأَلَ فاطمةَ عن المرأةِ فقالتْ: هي هذه.

فأخذ عمر مِكْتلاً له فيه شيءٌ منْ عنَب ، فجعل يتخيّر لها خَيْره ، ويناولها إياه ، ثمَّ أقبلَ عليها فقال : ما حاجتُكِ يا أمةَ اللهِ؟

فقالت : يا أمير المؤمنين ، أنا امرأةٌ منْ أهْلِ العراق ، لي خمسُ بناتٍ كُسُلٌ كُسُدٌ ، فجئتُ أبتغي حُسْنَ نظرِكِ لهنّ .

فجعل عمر يقول : كُسُلٌ كُسُدٌ ، ويبكي .

* فأخذَ الدَّواةَ والقرطاسَ ، وكتبَ إلى والي العراق فقال : سَمّي كبراهنّ ، فسمَّتها ، ففرضَ لها . فقالتِ المرأةُ : الحمدُ لله .

* ثمَّ سألَ عن اسمِ الثَّانية ، والثّالثة ، والرابعة ـ والمرأة تحمدُ الله ـ فلما فرضَ للأربع استفزَّها الفرحُ ، فدعت له ، فجزتْه خيراً ، فرفعَ يَدَهُ وقالَ : كنّا نفرضُ لهنَّ حيثُ كنتِ تولينَ الحمدَ أهلَه ، فمري هؤلاء الأربع يُفِضْنَ على هذه الخامسة .

* فخرجتْ بالكتابِ حتّى أتتْ بهِ العراقَ ، فدفعَتْه إلى والي العراقِ ، فلما دفعتْ إليه الكتابَ بكى واشتدَّ بكاؤه وقال : رحمَ اللهُ صاحِبَ هذا الكتاب .

فقالت : أمات؟

قال : نعم .

فصاحَتْ وولولَتْ ، فقال لها : لا بأْسَ عليكِ يا أمةَ اللهِ ، ما كنتُ لأردَّ كتابَه في شيءٍ . فقضى حاجتَها ، وفرضَ لبناتِها[1] .

فَـاطِـمَـةُ وأَخْـبـارٌ عُـمَـريّـةٌ :

* في حياةِ فاطمةَ بنتِ عبدِ الملك ـ رحمها الله ـ وقفاتٌ ساحِراتٌ آسراتٌ ، وخُصوصاً مع أمير الزاهدين في عصره عمر بن عبد العزيز ، ذلك الرجلُ المِفْضَالُ الذي ملأَ الدنيا بروائعِ قَصَصِهِ ، ورقائق زهده .

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٤٤ ـ ١٤٦) بتصرف ، وانظر : الرقة والبكاء لابن قدامة (ص ٣٠٤ و٣٠٥) .

* وكانتْ فاطمةُ تعيشُ في كنَفِ زوجِها حياةَ زهده ، وزهْدَ حياتِه ، وهي رضيّةُ النَّفْسِ ، سعيدةُ القلب ، هادئةُ البالِ ، وهيَ كذلك تنظرُ إلى زوجها نظْرةَ إكبارٍ وإجلالٍ ترى من خلالِ قسماتِ وجههِ أنوارَ التَّقوى ، وآثارَ العبادة ، فتنسى مظاهرَ الدنيا ، وتنسى أنّها ابنةُ الخلفاء ، فمن يتوقَّعُ أنَّ فاطمةَ وهي الأميرة المنعمة ، ثم هي امرأةُ أميرِ المؤمنين ، وملكِ الدُّنيا لا تملكُ إلا ثوباً واحداً قديماً قد أكلَ الدَّهْر عليه وشرب؟!

* ومن يتوقَّعُ أنَّ زوجَها الذي بيدِه أموالُ الدُّنيا في طولها والعَرضِ ، يأتيهِ خراجُها منْ أطرافِها ، لا يملكُ إلا ثوباً واحداً ممزقاً؟!

* الخبرُ التّالي يروى لنا مصْداق ما قُلناه: دخل مَسْلمةُ بنُ عبد الملك أخو فاطمة على عمر يعودُه ، فرأى قميصَه دَنِساً وَسِخاً ، فقال لأُخْتِه فاطمة: ألبسيهِ غير هذا القميص! واغسلُوا ثيابَ أميرِ المؤمنين. فسكتَتْ فاطمةُ ولم تردَّ على مسلمة.

فقال مسلمةُ ثانيةً: يا فاطمةُ ألبسي أميرَ المؤمنين عمر غيرَ هذا القميص أو اغسليه فإنّه يدخلُ عليه الخاص والعام.

فقالت فاطمةُ: نفعلُ إنْ شاء الله.

ثمَّ دخلَ مسلمةُ مرّةً ثانيةً يعودُ عمر ، فرأى الثَّوبَ بحالِهِ ، فقال: ألم آمركم أنْ تَغْسِلُوا قميصَه.

فقالت فاطمةُ وقد اغرورقت عينَاها بالدُّموع: واللهِ يا أخي ماله قميصٌ غيره. وكانت نفقتُه في كلِّ يوم درهمَيْن[1].

ومن العجيب والمطرب أنَّ قميصَ أميرِ المؤمنين عمر بنَ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ كان مرقوعَ الجيبِ من بينِ يديه ، ومن خلفه ، وكان هذا الثّوبُ

---

(١) انظر: الكامل (٥/ ٦٢) ، ونهاية الأرب (٢١/ ٣٦٦) ، والمعرفة والتاريخ (١/ ٦٠٠) وطبقات ابن سعد (٥/ ٤٠٢) مع الجمع والتصرف.

الخلقُ المرقوعُ مبعثَ فخرٍ لفاطمةَ ابنة عبد الملك ، إذْ إنَّ الرِّجالَ العظماءَ الكبراءَ لا يقاسون باللباسِ والطَّليسان ، فالمرءُ بلسانِهِ لا بطليسانِه؛ ولله درُّ القائل:

قَدْ يُدْركُ الشَّرفَ الفَتى وقميصه   خَلْــقٌ وجيــبُ رِدائِــهِ مــرقُــوعُ

وقَول الآخر:

لِسَانُ الفَتى نِصْفٌ ونصفٌ فؤادُهُ   فَلَـم يبـقَ إلاّ صـورةُ اللحـمِ والـدَّم

* إنَّ عمرَ وزوجَه فاطمة قَادِران على أنْ يلبسَا أفخرَ الملابسِ وأحسنِها في الدُّنيا يوم ذاك ، ولكنَّها الجنَّةُ ذات السِّلْعَةِ الغَاليةِ التي أراداها ، وعملا لها ، وسَعَيا لها سَعْيَها؛ نرجو الله ونسألُه أنْ يجعلَنا من أهلِها.

* كانت نفقةُ عمر درهمَيْن في كلِّ يوم ، وبيدِهِ أموالُ الدُّنيا ، ولكنّه كان أحياناً يشتهي بعضَ الفاكهةِ ، ولا يملكُ درهماً واحداً ، أو جُزءاً منه.

* يُروى أنَّ عَمر قد دخلَ يوماً على فاطمةَ وقد اشتهى عنباً وقال: يا فاطمةُ ، عندك درهمٌ أشتري بهِ عِنَباً؟

قالت: لا واللهِ يا أميرَ المؤمنين لا أمْلِكُ درهماً.

قال: فعندكَ فلوس إذاً؟

قالتْ في تعجُّبٍ: لا واللهِ ، أنتَ أميرُ المؤمنين ، ولا تقدرُ على درهم!!

فقال عمرُ وهمساتُ اليقين تنبعثُ منْ فمِه: يا فاطمةُ ، هذا أهونُ من معالجةِ الأغلالِ في جهنَّم[1].

* وتَغَلَّبَ عمرُ على نفسهِ ، وعلى ما تشتهيهِ ، ولم يشْتَرِ العنبَ ، وباتَ وهو يشتهيه ، ولكنْ لا يملكُ جُزْءاً منَ الدِّرهم حتى يشتريه فيأكله!! ألاَ ما أعْظَم أولئك الأعلام الأفذاذ:

أولئــكَ آبــائـي فجئْنِـي بمثْلِهــم   إذا جَمَعَتْنــا يــا جـريـرُ المَجـامِـعُ

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٤ و١٣٥).

* لقد كانَ شعارُ عمرَ بنِ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ألاّ خيرَ في الحياةِ الدُّنيا ما لم يكنْ للمرءِ عند الله نصيب في الجنَّة؛ ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النِّساء: ٧٧]، وكان ينشدُ دائماً:

وَلاَ خَيْرَ في عَيْشِ امْرِئٍ لم يكُنْ لَه ... مِـنَ اللهِ فـي دَارِ القَـرارِ نَصيْـبُ
فـإنْ تُعْجـبِ الـدُّنيـا أنَـاسَـاً فـإنَّهـا ... مَتَـاعٌ قَليـلٌ وَالـزَّوالُ قَـريْـبُ

* لقد كان عمرُ شديدَ الخوفِ منَ اللهِ، يراقبُ نَفْسَه في السِّرِّ والعلانيةِ، وكانتْ فاطمةُ ترى شدَّة جزَعِه، فتبكي بكاءً مراً شَديداً حتّى يظنّ إخوتُها أنها تبكي تراثَها وثراءَها المفقودَيْن، أو تبكي على شيءٍ قد فاتَها منَ الدُّنيا، فيحاولُ إخوتُها أنْ يعوِّضُوها عمّا فاتَها، ولكنَّ فاطمةَ الورعةَ التَّقيَّةَ، تروي لهم أنَّ سببَ بكائِها على زوجها الذي يتأثّرُ بمعاني القُرآنِ الكريم، ويكادُ يموتُ منْ خشيةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، فهو من ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

* روى ابنُ قدامةَ المقدسيّ قصَّةَ ذلك فقال: بكَتْ فاطمةُ بنتُ عبدِ الملكِ حتى عشيَ بصرُهَا، فدخلَ عليها أخواها مسلمةُ وهشام فقالا: ما هذا الأمْرُ الذي قد دمْتِ عليه؟ أجزعُكِ على بَعْلِك ـ وأحقُّ مَنْ جُزِعَ على مثْلِه ـ أمْ على شيءٍ فاتَكِ منَ الدُّنيا؟ فها نحنُ بينَ يديك وأموالُنا وأهلونا.

فقالت: لا منْ كلٍّ جزعتُ، ولا على واحدةٍ منهما أَسِفْتُ، ولكنّي والله رأيتُ منه ليلةً منْظَراً، فعلمتُ أنَّ الذي أخرجَه إلى الذي رأيتُ منه هولٌ عظيمٌ قد استكنَّ في قلبِهِ معرفتُه.

قالا: وما رأيتِ فيه؟

قالت: رأيتُه ذاتَ ليلةٍ قائماً يصلّي، فأتى على هذهِ الآية: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤ و٥]. فصاحَ: واسوءَ صَباحَاهُ، ثمَّ وثبَ، فَسقَطَ، فجعلَ يخورُ، حتّى ظَنَنْتُ أنَّ نفسَه ستخرج، ثمَّ هدأَ، فظننتُ أنّه قد قُضِي، ثم أفاقَ إفاقةً فنادى: يا سوءَ صَباحَاهُ، ثمَّ وثبَ، فجعلَ يجولُ في الدَّارِ ويقولُ:

وَيْلي منْ يومٍ يكونُ النَّاسُ فيهِ كالفراشِ المبثوثِ ، وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفوش ، فلم يزلْ كذلكَ حتى طلعَ الفجرُ ، ثمَّ سقط كأنَّه ميّتٌ ، حتّى أتاهُ الإذنُ للصَّلاة ، فو اللهِ ما ذكرتُ ليلته تلكَ إلا غلبتِني عينايَ ، فلمْ أملكْ ردَّ عبْرتي[1].

* وكثيراً ما كانَتْ فاطمةُ تذرفُ الدُّموعَ سخيّةً على ما كان يعتادُ عمر منْ وَجَلٍ ورهبة إذا ذُكِر اللهُ ، أو وُعِظَ ، أو ذُكِّرَ بالموت ، أو تحدَّثَ هو عَنْ القبْرِ والموتِ وأحوال الموتى ، فيقعُ مغشياً عليهِ ، ولا يفيقُ من غشيتِهِ حتّى تصُبَّ الماء على وجههِ.

* حدَّثَ أبو سريع الشَّامي قال: قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لرجلٍ من جلسائه: لقد أرقتُ الليلةَ مُفكّراً.

قال: فيم يا أميرَ المؤمنين؟

قال: في القَبْرِ وسَاكِنِه ، إنك لو رأيتَ الميّتَ بعد ثالثةٍ في قبره لاستوحشتَ منْ قربهِ بَعْد طولِ الأنسِ بناحيتهِ ، ولئن رأيتَ بيتاً تجولُ فيهِ الهَوام ، ويجري فيهِ الصَّديد ، وتخترقُه الدّيدان مع تغيّر الريح ، وبلي الأكفانِ بعد حُسْنِ الهيئةِ ، وطيبِ الرّيح ونقاءِ الثَّوب.

قال: ثم شهقَ شهقةً خرَّ مغشياً عليه.

فقالتْ فاطمةُ: ويحكَ يا مزاحم ـ اسم مولى ـ أخْرِجْ هذا الرجل عنّا ، فقد نغَّص علينا ، وعلى أميرِ المؤمنين الحياةَ منذ وَليَ ، فليتَه لم يَلِ.

قال: فخرجَ الرَّجُلُ ، وجاءتْ فاطمةُ ، فجعلت تصبُّ على وجههِ الماءَ وتبكي ، حتى أفاق من غشيتِهِ.

فرآها تبكي فقال: ما يُبكيكِ يا فاطمةُ؟

قالت: يا أميرَ المؤمنين ، رأيتُ مصرعَك بينَ أيدينا ، فذكرتُ مصرعَك

---

(١) الرقة والبكاء (ص ٢٩٧).

بين يدي اللهِ ، وتخليك منَ الدُّنيا ، وفراقك لنا ، فذلك الذي أبكاني .

قال : حسبُكِ يا فاطمةُ ، فقد أبلغتِ .

* ثم مالَ فَسَقَطَ ، فضممتُه إليَّ وقلتُ : بأبي أنت يا أمير المؤمنين ، ما نستطيعُ أنْ نكلمَك بكلّ ما نجدُ لكَ في قلوبنا .

* فلم يزلْ على حالهِ تلك حتى حضرتِ الصَّلاةُ ، فصبَّتْ على وجهه ماءً ، ثمَّ نادَتْه : الصلاة يا أمير المؤمنين ، فانتبَه فَزِعاً[(١)] .

* إنَّ الأخبارَ العمريةَ كثيرةٌ وجميلةٌ وخصوصاً عندما ترويها لنا فاطمةُ بنتُ عبد الملك بلسانِ الصّدقِ والواقعِ والحالِ ، وخصوصاً تلكم الأخبارُ الوضيئاتُ التي ترفعُ اسمَ عمرَ في سماءِ العُظماءِ ، فهو الذي تركَ الدُّنيا لما جاءَتْه ، ولذلك قالَ مالكُ بنُ دينار ـ رحمه الله ـ : النَّاسُ يقولون : مالكُ بنُ دينار زاهدٌ ، إنّما الزَّاهدُ عمر بن عبد العزيز الذي أتتْه الدُّنيا فتركَها .

* لقد كان عمرُ نسيجَ وحده ، عرف حياةَ التَّقوى وعرفَتْه ، وعاش يخشى الله إلى أنْ لقيه ، وقد صرَّح بخوفهِ لزوجهِ فاطمة ، ولكنْ أي خوف كان خوف عمر؟!

يَـا فَـاطِـمُ إنِّـي أَخَــافُ :

كلمةٌ صادقةٌ أطلقَها عمرُ لزوجهِ الودودِ المخلصةِ فاطمةَ بنتِ عبدِ الملك ، فقد تغيَّرتِ الصُّورةُ والإطارُ لدى عمر ، فَلِمَ لا تكونُ فاطمةُ كذلك؟!

* لقد تغيَّرتْ فاطمةُ مثلما تغيَّر عمر ، وعمرُ كما ذكَرَ محمّد بنُ كعب القرظيّ : كان حسنَ الجسمِ ممتلئاً جميلاً ؛ وعندما صارتْ إليه الخلافةُ تغيَّر ، وتغيَّرتْ طريقةُ تفكيره ، فلنسمعْ إلى محمّد بن كعبِ القرظيّ ينقلُ لنا تلك

---

(١) انظر : الرقة والبكاء (ص ٢٩٨) ، وانظر : حلية الأولياء (٥/ ٢٦٨ و٢٦٩) ، وسيرة ومناقب عمر لابن الجوزي (ص ٢٤٧ و٢٤٨) .

الصَّورةَ السَّاحرةَ الأسرةَ الهادفةَ فيقولُ: دخلتُ على عمر بنِ عبد العزيز بعد استخلافهِ، وقد نحلَ جسمهُ، وعفا شعرُهُ، وتغيَّر لونه - وكان عَهْدُنا به في المدينةِ وهو أميرٌ عليها حسنَ الجسمِ ممتلىءَ البَضْعَةِ - فجعلتُ أنظرُ إليه لا أصرفُ بصري عنه، فقال لي: يا بن كعب، مالك تنظرُ إليَّ نظراً ما كنتَ تنظرَهُ إليَّ منْ قَبْلُ؟!

فقلت: لِعَجَبِي يا أميرَ المؤمنين!

قال: وممَّ عجبُك؟

قلت: ممّا نَحل منْ جسمِك، وعفَا منْ شعرِك، وتغيَّر من لونِكَ، أينَ ذاك اللون النَّضير، والشَّعر الحسَن، والبدنُ الرّيان؟

فقال لي: إنَّك إذاً لأشدُّ عجباً منْ أمري، وإنكاراً لي، لو رأيتني بعد ثلاثٍ في قبْري، وقد وقعتْ عيناي على وجنتي، وسكنَ الدُّودُ منخري وفمي، ثمَّ راحَ يبكي ويبكي ويبكي.

* ويودُّ عمر أنْ تعيشَ معه زوجُهُ الأليفةُ هذه الحياةَ التي توصلُه إلى حياةِ النَّعيمِ الحقيقيةِ، وألاّ تعتبَ عليه في أمرِه، إذْ لم يَعُدْ لديهِ الوقتُ الكافي للزَّوجة، فوافقتْ فاطمةُ بنفسٍ مؤمنةٍ راضيةٍ مفعمةٍ بالرِّضا والامتثالِ لطاعةِ الزَّوجِ، فشاركَتْه رحلةَ التَّقشُّفِ والزُّهدِ الحقيقي الذي فرضَه على نفسهِ، فنجَحتْ نجاحاً باهِراً، بل نجحتْ نجاحاً جعلَها قدوةً لكلِّ امرأةٍ تودُّ السَّعادة لزوجِها ونفسِها على مدى الأزمان.

* لقد أضحتِ السَّيِّدةُ فاطمةُ التي هي سليلةُ الخلفاءِ، وزوجُ الخليفةِ، والمتقلِّبةُ في بهاءِ النَّعيم، وفي نعيمِ البَهاءِ يومذاك، ويومَ أنْ كانت دنياها تعرفُ الحريرَ والدِّمقْسَ، واللؤلؤَ والذَّهبَ وأجودَ أنواعِ ما جاءت به الحضارةُ عَصْر إذ.

* لقد غدتْ واحدةً منْ نساءِ القوم اللواتي يعشْنَ حياةَ البساطةِ والهدوء، ونسيتْ تلك الحياة الحلوة، فكان أحياناً يُذَكِّرُها بها، ولكنَّها تذكّرُه أيضاً بأنَّه

قادِرٌ الآن على النَّعيمِ أكثر منْ ذي قَبْل. وهي الآن قد أمستْ ذاتَ وجْهٍ شاحبٍ، وجسمٍ ضامرٍ منْ حياةِ الزُّهد، ولنسمع إلى هذا الحوارِ الذي دارَ بينَ عمرَ وفاطمةَ في هذه القصَّة الجميلة.

* دخلَ عمرُ بنُ عبد العزيز على فاطمةَ بنتِ عبد الملك زوجِهِ يوماً في الشَّام، وهي تخيطُ ثوبَها بيدِهَا، فطرحَ عليها ثوباً قديماً كانَ عليه، ثمَّ ضربَ على فخذِها وقال لها مُداعباً: يا فاطِمُ، لَنَحْنُ ليالي دابق[1] أنعمُ منَّا اليومَ. فذكَّرها ما كانتْ نسيتْ من عيشِها آنذاك ومن حياتِها المنعمةِ قُبيل الخلافةِ في مرجِ دابق ومُتَنَزَّهاته الجميلة.

* وضربتْ فاطمةُ يدَهُ ضربةً فيها شيءٌ منَ العنْفِ، فنحَّتْها عنها وقالت له في أسىً: لعمري لأنْتَ اليوم أقْدَرُ منك يومئذ.

* وعبسَ عمرُ وحزنَ من كلامِها، فقامَ يريدُ أنْ يمشيَ، وهو يقولُ بصوتٍ حزينٍ ممزوجٍ بدموعِ الخشْيَةِ والرَّهْبةِ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: يا فاطمُ، ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]، وكانتِ الآيةُ تَنْبَعثُ من قلبه وقد ترجَمها لسانُه وجوارحُه بصوتٍ نديٍّ حزين، فتأثَّرتْ فاطمةُ وبكتْ ثمَّ قالت: اللهمّ أعذْهُ منَ النَّار[2].

* ولقد صدقَ الشَّاعر عُويف القوافي عندما قال لعمر بنِ عبد العزيز:

أجبْني أبا حَفْصٍ لَقيْتَ محمّداً ... على حوضِهِ مُستَبْشِراً وَرَآكا
فأنتَ امرؤٌ كِلْتا يديهِ مفيدةٌ ... شمالكَ خَيرٌ منْ يمينِ سِواكا[3]

فَاطِمَةُ وَوَفاةُ عُمَر:

* عاشتْ فاطمةُ في كَنَفِ زوجها عمرَ بنِ عبد العزيز، وكانت

(١) «دابق»: قريةٌ قربَ حَلب منْ أعمالِ إعزاز، عندها مرجٌ معشبٌ نَزِهٌ كان ينزلهُ بنو مروان إذا غزوا الصَّائفة إلى ثغر المصيصة. (معجم البلدان).
(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٩٤) بتصرف.
(٣) تاريخ الطبري (٦/ ٥٦٦).

مثالَ المرأةِ المؤمنةِ الصَّادقةِ الشَّاكرةِ الذَّاكرة[1] ، ولم تَطُلْ خلافةُ[2] عمر ، فقد وافَتْه المنيةُ لِستٍّ بقينَ منْ رجب سنة (١٠١هـ) وكانت شكواهُ عشرين يوماً[3] .

* وكانتْ فاطمةُ بجانبهِ في أيّامِ شكْواه ، لم تكدْ تفارقُه ، وها هي تروي لنا جانباً منْ ذلك فتقول : كنتُ أسمعُ عمر في مرضهِ الذي ماتَ فيه يقول : اللهمَّ أَخْفِ عليهم موتي ولو ساعةً من نَهار .

* فلما كان اليومُ الذي قُبِضَ فيه خرجتُ من عندهِ ، فجلستُ في بيتٍ آخر بيني وبينه باب ، وهو في قُبَّةٍ ، فسمعتُه يقول : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٨] ثم هدأ ، فجعلتُ لا أسمعُ له حركةً ولا كَلاماً ، فقلتُ لوصيفٍ كان يخدمُه : ويحكَ انظرْ أميرَ المؤمنين أنائمٌ هو؟

* فلما دخلَ عليه صاحَ ، فوثبتُ ، فدخلتُ عليه ، فإذا هو ميّتٌ ، قد استقبلَ القبْلةَ ، وأغمضَ نَفْسَه ، فوضعَ إحدى يديه على فِيْهِ ، والأخرى على عينَيْه[4] .

* وجزعَ المسلمون والنَّاسُ لموتِهِ ، فقد كان كثيرٌ منهم يودّون أنْ يعطُوه أو يهبوه نصْفَ أعمارِهم حتى يظلَّ حكمه ، ويدومَ عَدْله :

---

(١) ذكرَ الذَّهبي أنَّ عمرَ لما أفضتْ إليه الخلافةُ خيَّر امرأتَه بينَ أنْ تقيمَ في منزلها وعلى حالها ، وأعْلَمها أنَّه قد شُغِلَ بما في عُنقِهِ عن النّساء ، وبين أنْ تلحقَ بمنزلِ أبيها ، فبكتْ ، فبكتْ جواريها . (سير أعلام النبلاء ٥/ ١٢٨) .
ورضيت فاطمة ، واختارتِ الإقامةَ مع عمر ، والصَّبر على ما يصبرُ عليهِ ـ رحمهما الله ـ .

(٢) كانت خلافته سنتَين وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً .

(٣) نهاية الأرب (٢١/ ٣٦٥) .

(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٩٥) ، وسيرة عمر (ص ٣٦) ، والكامل في التاريخ (٥/ ٦١ و٦٢) .

فلو يَستَطيعُ المُسْلمونَ تقسَّمُوا لَكَ الشَّطْر من أعمارهم غَير ندَّمِ

* وماتَ عمرُ ، وكانت فاطمةُ بجانبهِ في اللحظات الأخيرة ، ودُفنَ بديرِ سَمْعان منْ أرضِ حمص ـ رحمه الله ـ وعندما سمعَ كُثّير عزّة موتَ عمر أنْشَدَ قائلاً :

أَقُولُ لمّا نَعَى النَّاعُون لي عُمَراً لا يَبْعُدنَّ قَوامَ العَدْلِ والدِّينِ
قَدْ غَادرَ القَوْمُ اللحدَ الذي لحدوا بديرِ سَمْعانَ قِسْطَاسَ الموَازينِ[1]

* ورثَاه جريرٌ فقال :

يَنْعي النُّعاة أميرَ المؤمنين لنَا يا خيرَ مَنْ حجَّ بيتَ اللهِ واعتمَرا
حُمِّلْتَ أمْراً عَظيماً فاصْطَبرتَ له وقُمْتَ فيه بأمْرِ اللهِ يا عُمرا
فالشَّمسُ طالعةٌ ليستْ بكاسفةٍ تبْكي عليكَ نُجوم الليلِ والقَمرا[2]

* لقد زادتْ فاطمةُ شهرةً بزوجِها عمر ، وصارتْ أحاديثُه وذكرياتُه ممّا تفخرُ به فاطمةُ ، وتحدِّثُ به الملأ ، ومَنْ جَاءَ يسألُها عن أحوالِهِ وأعمالِه ، وبذلك سجّلت فخراً لا تمحوهُ الأيّام ، وكانت متفرّدةً في الفَضْل في ديوانِ نساءِ الأُمراءِ والخُلفاء . ولكن كيفَ كانت حياة فاطمةَ بعد عمر؟ هذا ما ستجلوه الصَّفحاتُ التَّالية .

صَدَقَ واللهِ مُوسى :

* كانتْ فاطمةُ بنتُ عبد الملك ـ رحمها الله ـ منَ النِّساءِ النَّجيباتِ المنجباتِ ، فبَعْدَ وفاةِ زوجها عمرَ بنِ عبد العزيز في سَنَةِ (١٠١هـ) ، وانقضاء عدّتها ، تزوَّجَها داودُ بنُ سُليمان بن مروانَ الأعور ، فقال النَّاس : هذا الخلفُ الأعورُ . وولدت له هِشَاماً وعبد الملك .

* وتروي المصادرُ أنَّ داود هذا كان قبيحَ الوجْهِ دميماً ، وفي ذلك قال

---

(١) تاريخ الطبري (٦/ ٥٧٢).
(٢) العقد الفريد (٣/ ٢٨٦).

موسى شَهوات[1] يعرِّضُ به ويهجوه ، ويخاطبُ فاطمة بنت عبد الملك :

أَبْعَـدَ الأَغَـرِّ بـنِ عبد العـزيـز قَـريـعُ قُـريـشٍ إذا يُـذْكَـرُ
تـزوَّجْـتِ داودَ مختـارةً ألا ذلـكَ الخَلـفُ الأَعْـورُ

فغلبَ عليه ذلك في بني مروان ، فكان يُقال له : الخَلَفُ الأعورُ ؛ وكانتْ فاطمةُ إذا سخِطَتْ عليه تقولُ له : صدقَ واللهِ موسى ، إنَّك لأنْتَ الخَلَفُ الأَعْورُ ، فيشتُمه داود[2] .

* وتسكتُ المصادرُ فلا تحدِّثُنا عن فاطمةَ بنتِ عبد الملك مع داودَ هذا إلاّ ذلك الخبر الذي قرأْنَاه .

* أمّا عن وفاةِ فاطمة فيذكرُ ياسين العمري أنَّها توفيت سنة (١٠٥هـ) أو (١٠٧هـ)[3] . ويروي ابنُ عساكر أنَّ دارها كانت بدمشقَ دار الضّيافة التي أصبحتْ للعميانِ في العقيبة خارج الفراديس[4] .

* هذه هي فاطمةُ بنتُ عبد الملك إحدى نوادِرِ نساء التَّاريخ النَّسوي أدباً

---

(١) موسى شَهَوات : هو موسى بنُ يسار مولى قريش ، وشهواتُ لقبٌ غلبَ عليه لأنَّه كان سؤُولاً مُلحفاً ، فكان كلّما رأى مع أحَدٍ شيئاً يعجبُه تباكى ، فإذا قيلَ له : مالك؟ قال : أشْتَهي هذا ، فسمّي موسى شهوَات . وهناك سببٌ آخر لتسميتِه بذلك ، وهو أنّه كانَ من شعراء سليمان بن عبد الملك ، وكان يتاجرُ بالسُّكر والفند ـ السُّويق ـ فقالتِ امرأةٌ : ما زالَ موسى يأتينا بالشّهوات ، فغلبَ عليه هذا اللقب . ومن شعره الشّائع قوله :

لَيْـسَ فيمـا بَـدا لنـا منْـك عيـبٌ عـابَـهُ النَّـاس غَيْـرَ أنَّـك فـانـي
أنـتَ نِعْـمَ المتـاعُ لـو كنْـتَ تبقـى غيـرَ أنْ لا بقـاءَ لـلإنسـانِ

ومات موسى نحو سنة (١١٠هـ) ، وأخبارُه كثيرةٌ استوفى بعضها الأصبهاني في الأغاني . (الأغاني ٣/ ٣٤٧ ـ ٣٦٤) و(الأعلام ٧/ ٣٣١) ، و(الشّعر والشّعراء ص ٥٧٧ و٥٧٨) مع الجمع والتصرف .

(٢) الأغاني (٣/ ٣٥٤ و٣٦١) .

(٣) الروضة الفيحاء (ص ٢٥٧) .

(٤) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٩٠) ، وأعلام النساء (٤/ ٧٥) .

وفَضْلاً وعلْماً وحزْماً ودِيْناً وصيانةً ، أفبعدَ هذا كلِّه نصدِّقُ ما جاءَ عَنْها من أنَّها تراسلُ الشُّعراء وتغازِلُهم ، وتطلبُ الاجتماعَ بهم ، إنَّ هذا لإفْكٌ مفترى ، وشيء عجيب! وهل صحيحٌ أنَّ عمر بنَ أبي ربيعة قد تغزَّل بفاطمةَ بنتِ عبد الملك؟!

فاطِمَةُ وَأَغْزَالُ ابنِ أَبي رَبيْعَةَ الزَّائفَة:

* إنَّ فاطمةَ بنةَ عبدِ الملك الأمويّةَ القرشيّةَ منَ النّسوةِ اللواتي طالَتْهُنَّ يدُ التَّزويق والتَّزوير ، فقد زوَّقَ الرُّواةُ أخباراً عنْ علاقتِها بعمر بنِ أبي ربيعة.

* وقد زعمُوا في خبرِ فاطمةَ هذه ، وعمر بنِ أبي ربيعةَ أنَّها لما قدمتْ مكةَ إلى الحجّ جعلَ عمرُ يدورُ حولَها ، ويقولُ فيها الشِّعْر ، ولا يذكرُ اسْمَها خوفاً منْ أبيها عبدِ الملك ومن الحجّاجِ بنِ يُوسفَ ، وذلك لأنَّ الحجّاجَ كتبَ إلى عمر كتاباً يتوعّده إنْ ذكرها ، أو عرَّضَ باسْمِها.

* وكانَ عمرُ بنُ أبي ربيعةَ في عَصْرِه شاعِرَ قُريش في فَنِّ الغَزلِ والتَّغزُّلِ ، وكانَ فتىً جميلاً عاشَ في كنفِ أُمّهِ ، ونشأَ بينَ أحضانِها ، فكان منَ الطَّبيعيّ أنْ يكونَ بطل كثيرٍ من الأقاصيصِ والأَخْبارِ والحكاياتِ التي زوَّقَها الرُّواةُ وصُنَّاعُ الأخبارِ ، لتكون زاداً للمسامراتِ والمجالسِ التي يعقدُها النَّاس في ليالي الشّتاءِ الطَّويلةِ ، يسمرون فيها ، ويقلبون أحاديثَ الشُّعراء السَّابقين وأخبارهم ، كما يقضون أوقاتهم وسهراتهم في سِيَرِ كثيرٍ من المشاهير مِنَ الرِّجالِ والنّساءِ فيمن سبقَهم منَ النَّاس(١).

---

(١) لعلَّ هناك غيرَ سببٍ واحدٍ لتلفيقِ أو لتزويق الأخْبارِ والموضوعات عنِ النّساء الأمويّات الفَاضلات منْ بناتِ الخُلفاء أو نساء الأمراء؛ منها أنَّ تدوينَ هذه الأخبارِ قد جرى معظمُه في عَصْرٍ بَعْدَ عصْرهنّ بزمنٍ طويل ، فأغلبُ تلكم الأخبار جرى في العَصْر العبّاسي ، وجاءَ بعضُه تزلّفاً لبعضِ ذوي السُّلطة من بني العبّاس ، أو تبريراً لبعضِ النّساء ذات المستوى الاجتماعي الذي تغلغل في الحياةِ العربيّة في عصرهم.
ومنها أنّ كثيراً منَ الرُّواة كانُوا يحاولونَ شَرْحَ بعض ما في الأَشْعار الغزليّة من غوامض ، أو تزويقها بالقَصص الممتع ، فينحلونَ أخباراً أو قصصاً تشَاكِلُ وتوافقُ=

* ويذكرُ الرُّواةُ والأخباريون في روايتِهم لشعرِ عمرَ في فاطمة بنت عبد الملك ، ويزعمونَ أنَّه لم يكُنْ لها من همٍّ حين حجَّتْ سوى لقاءِ الشَّاعرِ الغَزِلِ وشاعرِ الغَزَلِ عمر ، ويذكرون أنَّها أفضتْ بعزمها على الحجّ إلى والدِها عبد الملك الذي خشيَ أنْ يتصدَّى لها الشَّاعرُ العابثُ الغَزِلُ عمرُ بنُ أبي ربيعة ، أو أنْ يذكرَها بشعرِه ، فأوعزَ إلى الحجّاج بنِ يوسف أنْ يلتفتَ إلى هذا صيانةً لسمعةِ ابنتهِ الأميرةِ الأثيرةِ الجميلةِ فاطمة؛ فامتثلَ الحجّاجُ ذلك ، وأرسلَ إلى عمر يتوعده ويتهدّده إنْ ذكرَ فاطمة بسوء(١) .

* ويذكرُ الرُّواةُ وصنَّاعُ الأَخْبارِ الزَّائفةِ أنَّ فاطمةَ لم تكنْ تدري بهذا الوعيد ، بل زعموا أنّها كانت ترغبُ في أنْ تلقى عمر بن أبي ربيعة وتحادثَه ، وكانت تحبُّ أنْ يقولَ فيها شيئاً من الشِّعر ، وتتعرَّضَ لذلك ، فهي ليستْ أقلّ جمالاً وشرفاً من صاحباته الحجازيّات(٢) .

* وحجَّتْ فاطمةُ واستظهرتْ في هيئتِها ، واستصحبتْ معها منَ الجواري ما لم تَرَ الأعْينُ مثلهنَّ؛ وتهيأَ عمرُ كعادتِهِ لملاقاةِ الحجيجِ ، واستعراضِ مواكب الغانياتِ ، ويضربُ لنفسهِ مضرباً بينِ ألوفِ المضارب في مِنىً ينتظرُ الفرصةَ السَّانحةَ ، كيما يلتقي الحاجّاتِ منَ الشَّرقِ والغربِ ومن كلّ فجٍّ عميق .

* وهنا يأتي دورُ الرُّواةِ الذين رووا أخبارَ عمر وفاطمة مزخرفةً مزوّقةً مزدانةً برائقِ الكلام ، ومزوّدةً بالكذبِ والتّزويرِ .

* روى الأصبهانيُّ بسنده إلى أبي بكْر القُرشي قال : كان عمرُ بنُ أبي ربيعة جالساً بمنىً في فناء مضربه وغلمانه حوله ، إذ أقبلت امرأةٌ برزةٌ عليها أثر

= ما في الأشعارِ ، وتزيدُ معانيها رونقاً ، وتشبعُ نَهَم المتشوّقين إلى سماعِ غريب الرّوايات وطريفها . (عمر بن أبي ربيعة ٣/ ١٣٤) لجبرائيل جبور ، بتصرف .

(١) انظر : الأغاني (١/ ٢٠١) بتصرف يسير .

(٢) انظر : عمر بن أبي ربيعة حبه وشعره (٣/ ١٣٥) بتصرف .

النّعمة ، فسلمتْ فَردَّ عليها عمر السَّلام ، فقالت له : أنتَ عمرُ بنُ أبي ربيعة؟

فقال لها : أنا هو ، فما حاجتك؟

قالت : حيّاك اللهُ وقرّبك! هل لكَ في محادثةِ أحسن الناس وجهاً وأَتمّهم خلقاً ، وأكملهم أدباً ، وأشرفهم حَسَباً؟

قال : ما أحبّ إليَّ ذلك!

قالت : على شرط .

قال : قولي .

قالت : تمكنُني من عينَيْك حتّى أشدهما وأقودك ، حتى إذا توسَّطتُ الموضعَ الذي أريدُ حللتُ الشَّدَّ ، ثمَّ أفعلُ ذلك بك عند إخراجِك حتى أنتهي بكَ إلى مضْرَبك .

قال : شأنك .

* ففعلتْ ذلك به . قال عمر : فلما انتهتْ بي إلى المضربِ الذي أرادتْ كشفتْ عَنْ وجهي ، فإذا أنا بامرأةٍ على كرسي لم أرَ مثلها قطّ جمالاً وكمالاً ، فسلَّمَت وجلَسَتْ ، فقالت : أأنتَ عمرُ بنُ أبي ربيعة؟

قلتُ : أنا عمر .

قالت : أنتَ الفَاضِح للحرائر؟

قلت : وما ذاك جعلني اللهُ فداءك؟

قالت : ألستَ القائِل :

قَالَتْ وعَيْشُ أَخي ونعمةُ والدي ... لأنبهِنَّ الحيَّ إنْ لمْ تخْرُجِ
فخرجتُ خوفَ يمينِها فتبسَّمَتْ ... فَعلمْتُ أنَّ يمينَها لم تَحْرَجِ
فَتَناوَلتْ رأسي لتعْرِفَ مسَّه ... بمخضبِ الأَطْرافِ غيرِ مشنّجِ
فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بقُرونها ... شُرْبَ النَّزيف ببردِ ماء الحشْرجِ

* ثمّ قالت : قُمْ فاخرجْ عنّي ، ثمّ قامتْ من مجلسِها ، وجاءت المرأة

فشدَّت عيني ، ثمّ أخرجتني حتى انتهتْ بي إلى مضربي ، وانصرفتْ وتركتني ، فحللتُ عيني وقد دخلني من الكآبةِ والحزنِ ما الله بهِ أعلم.

* وبتُّ ليلتي ، فلما أصبحتُ إذا أنا بها ، فقالت : هل لكَ في العود؟

فقلتُ : شأنك.

ففعلتْ بي مثل فعلها بالأَمْس حتى انتهتْ بي إلى الموضع ، فلما دخلتُ إذا بتلك الفتاةِ على كرسي ، فقالت : إيه يا فضَّاحَ الحرائرِ!

قلتُ : بماذا جعلني الله فداءك؟

قالت : بقولك :

ونَاهِدَةِ الثَّدْيَيْنِ قُلْتُ لها اتّكي ... على الرّملِ منْ جبَّانةٍ لم توسَّدِ
فقالتْ على اسْمِ الله أمرُكَ طاعةٌ ... وإنْ كنتُ قد كُلِّفتُ ما لم أعوَّدِ
فلمّا دنا الإصْبَاحُ قَالتْ فَضَحْتَني ... فقُمْ غيرَ مطرودٍ وإن شئتَ فازْدَدِ

* ثمَّ قالت : قُمْ فاخرجْ عنّي؛ فقمتُ فخرجتُ ، ثمّ رُدِدْتُ. فقالتْ لي : لولا وشَكُ الرَّحيلِ ، وخوفُ الفَوتِ ، ومحبّتي لمناجاتك والاستكثار من محادثتك لأقصيتُك؛ هات الآن كلمني وحدثني وأنشدني ، فكلمتُ آدَبَ النَّاسِ ، وأعلمَهم بكلّ شيء ، ثم نهضتْ وأبطأتِ العجوزُ ، وخلا البيتُ ، فأخذتُ أنظرُ فإذا أنا بتورٍ فيه خَلُوق ، فأدخلتُ يدي فيه ، ثمَّ خبأتُها في رُدْني ، وجاءت تلك العجوز ، فشدَّت عيني ، ونهضتْ بي تقودُني ، حتى إذا صرتُ على بابِ المضرب ، أخرجتُ يدي فضربتُ بها على المضربِ ، ثم صرتُ إلى مضربي ، فدعوتُ غلماني فقلتُ : أيّكم يقفُني على بابِ مضربٍ عليه خلوق كأنَّه أثرُ كفّ فهو حرٌّ وله خمسمئة درهم ، فلم ألبثْ أنْ جاءَ بعضُهم فقال : قمْ ، فنهضتُ معه ، فإذا أنا بالكفّ طريّة ، وإذا المضربُ مضربَ فاطمةَ بنت عبد الملك بن مروان ، فأخذتُ في أهبةِ الرَّحيل ، فلما نفرتْ نفرتُ معها ، فبصرَتْ في طريقها بقبابٍ ومضربٍ وهيئة جميلةٍ ، فسألتْ عن ذلك ، فقيل لها : هذا عمرُ بنُ أبي ربيعة ، فساءها أمره وقالتْ للعجوز التي كانت ترسلها إليه : قولي له نشدتك اللهُ والرحم ألاّ يصحبني ،

ويحك! ما شأنُك وما الذي تريد؟ انصرفْ ولا تفضحْني وتشيطَ بدمك.
فسارتِ العجوزُ إليه فأدَّتْ إليه ما قالت لها فاطمة، فقال: لستُ بمنصرفٍ أو توجِّه إليَّ بقميصها الذي يلي جلْدها، فأخبرتْها ففعلتْ ووجَّهت إليه بقميصٍ من ثيابها، فزادَه ذلك شَغَفاً، ولم يزلْ يتبعهم لا يخالطُهم، حتى إذا صار على أميال من دمشقَ انصرفَ وقال في ذلك:

ضَاقَ الغَداةَ بحاجتي صَدْري ... ويئستُ بَعْدَ تقارُبِ الأَمْرِ
وذكرتُ فاطمةَ التي عُلِّقْتُها ... عرضاً فيا لحوادثِ الدَّهْرِ
ممكُورةٌ رَدْعُ العَبيرِ بِها ... جَمُّ العِظَام لطيفةُ الخَصْرِ
وكأنَّ فاها عنْد رقْدتها ... تجري عليه سلافَةُ الخَمرِ
فَسَبَتْ فُؤادي إذ عرضتُ لها ... يومَ الرَّحيل بساحةِ القَصْرِ
لما رأيتُ مطيّها حِزَقاً ... خَفَقَ الفؤادُ وكنتُ ذا صَبْرِ
وتبادَرَتْ عيناي بعدهُم ... وانهلَّ دمعُهما على الصَّدرِ
ولقد عصيتُ ذوي القرابةِ فيكم ... طرّاً وأهلَ الودّ والصِّهْرِ
حتى لَقَدْ قالوا وَمَا كَذبوا ... أجُنِنْتَ أمْ بك داخلُ السِّحرِ(١)

* هذه هي القصَّةُ كما رواها أبو الفرج الأصبهانيّ في أغانيه، وهي كمثلِ غيرها من القَصَصِ المفترى على حرائرِ النِّساء، وتشويهِ سمعتهنّ وتلويثِ سيرةِ حياتهنّ.

* والقصّةُ كما يلحظُ القارىءُ متفكّكة لا تنسجمُ أحداثُها مع واقع الحياةِ آنذاك، إذْ إنَّ فاطمةَ بنتَ عبد الملك وهي مَنْ هيَ في الذّروةِ والشَّرفِ والحراسةِ والحشمِ والخدمِ ترسلُ لعمر بن أبي ربيعة عجوزاً ثمّ تنقدُه وتستظهرُ عليه، ثمَّ تخافُه فترسلُ له ثيابها الدَّاخليّة!!

* ومَن العجيبِ أنَّ خيالَ الوضّاعين كان واسِعاً، ولكنّه كان سَقيماً، فهل

---

(١) انظر: الأغاني (١/ ١٩٦ ـ ٢٠٠)، والقصة كما يرى القارىءُ الكريمُ فيها ضَرْبٌ من الخيالِ والكذبِ والتّقوّلِ على لسانِ فاطمة بنت عبد الملك.

يُعقلُ أنْ يتبعَ عمر موكبَ ابنة الخليفةِ منْ مكّةَ إلى دمشقَ دون أنْ يُسألَ من قِبلِ الحرّاس الموكّلين بفاطمةَ؟! وهل يتبعُ الإنسانُ امرأةً مسيرةَ شهرَيْن أو أكثر في ذلك الزَّمان؟! ثمّ لا يظْفرُ برؤيتها؟

* وممّا يدعو إلى العجبِ أنَّ فاطمة في هذه القصّة تنقدُ عمر، ثم تقول بأنّها تحبُّ مناجاةَ عمر وأحاديثه، ثم تخشاهُ وتخافُ من أغْزَالِهِ فيها؟! ولكي تتمّ الحبكةُ المصطنعةُ، ذكروا أنَّ عمرَ وجَد حُقّاً فيه طيْبٌ، فعلَّمَ بابَ الخيمةِ به، ولما عَلمَ أنَّ المضرب لفاطمةَ بنت عبد الملك انتشى طرباً وازدادَ بها شَغَفاً، وسايرَها حتّى بلغَ مشارفَ دمشق ثمّ عادَ وتغزّل بها؟!

* إنّنا لا نستطيعُ أن نسلِّم بسهولة لصحّةِ هذهِ القصّة المفتراةِ على فاطمةَ، والتي نسَّقَها الرُّواةُ على تلكَ الشَّاكلة، والتي لا تصلحُ أنْ تكون فِلْماً منَ الأفلامِ الرّكيكةِ في عَصْرنا.

* يُضافُ إلى ذلك كُلِّه أنَّ الجاحِظَ قد روى في الكتاب المنسوبِ إليه «المحاسن والأضداد» هذه القصّة بروايتَيْن، تذهبُ الواحدة إلى أنَّ الفتاةَ هي رملةُ أخت عبد الملك، والأخرى بنْت لعبد الملك لم يُسَمِّها، وتزعمُ القصّة أنَّ ابنة عبد الملك حجَّتْ وأقامتْ في مكةَ أشهُراً فلم يذكرْها عمرُ بنُ أبي ربيعة في شعرِه، وأرسلتْ إليه ليقول فيها الشّعر الغَزَلي وقالت للرَّسولِ: اذهبْ إليه واسألْه، ولكَ في كل بيتٍ تأتيني به منه عشَرةُ دنانير، فذهبَ الرَّجلُ وأتى عمرَ بنَ أبي ربيعة فأخبَرهُ الخبرَ، فقال له: قد فعلتُ وأحبُّ أنْ تكتمَ عليَّ، ثمَّ أنشدَه قصيدةً مطلعها:

راعَ الفُـــؤادُ تفـــرُّقَ الأَحْبَـــابِ ... يـومَ الـرَّحيـل فَهـاجَ لـي أَطْـرابـي

* ثمَّ أتى بالأبياتِ إلى ابنةِ عبد الملك، فأعجبَتْ بها، وأمرت جواريها بحفظِها، ووفَّتْ للرّجُلِ بما وعَدَتْ، وأعطتْه عَشَرةَ دنانير من كلِّ بيت[1]؛

---

(١) انظر: المحاسن والأضداد (ص ٣٠٩ ـ ٣١١) و(ص ٣٢٥ ـ ٣٣٠) طبعة دار العلوم.

وكذلك جاءَ الخبرُ عند ابن قُتيبة بأنَّ الرَّجلَ أتاها بالشِّعر ، فأعطَتْهُ لكلِّ بيتٍ عشرة دنانير[1] .

* ويروي الأصفهاني قَصَصاً عن أغزالِ عمرَ بنِ أبي ربيعة بفاطمة بنتِ عبد الملك ، ومنها قال : لمّا قدمتْ فاطمةُ مكةَ جعلَ عمرُ بنُ أبي ربيعة يدورُ حولَها ، ويقولُ فيها الشِّعر ، ولا يذكُرها باسْمِها فَرَقاً من عبدِ الملك بنِ مروان ، ومنَ الحجّاجِ ، لأنَّه كان كَتَبَ إليه يتوعّده إنْ ذكرَها أو عرَّضَ باسْمِها ، فلما قضت حجَّها ، وارتحلت أنشأَ يقولُ :

كِدْتُ يومَ الرَّحيلِ أقْضي حيَاتي ... لَيتَني متُّ قَبْلَ يومِ الرَّحيلِ
ذَرفَتْ عينُها فَفَاضَتْ دموعي ... وكلانَا يلقى بِلُبٍّ أصيلِ
ولقد قَالَتِ الحبيبةُ لولا ... كَثْرةُ النَّاسِ جُدْتُ بالتَّقبيلِ[2]

* وزعمَ الأصبهاني أنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ قال في فاطمةَ بنت عبد الملك :

يا خَليلي هَاجَني الذّكْرُ ... وحُمولُ الحيِّ إذْ صَدَروا
بالتي قَدْ كُنْتُ آمُلُها ... ففؤادي موجَعٌ حَذِرُ
لو سُقيَ الأَمْواتُ ريقتَها ... بعد كأْسِ الموتِ لانْتَشروا
ضَرَبُوا حُمْرَ القِبَابِ لَها ... وَأُحيطتْ حَولَها الحُجَرُ
فطرقْتُ الحيَّ مُكتَتِماً ... ومعي عَضْبٌ به أثَرُ
فَإذا رِيمٌ على مُهُدٍ ... في حِجَالِ الخزِّ مُسْتَتِرُ
حَولَه الأحراسُ ترقُبُهُ ... نُوَّمٌ من طول ما سَهِرُوا
أَشْبَهوا القَتْلى وَمَا قُتِلوا ... ذاكَ إلاّ أنَّهُم سَحَروا
فدعَتْ بالويلِ ثمَّ دعَتْ ... حينَ أَدْنَاني لَها النَّظَرُ
ودَعَتْ حَوْرَاءَ آنسةً ... حرَّة منْ شأنِها الخَفَرُ

---

(١) الشّعر والشّعراء (ص ٥٥٤و٥٥٥).
(٢) الأغاني (١/ ٢٠١) وديوان عمر (ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩) قطعة رقم (١٧١).

ثــمَّ قَــالَــتْ للتــي مَعَهــا وَيْــحَ نفســي قــد أتــى عمــرُ
مــا لَــهُ قــد جــاءَ يطــرقُنــا ويــرى الأعــداءَ قــد حَضُــروا
قُلــتُ عِــرضــي دونَ عــرضكــمُ وَلِمــنْ عَــاداكُــمُ جَــزَرُ[1]

* ويروي الأصبهانيُّ أيضاً أنَّ ضيفةَ حلقتِنا لم تكنْ تقصدُ الحجَّ إلا لرؤيةِ ابن أبي ربيعة عمر ، ولو لم يحجّ هو لما حجَّتْ:

أومَــتْ بعينَيْهــا مِــنَ الهــودَجِ لَــولاَكَ فــي ذا العَــامُ لــم أَحْجُــجِ
أنْــتَ إلــى مكَّــةَ أَخْــرَجْتَنــي ولــو تــركــت الحــجَّ لَــمْ أخــرجِ[2]

* فهلْ تعتقدُ عزيزي القارىء أنَّ فاطمةَ بنتَ عبد الملك بن مروان ، لم تقصدْ مكةَ للحجّ ، وإنّما لرؤيةِ ابن أبي ربيعة؟! إنّنا نعتقدُ أنَّ كلَّ ما قيلَ في هذه المواضيع وأشباهها هي من صنْع الرُّواةِ وأهلِ الأَخْبارِ ممن أغرموا بوضع القَصَصِ عن شريفات النِّساء ، وذلكَ لتشويهِ صورهنَّ الحقيقية ، لأنَّ فاطمةَ ومن في طبقتها عشْنَ في خيرِ القُرون ، وكُنَّ منْ خيرِ النّساءِ دِيْناً ، وعلْماً ، وصيانةً ، ولا يمكنُ لامرأةٍ متّزنةٍ فاضلةٍ مثل فاطمة بنتِ عبد الملك أنْ تتصرَّفَ تلكم التَّصرُّفات الطَّائِشَة التي تحطُّ مِنْ قَدْرِها؛ بل لا يمكنُ لامرأةٍ أقلَّ منْ فاطمةَ بكثير أنْ تتصرَّفَ بتلك الخفّة وذلك الطَّيش ، وإنّما هذا منْ طيشِ الرّواة ، وحقْدِ الطَّائشين ، الذين لم يفرّقوا بين الغَثّ والسَّمين.

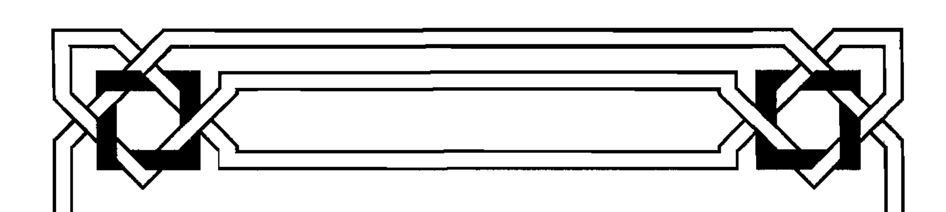
* وأرجو المعذرةَ منَ القارىءِ الكريم ، فلعلّي قد أطلتُ في هذا المجالِ ، ولكنّي أرجو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ أكونَ قد وفّقتُ في إبرازِ صورةِ فاطمةَ بنتِ عبد الملك على الوجْهِ الصَّحيح السَّليم ، لتكونَ صورتُها وأعمالُها

---

(1) انظر الأغاني (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣) ، وديوان عمر (ص ١٥٨ ـ ١٦١) مع الجمع والتصرف.
(2) انظر ديوان عمر (ص ٤٨٧) قطعة رقم (٣٥٣).

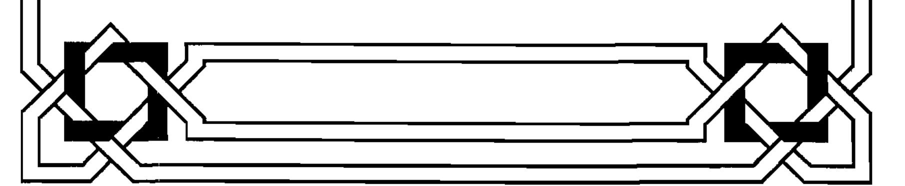
قدوةً لنسائِنا على مدارِ التَّاريخ ، ولتكونَ فاطمةُ واحدةً منْ نساءِ قصورِ الأمراء اللواتي رسمنَ أبهى المآثر في دنيا المكرُمَات . فلقد بقيتْ فاطمةُ في حالةِ زُهْدٍ وعبادةٍ وورعٍ وخَيْرٍ حتى صَعِدَتْ روحُها إلى ربّها راضيةً مرضيةً على النَّهج العمريّ الذي عاهدت عليه عمر عندما آلتْ إليه الخلافة . فرحم اللهُ فاطمةَ بنتَ عبد الملك بن مروان ، وأسكنها فسيحَ الجنَان .

* * *



(١٦)
قطر الندى بنت خمارويه

* حفيدةُ أحمد بن طولون ، مؤسس الدولة الطولونية في مصر .
* سيدة النساء في دار السلام ببغداد أيام زمانها ، ولها عرس مشهور .
* من الشهيرات عقلاً وأدباً وجمالاً .



الأمـيْـرَةُ الـشَّـابَّــةُ :

* مَنْ كانَ يتوقَّعُ أنْ تقتعِدَ هذه المرأةُ الشَّابَّةُ عرشَ بغداد ، وتصبحَ السَّيِّدةُ الأولى في عالم عَصْرِها ومصْرِها؟!

* بل مَنْ كان يتوقَّعُ أنْ تكونَ هذه المرأةُ واحدةً من نساءِ قصُور الأمراءِ اللواتي تُجْلى أخْبارهُنَّ ، وتُسْتَحلى أقوالهنَّ لولا قصْرُ أبيها وزوجها؟!

* ومنْ ذَا الذي كانَ يعرفُ أنَّ هذه المرأةَ ستأتي منْ أرضِ الكنَانةِ ، ومن أصلٍ تركي ، لتكونَ سيّدةَ النِّساءِ في دارِ السَّلامِ بغدادَ؟!

* كانتْ هذه المكانةُ لهذهِ المرأةِ عندما فتحَ الإسلامُ بابَ التَّسامُح على مصْراعيه ، فاختلطَ العربُ الفاتحونَ بغيرِهم منَ الأقوامِ الدَّاخلةِ في دِيْنِ الله ، وبغيرِهم ممن بقيَ على ما كانَ عليهِ آباؤهم منْ قبلُ يتعبَّدُون الله سِرّاً أو علانيةً ، وفشَا الزَّواجُ والتَّسري بالجواري ، وخصوصاً بينَ قادَة الجيوشِ والجنْد ، وشَعَر بعضُ العَرب بخطرِ هذا الاختلاطِ ، وشكا بعضُهم منه ، ومنْ ذلك ما قاله الشَّاعر الرِّياشي :

إنَّ أولاَدَ السَّــرَارِي كَثُــروا يَــاربّ فِيْنَــا
رَبِّ أدْخِلْنِــي بــلاداً لا أرى فيْهــا هَجِيْنَــا

* ولكنَّ هذهِ المرأةَ ممن شَهدَ لها المؤرِّخُون بالعَقْل والحصَافَةِ ، ولم تكنْ منَ النِّسوَةِ اللواتي تركْنَ الأدَبَ جانباً ، وتَبِعْنَ ما يحلُو لهنَّ ، كَما أنَّها كانتْ ممن عرفَتْ محاسنَ الآداب ، وتأدَّبَتْ في بيتِ أبيها على أفْضَلِ المعارفِ وأكْملِها ، وإن كانَ أبوها مِنَ المبذّرينَ في يومِ زفافِها على خليفةِ بغدادَ.

* تُرى؛ مَنْ هذهِ الأميرةُ ، بلِ الملكَةُ الشَّابّةُ التي ملأتِ الدُّنيا وشَغَلَتِ النَّاس حيناً مِنَ الدَّهْر لم يتجاوزْ بضْع سنين؟

* تذكرُ المصادرُ أنَّها منْ شَهيْراتِ النِّساء عقْلاً وأدباً وجمالاً ، وعلى

الرغم من أنَّ المؤرّخينَ أغفلُوا اسمَها الحقيقيَّ وهو «أسماء» ، إلاّ أنَّهم ذكروا لقبَها الذي عُرفَتْ به وهو قَطْر النَّدى بنت خَمارويه بن أحمد بن طولون[1] ، كما أنّهم ذكروا أنَّها من ربَّات الحُسْنِ والجَمال والرَّأي والعَقْل والأدَب الذي زادَها جمالاً على جمال ، وبهاء على بهاء .

في قَصْر أبيْهَا :

* قَطْرُ النَّدى هذه ، حفيدةُ أحمدَ بنِ طولُون مؤسِّسُ الدَّولةِ الطُّولونيّة بمصْرَ ، وصَفَه ابنُ خلّكان بأنَّه كانَ عَادِلاً جَواداً شُجاعاً مُتَواضِعاً ، حسنَ السِّيْرة ، صادقَ الفِراسَةِ ، وُلِدَ بسامرا سَنَة (٢٢٠هـ) ، ودخَل مصْرَ سنةَ (٢٥٤هـ) ، وتوفيَ بها سنة (٢٧٠هـ) وهو منْ أصْلٍ تُركي[2] .

* أمَّا أبوها فهوَ أبو الجيْشِ خمارويه بنُ أحمدَ بنِ طُولون ، وُلدَ سنةَ (٢٥٠هـ) وليَ مصْرَ وهو ابنُ عشرينَ سنة ، وكان منْ أَحْسَن النَّاس حظّاً ، وأقامَ على ذلك إلى أنْ قَتَله غلْمانُه بدمشقَ على فراشِه سَنَة (٢٨٢هـ) وعمرُه حينذَاك ٣٢ سنة[3] .

* أمّا قَطْرُ النَّدى التي نَحْفَلُ بسيرتها اليوم ، والتي نَسْتَجلي أخبارَها مع نِساءِ الأُمراء والخُلفَاء ، فكانَ مولدُهَا حوالي (٢٦٧هـ) في مصْرَ أرضِ

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٦٦ و٧٢ و٨٣) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٣١٢) ، والحَدائق الغنّاء (ص ١٣٨) ، وولاة مصر للكندي (ص ٢٦٤) ، والفرج بعد الشدّة (٢/ ١١٢ و٢٥٢) ، والكامل في التّاريخ (٧/ ٤٩٨ و٥٠٨) ، والأعلام للزركلي (١/ ٢٩٩) ، والنّجوم الزّاهرة لابن تغري بردي (٣/ ٥٣ و٦١ و٦٣ و٨٨) ، وأعلام النِّساء (٣/ ٢١٢ ـ ٢١٥) ، ومعجم البلدان (٤/ ٧٥) ، والرّوضة الفيحاء لياسين العمري (ص ٢٦٩ و٢٧٠) وشذرات الذهب (٣/ ٣٦٥) ونهاية الأرب للنويري (٢٢/ ٣٤٦) وتاريخ القضاعي (ص ٤٨٢) ، ومروج الذهب (٤/ ١٤٥ و١٤٦) .

(٢) انظر : وفيَات الأعيان (١/ ١٧٣ و١٧٤) بتصرّف .

(٣) انظر : وفيات الأعيان (٢/ ٢٤٩ و٢٥٠) باختصار وتصرّف .

الكنانة ، ونشأتْ في قَصْرِ أبيها خمارويْهِ نشْأَةَ البَنات اللاتي لم يعرفْنَ سوى فتنةِ الحياةِ الدُّنيا ونعيمها .

* كانتْ قطْرُ النَّدى منْ أحبِّ أطْفَالِ أبيها إلى نَفْسِه ، فقد كانتْ طفْلةً فاتِنةً حَبَاهَا اللهُ جَمالاً نادِراً سَاحِراً ، وظرفاً ومودَّةً وقوّةَ أسْرٍ ، وعلى الرّغم منْ أنَّها لم تكَدْ تشبُّ عنِ الطَّوقِ بَعْدُ ، إلاّ أنَّه كان لها منْ حُسْنِ الذّكاء وقوّةِ الإدراكِ ما يجعلُها تحسنُ الحديثَ مع أبيْهَا ، ومع مَنْ حَوْلَها ، وتحسنُ الاستماعَ ، وتفهمُ بعضَ ما يعرضُ لها منَ الأمْرِ ، فتفصِّلُ فيهِ وتضعُ الحلَّ .

* ولم يكنْ خمارويْه يتوقَّعُ في يومٍ منَ الأيّام أنَّ ابنتَه قَطْر النَّدى ستغدو أميرةَ البلاطِ العبّاسي في العراقِ ، لأَنَّ الوقتَ لم يَحِنْ بعد ، ولأنَّ الأيّام كانت تسيرُ باسمةً أمامَ خمارويه ، والأحداثَ تساعِدُه حتى بلغَ مكاناً مرمُوقاً في عَصْره ، ومَلَكَ منَ الفُرات إلى بلادِ النَّوبةِ بمصْرَ .

* واستقرَّ الأَمْرُ في مصرَ والشَّام لخمارويه ، وكانَ يجلسُ في قَصْره الذي يشرفُ على النّيل والبساتين والصَّحراء ، فما شيءٌ في المدينةِ وأربَاضِها إلاّ يراهُ من شرفَته في أعلى قَصْره .

* وكانت ابنتُه قَطْر النّدى التي تكبرُ مع أحلامِهِ قد تخطَّتْ مرحلةَ الطُّفولةِ ، وظهرَ في وجنتيْها ماءُ الشَّبَاب ، وبدتْ على شفتَيْها ابتسامةُ الرِّضا والأَمانِ ، وكانت كثيراً ما تجلسُ بجانبِ أبيها في قَصْرِهِ المُشْرِف ، وترى الطَّبيعةَ الجميلةَ ، والنَّخلَ الباسقاتِ التي تتدلّى قطافها كأَنَّها الياقوتُ الأحمرُ ، ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ ﴾ [النَّمل : ٨٨] ، ثمَّ تتحولُ إلى جهةٍ أخرى فترى الرَّياحينَ ذات الألوان السَّاحرة من أحمر قانٍ ، وأبيضَ ، وأصْفَرَ ، وما شابَه ذلك منْ أشكالِ وألوانِ الزَّهْر التي تبهجُ النُّفوس ، وتجلو الصَّدأ عنِ القُلوب بحسنِ منْظَرِها ورائحتها ولونها : ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

* وكانَ الأميرُ خمارويه يُسَرُّ عندما يرى ابنتَه الأميرةَ الجميلةَ تُمتِّعُ ناظريها بجمالِ الطَّبيعةِ وسحْرِها وفتنتها . وكان مُنَاه أنْ يرى المسرَّة تحيطُ بها ،

وترطِّبُ نَفْسَها ، ويرى كذلك السَّعَادَةَ ترفرفَ فوقَها ، وتنشرُ ظِلالَها عليها ، وكثيراً ما كان يُحدثُها ويحكي لها عن أمْجادِ الدَّولة الطُّولونية ، وعن نشأتِها ، واستقرارِها في أرضِ الكنَانَةِ .

أنـا أتـزوجهـا :

* بُويعَ للمعتضدِ بالله أبي العبَّاسِ أحمدَ بنِ الموفّق بولاية عَهْدِ المسلمين في بغدادَ ، وكان منْ أكملِ الخُلفَاءِ المتأخّرينَ منْ بني العبَّاس .

* قال ابنُ الفُرات : كانَ المعتضدُ باللهِ منْ أكملِ النَّاسِ عَقْلاً ، وأعلاهم همّةً ، مِقْداماً ، عَالماً ، سخيّاً ، وضَعَ عنِ النّاس السَّقايا ، وأسْقَطَ المكُوسَ التي كانت تُؤْخَذُ بالحرمَيْن ، وضبطَ الأَمْر ، وكانتِ الخلافَةُ قد وهَى أمْرُها وضَعُفَ ، فأعزَّهَا اللهُ تعالى بالمعتضدِ ، وأيّدها بتدبيرِهِ وسياسَتِه[1] .

* وعندما عَلِمَ خمارويه بولايةِ المعتضدِ بالله ، بعثَ إليه بهديةٍ مليحةٍ منْ طرائفِ مصْرَ ، وطلبَ إليه أنْ يقرَّه على المَوْصِلِ إلى ما تحت يَدِه منْ مِصْرَ وبرقة والشَّام والثُّغور ، فبعثَ المعتضدُ إلى خمارويه يقول : قد قَبلْنَا الهديّة وشكرنَا لكَ ، أمّا الموصل فنحنُ أدْنى إليها يَداً .

* ولعلَّ خمارويه لم يطمئنْ كثيراً إلى المعتضدِ الذي عُرِفَ بالحزمِ؛ وطالَ أرقه ليالي ، وراحَ يلتمِسُ هدوءَ النَّفْس بينَ قُصوره وحظاياه ، ولكنَّه لم يَجِدْ شيئاً يُسلّيه ، فألهمته ابنته قَطْر النَّدى ما كان يعتورهُ ويعتريه من همومٍ؛ ترى ما الإلهامُ الذي استوحاهُ خمارويه من ابنته قَطْر النّدى؟!

---

(١) شذرات الذهب (٣/ ٣٧١ و٣٧٢)؛ ومنَ الجدير بالذّكْر أنَّ المعتضدَ باللهِ كان يسمّى السَّفَّاح الثَّاني ، لأنَّه جدَّدَ مُلْكَ بني العبَّاس ، ووطّدَه بعدَ أنْ كانتِ الأتراكُ قَد أخلقَتْه ، وفي ذلك يقولُ ابنُ الرُّومي :

هَنيئاً بنـي العبَّـاس إنَّ إمـامَكـم ... إمـامُ الهـدى والجـود والبـأس أحمـد
كمـا بـأبـي العبَّـاس أُسِّسَ ملككُـم ... كـذا بـأبـي العبَّـاس أيضـاً تجـدَّد

(نهاية الأرب ٢٢/ ٣٦٠) .

* كانت قطْرُ النَّدى قد كبرتْ وبلغتْ شأْواً ، ونضجتْ عقْلاً وأنوثةً ، وغدتْ منْ كرائِمِ نساءِ عَصْرِها وجميلاتهنَّ ، وممن يُشار إليها بالبَنَان.

* وكانَ في ذِهْنِ خمارويه أنْ يطلبَ منَ المعتضد العبّاسي في العراقِ أنْ يزوِّجه ابنتَه قطر النَّدى لابنهِ عليّ بنِ المعتضد.

* وأخذَ خمارويه يجتمعُ بخاصَّتِه وأصحابِه ، وأفضى إليهم بما اجتمعَ عليه رأْيُه ، فكلُّهم رضيَ ذلك ورآهُ صواباً ، وشجّعُوا خمارويه على ذلك.

* واستقرَّ رأيُ خمارويه أنْ يُرسلَ بهديةٍ سنيّةٍ إلى المعتضدِ بالله ، ويبعثَها مع أبي عبد الله الحُسين بنِ الجصّاص الجوهريّ ، ويطلبَ منَ المعتضدِ أنْ يَصِلَ نَسَبَه بنسبه ، إذْ إنَّ نفسه تتوقُ إلى ذلك ، كما طلبَ منه أنْ يزوِّج ابنه عليّاً الملقب بالمكتفي[1] منْ ابنتِه الأميرةِ قَطْرِ النَّدى سيّدة نساءِ مصْرَ جَمالاً وأدَباً وكمالاً.

* وسارَ موكبُ الهدايا منْ أرضِ الكِنانة نحو بغداد دار السَّلام ، ودخلَ الموكبُ بصورة أذهلتْ أهْلَ بغدادَ ، حيث كانَ من ضمنِ الهدايا بغْلٌ أشهب

---

(١) المكتفي باللهِ ، الخليفة أبو الحسن عليُّ بنُ المعتضد بالله بن الموفق بن المتوكّل بن المعتصم العبّاسي ، كانَ وسيماً جميلاً ، بديعَ الجمالِ معتدلَ القامةِ ، درّيَّ اللون ، أسودَ الشَّعر ، استُخلفَ بعد أبيه ، وكانتْ دولتُه ست سنين ونصفاً ، وفيه يقولُ أحدُ أعيانِ الأدباء ، وقد أبانَ زوجته عن نشوزٍ وعقوقٍ:

قَايَسْتُ بينَ جمالِها وفعَالِها ... فإذَا الملاحةُ بالخلاَعةِ لا تَفِي
حَلفَتْ لنا ألاّ تخونَ عهُودَنا ... فكأنّما حلفَتْ لنا ألا تَفِي
واللهِ لا راجعتُها ولو أنّها ... كالبدر أو كالشّمسِ أو كالمكتفي

وكانَ المكتفي كثيرَ العَساكِر ، كثيرَ المال ، يخصُّ أهلَ بيته بالكرامةِ والحباءِ الكثير ، ولم يَلِ الخلافةَ بعد النَّبيّ ﷺ من اسمه عليّ إلا عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وعليّ المكتفي بالله. توفيَ المكتفي بالله في ذي القعدة سنة (٢٩٥هـ) وله إحدى وثلاثون سنة.

(شذرات الذهب ٣/ ٤٠١ و٤٠٢) ، و(المحمدون من الشُّعراء ص٣٤٤) مع الجمع والتصرف.

قَدْ شُدَّ إلى ظَهْرِه صندوقان قد غُلِّفَا برقائقِ الذَّهب ، وأُغلِقَا على ما فيهما منْ أشياءَ ثمينةٍ لا تُعرفَ أسرارُهَا ، وكان يتبَعُ البَغْلَ عشرون نجيباً عليها رجالٌ قد لبسوا الدَّيْباجَ وفاخِرَ الملابسِ ، ووراءهم عشرون بغْلاً موقّرة بأحمالها ، فيها منَ الغاليةِ والطِّيْب ، وفيها من حرير دمياط ما لا يُعْرفُ ولا يُوصف من طرائفِ مصْرَ ، ويتبَعُ ذلك عشرة غِلمان ، ومن ورائهم دوابّ وبغال محمّلة بالغَرائب والطَّرائف؛ ويذكرُ القَاضي الرَّشيدُ بنُ الزُّبير صورةَ هدايا خمارويهِ للمعتضدِ فيقولُ : وأهدى إليهِ أبو الجيْشِ بنُ أحمدَ بنِ طولُون مع أبي عبد اللهِ الحُسين بنِ أحمد الجوهريّ المعروف بابن الجصّاص عشرينَ جَمَلاً محمَّلة مَالاً ، وعشرةَ خَدمٍ بدوابّهم وحلاهُم ، وصندوقَيْن مملوءَيْن دقّاً ، وعشرينَ حِمارةً محلاَّة ، وخمسةَ أفراسٍ بسروجٍ ذَهَب ، واثني عشَر فرسَاً بسروجِ فضّة ، وسبعةً وثلاثين دابّة بجلال دَيْباج وبراقع ديباج ، وخمسةَ أبْغُلٍ مصريّة بسروجها ولُجُمها[١] .

* وفي موضعٍ آخر يذكرُ القاضي الرَّشيدُ بنُ الزّبير الأموالَ التي أرسلها خمارويهِ إلى المعتضدِ فيقول : وحَملَ إليهِ أبو الجيش خمارويه بنُ أحمد في سنةِ اثنتين وثمانين ومئتين مع أبي عبد اللهِ بنِ الجصَّاص ، وأبي الكراديس بن أحمد بن طولون ، منَ المالِ ثلاثمئة ألف وخمسةً وستين ألفاً عيناً ، وهدايا بقريب من قيمةِ المال[٢] .

* هذه بعضُ أخبارِ الهدايا المصريّة التي حُمِلت إلى بغدادَ ، والتي جاءت في عدد من المصادر لتحكي الترف آنذاك ، وهكذا مضى الرّكبُ حتّى انتهى إلى قَصْر المعتضدِ بالله .

* ومثل ابنُ الجصاص رسول خمارويهِ بين يدي المعتضدِ بالله ، ودَفَع إليه كتابَ خمارويهِ ، ورجَاه أنْ يقبلَ الهديّةَ المصريَّةَ الطُّولونيّةَ من خمارويهِ.

---

(١) الذخائر والتحف؛ مواضع متفرقة .
(٢) المصدر السابق نفسه .

فقال المعتضدُ لابنِ الجصَّاص بَعْدَ أن قرأَ رسالةَ خمارويهِ: قُلْ لمولاكَ إنَّنا قد قَبِلْنَا هديَّتَه، وشكَرنا له، وقد أرادَ أنْ يتشرَّف بنا، فخطبَ ابنتَه إلى ولدنا أبي محمّد المكتفي، وإنَّ خمارويهِ لحقيقٌ بهذَا الشَّرف وزيادة، أنا أتزوّجُها.

* ثمّ إنَّ المعتضد حَمل مَهْرها على مئةِ حمار مع شَفيع الخادم، وجعلَ صداقَها ألفَ ألفَ درهم[1] ـ مليون درهم ـ وباركَ القومُ لخمارويهِ في مصْرَ هذا الزَّواجَ الميمون في مُصاهَرة المعتضدِ أميرِ المؤمنين، وكان عقْدُ زواجِ قَطْر النَّدى في سنَة (٢٧٩هـ)[2].

* ولعلَّه في هذه المُناسبة السَّعيدة، مناسبةِ طلب خمارويهِ من المعتضد بالله أنْ يتزوَّج ابنتَه قَطْر النَّدى، يقولُ الشَّاعر الشَّهيرُ ابنُ الرّومي مُخَاطباً المعتضد، ومهنّئاً إيّاه بهذه العروس التي عرض وليها زواجَها منه:

يـا أيُّهـا الملـكُ السَّعيـدُ المعـرِسُ ... لازلـتَ تُخْلِـقُ مَـاكَسَـاكَ الملبـسُ

إنْ يُهْـدِ منفسـةٌ إليـكَ وليُّهـا ... فَلَقَـدْ أُتيـحَ لهـا الكفـيُّ المُنْفِـسُ

وبحَقّكُـم وبحقِّهـا قُـدِرتْ لكـمْ ... وَمَـن الحقـوقِ مُبيـنٌ ومُلبَّـسُ

منْ غَرْسِ أيْديكُمْ جَنَتْ أيديكم ... كَرُمَتْ مجانيْكُم وطَابَ المَغْرِسُ[3]

قَـطْـرُ الـنَّـدَى وجِـهَـازُ عُـرْسِهَـا:

* منذ أنْ جاءَ البشيرُ إلى خمارويهِ يحملُ موافقةَ أميرِ المؤمنين في بغدادَ الزَّواجَ منْ ابنتِهِ قَطْرِ النَّدى، أخذَ خمارويهِ يعدُّ العدَّةَ في تجهيزِها بجهَازٍ يليقُ بمكانةِ الخلافَةِ العبَّاسيةِ، وفتحَ خمارويه خزائنَ أموالِهِ لصاحبِ أمْره يَغْتَرِفُ منها ما يغْترفُ، وينفقُ ما ينْفقُ، ليهيِّىءَ جهازاً لم يَرَ قبلَه الرَّاؤون، ولم

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (١/ ٤٠٤ و٤٠٥)، وتاريخ القضاعي (ص٤٨٢).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٦٦).
(٣) انظر: ديوان ابن الرومي (٣/ ١١٨٣) تحقيق د. حسين نصار ط ١٩٧٦م مصر.

يسمعْ بمثلهِ السَّامعون من قبل ، وسيكونُ عرسُها أعظمَ منْ عرسِ بُوران[1] زوجِ المأمون الذي هو قريبُ العَهْدِ ، ولم تمضِ عليه سوى بضعةِ عُقُود منَ الزَّمن.

* قال محمّد سعيد العريان في معرضِ حديثه عن جهازِ قَطْر النَّدى : ولم يزلِ المصريّونَ منذُ الزَّمن الأوّل يغالونَ في تجهيزِ بناتِهم مغالاةً تَنْهَكُ اللحم ، وتعرقُ العظْمَ ، وتهتكُ المروءةَ أحياناً ، إذ كانَ فيهمْ ما فيهمْ منَ الرِّقَةِ والعَطْفِ على الحبيبِ المفارقِ ، وبهم منْ طبيعةِ بلادِهم حبّ المباهاةِ والفخر! فكيفَ ظنُّكَ بصاحبِ مصْرَ وبرقةَ والشَّام والثُّغور ، وإنَّه ليجهِّزُ ابنته المفضَّلة إلى أميرِ المؤمنين ، وخليفةِ رسولِ ربِّ العالمين؟ وما ظنّك بجهازِ عرسٍ ينتقلُ منْ مصْرَ إلى بغدادَ ، ومصر وبغدادَ يومئذ تتنافَسان في التَّرفِ وأسبابِ الحضارة ، وتزعمُ كلّ منهما أنَّها حَاضِرةُ الدُّنيا[2] .

* وبدأ الاستعدادُ لجهازِ قَطْر النَّدى ، وذكرتِ المصادرُ بأنَّ خمارويهِ قد وَكَلَ إلى ابنِ الجصّاص تدبيرَ الجهازِ وإعداده كيما يضاهي مقدارَ الخلافةِ العبَّاسيّةِ في بغدادَ ، فستكونُ قطْرُ النَّدى الطُّولونيّة زوجاً لسيّدٍ كبيرِ المقدارِ من أحفادِ العبّاسِ بنِ عبد المطلب ، ألا وهو المعتضدُ بالله العبّاسي.

* وكانتْ مصرُ في تلكم الأيّام تعيشُ أحداثَ عرسِ قطْر النَّدى وجهازها ، ولعلَّ قَطْر النَّدى كانتْ تشرفُ من قصرِ أبيها وترى الحركةَ في المدينةِ ، وتسمعُ ما يقولُه النَّاسُ عنها وعن جهازِها وجمالِها ، ولعلَّ الأحلامَ قد سبحتْ بها من على النِّيْلِ في مصرَ إلى دجلةَ في العراقِ ، ولعلَّ الأحلامَ قد طافَتْ بها من قُصورِ القاهِرةِ إلى قُصورِ بغدادَ ، وها هي ترى نَفْسَها ذات سُلْطانٍ ومالٍ في

(١) اقرأ سيرة بوران في هذه الموسوعة.
(٢) انظر: قطر الندى (ص ١١٨ و١١٩) لمحمد سعيد العريان من سلسلة اقرأ رقم (٣٠).

سِنٍّ لم تحلُم به فتاة من قَبْل ، حيثُ لم تكن قد تجاوزتِ الخامسةَ عشرةَ من عمرها .

* وبدأتِ اللمساتُ الأخيرةُ توضعُ على الجهازِ ، وأتمَّ ابنُ الجصَّاص أمْرَ الجهاز ، فلم يتركْ طرفةً إلاّ ابتاعَها ، أو شيئاً منْ أسبابِ التَّرفِ والمنى والأحْلام إلاّ حَملَه ووضَعه في الجهازِ ما لم يجتمعْ لعروسٍ قطّ .

* وتذكرُ المصَادر وواصفو الجهاز أنَّه كانَ في الجِهاز منْ أدواتِ المطبَخ مئة هاون منَ الذَّهب ـ وقيل ألف ـ[1] ، ومن أدواتِ الثّياب ألف تكّة سروال ثمنها عشرة آلاف دينار .

* وكانَ من بين جهاز قَطْر النَّدى دكة ـ سرير ـ من ذَهَب مركّبة منْ أربع قطَع ، عليه قبّة من ذَهب مشبّك في كلّ عينٍ منَ التَّشبيك قرطٌ معلّقٌ فيه حبّةُ جوهَرٍ عظيمة القيمةِ لا تُقَدَّرُ بثمن ، بالإضافةِ إلى أشياءَ كثيرةٍ ، حتى قيْلَ : إنَّ أباهَا جهَّزَها بجهازٍ لم يعْمَل مثْلُه[2] .

* وجاءَ ابنُ الجصَّاص إلى خمارويهِ وأخبره أنَّه أتمَّ ما أَوْكَلَ إليهِ منْ عَمل جهازِ قَطْر النَّدى ، وأبلغه أنَّه بقيتْ في حوزتِهِ فَضْلَةٌ منَ المالِ بلغتْ أربعمئة ألف دينار ، فوهبَها خمارويه لابنِ الجصَّاص[3] .

إلى دَارِ السَّلامِ:

* بعد أنْ تمَّ لابنِ الجصَّاص ما تمَّ منْ عَملِ جهازِ قَطْر النَّدى ، تهيّأ موكبُ العروسِ للرِّحْلَة من مصرَ إلى دار السَّلامِ بغداد ، وتهيأ للعروس الطّريق كلّه

---

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٢٥٠).

(٢) وفيات الأعيان (٢/ ٢٥٠) قالَ ابنُ خلّكان: يُقالُ: إنَّ المعتضَد أرادَ بنكاحِ قَطْرِ النّدى افتقار الدَّوْلةِ الطُّولونيّة ، وكذا كان ، فإنَّ أباها جهَّزَها بجهازٍ لم يُعْمَلْ مثلُه ، حتّى قيل: كانَ لها ألفُ هاونٍ ذَهَباً ، وشرطَ عليه المعتضدُ أنْ يحملَ كلَّ سنةٍ بعد القيام بجميع وظائفِ مصر وأرزاقِ أجنادِها مئتي ألف دينار. فأقامَ على ذلك إلى أن قَتَله غلمانه بدَمَشقَ على فراشه سنَة (٢٨٢هـ). (وفيات الأعيان ٢/ ٢٥٠).

(٣) إذا كانت فَضْلةُ الجهاز هذا المبلغ ، فكم كانت تكلفةُ الجهاز؟!

مِنْ مصْرَ إلى بغداد كأنّها في قَصْرِ أبيها خمارويه.

* فلقد سارَ الموكبُ الطُّولوني مُشَرِّقاً يطلبُ بغداد، وجلست قَطْرُ النَّدى في هودجِها بينَ النَّمارقِ والحشَايا جلسةً ناعمةً كأَنّها لم تبرحْ مجلسَها في بيتها بقصرِها بالقاهرةِ.

* وكانَ مع قَطْر النَّدى في موكبها عمُّها خَزْرَج بن أحمد بن طولون، وعمتُها العبّاسَةُ، وأصفياءُ أبيها وخاصَّته، وجماعةٌ منَ الأُمَراء والأعيانِ وقادة الجنْد والغِلْمان.

* واستمرَّ الموكبُ الطُّولوني يسيرُ بعروسهِ قَطْر النَّدى سَيْرَ الطِّفْل في المَهْدِ، فليسَ هناك مِنْ مشَقَّة لبُعْدِ الشُّقَّة، ولا عناء من وعْثاء السَّفَر.

* وتروي المصادِرُ أنَّ الأميرَ الطُّولوني خَمارويهِ قد أعدَّ لهذا الموكبِ عدَّتَه من قَبْلُ، إذ بنى في كلِّ منزلٍ تنزلُه قَطْر النَّدى بين مصرَ وبغدادَ قَصْراً، كيلا تشعرَ قطْرُ النَّدى أنَّها على سَفَر ساعةً منْ نَهار، أو ساعةً منْ لَيْل، بل تَجِدُ الدَّعَةَ والرَّاحَةَ والأمْنَ في كلِّ منزلٍ تنزلُه حيثُ فُرِشَ فيه جميعُ ما تحتاجُ إليهِ، وقد عُلِّقَتْ فيه السُّتور، وأعدّ فيه كلّ ما يصلحُ لمثلها منْ طعَامٍ وشَرابٍ وخَدمٍ وحشَم وجوارٍ وغلمانٍ، وكلّ وسَائل الرَّفاهية.

* وذكرَ المالقيُّ أنَّ خمارويهِ لما زوَّج ابنتَه قَطْر النَّدى من المعتضدِ، وحُمِلَت إليهِ منْ مصْرَ إلى بغْداد[1]، خَرجت معَها عمّتُها العبَّاسة بنتُ أحمدَ ابنِ خمارويهِ مشيّعةً لها إلى آخرِ عمارة الدِّيار المصريّة من جهةِ الشَّام، ونزلتْ هنَاك، وضُرِبَتْ فساطيطُها، وبنتْ في ذَلكِ الموضع قَصْراً، وأحكمت بناءَه، وبرزتْ لوداع بنتِ أخيها، فلما سارت قَطْر النَّدى، عُمّرَ ذلك الموضع بالقَفْر، وصار بَلَداً، أو قريةً، وقيل لها العبَّاسة[2].

---

(١) انظر: الحدائق الغناء (ص ١٣٨).

(٢) انظر: معجم البلدان (٤/ ٧٥)، ووفيات الأعيان (٢/ ٢٥٠) مع الجمع والتصرف. وقال ياقوتُ الحمويُّ عن بلدةِ العباسة: وهي عامرةٌ إلىَ الآن، وبها جامعٌ حَسَنٌ =

* ومرّتِ الأيّامُ بالرَّكبِ المنعَّمِ ، وهو يتنقلُ من منزلةٍ إلى منْزِلَةٍ ، وكانَ الغلمانُ يصدحونَ بالأغاني العِذَاب التي يتردَّدُ صَدَاها ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشّمال وفي الأجواء وهم يقولون: قَطْر النَّدى. . . قَطْر النّدى ، وربّما ارتجزوا بعضَ الكلماتِ الرَّاقصةِ التي تزيلُ وحْشَة الطَّريق وبعْدَه وشُقَّتَه ومشقَّتَه ، إلى أنْ بلغَ الموكبُ أطرافَ بغداد في سنةِ (٢٨١هـ) ، أو في أوَّلِ المحرّم سنَة (٢٨٢هـ)[١] .

* ونزلتِ العروس وحاشيتُها في دارِ صاعد بنِ مخلد على شاطىء دجلةَ ، ينتظرون مقْدَم المعتضدِ الذي كانَ غائباً بالموصلِ ، وقدمَ منْ فورِه لمّا عَلِمَ بمقدمِ العروس .

عـرسُ قَـطْـرِ الـنَّـدَى:

* كانَ يومُ الأحدِ الثَّالثُ منْ شَهْرِ ربيع الآخر سنةَ (٢٢٨هـ) وما تلاهُ منْ أيّامٍ ، أيّاماً مشهودةً في بغدادَ ، حيثُ نُودي في جانِبَي المدينةِ؛ ألا يعبرَ أحدٌ في دجلةَ يوم الأحد ، وغلّقتْ أبوابُ الدُّروب التي تلي الشَّطَّ ، ومُدَّ على الشَّوارع النافذة إلى دجلةَ شراعٌ ، ووكِّلَ بحافَتَي دجلةَ مَنْ يمنعُ النَّاس أنْ يَظْهَروا في دُورهم على الشَّطِّ ، أو أنْ يفتحوا النَّوافِذَ .

* وعندما كانَ المسَاءُ ، وأرخى الليلُ سُدُولَه على بغدادَ كموجٍ دجلةَ ، وصلِّيَتِ العتمةُ ، وافت الشَّذاواتُ منْ قَصْرِ المعتضدِ على ظَهْرِ دِجْلَة ، وعليها الوصائفُ والغلْمانُ والخدمُ ، ومعهم الشّمعُ ، حتى وقفُوا بإزاءِ دار صاعد بنِ مخلد .

* وكانت قد أُعدّت أربعُ حرّاقات مزينة أحلى زينة ، وأرسيتْ في دجلةَ مشدودة إلى دارِ صاعد ، فلمّا جاءتِ الشَّذاوات أُحْدِرَتِ الحراقاتُ وعليها

= وسوقٌ قائم ، وكان يقال لذلك القَصْر: قَصْر عبّاسة ، ثم حُذِفَ المضاف ، وأقيمَ المُضافُ إليهِ فبقيَ عبّاسة .

(١) البداية والنهاية (١١/٦٦) ، وتاريخ القضاعي (٤٨٢) .

قَطْر النَّدى ووصائفها سابحةً على الماءِ ، وبين أيديهنّ الشَّذاوات عليها الجواري في أيديهنّ الشَّمْعُ ، ومضى موكبُ العروسِ في دجلة حتى بلغَ قَصْر المعتضد ، وكان المعتضدُ قد استعدَّ لهذا العرس استعداداً منقطعَ النَّظير ، وكانتِ السَّعادةُ تلوحُ على وجهه ، بينما ملأَ البِشْرُ والسرورُ جوانِحَه .

* وأقامتِ العروسُ قطر النَّدى يومَ الإثنين الرابع من شَهْر ربيع الآخر في قَصْر المعتضدِ بالله ، يسعى بين يديها المواشطُ والولائدُ والوصائفُ ، وأخذتْ قصورُ الأمراءِ والوجَهاء حولَ القَصْر المعتضدي زخْرفَها وازّيَنَتْ إكراماً لعرسِ أميرِ المؤمنين المعتضد باللهِ ، وكان قصرُ المعتضدِ منَ الرُّواء والزّينةِ كأنَّه هو الآخرُ عروسٌ تُزَفُّ .

* وأمرَ المعتضدُ باللهِ أنْ يُعدَّ قَصْر قَطْر النَّدى إعداداً جميلاً ، فجهَّزَ الخدمُ غرفتَها وزيَّنُوها ، وكانَ البخورُ يفوحُ من مجامرِ المِسْكِ والعنْبر عطْراً يبعثُ في النَّفْس الذكْرياتِ اللطيفَة التي تحرِّكُ كوامِنَ الأَفْئِدةِ من بينَ الضّلوع ، وتذكِّرُ بأيّامِ وليالي بورانَ بنتِ الحَسن بنِ سَهْل لما عَقَد عليها المأمون بِفَم الصِّلْحِ قُبَيْلَ عُقُودٍ خَلَت .

* وفي يومِ الثُّلاثاء ، وفي الخامسِ من شَهْر ربيع الآخر ، جُليت قَطْر النَّدى على أميرِ المؤمنين المعتضدِ بالله ، وكانت كالشَّمْسِ في رائعةِ النَّهارِ ، فقد حَباهَا اللهُ جمَالاً أخّاذاً ، وملاحةً وصباحةً ، لذلك كان عرسُها منْ أعراسِ بغدادَ الشَّهيرة في التَّاريخ ، وفي ذلك يقولُ ابنُ الرّومي :

زُفَّتْ إلى بَدْرِ الدُّجى الشَّمْسُ	وَلَاحَ سَعْدٌ وخَبَا نَحْسُ
وأقْبلَتْ نَفْسٌ إلى مُنْيَةٍ	بِمثْلِهَا تَغْتَبِطُ النَّفْسُ
سَيّدةٌ تُهْدَى إلى سَيِّدٍ	لم يُمْسِ في سُؤدده لبْسُ
ذَلكَ عرسُ الدَّهرِ منْ أجْلِهِ	حَنَّ غَدٌ والتَفَتَ الأمْسُ[1]

* وبدأتْ قَطْر النَّدى رحلَة حياةٍ جديدةٍ في بغدادَ ، حيثُ أعلتْ مقامَ أبيها

---

(١) ديوان ابن الرومي (٣/ ١١٨٥) .

خمارويهِ الطُّولوني الذي تشرَّف بهذا الزَّواج ، ولم يلبثِ المعتضدُ أنْ عرَّفَها بجوانبِ القَصْر ومقصوراتِه ، وما أَعَدَّ لها منْ نعيمٍ مُقيم ونعمةٍ وراحَةٍ .

* ولعرسِ المعتضدِ وقَطْر النَّدى صدىً واسعٌ في أنْفاسِ الشُّعراء ، حيثُ رسموه بالكلماتِ الرّقيقات ، والألفاظِ الجميلة . وفي هذهِ المُنَاسَبة يقولُ ابنُ الرُّومي :

يَا سيِّدَ العَربِ الذي زُفَّتْ لَه ... باليُمْنِ والبَركاتِ سيِّدةُ العَجَمْ
اسْعَدْ بهَا لِسُعُودِها بِكَ إنَّها ... ظَفِرَتْ بما فَوقَ المَطالِبِ والهِمَمْ
ظفِرَتْ بِمَالِىءِ نَاظِرِيْهَا بَهْجَةً ... وضَميرُهَا نُبْلاً وَكَفَّيْهَا كَرَم
شَمْسُ الضُّحى زُفّتْ إلى بَدْرِ الدُّجى ... فتكشَّفَتْ بِهِمَا عنِ الدُّنيا ظُلَم

* وفي زفَافِ قَطْر النَّدى يقولُ ابنُ الرُّومي أيضاً :

قَدْ زُفَّتِ الشَّمْسُ إلى البَدْرِ ... يَالَك منْ قدْرٍ ومنْ قَدْرِ
خَليفَةُ اللهِ على خَلْقِهِ ... وبنْتُ عالي الشَّأن وَالأَمْرِ
يا دُرَّةَ البَحْرِ بشْرى إنَّما ... أُخْرجْتِ مِنْ بَحْرٍ إلى بَحْرِ
لا زِلْتِ تَأْويْنَ إلى ظِلِّهِ ... مَا آوَتِ الدُّنْيا إلى الدَّهْرِ[(١)]

* وقالَ ابنُ الرُّمي أيْضاً في هذا الزَّفَاف :

إنَّ فِطْراً حيّا الخَليفَةَ بالنَّر ... جِسِ والعُرسِ حِقُّ فِطْرٍ ظَريف
يَلْتَقي فيهِ بالسَّعَادَة واليُمْـ ... ـنِ شريفُ النَّبيِّ وبنْتُ الشَّريف
قمرُ العَالمينَ تُهْدَى إليهِ الشُّمسُ ... في حلَّة منَ التَّشْريف
بنتُ مَولاَهُ أُخْتُ مولاهُ لا شَكَّ ... السَّديدُ الحصيفُ وابنُ الحصيف[(٢)]

هَديَّةُ قَطْرِ النَّدى إلى المُعْتَضد :

* لما قدِمَتْ قطْرُ النَّدى منْ مصْرَ ، حَمَلَتْ معَها كثيراً من الطَّرائفِ والأَلْطافِ ، بالإضافةِ إلى أشياءَ يعجزُ عن وصْفِها اللسانُ؛ وقد أوردَ القاضي

(١) انظر : ديوان ابن الرومي (٣/ ٩٦٨).
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٥٨٤).

الرَّشيدُ بنُ الزُّبير في كتابهِ «الذَّخائر والتُّحف» هديةَ قَطْر النَّدى إلى زوجِها المعتضدِ باللهِ فقال: وأهْدَتْ قَطْرالنَّدى بنتُ أبي الجَيْش خمارويهِ إلى المعتضدِ باللهِ في يومِ نيروز منْ سَنَة اثنتَيْن وثمانين ومئتين هديةً كانَ فيها عشرونَ صينيّة ذهباً ، في عشرْ منها عشْر مشامٍّ عنبراً ، وزنها أربعةٌ وثلاثون رِطْلاً ، وعشرونَ صينيةً فضّة في عشْرٍ منها عشر مشامّ صَنْدلاً ، وزنُها خمسون رِطْلاً ، وعشرونَ صينيّة ذَهَباً مُجرى بزجاج ، في عشْر منها عشر مشامّ مسكاً ، وزنها نيفٌ وثلاثون رطْلاً ، وخمسُ خِلَع وشياً ، قيمَتُها خمسةُ آلاف دينار ، وعملتْ سماجات ليومِ النَّيروز بلغتِ النَّفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار ، وأُخْرِجَ منَ القَصْر ثلاثون وصيفةً يرقصون ، وكانَ ممّا عُمِلَ للمعتضد قبّةَ أبنُوس ارتفاعُها عشرةُ أذْرع ، وتحتها سرير أبنوس ، إلى ثُلثيها مضببٌ بالذَّهب ، يُصْعَدُ إليهِ بدرجٍ ، وجُعِلَ خلالها ثيابٌ رِقَاقٌ ليرى منها ما مضى عليهِ مِن الدَّراهِم ، وكان قد اعتدَّ لذلك دراهم بقيّة ثلاثة عشر ألف دينار ، في كلِّ درهم ثلاثة دراهم ، وكان فيما أهدتْ إليهِ بنتُ أبي الجيش في هذا اليومِ بيتٌ رشيْديٌّ ، وبيتٌ طبريٌّ مذهبٌ ، فاستَحْسَنهما. ووجَّه المعتضدُ إلى أبي الجيش وإخوتِهِ بخِلَعٍ قيمتُها ثلاثةٌ وخمسونَ ألف دينار[1] .

أدَبُ قَطْرِ النَّدى وذكَاؤُهَا :

* كانَ الأمراءُ والملوكُ يهتمُّون اهتماماً بالغاً في تربيةِ أولادِهم على موائدِ الأَدَبِ والعِلْم والمعرفةِ ، وقد ظهرَ اهتمامُ خمارويهِ في تربيةِ ابنته قَطْر النَّدى ، فأخذَ يعملُ على تعليمها وتثقيفِها بالثَّقافةِ التي تليقُ ببناتِ الأمراء ، فكانَ لا يتركُ شيئاً منَ الآدابِ إلاّ يعلّمُها إياه لتكونَ كالدُّرةِ اليتيمة التي لا يُوجد لها نظير.

* وقد أدركتْ قطرُ النَّدى مقْصدَ أبيها من هذهِ العناية الفائقة بتأديبها وتعليمها ، واستفادتْ من ذلك لما انتقلت إلى القصور العبَّاسيّةِ ببغدادَ ،

---

(١) انظر: الذخائر والتحف (ص ٣٨ و٣٩).

حيثُ كانتْ جميلةَ الصُّورة ، مليحةَ الشَّكل ، تَفْضحُ الحليَ بجمالها ، فقد حبَاهَا اللهُ نعمةَ الجمالِ ، وزيَّنَتْ ذلكَ الجمال بزينةِ الأدبِ وكمالِ العقل ، فأحبَّها المعتضدُ حبّاً شديداً لجمالِ صورتها ، وكمالِ أدبها ، فكأنَّ وجهَها كما قال الشَّاعر :

فـي وَجْهـهِ شَـافِعٌ يمحـو إسَـاءَتـه ... مِـن القُلُـوبِ وجيْـهٌ أيْنَمـا شَفَعَـا[1]

* وتتابعتْ أيّامُ المعتضدِ بالله هنيئةً سعيدةً مع عروسِه قطْر النَّدى التي احتلَّتْ منْ نفسِهِ مساحةً كبيرةً ، ومن قَلبهِ مساحةً أكبر ، لأنَّها كانت موصوفةً بفرطِ الجمالِ والعَقْل والأدبِ. ولشدّةِ شَغَفِ المعتضدِ فيها كان ينشدُ ويقولُ إذا ما ابتعدَ عنها :

حَسَـــراتٌ فـــي فُـــؤادي ... شَـــرَّدَتْ عنّـــي رُقَـــادي
وَهُمــــومٌ طَـــارِقَـــاتٌ ... وكَّلَتْنـــي بـــالسُّهَـــادِ
هـــاهُنـــا جِسْمـــي مُقيـــمٌ ... وببغْـــــدَادَ فُـــــؤَادي
هكَــــذا كُـــلُّ مُحِـــبٍّ ... بَـــاعَ قُـــربـــاً ببعَـــادِ
أملـــكُ الخَلْـــقَ وَلكـــنْ ... تَمْلِـــكُ الخُـــودُ قِيَـــادي

---

(١) لهذا البيتِ قصّةٌ طريفةٌ ، قالَ أبو الحسَن عليُّ بنُ محمّد الأنطاكي : كنتُ يوماً بين يدي المُعتضد ـ وهو مغضبٌ ـ إذ دخَلَ عليه خادمُه بدرٌ ، فلمّا رآه تبسَّم وقالَ لي : يا عليّ مَنْ هو القَائِل :

فـي وجْهِـهِ شـافـعٌ يمحـو إسـاءَتـه ... مـنَ القلـوبِ وجيهـاً أينمـا شفعَـا

قلت : يقوله الحسن بن أبي القاسم البصري .
فقال : لله دره؛ أنشدني بقية هذا الشعر ، فأنشدته قوله :

ويْلي على مَنْ أطارَ النّوم فامتَنَعا ... وزادَ قَلبــي إلــى أوجــاعِــهِ وجَعَــا
كـأنّمـا الشّمسُ منْ أعطافِهِ لمعتْ ... يــومــاً أو البــدرُ مــنْ أزرارِه طلعَــا
مستقبـلٌ بـالـذي يهـوى وإنْ كَثُـرتْ ... منـه الـذُّنـوبُ ومعـذورٌ بمـا صَنَعـا

في وجهه شافع . . .
قال : فلما فرغتُ منْ إنشادِهِ ، أجازَني وانصرفتُ. (شذرات الذهب ٣/ ٣٧٢) و(النجوم الزاهرة ٣/ ١٢٩).

مَلَـــــكَ الخَــــودُ فُــــؤادي   مثــــلَ مُلكــــي للعِبَــــاد[1]

* ومما روته الأخْبارُ عَنْ أدَبِ قَطْر النَّدى ، أنَّ المعتضدَ باللهِ قَدْ خلا بها يوماً للأُنْس في مجلسٍ أفردَهُ لَها ، ما حَضَرَهُ أحدٌ سواهَا ، فأخذَ منه النُّعاسُ ، فنَامَ على فخذِهَا ، فلمّا استثقل وضَعَتْ رأسَه على وسادة ، وخرجتْ ، وجلستْ في سَاحَةِ القَصْر ، فاستيقظَ المعتضدُ منْ نومِهِ فلم يجدْهَا ، فاستشاطَ غضَباً ، ونادى بها ، فأجابته عن قُربٍ ، فقال لها : يا قطر النَّدى ألَمْ أخْلُ بكِ إكْرَاماً لكِ؟ ألَمْ أدْفَعْ إليكِ مُهْجَتي دون سائِرِ حظَاياي؟ فتضعينَ رأْسي على وسادةٍ وتذهبين؟! فقالت له بوجهٍ بريءٍ هادىءٍ باسمٍ : يا أمير المؤمنين ، ما جهلتُ قدْر ما أنعمتَ بهِ عليَّ ، ولكنْ فيما أدَّبني به أبي أنْ قال لي : يا بُنية ، لا تَنامي مع الجُلوس ، ولا تجلسي مع النّيام[2] .

* ولعلَّ المعتضدَ قد أكْبَر جوابَها وعلمَ مقْدارَ تربيتها وأدبِها فقال : لله أنتِ يا قطْرَ النَّدى ، ولله ما أدَّبك أبوكِ فأحْسَنَ الأدب والتّأديب!

* وتمكَّنَتْ قطرُ النَّدى من قلْبِ المعتضدِ ، ومَكَثَا حيناً من الدَّهْرِ يعبّان نعيمَ الحياة ، ورحيقَ الحُبّ ، وهما سَاهيان عن نوائبِ الدَّهر ، إلى أنْ جاءَ الخبرُ بغدادَ بأنَّ خمارويهِ قد قُتِلَ بيدِ غلمانِه في ذي القعدة سنة (٢٨٢هـ)؛ فحزنتْ عليه قَطْرُ النَّدى حُزناً شَديداً ، وكادت تموتُ جزَعاً عليه ، وغابتْ

---

(١) انظر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص ٣١٢) والحدائق الغنّاء (ص ١٣٨) .

(٢) انظر : وفيات الأعيان (٢/ ٢٤٩ و٢٥٠) بتصرف يسير .

ومما حُكي عن بعضِ أذكياء النّساء : أنَّ الخليفةَ المتوكلَ على الله العبّاسي بلغه أنَّ جاريةً في المدينةِ المنورةِ جميلةَ الصّورةِ حَسَنَةَ السّيرة ، تحسنُ الغِنَاء وضربَ العود ، فأرسلَ إلى مولاها يطلبُها منه ، فكاد أنْ يزولَ عَقْلُ مولاها لفرطِ حُبّه إيّاها ، فقالت له : أحسنْ ظنّك باللهِ وبي ، فإنّي كفيلةٌ لك بما تحبُّ ، فحِملَتْ إلى المتوكّلِ ، وأدخلتْ عليه ، فقال لها : اقرئي شيئاً منَ القرآن ، فقالت : ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴾ [ص : ٢٣]؛ ففطنَ المتوكل إلى ما أرادت ، فردَّها إلى مولاها .

(الروضة الفيحاء ص ٢٧٠) .

عن شفتَيْها الجميلتَيْن الابتساماتُ اللطيفةُ ، ومن عينيها ذلك السِّحْرُ العجيب .

* وعاشتْ قطر النَّدى في القَصْر المعتضديّ قرابةَ خَمْسِ سنين ، وماتتْ لتسعِ خَلَوْنَ من رجب في سنةِ (٢٨٧هـ) ، وهي شابّةٌ لم تتجاوزِ العشرين ، في سِنّ تبدأُ لذّاتها يطرقْنَ أبوابَ الحياةِ ويشعرنَ بنعيمها .

* وهكذا رحلتْ قطرُ النَّدى في شبابها لم تتنعمْ بحياةِ القصورِ ، ماتَتْ في بغدادَ دار السَّلام بعيدةً عن أهلِها وعشيرتها وأترابها اللواتي نشأتْ معهنَّ ، ودُفِنَت داخلَ قَصْر الرَّصافة ببغداد[1] ذلك القَصْر الذي دُفنَ فيه عددٌ منَ الأعيانِ منَ الأُسْرةِ العبّاسية .

* ويبدو أنَّ المعتضد قد حزِنَ عليها حُزناً شديداً؛ وتذكرُ بعضُ المصَادِرِ أنَّ المعتضدَ قد أنْشَد شِعراً فيها أو في جاريةٍ كان يحبُّها وتحبُّه غايةَ المحبّة ، ولما ماتَتْ جزِعَ لموتِها جزَعاً منَعَه منَ الطَّعام والشَّراب فقال :

يــــا حَبيْبــــاً لـــمْ يكـــنْ يَعْـ	ـــــدلُـــــه عنْــــدي حَبيْـــــب
أنــــتَ عَـــنْ عَينـــي بعيـــدٌ	ومـــنَ القَلْـــب قَـــريـــب
لَيْــسَ لــي بَعْــدك فــي شَـي	ءٍ مـــنَ اللهـــوِ نَصيـــب
لـــكَ مِـــنْ قلبـــي عَلـــى قَلْـ	ـبـــي وإنْ بِنْـــتَ رقيْـــب
وخَيـــالـــي منْـــك مـــذْ غبْـ	ـــتَ خَيـــالٌ لا يغيْـــب
لـــو تَـــرانـــي كَيــفَ لــي بعـ	ـــدَك عَـــولٌ ونحيْـــب
وفُـــؤَادي حَشْـــوهُ مِـــنْ	حـــرقِ الحـــزنِ لهيـــب
لَتيقَّنْـــتَ بـــأَنّـــي	بـــكَ مَحـــزُونٌ كئيْـــب
مـــا أرى نفســـي وَإنْ طبّـ	ـبْتُهـــا عنـــكَ تطيـــب

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٢٥٠) ، وأعلام النساء (٤/ ٢١٥) ، وشذرات الذهب (٣/ ٣٦٥) ، والأعلام (١/ ٩٩) ، ونهاية الأرب (٢٢/ ٣٥٧) ، والكامل في التاريخ (٧/ ٤٩٨ و٥٠٨) ، والبداية والنهاية (١١/ ٨٣) .

لـــي دمْـــعٌ ليـــسَ يعصيـــني وصبـــرٌ مـــا يجيـــب[1]

* وقال المعتضدُ أيضاً:

لَـم أبْـكِ للـدَّارِ ولكـنْ بمـا قـد كـانَ فيهـا مـرّةً سـاكنـا
فخـانَنـي الـدَّهْـرُ بفقْـدانِـهِ وكنـتُ مـنْ قَبْـلُ لـه آمنـا
ودَّعْـتُ صَبْـري يـومَ تـوديعـه وبـانَ قَلْبـي معَـه ظـاعِنَـا

* ولعلَّ المعتضد قد قال هذه المقطَّعات وأشباهِها في قَطْر النّدى بنتِ خمارويهِ زوجته الأثيرة.

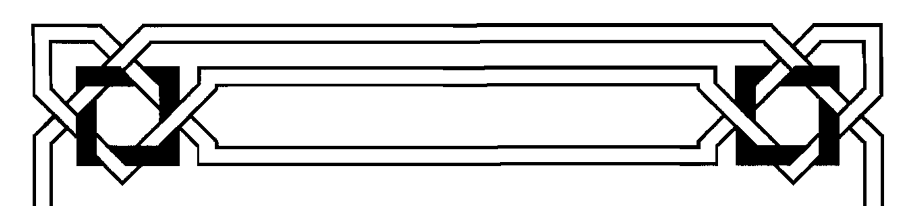
* وبعدُ ـ عزيزي القارىء ـ فهذه مقتطفاتٌ منْ سيرة قَطْر النَّدى ، أرجو أنْ أكونَ قد وفّقْتُ في جَمْع طاقاتِ زَهْر حياتها ، كما أرجو أنْ تكونَ سيرتُها قد توضَّحت في الأذهانِ مع النِّساء اللواتي عشْنَ في قُصور الأمراء والخُلفاء.

رحم اللهُ قَطْر النَّدى ، وأدخلها في رحمتهِ مع السُّعَدا.

* * *

---

(١) انظر: نهاية الأرب (٢٢/ ٣٧٥).



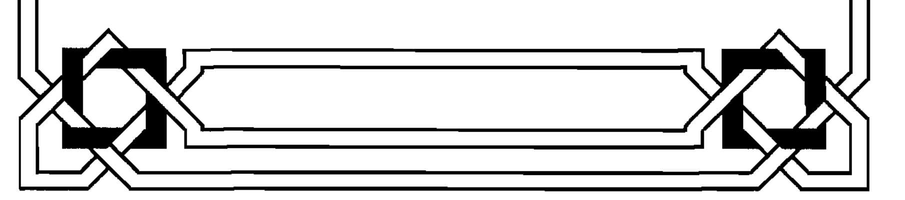
(١٧)

ليلى بنت لُكيز

* تُعرف بـ «العفيفة» لبعدها عن مواطن الريبة .

* فصيحة ، بليغة ، قد امتلكت ناصية الكلام .

* شاعرة ، جزلة الألفاظ ، رائعة المعاني .



المَرْأَةُ العَفيْفَةُ:

* هذهِ المرأةُ تُعْرَفُ بلقبِ العفيْفَة ، وعلى الرَّغمِ منْ أنَّها ماتَتْ قَبْلَ الهجرةِ بنَحْوِ قَرْنٍ ونصفٍ منَ الزَّمَنِ ، إلاّ أنَّها ضَرَبَتْ أَرْوَعَ الأَمْثِلَةِ في العفَّةِ في تاريخِ المرأةِ العربيّةِ .

* وعلى الرغم منْ أنَّ هذهِ المرأةَ قد عاشَتْ في الخِيامِ ، إلا أنَّ لها نَصيْباً موفُوراً في حَيَاةِ القصُور ـ كما سنقرأ ـ .

* وقُبيل أنْ نتعرَّفَ بطاقةَ امرأة هذه الصَّفحاتِ ، دعونا نتعرَّفَ بَعْضَ الصُّوَرِ الرَّائعَةِ العظيمةِ للمرأةِ في ذلك العَصْرِ الموغِلِ في القِدَمِ في قَلْبِ جزيرتنا العربيّةِ المعْطاء .

* كانتِ المرأةُ العربيةُ منذُ القِدَمِ ذاتَ هيبةٍ ، عفيفةً ، عسيرةَ المنالِ ، قد لا يجرؤُ أحدٌ أنْ يكلِّمَها أحياناً ، وكانتِ العِفَّةُ منَ النِّعَمِ التي تجعلُ شَرَفَ القبيلةِ أو العشيرةِ عالياً رفيعاً مُنَزَّهاً عنِ الخزيِ والعَار .

* وربما لا يرى المرأةَ أحَدٌ ، فهيَ مصونةٌ في بيتها ، عفيفةٌ تبتعدُ عن مواطنِ الرِّيبةِ ، كقولِ عبدِ اللهِ بنِ الحكم :

مِنَ الأوَانِسِ مِثْلُ الشَّمْسِ لمْ يَرَها ... بِساحَةِ الدّارِ لا بَعْلٌ ولاَ جَارُ

* ووصفَ ابنُ الطَّثريّة نساءً عفيفاتٍ في قصيدةٍ ومنها قوله :

عَفيفَاتُ أسْرَارٍ بَعيدَاتُ رِيْبَةٍ ... كَثيْرَاتُ إخْلافٍ قَليلاتُ نَائِلِ

* وتدلُّ الأخبارُ النَّزرَةُ التي وصَلَتْ إلينا عن المرأةِ الجاهليّة ، وعنْ بناتِ الجاهليّة ، وخاصّةً الأشرافُ منهنَّ ، أنَّه كان لهنَّ منزلةٌ ساميةٌ ، وكلمةٌ مسموعةٌ ، فكانَ بعضُهُنَّ يَخْتَرْنَ أزواجَهنَّ ، ويتركْنَهم إذا لمْ يحسنُوا معاملتهنَّ ، بل بلغَ منْ منزلةِ بعضِ شريفاتِهنَّ ، أنَّهنَّ كُنَّ يحمينَ منْ يستجيرُ بِهنَّ ، ويردُدْنَ إليهِ حريّتَه إذا استشفَعَ بهنَّ ، على نحوِ ما ردَّتْ فكيهةُ بنتُ

قَتادة[1] حريَّـةَ السُّليك بن السَّلكة حينما وقعَ أسيراً في يَدِ عشيرتها بني عوار ، فاستجارَ بها السّليكُ فأجارتْهُ ومنعَتْه ، وجعلَتْه تحتَ درعها ، واخترطتِ السَّيفَ ، وقامتْ دونَه ، فكاثروها ، فكشفتْ خمارَها عنْ شعرِها وصاحَتْ بإخوتها وولدِها فجاؤوا عشرةً ، ومنْ ثمَّ دفعُوا عنه حتّى نجا منَ القَتْلِ ، فقال السُّليكُ بنُ السّلكة ، يمتدحُ ما فَعَلَتْه فكيهةُ بنتُ قتادة ، ويذكرُ وفاءَهَا :

لعمْـــرُ أبيـــكَ والأنْبـــاءُ تنْمـــي   لنعـــمَ الجـــارُ أخـــتُ بنـــي عُـــوَارا
عَنَيْـــتُ بِهَـــا فكيهـــة حيـــنَ قَـــامَـــتْ   كنَصْـــلِ السَّيـــفِ فـــانْتَـــزَعُـــوا الخِمَـــارا
مـــنَ الخَفِـــراتِ لـــم تَفْضَـــحْ أبَـــاهَـــا   ولـــم تَـــرفَـــعْ لإخـــوتِهـــا شَنَـــارَا
ومـــا عجـــزتْ فكيهـــةُ يـــومَ قـــامَـــتْ   بِنَصْـــلِ السَّيـــفِ واسْتَلَبُـــوا الخِمـــارا[2]

* وكانَ العربُ يعدُّونَ المرأةَ جُزْءاً لا يتجزّأُ منْ عِرضهم ، ولم يكنْ شيءٌ يثيرُهم كَسَبي نسائِهم وهمْ بعيدونَ عن الحيِّ ، فكانُوا يركبونَ وراءهم كلَّ وعْرٍ حتّى يلحقُوا بِهنَّ وينقذوهنَّ ويغسلوا عارَ سَبْيِهنَّ عنهم ، وهو عارٌ عندهم ليس فوقَه عارٌ .

* وهذا ما سنجدُه في أخبارِ ضيفةِ حَلقَتِنا وهي لَيْلَى بنتُ لَكيز بن مرّة بنِ أسد بنْ ربيعةَ بن نزار[3] ، وهي إحدى النِّساء اللواتي رسَمْنَ في سِجلِّ المرأةِ أحْفَلَ صفحاتِ العفَّةِ والإباءِ وازدراءِ الصَّغائر ، ولذلك اشتهرتْ في

(١) فكيهةُ بنتُ قتادةَ بن مشْنوء خالةُ طرفة بنِ العبد الشَّاعر الجاهليّ المشهور ، لأنَّ أمَّ طرفة هي وردةُ بنتُ قتادة ، وقد مرَّ معَنا طرفاً منْ حديثِ أمّ طرِفةَ في حديثنا عن خِرنق بنتْ بدر أختِ طرفة في هذه الموسوعةِ فلتراجع . وقد ضُربَ الوفاءُ بفكيهةَ هـذه فقيـل : أوفـى مـن فكيهـة . (مجمـع الأمثـال ٢/٤٤٦) ، و(جمهـرة الأمثـال ٢/ ٢٧٢).

(٢) انظر : مجمع الأمثال (٢/ ٤٤٥ و٤٤٦) ، والأغاني (١٨/ ٣٧) ، وأعلام النساء (٤/ ٨٠) وغيرها كثير.

(٣) أعلام النساء (٤/ ٣٣٦ و٣٣٧) ، وموسوعة الشعر العربي (العصر الجاهلي ٤/ ٥٠٨ ـ ٥١٤) ، وشاعرات العرب (ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢) ، ومعجم الأدبيات الشواعر (ص ٤١٥ ـ ٤١٧).

التَّاريخِ النَّسويّ العربيّ باسمِ لَيْلى العَفيفَةِ ، ناهيك بأنَّها كانتْ منْ فصيحاتِ النِّساءِ ، وبليغاتِ نساءِ قومها وشاعراتهنَّ .

لـيْـلَـى وأخْـبَـارٌ مُـثِيْـرَةٌ:

* مع أنَّ تاريخَ ليلى بنت لكيز مُوغلٌ في التَّاريخِ الجاهلي ، إلاّ أنَّ صُوراً منْ أخبارِها المثيرةِ ، قد بَـرَزتْ على صفحاتِهِ لتحكيَ شذراتٍ منْ أخبارها ، فقد نَشَأَتْ نشأةً أبيّةً في قومها ، وحَباهَا اللهُ فصاحةَ اللسانِ ، فكانتْ شاعرةً جزلةَ الألفاظِ ، رائعةَ المعاني ، وقد زانَ فصاحتَها جمالُها الآسِرُ السَّاحرُ ، حيث كانتْ منْ أجمل بناتِ زمانِها ، وطارَ صيتُ ملاحتِها في آفاقِ الجزيرةِ العربيةِ حتّى تجاوزَها .

* وتدلُّ بعضُ أخبارِها بأنَّها كانت شاعرةً نجيبةً ، وقد نزلَ أبوها في ناحيةِ بلاد فارس ، ومعه ابنتُه ليلى ، وكانت منْ أجملِ نساءِ زمانِها[1] .

* وقد عَرَفَتْ ليلى بنت لكيز مكانةَ جمالها عند القومِ ، ومكانةَ فصاحَتِها عند البُلغاء ، فتقدَّم لخطبتِها كثيرون من سَراةِ العرب وعظمائهم ، ومشاهيرِهم ، ومنهم عمرو بنُ ذي صهْبان أحدُ أبناءِ ملوكِ اليمن ، إلاّ أنَّ ليلى قد رفضتْ هذا المَلِكَ ، ورفضتْ ما عرضَه منْ حياةٍ هَنيةٍ على السُّررِ المرفوعةِ ، والنَّمارقِ المصفوفةِ ، والجواري والخدمِ والحشَمِ ، وكلِّ ألوانِ النَّعيمِ والتَّرفِ ، وكانتْ تفضِّلُ أنْ تتزوَّجَ في قومها ، فهيَ لا تستطيعُ أنْ تُغادِر الأرضَ التي دَرَجَتْ عليها ، والأطلالَ التي تعاملتْ معها ، ونَسَجَتْ في داخِلها تِلال المحبّةِ والأُلْفَةِ .

* وكانَ لليلى بنة لكيز ابن عمٍّ اسمُه البَرَّاقُ بنُ رَوْحَان[2] ، وكانتْ تميلُ

---

(١) شاعرات العرب (ص ٣٨٠).

(٢) هو أبو نَصْر البرّاق بنُ روحان بنِ أسدِ من بني ربيعةَ ، وهو منْ قرابة المهلهلِ وكُليبِ ، كانَ شَاعراً مَشْهوراً من أهلِ اليمنِ ، وهو جاهليٌّ قديمٌ ، توفيَ حوالي سنَة (١٥٠ قبل الهجرة).

إلى الزَّواج منه ، وقد عرفَ البرّاقُ ذلكَ ، فأحبَّ ابنةَ عمّه لَيْلى ، تلك الفتاةَ الجميلةَ العاقلةَ التي رفَضَتِ التَّنعُّمَ بالدِّيباج والحلي والحللِ في قصورِ الملوكِ والأُمراءِ ، وأحبَّتْ أنْ تبقى في قومها ، تتزوَّجَ ابنَ عمِّها البرّاق ، وكان شاعراً رقيقَ الإحساس مثلها ، ورغبَ هو الآخر في الزَّواجِ منها ، فوعده أبوها لكيز بأن يزفّها إليه بعد عودته من اليمن .

* ولعلَّ جمالَ ليلى كانَ يثيرُ في البرَّاقِ جذوةَ الشِّعْر ، ويصقلُ أحاسيْسَه ، فقد كانَ جمالُ المرأة في ذلك العَصْرِ يُنْطِقُ ألْسنةَ الشُّعراء بوصفهنَّ ، فلمْ يقفِ الشُّعراء عند وصْف جمالِهنَّ الجسدي[1] ، بل تنبَّهُوا ـ وهم أهلُ الفَطانَةِ ـ إلى جمالِها المعنوي ، وإلى ما تتحلّى به منْ شيمٍ وخِصَالٍ كريمةٍ منْ مثل وقارِها وخَجَلِها ، وعدمِ سُقُوط قناعِها في أثناءِ سَيْرِها ، هي كذلك لا تلتفتُ حولها ، كريمةٌ مؤثِرةٌ ، تؤثرُ جارتَها في أيّامِ الجَدْبِ بغبُوقِ اللبن ، وقد حصَّنَتْ بيتَها عن كلِّ لوم أو ذمّ يلحقها ، وهي شديدةُ الحياءِ ، ومن أجل ذلك لا ترفعُ رأْسَها عن الأرضِ أثناءَ مسيرها ، حتى يكادُ يَظُنُّ مَنْ يراها أنَّها تبحثُ عن شيءٍ ضَاعَ منها ، وإذا اعترضها رجُلٌ وكلَّمَها ، لم تُطِلْ معه الحديثَ ، بل توجزُ ، وتمضي لِقَصدِها وغرضِها ، وإنَّ الحديثَ العَطِرَ عنها في العشيرة يملأُ نَفْسَ زوجِها زهواً ، إذْ إنَّها مثالُ العفَّةِ ، وإنَّه ليرفعُها عنْ كلِّ شَكّ وتُهمَةٍ ، وإذا أمسى وعَادَ منْ عَملهِ ، أو منْ رحلَتِهِ الطَّويلةِ ، عادَ وهو قريرُ العَيْنِ هانِئِها ، فلا يسألُها أينَ كانَتْ ، لأنَّها موضعُ ثِقَتِه وفخره .

---

(١) كما فَعلَ امرؤ القيس الذي وصَفَ ما كانتْ تتزيّنُ به المرأةُ منْ ثيابٍ وحليّ وطيْبٍ ، وقد صوَّر ذلك في معلّقتِه فقال :

وتُضْحِي فتيتُ المسْكِ فوقَ فراشِها نؤوم الضّحى لم تنتطقْ عن تَفَضُّلِ

ويريدُ أنْ يقولَ : إذَا قامتْ منْ نومها في ضحوةِ النَّهار وجَدَتْ لها ريحاً طيباً كأنّما باتتْ على مسْكٍ مفتت ، ولمْ تشدَّ نطاقاً للعمل ، فهي مرفهةٌ منعمةٌ مخدّمة .

وكما قال المنخّل اليشكري في فتاته :

الكاعب الحسناء تر فلُ في الدّمقسِ وفي الحرير

* ولعلَّ خيرَ مَنْ يصوِّرُ تلكمُ المعاني السَّامقة ، الشَّنْفَرى[1] الأَزديُّ الشّاعرُ الجاهلي ، الذي أنْشَأَ قصيدةً قوامُها (٣٦ بيتاً) ، أشادَ في جزءٍ منها بالتَّغنّي في أخْلاقِ زوجتِه أميمةَ ، وقال في مَطْلَعِها :

ألا أمُّ عمروٍ أجْمَعَتْ فاسْتَقَلَّتِ ... وَمَا ودَّعَتْ جِيرَانَها إذْ تَوَلَّتِ

ومنها يقول واصفاً أخلاقها :

لَقَدْ أعْجبتْني لا سقُوطاً قِنَاعُها ... إذَا ما مَشَتْ ولا بذات تَلفُّتِ

تَبيتُ بُعَيْدَ النَّومِ تُهْدي غَبُوقَها ... لجارتِها إذا ما الهديَّةُ قَلَّتِ

تحلُّ بمنحاةٍ منَ اللومِ بيتَها ... إذا ما بُيوتٌ بالمذمَّةِ حَلَّتِ

كأَنَّ لها في الأرض نِسْياً تَقُصُّه ... على أُمِّها وإن تُكلِّمْكَ تَبْلتِ

أميمةُ لا يُخزي نَثَاهَا حَليلَها ... إذا ذُكِرَ النّسوانُ عفَّتْ وجَلَّتِ

إذَا هوَ أمْسى آبَ قرَّة عينِهِ ... مآبَ السَّعيدِ لم يَسَلْ أينَ ظلَّتِ[2]

* ونعودُ إلى ضَيفتِنا ليلى بنتِ لكيز ، فقد أسَرَ جمالُها البراق ، وأَسَرَتْ أخلاقُها قَلْبَه أيضاً ، ولمّا رأى توافُدَ النَّاسِ يخطبونَها ، أحبَّ أنْ يُذَكِّرَ عمَّه بوعده الذي قَطَعَه على نفسِهِ من قَبْلُ ، وتقدَّمُ وذكَّرَه بذلك ليفيَ له ، فهو أحقُّ النَّاسِ بها ، فهيَ قريبتُه ، وهو شاعرٌ فارسٌ حَسَنُ التَّدبيرِ في الحربِ ، ولكنَّ لكيزاً كان قد بيَّتَ في نفسِهِ أمْراً لم يفصحْ عنْه بوضوحٍ ، وهنا راحتِ الشّكُوكُ تتراءى أمامَ ليلى ، ولم تعرفْ قَصْدَ أبيها وسكوتَهُ.

---

(١) الشَّنْفَرى ، أحدُ شعراءِ الجاهليةِ المشهورين منْ بني الحارث بنِ ربيعة ، والشّنفرى اسْمُه ، وقيل: لقبٌ له ، وهو على وَزْن «فَنْعَلى» ، ومعنى الشَّنفرى: عظيم الشَّفَة ، أو الغليظُ الشّفاه (خزانة الأدب ٢/ ١٦) ، وهو ابنُ أختِ تأبط شرّاً ، وكانَ أحدَ الثلاثة العدَّائين وهم: الشّنفرى ، وتأبّط شرّاً ، وعمرو بنُ براق ، وكانوا يَعْدُونَ على أرجلِهم فلا يدركْهم الطَّلبُ ، وكانوا أعدى العدّائين في العرب ، لم تلحقْهمُ الخيلُ ، وقد ضُرِبَ المثلُ بالشّنفرى في العدو فقيل: أعدى منَ الشَّنفرى.

(٢) انظر القصيدة كاملةً في المفضّليات (ص ١٠٨ و١٠٩).

لَيْلَى بينَ الحقيقة والخَيَال والحُبّ:

* في رحلةِ الذّكرياتِ العطرة راحتْ ليلى تحلّقُ في أجواءَ منْ أنْفاسِ المَاضي، فلَقَدْ فَقَدَتْ ليلى حنانَ أُمِّها منذُ سنينَ خوالٍ، إلاّ أنَّ عنايةَ خالتِها أُمِّ الأغرّ لم تنقطعْ عنها، بل إنَّ أمَّ الأغرِّ أوْلَتْها كلَّ رعايةٍ وحبٍّ وعَطْفٍ، وكثيراً ما كانت تقولُ لها، وعينَاها تنطقان بالحبِّ والحنَان: أقسمُ يا ليلى، بأنّكِ لأَجْملُ نساءِ القوم، ولعلَّ ابنَ عمّك البرَّاق سيحظى بدرةٍ نفيسةٍ من دُرر نساءِ العَرب.

* ويحمرُّ وجْهُ ليلى خَجلاً، وتُطْرِقُ وهي تداعبُ بعضَ خرزاتِ عِقْدِها، ولا تَنْبِس ببنْت شَفَة، فقد كانت عفيفةً في كلّ شيءٍ، حتى عرفتِ العشيرةُ كلُّها عفافَها المُعَطَّرَ بأريجِ الريحانِ، فما أنْ تُذكَرُ ليلى حتى يقولون: ليلى العفيفة.

* وتمرُّ الذّكْريَاتُ بذِهْنِ ليلى، وتتذكّر أوْبَةَ أبيها منَ اليمنِ وهو محمّلٌ بالهدايا والتُّحف، وظنَّتْ أنَّها ستكونُ من نصيبِ البراقِ، وخصوصاً عندما صرَّحتْ بذلك خالتُها أمُّ الأَغرّ وقالتْ لوالدِ ليلى: عجِّل يا لكَيز في جلوةِ ليلى على البرَّاقِ، فأمّا ليلى فقد أغْضَتْ ببصرِها خَجلاً واستحياءً، وأمّا لكيز فقد تغيّرتْ ملامحُ وجهِهِ، ولم يردَّ بكلمةٍ واحدة.

* كانَ لكيزُ قد وعَدَ عمرو بن ذي صهبان أنْ يزوِّجه ليلى، وأعطاهُ عمرو كثيراً منَ الذَّخائرِ والتُّحفِ والهدايا لها، وأخرجَ لكيز ما أهدى عمرو بن ذي صهبان لها وقال: يا ليلى، انظري إلى هدايا الأميرِ عمرو بن ذي صَهْبان.

فقالتْ ليلى في خَفَرٍ وحياءٍ: ماذا تقولُ يا أبي؟

قال: انظريْ إلى هذهِ الهدايا والعقودِ الفاخرةِ التي بعثَها الأميرُ منْ أجْلِكِ.

* وهنا سَرَتْ رعشةٌ في جسْمِ ليلى، وانتفضَتْ، ثمّ قالت في إباءٍ وشَمم: وما شأنُ الأميرِ عمرو بنِ ذي صهبان حتى يبعثَ إليَّ بهداياه؟ بل أنّى له أنْ يعرفَني ويعرفَ مكاني، ومتى كان أمراءُ المدنِ وملوكُها يحفلونَ

بأَمْثَالي؟! فصمت لكيزٌ وقد عَرَتْهُ الدَّهْشَةُ ، وتجاهَلَ ذلك ، ثم خَاطَب ليلى : يا بُنية ، إنَّ قبيلةَ ربيعة تفخرُ بليلى واحدة ، هي ليلى بنتُ لكيز ، نعم بنتُ لكيز ، فقد تناقلتِ الرّكبانُ سيرةَ أدبِها وكمالِها وعفّتِها ، وتحدثَّتْ عن جمالِها الوضّاح البَاهرِ ، فسارَ ذِكْرها مسيرَ الشَّمْس ، وتطلَّعت إليها القلوبُ منْ أَقَاصي الدِّيار ، فهلَ يُلام الأمير عمرو بنُ ذي صهبان إذا طربتْ نَفْسُه بمحامدِك وشمائِلك ، وعرفَ قَدْرك ومكانَتك ، وغَمركِ بالهَدايا والألْطَافِ؟! .

* وكادتْ ليلى تصْعَقُ ، وأصابَها وخالتها الوجومُ ، وسرى الصَّمْتُ فخيَّمَ على المكانِ ، فبدَ لكيزٌ ذلكَ الوجومَ حينما بدأَ يوجِّهُ الكلامَ إلى ليلى وهو يخرجُ الهدايا والألطافَ ويقول: مالَكِ يا ليلى ، انظري مرّةً ثانيةً إلى هديّتِكِ النَّفيسةِ ، إنَّها ضروبٌ منَ الثَّياب الثَّمينةِ ، وأنواعٌ منَ الدَّمَقْسِ والحرير ، وعددٌ من الجواهرِ الفريدةِ ، واللآلىء النَّادرة .

* وتسكتُ ليلى على مضَضٍ ، فقد تلقَّتْ هديَّتَها وهي ساكتةٌ وغيرُ مبتهجة ، وهتَف بها قلبُها أنَّ وراءَ هذه الهدية تضحية كبيرة ، فقلبُها قد انعطفَ نحو البرَّاق ، ولكنَّها لا تستطيعُ أنْ تواجهَ أبَاهَا بمكنونِ نفسِها ، ولأنَّ الحياءَ يصدُّها عن ذلك .

* وحسبَ لكيز أنَّ وراءَ صَمْتِ ليلى الرِّضا والقبول ، وراحَ يعدِّدُ هدايا الأمير ، ويخرِجُ لها ما في الجرابِ منَ النَّفائس ويقولُ: يا ليلى ، إنَّ غيثَ الهدايا لما ينقطعَ بَعْدُ ، فما يزالُ لكِ في هذا الجرابِ أشياء نفيسةٌ ، لا يُهديها إلاّ الملوكُ والأمراءُ العِظامُ .

* ودبَّتِ شجاعةُ القَولِ في نَفْسِ ليلى فقالت لأبيها: أنسيتَ يا أبي أنَّ ابنَ عمّي أبا نَصْرِ البرَّاقِ قد خَطَبني إليكَ منذُ زَمَنٍ ، فوعدَتْه أنْ تزفَّني إليهِ بعد عودتِك منَ اليمنِ؟ فقال لكيز: لا يا بُنية ، ولكنّه عمرُو بنُ ذي صهبان الأمير! . قالت ليلى: أتخفِرُ ذمَّةَ البرّاق ، وتنكثُ معه عَهْدَكَ وهو ابنُ أخيك ودمُه منْ دمِنا؟!! .

فقال: وددتُ أنْ نَنْفُذَ إلى النَّعيمِ والحضَرِ، ونتركَ رعي الغَنَمِ وسكنى الوبرِ، ونعيشَ في كنفِ الأميرِ اليمني وفي أفياءِ قصورِه. قالت ليلى: يا أبتِ، أحْسَبُ أنَّ أميرَ اليمنِ هذا ظَنَّ أنَّه يشترينا بالمالِ والجواهرِ والدمْقسِ والحريرِ، لقد خابَ ظنّه وفاله، فالبراقُ خيرٌ منه، وهو قريبٌ أليفٌ.

قال لكيزٌ في تعجُّبٍ: ألا تحبّينَ الحياةَ في ظلالِ السَّعادةِ، بَدَلاً من حياةِ الضَّنكِ والكفافِ؟!.

فقالت ليلى في لهجةٍ صادقةٍ: يا أبتِ، هكذا خُلِقْنَا ووُجدنَا في هذهِ البيداء، وعلى هذا سنموتُ؛ وإنّها لحياةُ الأمَلِ والجَمالِ.

فقال لكيزٌ: وما تَريْنَ منْ جَمالِ الحياة هنا؟!

قالت: إنَّ بسمةَ الفجرِ في الباديةِ لهي أجمل في عيوني من كنوزِ عمرو بن ذي صَهبان، بل إنَّ العيشَ هنَا وأنَا طليقةٌ حرَّةٌ في فَضَاءِ الباديةِ الرَّحْب، وفي نجادِها وسهولِها البسيطةِ، أحبُّ إليَّ منَ الحياةِ أسيرةً في غُرفِ قصورِ الأمراءِ، وإنَّ ابنَ عمي فتى ربيعةَ وفارسِها، أحبُّ إليَّ من أمير جَبَانٍ لا يعرفُ الفروسيّة ولا صهوات الجياد.

* وكادتْ ليلى تكسبُ الجولةَ على أبيها، لكنَّه قال لها: يا بنتي، لقد وعدتُ أميرَ اليمن بأنْ تكونَ ليلى زوجتَه، ولا بُدَّ من أنْ أصونَ كلمتي ووَعْدي، ولم تكنْ ليَ القُدرة على أنْ أرفضَ طلَبَه، ورأيتُ في هذهِ المصاهرةِ خَلاصاً منْ حياةِ القَسْوةِ والشَّقاء، فلا بدَّ منَ الوفاءِ بوعدي.

فقالت ليلى وقد اغرورقتْ عيناها بدموعِ الحزنِ: لتكن مشيئتُك يا أبي، فليستْ ليلى إلا ابنتُك المطيعةُ... وتَدحرجت الدُّموعُ على خديْها المتوردين، ولزمتِ الصَّمت.

أحلامُ الذِّكْرَياتِ:

* كانَ الليلُ قد أرخى سدولَه على باديةِ بني ربيعةَ، وأوتْ ليلى بنةُ لكيز إلى فراشِها، وحاولتْ أنْ تَنامَ، إلاّ أنَّها لم تذُقْ طَعْمَ الكرى هاتيكَ الليلة،

ولم يغمضْ لها جَفْنٌ ، كأنَّ فراشها قد حُشِي منَ القَتَاد ، فهي تتقلَّبُ فوقه معذَّبةً متألمةً.

* وراحتْ أحلامُ الذّكرياتِ تتراءى أمامَها ، وهَالَها أنْ ترى قصورَ أحلامِها ستنهارُ بيدِ والدِها لكيزٍ ؛ الذي زَعْزَعَ أساسَ تلكم الأحلام بيديهِ وبلسانهِ ووعدِه.

* لم تكنْ ليلى تفكِّرُ فيما منَّاها أبوها منْ نعيمٍ ورخاءٍ في قَصْرِ أمير اليمن عمرو بنِ ذي صهبان ، بل لم تُغْرِها هداياهُ وكنوزُه التي رأتْ بريقاً منها فيما قدَّمها لها منْ حليّ وحُلَلٍ ، ولم تتصوَّرْ كيف ستعيشُ بلا قَلْبٍ في بلادٍ لا تعرفُ العواطفَ البسيطةَ ، وقادها تفكيرُهَا إلى البرّاق ، فقد أشفَقَتْ عليهِ وعلى حنَايا أضْلعهِ أنْ تنهارَ حزناً وأسىً وحسرةً على ما بَدر منْ أبيها ، وربما خشيت أنْ يعتادَهُ الظَّنُّ ، فيتّهِمُها بالخيانَةِ والغَدْرِ ، مع أنّها الوفيةُ لعَهْدِه ، الصَّادقةُ في ودَادِه ، الغنيّةُ بهِ عن غيرهِ من رجالٍ أمراء وملوكٍ ولو كانوا منَ اليمنِ أو فارس.

* وتحاولُ ليلى أنْ تبتعدَ عنِ الذّكرياتِ ، وعنِ الأحلام التي تتراقصُ أمامهَا ، ولكنّها كانت كلّما حاولت ذلك ، وأحبَّتْ أنْ تَصْرِفَ ذهْنَها عن البرّاقِ ، فتأبى صورتُه أنْ تُفَارِقَ مخيّلتها ، أو أنْ تنفصِلَ عن ذكرياتِ أحلامِها وأيامِها الغضَّة معه يوم أنْ كانا غضَّيْن في عمر الوَرْدِ.

* وتتدفَّقُ الدُّموعُ من عينَيْها وهي تعيشُ ذكرى أحلامِها ، وتذكَّرتْ هاتيكَ الأيّام الحلوة التي قَضَتْها والبرَّاقَ منذ عَهْدِ الطُّفولةِ وعَهْدِ البَراءَةِ والحبِّ الأخويّ البريء إلى عَهْد الشَّبَابِ والحبِّ العُذريّ العَفيف.

* وفي ومضَةٍ منْ ومَضَات الذّكْرى ، راحتْ ليلى تَسْبَحُ وراءها ، وتتذكَّر حداثَتَها وحداثَةَ البراقِ ، وكيفَ كانا سعيدَين وهما يمرحانِ في الأوديةِ والهضاب والواحاتِ تقاسمه طعامَها ، ثمَّ تبدأُ رحلةُ اللعبِ فيتدَحْرجَانِ على العُشْب الأخْضَرِ في أيّام الرَّبيعِ الجميلةِ التي غَدا الثَّرى في حَلْيهِ يتكسَّرُ ، فقد

ازيّنتِ الأرضُ بألوانِ الزَّهر ، وظهرتِ الرَّوابي كأنَّها العروسُ التي ارتدتْ أجمل حليها وحُلَلها.

* وها هي الآن تحاولُ أنْ تكبحَ جماحَ ذكرياتِها ، وتتوقفَ عند شهامةِ البراقِ الذي غدا زَيْنُ شبابِ ربيعةَ ، وفارسها المغوار ، وشريفَها الذي تحلم به كلُّ مخدَّرةٍ ، فقد كان يغارُ على سمعتِها ، فلا يبدؤها بالتَّحيةِ إذا التَقاها ، ولا يسعى إلى خلوةٍ معها تحتَ ظلالِ الخمائِل وراءَ ملتفِّ الشَّجر ، أو غائِراتِ الصُّخور ، حتى ظَفِرَ بوعدِ أبيها فيها ، هنالك عَلِمَ رجالُ ربيعةَ ونساؤُها بأنَّ ليلى والبراقَ روحَانِ في جسْمٍ واحدٍ.

* مرةً أخرى تشردُ بليلى الذّكرياتُ الحالمةُ ، وتأخذُها بعيداً بعيداً إلى عالَم البرّاقِ ، فقد كانت وإيّاهُ مضربَ المثَلِ في العفَافِ والشَّرفِ ، وتذكَّرت كيفَ كانا يجلسَانِ أحياناً تحتَ ظلالِ الأراكِ يحلمان بالسَّعادَةِ ، ويتناجيان مناجاةَ الهناءَة والأمل ، ويرتقبان يومَ الآمالِ ، يومَ اللقاءِ المشهور في القبيلةِ ، يوم أن يقولَ النَّاسُ : ستزفُّ ليلى إلى البرَّاقِ.

* وارتبطَ خيالُها بما نسجته منْ أحلامٍ زهراءَ باسمةٍ في حياتها في تلك السَّاعة في الباديةِ ، وفي داخلِ خيمتها التي تنبعثُ أحلامُها منها ، فتجلَّتْ لعيني بصيرتها أنَّ حياتَها ستكونُ مع البرّاق ناضرةً نضرةَ الرّيحان ، باسمةً كوجهِ الرَّبيع ، صافيةً كقطراتِ النَّدى ، على الرغم من قسوةِ حياةِ الباديةِ.

* وتقفزُ بليلى التّصوُّراتِ إلى أيّامها المقبلةِ ، وتتبدى أمامَها لوحاتٌ جافَّة ، كأنَّها الهشيمُ المتطايرُ في البيداءِ ، أو كقطعِ الظَّلام ، وبدَتْ لها الحياةُ كئيبةً ، وأنَّها ستكونُ سجينةً ، وإنْ كانت ترتدي لباسَ الحريرِ ، وتمسكُ يَدَيْها أساورُ من ذَهبٍ وفضَّةٍ ، في قَصْر ابن ذي صَهْبان.

* وآلتْ ليلى على نفسِها حِلْفَةَ صادقٍ ، ألاّ تتمتَّعَ بزخارفِ الحياةِ في قَصْر ابنِ ذي صَهْبان ، إنْ تمَّ هذا الأمْرُ ، وحتى ولو سَلاها البرَّاقُ وسَلا هواهَا.

* كانتْ ليلى تداعِبُ الأحلامَ ، وتداعبُها الأمنياتُ في تلكم الليلةِ ، ومرَّتِ الدَّقائقُ والسَّاعاتُ ، فإذا بالصُّبح قد تنفَّسُ ، وبدأتْ أشعّةُ الشَّمسِ

الجميلةِ تتسرَّبُ إلى خيمةِ ليلى من شقوقِ الخباء ، فنهضت لتتركَ الأحلامَ والذّكرياتِ تروحُ مع أنسامِ الليلِ الذي رحَل آنفاً .

* ولكنْ ما حالُ البرّاق في تلكم الليالي الماضيات؟ وهل لعبتْ به الذّكْرياتُ ذاتَ اليمين وذاتَ الشّمال؟ أمْ هل حملَتْه الأحلامُ على أجنحتِها وحلَّقَتْ عالياً في سمواتِ الذكرياتِ العَطرات النّاعمات؟ !

* نتوقَّعُ أن يكونَ البرَّاقُ قد قَضَى ليلتَه وهو أسيرٌ للأرَق والتَّفْكيرِ ، ولعلَّه ظلَّ طولَ الليلِ ساهرَ العينِ ، ينظرُ إلى الغَدِ القريبِ الجميلِ الذي يبتسمُ له مع حبيبتِه ليلى ، فكانتِ الآمالُ تحرِّكُ حنايا قلبِه ، وتداعبُ الأحلامُ خيالَه ، فإذا بالفرح يغمرُهُ ، والبهجةُ ترفرفُ أمامَه ، وتأخذُه الهناءَةُ وتسبحُ به في سمواتِ النَّعيمِ .

* كانَ البرَّاقُ يختارُ المشَاهِدَ التي تروقُ بذهْنِه ، ويرسمها في إطارٍ جميلٍ ، ثم يبدأُ في الحياةِ مع ليلى العفيفةِ الوفيّةِ المحبّة ، ويطيرُ ـ وهو على فراشِه ـ على أجنحةِ الآمالِ يرقُبُ غدَه السَّعيد مع سيدةِ الحرائرِ ذات الشّيم والشّمائل الكريمة .

* وبقيَ البرَّاقُ يساهِرُ النّجومَ ، ويسمر معَ الأحلامِ الدافئةِ إلى أنْ غمرَ الصَّباحُ هاتيكَ الهِضَابِ والبطاحِ في مضاربِ ربيعةَ ، وأخذتْ أنواعُ الطَّير تغادِرُ أعشاشَها وهي تعطِّرُ الصَّباحَ الباسمَ بعذبِ شَدوِها ، وبدأتِ الحركةُ تدبُّ في الأخبيةِ والخيامِ ، ويروحُ كلُّ ذي شأن إلى شأنِه ، ولم يكنِ البراقُ يعلمُ ما تكنّه له الأيّامُ في جعبتها ، وما تختزنُه في ذاكرتها؛ ترى ما المفاجأة التي ظَهرتْ للبرَّاق؟ !

خَبَرُ الخطْبَةِ :

* مثْل انتشارِ النَّارِ في الهشيم ، سرى نبأُ خطبةِ ليلى بنتِ لكيز إلى أميرِ اليمنِ عمرو بن ذي صهبان؛ وتلقتِ النِّساء هذا الخبرَ في شيءٍ منَ الحَسَدِ ، فقد كانت كلُّ فتاةٍ منْ أحياءِ ربيعَة تودُّ لنفسِها مثلّ هذا السَّعْدِ وهذا الأميرِ الخطيرِ .

* ولكنَّ بعضَ النِّساءِ ممن كانتْ تربطهنَّ بالبَّراقِ ، أو بليلى صلة رحمٍ وقُربى ، كُنَّ باديات السُّخطِ والغضبِ ، حيث رُحْنَ ينتقدنَ لكيزاً الذي أرادَ أنْ يَعْبَثَ بالبرّاقِ ، ويقضَّ مضجعَه ، ويقضي على آمالهِ.

* ونُميَ إلى البرَّاقِ وإلى أهلهِ هذا النَّبأ الأليم ، فكاد البراقُ يصعقُ من هولِ المفاجأةِ ، ولكنَّه تماسَكَ فهو الفتى الفارسُ المغوارُ؛ وعليه أنْ يظْهِرَ التّجلّدَ أمامَ هذه المحْنَة المؤلمة.

* وطفقَ البراقُ يفكَّرُ في ليلى ويتساءلُ: ألهَا يَدٌ وهوىً في اختيارِ أميرِ اليمن زوجاً لها؟! ويردُّ على نفسهِ قائلاً: لا ، إنَّ ليلى فتاةٌ أديبةٌ حصينةٌ ، وهي عاقلةٌ وفيّةٌ ، بل درّةُ نِساءِ القبيلةِ ، ولكنّ لكيزاً هو الذي أحبَّ هذه المصاهرة ليركنَ إلى الدَّعَةِ والمالِ.

* وبيَّتَ البراقُ في نفسهِ أمْراً ، ثمّ أفضى ما بنفسهِ إلى أبيهِ وإخوتهِ وقبيلتِهِ ، وأخبرهم بأنَّه راحلٌ عن الدّيارِ ، ولن يثنيه عن عزمهِ هذا شيءٌ.

* وعلمَ الحيُّ بما عزَمَ عليهِ البرّاقُ ، وعلمَ كذلك لكيز فما تحرّكَتْ عواطفُه لذلك ، بل أخبرَ ابنته ليلى بذلك ، فأخذتْ تعلو وجهَها الورديَّ الجميلَ علامةٌ منْ صُفْرةِ الأسى والشَّجن ، وراحَ الحزنُ يعتصرُ قلبَها المكلومَ ، ويهزُّها الفراقُ ، فكيفَ يرحلُ البراقُ عن عشيرتِه ، ويضربُ في البلادِ مهيضَ الجنَاحِ ، مكلومَ الفُؤاد؟!.

* ولكن ليلى رأتْ بعينِ بصيرتها أنَّ البراقَ ذو خُلقٍ عالٍ ، وقلبٍ كبيرٍ ، ونفسٍ ساميةٍ ، خصوصاً بعد أنْ علمَتْ أنَّ الرَّيبَ لم يساورْ نَفْسَه في شأنْها ، وكذلك علمتْ أنَّ رحيلَه عنِ الدِّيار هو من قبيل تجنّبِ الفتنةِ ، ومن قبيل المحافظة على هيبةِ أبيها لكيز ، وقطْع دابِرِ الأقاويل والشَّائعات.

* وفي تلك الأثناءِ كان البرّاقُ وإخوتُه مع أبيهم في خيمةِ البراقِ يتشاورون في أمْرِ الرَّحيل ، وأشارَ أبو البراق إلى أولادِه أنْ يلتمسوا لأخيهم البراق مخرجاً وصَلاحاً لأمْرِه.

فقال عمروُ أخو البرَّاق يخاطبُ أباه :

تَخَيَّـرْ أبَـا عَمـروٍ فـأنْـتَ مُخَيَّـرٌ   وصَرِّحْ بما أحبَبْتَه في أبي النَّصْرِ

ثمّ تكلَّم غرثانُ أخو البراق فقال وهو يؤكِّدُ بأنَّه وقومَه رهن إشارةِ أبي نَصْر البرّاق أخيه :

لِكُـلِّ امـرىءٍ رَأْيٌ لَـهُ ومَشُـورةٌ   ومَجْنَبَـةٌ فيْمـا يَشَـا ويُشيـرُ
وَمَـامِـنْ فتـىً إلاّ لَـهُ مـنْ أمُـورِهِ   مَقَـاصِـدُ فيهـا لا يـزَالُ يسيـرُ
فَـإِنْ يُـرِدِ البـرَّاقُ شيئـاً فـإنّنـا   نُسـارِعُ فيمـا يَشْتَهـي ونطيـرُ
وإنْ لَمْ يُرِدْ شيئاً فما بَعْدَ قولِكم   وهـا هُـوَ عَلَيْكـم حَـاكـمٌ وَأميـرُ

* وهنا شكرَ البرّاقُ أخوَيْه وأهلَه على مشاعرِهم نحوه ، وحبِّهم له ، وأشارَ عليهم بالرَّحيلِ نحو البحرين حيثُ قومهم هناك .

* ولما تنفَّسُ صبحُ اليوم التَّالي ، كان البرَّاقُ وأهله قد شدُّوا رحالَهم ، وابتعدوا عن الحيّ ، بينما كانت ليلى تقفُ غيرَ بعيدٍ ، فرآها البرّاقُ ، والتقتْ نظراتُه عينَيْها ، فَسَرَتْ في جسمِهِ رِعْدَةٌ خَفَقَ لها فؤادُه ، وكاد يسقطُ عن صهوةِ جواده ، فقد كانتْ ليلى ذات كمالٍ وجمالٍ وطلعةٍ بهيّة .

* وأمّا ليلى فلم تكنْ أقلّ اضطراباً منَ البرّاقِ الفارس ذي الشَّبابِ الغضّ ، والرُّجُولة المتألّقة ، كانت ليلى تُودّعه بعينيها السَّوداويْن الجميلتَيْن ، ولسان حالها يقولُ في همس : حبذا العيشُ بقربك يا برَّاقُ ، آه ما أصعب الرَّحيل! إنَّ قلبي يكادُ يتفطّر لرحيلك .

* ولكن هيهاتَ هيهاتَ ، فقد فاتَ الأوانُ ، ولا تقدرُ ليلى على عمل شيءٍ ، وها هي القافلةُ تسيرُ نحو البحرين ، وها هو ذا أبو نصرٍ البراق يودّعُها بنظراتٍ مؤثّرة . هنالك فاضتْ نفسُ ليلى حَسَراتٍ ، واغرورقت عيناها بدموعِ الشَّجن ، وحزَّ رحيلُه في نفسها ، فراحتْ تنشدُ الشّعر في رحيلهِ لعلَّها تسلو ، ومن بدائعِ ما أنشدته ليلى في فراقِ البراق ما وعَتْه أذن التّاريخ الواعية قولها :

تَـزَوَّدْ بنَـا زَاداً فليَـسَ بِـراجـعٍ   إلينَـا وصَـالٌ بَعْـدَ هـذا التَّقـاطُـعِ
وكَفْكِـفْ بـأطْـرَافِ الـوَدَاع تَمتُّعـاً   جُفُونَك منْ فيضِ الدُّموعِ الهَوامِعِ

ألاَ فاجْزِني صَاعاً بصاعٍ كما ترى   تصوَّبَ عيني حَسْرةً بالمدامعِ[1]

* وتغيبُ القافلةُ عن الأعين ، ولكنَّ صورةَ البراقِ لم تغبْ عن عينِ ليلى ، ولم تبرحْ صورتُه قلبَها الكسيرَ .

ليلى بَعْدَ رحيلِ البرَّاق وأنينُ الذِّكريات :

* بعد رحيلِ أبي نَصْر البرّاق غَدَتِ الأيّامُ تتوالى على ليلى قاحِلةٌ قاسيةً ، فكانت تعمدُ إلى التَّسليةِ بمغزلها ، تغزلُ الصُّوف بالقربِ من مضاربِ آلِ البرّاقِ التي غَدَتْ أطلالاً ، وغدتْ رسماً يتحدَّثُ عن الرَّاحلين .

* وكانتْ ليلى تعرجُ على المكانِ الذي كان فيه مضربُ أبي نصر البرّاق ، تتأمّلُ آثارهُ ، وتتذكّر مآثِرَه ، فتنهمرُ الدُّموع من مآقيها ، وتمشي فوقَ تلك الأرضِ في رفْقٍ وحنان ، إذ يناديها فؤادُها بأنْ تخفِّفَ الوطءَ على أرضِ الحبيب .

* وفي لحظاتٍ منْ عبيرِ الماضي ، خَشَعَ قلبُ ليلى ، وراحت أثقالُ الحنينِ تعبثُ بقلبها المُدنَف ، وانبعثت أنّات الذّكريات تتراءى أمامَها ، وتوخزُ مشاعِرها وأحاسيسها ، وتجعلُها تستسلمُ إلى مناجاةِ نفسها ، وتتخيَّل البرَّاقَ وحركاته وسكناته وتقول : هنا الموضعُ الذي كانَ يجلسُ فيه البرّاقُ ، وهنا في هذه الزّاوية كان يضَعُ سلاحَه ، وهناك ثيابُه ، وهنا كان يعلِّق أشياءَهَ ، وفي ذلك المكان يستقبلُ ضيوفَه ، ويتحفُهم بالحديث الجميل والطَّعام الطَّيِّب والوجه الباسم ، وفي ذاكَ الموضعِ كان يستلقي ويسرّحُ نظره في الأفقِ كأنَّه يناجيه[2] و . . . . .

---

(١) انظر : شاعرات العرب (ص ٣٨٢) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٤١٦) ، وليلى العفيفة (ص ٥١) .

(٢) ينطبقُ على حال ليلى ما قاله نزار قبّاني على لسانِ إحداهنّ في قصيدته «ماذا أقول له» ومنها :

رَبَّاهُ أشياؤُه الصُغْرى تُعذِّبُني   فكيفَ أنْجُو منَ الأشْياءِ رَبَّاهُ

هُنَا جريْدَتُهُ في الرّكنِ مهملةٌ   هنا كتابٌ معاً كُنّا قرأْناهُ=

* وكانت ليلى تتسلّى بمثلِ هذه الذّكريات ، أو تتسلى بها الذّكرياتُ ، فكانت لا تفتأُ تحدِّثُ نفسَها بمثلِ ذلك حتى تنذرها الشَّمْسُ بالمغيبِ ، أو ترى قادِماً نحوها ، فتعودُ إلى خيمتها حيثُ أبوها وإخوتُها وخالتُها الذين كانوا يلاحظون شحوبَها ووجومَها. وكانت خالتُها أمُّ الأغرّ تحاولُ أنْ تخفِّفَ عنها ما يعتريها من ضيق وحزنٍ لفراقِ البرَّاق ، وتحكي لها القَصَصَ الشَّائقةَ التي يجتمعُ بها قلبا الشَّتيتَيْن[1] ، وتمنّيها برجوع البرّاق ، وتبشّرُها بالفرجِ القريبِ[2] بعد هذه الشِّدّة؛ وخصوصاً بعد أن اصطحبتْها ذات مرّةٍ إلى إحدى العرّافات ، فأخبرتها أنَّ البرّاقَ سيعودُ إليها ، ولكنْ بَعْدَ معارك يخوضُها ويعودُ منها ظافراً منصوراً.

أَسْـرُ لَـيْـلَـى:

* بعد غيابِ البرَّاق عَنْ قومِهِ ، حدثَتْ معركةٌ بين قبيلةِ ربيعةَ وطيء ، والتقوا في معركةٍ طاحنةٍ قُتِلَ فيها خَلْقٌ كثيرٌ من ربيعةَ على الرّغم من استبسالِ رجالِهم ، ولحقتْ بهم الهزيمةُ ، وأخذَ الطَّائيون يجرُّون وراءهم المغانِم والسَّبايا ، وكانتْ ليلى من عداد السَّبايا وكذلك أمُّ الأغر ونساء أخريات.

* ولما علمَ زعيمُ الطَّائيين نصير بن لهيم بذلك ، أَمرَ أنْ تُحَاطَ ليلى وأمّ

= على المقاعدِ بعضٌ منْ سَجائِرِه ... وفـي الـزَّوايـا بقـايـا مـنْ بقَـايـاهُ
أأدّعــي أنّنــي أصبحــتُ أكــرهُــهُ ... وكيـفَ أكْرهُ مَـنْ فـي الجفْـنِ سُكْنَـاهُ
وكيــفَ أهــربُ منْــه إنَّــه قَــدَري ... هــل يملــكُ النَّهْــرُ تغييــراً لمجــرَاهُ
الحبُّ في الأرضِ بعضٌ منْ تخيّلنا ... لــو لــم نجــدْهُ عليهــا لاخْتَــرعنَــاهُ
(الأعمال الشّعرية الكاملة ١/ ٥٠٥) باختصار.

(١) ولله درُّ مَنْ قال في هذا المجال:
وقــد يجمــعَ اللهُ الشّتيْتَيْــن بعــدمــا ... يظنّــان كــلَّ الظَّــنّ ألاَّ تــلاقيــا

(٢) ولله در الآخر حيث يقول:
عَسـى الكـربُ الـذي أمْسيتُ فيـه ... يكــونُ وراءَه فَــرَجٌ قــريــبُ

الأغر بالرِّعاية ، فليلى ابنةُ لكيز ، وأمُّ الأغرّ أخت كُليب فارسٌ منْ فرسانِ ربيعةَ الأشداء .

* وراحتْ ليلى وأمُّ الأغر تذرفان الدُّموعَ طولَ تلك الليلةِ ، وهما تندبان سوءَ الطَّالع وسوء الأَسْر ، وكانتا تتناجيان بالكلماتِ الممزوجةِ بالعبراتِ ، وانبعثت من فَمِ ليلى كلمات حرّى وهي تخاطبُ أمّ الأغرّ قائلة : لو كانَ البرّاقُ على رأسِ فرسان ربيعةَ لما كُنّا في هذا الموضع .

فقالتْ أمُّ الأغرّ : وماذا يفعلُ فارسٌ واحدٌ أمامَ جموعِ بني طيء ، أحسبْتِ ياليلى أنَّ البرَّاقَ يعدلُ جيشاً كُلَّه؟ أنسيتِ شجاعة خالِك كُليب وأعوانِه؟

فأجابتها ليلى بهذه الأبياتِ التي تبيّنُ فيها شجاعَة ومكانة البّراق في بني ربيعة فقالت :

أُمَّ الأغرّ دَعي ملامَكِ واسْمَعي ... قَولاً يقيناً لَسْتِ عنْه بمعْزِلِ
بـرَّاقُ سيّـدُنَـا وفـارسُ خَيْلِنَـا ... وهو المطاعِنُ في مضيقِ الجَحْفَلِ
وعمادُ هذا الحيِّ في مَكْروهِهِ ... ومؤمَّلٌ يرجوهُ كُلُّ مؤمِّلِ[1]

* ولم يكن هذا رأيُ ليلى وخالتها وحدهما ، وإنّما كان كذلك رأيُ كُليب وخلصائِه ، فإنّهم ركبُوا خيولَهم وطاروا بها نحو البراق طيرانَ الصُّقور إلى البحرين ، فاستقبلهم البرّاق وأكرمَهم ، فقصَّ كُليب حوادِثَ المعركةِ بين ربيعةَ وطيء على أسماع البرّاق ، وأفهمه أنّهم جاؤوا إليهِ مستنجدين مستجيرين ، ثمّ أنشده :

إلَيْكَ أتَيْنا مستجيريْنَ للنَّصْرِ ... فشمِّر وبادِرْ للقتالِ أبَا نَصْرِ
ومَا النَّاسُ إلاّ تَابِعُونَ لِوَاحِدٍ ... إذا كَانَ فِيْهِ آلةُ المَجْدِ والفَخْرِ
فنادِ تُجبْكَ الصِّيْدُ مِنْ آلِ وائلٍ ... وليسَ لكم يا آلَ وائلَ منْ عذْرِ

* ولمّا سَمِعَ البرّاقُ ما أنشدهُ كُليب ابتسمَ ابتسامةَ حُزْنٍ ، وذَكَرَ ما لقيه منْ لكَيز ، ولكنّه أجابَ كُليباً فقال :

---

(١) شاعرات العرب (ص ٣٨٢) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٤١٧) .

وهَـلْ أنَـا إلاّ وَاحِـدٌ مـنْ ربيعـةٍ أَعـزُّ إذَا عـزُّوا وفَخْرُهُـمُ فَخْري[1]
سَـأَمْنَحُكـمْ مِنّـي الـذي تَعْـرِفُـونَـه أُشمِّرُ عنْ سَاقي وأعْلُو عَلى مُهْري
وأَدعُو بني عمّي جَميعاً وإخْوتي إلى مَوطنِ الهَيْجَاءِ أو مرتَعِ الكَرِّ

* ثمَّ إنَّ البراقَ سكتَ ولم يجبْهم ، وردَّهم بلطفٍ ، فقامُوا وهم يتعثّرون بأذيال الخيبةِ ، ولم يخبرْهُ كُليب بأَسْرِ ليلى وأُمِّ الأغرّ ، فعسى أنْ يسمعَ الخبرَ ، فيهبَّ ويبادرَ إلى خلاصهما .

* وعلمَ بنو طيء بخبرِ سفَارةِ كُليب إلى البرّاق ورجوعِهِ خائباً يجرِّرُ أذيالَ الخيبةِ ، فشاءَ نصير بن لهيم زعيم بني طيء أنْ يهتبلَ الفرصةَ الذَّهبيَّةَ ويكسبَ البرّاق إلى صفّه ، فأرسلَ إليه يَعِدُه ويمنّيه بتزويجه ابنته إن انضمَّ إلى طيء ولم ينصرْ ربيعةَ ، ووعده بأنَّه سيكونُ الفارس السَّيد إنْ آزرهم على قتالِ ربيعة ومَنْ والاهم؛ وكَتبَ إليه بهذه الأبيات :

ألا أبلـغِ البـرَّاق منّـي نَصْيحـةً فـإنَّـا إليكـم أجمعيـنَ نَسيـرُ
فَهَـلْ لَـكَ تـأتينَا سَريعـاً مُسَلّماً فـإنّـي لكـمْ ذُو نُصْـرَةٍ وظهيـرُ
قَبـائِـلُ طَـيٍّ كُلُّهـا قَـدْ تجمَّعَـتْ وأحْـلافُهـا جـاءَتْ لهـنَّ تغيـرُ
أَلَـمْ تـذكُـروا مَـاذَا جَنَـاهُ لكيزُكُـم وأعْـرضَ عنكُـم والكَـلامُ كثيـرُ
هَلُـمَّ إلينـا كـيْ أزوّجُـك ابنتـي لهـا شَـرفُ فـي طيِّهـا وظَهيـرُ
وَدَعْ عَنْـكَ إهْمَـالاً هنـاكَ فـإنَّـهُ أقـاطيـعُ أرحـامٍ وأنـتَ نَصيـرُ

* ولما وصَلتِ الأبياتُ البرَّاقَ ، أنْشَأَ يقولُ مجيباً زعيمَ بني طيء :

لعَمْـري لَسْـتُ أَتْـركُ آلَ قَـومـي وأرحَـلُ عَـنْ فِنَـائـي أو أَسيـرُ
وَلـي بهـمُ إذَا مـا كنْـتُ فِيْهـم علـى رغـم العِـدا شَـرفٌ خَطيـرُ
أأنـزلُ بينهـم إنْ كـانَ يُسْـرٌ وأرحـلُ إنْ ألـمَّ بهـم عَسيـرُ

---

(١) هذا البيتُ الجميلُ يذكّرنا ببيتٍ لدريد بنِ الصّمة من قصيدةٍ له تبلغُ (٢٥ بيتاً) يرثي بها أخاه عبد الله وكان قد قُتل يوم اللوى :
وهـلْ أنـا إلاّ مـنْ غـزيـةَ إنْ غَـوتْ غـويـتُ وإنْ تـرشُـدْ غـزيـةُ أرشـد

فكُفَّ الكَفَّ عنْ قَومي وذَرهُم   فسوفَ يرى فعالَهم الضَّريرُ

* وكانَ البرّاقُ قد عَلِم بسبي ليلى ، فأرسلَ إخوته إلى أحياء ربيعة يستصرخون قبائلها ، فاستجابتْ للبرّاق الذي مشى إلى مضاربِ طيء ، وكان بصحبتِهِ أبوه وإخوتُه ، ومن انضمَّ إليهِ منْ فرسان بني أسد وحنيفةَ وربيعةَ وغيرهم ، وأخذَ البرّاق ينشدُ ويرتجز :

لأفرجنَّ اليومَ كُلَّ الغَمَمِ   من سَبْيهم في الليلِ بيضَ الحَرَمِ
صَبْراً إلى ما ينظرون مَقْدمي   إنّي أنا البرَّاقُ فَوقَ الأَدْهمِ
لأَرجِعَنَّ اليومَ ذاتَ المبْسَمِ   الواضِحِ المُنَضَّدِ المُنَظَّمِ
بنْتَ لكيز الوائِليّ الأرْقمِ

* وفي المضاربِ القريبةِ منْ ليلى ، راحَ البرّاقُ يخوضُ غمراتِ القتالِ وهو لا يخشى العواقبَ ، حيثُ يساعدُه فرسانُ ربيعةَ في معاركِهِ التي أحرزَ بها الانتصاراتِ المتوجة بالظَّفر ، وما زال ينتقلُ من نَصْر إلى نصرٍ ، ويلحِقُ بأعدائه الهزيمة ، حتى أذعنُوا واستسلموا وعلموا أنهم لا طاقةَ لهم بالبرّاق ورجاله ، وهنالك فكَّ الأسرى ، واسترجعَ السَّبايا والظَّعائن ، وكانت ليلى وأمُّ الأغرّ في مقدمتهنَّ .

* وتأثّر البّراقُ لتلكَ المعاركِ التي جَرَتْ بينه وبينَ القبائلِ العربيّة ، ثمّ إنّه أخذَ يسعى في إصلاح ذات البين ، فتقبَّلَتْ منه الجموعُ والأحياءُ هذه البادرةَ الكريمة ، فتآخَتْ فيما بينها ، وتلاشتِ الأحقادُ من صدورها ، وأقرَّتْ للبرّاقِ بالصَّدارة والنُّبل ، واعترفتْ به فارسَ الفُرسان وأميرهم ، فالذي فَعَله يستحقُّ أنْ يكونَ له الشَّرفُ الأثيلُ ، والمكانةُ المرموقةُ .

ليلَى في قَصْرِ ابنِ مَلِكِ الفُرْسِ :

* بعد أنِ انتصرَ البرّاقُ ذلك الانتصارَ الباهرَ ، وعُقِدَتْ له الرِّياسةُ في قومِهِ ، وحُفّ بالفخرِ والمجدِ والشّرفِ ، ورأى فرسانُ العشائر أنّه قد أصبحَ جديراً أنْ يتزوَّجَ ليلى بنت لكيز ، حيث إنَّ أميرَ اليمنِ عمروِ بنِ ذي صهبان قد انصرفَ عنها ، ولم تعُدِ الأخبارُ تَرِدُ منه بشأنِها .

* ولكنَّه لم تمضِ أيامٌ قليلةٌ حتّى وَرَدَ رسولٌ من عمرو بن ذي صهبان إلى لكيز يستنجزُه وعْدَه في تجهيزِ ليلى إليه.

* وكانَ البرّاقُ آنَ ذاكَ ينتظرُ وَعْدَ عمِّه، ولكنَّه لما عَلِمَ بما جاء بهِ رسولُ أميرِ اليَمنِ لزِمَ الصَّمْتَ في عزّةٍ وسمو نفس، وخصوصاً لما أخبره لكيز بنوايا ورسائل أميرِ اليمن منْ أجْلِ ليلى.

* وبعد أيّام حَمل لكيز ابنتَه ليلى بعد أنْ جهَّزَها، وسارَ مع إخوتها ورسولِ أميرِ اليمن كي يحرسوها حتى تَصِلَ إلى أبوابِ اليمن.

* وفي الطَّريق، وقبل أنْ تَصِلَ العروسُ إلى حدودِ اليمنِ اعترضَ أفرادَ قافلة ليلى خمسون فارساً يتقدّمهم فارسٌ يُدعى بردُ بنُ طريح ـ وكان قد خَطَبَ ليلى فردَّه لكيز خائباً ـ.

* وحاولَ لكيزٌ أنْ يقارعَ هؤلاء الفُرسان، ولكنَّ ليلى رَجَتْ أباها ألاّ يَفْعلَ لأنَّهم قِلّة، وخاطبتْ بُردَ بنَ طريح فقالت: أبلَغَتْ بكَ الحالُ أنْ تَخْطِفَ الحَرائر؟

فقال: إنَّ أباكَ رَفَضَ أنْ تكوني لي زوجةً، فأحببتُ أنْ أجعلَكِ هديّةً لابنِ مَلِكِ الفُرس انتقاماً منْكِ ومنْ أبيكِ.

* وانتفضَتْ ليلى انتفاضةً شديدةً، ونزعتْ من جيدها العِقْدَ، والجواهرَ وأعطتْها إلى رسولِ أميرِ اليمن وقالت: خُذْ هديَّة أميرِك وقُلْ له: إنَّ ليلى صارتْ فريسةَ لصّ من لصوصِ النِّساء. ثمَّ قالتْ لبردِ بنِ طريح: سِر أيّها النَّذْل بي حيثُ تريدُ، وأمرتْ أباها وإخوتَها بالرّجوع إلى بلادهم، وسارتْ جموعُ الفرسانِ بليلى إلى بلادِ فارس، يتقدَّمُهم بردُ بنُ طريح الإيادي.

* وفي بلادِ فارسَ استأذن بردُ بنُ طريح على ابن ملكها في الدُّخول عليه، فأذِنَ له وأخبره أنَّه قد أحْضَر لَهُ أميرةَ الباديةِ وتحفةَ بناتِ العرب ودرتَهم المتألّقةِ ليلى بنت لكيز، ـ وكان بردُ قد حدَّثه عنها فيما مضى ـ.

فقال ابنُ ملكِ الفرس: كيف أحضرتَها، وكيفَ رضيَتْ بنا؟! قال بُرد:

لقد خَطَفْتُها وهي في الطَّريقِ إلى اليمنِ كيما تزفُّ إلى أميرِها ، واعلمْ بأنَّها زينُ بناتِ ربيعةَ .

فقال ابنُ ملك الفُرس: لقد أسهبتَ في وصْفِ شمائِلها وجمالِها وكمالِها ، وإنّي أشتهي أنْ أنظرَ إلى هذه الحسناء .

قال بردُ: حَسَناً ، إنَّ هذه الفتاة راضية أنْ تكونَ منْ جواريكَ وإمائِكَ . فتبسَّمَ ابنُ مَلِكِ الفُرس ، ووصلَ برداً ثمَّ أشارَ إليه بالانصرافِ .

* وانقلبَ بردٌ إلى دارِهِ وهو ضيِّقُ النَّفْسِ لأنَّه يعلمُ عزَّةَ ليلى وأنفتِها ، وقد زعمَ لابنِ ملك الفُرس أنّها أتتْ طائعةً راضيةً ، ولكنّه كان يعرفُ ما جُبِلتْ عليه بناتُ العرب من إباءٍ وشَمم؛ وكان بردُ قد أمَر زوجتَه أنْ تزيّنَ ليلى وأنْ تلبسَها فاخِرَ البرودِ الفارسيةِ ، فرفَضَتْ ليلى ذلك ومزَّقَتْ كلَّ الملابس ، وثارتْ وبَكَتْ حتى أشفقتْ عليها زوجةُ برد .

* وتقدَّم بردٌ من بابِ مخدع ليلى وقال لها: هيا انهضي فابنُ الملكِ في انتظارِك ، ولأعذبنّكِ إنْ لم تسمعي أمري .

* ونظرتْ إليه ليلى نظرةَ احتقارٍ وازدراء ثمّ قالتْ له: إنَّ يَدَ البرّاقِ ستردُّ كيدَك ، ولو كان حَاضِراً لما استطعتَ أنْ تتكلَّم بحرفٍ واحدٍ .

فقال بردُ: هوِّني عليك ، فستكوني في قَصْرِ ابن مَلِكِ فارس مكرّمةً ، ذات مجدٍ ونعمةٍ ، وستكوني بينَ المطارفِ والحشَايا وتتحلَيْن بالجواهرِ والدُّررِ ، وتأكلين بصحافٍ محلاّةٍ بالذَّهب والفضَّة .

* ولما أخذَ بردُ بنُ طريح يكثرُ على ليلى من هذا الكلامِ غلى الدَّمُ العربيُّ في عروقها ، وأنشأتْ تقولُ له:

لَـو كُنْـتَ مُنْتَسِبـاً إلَـى شَيْبـانِ ... لحفظْـتَ فَـرعَهُـم بِكُـلِّ لسَـانِ
وعَرَضْتَ عَنْ فِعْلِ الخَنَا أخَا الخنَا ... وغَضَضْتَ طَرْفاً مُسْتحِي الأجْفَانِ
وَأنَـا النَّسيْبَـةُ والعَفيْفَـةُ فَـاعْلَمَـنْ ... يـا بْـنَ الـدَّنيَّـةِ يـا بـنَ كُـلِّ أتَـانِ

* وانزعجَ بردٌ من هذا الكلام وطارَ صوابُه ، ثمّ أردفتْ ليلى قائلة: لو كنتَ أصيلاً لما سُقْتَ ابنةً من بناتِ ربيعة إلى الفحشاءِ والرّيبة ، إنّما أنْتَ زنيمٌ. وطاش حلمُ بردٍ فأمرَ عبيده بضربها ، فضربوها حتى غابتْ عن وعيها .

* ثم تثوبُ ليلى إلى رشْدها ، وتستسلمُ إلى حزنٍ عميق ، ثم أخذتْ تبكي ، فقد شقَّ عليها أنْ تواجِهَ الأخطارَ وحيدةً لا حولَ ولا طولَ ، غريبة عن الأهلِ والدِّيار ، ثم تذكرُ ما يريدُه منها خاطِفُها فترتعدُ فرائِصُها فَرَقاً ، فكيفَ يدنو منها ذلك الأعجميُّ وهيَ العربيّةُ الأصيلَةُ؟! لن يستطيعَ ابنُ ملكِ فارس ولا غيره أنْ يدنوَ منْ ليلى ، ولو كان البرّاقُ حاضراً لقطعَ اليدَ التي تهمُّ بها بسوء .

* ومكثتْ ليلى مدّةً في وحدتها تتسلّى بالعَبراتِ ، وبما ينفثُه صدرُها منْ أنينِ الكلماتِ ، فكانَتْ تنشدُ الأشعارَ لعلَّها تَصِلُ أسماعَ البرَّاقِ فينقذُها منْ هذه الطَّامَّةِ ، ويعيدُها إلى أهلِها وعشيرتِها ، فقد طالتْ أيّام غربتِها ، وكرهتِ القُصورَ الفارسيّةَ وما فيها منْ ألوانِ الحضارةِ ، وحنَّتْ إلى بيتِ الشَّعْرِ الذي تخفقُ فيه الرِّياح .

لَيْتَ لِلْبَرَّاقِ عَيْناً:

* كانتْ ليلى في مِحنتِها تفكِّرُ بالبرّاق ، وتفزعُ إليهِ وإلى فرسان عشيرتها جميعهم ، وتستغيثُ بهم كيما يخلّصوها ممّا عراها .

* وفي واحدةٍ من قصائِدها العِذاب ، شَدَتْ ليلى بأبياتٍ جميلةٍ في أنغامٍ حزينة تستنجدُ فيها بالبرّاقِ ، وتستثيرُ همّة إخوتِها وقومها لإنقاذِها .

* وفي قصيدتها هذه ، تتحدَّثُ ليلى في مرارةٍ وأسىً عمّا تلاقيهِ وتقاسيهِ منْ آلامٍ وعَذَاب ، وضَرْبٍ وهَوَان ، وقد افتتحتْ قصيدتهَا بذكْرِ البرّاق ، وتمنَّتْ بأنْ يكونَ حَاضِراً ليرى ما تقاسيه منْ عذابٍ وبلاءٍ وعَنَاءٍ ، فتقولُ مناجيةً له :

لَيْتَ للبرَّاقِ عيناً فتَرى   ما أُقاسي منْ بلاءٍ وعَنَا

وبعد هذه المناجاة المفعمة بالتّمني تستنجدُ بإخوتها : كليب ، وعقيل وجُنيد ، كيما يُساعدوها في آلامها ، وفي بكائها ، وتقول لهم : يا أبناء لكيز ، لكمُ الويلُ والثّبور ، إنَّ أختكم ليلى لاقت العذابَ والهوان في الصَّباح والمساء؛ نعم إنّها تلاقي عذاب النّكر صُبحاً ومَساءً:

يـا كليبـاً يـا عقيـلاً إخـوتـي   يـا جنيـداً أسْعـدُونـي بـالبُكـا
عـذبـت أختكـم يـا ويلكـم   بعـذاب النّكـر صبحـاً ومسـا

* وبَعْدَ هذا النّداء ، تؤكّدُ ليلى للبرّاقِ ولإخوتِها ، ولقومها ، بأنّها شريفةٌ عفيفةٌ ، وتؤكّد بأنَّ خاطِفَها هو وابنُ مَلك العجم منَ الكاذبين ، بل إنَّ الأعجميَّ كاذبٌ مُفْتَر إنْ زعمَ أنَّه قد اقتربَ منها ، أو رأى وجْهَها ، فهوَ لَنْ يستطيعَ أنْ يدنوَ منها مَا دامَ فيها رمقٌ ، وما ظلَّتْ فيها بقيةٌ منْ حياة:

يَكْـذِبُ الأَعْجَـمُ مـا يَقْـربُنـي   وَمَعـي بعـضُ حُشَـاشـاتِ الحَيـا

* وبعدَ ذلك تتوجَّهُ ليلى في خطابِها إلى الأعاجِمِ لتقولَ لهم مُظهرةً كراهيتَها لهم:

قَيّـدُونـي غلّلُـونـي وافعلُـوا   كـلَّ مـا شئْتُـم جَميعـاً مـنْ بَـلا
فَـأنَـا كـارهـةٌ بغْيَتَكـم   ومَـريـرُ المـوتِ عنـدي قَـد حَـلا[1]

(١) إنَّ حُزْنَ نَفْسِ ليلى الأبيّة تجعلُها تقولُ: أيّها الأعجامُ ، اربطوني وقيّدوني بالأغلالِ ، وعذّبوني بأنواعِ البلاء ، فأنَا ثابتةٌ على رأيي ، كارهةٌ لما تريدونه منّي ، والموتُ عندي حلوُ المذَاقِ ، إذا قيس بأفعالِكم.
ومنَ الجديرِ بالذّكْرِ أنَّ هذيْن البيتَيْن ، وبعدهما بيتان آخران قد وَرَدا في روايةٍ أخرى على النَّحو التَّالي بصيغةِ خطابِها لأهْلِها ، وإخبارِها لهم بما يفعلُه الأعاجمُ من عذابِها ومهانَتِها:

غَلّلـونـي قيّـدونـي ضَـربُـوا   مَلْمَـسَ العِفَّـةِ منّـي بـالعَصَـا
فـأنَـا كـارهـةٌ بغيَكـمِ   ويقيـنُ المـوتِ شـيءٌ يُـرتجـى
أصبحـتْ ليلـى تُغـلُّ كفُّهـا   مثْـل تغليـلِ الملـوكِ العظُمَـا
وتقيّـد وتكبّـل جهـرةً   وتُطـالـب بقَبيحـات الخَنَـا

* وتندِّدُ ليلى بَعْدَ ذلك ببني أنْمار الذين خانُوها ، والذين حسَّنُوا لابنِ مَلِكِ الفُرس خَطْفَها :

أتــدلُّــونَ عَلينــا فَــارِســاً ... يــا بنــي أنمــارَ يــا أهْــلَ الخَنَــا

يــا إيــاداً خَســرَتْ صَفْقتُكــم ... ورَمــى المنظــرَ مــنْ بــردِ العمــى

يــا بنــي الأعْمــاصِ إمّــا تَقْطَعُــوا ... لِبنــي عــدنــانَ أسبــابَ الــرَّجَــا

فَــاصْطبــاراً وعــزَاءً حَسَنــاً ... كُــلُّ نَصْــرٍ بَعْــدَ ضُــرٍّ يُــرْتَجــى

أَصْبَحــتْ ليلــى تُغَلَّــلُ كفُّهــا ... مِثْــلَ تَغْليــلِ الملُــوكِ العُظَمــا

وتُقَيَّـــد وتكَبّـــلْ جَهْـــرَةً ... وتُطَــالَــب بقَبيحَــاتِ النَّبَــا

* ثمَّ إنَّ ليلى راحتْ تدعو قومَها لينقذوهَا منَ الأَسْرِ ، ويشمِّروا عن سواعدِ العَزْمِ ، ويرفعُوا الرّاياتِ والسُّيوفَ ، وتحذِّرُهم من أن يلحقَ بهم العار وبأولادِهم وأعقابِهم إنْ توانوا عن إنقاذها :

قُــلْ لِعَــدْنــانَ فُــديتُــم شَمّــروا ... لبنــي الأعَجــامِ تَشْميــرَ الــوحــى

واعْقــدوا الــرَّايــاتِ فــي أقْطــارِهــا ... وأشْهروا البيضَ وسيروا في الضُّحى

يــا بنــي تغلــبَ سيــروا وانْصُــروا ... وذَروا الغَفْلَــةَ عنكــم والكــرى

واحــذروا العــارَ علــى أعقــابكــم ... وعليكــم مــا بقيتُــم فــي الــورى[1]

---

(١) انظر : شَاعِرات العرب (ص ٣٨٠ و٣٨١) وليلى العفيفة (ص ١٠٢ و١٠٣) مع الجمع والتصرف.
ويتبدّى لي أنّ صَوْتَ ليلى بنت لكيز منْ أوائِلِ الأصواتِ النَّسويةِ التي وصلتْنَا؛ ولعلَّه أوّلُ صوتٍ نسائي قادمٌ منْ أعماقِ التَّاريخ من قلبِ الجزيرةِ العربيةِ ، يرفض الضّيم ، ويأبى الذّلّ ، ويفصحُ عن عفّةِ المرأةِ العربيةِ الأصيلةِ ، وشرفها واعتصامِها بمكارمِ الأخلاق ، وهذا شيءٌ جميلٌ رائعٌ ، يضيفُ إلى رصيدِ مكارمِ المرأةِ العربيةِ فضيلةً أخرى محمودة.

أمِـنْ دُونِ لَـيْـلـى ؟

* كانَ اختطافُ ليلى أليماً على إخوتها وذويها ، فراحُوا إلى البرّاقِ يستصرخونَه ، ويستصرخُونَ القبائل ، ومن ثمَّ ينهضونَ إلى حربِ الأعاجمِ والرُّجوعِ بليلى عزيزةً نقيّةً .

* واستقبلَ البرّاقُ القومَ ، وكان هائجاً هياجَ الليثِ في العرينِ ، وبادَرَهُم قائِلاً : يا أبناءَ العمّ ، ويا معشرَ ربيعةَ ، وايمُ الحقِّ لأبذلنَّ رُوحي في سبيلِ ليلى ، ولأستسهلنَّ الصَّعبَ أو أدركَ المنى ، وسنذهبُ ونحاربُ إياداً والأعاجمَ ونعودَ بزينِ العذارى ، ودرّةِ النِّساء ، وغُرّةِ القبيلة .

* وكانت أمُّ الأغرِّ تستحثُّ أخَاها كُليباً كيما يستصرخُ هو الآخرُ القبائل لإنقاذِ ليلى ، ولكنّ كُليباً كان واجماً صامِتاً ، فظنَّتْ أمُّ الأغرِّ أنَّه متقاعسٌ عنْ نصرةِ ليلى ، فقالتْ له أمُّ الأغرِ في لهجةِ تقريعٍ وتأنيبٍ :

أَرَاكَ عَنِ الأَمْـرِ المُشَتَّـتِ غَـافِـلاً كَـأَنَّـكَ نَـاجٍ مِـنْ خَـزَايَـاهُ سَـالِـمُ

فَإِنَّ امْرَأً عَنْ مثْلِ هَاتِيكَ غافِلٌ فَليسَ تـراهُ فـي العُلـى وهـو قَـائِـمُ

فَسيْـروا لليلـى أو رُميتُـم بعـارِهـا لقد رسَخَتْ في عارِ ليلى الأراقمُ[1]

* ثمّ إنَّ البرَّاقَ وقومَه أعدُّوا العُدَّة ، وساروا نحو بلادِ فارس ، وكان البرّاقُ يودُّ لو يستطيعُ أنْ يمتطيَ الهواءَ ليصلَ بأقْصرِ وقت ؛ فقد كان يسيرُ في مقدَّمةِ الصُّفوف يترنَّمُ بالأشعارِ ، ويؤكّدُ بأنَّه لن ينامَ على ضيمٍ ، ولن يتأخرَ عن خلاصِ ليلى مهما بعُدَتِ الشُّقْة ، وستكونُ السُّيوفُ هي الّتي تحكمُ في رقابِ الأعْداءِ ، ثمّ ينعى على أولئك الذين تُسوّلُ لهم أنفسُهم أنْ يخطفُوا الحرائرَ ، ومما قال البرّاقُ هذه الأبيات الجميلة الكاشفة :

---

(١) انظر : ليلى العفيفة (ص ١٠٩) .

أَمِنْ دُونِ ليلى عوَّقَتْنا العَوائقُ جنُودٌ وقَفْرٌ ترتعيْهِ النَّقانِقُ
وعجْمٌ وأعرابٌ وأرضٌ سَحيقةٌ وحصْنٌ ودورٌ دونَها ومَغَالِقُ
أليلى استَطالَتْ ليلتي قَبْل هذِه وقَدْ بَاتَ دمْعي وهو في الخدِّ دافقُ
أليلى وأنْتِ القَصْدُ قَدْ غَالَكِ النَّوى وفعْل لئيمٍ يا بنْتَ العمِّ سابقُ
وغرَّبها عنّي لكيزٌ بجَهْلِهِ ولما يَعُقْهُ عند ذلك عَائِقُ
وقلَّدني مَالا أطيقُ إذا ونَتْ بنو مُضَر الحُمْرُ الكرامُ الشّقائقُ
وإنّي لأرجُوهم ولسْتُ بآيسٍ وإنّي بهم يا قوم لا شكَّ واثقُ
فَلا بدَّ منْ عُنفٍ وزحْفٍ ومحنةٍ وأفلحَ إنسانٌ من الجهدِ زالقُ
فمن مبلغٌ بُرْدَ الإيادي وقومَه بأنّي بثأري لا محالةَ لاحقُ
ستُسْعدُني بيضُ الصّوارمِ والقَنَا وتحملُني القبُّ العِتاقُ السَّوابقُ
رمى اللهُ مَنْ يرمي الكعَابَ بريْبَةٍ ومَنْ هو بالفَحَشاءِ والمكْرِ ناطِقُ(١)

* وظلَّ البرَّاقُ سَائِراً بمن معه منَ الأبْطالِ والفرسانِ ، يَصِلُونَ الليلَ بالنَّهارِ حتّى بلغُوا حدودَ بلاد فارس ، هنالك وقفُوا وضُرِبَتِ الخيامُ ، وأخذوا يستعدّون لخوضِ المعركةِ والنّزالِ مع الفرسِ وكانَ البرّاقُ ينشدُ ويقول :

إذَا لَمْ أقُدْ خَيلاً إلى كُلّ ضَيغَمٍ فـأكُلَ مِنْ لحمِ العُدَاةِ وأشْبَعُ
فلا قُدْتُ منْ أقْصَى البلادِ طلائعاً ولا عشْتُ محموداً وعيشي موسَّعُ

* وبدأتِ المعاركُ بينَ البرّاقِ والفُرس ، وانتصرَ عليهم في أوّلِ معركةٍ خاضَها ، وما زال ينتصرُ عليهم ويتقدَّمُ بجنودِه كيما يَصِلُ عاصمةَ فارس في المكانِ الموجودةِ فيه ليلى ، والتي منْ أجْلِها قَطعَ الفيافي والقفَار ، ووصل الليل بالنّهار ، ليعودَ بها طاهرةَ الذّيلِ ، باسمةَ الثَّغْرِ ، وضّاحةَ الجبين .

---

(١) «النقانق» : النعام . «أرض سحيقة» : واسعة نائية . «مغالق» : حواجز وسدود . «لكيز» : اسم والد ليلى . «وَنَتْ» : ضَعفت . «برد الأيادي» : الرجل الذي خطف ليلى . «القب» : جمع أقب : الفرس الضامر . «الكعاب» : الجارية الناهد .

* وظلّ البرّاقُ يجالدُ الفُرس في القُرى التي يمرُّ بها ، ولازمه النَّصْرُ حتى وصَلَ عاصمةَ فارس ، وكانتْ أبياتُ ليلى لا تفارقُ وجْدَانه ، وتظلّ همساتها تداعبُ حنايا قلبه وتناديه :

لَيْـــتَ لِلْبَـــراقِ عَيْنـــاً فَتَـــرى   مَـــا أُقـــاســـي مِـــنْ بَـــلاءٍ وَعَنـــا

* ويردِّدُ البرّاقُ أنفاسَ ليلى ونفثاتِها وهو يقولُ : لبيكِ يا بنةَ العمّ ، ها أنا آتيكَ بفرسانٍ يخطفونَ أرواحَ الأعاجم الأوغاد ، ومن ثمّ ينشدُ بأعلى صوته :

يا أيَّها الرَّاكبُ المجتازُ ترفُلُ في   حَزْنِ البِلادِ وطَوراً في صَحاريْها
أبلغْ بني الفُرسِ عنّا حينَ تبلغُهُم   وحَـي كَهْـلانَ إنَّ الجنـدَ عـافيهـا
لا بدّ قومي أن ترقى وقد جَهَدتْ   صَعْبَ المراقي بما تأْبى مراقيها

* وبالقربِ من عاصمةِ فارس بدأتِ المعركةُ بينَ العربِ والفرس ، وكانت معركةً ضاريةً خاضَها البرَّاقُ وأخوهُ غَرثان وفرسانُ بني تغلبَ ومَنْ معهم ، وأبلى البرَّاقُ في تلكَ المعركةِ بلاءً حَسَناً ، على الرغمِ من كثرةِ جنودِ الفُرس .

* وفي واحدةٍ من هذه الهَجمات أُصيبَ غرثان أخو البرّاقِ وقُتِل ، هنالك تفجّرتْ ينابيعُ الحزن والألَم في أعماقِ البراقِ ، وبكى أخاه بكاءً مرّاً ورثاهُ بقولهِ :

بَكيـتُ لغَـرثـانٍ وحـقَّ لنَـاظِـري   بكـاءُ قَتيـلِ الفُـرسِ إذْ كـانَ نـائيـا
بكيتُ على واري الزّناد فتى وغىً   سريعٍ إلى الهيجاءِ إنْ كانَ عَاريا
إذا مَـا عَـلا نَهْـداً وعـرَّضَ ذَابِـلاً   وقحّــم بكــريّــاً وهــزَّ يَمــانِيــا
فــأصبــحَ مُغْتــالاً بــأرضٍ قبيحــةٍ   عليها فتىً كالسَّيف فاتَ المُجاريا
وقد أصبحَ البرَّاقُ في دارِ غُربةٍ   وفــارقَ إخْــوانــاً لــه ومَــواليــا
حَليفَ نوىً طاوي حشاً سافحَ دماً   يــرجِّــعُ عبــراتٍ يهجــنَ البــواكيــا

* وفي معرضِ رثائِهِ لغرثانَ يتذكّر حبيبتَه ليلى ، ويودُّ لو تكونَ بقربهِ تشاركُه البكاءَ على أخيهِ غرثَان ، فيقول :

فلَيْتَ لليلى نظرةً فتعينُني	بها حججاً سَبْعاً بكيَ مُتَواليا
وَلَو عَلِمَتْ ليلى وكانت خَبيرةً	لجاءت تُباري العَاصِفَات الذَّواريا
أمَا خُبِّرتْ ليلى الغداةَ بأنّني	أريدُ على غرثانَ عوناً مُباكيا
لقد قَطَعَ الوصْلَ الذي كان بيننا	لكيزٌ بغاراتٍ تشيبُ النَّواصيا

* أمَّا ليلى فقد كانتْ في قَصْر ابن ملك الفُرسِ ، ونُمي إليها أنَّ البرَّاقَ سيّد الفرسان قد قَدِمَ من بلادِها لكي يخلِّصها منْ هذا الأسْرِ الذي طالَ وطالَ حتى سَئِمت معه الحياة .

* وكانتِ الأخبارُ تَصِلُ أسْماعَ ليلى بما يفعله البرّاق مع جنودِ الفُرس ، وما تفعله سواعدُ فرسانِ العرب في رقابِ الأعداء ، فكاد قلبُها يطيرُ فرحاً ، وأحسَّتْ بأنَّها ستخرُجُ منْ ذلكَ القَصْرِ البغيضِ إلى قلبها ، ـ وإنْ كان بهيجاً بِسُرُرِه وفَرشهِ ونمارِقه ـ وعلمت بأنَّ الوقعات قد كثرت بين قومها وبينَ الفرسِ ، كما علمت أنَّ القتالَ قد اشتدَّ ذاتَ يوم ، واستعرَ بينَ الفريقَيْن ، فقُتِلَ غرثانُ ابنُ عمّها[1] ، فحزنت لذلك حُزناً شديداً حينما بلغَها مَقْتله على يَدِ الفُرس غَدراً في تلكمُ الوقعة ، وزادَ همُّها ، وأخذتِ الأوهامُ والهمومُ والأحزانُ تَسْرَحُ في خيالِها ، وتلعبُ بها يمنةً ويسْرةً في ميدانٍ منَ القَلَقِ ، وراحتْ تبكي منْ تكالُب نوائبِ الدَّهْرِ عليها وعلى البرَّاقِ ، وجَعَلَتْ تتساءل : أيكونُ هناك لقاءٌ بينها وبين البرَّاقِ وقومها ، وكلّما تذكَّرتْ مَقْتَل غرثانَ يشتدُّ بها الحزنُ ، وتكادُ تبدي آلامَها أمامَ نِسْوةِ الفُرسِ منْ حولها وإنْ كُنَّ من أعدائِها ، ولكنَّها تذرَّعَتْ بالصَّبرِ ، واعتصمتْ بالكتمانِ ، فَذِكْرُ البرّاقِ ينْسِيها

(١) قيل : حدثَتْ حربٌ ضروسٌ بين بني ربيعةَ قومِ البراق ، وبينَ قضاعةَ وطيء ، وقُتِل كثيرون منَ الفئتَيْن ، وفي إحدى الوقعاتِ قُتِلَ غرثان بنُ روحان ـ أخو البراق ـ فرثتْهُ ليلى بقصيدةٍ جميلة .

آلامَها ومتاعبَها ، وعن هذا كلِّه عبَّرتْ بنفثاتٍ رائعةٍ من قصيدةٍ طويلةٍ نقتطفُ منها هذه الأبياتِ الكاشفاتِ :

قد كانَ بي مَا كفى منْ حُزْنِ غَرْثَانِ ... والآن قَدْ زَادَ في همّي وأحْزاني
ما حالُ برّاق منْ بَعْدي ومَعْشَرنا ... ووالِدي وأَعْمامي وإخْوَاني
قَد حالَ دونيَ يا براقُ مُجتهداً ... منَ النَّوائب جهْدٌ لَيْسَ بالفَاني
كيفَ الدُّخولُ وكيفَ الوصْلُ وا أَسَفاً ... هيهاتَ ما خِلْتَ هذا وقتَ إمكاني
لما ذكرتُ غُريثاً زادَ بي كَمَدي ... حتّى هممتُ منَ البلوى بإعلانِ
تربَّعَ الحزنُ في قَلبي وذُبْتُ كما ... ذابَ الرَّصَاصُ إذا أُصْلي بنيرانِ
فلو تراني وأشْواقي تُقلِّبُني ... عَجِبْتَ براقُ منْ صَبْري وكتْماني

ثم تنهي هذا الشوق الجميل بهذه الأبيات :

يا عينُ فابْكي وجُودي بالدُّموعِ ولا ... تمِلَّ يا قلبُ أنْ تُبْلى بأشْجَانِ
فَذكْرُ برّاقَ مولى الحيّ منْ أَسَدِ ... أنْسى حَيَاتي بلا شكّ وأنْسَاني
فتى ربيعةَ طوّاف أماكنها ... وفارسُ الخيلِ في روعٍ وميدانِ[(١)]

* ويبدو أنَّ هذهِ النَّفَحاتِ الآسرةِ ، والنَّفثاتِ الشِّعرية السَّاحرة قد لامَستْ سَمْعَ البرّاقِ ووجدانَه ، فتعاهدَ مع قومِه على المضيِ في حربِهم مع الفرسِ حتى يخلّصوا ليلى؛ وبالفعل لم تمضِ أيامٌ قلائل حتى تخلَّصَتْ ليلى من أسْرِها ، وخرجت من ربْقَةِ القُصور إلى رحابِ الصَّحراء ، وأردفها البرّاقُ على حصانِه وعادَ بها إلى مضاربِ قومه .

* وقُرْبَ مضاربِ بني ربيعة أخذتْ طلائعُ الفرسانِ تصيحَ في غبطةٍ وسرور : ليلى والبرّاق ، ليلى والبرّاق .

* واقتربتْ أمُّ الأغرّ من ليلى وانهالت عليها بالقُبلات ، أمّا ليلى فكانت في عالم آخرَ منَ الأحلامِ الجميلةِ ، فقد تولَّتْ عنها منغصاتُ الأيّامِ وتركَتْها لحبيبِها البرّاق .

---

(١) شاعرات العرب (ص٣٨٢) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٤١٦) .

* وفي لحظةٍ منْ لحظاتِ الفَرح الفيّاض كانتْ ليلى والبرّاقُ في سَعادةٍ غامرةٍ ، ويودُّ كلّ واحدٍ منها لو يضمُّ الآخرَ إلى صَدْرهِ ، ولكنّها الأيّامُ ستأتي باسمةً لهما عمّا قريب.

* واستعدَّت أحياءُ ربيعةَ جميعها لتحتفلَ بزواجِ البرّاق على ليلى ، وكان يومُ زفافها يوماً مشهوداً ، وتحقَّق حُلْم ليلى بَعْدَ الأحداثِ الجِسَام التي عَصَفَتْ بها.

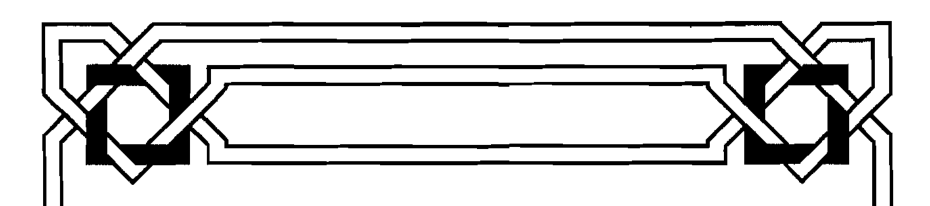
* ونَعِمَتْ ليلى بزواجها من أبي نَصْر البرّاق؛ وصارتْ قصّتُها أحدوثةً حلْوةً يتسامرُ بها أهلُ المجالسِ في مجالِسهم ، فكانوا يَروُون أخبارَها بشيءٍ من الإعجابِ[1] لهذه المرأةِ التي يكادُ يكونُ صوتُها ، وتكون همساتُها أوّل هَمَساتٍ نِسائيّةٍ قادمةٍ منْ أغوار التّاريخ النّسوي.

---

(١) لعلَّه منَ المفيدِ أنْ نشيرَ هنا إلى أنَّ قصَّة ليلى العفيفة تقتربُ من الأسطورة ، وربّما استُوحيتْ معظمُ أَحداثِها منْ قصَّة عنترةَ بنِ شداد العبسيّ تلكم القصّةُ الشَّعبية ذات الانتشار الواسع في أوساطِ القراءِ في العالم.
ولكنْ حسبُنا أنْ نشيرَ إلى أنَّ المرأةَ العربيةَ في العَصْرِ الجاهلي كانتْ تصنعُ الأحداثَ ، وإذا نزلتْ بها نازلةٌ فإنّها تنادي قومَها ليسارعوا إلى إنقاذِها ممّا حلّ بها ، وخصوصاً إذا سُبيت.
وكثيراً ما كانت النساءُ يتعرضن للسَّبي ، ولكنَّ تعرضهنَّ هذا كان يزيدُ في استبسالِ الفرسانِ خشيةً منْ أنْ يقعْنَ في أيادي الأعداء ، وعندها يُعيّروا بهنَّ وما أعظمَ العار وأثقله عند العرب الأقحاح!!.
وأشدُّ شيءٍ كانَ على الرَّجلِ أنْ يَرى نساءَه حاسراتٍ كاشفاتِ الشُّعور ، فكان هذا العملُ منهنَّ دليلاً على ما سوفَ يلحقهنَّ منْ سبي وذلّ وهوانٍ ، إذا ظفرتْ به أعداؤه ، وكانتِ النساءُ يعرفنَ هذا الشّعور في الرجالِ ، فكُنَّ يستفززنهم إلى الإستماتةِ في سبيلهنَّ ، ويحفزنهم إلى المدافعةِ عنهنّ ، أو لإدراك ثأرٍ ، أو ما شابَه ذلك ، كما خرجتْ نساءُ تغلبَ يومَ مَقْتَلِ كُليب ، وفي ذلك يقول المهلهل:
كُنَّا نغارُ على العواتقِ أنْ تُرى ... بالأمسِ خارجةٌ منَ الأوطانِ
فخرجْنَ يوم ثوى كليبٌ حُسَّراً ... مستيقناتٍ بعدَه بهوانِ

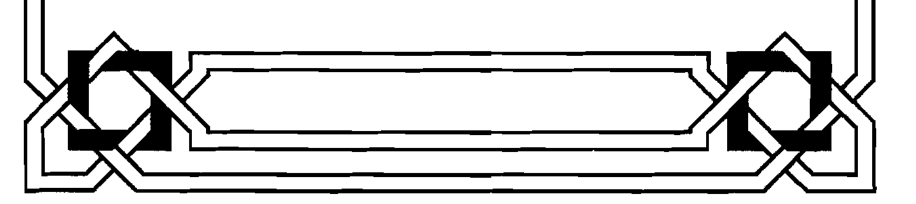
* وتظلُّ قصةُ ليلى بنتُ لكيز أهزوجةً نشوى تردِّدُها الأجيالُ بالإعجابِ والإكبارِ ، لإباءِ المرأةِ العربيّةِ في ماضيها المشرقِ ، لتكونَ نبراساً للحاضرِ الوضّاء.

* * *



(١٨)
مرية امرأة هشام بن عبد الملك

* خُصَّت بالفضل والجمال والمال والمكانة العليا في عصرها.
* زوجة الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي.
* ذات حكمة ورأي حصيف، وكرم، وحسن خصال.



فـي رِحـابِ الـعِـزِّ والـمُـلْـكِ:

* لو قُـدِّر لهذهِ المرأةِ أنْ ترويَ قصَّةَ عزِّها يومَ أنْ كانت سيدةَ قُصورِ الدُّنيا لقالَتْ: إنَّ العزَّ كان يحيطُ بها منْ كلِّ جانبٍ، وكانت تأمرُ وتنهى، ولا يعصيْها أحَدٌ.

* كانتْ في أيّامِ دولةِ زوجها منْ أشهرِ نساءِ الدُّنيا، والشُّهرةُ في الحياةِ قد تكونُ دائماً نتيجةً للتَّفوُّقِ في شيءٍ مَنَحه اللهُ للإنسانِ، وخصَّه بهِ بين باقي بني جنْسِه، فقد كانتْ شهرةُ هذهِ المرأةِ بالفَضْلِ والجمالِ والمالِ والمكانةِ العُليا بينَ نساءِ عَصْرِها، إذ كانتِ السَّيّدةُ الأولى في قُصورِ الخُلفَاء.

* وفي أخبارِ هذه المرأةِ صورةٌ واضحةٌ للحياةِ السِّياسيّة والاجتماعيةِ، حيثُ نَجدُ مشاركتَها في بَعْضِ القَضَايا الاجتماعيةِ، وجانباً منَ الأمور السِّياسيّةِ، يوم أنْ كانَ زوجُها حاكمَ معظم الكُرةِ الأرضيةِ.

* ولعلَّنا ونحنُ نستعرضُ سيرةَ ضيفتنا هذه نلمحُ بعضَ الجوانبِ الأدبيةِ والتَّاريخية، والصُّورِ الجميلةِ منْ تاريخنا وأدبنا القديمِ الذي هو مبعثُ حضارتنا، وهذا الفنُّ اللطيف هو الذي يقضي علينا الواجب أنْ نتذوَّقَـه، ونرويه ونترواه، لما فيه من عبِقَاتٍ نديّاتٍ تنفحُنا بما كانتْ عليهِ النِّساءُ العربيّات الأصيلاتُ منْ أخلاقٍ وكَرَمٍ وحسْنِ خِصَال.

* والآن فلنبدأ الرحلةَ مع امرأةِ اليومِ وهي مُريّة[1] امرأة هشَام بن عبد

---

(١) تاريخُ مدينةِ دمشق (تراجم النّساء ص ٣٨٨ ـ ٣٩٢)، والحدائق الغناء في أخبار النّساء للمالقي (ص ١٧٤ ـ ١٧٦)، والمستجادُ من فعلات الأجواد (ص ٢١ ـ ٢٥)، وثمراتُ الأوراق بهامش المستطرف (١/ ٢١٨ ـ ٢٢٠)، وأعلامُ النّساء (٥/ ٥٠ ـ ٥٢)، والمختار من نوادر الأخبار (ص ٤٧ ـ ٤٩)، وورد أن اسمها ميرية، أو مُزَينة، أو مُزْنة. وانظر: مروج الذّهب (٣/ ٣٢٣ و٣٢٤)، وكتاب المكافأة (ص ٩٥ و٩٦).

الملك بن مروان ، ثمّ مروان بن محمد. هذه التي كانتْ في يومٍ منَ الأيّام ذاتَ الكلمةِ الأولى في القَصْر الأموي.

مُـرَيَّـةُ ونَـكْبَـةُ الـزَّمـانِ:

* تذكرُ المصادِرُ التي بين أيدينا أنَّ مريةَ هذه كانت زوجاً للخليفةِ الأمويّ هشام بنِ عبد الملك ، وكانت منْ فواضِلِ نساءِ عَصْرها؛ ثم مكثَتْ عند هشَام حتى وافاهُ الأجَلُ في سَنَة (١٢٥هـ).

* ويبدو أنَّ مريَّةَ قد اقتبستْ كثيراً منْ أخلاقِ زوجِها هشام الذي دامت خلافتهُ قرابة عشرينَ سنة ، فقد كان ذا رأي وحزمٍ وحِلْمٍ ، حَسَنَ الكَلام ، حازماً متيقّظاً ، لا يغيبُ عنه شيءٌ منْ أمْرِ مُلكِه؛ وكان يتمثّل بقول الشَّاعر:

إذا أنْتَ طاوعْتَ الهوى قَادَكَ الهَوى إلـى بَعْـضِ مـا فيـهِ عَلَيْـكِ مَقَـالُ

* وكان يقالُ: السُّوَّاسُ منْ بني أميّة ثلاثةٌ: معاويةُ ، وعبدُ الملك ، وبهشام خُتِمَتْ أبوابُ السِّياسة وحُسْنُ السِّير ، وكان المنصورُ العبّاسي متّبِعاً لهشام في أكثر أمورِه وتدبيرِهِ وسياستِه ، وذلك لكثرةِ ما كان يستحسنُه منْ أخبارِ هشام وسيره.

* ويبدو أنَّ مريةَ قد تزوَّجها مروانُ بنُ محمد بعد موتِ هشَام بن عبد الملك ، وعاشتْ معه إلى أنْ قُتِلَ بيدِ العبّاسيين سنة (١٣٢هـ).

* وبزوالِ مُلْكِ بني أميةَ زالَ العِزُّ عن مريةَ ، وشَرَدَتْ في الآفاقِ مع الذين شَردوا ، ولم تظهرْ إلاّ بعدَ بضعِ سنين ، حيثُ نجدها في قَصْرِ المهدي العبّاسي تقفُ متضائلةً أمامَ زوجِهِ الخيزُران ، وتقدّم بطاقَتَها وهويتها للخيزرانِ ومَنْ حولَها منْ نسوةِ بني العبَّاس ، فتحرّكَتِ الشَّفقةُ في قَلْبِ الخيزُران عليها ، وأحسنتْ مثواهَا ووفادتَها ، وأوسعتْ لها في قَصْرها منزلاً.

* تروي المصادرُ أنَّ الدَّهرَ لما عصفَ بمريةَ ، وألحفَ بها ، فكَّرتْ ماذا تصنعُ ، فقادهَا تفكيرُها أنْ تذهبَ وتدخلَ على الخيزُران بنتِ عطاء زوجِ الخليفةِ المهدي ، فسارعتْ إلى ذلك ، وطلبتِ الإذنَ للدخولِ عليها.

* وكانتِ الخَيزُرانُ في دارِها المعروفةِ بدارِ الخيزُران[1] ؛ وكانتْ تجلسُ على نوعٍ فاخرٍ منَ البُسْطِ الأرمنيةِ ، وقد وُضِعَ في ذلك المجلس وسائدُ جميلةٌ تجلسُ عليها أُمَّهاتُ أولادِ المنصورِ والهادي ، ونسوةٌ منْ نساءِ بني هاشم ، كما كانَ في صَدْرِ ذلك المجلس مكانٌ فخمٌ للمهدي ، حيث كانَ يقصدُ زوجَه الخيزُران في بعضِ الأحايين ، فيجلسُ ساعةً ثم ينصرف.

* وذاتَ يومٍ كانتِ الخيزُرانُ[2] في مجلسها ذاك ، ومنْ حولها نساءُ

---

(١) هذهِ الدَّارُ صارَتْ لأمّ محمد بنت الرشيد ، ثمَّ صارتْ بَعْدَ ذلك لأشناس مولى أميرِ المؤمنين.

(٢) «الخيزُران»: قال ابنُ منظور: عودٌ معروف. وقال ابن سِيْده: نباتٌ ليّنُ القُضْبان ، وأملسُ العيدان ، لا ينبتُ ببلادِ العرب ، إنّما ينبتُ ببلادِ الرُّوم ، ولذلك قالَ النَّابِغَةُ الجعدي:

أَتَاني نَصْرهُم وهمُ بَعيدٌ ... بلادُهُمُ بلاد الخَيْزُران

وذلك أنّه كان بالباديةِ ، وقومه الذين نَصَرُوه بالأريافِ والحواضر.

وقيل: كل عود لدن متثن خَيزُران. وقيل: هو شجر ، وهو عروق القناة ، والجمع: الخيازر ، والخيزران: القصب.

والخيزران: الرِّماحُ لتَثنّيها ولينها ، أنشد ابن الأعرابي:

جَهِلْتُ منْ سَعْدٍ ومن شبّانها ... تخطِرُ أيْديها بخيزُرانِها

يعني: رماحها.

وقيل: كلُّ غصنٍ متثنّ: خيزُران ، ومنه شعر الفرزدق في علي بن الحُسين زين العابدين:

في كفّهِ خَيْزُرانٍ ريحُه عَبِقٌ ... من كَفّ أروعَ في عرنينِهِ شَمَمُ

(لسان العرب ٤/ ٢٣٧ و٢٣٨). بتصرف واختصار.

الأكابرِ ، وفيهنّ زينبُ بنتُ سُليمان الهاشميّة[1] ، وكانتْ أعلاهُنَّ منزلةً ومرتبةً ومكانةً؛ وكانَ الخليفةُ المهدي قد أوصى زوجَه الخيزرانَ أنْ تلزمَ زينبَ بنت سليمان وقال لها: يا خيزرانُ؛ اقتبسي منْ آدابِها ، وخُذي من أخلاقِها ، فإنَّها عجوزٌ قد أدركتْ أوائِلنَا.

* وبينما كانتِ الخيزُرانُ على تلكَ الهيئةِ وذلك الحالِ ، تحفُّ بها النِّسوةُ

---

(١) زينبُ بنتُ سُليمان بن عليّ بنِ عبد الله بنِ عبّاس الهاشميّة ، كانتْ مع أهلها بالحُميمة منْ أرضِ البَلْقاء ، وهي زوجُ إبراهيمَ بنِ محمد الإمام ، وإليها يُنْسَبُ الزَّينبيون وَلَدُ العبّاس ، لأنَّ زوجَها كان له وَلَدٌ من غيرها ، فَنُسِبَ ولدها إليها ليفرَّق بينهم وبينَ ولدِ الزَّوج الأخرى.
حدّثَتْ عن أبيها سُليمانَ بنِ علي ، وروى عنها عاصمُ بنُ علي الواسطيّ ، وجعفرُ ابنُ عبد الواحد ابن أخيها ، وعبدُ الصمد بن موسى وآخرون.
وعُمّرتْ عُمراً طويلاً ، وكانتْ منْ أُولاتِ الفَضْلِ ، ودخلَتْ على مروانَ بنِ محمّد عند موتِ إبراهيم بن محمد بن علي الإمام تستأذنُه في دفنه ، فأذنَ لها.
ومنْ مروياتها ما أخرجه ابنُ عساكر بسنده إليها عنِ أبيها عن جدّها عن عبدِ اللهِ بنِ عبّاس قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ: «اللهمَّ بارِكْ لأُمّتي في بكورها».
ومن مروياتِها أيضاً ، ما أخرجه ابنُ عساكر بسندٍ رفعه إليها قالت: حدَّثني أبي عن جدّي عن عبدِ الله بنِ العبّاس قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «مَنْ أكلَ ممّا يسقطُ منَ الخوانِ نُفيَ عنه الفَقْرُ ، وصُرِف عن ولده الحمق».
وذكرَها الخطيبُ البغدادي فقال: زينبُ بنتُ سُليمان بنِ علي بن عبد الله بن العبّاس ابن عبد المطلب الهاشمي ، كانتْ من أفاضِل النِّساءِ ، وحدَّثَت عن أبيها ، روى عنها جماعة.
وكان المأمونُ الخليفةُ العبّاسي شديدَ الاحترامِ لزينبَ بنتِ سليمان ، وكذلك حاشيته ورجال دولته ، فقد حدَّث أحمدُ بنُ خليل بنِ مالك بن ميمون أنَّه رأى زينبَ بنتَ سُليمان أيام المأمون وقد دخَلَتْ دارَ أمير المؤمنين ، فرفَع عطاءٌ لها السّترِ وعليُّ بنُ صالح يومئذٍ حاجب المأمون وعطاء ـ وهو غلامٌ منَ الغلمان ـ يخْلُفُه ، فقام إليها وقبَّلَ رجْلَها في الرّكاب ، وهي على حمارٍ لها أشهب مختمرة بخمار عَدني أسود ، عليها طيلسان مُطْبق أبيض. توفيت زينبُ بعد وفاة المأمون أي بعد سنة (٢١٨هـ). (تاريخ مدينة دمشق ـ تراجم النساء ص١١٤ ـ ١١٦) بتصرف.

الهاشميّات عنْ يمينٍ وشمالٍ ، إذْ دخَلَتْ عليها جاريةٌ منْ جواريها اللاتي كُنَّ يخدمْنَها ويحجبْنَها فقالت: أعزَّ اللهُ السَّيِّدة زوجَ أميرِ المؤمنين؛ إنَّ بالبابِ امرأةً ذاتُ حُسْنٍ وهيئةٍ وجَمَالٍ ، وخلْقَةٍ حَسَنةٍ ، في ثيابٍ رثَّةٍ ، ليس وراءَ ما هي عليه منْ سوءِ الحالِ غاية ، هي تودُّ أنْ تستأذِنَ عليك ، وقد سألْتُها عن اسمِها ، فأبَتْ وامتنعتْ أنْ تخبرَني عنْ شَأْنِها ، وهي ترومُ الدُّخولَ عليك ، والمثولَ بينَ يديك.

* وفكَّرتِ الخيزرانُ هنيهةً فيمن تكونُ هذه المرأةُ ، ثمَّ نظرتْ إلى الجاريةِ وقالت لها: أدخليها ، فإنَّه لا بُدَّ من فائدةٍ نجنيها ، أو ثَوابٍ نُصيْبُه ، أو خيرٍ نَصْنَعُه.

* فدخلتِ امرأةٌ ذاتَ بهاءٍ وجَمالٍ كأجْملِ النّساء وأكملهنَّ لا تتوارى ، فوقَفَتْ إلى جانب العَتَبَةِ منَ البابِ وسلَّمَتْ متضائلةً ، وتكلَّمتْ فأوضَحَتْ عن بيانٍ ثمّ قالَتْ: أنا مُريةُ زوج هشام بن عَبدِ الملك ، ثمّ مروانَ بنِ محمد من بعده ، نكبَها الزَّمانُ ، وأصابها الدهرُ ، وزلَّتْ بها النَّعْل حتى أصارها الدَّهرُ إلى عاريةٍ ، ما يسترها ممّا هو عليها.

* ثم إنَّ مريةَ سكتتْ قليلاً وتابعتْ حديثَها قائلةً: واللهِ ما الثّيابُ الرَّثَّةُ التي عَليَّ إلا عارية ، وإنّكم لما غلبتمونا على هذا الأَمْرِ ، وصارَ لكم دوننا لم نأمنْ مخالطةَ العامّةِ على ما نحنُ فيه منَ الضَّررِ على بادرةٍ إلينا تزيلُ موضعَ الشَّرفِ ، فقصدناكم لنكونَ في حِجابِكم على أيّةِ حالةٍ كانت.

مُـرَيَّـةُ وَرِقَّـةُ الـخَيْـزُرَان:

* كانتِ الخيزرانُ ومَنْ معها يسمَعْنَ ما تتكلَّمُ به مريَّة ، وكانتِ الخيزرانُ رقيقةَ القلبِ ، طيبة النَّفسِ ، فتأثَّرتْ من كلامِ وحالِ مريةَ ، واغرورقَتْ عيناها بالدُّموع؛ وتبيَّنتْ زينبُ بنت سليمان الدّموعَ تدورُ في عَينِ الخيزران ، وخافتْ أنْ يدخلَها رقّةٌ على مريةَ ، وكانتْ زينبُ متكئةً فاستوتْ جالسةً وقطعتْ على مريةَ الكلام ، ثمّ قالتْ تخاطبُ الخيزُرانَ: يا أمَّ أمير المؤمنين ،

اتّقي الله أنْ يدخلَك رقّة لهذه الملعونة فتتبوّئي مقعدَك منَ النَّار.

* ثم إنَّ زينبَ بنتَ سليمان التفتتْ إلى مريةَ وقالت لها: مُريّة!! فإيّاك لا حيَّا اللهُ، ولا قرَّبَكِ، فالحمدُ للهِ الذي أزالَ نعمتَكِ وهَتَكَ سِتْرك وأذلَّكِ، وأدامَ ما أنتِ فيه يا مريّة.

* وسكتتْ زينبُ لحظاتٍ، ثم تابعتْ كلامَها لمريةَ قائلة: أتذكرينَ يا عدوّةَ اللهِ ما فَعَلْتِ فيَّ أيّام عزّك؟! كأنَّك أُنْسيتِ دخولي عليك في مدينةِ حرَّانَ[1] وأنتِ جالسةٌ في صَحْنِ دارِ مروانَ بنِ محمد الأمويّ على هذا البِساطِ بِعَيْنِهِ، وعن يمينِ بساطك هذا وعن يسارِهِ هذه الوسائدُ عليها أمّهاتُ خلفائِكم وبعضُ حرائركم، وقد مثلتُ في المكانِ الذي أنتِ فيه ماثلة الآن؛ وأنا أسألُك وأتضرَّعُ إليكِ في استيهابِ جثّة إبراهيم الإمام منْ مروانَ بنِ محمّد لئلا يُمَثَّل بها، فانتهرتيني، وصرخْت وأنتِ مُكلِّحةٌ في وجهي تقولين: ما للنّساء والدُّخول على الرّجال في آرائِهم؟! ثم إنَّك أمَرْتِ بإخراجي منْ دارِك بغلظةٍ وقسوةٍ وشدّةٍ، وأسمعتني ما أسمعتني منْ أليمِ الكلامِ وغليظِه!! وعند ذلك لجأتُ إلى مروانَ بن محمد، فوجدتُه على حالٍ أشدّ تعطّفاً على رَحِمِهِ منك، وأرعى للحقّ منكِ أيضاً، وقال لي: لقد ساءني وفاةُ ابنِ عمّي، وما أردتُ المُثْلَة به، وكيف يمثِّلُ الرَّجلُ بابنِ عمّه؟! ثمّ إنَّ مروانَ قد خيَّرني بين إطلاقِ تجهيزِه لي، وبينَ تسليمه إليَّ؛ فاخترتُ تسليمَه إليَّ، وأمرَ لي بجهازٍ ومالٍ، فقبلتُ ذلك منه.

حِكْمَةُ مُرَيَّةَ وحَصَافَتُهَا:

* كانتْ مريّةُ تسمعُ لزينبَ بنتِ سليمان الهاشميّة، وكانتِ الخيزرانُ ومَنْ معهَا يسمَعْنَ كلامَ زينب، وقد تعجبْنَ منْ تصاريفِ الزَّمان الغريبةِ، ولكنَّ مريةَ ضحكتْ منْ كلامِ زينبَ ضحكةً عاليةً أبانتْ عن حُسْنِ ثغرِها وجمالها،

---

(١) «حرَّان»: مدينةٌ عظيمةٌ مشهورةٌ على طريقِ الموصِل والشَّام، بينها وبين الرُّها يوم، وبين الرَّقة يوم، وكانت مقرّ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

ثمَّ توجَّهتْ بالكلامِ إلى زينبَ وقالت لها: أي بنتَ عمّ ، أيّ شيءٍ أعجبَكِ من حُسْنِ صنيع اللهِ لي على العقوقِ ، حتى أردتِ أنْ تتأسّي فيَّ فيه؟! وكأنّك يا بنتَ سُليمانَ حَمِدْت لي عاقبةَ أمري في قطيعةِ رحمي ، وكأنَّك استحسنتيه أيضاً ، فأردتِ أنْ تزيّني قطيعةَ الرّحم لأمّ أمير المؤمنين ، وأخذتِ تحرضينَها على فِعْل مِثْلِهِ ، وإنّما كان يجبُ عليك أنْ تحضّيها على فعْلِ الخير ، وتركِ المقابلةِ بالشَّرِّ لتحرزَ بذلك نعيمها ، وتصونَ بذلك دينَها.

* ثمّ إنَّ مريةَ قالت لزينبَ: يا بنت عمّ ، كيفَ رأيتِ صنيعَ اللهِ بنا في العقوقِ فأحببتِ التّأسّي بنا؟!

* وسكتتْ مريةُ لحظاتٍ ثمّ التفتتْ إلى الخيزُران فقالت: يا أمَّ أميرِ المؤمنين ، وزوجَ أميرِ المؤمنين ، لقد صدقَتْ ابنة سُليمان فيما ذكرتْ عنّي ، وذلك الفِعْلُ منّي أحلّني هذا المحلّ ، وإنَّ السَّعيدَ من اتَّعظَ بغيره.

* ثمّ إنَّ مريةَ التفتتْ مرّةً ثانيةً إلى زينبَ بنتِ سليمان وقالت لها في حزنٍ وأسىً: واللهِ ، إنّي فعلتُ ما فعلتُ معكِ يومَ صرْتِ إليَّ بحرَّانَ ، وها قد أسلمني اللهُ عزَّ وجلَّ إليكِ ذليلةً ، جائعةً ، عُريانةً ، لا أَمْلِكُ منْ حُطامِ هذه الدّنيا شيئاً ، فكان هذا مقدارَ شكرِك لله على ما أولاكِ فيَّ وأسلمني إليكِ؟!

* وأدارتْ مريةُ نظرَهَا عَنْ زينبَ ، وألقتْ نظرةً على الحاضراتِ ، وركَّزَتْ بصرَها في وجْهِ الخيزران ثمَّ قالت: السّلامُ عليكم ، وولَّتْ والدُّموعُ تملأُ مآقيها ، والحزنُ يعتصرُ قلبَها.

* ولكنَ الخيزُران بنت عطاء زوج المهدي لم تتمالكْ نفسَها ، وتأثّرتْ منْ ذلك الموقفِ ، وأثَّرت في قَلْبِها كلماتُ مريّة ، فَأثْرَتْ ينابيعَ الودِّ والعَطْفِ في نفسها ، وصاحتِ الخيزرانُ قائلةً لزينبَ: ليس هذا لكِ يا بنةَ الكرام ، عليَّ استأذنَتْ مريةُ ، وإليَّ قصَدَتْ ، فما ذَنْبي؟!

* ثم إنَّ الخيزُران صاحَتْ بمريةَ ، ونادتها قائلةً: ارجعي يا بنتَ الكرام ، ثمَّ غَمَزتْ الخيزرانُ بعضَ جواريها ، فأسرعتِ الجاريةُ خَلْفَ مريةَ ، وسمعتها تقولُ وهي تبكي في خروجها مؤتسيةً وهي تقرأُ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢][١].

* ورجعتْ مريةُ وقد رسَمَ الحزنُ على وجهِها صورةً مؤثرةً، وقالتْ للخيزُران: لَعَمْري لقد صَدَقْتِ يا أُخيّة فيما قُلْتِ، فقد كان القَصْدُ إليكِ والاستئذانُ عليكِ ولا ذَنْب لكِ، وكان ممّا ردَّني إليك ما أنا عليهِ منَ الضُّر والجهد والجوع الذي تَريْن.

* هنالك سارعتِ الخيزرانُ إلى القيام، ونهضتْ إلى مريةَ كيما تعانِقها، فقالت مريةُ: يا بنةَ الكرام، ما فيّ لذلك موضعٌ مع الحالِ التي أنا عليها، والضُّرّ الذي أنا فيه.

إكْرَامُ الخَيْزُرَانِ لِمرَيَّةَ:

* أحسَّتِ الخيزرانُ برغبةٍ شديدةٍ في اصطناع المعروفِ مع مريةَ وإكرامِها وجَبْرِ عثرتها، فأمرتْ مريّة أنْ تُدْخَلَ الحمّام، ثَمَّ أمرتْ جماعةً من جواريها أنْ يدخلْنَ معهَا إلى الحمّام، ومن ثمَّ يتولَيْنَ تنظيفَها، فامتثلنَ أمْرَ الخيزُران.

* ودخلتْ مريةُ الحمّامَ وطلبتْ ماشطةً ترمي ما على وجهِها منَ الشَّعْرِ، وصارت تأمرُ وتنهى، فخرجتْ جاريةٌ منْ جواري الخيزُران وهي تضحكُ، وتقدَّمت إلى سيدتها الخيزران، فقالت لها الخيزرانُ: ما يضحكُكِ؟

قالتِ الجاريةُ: أضحكُ يا سيّدتي منْ هذهِ المرأةِ ومن تحكُّمِها علينا،

---

(١) في هذه الآية يجسّمَ الله عزَّ وجلَّ التَّعبير حيث يجعلُ الجوعَ والخوفَ لباساً، ويجعلُ النَّاسَ يذوقون هذا اللباس ذوقاً، لأنَّ الذَّوقَ أعظمُ أثراً في الحسِّ منْ مساسِ اللباس للجلْدِ، وتتداخلُ في التَّعبير استجاباتُ الحواسّ، فتُضاعفُ مسَّ الجوعِ والخوف لهمِ، ولذْعِه وتأثيره وتغلغله في النفوسِ، لعلّهم يشفقون منْ تلكَ العاقبةَ التي تنتظرهم لتأخذَهم وهم ظالمون.

وانتهارِها لنا ، فإنّها تفعلُ من ذلك فِعْلاً ما تفعلينَه أنتِ معنا .

* ولما فرغتْ مريةُ منَ الحمّامِ ، خرجتْ فوافَتْها الثِّيابُ اللطيفةُ والطِّيبُ ، فأخذتْ منَ الثِّيابِ ما أرادتْ ، ثمّ إنّها تطيَّبَتْ ، وخرجَتْ إلى مجلسِ الخيزُران ، وهناكَ قامتِ الخيزُرانُ فعانقَتْها ، وأجلسَتْها في الموضعِ الذي يجلسُ فيه أميرُ المؤمنين المهدي إذا دخَل وأكرمتْ مثْوَاها .

* وبعد أن استراحتْ مريةُ من كآبةِ المنظرِ الذي كانت فيه ، والحالِ التي كانتْ عليها ، قالتْ لها الخيزرانُ : يا مريةُ هل لكِ في الطَّعامِ ، فإنّا لم نُطْعَمْ بَعْدُ؟

فقالت مريةُ : واللهِ يا سيّدةَ النّساء ما في أحدٍ في مجلسكِ أحوجُ إلى الطَّعام منّي ، فعجِّلُوه! فأُتيَ بالمائدةِ عليها ألوانٌ منَ الأطعمةِ؛ فجعلتْ مريةُ تأكلُ غيرَ محتشمةٍ ، وتلقمُ مَنْ حولَها منَ النِّساء ، وتضعُ بين أيديهنَّ الطَّعامَ . ولما فرغْنَ منَ الطَّعامِ غَسَلْنَ أيديهنَّ وحمدنَ الله .

* ثمّ إنَّ الخيزُران تبسَّمَتْ بوجهِ مريةَ وقالت لها : مَنْ وراءك ممنْ تُعنَينَ به؟

فقالتْ مريةُ : يا أمَّ أميرِ المؤمنين ، وما خارجُ هذهِ الدَّار أحدٌ منْ خَلْقِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ بيني وبينَه سَبَبٌ .

فقالتِ الخيزُران : إنْ كانَ أمْرُكِ هكذا ، فقُومي بنا حتّى تختاري لنفسِكِ مقصورةً من مقاصيرِنا ، وسأحوِّلُ إليها جميعَ ما تحتاجينَ إليهِ ، ومنْ ثمَّ لا نفترقُ بإذنِ اللهِ حتّى يفرّقَ بيننا الموتُ .

* وسَرَت ابتسامةٌ لطيفةٌ على وجْه مريةَ ، وشكرتِ الخيزرانَ ، ودعَتْ لها ، ثمَّ قامتْ معها ، وطافتْ بها في المقاصيرِ بقصرِها ، فاختارت مريةُ مقصورةً واسعةً من أنزهِها وأجملِها ، ولم تبرحْ مكانَها حتَّى أمرتِ الخيزُران بأنْ يُحوَّلَ إليها جميعُ ما تحتاجُ إليهِ منَ الفرشِ والكساءِ والخزائنِ وما شابه ذلك ، كما أمرتْ بأنْ يُخصَّصَ لها جماعةٌ منَ الرقيقِ يقُمْنَ على خدمتها وما تحتاجُ إليه ، ومن ثمَّ أدخَلتْها الخيزُران هذهِ المقصورةَ وجعلَتْها فيها ،

وخرجتْ عنها عائدةً إلى مجلسها وهي في غايةِ السُّرور لأنّها جَبَرتْ عثْرَتَها ، ثمَّ قالت: إنَّ هذهِ المرأةَ قد كانت فيما كانتْ فيه ، وقد مسَّها الفَقْرُ والفاقةُ ، وليس يغْسِلُ ما في قلبِها إلاّ المالُ ، فاحملُوا إليها خمسمئة ألف درهم ، وأحسنُوا مثْواهَا ونُزُلَها ، فَحُمِلَتِ الدَّراهمُ إليها ، وعُرفَ قَدْرُها ، وأُحْسِنَ إليها.

المهدي يُكْرِمُ مُرَيَّةَ:

* كانَ الخليفةُ المهدي[1] يوافي أهْلَه كلَّ عشيّةٍ ، ولما كانتِ الليلةُ التي دخلتْ فيها مريةُ قَصْر الخيزُران ، وكانت زينبُ بنتُ سليمانَ قد رضيتْ ، فلما دخَلَ المهديُ وكان منْ شأنِهِ الاجتماعُ مع خواصّ حُرمهِ كلَّ عشيّة ، فوجَدَ الخيزُران على هيئةٍ حَسنَةٍ وحالةٍ طيّبةٍ ، فسأل عن الخبرِ ، فحدَّثَتْه حديثَها مع مريةَ وما لقيتْها به ، وما صنعَتْه معها؛ تقولُ الخيزرانُ: فو اللهِ ما انتظرَ أن أُعرِّفَه الجوابَ حتّى وثَبَ في وجهي مغضباً وقال: زينبُ؛ الله! إنَّ هذا مقدار شكرِك للهِ على نعمتِهِ وقد أمكنكِ اللهُ منْ مثلِ هذه المرأةِ على هذه الحالِ التي هي عليها؟! فواللهِ لولا محلُّكِ منْ قلبي لحلفتُ ألاّ أكلمَك أبداً.

فقالتِ الخيزرانُ: يا أمير المؤمنين إنَّ زينبَ قد اعتذرتْ إليها فرضيت مريةُ. ثمّ إنَّ الخيزُران قصَّتْ عليهِ قصتّها كلها وما فعلتْ بمريةَ ، هنالك قالَ

---

(١) المهديُّ اسمه: محمدُ بنُ أبي جعفر عبد الله بن محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس العباسي ، كانت خلافتُه عَشْر سنين وشهراً منْ سنة (١٥٩ ـ ١٦٩هـ) ، وكان جَواداً ، ممدحاً ، محبباً إلى النَّاس ، وَصُولاً لأقاربه ، حسنَ الأخلاق ، حليماً ، قصَّاماً للزّنادقة ، وكان طويلاً أبيضَ مليحاً. لم يَلِ الخلافةَ العبّاسيّة أحدٌ أكرمَ منه. ويُقال: إنَّه استضاف أعرابياً وقد انفردَ عن جيشهِ في طلبِ صيدٍ حتى جَهِدَ وعطشَ ، فَسَقاهُ لَبناً مشوباً ، فكتبَ له بخمسمئة ألف ، فأيسرَ ذلك الأعرابي وكثُرت مواشيه ، وبقيَ مرصداً للحاج ، وسمّي مضيف أمير المؤمنين. وأخبارُ المهدي كثيرة وجميلة. توفي في (٨ محرم عام ١٦٩هـ) رحمه الله.
(شذرات الذهب ٢/ ٣٠٥ ـ ٣١٠) باختصار وتصرف.

المهديُّ للخيزُران: واللهِ؛ لو لم تفعلي بها ما فعلتِ ما كلمتُك أبداً، ثمَّ إنَّه بكى بكاءً شديداً، ورَنَا في بصرِه إلى السَّماء، وقال: اللهمّ إنّي أعوذُ بكَ منْ زوالِ النِّعمةِ، وأنْكَرَ فِعْلَ زينبَ بنت سليمانَ وقال: لولا أنَّها أكبرُ نسائِنا ولولا أنَّها اعتذرتْ من مريةَ لحلفتُ ألاّ أكلّمها.

* ثم إنَّ المهدي قال لخادمٍ كان معه: احملْ إلى مريةَ مئة بدرة[1]، وادخلْ إليها وأبلغْهَا منّي السَّلام، وقُل لها: واللهِ ما سررتُ من دَهْري مثل سُروري اليوم بمكانِك، وأنَّا أخُوك، ومن يوجبُ حقَّكِ، فلا تدعي حاجةً إلا سألتها، ولولا أنّي أكرهُ أنْ أحْشمَك[2] لصرتُ إليك مُسلّماً عليكِ، وقاضياً لحقِّكِ.

* فمضى الخادمُ بالمالِ والرّسالة إلى مريةَ، فأقبلتْ إلي الخيزُران وإلى المهدي وسلَّمتْ عليه، وشكرتْ له فِعْلَه، وأثنت على الخيزُرانِ عنده، وقالت له: ما عليَّ منْ أميرِ المؤمنين من حشْمةٍ أنا في عدّةِ حُرَمِهِ.

* وجلستْ مريةُ ساعةً في ذلكَ المجلس، وكانت قد حَضَرتْ زينبُ بنتُ سليمان بنِ عليّ، ثمَّ تفاوضُوا أخبارَ أسلافِهم وأيَّام النَّاسِ والدَّولةِ وتنقُّلها، فما تركَتْ مريةُ لأحدٍ في ذلك المجلسِ كلاماً.

فقال لها المهديُّ: يا بنتَ عمّ، واللهِ لولا أنّي لا أحبُّ أنْ أجعلَ لقومٍ أنتِ منهم في أمرِنا شيئاً لتزوّجْتُكِ، ولكن لا شيء أصْوَن لكِ من حجابي، وكونكِ مع أخواتِك في هذا القَصْر، لكِ ما لهنَّ وعليك ما عليهنَّ، إلى أنْ يأتيك أمْرُ مَنْ له الأمْرُ فيما حكمَ به على الخَلْقِ.

* ثمَّ إنَّ المهديَ أقطعها مثل ما لهنَّ من الأَقْطاعِ، وأخْدَمَها، وأجازَ لها.

* وظلَّت مريةُ في قَصْرِ الخيزُران وهي سعيدةٌ بإحسانِ الخيزران حتّى بلغَتْ في أيّامها منْ حُسْنِ الحال أعلى ما كانتْ عليهِ في أيّام عزّها في قصورِ

---

(١) «البدرة»: كيس فيه ألف، أو عشرة آلاف.

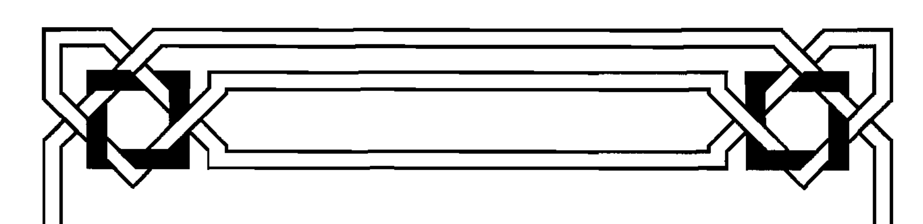
(٢) «أحشمك»: حشم مثل خجل، ويتعدى بالألف فيقال: أحشم.

بني أميّة؛ وظلَّت مقيمة في ذلك القَصْرِ حتى توفيتْ أيّامَ الرشيدِ في خلافته ، فلما قُبِضَتْ جزِعَ عليها جزعاً شديداً ، وذلك برّاً بها ووفاءً لأُمّهِ الخيزران[1] .

رحمَ الله مريةَ ، وأحْسنَ مثواها .

* * *

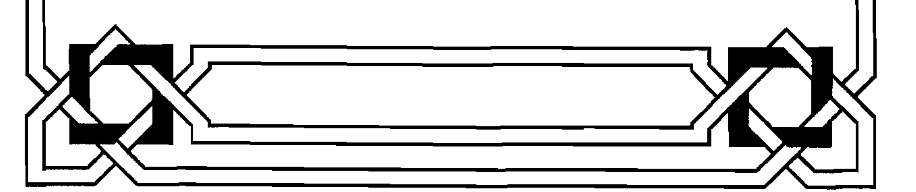
(١) عن تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٨٨ ـ ٢٩٢) وأعلام النساء (٥/ ٥٠ ـ ٥٢) ، والحدائق الغناء في أخبار النساء (ص ١٧٤ ـ ١٧٦) مع الجمع والتصرف. وانظر أيضاً: المستجاد (ص ٢١ ـ ٢٥) ، وثمرات الأوراق بهامش المستطرف (١/ ٢١٧ ـ ٢٢٠) والمختار من نوادر الأخبار (ص ٤٧).



(١٩)

عِكرِشة بنت الأطشّ

* مِنْ نُصَراء علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
* بليغة الخطاب ، متألقة المعاني ، فصيحة اللسان .
* ذات عقل وافر ، جمعت بين الشجاعة والأدب .



مِنْ نُصَرَاءِ عَلِيّ:

* هذهِ المرأةُ التي تَقِفُ اليومَ في قَصْرِ أميرِ المؤمنينَ معاويةَ بنِ أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ إحدى النِّساء من نُصَراءِ أميرِ المؤمنين عليّ بنِ أبي طالب رابع الخلفاءِ الرَّاشدين ـ رضي الله عنهم جميعاً وحَشَرنا في معيّتهم ـ.

* ومن بينِ أعدادٍ كبيرةٍ من نسوةِ القرن الأوَّلِ ، تبرزُ عِكْرِشَةُ بنتُ الأطشّ ابن رَوَاحة[1] لتسجِّل مواقفَ طيِّبةً للمرأةِ في قصورِ الأُمراءِ والخُلفاءِ ، وتدلي دَلْوَها في مضمار بلاغةِ الخطابِ ، وبيانِ المعَاني التي تُفْصح عن حبِّها لعليّ ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* فقد كانتْ هذهِ المرأةُ الخطيبةُ المفوَّهةُ ترى أنَّ حُبَّ عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مِنَ الدِّين ، بل كانت ترى أنَّ بغْضَه وبغضَ أهلِ بيته منَ الكُفْر ، ولعلَّ الشَّاعر الحزينَ الكنانيَّ كان يرى في عليٍّ وأهلِهِ وذريتِهِ أئمةَ التُّقى ، وخيرَ أهلِ الأرض ، وفي هذا يقولُ:

مِن مَعْشرٍ حبُّهم دِينٌ وبغضُهمُ ... كفْرٌ وقربهم مَنْجى ومعتَصَمُ
إنْ عُدَّ أهلُ التُّقى كانُوا أئمتَهم ... أو قيل مَنْ خيرُ أهلِ الأرض قيل هُمُ

* وكانتْ عِكْرِشَةُ[2] لمّا وَلِيَ معاويةُ الخلافةَ قد كبرتْ وطعَنَتْ في

---

(1) بلاغات النساء (ص٧٤) طبعة مصر؛ و(ص ١٠٨ و١٠٩) طبعة الكويت ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٥٤ و٢٥٥) ، والعقد الفريد (٢/ ١١١ و١١٢) ، والمختار من نوادر الأخبار (ص٨٩ و٨٠) ، والدر المنثور (ص٣٤٨ و٣٤٩) ، وأعلام النساء (٣/ ٣٢٥ و٣٢٦) وغيرها ، ويروى بنت الأطرش أو بنت الأطروش.

(2) «عِكْرِشة»: العكْرِشُ نباتٌ تأكلُه الأرانب. والعِكْرِشة: الأرنبُ الضّخمةُ ، سمّيتْ بذلك لأنّها تأكلُ هذه البقلة. وقال الأزهريُّ: سميتْ أنثى الأرانبُ عكرشة لكثرة وبرها والتفافِه ، شُبِّه بالعكرشِ لالتفافِهِ في منابتهِ. وفي حديث عمر؛ قال له رجلٌ: عَنَّتْ لي عكرشة فشنقْتُها بجبُوبةٍ ، فقال: فيها جَفْرة. العِكْرِشةُ: أنثى الأرانب. والجفْرةُ: العناق منَ المَعْز. =

السِّنّ ، وكانت من ربّاتِ الفَصاحَةِ والبَلاَغَةِ والبَيانِ ، وأُوتيتْ من قوّةِ الحجّة ما تستطيع أنْ تجابِهَ بها الأقران ، في أيّ ميدان.

* ولما ترجمتْ لها زينبُ فواز العامليّة افتتحتْ قولَها بوصفِها: كانتْ فصيحةَ الألفاظِ ، رقيقةً أديبةً ، حرّةَ المنطقِ ، ذات عَقْلٍ وافرٍ ، جامعةً بين مزيتي الشَّجاعةِ والأدبِ ، حضرتْ حربَ صفّين ، وألقتِ الخطبَ البليغةَ[1].

* ومنَ الجدير بالذّكْرِ أنَّ كُتبَ الأدبِ لم تَحْفَظْ إلاّ هذه الخطبةَ لعكرِشةَ في صفّين ، والتي نشكُّ في كثيرٍ منها ، لأنَّ فيها من الجرأةِ ، ومنَ الباطل ، ما لا تقبلُه العقولُ ولا النُّفوس السَّويةُ التي فُطِرَتْ على حُبِّ الصَّحابةِ أجمعين ، كما أنَّ في خطبتِها المزعومةِ أو المخترعةِ كلماتٌ لم تكنْ معروفةً في ذلك الوقتِ معرفةً حقيقيّةً ، وإنّما تعودُ إلى ما بعد القَرنِ الثَّاني من مثل قولها: عُجْمُ العَربِ ، وقولها: إذهابُ السُّنَّة ، بالإضافةِ إلى بعضِ المفردات الصَّعْبةِ المتكلَّفَة التي سنقرؤها في الصَّفحات القادماتِ بإذن الله.

عِكْـرِشَةُ ومُـعَـاوِيَـةُ والـرَّعيَّــةُ:

* كانَ معاويةُ ـ رضوان الله عليه ـ أميراً للمؤمنين في الأرضِ بعد عام الجماعةِ ، ولم يكنْ يرى حَرَجاً في أنْ يسمعَ آراءَ النَّاسِ فيه ، ورأيهم في عليّ ـ رضي الله عنه ـ؛ بل كان أحياناً يحرصُ على ذلك ، ليرى بفطنتِهِ مدى استعدادِ النَّاس لطاعتِهِ أو مخالفتِهِ.

* ومنْ ذلك ما ترويه كتب الأسْمار والأدبِ منْ أنَّه قد دخلَ على معاوية أحدُ خُصومِه الكبار وهو أبو الطُّفَيْل عامرُ بنُ واثلةَ الكناني شاعرُ كنانة ، وأحدُ

= وقال الأزهريُّ: عكرشةُ ، وعجرمةُ ، وعضمرةُ ، وقلمزة ، وهي القصيرةُ اللئيمةُ.
وعِكْراش: رجلٌ من أرمى أهل زِمانه ، قال الأزهريُّ: هو عِكراشُ بنُ ذؤيب كان قدمَ على النبي ﷺ ، وله رواية إنْ صحّت. (لسان العرب ٦/ ٣١٩ و٣٢٠) بتصرف.

(١) الدر المنثور (ص ٣٤٨ و٣٤٩).

فرسانِها الأشداءِ ، ومن ذوي السّيادة فيها ، فقال له معاويةُ : أَلَسْتَ منْ قَتَلَة عثمانَ؟

قال : لا ولكنّي ممن حَضَره ولم ينْصُرْه .

قال : ما منعكَ منْ نَصْرِه؟

قال : لم ينصرْه المهاجرونَ والأنْصَارُ .

قال معاويةُ : أمَا لقد كان حقُّه واجباً ، وكان عليهم أنْ ينصروه .

قال : فما منعك يا أميرَ المؤمنين منْ نَصْرِه وأنتَ ابنُ عمّه ومعك أهلُ الشام؟

فقال معاويةُ : أوليسَ طلبي بدمِهِ نصْرةً له؟!

فضحكَ أبو الطُّفيل وقال : مَثَلُك ومَثَلُ عثمانَ كما قال النَّابغة الجعديّ :

لا أَلْفينَّـكَ بَعْـدَ المـوتِ تَنْـدُبنـي وفـي حيَـاتـي مـا زوَّدْتَنِـي زَادِي

فقال معاويةُ : يا أبا الطُّفيل ، ما أبقى الدَّهْرُ منْ ثكلِكَ عليّاً؟

قال : ثكْلُ العجوزِ المِقْلات[1] ، والشَّيخ الرَّقوب[2] .

قال : فكيفَ حبُّك له؟

قال : حبُّ أمِّ موسى لموسى ، وإلىَ اللهِ أشكو التَّقصير[3] .

* إنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ قد لخَّصَ سياستَه معَ خصومِهِ من خلالِ لقائِهِ مع عائشةَ بنتِ عُثْمانَ بنِ عفَّانَ .

---

(١) «المقلات» : التي لا يبقى لها ولد . قال الشاعر :

بُغـاثُ الطَّيـرِ أكثـرُهـا فِـراخـاً وأمُّ الصَّقْـرِ مقـلاتٌ نـزورُ

(٢) «الرّقوب» : الذي لم يبقَ له ولد .

(٣) انظر : الأخبار الموفقيات (ص ١٥٤ و١٥٥) والعقد الفريد (٢٩/٤٠ و٣٠) مع الجمع والتصرف اليسير .

* ذكرَ ابنُ كثيرٍ ـ رحمه الله ـ خبراً عن عُلوانَ بنِ صالح بنِ كيسان أنَّ معاويةَ قَدِمَ المدينَة أوَّل حجّةٍ حجَّها بعد اجتماعِ النَّاسِ عليه، فلقيه الحسنُ والحسينُ ورجالٌ منْ قريشٍ، فتوجَّهَ إلى دارِ عثمانَ بن عفَّان، فلما دنا مِنْ بابِ الدَّار صاحَتْ عائشةُ بنتُ عثمان ونَدَبَتْ أباها؟ فقالَ معاويةُ لمن معه: انصرفُوا إلى منازلكم فإنَّ لي حاجةً في هذه الدَّار. فانصرفُوا ودخلَ مَسْكنَ عائشةَ بنتِ عثمان، وأمرها بالكفّ وقال لها: يا بنةَ أخي إنَّ النَّاس أعطونا سلطانَنَا، فأظهرنا لهم حلْماً تحته غَضَبٌ، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حِقْدٌ، فبعناهم هذا بهذا، وباعونا هذا بهذا، فإنْ أعطيناهم غيرَ ما اشتروا منّا شحّوا علينا بحقّنا، وغمطناهم حقَّهم، ومع كلّ إنسانٍ منهم شيعته، وهو يرى مكانَ شيعته، فإنْ نكثناهم نكثوا بنا، ثمَّ لا ندري أتكونُ لنا الدَّائرة أمْ علينا؟ وأنْ تكوني ابنةَ عثمانَ أميرِ المؤمنين أحبَّ إليَّ أنْ تكوني أمةً منْ إماءِ المسلمين، ونِعْمَ الخلفُ أنا لك بعد أبيك[١].

* لقد كان معاويةُ إذاً يتعاملُ بالتّحلُّم ليستلَّ حقْدَ الناسِ، وكان يبذلُ لهم المعروفَ والإحسانَ، ويقدِّر فَضْلَهم، ولا يبخسُ مكانةَ واحدٍ منهم رجلاً كانَ أو امرأة؛ ولهذا استطاعَ معاويةُ أنْ يحاوِرَ عِكْرشةَ بنتَ الأطشِ لمّا وفدتْ عليه، ويقضيَ حاجتَها التي وفدتْ عليه من أجْلِها.

* وتروي المصادرُ أنَّ عكرشةَ قد وفَدتْ على معاويةَ، ودخلتْ عليه وهي تتوكأُ على عكازٍ لها في أسْفَلهِ زجٌّ[٢] مسقيٌّ، فهنَّتْه وسلَّمَتْ عليه بالخلافةِ، فأحْسَنَ معاويةُ وفادتها، وكان له معها قصّةٌ طريفةٌ، تُرى ما هذه القصَّة؟!

يَا عِكْرِشَةُ الآنَ صِرْتُ أَمِيْرَ المُؤْمنينَ؟!

* نحنُ الآن ـ كما أرادتْ كتبُ الأدبِ ـ نقفُ في قَصْرِ معاويةَ ـ رضي الله

---

(١) انظر البداية والنهاية.

(٢) «الزج»: الحديدة في أسفل الرمح أو العكاز ونحوهما.

عنه ـ وأمامَه عكرشةُ بنتُ الأطشّ ، وقد نالتْ منها الأيّامُ فجعلتها تتوكأُ على عصا غليظةٍ ، بعد أنْ كانتْ قبل سنوات خوالٍ ، تتقلَّدُ حمائِل السَّيف ، وتعتلي الخيلَ وتحمِّسُ النَّاس في صِفّينَ؛ لكنَّها الآن تدخلُ على معاوية وتقول: السَّلام عليك يا أميرَ المؤمنين.

فقال معاوية في ابتسامةٍ لطيفةٍ مُتَسائِلاً: يا عكرشةُ بنت الأطش الآن صرت عندك أمير المؤمنين؟! لا إله إلا الله إنَّ هذا لشيءٌ عجيبٌ!

قالت عكرشةُ في جرأةٍ: نعم، إذْ لا عليٌّ حيٌّ، فلو كان حيّاً ما ناديتُك بهذا الاسم.

فقال معاويةُ: حَسَناً، ألستِ صاحبةَ الرَّحْلِ المسدولِ، والوسط المشدودِ، المتقلدةِ بحمائلِ السَّيف، وأنتِ تجولينَ بين الصَّفَّيْن يوم صِفّينَ تقولينَ كلاماً وقد حفظتُه منك؟

قالت: وما هو يا أميرَ المؤمنين؟!

قال: كنتِ تقولين: أيُّها النَّاس، ثمَّ تقرئين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥][1].

---

(١) يأمرُ اللهُ عزَّ وجلَّ عبادَه المؤمنين أنْ يصلحوا أنفسَهم، ويفعلوا الخيرَ بجهدهم وطاقتهم، ومخبراً لهم أنّه مَنْ أصلحَ أمره لا يضرُّه فسادَ مَنْ فَسَدَ منَ النَّاس، سواءٌ كانَ قريباً منه أو بعيداً، وفسَّر ابنُ عبّاس هذه الآية فقال: يقولُ تعالى: إذا ما العبدُ أطاعَني فيما أمرتُه به منَ الحلالِ والحرامِ، فلا يضره مَنْ ضَلَّ بعده، إذا عملَ بما أمرته به. وروى أصحابُ السّنن أنَّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ قامَ فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيُّها النَّاس، إنّكم تقرؤونَ هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ وإنكم تضعونَها على غيرِ موضعها، وإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ النَّاس إذا رأوا المنكرَ ولا يغيرونه أوشكَ اللهُـ عز وجل ـ أنْ يعمَّهم بعقابه». وقال أبو السُّعود: ولا يتوهمنَّ أحدٌ أنَّ في الآية رخصةً في تركِ الأمْر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فإنَّ من جملة الاهتداء أنْ ينكر. (تفسير أبي =

إنَّ الجنَّـةَ دارٌ لا يَرْحَلُ عنها مَنْ قَطَنَها ، ولا يحزنُ ولا يهرمُ مَنْ سكنَها ، ولا يموتُ مَنْ دخلها ، فابتاعوها بدارٍ لا يدومُ نعيمُها ، ولا تنصرمُ همومُها ، وكونوا قوماً مستبصرينَ في دِيْنهم ، مستظهرين بالصَّبر على طَلَبِ حقِّهم .

* أيّها النَّاس ، إنَّ معاويةَ بنَ أبي سفيان قد دَلَفَ إليكم بعجمِ العَربِ ، غُلْفِ القُلوب ، لا يفقهونَ الإيمانَ ، ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدُّنيا فأجابوه ، واستدعاهم بالباطلِ فلبُّوه ، فاللهَ اللهَ عبادَ اللهِ في دِيْنِ اللهِ ، وإيّاكم والتّواكل ، فإنَّ في ذلك نقضُ عرى الإسلامِ ، وإطفاءُ نورِ الحقّ والإيمانِ ، وإظهارُ الباطل ، وإذهابُ السُّـنَّـةِ .

* أيُّها النَّاس ، هـذه بـدرٌ الصُّغـرى ، والعقبـةُ الأخـرى ، يـا معـاشرَ المهـاجـريـن والأنصـار ، امضـوا على بصيـرتكـم ، واصبـروا علـى عزيمتكم ، فكأنّـي بكم غـداً ، وقد لقيتُـم أهْلَ الشَّـام كالحميرِ النَّـاهقـة ، والبغال الشَّحاجـة ، تضفـقُ ضَفْـق[1] البقـر ، وتروثُ روثَ العتـاق[2] ، فكأنّي بكِ على عكّازِك هذه ، وقد انكفأ عليك العَسْكران يقولون : هذه عِكْرِشةُ بنتُ الأطش بنِ رواحةَ ، فإن كدتِ لتقتُلينَ أهْلَ الشَّام ، بل كدتِ لتُـلفِتينَ عنّي أهلَ الشَّام لولا قَـدَرُ اللهِ ، ولولا ما أحبَّ اللهُ أنْ يجعلَ لنا هذا الأمْـر ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٨] ، فما حَملكِ على ذلك يا عِكْرِشةُ؟!

قالت : يا أميرَ المؤمنين ، يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠١] ، وإنَّ اللبيبَ إذا كَرِهَ أمْراً لا يحبُّ إعادته .

= السعود ٢/ ٦٥) وتفسير ابن كثير (٢/ ١٤١ و١٤٢) مع الجمع والتصرف .

(١) «ضفق» : وضع ذا بطنه بالمرة ، والضفع والضفق بمعنى (القاموس واللسان) .

(٢) العتاق : الجمال .

قال معاوية: صدقتِ باركَ الله فيك.

اذْكُـري حَـاجَـتــكِ:

* بعد أنْ سَرَدَ معاويةُ خطبةَ عِكرشةَ بنتِ الأطش، أفهمته بألاّ يذكرها بشيءٍ سَلَفَ، وهنالك قال لها: يا عكرشة ما الذي دعاكَ للقدومِ علينا؟

قالت: حاجاتٌ أودُّ أنْ تقضيها يا أمير المؤمنين.

قال: اذكري حاجتَك.

فقالت عكرشةُ بشيءٍ من الجرأة: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ قَدْ جَعَلَ صدقاتِنا على فقرائِنا وعلى مساكينِنا، وردَّ أموالَنا فينا إلا بحقّها، وإنا قد فَقْدَنا ذلك، فَما ينعشُ لنا فقيرٌ، ولا يُجْبَرُ لنا كَسِيْرٌ.

* ثمَّ إنَّ عكرشةَ سكتت قليلاً وتابعتْ حديثها قائلةً: فإنْ كانَ هذا الأمْرُ عنْ رأيكَ يا أميرَ المؤمنين فمثلُك من انتبهَ من الغَفلةِ، وراجعَ التَّوبة، وإن كان ذلك عن غيرِ رأيكَ وقَصْدِكَ، فما مثلك من استعانَ بالخونةِ، ولا استعان بالظَّالمين.

فقال معاويةُ: يا هذه، إنَّـه ينوبُنـا منْ أمـورِ رعيتنا أمورٌ تنبثقُ، وثغـورٌ تَنْـفَتِقُ.

قالت عكرشةُ في تعجُّبٍ: يا سبحانَ الله، واللهِ ما جعلَ اللهُ لنا حقّاً فجعلَ فيه ضَرراً على غيرِنا، وهو علاَّمُ الغيوب!!.

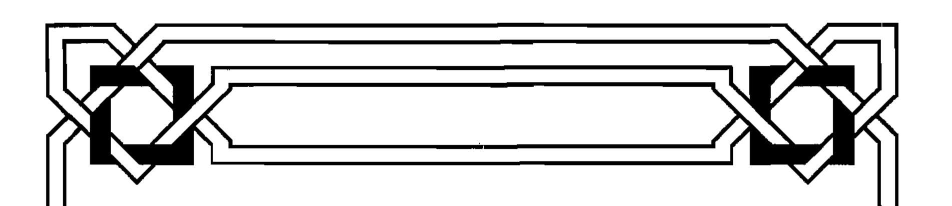
قال معاويةُ: هيهات هيهات يا أهلَ العراقِ، نبَّهكم عليُّ بن أبي طالب وفقَّهكُم، فَلَنْ تُـطَـاقُـوا.

* ثم إنَّ معاويـةَ أمَرَ بـردِّ صدقاتِهم فيهم وإنصـافِهم، وردَّ عكرشة إلى

قومِها مكرّمـةً[1]. وبخروجهـا منْ قَصْر معاوية أسْـدَلَ التَّـاريخُ أسْتَـاره فلم نَعـدْ نسمعُ عنها هَمْساً ولا كلاماً ، ولكنَّـه ذكرَها في النِّساء اللواتي دخَلْنَ قُصورَ الأُمراءِ.

* * *

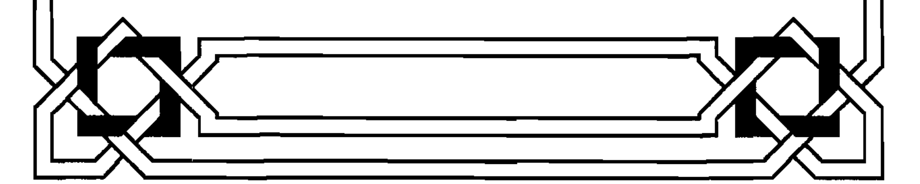
(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٥٤ و٢٥٥) والعقد الفريد (٢/ ١١١و١١٢) مع الجمع والتصرف. وانظر: المختار من نوادر الأخبار (ص ٧٩ و٨٠) ، وبلاغات النســاء (ص ١٠٨ و١٠٩) وأعـلام النســاء (٣/ ٣٢٥ و٣٢٦) ، والـدر المنثـور (ص ٣٤٨ و٣٤٩) وغيرها.



(٢٠)

ميسون بنت بحدل الكلبيّة

* مُحِبّة للبادية وصفائها ، وحياة البساطة بين قومها .
* فائقة الجمال ، مليحة الأوصاف ، حَسَنة الصفات ، أديبة ، شاعرة .
* زوجها معاوية بن أبي سفيان ، وهي أم يزيد الخليفة الأموي .



السَّيِّدةُ الأولى:

* لم تَنَلْ هذهِ المرأةُ الشُّهْرةَ إلاّ بَعْدَ أنْ دخلتْ قصورَ الأُمراءِ، ولو لم تنتقِلْ منَ الخيمةِ إلى القَصْرِ لكانت نسْياً منْسياً بينَ نساءِ قُصور الأمراء، ولمَا سجَّلَتْ يَدُ التَّاريخِ كلماتها، أوْ أشعارَها، أو أثارةً منْ أقوالِها أو أخبارِها، ولكانتْ ممن عفا الدَّهرُ آثارهُنَّ، وجعلَها في طيّ النّسيان.

* ولما انتقلتْ هذهِ المرأةُ منْ حياةِ البداوةِ إلى حياةِ القصورِ، بدأتْ رحلةُ شهرتها تخترقُ الآفاقَ، وتجوبُ الدِّيار، فقد غدتِ السَّيِّدة الأولى في عالم سيّداتِ عصْرِها ومصْرِها؛ بل ولدتْ مَلِكاً شَاعراً، قال عنه بعضُ علماءِ الأدب: بُدِىءَ الشِّعْرُ بملك وخُتِم بَملِك؛ كما روى الحديثَ عن أبيهِ كما سنرى في الصَّفحات التَّاليات بإذن الله.

* ومنَ الطَّريفِ في عالم النِّساء وأخبارهنّ في قُصور الأُمراء، أنَّ هذه المرأةَ متأثرةٌ أشدَّ الأثَرِ في الباديةِ والصَّحراءِ، وظهرَ ذلك جليّاً في حياتِها، حيث كانت ترى في ذلك الفَضَاءِ الرَّحْبِ الواسعِ الذي تنعُمُ به صباحَ مساءَ، وليلَ نَهار، حريةً كاملةً، وكانتْ تتعجَّبُ منَ المرأةِ المدنيّةِ التي تحيطُ بها جدرانُ القُصور من كُلِّ جانب؛ ولم تكنْ تدري أنَّها ستكونُ يوماً من ذواتِ الخُدور، اللواتي يَسْكُنَّ القُصور؛ وفي الأيّامِ التي دخلَتْ فيه قَصْر الإمارةِ رأتْ في ذلك سجنَها، واستعبادَها، وضبطَ حريتها وحياتها، فسئمتْ تلكَ الحياة، وما فيها من تَرفٍ ونعيمٍ، وفضَّلَتْ ملابسهَا البسيطةَ، وعباءتَها اللطيفةَ على تلكم الملابس الثَّمينة، واستعذبتِ الحياةَ الهادئةَ النّائيةَ على حياةِ الأبهةِ والخدمِ والحشمِ، وطلبتِ الحريَّةَ تاركةً الأمراء وحياةَ القصور، لتعودَ وتسكنَ بيتاً من الشَّعْرِ، تخفقُ فيه الأنْسامُ منْ جميعِ الجهات، كما ستُطالعنا بذلك أخبارها بُعيد قليل.

* أمّا صِفَةُ هذه المرأةِ البدويّةِ وملامحها فيذكرها ياسينُ العمريُّ في «روضَتِه» فيقولُ: كانت جميلةَ الأوصافِ، حسنَةَ الأطرافِ، فائقةَ الجمالِ، نظمها السِّحْرُ الحلالِ، وهي منْ باديةِ العرب، من أهل الحَسَبُ[1].

* وأمّا بطاقةُ امرأةِ اليوم، فنقرؤها عند أبي الحَسَن المعافري المالقي في «حدائقه»: ميسونُ بنت بحدل بنِ أنيف بنِ دَلْجة الكلبيّة[2]، واحدةٌ من نساءِ قومها العاقلات ذواتِ اللَّسَن والفَصَاحةِ والصَّباحةِ؛ ولما صارتْ زوجةً لأميرِ الشَّام غَدتْ من عليةِ نساءِ القوم، وممن رسمَ التَّاريخُ آثارهنَّ، ووعى أقوالهنَّ، وخلَّدَ فضائلهنَّ، وجعلهنّ في عقْدٍ نفيسٍ تتحلّى به نساءُ الدّنيا، وتستنيرُ بأضواءِ آدابهن.

قصَّـةُ انـتـقالِـهـا إلـى الـقصُـــور:

* لدخولِ ميسون[3] بنة بحدل الكلبيّة قَصْر معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ قصَّةٌ

---

(١) الروضة الفيحاء في تواريخ النساء (ص ٢٦٠).

(٢) انظر: الحدائق الغناء في أخبار النّساء (ص ٣٣ ـ ٣٥) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص ٣٩٧ ـ ٤٠١)، والمحبر (ص٢١)، ونسب قريش (ص ١٢٧)، وأنساب الأشراف (القسم الرابع الجزء الأول ص ١٤٩ و١٥٠)، والتذكرة الحمدونية (١/ ٣٧٢ و٣٧٣) و(٧/ ٤١٦)، وخزانة الأدب (٨/ ٥٠٣ ـ ٥٠٦)، وتاج العروس (٤/ ٢٥٣)، والكامل في التّاريخ (٤/ ١٠ و١٢٥)، وتاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٤١)، والعقد الفريد (٤/ ٣٩١)، والحيوان للجاحظ (١/ ١٧٧)، والجليس الصالح الكافي (٢/ ١٣٦)، ولسان العرب (١٣/ ٤٠٨)، وأعلام النساء (٥/ ١٣٦ و١٣٧) والأغـانـي (١٦/ ٤٧) و(١٧/ ٢١٢)، والاشتقـاق (ص٥٤١ و ٥٥٧)، والإكمال (٧/ ٢٥١)، وتاريخ الطبري (٥/ ٣٢٩)، والبداية والنهاية (٨/ ١٤٨)، والمنمق (ص ٣٤٩)، وحياة الحيوان (٢/ ٢١٢)، وشاعرات العرب (ص ٣٩٦ و٣٩٧)، والأعلام (٧/ ٣٣٩) والمعارف (ص ٣٥٠)، وتاريخ القضاعي (ص ٣٢٨).

(٣) «الميْسُون»: بالفتح: الغلامُ الحسن القد والوجه.
والميْسُون في اللغة: المياسة من النّساء، هي المختالة.
وميسون بنت بحدل أمّ يزيد بن معاوية. (تاج العروس ٤/ ٢٥٣). =

عجيبةٌ أوردَتْها بعضُ المصادر القديمةِ؛ فقد ذكرَ البلاذريُّ أنَّ معاويةَ لما وليَ الشَّام لعمرَ وعثمانَ ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ، فأتاهُ وهو بالشَّامِ بحدلُ بنُ أُنيف بن دلجة من ولدِ حارثة بن جنابِ الكلبيّ بابنِ أخٍ له قَدْ قَتَلَ أخاه ، وكان ابنا أخيهِ هذان خَطَبَا ميسونَ بنتَ بحدلٍ جميعاً ، فزوَّج المقتولَ ، فإنَّ رأسَهُ لَفِي حِجْرها وهي تفلّيه ، إذ دَخَلَ عليه أخوه بصخرةٍ فَلَقَ بها رأْسَه ، فلما أتى معاويةُ قال له : إنْ شئتَ قَتَلْتُه لك ، فذهبَ ابنا أخيك جميعاً ، وإنْ شئتَ فالدِّيةُ ، فَقَبِل الدِّية .

* ووجَّهَ معاويةُ بعد ذلك رسُولاً إلى بَهْدلِ بن حسَّان بن عديّ بن جَبَلة بن سلامة بن عُليم بن جناب الكلبيّ ليخطبَ عليه ابنته ، وكانت بِكْراً ، فَغَلِطَ ، فمضى إلى بحدلِ بنِ أنيف فخطبَ ابنته ، فزوَّجَه ميسون ، فقال عمرو الزُّهيري من كَلْب يهجو حسَّان بنَ مالك بن بحدل :

إذَا مَا انْتَمى حَسَّانُ يوماً فَقُلْ لَهُ ... بِمَيْسونَ نِلتَ المجْدَ لا بابنِ بَحْدَلِ
بمصَـانَـةٍ ريّـا العِظَـام كَـأَنَّهـا ... منَ الوحْشِ مَكْحُولُ المَدامعِ عَيْطَل
ولولا ابنُ مَيْسونَ لما ظَلْتَ عَامِلاً ... تخمَّـط أبنـاء الأكَـارمِ مـنْ عَـلِ
ومَا كانَ يرجُو مَالكٌ أنْ يَرى ابنَه ... عَلى منبرٍ يقضي القَضَاءَ بفيصَلِ
ألا بَهْـدلاً كـانُـوا أرادُوا فَضُلِّلَـتْ ... إلى بحدلٍ نَفْسُ الرَّسولِ المُضَلَّلِ
فشتَّانَ إنْ قايستُ بينَ ابن بَحْدلٍ ... وبينَ ابن ذي الشَّرطِ الأغرّ المحجَّلِ[1]

* ودخلتْ ميسونُ قَصْرَ معاوية بالشَّام لما كان أميراً عليها لعمرَ وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ ، ومنذ أنْ دخَلت ميسونُ القصورَ الدِّمشقيّة ، خرجتْ شهرتُها إلى الآفاقِ لتُصافِح الأسماعَ ، ولتكونَ سيرتُها معروفةً في الأصقاعِ والبقاع ، وتنقلُها الأجيالُ للأجيالِ .

= وميسون من فيعول؛ من ميْسَنَه بالسَّوط ، إذا ضربه .
ومن فعلون : من ماس يميس ، إذا تبختر .

(١) انظر : أنساب الأشراف للبلاذري : القسم الرابع ـ الجزء الأوّل (ص ١٤٩ و١٥٠) .

أمُّ الخَليْفَةِ:

* يبدو أنَّ زواجَ ميسونَ بنتِ بحدل منْ معاويةَ كان في منتصفِ العِقْدِ الثَّالث منَ القَرنِ الهجريّ الأول ، ويبدو أنَّ ميسونَ كانت في ميعةِ الصِّبا آنذاك ، وعاشتْ في قَصْر معاويةَ مدّة منَ الزَّمنِ ، ولكنّها لم تستَطِعْ أنْ تحتملَ حياةَ المدنِ ، ولم تستطعْ أنْ تتخلّى عن حياتِها البدويّةِ ، فردَّها إلى الباديةِ ، كما سنعرف ذلك.

* وخلالَ إقامةِ ميسون بالشَّام ، ولدت ابنَها يزيد بن معاوية في سنة (٢٦هـ) على الأغلب ، وذلك في خلافةِ عثمانَ بنِ عفان ـ رضي الله عنه ـ ، ولما ردَّ معاويةُ ميسونَ إلى أهلها في الباديةِ ، أخذتْ معها ولدها يزيد ، فَنَشَأَ في الباديةِ نشأةَ البَدْوِ ، فشبَّ فصيحاً كريماً شاعِراً مُبدعاً ، ولهذا قال علماءُ الأدب: بُدىء الشِّعر بملك ، وخُتِم بملك[1].

* وشبَّ يزيدُ في خلافةِ أبيه معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ، وقد ارتضعَ الفصَاحةَ والبلاغةَ من أُمِّه ، وتوسَّمَ أبوهُ فيهِ ملامحَ النُّبْلِ والصِّفاتِ التي تؤهِّلُه لمنصبٍ كبيرٍ ، فأخذَ يحمّلُه بعضَ المسؤوليّات ليدرّبَه على تولِّي الإمارة ،

---

(١) يقصدونَ بذلكَ امرأ القَيس بنَ حجْر الكندي ، ويزيدَ بنَ معاوية الأموي ـ ولعلَّ الشّعْرَ الذي وصَلَ إلينا عن يزيدَ بنِ معاوية في كُتُب الأقدمين منْ مثل: الأغاني ، ومعجم البلدان ، ووفيَات الأعيان ، ومروج الذهب ، ومن قبل ذلك تاريخ الطّبري؛ هو من الشّعر المنسوب ليزيد ، ولا يصحُّ بأنّه كانَ شَاعِراً مُفلِقاً كما وصفَه الدّكتور حسن إبراهيم حسن في كتابه: «تاريخ الإسلام السياسي ص ٤١٧» ومن قبله قال تيمور باشا عن شعر يزيد: إنّه ممن يحتجُّ بكلامهِ في العربية وأنّه متينُ السَّبْك ، رقيقُ العاطِفة.
إذاً ، فيزيدُ لم يكن منَ الشّعراء المحترفين ، وإنْ أثرَ عنه البيت أو المقطعات الصَّغيرة ، ولذلك نفى ابنُ تيمية جميعَ الشّعر المنسوب إلى يزيدَ بقوله: والديوانُ الشعر الذي يُعْزى إليه عامّته كذب. ولعل الأشعار التي نُسبت إلى يزيدَ صيغتْ فيما بعد ، وذلك للتشويش على أخباره وأخبار والده. والله أعلم بالصَّواب.

فولّاه الحجّ بالمسلمين مرتَيْن ، وأمَّرَهُ على إحدى الصَّوائفِ التي كان يعدّها للغَزْو ، وولّاه قيادةَ الجيشِ الذي غزا مدينة القُسطنطينيّة للمرةِ الأُولى.

* روى يزيدُ عن أبيهِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بهِ خيراً يفقّهه في الدِّين» وروى حديثاً آخر في الوضُوء ، وروى عنه ابنه خالد بن يزيد ، وعبد الملك بن مروان؛ وعدَّهُ أبو زُرعة الدّمشقي في رجالِ الطَّبقةِ العُليا بعد الصَّحابة ، وذكر أنَّ له أحاديث[1].

* ويظهرُ أنَّه كان لميسونَ أثرٌ كبيرٌ في بلاغَة ابنها يزيد ، فقد كان يزيدُ بليغاً فصيحاً خطيباً ، وقد عُدَّ من بلغاءِ النَّاس وأخطبهم وأفصحِهم.

* سُئِلَ سعيدُ بنُ المسيّب: مَنْ أبلغُ النَّاس؟

فقال: رسولُ اللهِ ﷺ.

فقيل: ليسَ عن هذا نسألُك.

قال: معاويةُ وابنُه ، وسعيدُ بنُ العاص بنِ سعيد بنِ العاصي بن أميّةَ وابنه[2].

* وذكرَهُ أبو عثمانَ الجاحِظ منَ الخطباءِ البلغاءِ ، وقد تكلَّم يوماً عنْدَ معاويةَ الخطباءُ ، فأحسَنُوا ، فقال معاوية: واللهِ لأرمينَّهم بالخطيبِ الأشدق! قُمْ يا يزيد فتكلَّم[3].

مَـيْسُـونُ ويَـزِيْـدُ:

* تشير الأخبارُ التي وصَلَتْنا عن يزيدَ بأنَّه كانَ جميلاً ، كثير الشَّعْر[4] ، وكانت أمُّه ميسونُ تحبُّـه محبّـةً شديـدةً ، وكانت معجبة به أيّما إعجاب ، وكثيراً ما كانت تضمُّه إلى صدرِها وتقبّله ، وتنشدُ فيه المقطّعاتِ والأشعارَ

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٢٢٧).

(٢) البيان والتبيين (١/ ٢١٠).

(٣) المصدر السّابق نفسه (١/ ٨٦).

(٤) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٧) بتصرف.

والأرجازَ ، وقد جاءَ في أخبارها المتناثرةِ في بطونِ المصادرِ المُتنَاثِرة ، بأنَّها كانت ترقِّصُ ابنها يزيد وهو صغيرٌ ، وتصِفُه بمحاسنِ المكارمِ ، حيث كانت ترى فيه أنَّه مَعْقدُ الفَضْل ، وأنّه خيرُ شبّان العَرب ، وأكثرهم حلماً ، وأطولُهم يَداً في بذْلِ المعروفِ ، وكانت تفديهِ بنفسها ، وبأبويْها وأهلِها جميعاً ، ومما أُثِرَ عنها قولُها فيه :

إنَّ يــزيــدَ خيــرُ شُبَّــانِ العَــربْ أَحْلَمُهم عنْدَ الرِّضَا وفي الغَضَبْ
يَبْـدُرُ بــالبــذْلِ وإن سَيْـلٌ وهــبْ تَفْـديــهِ نفســي ثــمَّ أُمــي ثــم أَب

وأُسرتي كلّهم مِنَ العَطَبْ[1]

* وعلى نغماتِ العطفِ والحنانِ ، وعلى هَمَساتِ الحبِّ والرعايةِ ، كانتْ ميسونُ تربّي ابنها يزيدَ بن معاوية ، وترقِّصُه على أوتارِ الأشْعار اللطيفةِ وهو صغيرٌ ، وكأنّها تقرأُ في سطور حياتِه أنَّه سيكونُ ذا شَأْنٍ في دنيا الأعْلام .

* ومن هذا المنطلقِ الميمونِ أخذتْ ميسونُ تغذي ابنها بلطائفِ معالي الفضَائل ، وفضائلِ المعالي ، وتُوليه جُلَّ عنايتها لتعدَّ منه فارس المستقبلِ وخليفةَ الغَدِ ، ولعلَّ هذه العِناية تعودُ إلى حُلُم رأَتْه ميسونُ منْ قَبْلُ ، إذ رأتْ في منامِها ـ وهي حاملٌ بيزيد ـ بأنَّه قد خرجَ منها قَمَرٌ ، ولما استيقظتْ ابتهجتْ بهذا الحلْم ، وقصَّتْ رؤياها على أمّها ، فقالت لها : يا ميسونُ؛ إنْ صدقَتْ رؤياكِ هذه لَتَلِدنَّ مَنْ يُبَايَعُ له بالخلافَةِ[2] .

* وولدتْ ميسونُ يزيدَ ، وظلَّ حلْمُها يتراقصُ أمامَها ، فراحت تحفلُ بيزيدَ معظمَ وقتها ، فقد جلستْ يوماً منَ الأيّام ترجِّلُ ابنها يزيدَ وتمشِّطُ شَعْره ، وتزيّنَه ، وتعتني به ، ومعاويةُ وزوجتُه فاخِتَةُ بنتُ قرظةَ[3] ينظران

---

(١) انظر : المنمق في أخبار قريش لابن حبيب (ص ٣٤٩) ، وأغاني ترقيص الأطفال عند العرب .
(٢) انظر : البداية والنهاية (٨/ ٢٣٠) بتصرف يسير؛ وانظر : سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٦) .
(٣) فاخِتةُ بنتُ قرظةَ بن عبد عمرو بن نوفَل القرشيّة ، غَزَتْ مع زوجها معاويةَ بنِ أبي =

إليها ، ويزيدُ وأمُّه لا يعلمانِ بهما ، ولا يشعران بوجودِهما ، في المنظرةِ القريبة منهما في قَصْرِ معاوية؟ فلمّا فرغَتْ ميسونُ منْ ترجيلهِ ، نظرتْ إليه فأعجبَها ، فانكبتْ عليه وقبَّلَتْه بينَ عينيه ، فقال معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ بيتاً منْ شِعْر :

إذَا مَاتَ لَمْ تفْلِحْ مزينةُ بَعْدَه فنُوطي عليهِ يَا مُزَيْنُ التَّمائما[1]

* ومضى يزيدُ ، فأتبعَتْه فاختةُ بنتُ قرظةَ بصرَها حتى غاب عن ناظريها ، فتمتمتْ بكلامٍ ، ثم قالت : لعنَ اللهُ سوادَ ساقَيْ أمِّك . فقال معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ : أما واللهِ على ذاك ؛ إنّه لخيرٌ من ابنكِ عبدِ الله .

فقالتْ فاختةُ : لا واللهِ ، لكنّك تؤثرُ هذا عليه .

* وكانَ لمعاويةَ ولدٌ آخر اسمُه عبدُ الله منْ فاختةَ بنتِ قرظة القرشيّة ، وكان أحمقَ النَّاس ، ولما قال معاويةُ لفاختةَ : إنَّ يزيدَ خيرٌ من ابنك عبدِ الله ، انزعجتْ ولعبتْ بها غيرةُ النِّساء ؛ وأدركَ معاويةُ ذلك فقال : سوفَ أبيّنُ لكِ ذلك حتى تعرفيهِ قبل أنْ تقومي منْ مجلسِك .

* ثمّ إنَّ معاويةَ نادى غُلاماً له فقال : يا غلام ، ادعُ لي عبدَ الله ، فدعاهُ فقال له معاوية : يا بني! إنّي قد أردتُ أنْ أسعِفَك ، وأنْ أصنعَ بك ما أنتَ أهْله ، فَسَلْني ، فلستَ تسألُ شيئاً إلا أعطيتُك ، فما حاجتُك؟ فقال : حاجتي أنْ تشتريَ لي كَلْباً فَارِهاً ، وحماراً فارِهاً ، ولا أريدُ غير هذا! .

فقالَ معاويةُ : يا بني! أنْتَ حمارٌ ، ونشتري لك حماراً؟!!

ثمّ قال له : قُمْ فاخرجْ ، فخرجَ وهو يكادُ يتعثَّرُ .

= سُفيان في خلافةِ عثمانَ بنِ عفّان ـ رضي الله عنه ـ.
كانتْ فاختةُ منْ ربّاتِ العَقْل والرّأي والنّفوذ والمكانةِ في خلافةِ زوجها معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، ويظهرُ أنَّه كان بينها وبينَ ميسون ما كانَ بينَ الضَّرائر . (الحدائق الغنّاء ص ١٢٩ و١٣٠) بتصرف .

(١) انظر البيت في الأغاني (١٧/ ٢١٢).

* والتفتَ معاويةَ إلى أمِّه فاختةَ وقال لها: كيفَ رأيتِ يا بنْت قرظةَ؟! فلم تنبسْ فاختةُ ببنْتِ شَفَة ، ولم تحِرْ جواباً ، ولزمتِ الصَّمتَ.

* وقَطَعَ معاويةُ صَمْتَ فاختةَ وقال: يا غُلام ، ادعُ لي يزيدَ بنَ معاوية ، فدعاهُ ، فقال له معاويةُ: يا بني لقد بدا لي أنْ أعطيَك كلّ ما تسألُني عنه في مجلسِك هذا، وأنْ أوسعَ عليك، وأصنعَ بك ما أنْتَ أهلُه، فاسألْ ما بَدا لك.

* هنالك خرَّ يزيدُ ساجداً ، ثمّ قال حينَ رفعَ رأسه: الحمدُ لله الذي بلَّغَ أميرَ المؤمنين هذه المدّة ، وأراهُ فيَّ هذا الرّأي ، حاجَتي أنْ تَعْقِدَ لي العَهْدَ منْ بعدك ، وتوليني هذا العامَ صائفةَ المسلمينَ ، وتحسن جهازي وتقوّيني ، فتكون الصَّائفةُ أوّلَ أسْفَاري ، وتأذن لي في الحجّ إذا رجعتُ منَ الغَزْوِ[1] ، وتوليني الموسمَ ، وتزيدُ في عطاء أهْل الشَّام عَشْرَة دنانير لكلّ رجلٍ منهم ، وتجعل ذلك بشَفاعتي ، وتفرض لأيتام بني جمح ، وأيتام بني سَهْم ، وأيتام بني عدي ، فريضة من العطاء.

فقال له معاويةُ: يا يزيد ، مالك ولأيتامِ بني عدي؟

قال يزيدُ: يا أبتِ ، إنّهم حالفُوني ، وانتقلوا إلى داري وجاوروني.

فقال معاويةُ: قد فعلتُ ذلك بك ـ إذا رجعتَ ـ وقبَّل وجْهَه.

* وبَعْدَ ذلكَ قالَ معاويةُ لفاختةَ بنتِ قرظةَ: كيفَ رأيتِ ابنَ ميسونَ؟

قالتْ: يا أميرَ المؤمنين؛ أوْصِهِ بي ، فأنْتَ أعْلَمُ بهِ منّي ، فَفَعَلَ معاويةُ ذَلك[2].

---

(١) ولّى معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ ابنه يزيدَ قيادة أوّل جيشٍ غزا القُسطنطينية ، وهذه منقبةٌ عظيمةٌ ليزيد ، فقد روى البخاريُّ أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «أوّلُ جيشٍ يغزو مدينةَ قَيصر مغفورٌ لهم». ولما رجعَ يزيدُ من هذه الغزوةِ حجَّ بالنَّاس وكان ذلك سنة تسع وأربعين ، أو سنة خمسين ـ من الهجرة ـ. (البداية والنهاية ٨/ ٢٢٩).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٨/ ٢٣٠) ، والجليس الصالح الكافي (٢/ ١٣٦ و١٣٧) مع الجمع والتصرف.

* وذكرَ المعافى بنُ زكريا نهايةَ هذا الخبرِ بروايةٍ أخرى ، لا تُظْهِرُ عبدَ اللهِ ابنَ معاوية بهذهِ الصُّورةِ المُزْرِيةِ ، بل فيها إنصافٌ ، يقولُ المعافى : قَدْ روَيْنا هذا الخبرَ منْ طريقٍ آخر وفيه : أنَّ عبدَ اللهِ سألَ مَالاً وأرضاً ، وأنَّ يزيدَ قال لمعاوية : أعْتِقْنِي مِنَ النَّار أعْتَقَ اللهُ رقَبَتَكَ منَ النَّار .

فقالَ له : وكيفَ؟

قال : لأنِّي وجَدتُ في الأثَر أنَّه «مَنْ تَقَلَّدَ أمْر الأُمَّةِ ثلاثةَ أيّامٍ حرَّمَه اللهُ تعالى على النَّار» ؛ فاعْهَدْ إليَّ مِنْ بَعْدِك[1] .

* ولعلَّه منَ المفيدِ هنا أنْ نشير إلى أنَّ عبدَ اللهِ بنَ معاوية لم يكُنْ غبياً وبسيطاً كما تصوِّره بعضُ الرِّوايات ، ولعلَّه لم تكنْ له همّةٌ قَعْساء كهمّةِ أخيهِ يزيدَ بنِ معاوية ، ولذا فإنَّه لم يشتهرْ شهرةً كبيرةً في عالم المشَاهير ، والظَّاهر أنه كانَ لا يحبُّ الظُّهور ، قليل الشَّأن ، لا يطمحُ إلى المناصبِ والقيادةِ العَسْكريّةِ ، ولكنْ كانَتْ له مكانَتُه في بيتِ الخلافةِ ، ولذَا فإنّنا نَجِدُ الأخطلَ يمدحُه بعراقتِهِ وكرمهِ في قصيدةٍ طويلةٍ مطلعُها :

صَـدَعَ الخَلِيْـطُ فَشـاقَنـي أجْـوَاري ... ونَـــأَوْكَ بَعْـــدَ تَقَـــارُبٍ ومَـــزَارِ

* ومن ثَمَّ يمضي في قصيدتِهِ ذاكِراً الرَّحيلَ والظَّعائِنَ إلى أنْ يخْلصَ إلى مَدْحِ عبدِ اللهِ بنِ معاويَة فيقُولُ :

ولَقَدْ حلفْتُ بربِّ موسى جَاهداً ... والبَيْـتِ ذي الحُـرمَـاتِ والأَسْتَـارِ

لأُحَبِّـرنْ لابـنِ الخَليفـةِ مِـدحَـةً ... ولأقـذِفَـنَّ بِهَـا إلـى الأمْصَـارِ

قَـرْمٌ تمهَّـلَ فـي أميّـة لـم يَكُـنْ ... فيهـا بـذي أُبـنٍ ولا خَـوّارِ

بُـنِيَـتْ قَنـاتُـكَ منْهُـمُ فـي أسـرَةٍ ... بيـضِ الـوجـوهِ مَصـالـتٍ أخيـارِ

---

(١) انظر : الجليس الصالح الكافي (٢/ ١٣٧) .

جُهَـراءُ للمعـروفِ حيـنَ تـراهُـمُ حُلمـاءُ غيـرُ تَنَـابـلٍ أشْـرارِ
قـومٌ هـمُ نـالـوا التَّمـام وأزْحَفَـتْ عنـه مَـذَارِعُ آخـريـنَ قِصـارِ

* ويختمُ الأخطلُ قصيدتَه بامتداحِ عبدِ اللهِ بنِ معاوية الذي أنقذَه منْ مصائبِ الفَقْر بكرمِه ونوالهِ فيقول :

ولَقَـدْ أُنَـاجـي النَّفْـسَ لمـا شفَّهـا خَـوفُ الجنَـانِ ورَهْبَـةُ الإقْتَـارِ
بـأبـي سُلَيمَـانَ الـذي لـولا يَـدٌ منْـهُ عَلِقْـتُ بِظَهْـرِ أحْـدَبَ عَـارِ
لـولا فَـواضِلُـه غُـداةَ لَقيتُـهُ بِـالجُـدّ شَـابَ مَسَـايحـي وعِـذَاري
مـنْ مَعْشَـرٍ حنيقيـنَ لـولا أنتُـمُ يابنَ الخليفةِ ما شَدَدْتُ إزاري[1]

* وفي قَصيدةٍ أخرى يمدحُ الأخطلُ عبد اللهَ ويزيدَ ابني معاوية لحمايتِهما له ، وإغداقِ الأموالِ عليه ، ثمّ يخصُّ عبدَ الله بالمديحِ ، ويصفُ كرمَه وشمائِله .

* ومما مدَحَ به عبدَ الله ويزيدَ قوله :

يـابْـنَ القـريعيْـنِ لـولا أنَّ سَيْبَهُـمُ قَـدْ عَمّنـي لـم يُجْبِنِـي داعِيـاً أحَـدُ

---

(١) انظر : ديوان الأخطل (ص ٣٩ ـ ٤٤) باختصار . دار الكتاب العربي ـ ط١ ـ ١٩٩٢م .
و«صدع» : تفرّق . و«أجواري» : الجيران . و«أحبرن» : أنظم وأكتب . و«أقذفن» : أرسل . و«قرم» : فحل ، و«أَبَن» : اعوجاج ، و«خوار» : ضعيف ، و«مصالت» : أقوياء أشداء . و«جُهَراء» : معلنون . و«تنابل» : خاملون . و«أزحفت» : عدلت . و«مذارع» : جمع مذراع ، وهي قوائم الدابة . و«شفّها» : أضناها وأتعبها . و«الإقتار» : الحاجة والفقر . و«أبو سليمان» : كنية عبد الله بن معاوية . و«أحدب» : المقصود به : الزمان المقحط ، وقد شبّهه بالبعير الأحدب . و«الجدُّ» : اسم موضع . و«مسايحي» : جمع مسيحة ، وهي الذؤابة . و«عذاري» : مؤخر الرأس . و«حنقين» : غاضبين . و«شددت إزاري» : المقصود : ساعدتني .

أنْتمُ تـداركتمُـوني بَعْـدَما زَلَقَـتْ نَعْلِـي وأُخْـرِجَ عـن أنيـابِـهِ الأسَـدُ
قومٌ إذَا أنْعَمُوا كانَتْ فواضِلُهُمْ سَيْبـاً مـنَ اللهِ لا مَـنٌّ ولا حَسَـدُ

* ثم يخصُّ عبدَ اللهِ بالمديحِ ويتحدَّثُ عن جُودِهِ فيقول:

لقَـدْ نـزلْـتُ بعبـدِ الله مَنْـزلـةً فيهـا عَـنِ الفَقْـر مَنْجـاةٌ ومُنْتَفَـدُ
كـأنَّـهُ مـزْبِـدٌ ريّـانُ مُنْتَجَـعٌ يَعْلُـو الجَزَائِـرَ في حـافـاتِـهِ الـزَّبَـدُ
سهْلُ الشَّرائِعِ تَرْوي الحائماتُ بهِ إذا العِطَاشُ رأوا أوْضاحَهُ ورَدُوا[1]

مَـيْسُـونُ وَمـعَـاوِيَـةُ وأخْـبـارٌ وطَـرَائِـفُ:

*كانَ لميسونَ بنتِ بحدل مكانةٌ كبيرةٌ عند معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ، فقد عُرِفَتْ ميسونُ بالعَقْلِ والذّكاء اللذَيْن كانا يزيّنان حُسْنَها وملاحتَها ، وكان معاويةُ يعرفُ قَدْرها ، ويحترمُ رأْيَها ، حيث كانتْ عاقلةً فصيحةً أديبةً حازمةً ، استطاعتْ أن تلجَ تاريخَ الـفُضْليات منْ أرحبِ الأبوابِ ، وأنْ تتركَ بصمَاتِها على جبينِ التَّاريخ ، وكانتْ مع هذا كُلِّه ذات رياسةٍ ودِيْنٍ؛ ذكرَهَا الحافظُ ابنُ كثير وأثنَى عليها بقوله: كانتْ حازمةً عظيمةَ الشَّأْنِ جَمالاً ورياسةً وعَقْلاً ودِيْناً[2] .

* وفي تاريخهِ شَهد لها ابنُ عساكر بالذّكاء فقال: وكانتِ امرأةً لبيبةً[3] .

* ولم يقـف ابنُ عسـاكر عنـد هـذا ، بل قـال عَنْهـا: زوجُ معاويـةَ بـن

---

(١) انظر: ديوان الأخطل (ص ٤٩ ـ ٥١) باختصار.
و«القريعين»: القريع: الفحل وهنا السَّيد. و«سيبهم»: عطاؤهم. و«زلقت»: تعثـرت. «منتفـد»: الاستغنـاء عـن النـاس. و«المـزبـد»: الفـرات إذ يفيـض. و«الشرائع»: جمع الشريعة ، وهي الطريقة المؤدية إلى الماء. و«الحائمات»: الطيور الحائمة على الماء. و«الأوضاح»: المسالك.
(٢) البداية والنهاية (٨/ ١٤٨).
(٣) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء من ٣٩٧).

أبي سفيان ، وأمُّ يزيدَ بنِ معاوية ، روتْ عن معاوية[1] ، وروى عنها محمّدُ بنُ عليّ[2] .

* وأخرجَ ابنُ عَساكر منْ مروياتها بسنَدِه عن محمَّد بنِ عليّ ، عن ميسونَ بنتِ بحدل امرأة معاوية ، عن معاوية أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : «سيكونُ قومٌ ينالُهم الإخْصَاء ، فاستوصوا بهم خَيراً»[3] .

* وعلينا ألاّ نَنْسى أنَّ ميسونَ زوجُ صحابي كريم ، وممن روى الحديثَ عن الصَّحابة . قال الصَّاغاني : وهيَ منَ التَّابعيّات[4] .

---

(١) انظر : تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٣٩٧) ، وانظر كذلك الحدائق الغناء في أخبار النساء (ص ٣٤) .

(٢) محمدُ بنُ علي ـ هذا ـ؛ لعلّه محمدُ بنُ عليّ بن أبي طالب الهاشميّ ، أبو القاسم المدنيّ ، المعروف بابن الحنفيةِ ، والحنفيّةُ أمُّه ، وهي خولةُ بنتُ جعفر بن قَيْس من بني حنيفة ، سُبيت في الردّة منَ اليمامة .
روى ابنُ الحنفية عن أبيهِ وعثمانَ وعمّار ومعاويةَ وأبي هُريرة وابن عبّاس ـ رضي الله عنهم ـ ودخل على عمرَ .
روى عنه أولاده : إبراهيمُ ، والحسنُ ، وعبد الله وعمرُ وعونٌ ، وابنُ أخيه محمّد ابن عمر بن عليّ ، وحفيد أخيه ، وابن أخته ، وعطاء بن رباح ، وآخرون .
قال العجلي عنه : تابعي ثقة ، كان رجُلاً صالحاً يكنى أبا القاسم . وقال إبراهيمُ بنُ الجنيد : لا نعلمُ أحداً أسندَ عن علي ، ولا أصحّ مما أسندَ محمّد . وقال ابن حبّان : كانَ منْ أفاضلِ أهل بيته . قيل : إنّه ولد في خلافةِ أبي بكر ، وقيل : في خلافة عمر ، وتوفي سنة (٧٣ أو ٨٠ أو ٨١هـ) بالمدينةِ ، وقيل غير ذلك ، وكان واسعَ العلمِ ورعاً ، أسودَ اللون ، وأخباره كثيرة منثورةٌ في المصادر . (تهذيب ٧/ ٣٣٣ و٣٣٤) ترجمة رقم (٦٤٠٩) بتصرف واختصار .

(٣) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٣٩٧) ، وهذا الحديث منكر جداً ولا يصحُّ .

(٤) انظر : تاج العروس للزبيدي (٤/ ٢٥٣) . ومنَ العجيبِ أنْ نجدَ الدكتور شوقي ضَيْف يتحدّث عن ميسون وابنها يزيد ، وأنّهما يحبّان الموسيقا ، وأنّهما من ذوي الذّوق والتذوّق الموسيقيّ فيقول : إنَّ يزيدَ بنَ معاوية كان له ذوقٌ موسيقيٌ ، وهو ابن ميسونَ بنت بحدل الكلبيّة ، وكانت تنظمُ الشّعر ، وقد رفضتْ معيشة دمشقَ كما يقولُ الرواة ، وآثرتْ عليها البادية ، ونشأ ابنها على غرارها يحبُّ الشّعر ، =

* إذاً ، فميسونُ منَ الطَّبقةِ العُليا منَ النِّساء في عَصْر التَّابعين ، إذْ رأتْ زوجَها؛ وهو صحابيٌّ ، وروتْ عنه ، ولعلَّها قد رأتْ عَدداً منَ الصَّحابةِ والصَّحابيّات ونساءِ الصَّحابةِ في عَصْرها؛ وهذا يدحضُ أقوالَ الذين يكابرونَ ويصرُّون بأنَّ ميسونَ كانت وظلَّت نَصْرانية[1] .

= وكان يحبُّ الغناء ، ويطربُ للموسيقا ، وقد طلبَ المغنين من المدينةِ ، فذهبتْ إليه عزّة الميلاء. . . . .ثمّ يقول: وهذه الصِّلةُ بينَ الخلفاءِ في دمشقَ وبينَ المغنّين والمغنيات في الحجاز ، كانت تؤذن بانتصارِ صحيفة الغزل في هذا الإقليم الذي دخلته ، إقليم الشّام. (الشعر والغناء في المدينة ومكة من ١١٠ و١١١).
ومع احترامنا لما قاله الدكتور شوقي ضيف ، فإنّ كلامه يخالفُ حقائقَ التّاريخ ، ولا يُعول عليه ، وإنَّ المتمرسَ في أخبار الخلفاء يدرك زيفَ ما قاله شوقي ضيف.

(١) منْ ذلكِ ما ذكرَهُ الدكتور سَجيع جميل الجُبَيلي إذْ قال: إنَّ معاوية استطاعَ أنْ يمتلك قلوبَ السُّوريينَ عندما تزوّج ميسونَ بنتَ بحدل الكلبيّ التي كانتْ نصرانيّةً ، وعلى مذهب اليَعاقبةِ ، وليسَ غريباً أن يكونَ معاويةُ قد تثقَّفَ ثقافةً دينيّةً مسيحيّةً من جرّاء معاشرته لزوجِهِ ، أو من جرّاءِ مستشاريهِ المسيحيين. (البيت السُّفياني في الشعر الأموي ص١٥٢). والتّضليلُ واضحٌ وضوحَ الشّمْس في كلامِ الجُبيلي هذا ، وتزويرُ الحقائقِ لا يخفى على ذوي الألباب.
ويتابعُ الجُبيلي هذا رحلةَ التّضليل والتَشويش عن معاويةَ وابنه يزيد وأمّه ميسون فيقول: والأرجحُ أنَّ معاويةَ لم يكنْ يستطيعُ الاعتزالَ والابتعادَ عن دُنيا النّاس ، وهو القائدُ الموهوب ، والمفكرُ الواعي ، تلافياً لحدوثِ مشاكلَ ومتاعبَ بين أبناء دولته ، وإمعاناً في التّقرّبِ منَ المسيحيين ، وسلوك مَسلك المؤمنين منهم ، وقد عَمِل مِراراً على ترميمِ كنيسةٍ مسيحيّةٍ في الرُّها هدمَها الزلزال ، وهل بإمكاننا أنْ نحكمَ على معاويةَ بالغباوةِ عندما دفعَ ابنه يزيد المرشّح للخلافةِ إلى العيش في كنفِ أمّهِ في بادية تدمُر حيث قبيلتها المسيحيّة تتنقلُ لينشأ بينَ أخواله نشأةً بدوية ، حيث تعلّم الصَّيدَ والفروسيّة ، وألِفَ اللهوَ والشراب والشّعر؛ أمَا كانَ يخافُ عليه من تلقينِ مبادىء النَّصرانية ، ويتشربُ تقاليدَ المجتمع المسيحيّ ، ويتزودُ بالثّقافة الرُّوحية المسيحية الشائعة آنذاك ، وفي الوسَطِ الذي يحيا فيه. (المرجع السَّابق نفسه من ١٥٢). ومن الواضح أنَّ هذا الكلام يخالفُ حقائقَ التّاريخ وأصوله ، والتّدليس واضح فيه وضوح الشّمْس في رائعة النهار.

* ومنْ طرائفِ أخبارِ ميسون ، ما ذكرتْهُ المصادرُ المتعدّدة عن فَهْمِها وحسنِ تصرّفها ، حيثُ استترتْ من خَصيّ كان لزوجها معاوية ، وبذلك ظهرَ فَضْلُها والتزامُها.

* روى الجاحِظُ وابنُ عساكر وأبو الحسن المالقيّ وغيرُهم أنَّ معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ قد دخَلَ على ميسون يوماً ، ومعه خديج الخصيّ ، فاستترتْ منه وقالت: ما هذا الرَّجُل مَعَك؟

قال معاويةُ: إنَّ هذا بمنزلةِ المرأةِ ، وإنَّه خصيٌّ ، فَعَلاَمَ تستترينَ وتتوارينَ منْه ، اظهري عليهِ فلا بأْسَ بذلك.

فقالتْ له ميسونُ: كأنَّك ترى أنَّ المُثْلَةَ أحلَّتْ له منّي ما حرَّم اللهُ عليه.

* وفي رواية أنَّها قالتْ: أترى أنَّ المُثْلةَ تحلّ ما حرَّم الله عليه؟ ثم حجبَتْه عنها[١].

* ومن أخبارِ ميسونَ معَ معاويةَ ما ذكرتْهُ أُمَّاتُ المصادر عن فِراستها العجيبةِ ، وتفوّقها على غيرِها منَ النِّساء في الذّكاء واستكْناهِ الأحْداثِ ، فقد ذكرُ ابنُ عَسَاكر وغيرُه قالوا: لما تزوَّج معاويةُ نائلةَ بنتَ عمارة الكلبيّة ، قال

---

(١) انظر: الحيوان للجاحظ (١/ ١٧٧) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٣٩٧) ، والحدائق الغناء (ص ٣٤) مع الجمع والتصرف ، وانظر: البداية والنهاية (٨/ ١٤٨) ، وبهجة المجالس للقرطبي (٢/ ٤٥) وغيرها. والحقيقة في النّفس شيءٌ من هذه القصّة ، حيث إنّ سيّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ يُعَدُّ من فقهاء الصَّحابة ومن علمائهم ، ولا تخفى عليه أمثالُ هذه الأحكام البسيطة.
ومن العجيب أنَّ هذه القصّة قد نُسِبَتْ في بعضِ المصادر إلى فاختة بنت قِرظة ، فقدِ ذكر عمر رضا كحالة أنَّ معاوية دخلَ ذات يوم على امرأتهِ فاختة ومعه خصيٌّ ، وكانت مكشوفة الرأس ، فلمّا رأَتْ معه الخصي غطّتْ رأسَها ، فقال لها معاوية: إنّه خصي! فقالت: يا أميرَ المؤمنين ، أترى المُثلة به أحلَّتْ ما حرَّمَ اللهَ عليه.
فاسترجعَ معاوية ، وعلم أنَّ الحق ما قالته ، فلم يُدْخِلْ بعد ذلك على حرمهِ خادماً ، وإنْ كان كبيراً فانياً. (أعلام النّساء ٤/ ١٨).

لميسون: انطلقي فانظريْ إلى ابنةِ عمّك هذه ، فدخلتْ ميسونُ ونَظَرتْ إليها؛ ولما عادتْ قال لها معاويةُ: كيفَ رأَيْتِها؟

قالت: ما رأيتُ مثْلَها وهي واللهِ جميلةٌ كاملةٌ ، ولكنْ رأيتُ تحتَ سرّتها خَالاً ليوضَعَنَّ رأسُ زوجها في حِجْرِها.

* فتطيَّر معاويةُ منْ ذلك ، وطلَّقها. فتزوَّجها حبيبُ بنُ مسلمةَ الفِهْريّ ، ثمَّ خَلَفَ عليها بَعْده النُّعْمانُ بنُ بشير الأنصاريّ ، فقُتِل ووُضِعَ رأْسُه في حِجْرِها[1]. وبذلك حَدَث ما توقَّعَتْه ميسون ، وكانتْ فِراستُها صائبةً . !!.

* وكانَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ يلبّي رغباتِ زوجتِهِ ميسون ، وكثيراً ما كان يجلسُها بمجلسٍ قريب منه ، بحيثُ تسمعُ كلامَ الوافدين عليه ، وتُعطي أحياناً رأيها في أقوالِ البُلغاء ، والفُصَحاء ، وأهلِ المعرفة.

* ذكرَ صاحِبُ التّذكرة الحمدونيّة ، ما مفادُه قال: دخلَ الأحنفُ بنُ قيس التّميمي على معاويةَ بن أبي سُفيان ـ رضي الله عنهما ـ فذكرَ أهلَ العراق ، وحُسْنَ آرائِهم ، وميسونُ بنتُ بحدل الكلبيّة ، أمُّ يزيد تسمعُ كلامَهم ، فلما انصرفَ قالت: يا أميرَ المؤمنين ، أحببتُ أنْ تأذنَ لقوم من العراقِ عليك ، وتجعلنُي بحيثُ أسمعُ كلامهم.

فقال لآذنِه: انظرْ مَن بالبابِ.

فقالَ له: بنو تميم.

فقالَ: أدخلْهم ، وفيهم الأحنفُ.

فقالَ له معاوية: اقربْ أبا بَحْر.

* وضربَ لميسونَ قبّةً بحيث تسمع كلامَهم ومحاوراتهم.

---

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٠٣) ، والبداية والنهاية (٨/ ١٤٨) ، وتاريخ الطبري (٣/ ٢٦٤) ، والحدائق الغناء(ص٣٦ و٣٧) ، والأغاني (١٦/ ٤٧ و٤٨) ، وأعلام النساء (٥/ ١٤٥ و١٤٦).

ثمّ إنَّ معاوية أخذَ يسألُ الأحْنَفَ عدداً منَ الأمورِ ، والأحنفُ يجيبُه عنها ببلاغةٍ وفصاحةٍ وحسْن خِطَاب؛ إلى أنْ قالَ له معاويةُ: يا أبا بَحْر ، لقد أحْسَنْتَ الجوابَ ، فَسَلْنِي حاجتَك.

فقال: حاجَتي يا أميرَ المؤمنين أنْ تتّقي الله في الرّعية ، وتعدلَ بينهم بالسَّويّة[1].

* ثمَّ إنَّ الأحنَف نهضَ ، وخرجَ ، فلما ولّى قالتْ ميسونُ: لو لم يكن بالعراقِ إلا هذا لكفاهم[2].

حَنيْنُهَا إلى مَرَاتِعِ الطُّفُولَةِ:

* لئنْ عاشتْ ميسونُ في القصور حياةَ الحضارةِ والدَّعَةِ ، على السُّررِ المرفوعةِ المُتقابلةِ ، والأكوابِ الموضوعةِ المتماثلةِ ، تتنعَّمُ بالنَّمارقِ المصفوفةِ ، والزّرابي المبثوثة ، لقد كرهتْ ذلكَ وضاقَتْ نفسها بالتَّمديُنِ والمَدنيّة ، وعافتِ الحضارةَ المجلوبةَ ، ففي البداوة حُسْنٌ غيرُ مجلوب ، وفيها الحرية ، أمّا حياةُ القصور فقد رأتْ فيها سِجْناً لها ، وهي التي لم تتعودْ أنْ تَجِدَ نفسَها بين الجُدران المزيّنَة ، ولكنّها أَلِفَتِ الفضاءَ الرَّحْبَ في الباديةِ ، وحنَّتْ إليه ، وليس هذا بغريبٍ عليها وعلى غيرِها وأمثالِهنَّ ، فقد نشأتْ نشأةً بسيطةً ، وتعوَّدَتْ حياةَ البدو ، فلكلّ امرىءٍ من دَهْرِه ما تعودا ، نعم...

وينْشَأُ نَاشِيءُ الفِتْيانِ فيْنَا ... على ما كَان عَوَّدَه أَبُوهُ

* ولعلَّ ميسونَ كانتْ تُبدي ما في نَفْسِها من ضيقٍ بحياةِ القُصورِ ، وتتذكّرُ مراتعَ صِباهَا في باديةِ الشَّامِ ، وتتذكَّر أوطانَها فتشعرَ بالحنينِ يملأُ جوانحها ،

---

(١) في هذا القولِ تعريضٌ بمعاويةَ ـ رضي الله عنه ـ ونعتقدُ أنَّه مصنوعٌ موضوعٌ ، وهناك كثيرٌ من الأخبارِ ينبغي أنْ يقفَ الباحثُ أمامَها موقفَ الفاحصِ لكيلا نسيء فَهْم أعلام أمتنا العظيمة من النِّساءِ والرّجال.

(٢) انظر: التذكرة الحمدونية (١/ ٣٧٢ و٣٧٣) بتصرف واختصار.

ويغلِّفُ قلبَها ، لأنَّها نشأَتْ وترعرعتْ في تلكم الرَّوابي الجميلة ، التي قَضَتْ شَطْراً من حياتها الأولى هنالك :

وحبَّبَ أوْطَانُ الرِّجالِ إليهمُ ... مآربُ قَضَّاهَا الشَّبابُ هُنالكا
إذَا ذكَروا الأوْطَانَ ذكّرتهم ... عُهودُ الصِّبا فيها فحنُّوا لذلكا

* لقد كانتْ باديتُها ذاتَ ذكرى عظيمةٍ في نفسِها فهي :

بِلادٌ بها نِيْطَتْ عليَّ تمائِمي ... وأوَّلُ أرضٍ مسَّ جلْدي تُرابُها

* وغلبَ الحنينُ إلى الباديةِ ميسونَ بنتَ بحدل الكلبيّة ، فضاقتْ ذرعاً بحياتِها الرغيدةِ ، وبكلِّ ما حولَها ، فقد ذكرَ الدُّميريّ أنَّ معاوية ـ رضي الله عنه ـ قد هيّأ لميسونَ قَصْراً مُشْرِفاً على الغُوطة ، وزيَّنه بأنواع الزَّخارف ، ووضعَ فيه منْ أواني الفضّة والذَّهْب ما يضاهيهِ ونقلَ إليهِ منَ الدَّيباج الرُّومي الملوَّنِ والموشّى ما هو لائقٌ به ، ثم أسْكنها مع وصائفَ لها كأمثال الحورِ العِين ، فلبِسَتْ يوماً أفخرَ ثيابها ، وتزيَّنَتْ وتعطَّرَتْ بما أعدَّ لها من الحلي والجوهرِ الذي لا يُوجدُ مثله ، ثمّ جلستْ في روشنِها ـ شرفتها ـ وحولها الوصائف ، فنظرتْ إلى الغوطةِ وأشجارِها ، وسمعتْ تجاوبَ الطَّيرِ في أوكارِها ، وشمَّتْ نسيمَ الأزْهارِ ، وروائِحَ الرَّياحين والنَّوار ، فتذكرتْ باديتَها ، وحنَّتْ إلى أترابِها وأناسِها ، وتذكَّرتْ مسْقَط رأسِها ، فبكتْ وتنهدَّتْ ، فقالتْ لها بعضُ حظاياها : ما يبكيكِ وأنتِ في مُلْكٍ يُضَاهي مُلْكَ بلقيس؟ فتنفَّسَتِ الصُّعداء ، ثمَّ أنشدتْ :

لَبَيْتٌ تخفقُ الأرْوَاحُ فيه[1] ... أحبُّ إليَّ منْ قَصْرٍ مُنيفِ
وأصواتُ الرِّياحِ بكلِّ فجٍّ ... أحبُّ إليَّ منْ نَقْرِ الدُّفُوفِ
وكلبٌ ينبحُ الطُّرَّاقَ عنّي ... أحبُّ إليّ منْ هِرّ ألوفِ

---

(١) «الأرواح» : الرِّياحُ ، جمعُ ريح ، وياء الريح والرِّياح منَ الواو ، والأصل : روح ورواح ، وإنما قُلبت ياء لسكونها ، وانكسار ما قبلها ، وهو إبدالٌ مطرد ، ولذلك لما زال موجب قَلْبها رجعت إلى أصلها فقيل أرواح؛ ويغلبُ عليها الخير في الجمع ، والشرّ في المفرد.

وبكـرٌ يَتْبَـعُ الأَظْعَـان صَعْـبٌ ... أحـبُّ إلـيَّ مـنْ بَغْـلٍ زَفُـوف[1]
ولبـسُ عبـاءةٍ وتقـرَّ عينـي ... أحبُّ إلـيَّ مـنْ لبسِ الشّفـوف[2]
وأكـلُ كُسَيـرةٍ فـي كسْـرِ بيتـي ... أحـبُّ إلـيَّ مـنْ أكـلِ الـرَّغيـف[3]
وخِـرقٌ مـنْ بنـي عمّـي كـريـمٌ ... أحـبُّ إلـيَّ مـنْ علْـجٍ عَليـفِ[4]
خُشُونةُ عيشتي في البدو أشهى ... إلـى نفسـي مـنَ العيشِ الظَّـريـفِ
فمـا أبْغـي سـوى وطنـي بـديـلاً ... فحسبـي ذاكَ مـنْ وطـنٍ شـريـفِ

* فلما بلغتِ الأبياتُ معاويةَ قال: ما رضيتْ ابنةُ بَحْدل حتى جعلْتني عِلْجاً عَلوفاً! ثمَّ فارقَها وسيَّرها إلى أهلِها في الباديةِ ، فأخذتْ معها ابنها يزيد ، فنشأَ في باديةِ بني كلْب إلى أنْ كبَر ، وأضحى فصيحاً شَاعِراً[5] .

---

(١) «البكر»: الفتي من الإبل. و«زفوف»: مسرع.

(٢) «الشّفوف»: جمع شِف بكسر السّين وفتحها ، وهو الثّوب الرّقيق ، سُمّي بذلك لأنّه يشفُّ ما وراءه. والمعنى: إنَّ لبسَ عباءةٍ بسيطةٍ مع راحةِ النّفس وسكينتها ، أحبّ إلى قلبي منْ لبْس الثياب الغالية الشفّافة التي تدلُّ على الرّفاهية والدّعة وبحبوحة النّفس.
وهذا البيتُ الشهيرُ منْ شواهدِ النّحاة في كتبُهم ، فهو منْ شواهدِ سيبويه (١/ ٤٢٦) وابن عقيل (٢/ ١٢٧) ، والخزانة (٣/ ٥٩٢) ، والمغني في مواضع برقم (٥١٦ و٦٧٠ و٨٦٤ و٩٤٨) وغيرها كثير.
أمّا موطنُ الشّاهد في البيتِ فقولُ ميسون «وتقرَّ» ، وأمّا وجْهُ الاستشهاد: فهو نصب الفعل تقرّ بأنْ مضمرة بعد الواو. وحكم هذا الإضمار الجواز ومَنْ أراد الزّيادة في هذا المجال ، فليراجع كتب النّحاة وأقوالهم.

(٣) «الكُسَيرة»: القطعة من الخبز.
و«الكسر»: طرف الخباء منَ الأرض.

(٤) «الخِرق»: الفتى السّمح الكريم. «العِلج»: الشّديد وبه سُمّي حمار الوحش.

(٥) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٠٠ و٤٠١) ، وشاعرات العرب (ص ٣٩٦ و٣٩٧) وحياة الحيوان (٢/ ٢١٢) ، والتّذكرة الحمدونية (٧/ ٤١٦) ، وخزانة الأدب (٣/ ٥٩٢ و٥٩٣) ، والحدائق الغنّاء (ص ٣٥) ، والرّوضة الفيحاء (ص ٢٦٠ و٢٦١) ، وأعلام النّساء (٥/ ١٣٦ و١٣٧) وغيرها كثير.
=

* وذكر صاحبُ «الخِزَانةِ» أنَّ ميسونَ كانتْ بدويةً ، فضاقَتْ نفسُها لمّا تَسَرّى عليها معاويةُ ، فَعَذَلَها على ذلك ، وقال لها : أنتِ في مُلْكٍ عظيمٍ ، وما تدرينَ قَدْرَه ، وكُنْتِ قَبْلَ اليومِ في العباءَةِ! فقالت هذهِ الأبيات . . . . فلمّا سَمِعَها قال لها : ما رضيتِ يا بنةَ بَحْدل حتى جعلتِني عِلْجاً عليْفاً ، فالحقي

= ـ ونحنُ بدورِنا يساورنا الشّكُّ في صحّةِ هذه الأبيات ونسبتها كلّها لميسونَ بنت بحدل ، وخصوصاً الأبيات الأربعة الأخيرة ، حيثُ تظهر ركاكتها ، بل ويظهرُ التّكلُّف والوضع فيها.

ـ ومن ناحيةٍ أخرى فقد اختُلِفَ كثيراً في هذهِ الأبياتِ ونُسبت لعددٍ كبيرٍ من شعراءَ مغمورين ، أو شواعر مغمورات ، فقد جاء في «بلاغات النّساء» ثلاثة أبيات فقط ، ونسبها إلى امرأةٍ من ولد طلبة بن قيس بن عاصم المنقري ، وكانت قد تزوَّجَتْ يزيد ابن هبيرة المحاربي ، وهو أوّلُ أمير وليَ اليمامة لعبد الملك بن مروان ، فقالت في زوجها يزيد هذه الأبيات . . . . انظر (بلاغات النّساء ص ١٦٠) طبعة الكويت.

كما أنَّ هذه الأبيات تُروى لأعرابي وأولها :

لضَأنٌ ترتع الذّكْران حَوْلي أحبُّ إليَّ منْ بقرَ علوفِ
وشربُ لُبينةٍ وتطيبَ نفسي أحبُّ إليَّ منْ أكلِ الرّغيفِ

انظر (التذكرة الحمدونية ١/ ٣٧٢ و٣٧٣).

ـ ثمَّ إنَّ ميسونَ العاقلةَ الفصيحةَ لا يمكن أنْ تَصِفَ زوجَها ، وهو مَلكُ الدنيا في طولها والعرض آنذاك وتقولُ عنه بأنّه علجٌ عليفٌ؟! وهذا البيت بالذّات ليس فيه من البلاغةِ والقوة مثل قولها :

ولبس عباءة وتقرَّ عيني أحبُّ إليَّ من لبس الشّفوف

ولذلك تظهرُ من الأبيات رائحةُ الوضع والصّنعة ، أضفْ إلى ذلك أنَّ هذا البيت يُروى على النحو التالي :

لأمردَ من شبابِ بني تميم أحبُّ إليَّ من شيخ عفيف

(لسان العرب ١٣/ ٤٠٨).

ويضافُ إلى ذلكَ كلِّه اضطراب الرّوايات واختلافها ، واختلاف القصص والأحاديث الواهية لإثبات القصة.

بأهلك ، فطلَّقَها ، وألْحقَها بأهلِها ، وقال لها: كنْت فَبِنْتِ. فقالت: لا واللهِ ما سرِرْنا إذْ كُنَّا ، ولا أسِفْنا إذْ بِنَّا[1].

* ولعلَّه منْ نافلةِ القَول أنْ نشيرَ إلى أنَّ هناك قَصَصَاً كثيرةً في تاريخِ حَنينِ النّساء إلى مدارج صباهنَّ ، فقد روى الشَّيخ محيي الدِّين بن عربي قصّةَ أعرابيةٍ تشبه تماماً قصّة ميسون فقال: إنَّ بعضَ الخُلَفاء تزوَّج بنتاً منْ بناتِ الأعرابِ ، ونقلَها منَ الباديةِ إلى قَصْر على شاطىء دجلة ، فتغيَّر عليها الحالُ ، وكانتْ تحنُّ إلى ما نشأتْ عليه ، فبنى لها هذا القَصْر ، وأمَرَ بالإبلِ والغَنَم أنْ تحلبَ بكرةً وعشيةً على باب قَصْرها في البريّةِ ، فأنِسَتْ بعضَ الأُنْسِ ، فدخلَ عليها الخليفةُ يوماً وهي تبكي وتقولُ:

وما ذنْبُ أعرابيةٍ قَذَفَتْ بها ... صروفُ النَّوى من حيثُ لم تَكُ ظنَّتِ
تمنَّتْ أحاليبَ الرُّعاةِ وخيمةً ... بنَجْدٍ فلم يُقْضَ لها ما تمنَّتِ
إذا ذكَرَتْ ماءَ العُذيبِ وطيْبِهِ ... وبَرْدَ حَصَاهُ آخر الليل حنَّتِ
لها أنَّةٌ عند العِشَاء وأنَّةٌ ... سُحيراً ولولا أنَّاتُها لحنَّتِ

فذُكِرَ أنَّه قالَ لها: الحقي بأَهْلِكِ بكلِّ ما مَعَكِ ، فسُرَّتْ بذلك ولحقتْ بأهلِها[2].

* هذا ونفحاتُ الشَّاعراتِ العربيّاتِ تملأُ الصَّفحاتِ في هذا المجالِ ، ومنْ أجمل ما قيلَ في الحنين إلى مَرابعِ الصِّبا ومراتعِ الشَّباب ، ما جاءَ عن عُليةَ بنْتِ المهدي[3] بأنَّ أخَاها هارون الرشيد قد خرجَ بها إلى الرّي ، فلما كان بمرجِ القَلْعَةِ اشتاقتْ إلى أرضِ العراقِ ، فأَنْشدتْ قائلةً:

---

(١) خزانة الأدب (٥/ ٥٩٢) ، وروى الكلبي قال: لما زفت ميسون بنت بحدل من بادية كلب إلى معاوية وهو بريف الشام ، ثقل عليها الغربة ، والبعد عن قومها ، فسمعها ذات ليلة تقول هذه الأبيات ، فقال: أنا والله العلج ، وازداد بها عجباً ، وإليها ميلاً.

(٢) انظر: محاضرةَ الأبرار ومسامرةَ الأخيار لابن عربي (٢/ ٧٠).

(٣) اقرأ سيرةَ عُلية بنت المهدي في هذا الكتاب.

ومغْتَربٍ بالمرج يبكي لشَجْوه   وقد غابَ عنه المُسعدونَ على الحُبّ
إذا ما أتاهُ الرّكبُ من نحو أرضهِ   تنشّق يستشفي برائحةِ الحبّ

فعلمَ الرشيدُ أنَّها حنَّتْ إلى العراقِ وأهلها فأمَر بردّها إلى هناك[1].

* وقالتْ وجيهةُ بنتُ أوس الضبية تتشوّقُ وتحنُّ إلى أرضها وعشيرتها:

وعَاذِلةٍ هبَّتْ بلَيْلٍ تلومُني   على الشَّوق لم تمحُ الصَّبابةَ منْ قَلْبي
فما لي إنْ أحبَبْتُ أرضَ عشيرتي   وأبغَضْتُ طرفاءَ القصيبة منْ ذَنْب[2]
فلو أنَّ ريحاً بلَّغَتْ وحْيَ مرسَلٍ   حفيٍّ لناجيتُ الجنوبَ على النَّقب[3]
وقُلْتُ لها أدّي إليهم تحيَّتي   ولا تخلطيها طالَ سَعْدك بالتُّرب[4]

* وقالتْ سالمةُ الكلبيّةُ في هذا المجالِ أيضاً:

ألا لا تلُوماني على الشَّوقِ وانْظُرا   إلى العُجْم يبدينَ الصَّبابَة من قَلْبي
لقد هَاجَ لي شوقاً وغالَ صبابةً   حنينُ قُلوصي حيثُ حنَّتْ بذي الأثل[5]

* لم يكنِ الحنينُ مقصوراً على النّساء، بل إن هناك عند الشعراء رقائق من أنسام الشعر ترطب النفوس، ومنها قول عروة بن جافي العجلاني:

أحنُّ إلى أرضِ الحجازِ وحاجَتي   بنجدٍ بلادٌ دونَها الطَّرفُ يقْصُرُ
وما نظري منْ نحو نَجْدِ بنافعي   أجلْ لا ولكنّي على ذاك أنظرُ
أفي كلِّ يومٍ نظرةٌ ثم عبرةٌ   لِعَيْنك حتى ماؤُها يتحدَّرُ
متى يستريحُ القَلْبُ إمّا مُجاوِرٌ   حَزينٌ وإمّا نَازحٌ يَتَذَكَّرُ[6]

---

(١) انظر: الحماسة البصرية (٢/ ٥٧٩) قطعة رقم (٩٥٥).
(٢) «القصيبة»: مكان قريب من خيبر.
(٣) «ناجيت»: أي أخبرت، و«الحفي»: المبالغ في السؤال، المظهر الاهتمام، و«الجنوب»: أراد ريح الجنوب وهي تهب من قبل اليمن، وقلما تسري بالليل وهي مباركة. و«النقب»: الطريق في الجبل.
(٤) الحماسة البصرية (٢/ ٦٠٧).
(٥) «القلوص»: الناقة الشابة. «ذو الأثل»: موضع في بلاد تيم الله بن ثعلبة.
(٦) الحماسة البصرية (٢/ ٥٧٨).

وَدَاعاً مَيْسون:

* بعد أنْ خرجتْ ميسونُ بنتُ بحدل من قَصر معاوية، لم تَعُدْ أخبارُها تخرجُ إلى عالم النّساء، وكادَتْ أخبارُها تتلاشى مع رياحِ خيمتها التي عاشَتْ فيها، ولكنّا نلمحُ بعضَ المتفرّقات والشَّذرات من أخبارِها، وهي أقربُ إلى الطَّرافة منها إلى الحقيقةِ، من ذلك ما رواهُ ابنُ حبيبٍ قال: كان معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ قد طلَّقَ ميسون، فأتاه محمدُ بنُ حاطب الجمحيّ ـ وكان أحمق ـ، فقال له معاوية: ما حاجتُك يا بنَ حاطب؟[1]

قال: جئْتُ خَاطِباً.

قال معاويةُ: ومَنْ ذكرتَ؟

قال: ميسونُ بنْتُ بحدلَ أمّ يزيد.

فسكتَ معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ.

فقال محمّد بنُ حاطب: ما تقولُ يا أميرَ المؤمنين في هذا؟

قال: أقولُ: إنَّك حمار.

فخرجَ من عنده، فما زالَ يقول: قال: إنّك حمار، قالَ: إنّك..... حتى دخلَ منزله.

* ويسكتُ التَّاريخُ عن ميسونَ، فلم يَعُدْ يحدثنا بشيْء عن أخبارِها.

* ويظهرُ أنَّ ميسونَ قد عاشَتْ مدَّة في خلافةِ زوجها معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ، وتروي بعضُ المصادرِ أنَّها توفيت في خلافةِ زوجها معاوية، بينما أشارتْ بعضُ الكتبِ إلى أنَّها ماتَتْ في خلافةِ ابنها يزيد، وبعضُهم جَعَلَ حياتَها تمتدُّ إلى نحو سنة (٨٠هـ)[2].

---

(١) انظر: المنمق في أخبار قريش (ص ٣٩٠ و٣٩١) بتصرف يسير.
(٢) الروضة الفيحاء (ص ٢٦١).

* ولا نعلمُ بالتَّحديد أينَ مكان وفاتها ، فلم تُـفْصِحِ المصادر عن ذلك ، ولم نَجِدْ فيما بين أيدينا منْ مصادرَ مَنْ أشارَ إلى مكان وفاتها .

* وبعد فهذه ميسونُ ابنة بحدل الكلبيّة ، إحدى نساء العرب الكريمات ، اللواتي عشْنَ في القُصور حياة النَّعيم ، إلا أنَّ هذه الحياة لم تَرُقْ لها ، ولم تغيّـرْ من حُـبِّها حياة البداوةِ ، ففضَّلَتْ أنْ تعودَ إلى خيمتها ولكنّها سجَّلَتْ أجملَ الآثار في دُنيا النّساء . فرحمَ اللهُ ميسون ، وجعلَها مع زوجها معاويةَ في جنَّـات وعيون .

* * *

فهرس المصادر والمراجع[1]

١ ـ **القرآن الكريم.**
٢ ـ **الصَّحيحان: [البخاري ومسلم].**
٣ ـ **كُتُب السُّنَن.**
٤ ـ **كُتُب المَسَانيد.**
٥ ـ **كُتُب التَّفْسير بأنواعها.**
٦ ـ **اتّجاهات الشِّعر العربيّ في القرن الثّاني الهجريّ**: د. محمّد مصطفى هدارة ـ دار المعَارف ـ مصْر ـ ١٩٧٨م.
٧ ـ **آثارُ البلادِ وأخبارُ العِباد**: للقزوينيّ ـ دار بيروت للطّباعة والنَّشر ـ بيروت ـ ١٩٧٩م.
٨ ـ **الأخبارُ الموفّقيّات**: للزُّبير بن بكَّار ـ تحقيق د. سامي مكي العاني ـ بغداد ـ ١٩٧٢م.
٩ ـ **أسَاسُ البلاغَةِ**: للزَّمخشَري ـ دار الفِكْر ـ بيروت ـ ١٤١٥هـ.
١٠ ـ **الاستيعابُ بهامشِ الإصابة**: لابن عبد البرّ ـ تحقيق د. طه محمّد الزّيني ـ مكتبة ابن تيميّة ـ القاهرة ـ ١٤١١هـ. وطبعة بيروت المصوَّرة.

(١) عدنا في هذه الموسوعة المباركة إلى مئات من المصادر والمراجع، وإلى مئات المجلات والمقالات والأبحاث، بالإضافة إلى عشرات من دواوين الشعر القديم والمعاصر؛ وسنكتفي بتسجيل أهم المصادر في هذا الفهرس، أما الباقي فمنثور بين ثنايا الكتاب.

١١ ـ **أسدُ الغابة في معرفةِ الصَّحابة**: لابنِ الأثير ـ طبعة دارِ الفكر المصوّرة عن طبعة دار الشَّعْب بمصْر.
١٢ ـ **الاشتِقَاقُ**: لابن دُريد ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٥٨م.
١٣ ـ **أشعارُ أولادِ الخُلَفاء**: للصّولي ـ نشر هيورث رن ـ ١٩٣٥م.
١٤ ـ **أشعارُ النِّساء**: للمرزبانيّ ـ تحقيق د. سامي مكي العاني وهلال ناجي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط١ ١٩٩٥م.
١٥ ـ **الإصَابةُ في تمييز الصَّحابة**: لابن حجر العَسْقَلاني ـ تحقيق د. طه محمّد الزّينيّ ـ مكتبة ابن تيميّة ـ القَاهِرة ـ ١٤١١هـ.
١٦ ـ **الأعْلامُ**: للزِّرْكليّ ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط٨ ـ ١٩٨٤م وطبعة مصوَّرة في عشْرةِ أجزاء.
١٧ ـ **إعْلامُ النَّاسِ فيما جرى للبرامكةِ مع بني العبّاس**: لدياب الأتليديّ ـ دار صادر ـ بيروت. وطبعة مصر.
١٨ ـ **أعلامُ النِّساء**: لعمر رضا كحّالة ـ مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط٩ ـ ١٩٨٩م.
١٩ ـ **الأعمالُ الشِّعرية الكاملة**: لنزار قبّاني ـ منشورات نزار قبّاني ـ بيروت ـ ط١٠ ـ أيّار ١٩٨٠م.
٢٠ ـ **الأغَاني**: لأبي الفرج الأصبهانيّ ـ تحقيق جماعة من الأساتذة ـ دار الكُتُب العلميّة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٢م. وطبعات أخرى متنوعة.
٢١ ـ **ألفُ ليلة وليلة**: طبعات مختلفة مصرية ولبنانية.
٢٢ ـ **الأمالي**: لأبي علي القاليّ ـ مصر ـ ط٣ ـ ١٩٥٣م ـ وطبعة مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت.
٢٣ ـ **أمالي المُرتضى (غررُ الفوائدِ ودررُ القَلائد)** للشَّريف المرتضى ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكُتُب العربيّة ـ القاهرة ـ ١٩٥٤م.
٢٤ ـ **الإمتاعُ والمؤانسة**: لأبي حيّان التَّوحيدي ـ تحقيق أحمد أمين ورفيقَيه ـ مطبعة لجنة التَّأليف ـ مصر ـ ١٩٣٩م.

٢٥ ـ **الأمراضُ الشَّـائعة**: د. محيي الدِّين طالو العلبي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٨٩م.

٢٦ ـ **أنسابُ الأشْراف**: للبلاذري ـ أجزاء متعددة ـ تحقيق عدد من الأساتذة ـ طبعات ودُور مختلفة.

٢٧ ـ **أيّـامُ العربِ في الجاهليّـة**: لمحمّد أحمد جاد المولى ورفيقيه ـ طبعة مصوّرة عن طبعةِ مصر عام ١٩٤٢م.

٢٨ ـ **بـدائـعُ البَـدَائِـه**: لابن ظافر الأزديّ ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٧٠م.

٢٩ ـ **البـدايَــةُ والنِّـهـايـة**: لابن كثير ـ دار الفِكْر ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت ـ ١٩٧٨م.

٣٠ ـ **البصائِرُ والذَّخَائِر**: لأبي حيّان التَّوحيدي ـ تحقيق د. وداد القاضي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٤٠٨هـ.

٣١ ـ **بغدادُ في الشِّعر العربيّ**: لجمالِ الدّين الآلوسيّ ـ مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ ـ ١٩٨٧م.

٣٢ ـ **بلاغَاتُ النِّساء**: لابن طيفور الخراسانيّ ـ صحّحه وشرحه ـ أحمد الألفيّ ـ مطبعة والدة عبّاس الأوَّل ـ القَاهِرة ـ ١٩٠٨م. وطبعة مكتبة السُّنْدس بالكويت ـ تحقيق محمّد طاهر الزَّين ـ ١٩٩٣م.

٣٣ ـ **البُلْدان**: لابن الفَقيه ـ تحقيق ـ يُوسُف الهَادي ـ عالم الكُتب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.

٣٤ ـ **بلوغُ الأَربِ**: للآلوسيّ ـ تحقيق محمّد بهجة الأثريّ ـ المطبعة الرّحمانية ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٢٤م.

٣٥ ـ **بناتُ الصَّحابة**: لأَحْمدَ بنِ خليل جُمُعة الحرستانيّ الدِّمشقيّ ـ دار اليَمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٩م.

٣٦ ـ **بهجةُ المَجالسِ وأُنْسُ المُجالس**: لابن عبد البرّ ـ تحقيق محمّد مرسي الخوليّ ـ دار الكُتُب العلمية ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٣٧ ـ **البَيَانُ والتَّبيين**: لأبي عثمان الجاحِظ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ مطبعة لجنة التّأليف والتَّرجمة والنَّشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٩م.

٣٨ ـ **تاجُ العروس منْ جواهرِ القاموس**: للزَّبيدي ـ المطبعة الخيريّة ـ مصْر ـ ١٣٠٦هـ.

٣٩ ـ **تاريخُ آداب العرب**: للرافعي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٧٦م.

٤٠ ـ **تاريخُ الأَدَب العربيّ**: لبروكلمان ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٢م.

٤١ ـ **تاريخُ الأدب العربي**: لبلاشير ـ ترجمة د. إبراهيم الكيلاني ـ دار الفكر ـ دمشق.

٤٢ ـ **تاريخُ الأدبِ العربيّ**: لعمر فروخ ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط٤ ـ ١٩٨١م.

٤٣ ـ **تاريخُ الإسلامِ**: لحسن إبراهيم حسن ـ دار الجيل ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٤٤ ـ **تاريخُ الإسلامِ ووفيَات المشاهير والأعْلام**: للذَّهبي ـ تحقيق د. عمر تدمريّ ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٧ وما بعدها.

٤٥ ـ **تاريخُ الأُمَم والمُلوك**: للطبريّ ـ دار الكُتُب العلمية ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٨م. وطبعة دار المعارف؛ وطبعة دار الفكر.

٤٦ ـ **تاريخُ بَغْداد**: للخطيب البغداديّ ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٤٧ ـ **تاريخُ القُضَاعي**: للقضاعيّ ـ طبعة جامعة أمّ القرى ـ مكّة المكرّمة ـ ١٤١٥هـ.

٤٨ ـ **تاريخُ مدينةِ دمشقَ**: لابنِ عسَاكر (تراجم النِّساء) ـ تحقيق سكينة الشّهابي ـ دار الفكْر ـ دمشق ـ طبعة مصوَّرة دون تاريخ.

٤٩ ـ **تاريخُ مكَّة**: للأزرقيّ ـ تحقيق جماعة منَ الأساتذة ـ المكتبة التّجارية ـ مكّة المُكَرّمة ـ الشّامية ـ ط١ ـ ١٩٩٥م.

٥٠ ـ **تاريخُ اليعقوبي**: لأحمد بن أبي يعقوب ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٠م.

٥١ ـ **تحفـةُ العـروس ومتْـعَـةُ النُّـفوس**: للتّجاني ـ تحقيق جليل العطيّة. دار الرّيس ـ لندن ـ وقبرص ـ ط١ ـ ١٩٩٢م.
٥٢ ـ **التّذكرةُ الحمدونيّة**: للحمدوني ـ تحقيق د. إحسان عبّاس و بكر عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٨.
٥٣ ـ **تراجم إسلامية**: لمحمّد عبد الله عنان ـ مصر ـ ١٩٥٣م.
٥٤ ـ **التَّطوُّر والتَّجديد في الشِّعْر الأمويّ**: للدكتور شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصْر ـ ط٢ ـ ١٩٥٩م.
٥٥ ـ **تطوّرُ الغَزَلِ بينَ الجاهلية والإسلام**: للدّكتور شكري فَيْصَل ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط٥ ـ دون تاريخ.
٥٦ ـ **تهذيبُ الأسْماء واللغات**: للنّووي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.
٥٧ ـ **تهذيبُ كتابِ لُطْف التَّدبير في سياسات الملوك**: لمحمّد بن عبدِ الله الخطيب الإسكافي ـ المكتبة المكيّة ـ مكّة المكرمة ـ ط٣ ـ ١٩٩٣م.
٥٨ ـ **الثُّريا**: لكمال بسيوني ـ دار المعارف ـ سلسلة اقرأ ـ عدد رقم ١٨٣ ـ مصر ١٩٥٨م.
٥٩ ـ **ثمارُ القلوبِ في المُضاف والمنسوب**: للثَّعالبيّ ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ دار نهضة مصْر ـ ١٩٦٥م.
٦٠ ـ **ثمراتُ الأوْراق بهامشِ المُستطرف**: للحموي ـ طبعةُ دار الفكْرِ المصوّرة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٦١ ـ **الجليسُ الصَّالح الكافي والأنيسُ النَّاصح الشَّافي**: للنَّهرواني ـ تحقيق د. محمّد مرسي الخولي و د. إحسان عبّاس ـ عالم الكُتب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣م.
٦٢ ـ **جمهرةُ أَنْساب العرب**: لابن حزم الأندلسيّ ـ تحقيق عبد السّلام محمد هارون ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٥ ـ دون تاريخ.
٦٣ ـ **حبُّ ابن أبي ربيعة وشعرُه**: للدّكتور زكي مبارك ـ المكتبة التّجارية الكبرى ـ مصْر ـ ط٣ ـ دون تاريخ.

٦٤ ـ **الحدائقُ الغنَّاء في أخبار النِّساء**: لأبي الحسن المعافريّ الحالقيّ ـ تحقيق د. عائدة الطِّيبي ـ الدَّارُ العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تُونُس ـ ط١ ـ ١٩٧٨م.
٦٥ ـ **حليةُ الأولياء وطبقاتُ الأصفياء**: لأبي نُعيم الأصبهاني ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٦٧م.
٦٦ ـ **الحماسَةُ**: لأبي تمام ـ تحقيق د. عبد الله عُسَيلان ـ جامعة محمّد بن سعود الإسلاميّة ـ الرِّياض. وطبعةُ القاهرة.
٦٧ ـ **الحماسةُ**: للبُحْتري ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت ـ ١٩٨٠م.
٦٨ ـ **الحماسةُ البصريّة**: لعلي بن أبي الفرج البصريّ ـ تحقيق د. عادل سُليمان جمال ـ القاهرة ـ لجنة إحياء التُّراث الإسلاميّ. ١٩٨٧م.
٦٩ ـ **حياةُ الحيوانِ الكُبرى**: للدّميري ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ القاهرة ـ ط٤ ـ ١٩٦٩م.
٧٠ ـ **الحيوانُ**: لأبي عثمان الجاحظ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٦٥م.
٧١ ـ **خزانةُ الأدب**: للبغدادي ـ المطبعة المنيرية ـ بُولاق ـ القاهرة ـ ١٢٩٩هـ.
٧٢ ـ **الخُطط التّوفيقيّة**: لعلي مبارك ـ الهيئة المصريّة للكتاب ـ ١٩٨٦م ـ ط ٢ ـ عن طبعةِ بولاق سنة ١٣٠٥هـ.
٧٣ ـ **الدُّرر الكامنة**: لابن حجر ـ طبعة مصوّرة دون تاريخ أو اسم دار.
٧٤ ـ **الدُّرُّ المنثور في طبقات ربّات الخُدور**: لزينب بنت يُوسُف فواز العامليّة ـ طبعةٌ مصورة ـ مكتبة ابن قُتيبة ـ الكويت.
٧٥ ـ **الدّليل الشَّافي على المنهلِ الصَّافي**: لابن تغري بردي ـ تحقيق فهيم محمد شلتوت ـ جامعة أم القرى ـ مكة ـ ١٩٧٥م.
٧٦ ـ **الدِّيارات**: للشَّابشتي ـ تحقيق كُوركيس عوّاد ـ مكتبة المثنّى ـ بغداد ـ ط٢ ـ ١٩٦٦م.

٧٧ـ **ديـوانُ ابـن الـرُّومـي**: لابنِ الرّومي ـ تحقيق د. حُسين نصَّار ـ مصر ـ ١٩٧٦م.
٧٨ـ **ديوان أبي فِراس الحَمْداني**: لأبي فِراس ـ تحقيق د. يوسُف شكري فرحات ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣م.
٧٩ـ **ديوان أبي نُوَاس**: لأبي نواس ـ عدّة طبعات مختلفة.
٨٠ ـ **ديوان الأخْطل**: للأخطل ـ شرح راجي الأسمر ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٢م.
٨١ـ **ديوان حسَّان بن ثابت**: لحسّان ـ تحقيق د. سيّد حنفي حُسين ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٤م. وطبعة دار صادر ببيروت.
٨٢ـ **ديوان الخِرْنق بنت بدر**: للخِرْنِق ـ تحقيق د. حُسين نصَّار ـ مطبعة دار الكتب ـ مصر ـ ١٩٦٩م. وطبعة دار صادر ببيروت.
٨٣ـ **ديوانُ الخَنْساء**: للخَنْساء ـ تحقيق د. إبراهيم عوضَيْن ـ مصْر. وطبعة بيروت وغيرها كثير.
٨٤ـ **ديوانُ عُبيد الله بن قيس الرقيّات**: لعُبيد الله ـ تحقيق د. محمّد يوسُف نَجْم ـ بيروت ـ ١٩٥٨م.
٨٥ـ **ديوانُ عمر بن أبي ربيعة**: لعمر ـ تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ـ مصْر ـ ط٣ ـ ١٩٥٣م. وطبعات أخرى متنوِّعة.
٨٦ـ **ديوان عُليّة بنت المهدي**: لعُليّة ـ تحقيق د. سعدي ضناوي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٨م.
٨٧ـ **ديوانُ المتنبّي**: للمُتَنبي ـ طبعات مختلفة.
٨٨ـ **الذَّخائر والتُّحَف**. طبعة الكويت.
٨٩ـ **الذَّخيرةُ في محاسنِ أهْلِ الجزيرة**: لابن بسَّام: دار الثقافة ـ بيروت ـ طبعة مصورة عن طبعة تونس بتحقيق إحسان عباس.
٩٠ـ **رجالٌ مُبَشَّرون بالجنَّة**: لأحمد بنِ خليل جُمُعَة الحرستاني الدّمشقي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٤ ـ ١٩٩٩م.

٩١ ـ **رسائلُ الجاحِظ**: للجاحظِ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

٩٢ ـ **الـرِّقَّـةُ والبُـكاء**: لابن قدامة المَقْدسيّ ـ تحقيق محمّد خير يوسُف ـ دار القلم ـ دمشق.

٩٣ ـ **الرَّوضَة الفَيحاء في تواريخ النّساء**: لياسين العُمري ـ تحقيق د. رجاء محمود السّامرائي ـ الدّارُ العربيّة للموسوعات ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٧م.

٩٤ ـ **زهرُ الآداب وثمرُ الألباب**: للحُصَريّ ـ تحقيق محمّد علي البجاوي ـ دارُ إحياء الكُتُب العربيّة ـ القاهِرة ـ ط١ ـ ١٩٥٣م.

٩٥ ـ **سرحُ العُيون في شرحِ رسالةِ ابن زيدون**: لابن نباتة المصري ـ تحقيق محمّد أبو الفَضْل إبراهيم ـ تصوير المكتبة العصرية ـ صيدا ـ لبنان ـ ١٤٠٦هـ.

٩٦ ـ **سمطُ اللآلي في شَرْح أمالي القالي**: لأبي عُبيد البكريّ ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التّاليف والتّرجمة والنَّشر ـ مصْر ـ ١٣٥٤هـ.

٩٧ ـ **سيِّداتُ البلاطِ العبّاسي**: للدّكتور مصطفى جَوَاد ـ دار الفكر للجميع ـ بيروت ـ طبعة مصوَّرة دون تاريخ.

٩٨ ـ **سيرُ أعْلام النُّبلاء**: للذَّهبي ـ تحقيق جماعة منَ العلماء والأفاضل ـ مؤسَّسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٥م.

٩٩ ـ **سيرةُ عمر بن عبد العزيز**: لابن عبد الحكم ـ طبعة مصوَّرة.

١٠٠ ـ **السِّيرةُ النَّبويّة**: لابن هشام ـ تحقيق السَّقا ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ مصْر ـ ط٢ ـ ١٩٥٥م. وطبعات أخرى متنوّعة.

١٠١ ـ **شاعراتُ العَرب**: جَمْع وتحقيق عبد البديع صَقْر ـ المكتب الإسلاميّ ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٦٧م.

١٠٢ ـ **شذراتُ الذَّهب في أخبار مَنْ ذَهب**: لابن العماد الحنْبَلي ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.

١٠٣ ـ **شرحُ ديوان الهذليّين**: للسُّكَّري تحقيق عبد السَّتار أحمد فراج ـ ومراجعة محمود محمد شاكر ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة دون تاريخ.

١٠٤ ـ **شرحُ المعلَّقات السبع**: للزَّوزني ـ تحقيق يُوسف بن علي بديوي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٩م. وطبعة دار الكُتُب العلمية ببيروت.

١٠٥ ـ **شرحُ مَقَاماتِ الحريري**: للشَّريشي ـ تحقيق محمّد أبو الفَضْل إبراهيم ـ تصوير المكتبة العصرّية ـ صيدا ـ لبنان ـ ١٩٩٢م، وطبعة دار الكُتُب العلمية المصوّرة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٣٩٩هـ.

١٠٦ ـ **شعرُ الدّكتورة عاتكة الخزرجيّ**: لعاتكة الخزرجي ـ المجموعة الشِّعرية الكاملة مع المسرحية ـ مطبعة حكومة الكُويت ـ ١٩٨٦م ـ بالإضافة إلى دراساتٍ أخرى عن أدبِ المرأةِ العراقية.

١٠٧ ـ **الشِّعْرُ والشُّعراء**: لابن قُتيبة ـ تحقيق وشَرح أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٦م.

١٠٨ ـ **الشِّعْرُ والغِناءُ في المدينةِ ومكّةَ**: للدّكتور شوقي ضَيْف ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٤ ـ دون تاريخ.

١٠٩ ـ **الطَّبقاتُ الكُبرى**: لابن سعْد ـ تحقيق إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١١٠ ـ **عائشةُ بنتُ طَلْحة**: لكمال بسيوني ـ سلسلة اقرأ ـ رقم ١٤٠ ـ دار المعارف ـ مصر.

١١١ ـ **العَصْرُ الذّهبيّ للدَّولة العبّاسيّة**: للدّكتور محمّد السَّيِّد الوكيل ـ دار القَلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٨م.

١١٢ ـ **العقْدُ الفَريد**: لابن عبد ربّه ـ تحقيق أحمد أمين ورفاقه ـ لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٦٢م ـ وطبعة محمّد سعيد العريان ١٩٤٨م.

١١٣ ـ **عمرُ بنُ أبي ربيعة زعيمُ الغَزَلِ العربي**: لمحمود حسن أبو ناجي ـ دار الشُّروق ـ جدة ـ ١٣٩٩هـ.

١١٤ ـ **عمرُ بن أبي ربيعة ـ عَصْرُه ، حياتُه ، حبُّه وشعره**: للدّكتور جبرائيل جبور ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٩م.
١١٥ ـ **عيونُ الأثرِ في فُنون المغَازي والسِّيَر**: لابن سيِّد النَّاس ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٢م ـ وطبعةُ دار ابن كثير بدمشق.
١١٦ ـ **عيونُ الأخْبار**: لابنِ قُتَيبة ـ مصوَّرة عَنْ دارِ الكتب ـ مصْرَ ـ ١٩٦٣م.
١١٧ ـ **عيونُ الأنْباء في طَبقات الأطباء**: لابن أبي أُصيبعة ـ شرح وتحقيق د. نزار رضا ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ ١٩٦٥م.
١١٨ ـ **الغَزَلُ عنْدَ العَرب**: لجان فاديه ـ ترجمة د. إبراهيم كيلاني ـ منشورات وزارة الثَّقافة ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٨٥م.
١١٩ ـ **الفَرَجُ بعد الشِّدّة**: للتّنوخي ـ تحقيق عبود الشَّالجي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٨٧م.
١٢٠ ـ **فُرسَان منْ عَصْر النُّبوة**: لأحْمَد بن خليل جُمُعة الحرستاني الدّمشقي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٩م.
١٢١ ـ **فَواتُ الوفيات**: لابن شاكر الكُتبيّ ـ تحقيق محيي الدِّيْن عبد الحميد ـ مكتبة النَّهضة المصريّة ـ القاهرة ـ ١٩٥١م. وطبعة دار صادر ببيروت بتحقيق د. إحسان عبّاس ـ ١٩٧٣م.
١٢٢ ـ **القاموسُ المُحيط**: للفيروز أبادي ـ مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٧م.
١٢٣ ـ **قَصَصُ العَرب**: لمحمّد أحمد جاد المولى ورفاقه ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ القاهرة ـ ١٩٥٦م.
١٢٤ ـ **قَطْرُ النَّدى**: لمحمد سعيد العريان ـ دار المعارف ـ سلْسلة اقرأ ـ رقم ٣٠.
١٢٥ ـ **قُطوفُ الرّيحان من زَهْر الأفْنان شرحُ حديقةِ ابن الونّان**: لأحمد السَّلاوي ـ بقلم أحمد بن محمد الأمين الجكني ـ النَّاشر عبد الله محمّد مصطفى باب الشَّنقيطي ـ ط١ ـ ١٩٩٣م ـ توزيع دار روضة الصَّغير بالرياض.

١٢٦ ـ **الكاملُ في التَّاريخ**: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٢٧ ـ **الكامِلُ في اللغة والأدب**: للمبرد ـ تحقيق محمد أحمد الدالي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.
١٢٨ ـ **كشْفُ الظُّنون عن أسامي الكُتُب والفُنون**: لحاجي خليفة ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.
١٢٩ ـ **الكنايةُ والتَّعريض**: للثَّعالبي ـ طبعة مصوّرة دون اسم دار أو تاريخ.
١٣٠ ـ **الكواكبُ السَّائرةُ في أعيانِ المئة العَاشِرة**: للغزيّ ـ حقَّقه وضبط نصه جبرائيل جبُّور ـ دار الفِكْر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٣١ ـ **لسانَ العرب**: لابنِ منظور ـ دار صَادِر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠.
١٣٢ ـ **ليلى العفيفة**: لعادل الغَضْبان ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٣ ـ سلسلة اقرأ ـ رقم ١٣٥.
١٣٣ ـ **المبشَّرون بالنَّار**: لأحمد بنِ خَليل جُمُعة الحرستاني الدّمشقي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٩م.
١٣٤ ـ **مجمعُ الأمْثال**: للميدانيّ ـ تحقيق محمّد محيي الدِّين عبد الحميد ـ مطبعة السُّنَّة المحمديّة ـ القاهرة ـ ١٩٥٥م؛ وطبعة أخرى بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ دون تاريخ، وطبعاتٌ أخرى.
١٣٥ ـ **مجملُ اللغة**: لابنِ فارس ـ تحقيق شهاب الدِّيْن أبو عمرو ـ دار الفِكْر ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.
١٣٦ ـ **المحاسنُ والأضْداد**: للجاحِظِ ـ تحقيق محمّد سُويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١م. وطبعات أخرى متنوّعة.
١٣٧ ـ **المحاسنُ والمساوىء**: للبيهقي ـ تحقيق محمّد سويد ـ دار إحياء العُلوم ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٨م. وطبعة دار صادر ـ ١٩٦٠ و١٩٧٠م.
١٣٨ ـ **محاضرةُ الأَبْـرارِ ومُسَامرة الأخْيـار**: لابنِ العربي ـ دار اليقظة العربيّة ـ دمشق ـ ١٩٦٨م.

١٣٩ ـ **محاضراتُ الأدباءِ ومحاوراتُ الشّعراء والبُلغاء**: للرّاغب الأصفهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ دون تاريخ .
١٤٠ ـ **المحبَّرُ**: لابن حبيب ـ رواية السُّكْري ـ صحَّحه الدّكْتُورة إيلزه ليختن شتيتر ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ دون تاريخ .
١٤١ ـ **المحمّدون منَ الشُّعراء**: للقفطي ـ تحقيق حسن معمري ـ دار اليمامة ـ الرياض ـ ١٩٧٠م . وطبعة دار ابن كثير بدمشق .
١٤٢ ـ **المختارُ منْ نوادِرِ الأخبار**: للمقَّري الأنباري ـ المكتبة العصريّة ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٩٩٤م .
١٤٣ ـ **مختصرُ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر**: للإمامِ ابن منظور ـ تحقيق عدد منَ الأساتذة ـ دار الفكْر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٠م .
١٤٤ ـ **المرأةُ في الشِّعر الجاهليّ**: للدّكتور أحمد الحوفي ـ دار نهضة مصْر ـ القاهرة ـ ط٣ ـ ١٩٨٠ .
١٤٥ ـ **المرأةُ العربيّة في جاهليتها وإسلامها**: لعبد الله عفيفي ـ دار الرّائد العربي ـ بيروت .
١٤٦ ـ **مروجُ الذَّهب**: للمسعودي ـ تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ .
١٤٧ ـ **المُستجادُ من فعلاتِ الأَجْواد**: للتّنوخي ـ تحقيق محمّد كرد علي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٩٢م . مصوّرة عن طبعة المجمع العلميّ العربي بدمشق ١٩٤٦م .
١٤٨ ـ **المستطرف في كل فن مستظرف**: للأبشيهي ـ دار الفكر ـ طبعة مصورة ـ دون تاريخ .
١٤٩ ـ **المعارف**: لابن قتيبة ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٧٧م .
١٥٠ ـ **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**: لعبد الرحيم العباسي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ـ ١٩٤٧م .
١٥١ ـ **معجم الأدباء**: لياقوت الحموي ـ دار المأمون ـ القاهرة ـ ١٩٣٦م .

١٥٢ ـ **معجم الأديبات الشواعر**: للسمان الحموي ـ تحقيق أحمد يوسف الدقاق ـ دار الثقافة العربية ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.

١٥٣ ـ **معجم البلدان**: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٥٤ ـ **معجم ما استعجم**: للبكري الأندلسي ـ تحقيق مصطفى السقا ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٣م؛ مصورة عن طبعة القاهرة ١٩٤٥م.

١٥٥ ـ **معجم المقاييس في اللغة**: لابن فارس ـ تحقيق شهاب الدين أبو عمرو ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٨م.

١٥٦ ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**: لجواد علي ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٤١٣هـ.

١٥٧ ـ **المفضّليّـات**: للمفضّل الضّبيّ ـ تحقيق أحمد محمّد شاكر وعبد السّلام هارون ـ دار المعارف ـ مصْر ـ ط٧ ـ دون تاريخ.

١٥٨ ـ **مقدّمة ابن خلدون**: لابن خلدون ـ عدَّة طبعات مختلفة.

١٥٩ ـ **المنـازلُ والـدِّيـار**: لأسامةَ بنِ منقذ ـ تحقيق مصطفى حجازي ـ لجنة إحياء التّراث الإسلامي ـ القاهرة ـ ١٩٩٤م.

١٦٠ ـ **المنتظمُ في تاريخِ الأُممَ والملوك**: لابن الجوزي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.

١٦١ ـ **المنمّـقُ في أخْبارِ قُريش**: لابن حبيب ـ تحقيق خُورشيد أحمد فاروق ـ عالَم الكتب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥م.

١٦٢ ـ **المـوشّى (أو الظَّـرف والظُّـرفـاء)**: لأبي الطَّيِّب الوشَّاء ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٦٣ ـ **النُّجـوم الزَّاهـرة في ملـوك مصْـرَ والقـاهرة**: لابن تغري بردي ـ طبعةُ مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصرية.

١٦٤ ـ نزهـةُ **الجُلساء في أشعارِ النّساء**: للسّيوطي ـ تحقيق د. صلاح الدِّين المنجّد ـ بيروت ـ ١٩٥٨م. وطبعة مكتبة التّراث الإسلاميّ ـ تحقيق سَمير

حسن جَلبي ـ القاهرة ـ دون تاريخ ـ ودون الإشارة إلى طبعة.
١٦٥ ـ **نِساءٌ منَ الأندلُس والمشرق العربي**: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرستاني الدّمشقي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ٢٠٠٠ م.
١٦٦ ـ **نساءٌ منَ التّاريخ**: لأحمد بن خليل جمعة الحرستاني الدّمشقي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٧م.
١٦٧ ـ **نصيحةُ الملوك**: للماوردي ـ مُنْشَأةُ المعارف ـ الإسكندريّة، دون تاريخ.
١٦٨ ـ **نَفْح الطِّيب من غُصْنِ الأندلس الرّطيب**: للمقرّي التّلمساني ـ تحقيق محمد البقاعي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.
١٦٩ ـ **نهايةُ الأرب في فُنون الأدب**: للنويري ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ـ مصر ـ دون تاريخ.
١٧٠ ـ **نوادرُ المخطوطات**: تحقيق عبد السّلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٧٢م.
١٧١ ـ **نورُ الطَّرف ونورُ الظَّرف**: للحصري ـ تحقيق لينة أبو صالح ـ مؤسسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٦م.
١٧٢ ـ **الهفواتُ النّادرة**: لأبي الحسن الصّابي ـ تحقيق د. صالح الأشتر ـ دمشق ـ ١٩٦٧م.
١٧٣ ـ **وُلاةُ مصْرَ**: للكندي ـ تحقيق حسين نصار ـ دار صادر ـ بيروت.
١٧٤ ـ **الوافي بالوفيات**: للصّفدي ـ جمعية المستشرقين الألمانيين ـ مطابع مختلفة ـ (١٩٣١ ـ ١٩٨٤م).
١٧٥ ـ **الوزراء والكُتّاب**: للجهشياريّ ـ تحقيق مصطفى السّقا ورفاقه ـ القاهرة ـ ١٩٣٨م.
١٧٦ ـ **وفيات الأعْيان**: لابن خلّكان ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨م.

ومصادر أخرى كثيرة جداً



فهرس الموضوعات

صدر للمؤلف عن دار اليمامة

نساء أهل البيت	مجلد
نساء من التاريخ	مجلد
بنات الصحابة	مجلد
نساء في قصور الأمراء	مجلد
فرسان من عصر النبوة	مجلد
التقوى	جزء واحد (بالاشتراك)
الإحسان	جزء واحد
البشرى	جزء واحد
النجاة	جزء واحد
الفلاح	جزء واحد
الطاعة	جزء واحد
التوكل	جزء واحد
النفقات	جزء واحد (بالاشتراك)
العدل	جزء واحد (بالاشتراك)
نساء من الأندلس	مجلد